التَّعْلِيقَاتُ السُّنِّيَّه

عَلَى

كِتَابِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّه

تأليف

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الغُلَيْفِيِّ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مقدمة التعليق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، اللهم صل وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد، وعلىٰ أزواجه أمهات المؤمنين، وعلىٰ أصحابه الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد؛ فإن مفهوم الدولة الإسلامية، علىٰ أهميته، قد خفي علىٰ كثير من الدعاة وطلبة العلم، حتىٰ صار كثير منهم يظنون أن هذه الدول التي يعيشون في ظلها دولًا إسلامية، سواء أكانت تُحكم بشرع الله أم بحكم الطاغوت.

وأي دولة -أيًا كانت- لا تقوم علىٰ منهاج النبوة، فهي دولة باطلة، حتىٰ وإن ادعت أنها علىٰ الإسلام، أو أنها دولة التوحيد ودعوة الرسالة.

ولقد كانت أمة الإسلام في صدارة الأمم، وكانوا ملوك العالم علىٰ مر قرون متطاولة، لكن ذلك كان مشروطًا بتمسكها بشرع ربها وسنة نبيها، فعندما حادت عن منهج النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة من بعده في إقامة الدولة الإسلامية، ذلت، وأصبحت في ذيل الأمم؛ لأنها تخلفت عن أعظم أسباب النصر والقوة.

وأسباب القوة ليست منحصرة في الماديات فحسب، بل العقيدة والتوحيد والثبات علىٰ هذا المنهج النبوي- من أعظم أسباب القوة.

لذلك حرصنا في هذا الكتاب علىٰ بيان أسس قيام الدولة من المنظور النبوي، لا من المنظور الغربي أو الشرقي، بل تكلمنا عن منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة الدولة، كيف أقامها؟ وبم أقامها؟ هل أقامها بالمفاوضات وبالمؤتمرات، أم أقامها بالدعوة إلىٰ التوحيد وتحرير أصل الدين، وبالجهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ فالكتاب مستمد من منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة الدولة.

وقد سبقنا في هذا المضمار كثير من العلماء وطلبة العلم، حتىٰ صارت مؤلفاتهم وتحريراتهم بناء عظيمًا وصرحًا شامخًا، وما هذا الكتاب الذي بين يديك إلا لبنة صغيرة فيه، وحيث إننا ندعو إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا إلىٰ أنفسنا وجماعتنا وحزبنا؛ فإننا نفرح بمن يبني علىٰ هذه اللبنة ويقومُها؛ لما في ذلك من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، ونصرة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنحن نريد نصرة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا نصرة أنفسنا، نريد جماعة المسلمين، لا جماعتنا ولا حزبنا.

ونحن بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ننتمي إلىٰ أحزاب ولا إلىٰ جماعات، إلَّا إلىٰ أهل السنة والجماعة، الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، فالمسلم

ينتمي إلىٰ الإسلام، إلىٰ أهل السنة والجماعة، إلىٰ ما كان عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والصحابة الكرام، وإلىٰ هذا ننتمي. وبالله التوفيق.

ونسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يتقبله منا بقبول حسن، وأن يلهم القادة والدعاة وأهل العلم العملَ بما فيه من حق وصواب.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كَتَبَهُ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُلَيْفِيُّ

المتن:

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران:١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء:١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللـه، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

الشرح:

ننبه في بداية هذا التعليق علىٰ أمر مهم يكمُل به انتفاع طالب العلم بما يقرأ، وهو أن يتدبر ويتأمل فيما يقرأ، فإن ذلك يمكّنه من استخراج الأحكام العقدية والفقهية والفوائد العلمية.

ثم يحرص بعد ذلك علىٰ كتابة تلك الأحكام والفوائد، فإن القراءة سردًا من غير تدبر وتأمل تفوّت عليه كثيرًا من الفوائد العلمية.

فمثلا نحن نقول: «إن أصدق الحديث كتاب اللـه». نستخرج منها: أن هذا القرآن كلام اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن أفضل موعظة تعظ بها الناس هي كتاب اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه أحسن الكلام، فإن لم يؤثر في الناس كلام اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلن يؤثر فيهم شيء، ولو أثر فإنه يكون تأثيرًا مؤقتًا سرعان ما يزول، أما كلام اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يثبت في القلب، فتجد الرجل ثابتًا عند المحن والمصاعب والابتلاءات؛ لأنه تربىٰ علىٰ كلام اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك قولنا: «وأحسن الهدي هدي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ربما يقتدي بعض الناس بشخص ما، ولكن هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الهدي؛ لذلك عندما نقول: «هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة الدولة أحسن الهدي»، فكل ما خالف هديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو باطل.

قولنا بعد ذلك: «وشر الأمور محدثاتها». أي: شر الأمور كلِّها: البدع. ومن البدع أن تظن أن قيام الدولة يكون بغير هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: «وكل محدثة بدعة»؛ إذن، كل أمر محدث في قيام الدولة ليس علىٰ منهاج النبوة- بدعة، أي: شر وضلال، ولو ظن الناس أن فيه خيرا، وأن فيه حقنًا للدماء والأرواح والأعراض؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كل بدعة ضلالة»، إذن، لا توجد بدعة حسنة، بل كل بدعة ضلالة.

لذلك عندما تظن أن الجهاد والاستشهاد في سبيل الـله مفسدة، كما يظنه الآن المرجئة والمُخَذِّلون، الذين هم أبواق الطواغيت، يقولون: ماذا بعد أن قتلتم ألف يهودي، أو أسرتم ثلاثين يهوديًا؟ أنتم جررتم علىٰ الأمة الويلات...إلخ. انظر إلىٰ هذا التخذيل الذي يفت في عضد الأمة ممن يترأس الدعوة، ويُشَار إليه علىٰ أنه من أهل العلم! وهم يخدمون الطواغيت بذلك ليرسخوا منهجهم في إماتة الجهاد. فهو الآن سواء أكان يدري أم لا يدري، قد

أتىٰ بِشَرِّ الأمور، وهو يظن في نفسه أنه أتىٰ بخير الأمور، بحقن الدماء وحفظ الأعراض! نقول: لو كان خيرًا لكان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من فعله وقام به.

يستطيع الطالب بهذه الطريقة أن يستخرج الفوائد ويقيدها، ثم بعد ذلك يرجع إليها عندما يحتاج إليها. هذه قاعدة مهمة جدا في طلب العلم.

المتن:

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَقَامَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ، وَقَدْ أَقَامَهَا -صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- عَلَىٰ قَوَاعِدَ وَعَلَىٰ أُسُسٍ وَاضِحَةٍ مَعْلُومَةٍ، مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْعَدْلِ، وَالْمُؤَاخَاةِ، وَالدَّعْوَةِ، وَالْجِهَادِ؛ لِنَشْرِ التَّوْحِيدِ، وَتَمْكِينِ دِينِ اللـه فِي الْأَرْضِ، وَحِمَايَةِ الشَّرِيعَةِ.

الشرح:

الأسس التي أقام النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها الدولة، أسس واضحة، وقواعد ثابتة، منها:

الأساس الأول: التوحيد، فأي دولة إسلامية لا تقوم علىٰ التوحيد، فهي دولة لا تقوم لها قائمة أبدًا، والدول التي تقوم علىٰ الديمقراطية، وعلىٰ الانتخابات، وعلىٰ مثل هذه الأمور- لا تقوم لها قائمة؛ لأنها ليست علىٰ منهاج النبوة، ليس فيها توحيد، ليس فيها ولاء وبراء.

و «التوحيد»: هو إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، وإفراده بالخلق والأمر والتشريع والحاكمية؛ أما قول: لا إله إلا الله، مجردةً عن حقيقتها، وإن كان معها شيء من العبادات، كالصلاة، وإقامة جامعات لتدريس العلوم الشرعية، فهذا ليس توحيدًا.

الأساس الثاني: العدل، و«العدل» هو أساس إقامة الدولة واستمرارها. والظلم مؤذن بذهابها. و «العدل»: أن تنصف خصمك وعدوك من نفسك.

الأساس الثالث بعد التوحيد والعدل: المؤاخاة، أي: الأخوة الإيمانية، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخىٰ بين المهاجرين والأنصار، فالأخوّة الإيمانية التي زرعها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجرين والأنصار كانت أساسًا وأصلًا في قيام الدولة، بحيث إن الواحد منهم لم يكن يريد أن يستأثر بشيء دون أخيه، لذلك عرض سعد بن الربيع علىٰ عبد الرحمن بن عوف أن يناصفه أهله وماله! فقدَّم الأخوة الإيمانية علىٰ أخوة النسب وعلىٰ العرض والمال وغير ذلك.

فعندما تقاتل، وأخوك بجوارك، فأنت تدافع عن أخيك كما تدافع عن نفسك. هذه هي الأخوة التي جعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلًا في بناء الدولة، وقطع الطرق بهذه المؤاخاة علىٰ المنافقين الذين يحرشون بين المؤمنين.

يتبين من هذا أن الدعوة إلىٰ التوحيد، وإلىٰ العدل، وإلىٰ الأخوة الإيمانية فلا فضلَ لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأبيضَ علىٰ أسودَ، ولا لأسودَ علىٰ أبيضَ-: إلَّا بالتَّقوَىٰ- أصل من أصول قيام الدولة.

والدعوة إلىٰ التوحيد مقدَّمَة علىٰ القتال، فإذا صدّ صادّ عن الدعوة، جاء القتال. ولما منع المشركون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدعوة إلىٰ الله شُرِع الجهاد، فما شُرع الجهاد إلا لتمكين دعوة التوحيد في الأرض، فلولا صد المشركين عن دين الله لما شُرِع الجهاد.

وأما قول من يقول: أنتم تريدون القتال والدماء، فنقول: لا نريد هذا، إنما نريد تعبيد الناس لرب الناس، هذا الذي نريده، فإذا صدنا صاد عن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قاتلناه كما قاتل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين حين صدوه، وإن كان في القتال ذهاب الأنفس والأموال والإخوَة والأعمام، كل هذا كله في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالجهاد إنما شرع لنشر التوحيد إذا صد المشركون عن الدعوة إلىٰ دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولتمكين دين الله في الأرض، لكن إذا خلَّوْا بيننا وبين الدعوة إلىٰ التوحيد، سالمناهم ولم نبدأهم بقتال، وإنما نبدؤهم بالقتال إذا صدونا عن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحالوا بيننا وبين دعوة الناس إليه.

وشرع الجهاد كذلك لحماية الشريعة؛ لأن شرع الله هو النظام الذي به تستقيم أحوال الخلق، فإذا اختل هذا النظام بعدم الحامي له، وهو الجهاد، لانعدم القانون الملزم، وأدىٰ ذلك إلىٰ أن يعتدي عليهم المعتدون.

فهذه هي أصول الدعوة، وأصول الدولة: التوحيد، والعدل، والمؤاخاة، والدعوة، والجهاد لنشر التوحيد.

المتن:

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ دَوْلَةً إِسْلَامِيَّةً تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ، فَلْيُقِمْهَا عَلَىٰ الْأُسُسِ وَالْقَوَاعِدِ وَالْأُصُولِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي عَمِلَ بِهَا رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَدِينَةِ، وَلْيَلْتَزِمْ بِالْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ، وَمَرَاحِلِ الْقِيَامِ وَالتَّأْسِيسِ، وَلْيَسِرْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ زَمَنَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَتَمْكِينِ الدُّعَاةِ مِن نَشْرِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَإِرْسَالِ السُّفَرَاءِ وَالتُّجَّارِ إِلَىٰ الْبِلَادِ؛ لِتَعْرِيفِ النَّاسِ بِخَالِقِهِمْ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الله بِسُلُوكِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَبِقَدْرِ التَّمَسُّكِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ؛ تَكُونُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَاسْتِمْرَارُهَا، وَبِقَدْرِ الْبُعْدِ عَنِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ؛ يَكُونُ الضَّعْفُ وَالِانْهِيَارُ وَالسُّقُوطُ.

الشرح:

النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أقام هذه الدولة أقامها علىٰ منهج قويم، وتمسك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من بعده بهذا المنهج، فهذا المنهج صالح لكل زمان

ومكان، ليس خاصًا بمرحلة من المراحل، فلا يجوز أن ننساه ونأتي بالمناهج الأخرىٰ، نقول: هذا المنهج دائم بدوام الدولة، إن كنت تريد الدولة فأدم التمسك بهذا المنهج، وبقدر انحرافك عن هذا المنهج يحصل الضعف والانهيار.

ومن منهجه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة الدولة: الدعوة إلىٰ دين الله، وإرسال السفراء من أجل الدعوة.

نحن نريد الآن أن نقيم دولة في بلدٍ ما، ونخرج منها المحتل الكافر، ونأتي نحن بإخواننا، وبأهل التوحيد والجهاد، هل نقوم مرة واحدة، أم لا بد من أن يسبق هذه المرحلة مراحل أخرىٰ؟

الجواب: يسبقها مراحل، أهمها: إرسال السفراء، فلا بد أن نرسل من أهل العلم وطلاب العلم إلىٰ البلاد التي نريد أن نقيم فيها دولة تحكم بشرع الله، ليمهدوا الطريق للناس، ويفهموا الناس حقيقة دعوتنا.

هكذا فعل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يقيم دولة في المدينة، لم يقل: نحن نهاجر إلىٰ المدينة مرة واحدة. بل مهّد الطريق، وهذا مهم جدًا في إقامة الدولة، أن ترسل من ينبئ عنك، ويشرح منهجك وعقيدتك، ويعرف بك، حتىٰ يعرف الناس: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ وما موقفكم من الشعب وأفراد المجتمع؟ لابد أن تكون صادقًا حازمًا في ذلك، ولا تخدع الناس، ولا تمنيهم

بالأوهام، عرفهم بنفسك، قل لهم: نحن منكم، ولكم، نحن مسلمون من أفراد هذا الشعب، وأبناء هذه البلاد، نعيش همومكم، ونحلم بتحرير بلادنا من الكافر المحتل المحارب، نسعىٰ لتحقيق الحلم بكم، وبجهادكم، وكفاحكم؛ لأننا لا نرضىٰ لنا ولا لكم أن يحكمنا كافر صليبي، يذل شعبنا الأبي الكريم، ويأخذ خيارات بلادنا، ليستعين بها علىٰ قتل إخواننا المسلمين، ويفقر شعبنا، ويسلط عليه من بني جلدتنا من يسوم أولادنا وشعبنا سوء العذاب، في السجون والمعتقلات، نحن منكم أباءً وأبناءً وإخوةً، لكم ليس لنا مطمع إلا في تحرير بلادنا المحتلة، وأن يحكمنا الإسلام، ونستظل بظل الشريعة، ونحكم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس لنا مطمع في حكم ولا رياسة ولا ملك ولا عرض من أعراض الدنيا الفانية، ولا يعنينا شخص من يحكمنا، أيًّا كان، ولكن يعنينا بم يحكمنا؟ يحكمنا بشرع الله، يحكمنا بالقرآن والسنة؛ لأننا مسلمون موحدون، فحق هذه الأرض الطيبة، وهذا الشعب المسلم، أن يحكمه الإسلام، وتطبق فيه شريعة الله التي هي عدل ورحمة وخير وبركة؛ لأنها من عند الله الرحمن الرحيم الودود.

بهذا ينقاد الناس لدعوتك؛ لأنهم هم الحاضنة الشعبية للدعوة والدولة، وهم رأس مالها، وبها تقوم وتنهض، وتعمل وتدعو وتجاهد، وتنضبط الأمور؛ أما إذا جاء الأمر فجأة، حصل الاضطراب والانقلاب علىٰ الدعوة، لماذا؟ لأن الناس لا تفهم: من هؤلاء؟ ماذا يريدون؟ أيأتون بدين جديد غير الذي نحن

عليه؟ أيكررون أخطاء من سبقوهم نفسها، من القتل، والظلم، والتكفير، والتبديع، والفتن، والاختلاف، والافتراق؟! كل هذه الأفكار والهواجس تعترىٰ الناس، وتشغلهم، لماذا؟ لأنك لم تتبع خطوات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في إقامة الدعوة، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُلهَم من السماء-انتبه لهذا-، يوحىٰ إليه، لا يتكلم من عنده حتىٰ تقول: هذا اجتهاد. بل هذا منهج سماوي راسخ، ليس فيه خطأ وصواب. ومعرفة ذلك مهم جدا؛ حتىٰ تقطع وساوس الشيطان، تقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: كان في زمن، ونحن في زمن، وكان في تفكير، ونحن في تفكير. نقول: انتبه، ربما تخرج من الإسلام وأنت لا تدري، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مرسل من ربه، لا ينطق عن الهوىٰ، فهذا دين، ولا مدخل للاجتهاد ولا للعقل فيه، ولا يُقال هنا كما يقول المبتدعة: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندما أسس لقيام الدولة لم يؤسسها من عند نفسه، ولا من اجتهاد نفسه، بل هو من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا بد أن تتيقن بصحة هذا المنهج ولا تشك فيه.

فعندما تريد أن تؤسس دولة اتبع خطوات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في بناء هذه الدولة، فبعد التوحيد، أرسل السفراء، أرسل الدعاة، أرسل من يعرّف عنك ويبين منهجك وعقيدتك، ثم أحسن الاختيار في من يتكلم بلسانك، لا ترسل

أي أحد، ولكن أرسل الفَهِمْ، أرسل الذي عنده علم، أرسل الذي يتكلم بلسانك، وهو أقدر علىٰ البيان، لا ترسل عييّ اللسان، ولا ترسل أحمقًا، ولا ترسل غضوبًا، ولا ترسل مستعجلًا، بل أرسل حليمًا حتىٰ يبين للناس حقيقة هذا الأمر.

وسيأتي معنا في إرسال السفراء: كيف عامل مصعب بن عمير عتاة الكفار عندما استفزوه، وأرادوا أن يدخلوا معه في معركة، فتجنب هذه المعركة بذكائه، وفطنته، وحلمه، فاختيار السفراء أهم خطوة في بناء الدولة الإسلامية.

وأنا لا أريد أن نمر علىٰ هذه الأمور مرورًا، بل نريد أن نبين ونعلق ونشرح؛ لأن هذا منهج رباني، لا يجوز أن نمر عليه مرورًا هكذا، بل إذا حصل عندك إشكال في أي كلمة أو أي مسألة فاسأل وناقش وحاور؛ لأننا نريد أن نؤسس هذا المنهج لنا ولمن بعدنا، هذا ميراث يرثه من يأتي بعدنا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكتب لنا الأجر، فعلينا أن نكون صادقين في التلقي، ونسأل الله أن يرزقنا السداد وأن يوفقنا في البلاغ.

فهذه مسائل سيكون لها ما بعدها، فلا نريد أن نمر مرورًا هكذا دون وضوح الفكرة وضوحًا صحيحًا يثمر الثبات علىٰ الطريق؛ أما أن تمرّ، والفكرة غير واضحة عندك، فسيأتيك الخلل عند التطبيق؛ لأنك لم تفهمها فهمًا جيدا.

لذلك كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدل أصحابه علىٰ الاستفسار، ويفتح لهم مجال المناقشة والمحاورة، حتىٰ لا يفهموا غير مراده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ «اَلدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّة أُسُسُ الْقِيَامِ وَعَوَامِلُ الثَّبَاتِ وَأَسْبَابُ السُّقُوطِ» بِعَوْنِ اللـه تَعَالَىٰ وَتَوْفِيقِهِ، نُبَيِّنُ:

مَفْهُومَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَعْنَاهَا، وَأَرْكَانَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا: مِنْ التَّوْحِيدِ، وَالْجِهَادِ، وَالْعَدْلِ، وَالْمُؤَاخَاةِ، وَتَأْمِينِ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ.

الشرح:

نحن تكلمنا عن: التوحيد والجهاد والعدل والمؤاخاة باختصار، وسيأتي التفصيل بعد ذلك -إن شاء اللـه تعالىٰ-.

أما قوله: «تأمين الجبهة الداخلية»، ماذا نعني بتأمين الجبهة الداخلية؟ الجبهة الداخلية: هي العصبة المؤمنة. فلا ينبغي أن تكون الجبهة الداخلية مفتوحة للأعداء.

فالعصبة المؤمنة التي كانت في مكة لم تكن مخترقة، فقد كان رسول اللـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو المؤيد من السماء، يأخذ بأسباب التأمين.

والتأمين يكون قبل وبعد الأحداث الكبيرة المهمة:

فأما تأمين الجبة الداخلية قبل الأحداث الكبيرة المهمة، فكفعله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عندما أراد أن يهاجر، فقد جاء إلىٰ بيت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في وقت لا يأتيه فيه، ولما دخل قال: «أَخرِج مَنْ عندك»، فقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «إنما هم أهلك! بأبي أنت وأمي» قال: «**فإني قد أُذن لي في الخروج**»[(١)].

ثانيا: تأمين الجبهة الداخلية بعد الحدث، كتأمين دخول الأفراد إلىٰ الدولة وخروجهم منها. فلا ينبغي أن يترك الأمير الناس ومصيرهم، يعتقلون، ويقتلون، ويفرون؛ بينما يؤمّن نفسه وماله وأولاده ونساءه، يؤمن لهم الوصول إلىٰ أرض الدولة، وأرض الأمان!

فالتأمين هو أن تنظر إلىٰ عواقب القرار، لا أن تتخذ القرار فحسب، لأن اتخاذ القرار أمر سهل يستطيعه كل أحد، لكن معرفة عواقب الأمور، والنظر إلىٰ ما يترتب عليها، هو الذي ينبغي أن يراعىٰ عند اتخاذ القرارات، وهو الذي يسميه العلماء: فقه المآل؛ فمثلا: إذا أردت أن تتكلم كلمة، سل نفسك: ما الذي سيترتب عليها؟ هذا أصل مهم لا بد أن يكون حاضرًا في عقول ونفوس الدعاة، حتىٰ لا يعمل العمل وهو لا يعبأ بما تؤول إليه الأمور بعد ذلك.

المتن:

وَعَقْدِ الْمُعَاهَدَاتِ الدَّوْلِيَّةِ مَعَ دُوَلِ الْجِوَارِ.

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٥٨٠٧).

الشرح:

قوله: «وعقد المعاهدات الدولية مع دول الجوار»: يظن كثير من الإخوة أن الدولة الإسلامية لو كان لها علاقة مع دولة كافرة، فإن هذا يُعد نقضًا للولاء والبراء! وهذا انحراف وغلو؛ وجهل بالدين.

فعقد المعاهدات مع العدو جائز، ولكن ينظر بعد ذلك إلىٰ ما نصت عليه هذه المعاهدة، هل نقضت أصلًا من أصول الإيمان؟ هل نقضت أصلًا من أصل التوحيد؟ هل نقضت عقيدة الولاء والبراء؟ هذا الذي يُنظَر إليه، أما أصل المعاهدات فقد جاء في الشرع، فعلها النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفعلها الصحابة من بعده.

فعندما يأتينا آتٍ ويقول: هذه الدولة، أو هذه الحركة، أو هذه الخلافة- تعاهد الكفار. نقول: وأين المخالفة في هذا؟ يقول: هذا نقض للولاء والبراء. نقول: هذا كلام كبير، ينبغي أن يبحث علميًا، هل أصل المعاهدة مع الكفار بل مع المحاربين جائز أم غير جائز؟ هذا هو الأصل الذي ينبغي أن تتكلم عنه، الجواب: نعم، جائز، فعله النبىٰ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة.

فبعض الجهلة بالشرع يأتي بما لا يعرف، يقول: الولاء والبراء، المعاداة... إنه عاهد الكفار! ولا يدري ما حكم معاهدة الكفار في الشرع، فيصرح بتكفيرهم وينشره، ثم يتلقف أهل الجهل هذا الكلام، فيشيعون عن أهل

التوحيد والسنة والجهاد (أهل السنة والجماعة)، أنهم دولة كافرة، وأنهم حركة مرتدة؛ لأنها توالي وتعادي... وغير ذلك من الأمور.

فلا بد أن نبين هذا، ونبين منهجنا في المواثيق والمعاهدات، كما فعله النبي ﷺ، وسيأتي معنا الكلام عن وثيقة المدنية، وضع النبي ﷺ هذا الميثاق لإدارة الحياة في المدينة الجديدة؛ لأن المدينة كان فيها يهود، وكان فيها نصارىٰ، وكان فيها كفار مشركون.

المتن:

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَطْرَأُ، وَالنَّوَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ بِالْأُمَّةِ، وَالَّتِي يَرَىٰ فِيهَا الْإِمَامُ وَالْخَلِيفَةُ مَا هُوَ صَالِحٌ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيُحَقِّقُ الْأَمْنَ وَالِاسْتِقْرَارَ لِلرَّعِيَّةِ، بَعْدَ مُشَاوَرَةِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي الدَّوْلَةِ.

الشرح:

سيأتي معنا: كيف يُختَار الخليفة؟ ومن هم أهل الحل والعقد؟ وما وظيفتهم؟ وما صفتهم؟

قوله: «بَعْدَ مُشَاوَرَةِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي الدَّوْلَةِ»: فالخليفة أو الإمام لا ينظر في الأمور بنفسه، لا بد له من مجلس شورىٰ، فلا يستقل بنفسه في إدارة الدولة، وقد كان النبي ﷺ له وزير من السماء، ووزيران من

الأرض، كان له جبريل -عليه السلام-، وكان له أبو بكر وعمر، ومع ذلك كان يستشير.

إذن متىٰ يستقل الإمام بالرأي؟ بعد المشورة، الإمام لا يُراجَع في المناطات الاجتهادية، ويراجع في الأصول العقدية والكلية، بمعني: لو اجتمعوا علىٰ أمر اجتهادي يخص الدولة، وكلٌّ أدلىٰ بدلوه في الأمر، ثم بعد أن سمع الإمام قال برأيه، فعليهم جميعًا أن يلتزموا هذا الرأي وألّا يخالفوه، ووجب علىٰ الجميع السمع والطاعة له؛ لأنه هو الإمام، وهو أدرىٰ، ما نُصِّبَ إمامًا إلا لدرايته وعلمه وفقهه.

فهذا أصل من أصول قيام الدولة: أن الخليفة يرعىٰ هذه الرعية، ويستشير أهل الحل والعقد من العلماء والمتخصصين، ثم بعد ذلك يقرر هو. وإذا قرر الإمام أو الخليفة رأيًا يخالف أهل الشورىٰ، فعلىٰ أهل الشورىٰ أن ينقادوا له.

المتن:

وَسَنَذْكُرُ -بِعَوْنِ اللهِ- أَسْبَابَ سُقُوطِ الدُّوَلِ وَانْهِيَارِهَا.

وَسَنَقِفُ عَلَىٰ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ فَشَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بِنَاءِ دَوْلَةٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، مَعَ كَثْرَةِ الْمُحَاوَلَاتِ عَلَىٰ مَدَارِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَنِ بَعْدَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، الَّتِي سَقَطَتْ، أَوْ أُسْقِطَتْ فِي (٢٠ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَة ١٣٤٢ هـ)، الْمُوَافِقِ (٣٠ أَكْتُوبَرَ سَنَة ١٩٢٣)، وَأَعْلَنَ مُصْطَفَىٰ كَمَالْ

(أَتَاتُورْكْ) سُقُوطَ الْخِلَافَةِ رَسْمِيًّا، بِمَرْسُومٍ مِنَ الْجَمْعِيَّةِ الْوَطَنِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، فِي يَوْمِ (٢٧ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ سَنَةَ ١٣٤٢ هـ)، اَلْمُوَافِقِ (٣ مَارِس سَنَةَ ١٩٢٣)، وَاسْتَبْدَلَ الْجُمْهُورِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ، بِالْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَخَلَعَ السُّلْطَانَ عَبْدَ الْمَجِيدِ الثَّانِي، آخِرَ خَلِيفَةٍ عُثْمَانِيٍّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْخَ مُصْطَفَىٰ صَبْرِي، شَيْخَ الْإِسْلَامِ فِي الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الْخِلَافَةَ الْعُثْمَانِيَّةَ -فِي آخِرِ عَهْدِهَا- كَثُرَ فِيهَا الْفَسَادُ وَالضَّعْفُ، وَالْبُعْدُ عَنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ، وَانْتَشَرَتْ فِيهَا الصُّوفِيَّةُ الشِّرْكِيَّةُ، وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ وَالْأَضْرِحَةِ، وَالْأَحْكَامُ الْوَضْعِيَّةُ الْمُخَالِفَةُ لِشَرْعِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَدَخَّلَ الْكُفَّارُ فِي إِدَارَةِ الْبِلَادِ؛ مِمَّا أَضْعَفَ عَقِيدَةَ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، وَمَكَّنَ الْيَهُودَ مِنَ التَّحَالُفِ مَعَ الصَّلِيبِيِّنَ وَدُوَلِ الْكُفْرِ فِي إِسْقَاطِ الْخِلَافَةِ، بِالتَّعَاوُنِ مَعَ بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي إِسْقَاطِ الْخِلَافَةِ عَلَىٰ مَا فِيهَا مِنْ ضَعْفٍ وَخَوَرٍ؛ حَتَّىٰ أَطْلَقُوا عَلَيْهَا اسْمَ (الرَّجُلِ الْمَرِيضِ).

الشرح:

هذا الصنم كمال (أتاتورك) لم يأت فجأة، وهذا الذي نقوله دائمًا: انتبهوا دائما للغزو الداخلي، انتبهوا لتأمين الجبهة الداخلية، فربما يأتيك آتٍ في صورة البطل المنقذ، هكذا فعلوا بـ(أتاتورك)، ففي زمن الاحتلال البريطاني، قاد الجيوش التركية، وقاتل الجيوش[1]، فانسحب الجيش البريطاني واليوناني،

---

(١) الجيشين البريطاني واليوناني.

وكان هذا مقصودًا ومصنوعًا، ليرفعوه ويلمّعوه، فلما انتصر عليهم انتصارًا مزيفا، مخططًا له قبل ذلك، رفعوه وجعلوه البطل، فلما نادىٰ بإسقاط الخلافة أيده كل القوميين.

وقد كان كمال (أتاتورك) أغبىٰ من أن يقود، ولكن هرتزل المتخصص في قيام الدولة الصهيونية والإنجليز- تعاونوا علىٰ هذا، وصنعوه صناعة، فلمّعوه وأدخلوه من هذا الباب، باب القومية، باب النعرة التركية، لأنهم يفتخرون بهذا، فدخل منها وأسقط الخلافة.

قوله: «حتىٰ أطلقوا عليها اسم الرجل الأبيض»: لأنها لا حول لها ولا قوة، أراضي الخلافة تسقط، دولة دولة، حتىٰ جعلوها في الأناضول فقط، فكان هذا سببًا في سقوط دولة الخلافة، وإعلان الدولة العلمانية، الليبرالية، الصوفية، القبورية، الشركية، وأحيوا فيها النعرة، والطورانية، والقومية التركية.

المتن:

إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ رَمْزًا لِلْمُسْلِمِينَ، يَتَمَسَّكُونَ بِهِ، وَيَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ، وَشَوْكَةً -وَإِنْ كَانَتْ ضَعِيفَةً- فِي خَصْرِ أُورُوبَّا وَدُوَلِ الْكُفْرِ، وَسَنَذْكُرُ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي أَسْبَابِ السُّقُوطِ وَالِانْهِيَارِ، أَسْبَابَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ، وَأَسْبَابَ فَشَلِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ، فِي إِعَادَةِ الْخِلَافَةِ، وَإِقَامَةِ دَوْلَتِهَا عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ،

مَعَ أَنَّهُمْ يُؤَصِّلُونَ فِي مَنْهَجِهِمْ وَدَعْوَتِهِمُ الرَّغْبَةَ فِي إِقَامَةِ خِلَافَةٍ رَاشِدَةٍ، فَهَلِ هِيَ غَيْبَةُ وَعْيٍ، أَمْ تَجَاهُلُ سُنَنِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ؟

الشرح:

الخلافة العثمانية، مع ما كان فيها من ضعف، كانت تجمع المسلمين تحت مظلتها.

وقد وُجِدت جماعات دعوية إسلامية منذ سقوط الخلافة، وكانت علىٰ الهدي النبوي، أمثال جماعة أنصار السنة، وظهر أمثال محمد رشيد رضا ومن معه من العلماء الذين كانوا من الشام، مع جمال الدين، ومحمد عبده، وغيرهم، حتىٰ عرض كمال (أتاتورك) الخلافة علىٰ غيره من حكام البلاد الإسلامية، ومع ذلك رفضوا أن يكونوا في مرمىٰ الهدف، لأن الإنجليز كانوا أغروا الشريف حسين بن طلال، الذي خليفته ملك الأردن، ووعدوه بأن يكون هو الخليفة، علىٰ أن يساعدهم في إسقاط الدولة العثمانية، فجعلوا العثمانيين بعيدا عن الإسلاميين، حتىٰ لا يقولوا: أنت تسقط الإسلاميين، أو المسلمين، بل جعلوها قومية، فقالوا: إسقاط العثمانيين؛ أما لو قالوا: إسقاط الدولة الإسلامية، لثارت بعض النفوس المسلمة، وبعد سقوط الخلافة علموا بالأمر؛ فثاروا في البلاد كلها، ولكن بعد فوات الأوان.

فساعدهم هذا الخائن (الشريف حسين) في إقامة ثورة عربية في بلاد الشام وسوريا ومصر، وسموها الثورة العربية ضد الدولة العثمانية، ففَصَلُوا بين العثمانيين والإسلام، فلم يقولوا: محاربة الإسلام، بل أتَوا بأشياء بعيدة عن الإسلام، وهذه عادتهم دائما، يأتون بأشياء بعيدة الإسلام حتىٰ يأمنوا عدم إثارة المسلمين، فقالوا: الثورة العربية ضد الدولة العثمانية، ومدّوهم بالسلاح، حتىٰ أخرجوا العثمانيين من بلاد الشام.

ثم بعد ذلك دخل في هذه الثورات عبد العزيز آل سعود، فالإنجليز رأَوا أن عبد العزيز يصلح أن يكون بديلًا عن الشريف حسين، رأوا طموحاته أكبر من الشريف حسين، رأوا ذكاءه، وكان شابا، فرأوا أنه أفضل من هذا الخَرِف الغبي، الذي صدق أنهم سيجعلونه خليفة! ثم بعد ذلك نفوه إلىٰ قبرص، ومات هناك، ثم استبدلوا عبد العزيز آل سعود به، وكان الرجل الذي لهم في المنطقة، وبدأ عبد العزيز بذكائه يوازن بين الصراعات، بين الغرب والشرق، ويأخذ من هنا مالًا، ويأخذ من هنا مالًا، وهذا ليس سرًّا، فقد اعترف ابنه طلال أنه كان يأخذ راتبًا من الإنجليز؛ من أجل تأمين مصالح أمريكا وروسيا في الجزيرة، وبعد ذلك مكن لهم، وأعطاهم الامتيازات وغير ذلك، ثم لبّسوا علىٰ الناس بأن هذه هي الدولة التي نريد أن تُقام.

وبعد أن قامت هذه الثورات، وفي سنة ثمانٍ وعشرين، أي: بعد سقوط الخلافة بأربع سنوات، قامت دعوة الإخوان المسلمين، ولكنها كانت دعوة اجتماعية، ليست دعوة إسلامية عقدية، كانت دعوة للتجميع فقط، وسيأتي معنا -إن شاء الله- في شرح كتاب السنة، أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أراد أن يؤسس دولة، أسسها علىٰ التوحيد، ولم يؤسسها علىٰ الإصلاح؛ لأنه كان في المجتمع انحرافات، كان في المجتمع زنىٰ، وربا، وشرب خمر، وانتهاك حقوق المظلومين، وكان من الناس من يحارب هذه العادات السيئة، فكان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستطيع أن يقول: أنا معكم، أنا أدعو إلىٰ مثل ما تدعون إليه، وكان سيجد علىٰ دعوته أعوانًا، بدل أن يحاربوه ويطردوه، ولكن حاشاه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعل ذلك، بل نأىٰ بدعوته عن مثل هذه الدعوات الإصلاحية، التي هي ستفشل بعد أن تحقق هدفها. ماذا تريد أنت؟ تريد أن تقضي علىٰ دور البغاء والخمر؟ سنقضي عليها، وماذا بعد؟ قضينا عليها، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا. هذا أنت جئت بدين جديد! إذن نحن نعاديك.

هكذا فعلت دعوة الإخوان، ثم بعد ذلك دعوة الهدي النبوي، ثم بعد ذلك دعوة عبد الكريم الخطابي في المغرب، كل هذه كانت دعوات وثورات لتغيير وجهة المحتل فقط، ولكنها لم تكن دعوة إلىٰ التوحيد والعقيدة الصحيحة؛ لذلك فشلت.

لماذا فشلت؟

سقطت الخلافة في سنة (١٩٢٣)؛ ونحن الآن في (٢٠٢٣)، يعني مر علىٰ سقوطها مئة سنة، لماذا فشلت كل هذه الحركات؟ لسبب واحد مجمل، وتحته أسباب مفصلة.

السبب الوحيد المجمل: أنها لم تنظر إلىٰ قيام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوته وبدولته، والأسباب التي قامت عليها الدولة الإسلامية في عصر النبوة، لم تنظر إليها البتة، لأنهم قالوا: نحن في قرون بعد ألف سنة، تريدون أن نفكر بنفس العقلية التي كان يفكر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فلذلك فشلت ولم تقم لها قائمة.

وأما الحركات الجهادية، وسيأتينا -إن شاء الله- الحركات الجهادية التي قامت بعد ذلك، سواء أكانت في العصر الأول، أم في العصر الأخير، مثل القاعدة، والجهاد الإسلامي، والدولة الإسلامية، لماذا فشلت كل هذه المحاولات؟ هم يدعون إلىٰ التوحيد، لا نشك في هذا، لا نشك أن إخواننا المجاهدين كانوا يدعون إلىٰ التوحيد، ولكن غابت عنهم أسس القيام؛ فاستعجلوا الأمر، ومع استعجالهم تحيزوا عن الناس، ظنوا أنهم في رفعة عن الناس، هم في واد، والناس في واد، وفقدوا الحاضنة الشعبية، وانعزلوا عنها؛ لذلك لم يفهم الناس ماذا يريدون لغياب السفراء وضعف البلاغ.

وكذلك غياب الأصل الإعلامي، مع وجود الإعلام الغربي المضاد، الذي شوه للناس صورة هؤلاء، وعرضهم في صورة مزيفة، مع عجز الإخوة عن إظهار حقيقتهم؛ لذلك لا تستغربوا مما يشاع عن هؤلاء فيما يتعلق بدعوتهم ومنهجهم؛ لأن الكلام لم يأت من الإخوة أنفسهم، ولكن أتىٰ علىٰ لسان عدوهم، فقالوا: هؤلاء تكفيريون، إرهابيون، متطرفون، وهابيون، طالبو سلطة ورئاسة، وغير ذلك، فبدأ الناس يصدقون هذه الإشاعات، فلما تنبه الإخوة لذلك وحاولوا تغيير الصورة، كان إعلامهم ضعيفا.

إذن هذه كانت عوامل فشل الحركات التي قامت بعد سقوط الخلافة، سقطت لأنها لم تقم علىٰ منهاج النبوة، لم تُقِم التوحيد، والعدل، والمؤاخاة، بل فرقت الأمة وجعلتهم أحزابا ودولًا، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل الدولة عصبة مؤمنة واحدة، وأنتم جعلتم الدولة في أعراق شتىٰ، ودول شتىٰ، فكيف تستطيعون أن تقيموا دولة؟! وسيأتي التفصيل في ذلك -إن شاء الـلـه-.

المتن:

وَهَذَا الْكِتَابُ رِسَالَةٌ إِلَىٰ الْحُكَّامِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْقَادَةِ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ؛ لِتَدَارُكِ أَمْرِهِمْ، وَالْعَمَلِ عَلَىٰ جَمْعِ الشَّتَاتِ، وَتَوْحِيدِ كَلِمَتِهِمْ، وَالْخُرُوجِ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلْكُفَّارِ.

الشرح:

إذن هذه الرسالة، وهذا الكتاب، ليس لجماعة معينة، وليس لفصيل معين، نحن ندعو إلىٰ الإسلام، ندعو إلىٰ الدين الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ندعو إلىٰ التوحيد الخالص، الخالي من الشوائب، من الشرك والبدع والخرافات، ندعو إلىٰ ما دعا إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونتمسك به، ونموت عليه، فليس تمسكنا به مؤقتا حتىٰ تقام الدولة وبعد ذلك ننحرف، بل كلما مرت الإيام تمسكنا بهذا الأصل، وهذه الدعوة.

أنتم تقولون: إنكم أهل الإسلام. وأهل الإسلام أولىٰ باتباع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أهل الإسلام أولىٰ باتباع رسول الإسلام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اتباعهم للشرق والغرب، إن كنتم تؤمنون حقا بدعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعوة الإسلام عالميةً لا دعوة إقليمية؛ فلماذا تبتعدون عن أصول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة الدولة؟!

هذا الكلام موجه لكل مسلم علىٰ وجه الأرض، يؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولًا، لكل مسلم يؤمن بأن لا عز للأمة، ولا تمكين لها في الأرض، إلا برجوعها إلىٰ ما كان عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، والتمسك بالقرآن، والسنة، وفهم الصحابة والسلف الصالح، أهل السنة والجماعة؛ ليس

لفئة معينة، ولا لدولة معينة؛ فنحن نريد أن يتوحد أهل الإسلام، ويجتمعوا علىٰ كلمة سواء، كما اجتمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع الصحابة في عصره.

المتن:

وَجَعْلِ الْخِطَابِ الْإِعْلَامِيِّ الْمُوَجَّهِ لِلْكُفَّارِ لِكَشْفِ بَاطِلِهِمْ وَحَقِيقَةِ حَرْبِهِمُ الْعَقَدِيَّةِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا خِطَابٌ جَيِّدٌ ضِدَّ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ الصَّلِيبِيِّ.

لَكِنْ لَا نُرِيدُ خِطَابًا تَحْرِيضِيًّا ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْحَرَكَاتِ الْجِهَادِيَّةِ لِمُجَرَّدِ أَنَّنَا نَخْتَلِفُ مَعَهَا فِي مَنَاطَاتِ التَّنْزِيلِ، مَعَ اتِّفَاقِنَا مَعَهَا فِي مَنَاطَاتِ التَّأْصِيلِ.

هَذَا لَا نُحِبُّهُ وَلَا نَرْضَاهُ.

الشرح:

إن الخطاب الذي يخرج من بعض الدعاة، أو من بعض أهل العلم، والمنتسبين إلىٰ العلم في بلادهم، موجهًا ضد الكفار؛ ببيان ما هم عليه من بغض الإسلام؛ فهذا جيد. ولكن أن يُوجَّه هذا الخطاب التحريضي لأهل الدعوة والتوحيد والجهاد، ويُرمَوا عن قوس واحدة، وتُشاعَ عنهم الشائعات، ويُحذَّرَ منهم؛ لمجرد أنهم يخالفون منهج دولتك وحاكمك في دين الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أو لمجرد أنهم يختلفون مع حاكمك الذي أنت تقبض راتبك

منه؛ فتتكلم بلسان هذا الطاغوت الذي تعلم أنه طاغوت، خوفًا من قطع الرزق الذي يأتيك منه، فهذا لا نريده ولا نحبه.

فنقول: يا إخواني، رفقًا بأهل التوحيد والجهاد، نعم ربما إذا تغير هذا الطاغوت، وجاء من هو أقل منه شرًا، فأنتم أول من يدعو إلىٰ التوحيد والجهاد؛ لأنكم تعرفون الحق، وتتكلمون بالباطل إما رهبة، وإما رغبة، فنقول لكم: إن عجزتم عن قول الحق، وبيان منهج النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة والتوحيد والجهاد، فلا تقولوا الباطل، لا ترموا إخوانكم أهل التوحيد والجهاد بالبدع والتهم التي أنتم تعلمون أنهم برآء منها، ولكنكم تقولون هذا مواكبةً للطواغيت في الأرض.

فنقول: لا نريد خطابًا تحريضيًا للجبهة الإسلامية، لا نريد خطابًا تحريضيًا ضد أهل التوحيد والجهاد، هذا الذي نريده من إخواننا الدعاة في كل مكان.

المتن:

هَذَا لَا نُحِبُّهُ وَلَا نَرْضَاهُ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمُفَرِّقٌ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُجَاهِدَةِ.

فَنَدْعُو إِخْوَانَنَا لِلتَّفْكِيرِ فِي تَغْيِيرِ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ التَّحْرِيضِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِمَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ عَسَىٰ أَنْ تَجْتَمِعَ الْفَصَائِلُ الْمُجَاهِدَةُ فِي كُلِّ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَتَوَحَّدَ تَحْتَ رَايَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيَكُونَ جِهَادًا عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، أَصْلُهُ

تَوْحِيدُ اللـه، وَرَحْمَةُ الْخَلْقِ، وَنَشْرُ دِينِ اللـه فِي الْأَرْضِ، وَإِلَّا سَتَتَّسِعُ نِقَاطُ الْفُرْقَةِ وَالتَّحَزُّبِ وَالتَّشَتُّتِ، وَسَيَظَلُّ الْعَمَلُ الْإِسْلَامِيُّ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ فِي دَائِرَةِ الرُّدُودِ وَالنَّقْدِ وَالتَّشْهِيرِ، وَيَزْدَادُ الشَّبَابُ حَيْرَةً وَتَمَزُّقًا، وَسَيَظَلُّ الْوَضْعُ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

الشرح:

إن لم يرجع الإخوة والدعاة إلىٰ هذا، فسيظل هذا العمل يدور حول نفسه، وستظل الحرب دائرة بين أهل الإسلام أنفسهم، ويتفرج عليك الكافر من علٍّ وأنت تقتل أخاك وتحرض عليه، فأنت تقوم مقام الكافر الذي يحارب الإسلام والمسلمين، وسيحاربك أنت إن تمكنت، ولكن هي غيبة وعي.

وهذا الخطاب التحريضي يجعل الشباب في حيرة، الشباب الذي يحب الإسلام، ويحب الجهاد، عندما يثق في بعض أهل العلم، ويسمعهم يحرضون، يقع في حيرة، أصدّق من؟ أتبع من؟ من علىٰ الحق؟ من علىٰ الباطل؟

فيقع الشباب في هذه الحيرة، ويكونون هم وقود هذه الحرب، حتىٰ إذا ذهب إلىٰ أرض يظن أنها أرض توحيد وجهاد، وجد المصادمة بين أهل الإسلام أنفسهم، والعدو الكافر الذي جاء ليحاربه في مأمن، هذا الذي نراه واقعًا الآن، لذلك لا نريد هذا؛ لأن الخاسر الوحيد هم أهل الإسلام.

المتن:

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ وَرَاضُونَ وَمُتَعَصِّبُونَ وَمُتَحَزِّبُونَ، وَهَذَا يُفْرِحُ الْأَعْدَاءَ، وَيَزِيدُهُمْ قُوَّةً، وَيُضْعِفُ الْإِخْوَةَ، وَيَزِيدُهُمْ تَفَرُّقًا وَضَعْفًا، وَهَذَا مُخَالِفٌ لِمَنْهَجِ الْإِسْلَامِ وَالْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، فَكُلُّ الْفَصَائِلِ الْمُجَاهِدَةِ وَالْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَامِلَةِ لِلْإِسْلَامِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ- طَالَمَا أَنَّهَا فِي دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ؛ فَلَا يَجُوزُ فَتْحُ بَابِ حَرْبٍ أَوْ تَحْرِيضٍ ضِدَّهَا يُمَزِّقُ الصَّفَّ الْإِسْلَامِيَّ فِي وَقْتٍ تَكَالَبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ وَعُبَّادِ الصَّلِيبِ.

فَلَا يَجُوزُ فَتْحُ جَبَهَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ.

الشرح:

لماذا لا يجوز فتح جبهات داخلية عند المصافَّة مع الكافر الأصلي؟ لأن هذا هو الذي أمرك اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، فقتال الكافر الأصلي الذي هو محارب لأهل الإسلام، ومحتل لأرض الإسلام، هدف أصليّ، يدخل تحته كل مسلم، وإن كان مبتدعًا، وإن كان فيه مخالفة، فلكل وقت عبودية، فعبودية هذا الوقت عند المصافّة -يعنىٰ: عند التقاء الصفوف في الحرب-، أن تكونوا يدًا واحدة علىٰ الكافر الأصلي، ثم بعد ذلك إذا أخرجتم المحتل من هذه البلاد، وأقمتم دين اللـه في الأرض، نقُّوا الصف، وأصّلوا أصول أهل السنة والجماعة، ووحدوا صفوفكم علىٰ كلمة التوحيد، فمن وافقكم فهو معكم، ومن خالفكم بينوا له أن هذا مخالف للإسلام.

فلا يجوز لك عند المصَافّة أن تُشَهِّر بأخيك، وإن كان مخالفًا لك، وإن كان مبتدعًا، طالما أنه في دائرة الإسلام لم يخرج منه، أما إذا خرج من دائرة الإسلام؛ فهو في صف الكافر، لكن طالما أنه في دائرة الإسلام، ويقاتل معك هذا العدو الكافر؛ فلا بد أن تغض الطرف عن مخالفته وبدعته التي هي بدعة غير مكفرة، ثم تجاهد هذا الكافر الأصلي معه حتىٰ تطهروا أراضيَ المسلمين، وأعراضهم، وتستنقذوا أسراهم، ثم بعد ذلك تأصلون منهج أهل السنة والجماعة، وتقيمون الدعوة علىٰ هذا الأمر، أما قبل ذلك فلا يجوز التحريض ولا النقد، ولا أي شيء مما يفت في عضد المجاهدين وقت الجهاد؛ لأن هذا يفرقهم، ويضعف كلمتهم، ويقوي عدوهم.

المتن:

لِأَنَّ الْمَنَاطَ مَنَاطُ مُصَافَّةٍ ضِدَّ الْكَافِرِ الْمُحَارِبِ.

فَوَجَبَ الِاجْتِمَاعُ وَالِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْعَمَلُ بِالسِّيَاسَةِ النَّبوِيَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَنَاطِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَرْجِعُ إِلَىٰ تَأْمِينِ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الْبِدَعِ وَالْمُخَالَفَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

أَمَّا قَبْلَ هَذَا فَالْعَاقِلُ الْحَكِيمُ يُسَدِّدُ وَيُقَارِبُ، وَيُرَاعِي حُرُمَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَحُقُوقَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَجَزَ فَلَنْ يَعْجِزَ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، فَالدَّعْوَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَىٰ الْقِتَالِ.

هَذَا مَا نُرِيدُ وَمَا نَدْعُو إِلَيْهِ: نَشْرُ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَالْإِعْدَادُ لِقِيَامِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ.

الشرح:

هذا هو الأصل: أن ندعو كل أهل الإسلام إلىٰ منهج النبوة في إقامة الدولة الإسلامية، وتقبّل الآخر ما دام في دائرة الإسلام، والدعوة إليه، وبيانِ منهج الإسلام بالحكمة والرحمة، فربما كان عنده لبس في بعض المفاهيم، وهو لا يخالفك في أصل الإسلام، ولكن يخالفك في بعض مناطات التنزيل، إذن انظر هل وافقك في التأصيل؟ يعني: هل وافقك في أصول أهل السنة؟ نعم وافقني، ولكنه يخالفني في مناطات التنزيل علىٰ الأعيان، نقول: هذا ليس مخالفًا لك في أصل الإسلام، بل هو مخالف لك في مناطات التنزيل، وهذه مناطات تختلف فيها أنظار العلماء والمجتهدين. فلا بد أن تفهم هذا جيدًا. وعندما نأتي -إن شاء الله- إلىٰ نماذج من الصحابة، نرىٰ أنهم اختلفوا اختلافًا شديدًا، ولم يفترقوا أبدًا، لماذا؟ لأنهم اجتمعوا علىٰ التأصيل.

المتن:

وَقَدْ كَانَ الْكِتَابُ عَلَىٰ الضِّعْفِ مِنْ هَذَا حَجْمًا؛ لِلتَّفَاصِيلِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، فَرَأَيْتُ اخْتِصَارَهُ فِي رُؤُوسِ أَقْلَامٍ، وَإِنْ يَسَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ قُمْنَا بِشَرْحِهِ وَتَفْصِيلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِمَا يَفِي بِالْمَقْصُودِ، وَيُحَقِّقُ الْهَدَفَ الَّذِي كُتِبَ مِنْ أَجْلِهِ.

الشرح:

إنما كتبت هذا الكتاب من أجل بيان حقيقة الدولة الإسلامية؛ وحتىٰ يقضي علىٰ الدعوة المزيفة، وهي أن دولة الإسلام قائمة، وتحكم بالشرع، ولها حكام، ولها إدارات، ولها حكومات، هذه دعوة زائفة، ليست هذه دعوة الإسلام.

ولنبين ما هي دولة الإسلام، ونبين الأسس التي تقوم عليها دولة الإسلام؛ حتىٰ يتفطن الدعاة وأهل العلم إلىٰ ماهِيَّة الدولة، وتتضح صورة الدولة في أذهان المسلمين؛ حتىٰ يميزوا بين الدولة الإسلامية علىٰ منهاج النبوة، والدولة المزيفة التي تنتمي إلىٰ الإسلام زورًا وبهتانا، وهي أبعد الدول عن حقيقة الإسلام، لذلك نقول: هي دولة كافرة، لأنها لا تحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، دولة يعلوها حكم الطاغوت، دولة تعلوها الأحكام الوضعية، دولة يعلوها التشريع المخالف لدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكيف تسمىٰ دولة إسلامية؟!

أي عقل، وأي دين، وأي علم تعلمتموه يقول بأن الدولة التي يعلوها حكم الطاغوت، وتشرِّع من دون الله، وتحارب دين الله في الأرض، وتحارب الدعاة وأهل التوحيد والجهاد، دولة إسلامية؟! أي تلبيس لبستموه علىٰ الأمة وعلىٰ شبابها، وجعلتموه في حيرة! ومن يقلْ خلاف ذلك فهو عندكم من

الخوارج، ومن التكفيريين، ومن أهل الضلال والانحراف، ومن الفئة الضالة! وأطلقتم عليهم الكلاب المسعورة تتهمهم وتحرض عليهم.

الهدف من شرح هذا الكتاب: هو توضيح مفهوم الدولة النبوية في أذهان الناس جميعا، نوضح الحق؛ حتىٰ يتبين الباطل؛ أما إذا لم نوضح الحق، التبس به الباطل التباسًا شديدا، ودخل علىٰ بعض الناس حتىٰ علىٰ أهل العلم، لذلك نريد أن نفصّل في هذا الأمر تفصيلًا يُزيل الأشكال بفضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المتن:

وَهُوَ بِنَاءُ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ، وَيَكُونُ التَّوْحِيدُ أَصْلَهَا، وَالْعَدْلُ أَسَاسَهَا، وَالِاعْتِصَامُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَاجْتِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ هُوَ هَدَفُهَا.

وَيَكُونُ مُرْشِدًا لِلْعَامِلِينَ فِي هَذَا الْبِنَاءِ عَلَىٰ دِرَاسَةِ أَسْبَابِ السُّقُوطِ وَالِانْهِيَارِ، وَفَشَلِ الْجَمَاعَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَلَىٰ مَرِّ التَّارِيخِ، سَوَاءٌ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الدُّوَلِ، أَوْ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الْحَرَكَاتِ، وَالْجَمَاعَاتِ، وَالْفَصَائِلِ، فَمَعَ اخْتِلَافِ مَنَاهِجِهِمُ الدَّعْوِيَّةِ وَتَبَايُنِ طَرْحِهِمْ، إِلَّا أَنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ هَدَفُهُمْ وَاحِدٌ، وَدَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ؛ إِقَامَةُ خِلَافَةٍ رَاشِدَةٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، تَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، بِمَفْهُومِهِ الْعَامِّ الشَّامِلِ، وَتُحَارِبُ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ وَالْكَافِرِينَ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ طُرُقُ وَوَسَائِلُ كُلٍّ مِنْهُمْ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ هَذَا الْهَدَفِ الَّذِي فَشِلَتْ فِي تَحْقِيقِهِ الْحَرَكَاتُ وَالْجَمَاعَاتُ

الْإِسْلَامِيَّةُ، عَلَىٰ مَدَارِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذَا.

الشرح:

أنا أعتقد اعتقادًا جازمًا يحاسبني الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه: أن كل من يعمل للإسلام، وكل من يدعو إلىٰ دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكل من يدعو للتوحيد، هذا لا شك عندي أنه علىٰ خير، وأنه يحب الله ورسوله، ولكن الأخطاء لا يسلم منها أحد، والمجاهد الذي يعمل عرضة للخطأ، الذي يعمل هو الذي يخطئ، أما الذي يجلس وينتقد، ويبدِّع، ويفسِّق، ويكفِّر، هذا لا يقدم لدين الله شيئًا، بل يتكلم، ويحرض، وينقد، ولا ينزل إلىٰ الميدان لدعوة الناس، إذا كان عندك علم انصح إخوانك، أو كان عندك إعداد قدمه لإخوانك، هذا هو الأصل.

فلا شك عندي أن كل من يعمل للإسلام في هذه الحركات علىٰ اختلاف مسمياتها، أنهم علىٰ خير، وما أرادوا إلا الخير، ولكن أخطؤوا الطريق؛ إما لجهل، وإما لغَيْبَة وعي، وإما لتلبيس لُبِّس عليهم، وإما لاستمالة من بعض الدول والأعداء لم يتفطنوا إليها، هذا كله واقع ونراه، وعند دراستنا لهذه الحركات وجدنا مثل هذا، وجدنا إما غيبة وعي في المفهوم، وإما غيبة وعي في بعض أصول أهل الإسلام، وإما غيبة وعي وثقة زائدة في بعض الشخصيات

التي تدعي أنها من أهل الإسلام، غُرِّر بهم حتىٰ وقعوا في هذا الفخ، كل هذا وارد، لكن كلهم علىٰ خير، ولا نعني غض الطرف عن الكفر والشركيات والنواقض، أو أسلمة المشرك المرتد، لا، فكما لا نرضىٰ بتكفير المسلمين بالظن والاحتمال والتأويل، كذلك لا نرضىٰ بالإرجاء، ولكن العلم والنصيحة والدعوة واستفاضة البلاغ.

فنحن نريد أن نصحح هذه الأمور، ونؤصل منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونوضحه توضيحًا لا لبس فيه، ليهلِك من هلك عن بينة، ويحيا من حَيِيَ عن بينة.

المتن:

وَلَيْسَ ثَمَّ طَرِيقٌ غَيْرُ اعْتِصَامِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ، وَاجْتِمَاعِهِمْ وَتَوَحُّدِهِمْ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي الْجَمَاعَةِ قُوَّةً وَغَلَبَةً وَنَصْرًا وَتَأْيِيدًا مِنَ اللـه، فَيَدُ اللـه مَعَ الْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ.

الشرح:

إذن دائمًا يد اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع الجماعة؛ لذلك اعتصموا بحبل اللـه جميعًا ولا تفرقوا، اعتصموا بالكتاب والسنة، بالتوحيد والرسالة، اعتصموا بهذا واجتمعوا عليه، فما سُمِّي أهلُ السنة «أهلَ السنة»، إلا لأنهم تمسكوا بالسنة واجتمعوا عليها، ومن يتمسَّكْ بالسنة ولا يجتمع عليها؛ فليس من أهل

السنة، هو من أهل البدع والأهواء والافتراق، إنما أهل السنة والجماعة، والطائفة المنصورة، وحزب الله المنتصر: هم الذين تمسكوا بالسنة، ودعوا إليها بالتوحيد والجهاد، هؤلاء أهل السنة، نريد منهم أن يتمسكوا بهذا الأصل، ويدعوا إليه، ويغضوا الطرف عما سواه، وعما يفرقهم، طالما أنهم متمسكون بأصول أهل السنة والجماعة.

المتن:

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُمَكِّنَ لِدِينِهِ، وَأَنْ يُحَكِّمَ فِينَا شَرْعَهُ، وَأَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ وَعِبَادِهِ الْمُوَحِّدِينَ الْمُجَاهِدِينَ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَيَجْعَلَهُ سَبَبًا فِي اجْتِمَاعِ أَهْلِ الْحَقِّ لِإِقَامَةِ دَوْلَةِ الْحَقِّ عَلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ.

وَنَسْأَلُهُ -سُبْحَانَهُ- أَنْ يَسْتُرَنَا بِسِتْرِهِ الْجَمِيلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يُمَسِّكَنَا بِالْإِسْلَامِ حَتَّىٰ نَلْقَاهُ ثَابِتِينَ صَابِرِينَ مُحْتَسِبِينَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المتن:

فَصْلٌ فِي وُجُوبِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِحِمَايَةِ الشَّرْعِ وَتَطْبِيقِهِ، وَلِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ

الشرح:

أنت تتكلم عن قيام الدولة الإسلامية، فهل عندك دليل شرعي علىٰ ما تدعو إليه؟ ربما تكون هذه الدعوة بدعية، ليست سُنية علىٰ أصول صحيحة، فهل يوجد دليل في الشرع يدل علىٰ وجوب إقامة الدولة الإسلامية، والدعوة إلىٰ إقامتها؟

الجواب: نعم، وستأتي معنا نصوص توجب علىٰ كل مسلم أن يدعو إلىٰ إقامة الدولة الإسلامية، وإقامة الخلافة الإسلامية. هذا أول أصل.

عندما يقول لنا قائل: أنت تدعو إلىٰ بدعة. دول الإسلام قائمة؛ إذن أنت تفرق ما اجتمعوا عليه!

نقول له: إن كانوا اجتمعوا علىٰ ضلال، فهل دعوتي باطلة؟ إن كانوا اجتمعوا علىٰ غير الإسلام ومنهج الإسلام، فهل دعوتي باطلة؟

إن كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرانا في القرآن والسنة بوجوب إقامة الخلافة الإسلامية، والدعوة إلىٰ إقامتها، وليس للإسلام وجود

ولا قائمة إلا بإقامة دولة، بالعكس نحن ندعو إلىٰ إقامة دولة علىٰ مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسنأتي بالأدلة علىٰ ذلك.

المتن:

يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ قِيَامَ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، كُلِّ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنْ وُجُوبِ قِيَامِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْبَدِيهِيَّاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَكِنْ مَعَ اشْتِدَادِ غُرْبَةِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَغِيَابِهِ لَدَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الدُّعَاةِ الْيَوْمَ، يَحْسُنُ أَنْ نُورِدَ مُوجَزًا وَمُجْمَلًا مِنَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ الْمُعَاصِرِينَ يُنْكِرُ لَفْظَةَ الْخِلَافَةِ، وَيَسْتَبْدِلُ بِهَا لَفْظَ الدَّوْلَةِ، وَلَنَا قَوْلُ رَبِّنَا عَزَّوَجَلَّ وَحَدِيثُ نَبِيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخِلَافَةِ وَعَوْدَتِهَا عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٣٠].

الشرح:

هنا أمران ننبه عليهما:

الأمر الأول: أن كثيرًا من الناس، أو من الدعاة، وأهل العلم، ينكرون الدعوة إلىٰ إقامة دولة إسلامية؛ لأنه يعتقد أن الدولة قائمة، وليس في نفسه أن الدولة غائبة، وقد بيَّنَّا فيما سبق أنه يعتقد أن دولته هي دولة الإسلام، دولته هي دولة

الخلافة، دولته هي دولة التوحيد، فلذلك ينكر علىٰ من يدعو إلىٰ إقامة الدولة؛ لماذا؟ لغيبة الوعي عنده، ولِتلبيس الطغاة عليه أنهم أهل التوحيد، وأهل الرسالة، وأهل الشريعة، ودين الله مُمَكَّن، والشريعة مطبقة بنسبة تسعين في المئة، في جميع دول الإسلام.

ولو فرضنا أن هذه الكيانات القائمة الآن هي دويلات صغيرة تحكم بالشريعة الإسلامية، فيجب علىٰ هذه الكيانات المتفرقة أن تجتمع تحت راية واحدة، وخليفة واحد؛ حتىٰ تكون لها المهابة في صدور الكفار، وحتىٰ تحقق أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاجتماع علىٰ الحق؛ وحتىٰ لا يطمع فيها عدوها، ونحن نرىٰ ملل الكفر تجتمع رغم اختلاف توجهاتهم وعقائدهم، فنرىٰ الولايات المتحدة، ونرىٰ الاتحاد الأوروبي، ونرىٰ حلف الناتو، وهم كفار! أليس من العار أن يجتمع الكفار ويتفرق المسلمون؟!

هذا هو الأمر الأول: غيبة الوعي في وجوب إقامة الدولة وبناءها عند كثير من الناس.

الأمر الثاني: بعض الناس والدعاة ينكرون لفظ «الخلافة»، مع أن هذا اللفظ هو الاسم الشرعي الذي جاءت به الآيات والأحاديث، كما في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم تكون خلافة علىٰ منهاج النبوة**»(١)، وقوله: «**عليكم بسنتي**

---

(١) «مسند أحمد»، رقم: (١٨٤٠٦).

وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»[(١)]، فسماهم خلفاء، وقال الله تعالىٰ عن آدم: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً}، وقال لداود عليه السلام: {يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ}، فسماه خليفة.

فلماذا ينكرون هذه اللفظة؟! لأنها تؤصل للإسلام الحقيقي وعودته في الأرض، هم يخشون من هذا، مع أن الخلافة العثمانية كان فيها من الأمراض ما جعلهم يطلقون عليها اسم «الرجل المريض» الذي لا حول له ولا قوة، إلا أن كلمة «الخلافة» كانت ترعبهم وترهبهم، وكانت تؤرقهم، مع أنها صورة لا قيمة لها، ولكنّ لفظة الخلافة ترجعهم دائما إلىٰ خلافة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولون: أتريدون أن تَرْجعوا بنا ألف سنة إلىٰ الخلف؟ نعم؛ لأن هذا عصر النور والتقدم والحضارة، وأما الآن فأنتم في عصر الظلام، فهم يكرهون لفظة الخلافة، ويقولون: ليست في القرآن والسنة!

ولم تأت لفظة «الدولة» إلا في العصر الحديث، وإنما الأصل أن تسمىٰ «خلافة»، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث علىٰ الخلافة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بالخلافة، فاسم «الخلافة» هو الاسم الشرعي الذي يُطلق علىٰ كيان الدولة الإسلامية.

---

(١) «سنن أبي داود» رقم: (٤٦٠٧).

والسؤال هنا: لماذا ينكر بعض الدعاة لفظ «الخلافة»؟ لأنه لُبِّس عليه من أعداء الدين، وقالوا له: إن لفظ «الخلافة» يرجعنا إلىٰ العصور المظلمة، مِن لبس الحجاب والنقاب، وإطلاق اللحىٰ، والثوب القصير؛ والحدود، وتحريم شرب الخمر، والزنا، وكل هذه الشعائر والأصول، فهذا هو مفهوم العفة والطهارة والتوحيد في أذهان الكفار، يعرفون هذا؛ لذلك ينكرون لفظة «الخلافة»، ويحرّضون أتباعهم من الأبواق الإعلامية علىٰ التحذير منها، فتجدهم يقولون عن أي حركة إسلامية تعلن أنها تريد إعادة الخلافة: هؤلاء خوارج، وهؤلاء ضالون، وهؤلاء أهل غلو وتكفير!

فلا بد أن تصل هذه المفاهيم إلىٰ أهل العلم. ونحن نتكلم بالدليل، ولا نأتي بشيء من عندنا، ففي هذا الكتاب لم أتكلم بكلمة من عندي، ولا من كيسي، وأي كلمة ليس فيها دليل من القرآن ومن السنة وفهم الصحابة وعمل الصحابة فهي مردودة، ولا أُحِلّ لأحد أن ينقلها عني، نحن نتكلم في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نتكلم بكلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبفهم الصحابة، وندعو إلىٰ التمسك بالأصول الثلاثة المعصومة: القرآن المحكم، والسنة الصحيحة، وفهم الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-. وإجماعُ الصحابة مقدم علىٰ إجماع غيرهم، وفهم الصحابة مقدم علىٰ فهم غيرهم، ومن يخالفنا في ذلك فهو المخالف لأهل السنة والجماعة.

المتن:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: «هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي نَصْبِ إِمَامٍ وَخَلِيفَةٍ، يُسْمَعُ لَهُ وَيُطَاعُ؛ لِتَجْتَمِعَ بِهِ الْكَلِمَةُ، وَتَنْفُذَ بِهِ أَحْكَامُ الْخَلِيفَةِ، وَلَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَلَا بَيْنَ الْأَئِمَّةِ».

الشرح:

إذن مسألة الخلافة مسألة قطعية عند الأمة كلها، لم يخالف فيها أحد، وإنما حصلت المخالفة في عصرنا هذا؛ بعد أن أصبح الإسلام غريبا، لكنها كانت راسخة في أذهان العصر الأول.

لذلك يا إخواني، نحن نريد أن نرجِع بالأمة إلىٰ عصرها المزدهر، عصر الإسلام، وعصر الخلافة الإسلامية.

فهنا يقول: «ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة، ولا بين الأئمة»، يعني: لم ينكر أحد من الأمة أو من الأئمة قط قيامَ الخلافة، ولفظة الخلافة.

المتن:

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا} [النِّسَاءُ: ٥٩].

وَوَجْهُ الدِّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ اللـه أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ، وَجَعَلَهَا تَبَعًا لِطَاعَةِ اللـه وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَمَفْهُومُ ذَلِكَ: أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تَحْصُلُ حَتَّىٰ تُنْصَبَ الْإِمَارَةُ

الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا أُولُو الْأَمْرِ، وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالسَّاسَةُ وَالْعُلَمَاءُ، وَبِدُونِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ لَا يَتَسَنَّىٰ تَنْصِيبُ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ، وَبِذَلِكَ لَا تَتِمُّ طَاعَتُهُمْ، فَيَنْتَفِي بِذَلِكَ مَقْصِدٌ عَظِيمٌ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ.

الشرح:

إذن الخلافة لا تكون إلا بدولة، والدولة لا تكون إلا برأس. النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أقام الدولة كان هو رأس الدولة، وكان الصحابة هم أفراد هذه الدولة، وسيأتي الكلام عن ذلك في مكونات الدولة وعناصرها التي تتكون منها.

وهذا الذي نقوله جاء في القرآن، وفي السنة، وعمل به الصحابة -رضوان الله عليهم-، وعملت به الأمة إلىٰ أن سقطت الخلافة.

إذن نفهم من هذا أن هذا القول إجماعٌ لا مخالف فيه، لا من الأئمة، ولا من الأمة، فهذا أمر قطعي؛ حتىٰ لا يأتي متفلسف جاهل بالشرع يشككك، فنحن نريد الآن أن نؤصل بالعلم والدليل؛ حتىٰ نقطع الطريق علىٰ الذين يعارضون لمجرد المعارضة.

المتن:

قَالَ الشِّيرَازِيُّ فِي «التَّبْصِرَةِ»: «قُلْنَا: الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الطَّاعَةُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَالتَّجْهِيزِ، وَالْغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ وَالدَّلِيلُ أَنَّهُ خَصَّ بِهِ أُولِي الْأَمْرِ».

الشرح:

وأولو الأمر ينصبهم أهل الحل والعقد، وهم رأس الدولة، ولا يمكن تنصيب أولي الأمر من غير دولة، فلا يعقل أن يكون أمير وخليفة من غير دولة، لذلك النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -وتأمل هذا جيدا، وتفكر فيه- عندما قال: «**من مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية**»، هذا مقصد من مقاصد إقامة الدولة والخلافة.

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جاء إلىٰ عرب لا يجتمعون تحت إمرة، ولا يجتمعون تحت راية، فهم نُزَّاع متفرقون متخاصمون، لا تجمعهم راية، فكان من أسباب عداوتهم له أنهم فهموا أنه يريد أن يجمعهم تحت راية واحدة، الأبيض والأسود؛ العجم والعرب، الغني والفقير، السيد والعبد، هم ينكرون هذا، لذلك النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[1]، فكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يأطرهم علىٰ هذا الاجتماع أطرًا، ويخوفهم من أن «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»، يعني: مات

---

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (١٨٥١).

كما يموت أهل الجاهلية، ليس في عنقه بيعة، ولا سمع ولا طاعة، مات علىٰ غير هدي الإسلام. لماذا؟ لأنهم كانوا لا يجتمعون.

فالأصل أن نجتمع علىٰ رأس وراية، علىٰ حاكم وخليفة يحكمنا ويَسُوسُنا بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالاجتماع علىٰ رأس هو أصلٌ في قيام الدولة، ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

المتن:

وَقَالَ تَعَالَىٰ: {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا} [النِّسَاءُ: ١٠٥].

وَوَجْهُ الدِّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الله أَنْزَلَ كِتَابَهُ لِيَكُونَ حَكَمًا وَمِيزَانًا، تَقُومُ بِهِ حَيَاةُ النَّاسِ وَدُنْيَاهُمْ، وَأَمَرَ بِذَلِكَ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِشَوْكَةٍ وَسُلْطَانٍ.

الشرح:

كيف يُحَكَّم دين الله من غير شوكة وسلطان؟! انظر الآن مثلا في عصرنا هذا، عصر غياب الشريعة، تجد الانحلال والفتن؛ والكفر والشرك، والاستهزاء بدين الله، وسب الله ورسوله، ولا رادع! ولو رأىٰ أحد من الناس مخالفةً من شخص ما، فأقام عليه الحد وقتله؛ لأصبحت الأمور فوضىٰ، كل يقتل الآخر إذا رآه مخالفًا، وما جُعِل الإمام إلا جُنَّةً، يتقي به من

خلفُه، لذلك الافتئات على الإمام في تطبيق الشريعة لا يجوز، فليس لأحد أن يقيم الشرع بهواه، ولا يقيم الحدود بنفسه، ولا بما يراه.

إذن من أهم مهمات الإمام والخليفة: إقامة شرع الله، وإقامة الحدود، وليس ذلك لآحاد الناس؛ لأنه يوجد قضاة وتحقيق وأدلة وبراهين يقضي بها، وإلا لَقَتل كل إنسان من يراه مخالفًا له، فتصير الأمور فوضى، والخلافة جامعة وقاضية على هذه الفوضى.

المتن:

تَتَأَصَّلُ مِنْ خِلَالِهَا إِدَارَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، تُشْرِفُ عَلَىٰ أَجْهِزَةِ الْقَضَاءِ وَسُلُطَاتِ التَّنْفِيذِ، وَهُوَ مَا يُوجِبُ قِيَامَ دَوْلَةٍ تُمَارِسُ السُّلُطَاتِ بِأَنْوَاعِهَا، وَتُقِيمُهَا عَلَىٰ مَرْضَاةِ اللهِ.

الشرح:

إذن هذه الدولة لها حكومات، ولها وزارات، ولها أفرع، ولها قادة، ولها حسبة، فالحكومة هي إدارة الدولة، وسيأتي معنا بعد ذلك تعريف الحكومة، وتعريف الدولة.

فلا بد من القضاء الذي يحكم بين الناس بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا بد من القوة الإلزامية، التي هي الشوكة، حتى تجبر الطغاة، وتجبر اللصوص وقطاع

الطرق، فإذا انعدمت هذه الشوكة كانت الدولة ضعيفة، بل إن من أسباب انهيارها: عدم قدرتها وقوتها وسلطتها.

المتن:

وَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾} [اَلْمَائِدَةُ:٤٩-٥٠].

الشرح:

حكم الجاهلية فصلناه قبل ذلك، أنهم يكونون متفرقين، لا حاكم لهم، ولا شرع ولا دين، ولا غير ذلك، وهذا هو الواقع الذي نراه الآن.

إذن الخلافة والسلطة تجمع هؤلاء، وتمكن للدولة بقوتها، وقوة سلطانها، وقوة تحكيم الشريعة فيها، أما غير هذا فلا.

المتن:

وَالْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَئِمَّةِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الَّتِي تُمَارِسُ السُّلُطَاتِ السِّيَاسِيَّةَ الْمُخْتَلِفَةَ...

الشرح:

بعد أن وقفنا على أدلة القرآن في وجوب إقامة الدولة، وعلمنا أنها أدلة قطعية لم يخالف فيها أحد من الأمة، ولا أحد الأئمة، وأن هذا إجماع عند أهل الإسلام، لا أقول: عند فرقة معينة، بل عند أهل الإسلام، وأئمة أهل الإسلام- نأتي إلى نصوص السنة النبوية الصحيحة، التي تثبت وجوب قيام الدولة الإسلامية.

إذا علمت ذلك تبين لك أننا عندما ندعو إلى إقامة الخلافة الإسلامية، إنما نتبع الدليل من القرآن والسنة، ولم نأت به من عند أنفسنا، ولم ندع بهوانا، ولم ندع بما نراه نحن، بل نحن ندعو إلى ما دعا إليه الله ورسوله.

المتن:

فَمِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ».

الشرح:

إذن تقام الدولة حتى لو كان الأمير عبدًا حبشيًّا، طيب العبد لا يُوَلَّى، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وإن استعمل عبد حبشي**»(١)، مع أن الخلافة في قريش، واختلف العلماء في حكم تولية غير القرشي إذا لم يوجد قريشي كفء على قولين، ولكن لم يقولوا بجواز تولية العبد، بل لا بد أن يكون حرًا، كما

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٧١٤٢).

سيأتي معنا تفصيلا: من هو ولي الأمر الذي تجب طاعته؟ وما صفاته؟ وغير ذلك، ولكن انظر إلىٰ كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدلك علىٰ وجوب الاجتماع علىٰ الخلفية، ووجوب تنصيبه، حتىٰ وإن لم تجدوا رأسًا يحكمكم وتجتمعون عليه إلا عبدًا حبشيًّا فاجتمعوا عليه.

المتن:

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَىٰ أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**».

الشرح:

فإذا نصَّب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميرًا، وجبت طاعته، وطاعة الأمير إنما تجب في طاعة الله ورسوله، وما دام مسلمًا مطيعًا لله مطبقًا لشرعه، فالنبي قال: «**أميري**»، فنسبه إلىٰ نفسه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا إلىٰ غيره.

المتن:

«فَإِنَّ بَنِي آدَمَ لَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهُمْ إِلَّا بِالِاجْتِمَاعِ؛ لِحَاجَةِ بَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ عِنْدَ الِاجْتِمَاعِ مِنْ رَأْسٍ».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «...**وَلاَ يَحِلُّ لِثَلاَثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلاَةٍ إِلاَّ أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ**»، فَأَوْجَبَ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَأْمِيرَ الْوَاحِدِ فِي الْاجْتِمَاعِ الْقَلِيلِ الْعَارِضِ فِي السَّفَرِ، تَنْبِيهًا بِذَلِكَ عَلَىٰ سَائِرِ أَنْوَاعِ الِاجْتِمَاعِ.

الشرح:

إذا كان تنصيب الأمير واجبًا في حق الثلاثة إذا كانوا في سفر أو غير ذلك، فإنه يجب علىٰ الأمة تنصيب إمام وخليفة من باب أولىٰ، فإذا كان الثلاثة في السفر لم يجُز لهم أن يسافروا أو يمشوا في طريق، إلا أمَّروا عليهم واحدًا منهم؛ حتىٰ ينضبط أمرهم، وحتىٰ لا يختلفوا؛ لأنهم لو لم يؤمِّروا واحدا عليهم لكانت الآراء ثلاثة، وربما تكون متضادة، فيختلفون، وهذا يحدث، فتكون الآراء كثيرة: لا ننزل هنا، لا نقيم هنا، لا نأكل هنا، لا...، لا...، فيختلفون، لكن لو كان معهم أمير لحسم الأمر، فإذا كان هذا في أمور الدنيا فأمور الدين أولىٰ.

المتن:

وَلِأَنَّ الله تَعَالَىٰ أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِقُوَّةٍ وَإِمَارَةٍ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا أَوْجَبَهُ مِنَ الْجِهَادِ، وَالْعَدْلِ، وَإِقَامَةِ الْحَجِّ، وَالْجُمَعِ، وَالْأَعْيَادِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالْإِمَارَةِ... »إِلَىٰ قَوْلِهِ: «فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْإِمَارَةِ دِينًا، وَقُرْبَةً يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ الله، فَإِنَّ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ فِيهَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ.

الشرح:

فأفضل القربات: أن تتقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتولية الأمير، وبإقامة الخلافة، هذه هي التي ينتظم بها عقد الإسلام، وبغير ذلك ينفرط عقد الإسلام، ولا تقوم له قائمة. هذا مهم جدا أن نتدبره، ونتأمله.

نحن الآن نسير خطوة خطوة في بناء الدولة، لا بد ألا يغيب عن مخيلتنا كيف أقام النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه هذه الدولة، فنتخيل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة وهم في مكة، وقد أخذوا بأسباب الحيطة، وأرسل السفراء التي مهمتهم الأساسية نشر الدعوة، وشرح حقيقتها للناس، واكتشاف الكفاءات المتخصصة في كل المجالات الشرعية والعلمية، في الطب، والهندسة، والزراعة، والصناعة، والتجارة، والسياسة، وهذه من أهم مراحل بناء الدولة؛ لأن هذه الكفاءات المتخصصة هي التي تقوم عليها الحكومة، وإدارة الدولة بعد قيامها، ثم بعد ذلك هاجروا إلىٰ المدينة، ثم آخىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، ثم بنوا المسجد، ثم فُرِض الجهاد، ثم وضع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثيقة المدينة في الدفاع المشترَك. كل هذه الخطوات لا بد ألا تغيب عنك؛ لأن هذا هو التصور الصحيح لبناء الدولة، إذا كان هذا راسخًا في ذهنك، فستسعىٰ إلىٰ تحقيقه في الأرض؛ أما إن كان غائبًا، فوالله لو قرأت كل كتب العالم فلن تنفعك، ستضل حتما؛ لأن الصورة الحقيقية فيها لبس عندك؛ أنت لم تتخيل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يتنقل في دعوته بين العرب والنصارىٰ

واليهود، من بني قريظة، إلىٰ خيبر، ويتفق معهم علىٰ ميثاق المدينة، والدفاع المشترك... إلخ، إن غاب عنك هذا فستغيب عنك مفاهيم قيام الدولة.

فاستحضر هذا الجهد وهذه الخطوات في ذهنك ومخيلتك، وأنت تقرأ، وتخيل في ذهنك صورة معينة لأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد، وابن عوف، كيف كانوا، ضع هذه الصور في ذهنك وانظر إلىٰ إخوانك مَنْ مِنهم كعثمان، مَن منهم كعلي، مَن منهم كابن عوف، لا بد أن ينقدح هذا في ذهنك، وإلا فسيكون كلامًا نظريًا نضيّع به الوقت ونسلي به أنفسنا! ونأخذ السيرة كما أخذها كثير من الناس حكايات وتسالي!

فنحن نقيم منهجًا في الأرض، وقيام المنهج في الأرض من أصعب الأمور، ليس بالأمر الهين، وليس قيام الدولة مرحلة واحدة، بل مراحل.

وإذا أردت أن تعرف مدىٰ صعوبته، انظر إلىٰ الضريبة التي دُفعت في سبيل إقامة الدولة الإسلامية، كم من الدماء والأشلاء، والصحابة، والمجاهدين، ماتوا وقتلوا في سبيل هذا الذي أنت تدعو إليه الآن؟! فلا يغب عنك هذا التصور، نحن نتبع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولنا شرف الانتماء والاتباع، ونفتخر بهذا، ولا تنظر للدولة كنظرتك للجماعة والطائفة والقبيلة، أنت تبني دولة، فلا تنتظر أن تُبنَىٰ في يوم وليلة، أو تكتمل في مرحلة واحدة.

المتن:

وَقَدْ أُثِرَ عَنِ الْخَلِيفَةِ الثَّالِثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَوْلُهُ: «إِنَّ اللـه لَيَزَعُ بِالْسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ»، فَلَعَلَّ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ، أَبْلَغَ بَيَانٍ لِلدَّوْرِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الدَّوْلَةُ الْمُسْلِمَةُ فِي إِنْفَاذِ الشَّرْعِ، وَتَحْقِيقِ وُجُودِهِ؛ مِنْ خِلَالِ سُلْطَانِ الدَّوْلَةِ وَهَيْبَتِهَا الَّتِي تُفْرَضُ لِبِنَاءِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَوْطِيدِ أَرْكَانِهِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ، عَبْرَ مُمَارَسَةِ السُّلُطَاتِ الْعَامَّةِ فِي سَوْقِ النَّاسِ إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ، وَالْأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ لِتَعَالِيمِ الدِّينِ الْحَنِيفِ، مَعَ التَّصَدِّي لِمَظَاهِرِ الِانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ، الَّتِي تَعُوقُ الْمُمَارَسَةَ الدِّينِيَّةَ، وَتَمْنَعُ أَسْبَابَ الِاسْتِقَامَةِ وَالْهِدَايَةِ.

الشرح:

إذن لا بد أن تحمي الدولةُ الشريعةَ بقوتها وسلطانها، ولا بد أن تكون الدولة قوية حازمة في ردع المخالفين، وإلا لحادَ الناس عن الشريعة، فلا بد أن يكون الخليفة قويًّا حازما، وسيأتي معنا أنه يُختَار للخلافة من هو أصلح لها، وأن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة، فيولّىٰ لكل منصب من هو الأصلح بحسبه، فالذي يصلح للخلافة والإمارة هو القوي الأمين، كما قيل في تفسير قول اللـه تعالىٰ: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ}.

وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إنك ضعيف**»، لما طلب الإمارة وقال: يا رسول اللـه، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي، ثم قال: «**يا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وإِنَّهَا يومَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا**

مَن أَخَذَهَا بحَقِّهَا، وَأَدَّىٰ الذي عليه فِيهَا»[١]، وأبو ذر هذا هو الذي قال عنه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[٢]، ومع ذلك يقول له: «إنك ضعيف»، لأن الإمارة لا يطيقها كلّ أحد، فالنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يولي الأصلح وإن كان في القوم من هو أكثر منه علمًا، وتقوىٰ، وورعًا، وغير ذلك.

انظر كيف ولّىٰ خالدَ بن الوليد علىٰ جيش فيه أبو بكر وعمر وعثمان، مع أن الأمة وأهل السنة مجمعون علىٰ أن أفضل الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وولىٰ خالدًا، مع أن خالدًا كان يأتي بأشياء ينكرها النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتىٰ قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللـهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»[٣]، عندما قتل بطريق التأويل والخطأ أناسًا من بني جذيمة عندما قالوا: صبأنا، ووَدَاهم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك لم يعزله؛ لأنه هو الأصلح لقيادة الجيوش. فاختيار الأصلح: هو أن تضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فالدولة تبنىٰ بالكفاءات، لا بالمجاملات.

المتن:

---

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (١٨٢٥).

(٢) انظر «البداية والنهاية»: (٧/ ١٥٩)، و«سير أعلام النبلاء»، رقم: (١٠٦).

(٣) «صحيح البخاري»، رقم: (٦٣٤٠)، «مسند أحمد»، رقم: (٦٣٨٠).

وَحَدِيثُ عَوْدَةِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ مِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ، وَيَبْعَثُ الْأَمَلَ فِي الْأُمَّةِ أَنَّ الْخِلَافَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ سَتَعُودُ، وَنَحْنُ فِي وَقْتِهَا وَنَعْمَلُ لَهَا.

الشرح:

نعم، نحن الأن في وقتها، والنبي ﷺ قال: «تكونُ خلافةٌ علىٰ مِنهاجِ النُّبُوَّةِ ما شاء الله أن تكونَ، ثم يَرْفَعُها الله -تعالىٰ-، ثم تكونُ مُلْكًا عاضًّا، فتكونُ ما شاء الله أن تكونَ، ثم يَرْفَعُها الله -تعالىٰ-، ثم تكونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فيكونُ ما شاء الله أن يكونَ، ثم يَرْفَعُها الله -تعالىٰ-، ثم تكونُ خلافةً علىٰ مِنهاجِ نُبُوَّةٍ»(١)، فنحن ننتظر ونفرح بوعد رسول الله ﷺ، أنه ستأتي الخلافة الإسلامية علىٰ منهاج النبوة، هذا وعد رسول الله ﷺ ونحن في وقته، وفي زمانه؛ ولذلك نحن نعمل بكل ما نستطيع لقيام وعودة هذه الخلافة الإسلامية، نحن نصدق النبي ﷺ، ونعتقد اعتقادًا جازمًا صدق كلامه، صلوات ربي وسلامه عليه.

نحن في زمن عودة الخلافة الإسلامية علىٰ منهاج النبوة، فكل صادق يعمل لها ولعودتها، ليكون لبنة فيها، ولو لم يشاهد هو هذا النصر، ولكن هو شارك في بناء يعتقد أنه سيأتي يومًا ما، وهذا الذي نفعله الآن، نفعله من باب الأخذ بالأسباب، فإن عشناه فهو خير ونعمة، شرفنا الله بذلك، وإن لم نعشه وأتىٰ

(١) سبق تخريجه.

بعدنا فقد شارَكْنا فيه، وسيتوارث هذه الأمور أحفادنا وأولادنا، حتىٰ يسيروا علىٰ هذا النور الذي جاء عن الله ورسوله.

المتن:

فَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: «كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ: «يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأُمَرَاءِ؟». فَقَالَ حُذَيْفَةُ: «أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ»، فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ الله أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ الله أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَىٰ مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ سَكَتَ». قَالَ حَبِيبٌ: «فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي صَحَابَتِهِ؛ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ أُذَكِّرُهُ إِيَّاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: «إِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ -يَعْنِي عُمَرَ- بَعْدَ الْمُلْكِ الْعَاضِّ وَالْجَبْرِيَّةِ». فَأُدْخِلَ كِتَابِي عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ فَسُرَّ بِهِ وَأَعْجَبَهُ»».

الشرح:

سُرَّ به لأنه اعتقد أن الناس يعتقدون أن خلافته علىٰ منهاج النبوة، كما كانت علىٰ عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فالمسلم يفرح بتحكيم شرع الله، يفرح أنه علىٰ طريق الله ورسوله، هذا الذي سُرّ به عمر.

المتن:

مَفْهُومُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَعْنَاهَا.

الشرح:

بعد أن انتهينا من سرد الأدلة علىٰ وجوب إقامة الخلافة، ننتقل إلىٰ الحديث عن معنىٰ الدولة، هل هي كتلة بشرية؟ أم هي أرض يجتمعون عليها؟ أم الدولة التي نعنيها هي دولة يعلوها حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، دولة تحكمها الشريعة، دولة فيها نظام وفيها قانون إلهي ينظم حياة البشر فيها، هذا مفهوم الدولة الإسلامية، والدولة بهذا المفهوم تختلف عن الدولة بمفهوم النظام العالمي الجديد، النظام العالمي الجديد يقول: إن كل تكدس سكاني يسمىٰ دولة، وله حقوق، لكنهم إذا رأوا أن نظامها قائم علىٰ الشريعة الإسلامية فإنهم لا يسمونها دولة، ولا يعطونها حقوق الدولة.

فـ «الدولة الإسلامية»: هي الدولة التي تتخذ الشريعة الإسلامية مرجعًا لها، وتحكم بما أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والذي يحكمها يكون مسلما؛ فواجب علىٰ الأمة أن تعين الحاكم المسلم، لا كما يقول بعض الناس: نريد الأمن ولا يعنينا من يحكمنا! نقول: هذا خطأ، وهذا -للأسف- يقوله بعض من يدعو إلىٰ الإسلام، أو ينتمي إلىٰ العمل الإسلامي. والصواب: أن المسلم يعنيه أن يكون حاكمه مسلمًا، ليس بكافر.

المتن:

الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَرْتَكِزُ فِي مَرْجِعِيَّتِهَا إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْ خَصَائِصِهَا: أَنَّهَا شَرِيعَةُ الشُّمُولِ وَالْكَمَالِ، جَاءَتْ شَرِيعَةً كَامِلَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ وَمَظَاهِرِهَا: السِّيَاسِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَمِنْ ضِمْنِ الْأُمُورِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ: الْأُسُسُ، وَالْأُطُرُ، الَّتِي تُحَدِّدُ شَكْلَ الدَّوْلَةِ فِي الْإِسْلَامِ.

الشرح:

إذن فمفهوم الدولة الإسلامية قائم علىٰ أن الشريعة كاملة شاملة لكل جوانب الحياة ومظاهرها، هذا هو المفهوم الشرعي، لكن بعض الناس وبعض العاملين في الحقل الإسلامي يقولون: نحن نؤطر القانون، ولا تعنينا الحالة الاجتماعية، أو السياسية، أو الاقتصادية. وهذا خطأ؛ لأن الشريعة الإسلامية شريعة كاملة شاملة، ومن ظن أن الشريعة ليس فيها ما يغني عن غيرها في جميع مظاهر الحياة: السياسية، والاقتصادية، والصناعية، والاجتماعية... إلخ؛ فإنه يسيء الظن بالشريعة الإسلامية، ولذلك يقولون: نحن نحكم الشريعة في النظام العام، أما النظام السياسي، أو الزراعي، أو الاقتصادي، أو الصناعي فلا! فنقول لهؤلاء: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، فإما أن تأخذوا الدين كله، أو تتركوه كله، فإن كنتم تعتقدون أن هذه الشريعة كاملة في كل شيء، فلماذا تحاولون تجزيء الشريعة، وتوهمون المخالفين أن هذه الشريعة ناقصة وأنها تحتاج إلىٰ من يكملها من الغرب أو الشرق؟! فنقول: إن

هذا يدل علىٰ قصورٍ في فهم معنىٰ الدولة الإسلامية، وقصور أيضًا في فهم شريعة الإسلام.

فيجب علينا أن نحكم الشريعة الإسلامية في كل مجالات الحياة، في الحكم بين الناس، وفي السياسة، وفي العلاقات الخارجية والدولية، فلا يجوز لنا أن نحكمها في جانب، ونتركها في جانب.

والذي يعتقد أن الشريعة شاملة كاملة ولا يعمل بها في الواقع؛ فإن عنده اضطرابًا، ولا فرق بينه وبين العلماني الذي يعتقد أن الدين في المسجد والصلاة والصيام والحج فقط، ولا يحْكُمُ حياةَ الناس!

وعلاج هذا الخلل أن يعلم أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وشاملة لكل مظاهر الحياة: الزراعية، والتجارية، والصناعية، والمعاملات... إلخ.

المتن:

«اَلدَّوْلَةُ»: هِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَفْرَادِ، يُمَارِسُونَ نَشَاطَهُمْ عَلَىٰ إِقْلِيمٍ جُغْرَافِيٍّ مُحَدَّدٍ، وَيَخْضَعُونَ لِنِظَامٍ سِيَاسِيٍّ مُعَيَّنٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَتَوَلَّىٰ شُؤُونَ الدَّوْلَةِ.

الشرح:

هذا هو التعريف العام المستقر في النظام الدولي؛ مجموعة من الأفراد يجتمعون علىٰ بقعة من الأرض، ثم يضعون دستورًا لهم يحكمهم، وينظم حياتهم.

وهذا ينطبق علىٰ تعريف الدولة الإسلامية جزئيًّا لا كليًّا، فالدولة الإسلامية لها أرض تكر منها، وتفر إليها، كما اتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة قاعدة ينطلق منها، وكان أفرادها المهاجرون والأنصار، وكان هو رأس الدولة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولها نُظُم إدارية وقوانين شرعية، فالنظم الإدارية هي التي تنظم حياة الناس وفقا للشرع، مثلًا: رجل عنده شركة، فوضع جهازًا لضبط حضور العمال وانصرافهم، يسجل فيه من حضر في أي ساعة حضر؟ فهذا يسمىٰ نظامًا إداريًّا، ولا يسمىٰ حكمًا شرعيًّا، فلا يأتي جاهل، أو متنطع يقول: هذا تحاكم إلىٰ غير شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنت تكفر بهذا! لأنك وضعت جهازًا يضبط حضور العمال وانصرافهم، وهذا ليس في الشرع، ولا بد أن نتحاكم إلىٰ الشرع! فهو لا يفرق بين النظام الإداري، والحكم الشرعي.

فالنظام الإداري ينظم قوانين الأمة، حتىٰ تضبط تعاملات الناس، كما دون عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدواوين لما توسعت الدولة، فكتب فيها أسماء الجنود، ووظائفهم، ورواتبهم، وعوائلهم، فعمل لكل فرد من أفراد الجيش ملفًا فيه

اسمه، واسم زوجته، وأسماء أولاده، وفيه ما يعطاه من الأرزاق (الراتب)، وغير ذلك. فهذا يسمىٰ ديوانًا، وهذا من النظام الإداري.

فالنظام الإداري أو اللوائح الإدارية المنظمة لحياة الناس منبثق من الشرع، وهو من أسس الشريعة، فلا ينبغي أن يُترَك الناس لا ضابط لهم؛ لأن الشريعة ليست عشوائية، الشريعة هي نظام صحيح ينظم حياة الناس علىٰ وفق شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ففرق بين النظام الإداري، أو اللوائح الإدارية، التي تعملها الشركات، أو الهيئات، أو المصانع؛ لتنظيم حركة وعمل الموظفين فيها، وبين النظام الشرعي الذي من خالفه فعليه عقوبة أو حدّ، والضابط بينهما: هو تغيير حد من حدود الله، أو حكم من أحكام الله، أو عقوبة مقدرة في دين الله.

فهذه هي الدولة بأطرها الثلاثة، وسيأتي تفصيلها -إن شاء الله-.

المتن:

وَتُعَرَّفُ الدَّوْلَةُ بِأَنَّهَا: شَعْبٌ مُسْتَقِرٌ عَلَىٰ إِقْلِيمٍ مُعَيَّنٍ.

الشرح:

«مستقر» يعني: ليس متنقلًا؛ لذلك لا يُطلَق علىٰ البدو الرُّحَّل أنهم دولة؛ لأنهم ليسوا مستقرين علىٰ أرض.

المتن:

وَخَاضِعٌ لِسُلْطَةٍ سِيَاسِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَهَذَا التَّعْرِيفُ يَتَّفِقُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَوِي الْعَنَاصِرَ الرَّئِيسَةَ الَّتِي لَا بُدَّ لِقِيامِ أَيِّ دَوْلَةٍ مِنْهَا، وَهِيَ: الشَّعْبُ، وَالْإِقْلِيمُ، وَالسُّلْطَةُ، وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي صِيَاغَةِ التَّعْرِيفِ.

الشرح:

لا مشاحة في الاصطلاح، والمسلم لا يغرق في الجزئيات، المسلم يؤصّل الكليات، ويضبط الفرعيات، فمثلا: لو أن رجلًا بجوارك، يصلي ويهوي إلىٰ السجود بيديه، وأنت تهوي بركبتيك، أو هو يضع يديه بعد الرفع من الركوع علىٰ صدره، وأنت لا تضعهما، فإذا أغرقت في هذه الجزئيات وبدأت تفكر: هل هو علىٰ منهجي وعقيدتي؟ فإن وافقك فيما تقول أو ما تفعل، فهو منك؛ وإن خالفك، صنفته وأنت تصلي! ثم بعد ذلك يأتي في نفسك أن تحدثه في هذه المسألة، وتثبت له أن الأصل والسنة والصحيح الذي لا حق غيره: أنه يجوز وضع اليدين بعد الرفع من الركوع علىٰ الصدر في الصلاة؛ لحديث وائل بن حجر... إلخ، فتبدأ تذكر الأدلة علىٰ هذه الجزئية، وربما يكون متفقًا معك في أصول عقيدة أهل السنة والجماعة كلها، وأنت بذلك تجعل بينك وبين الآخرين حاجزًا بالجزئيات، وتغافلت عن الأصول والكليات، وربما يكون مشركًا، أو كافرًا، أو قبوريًّا، أو ديمقراطيًّا، وأنت لا تنظر إلىٰ هذا، بينما تنظر إلىٰ حركته في الصلاة! فهذا يسمىٰ إغراقًا في الجزئيات، وكل مسألة لا ينبني

عليها عمل: فهي لغو. وسيأتي في أسس الدولة: أن من أسس قيامها: التوحيد، بغض النظر عن التهاون في بعض الواجبات.

المتن:

وَتُشْرِفُ الدَّوْلَةُ عَلَىٰ أَنْشِطَةٍ: سِيَاسِيَّةٍ، وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَاجْتِمَاعِيَّةٍ، وَالَّتِي تَهْدِفُ إِلَىٰ تَقَدُّمِهَا، وَازْدِهَارِهَا، وَتَحْسِينِ مُسْتَوَىٰ حَيَاةِ الْأَفْرَادِ فِيهَا.

الشرح:

فالدولة تتقدم بتطوير صناعتها واكتفائها ذاتيًا... وغير ذلك، فالدولة عندها أرض، فينبغي أن يقام عليها مبانٍ تحفظ كرامة الإنسان، ويُبنَىٰ عليها مصانع تخدم الأمة المسلمة، فيها أرض زراعية تُزرع، عندها موانئ ومنافذ خارجية، فينبغي أن تستغل في التجارة.

فالذي يعمل للإسلام يستغل هذه الموارد، والذي يعمل لنفسه لا يستغلها، ولا يعنيه أَستُغلّت فيما يحصل به النفع أم لا؛ لأنه لا يفكر إلا في نفع نفسه في فترة حكمه، ولا يهمه ما يحصل للشعب بعد ذلك، وهذا حال حكام العرب في زماننا، فلا يوجد في زماننا هذا حاكم مسلم يحب الإسلام ويعمل له، والدليل علىٰ ذلك ما نراه من التردي الذي وصلت إليه الدول العربية، مع أن فيها إمكانيات ضخمة! إمكانيات بشرية، وصناعية، وبيئية، ولو استُغِلت استغلالًا جيدًا لساد المسلمون العالم، كما فتح النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه

العالم، وهم في هذه البقعة الصغيرة (المدينة)، ولكنهم استغلوا مواردها؛ ففتحوا العالم بعقيدة التوحيد، وتوسعوا شيئًا فشيئًا في نشر دين الله في الأرض، فقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يهادن القبائل العربية أولًا، ثم يدعوها، فإن لم تستجب للسلام والإسلام، أغار عليها، فوسّع الدولة بالنظام الإسلامي الذي فيه الدعوة مقدمة علىٰ القتال، حتىٰ كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يغير فجرًا، فإذا سمع أذانًا كفَّ، وهذا يدل علىٰ أن الدعوة مقدمة علىٰ القتال.

المتن:

وَمَفْهُومُ الدَّوْلَةِ يَخْتَلِفُ عَنْ مَفْهُومِ الْبَلَدِ وَمَفْهُومِ الْأُمَّةِ، فَـ «الْبَلَدُ» لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَىٰ مَنْطِقَةٍ جُغْرَافِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، مِثْلُ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْمُتَفَرِّقَةِ بَعْدَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ.

الشرح:

فالخلافة الإسلامية -أيًّا كانت- تجمع الدول الإسلامية كلها تحت راية واحدة، فلا يطمع الغرب الكافر في أرض الخلافة؛ لوجود رأس، وجيش ضخم، ولأن شريعة الجهاد قائمة. وهؤلاء يعرفون أن المسلم إذا كان يدافع عن الإسلام وعن دولة الخلافة فإنه لا يلوي علىٰ شيء، ويستبسل في القتال؛ أما إذا كانوا دولًا متفرقة -كما هو الحال الآن-، فترىٰ كل دولة تساعد الغرب حتىٰ يحفظ عليها استقرارها، وترىٰ الحكام يسارعون في الكفار حتىٰ يُثبِّتُوا عروشهم، حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب إخوانهم المسلمين، انظر مثلًا ما

حدث في العراق، انظر ما حدث في أفغانستان، ما ضُربت أفغانستان إلا بمساعدة الدولة العربية، وما ضربت العراق إلا بمساعدة الدول المجاورة، فتحوا بلادهم الإسلامية للكافر المحتل ليضرب المسلمين، ولو كانت لهم راية تجمعهم، لما حصل هذا. هذا يدلك علىٰ أهمية وجود الخلافة الإسلامية.

المتن:

وَ «الْأُمَّةُ»: تَرْمُزُ إِلَىٰ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّاسِ، تَجْمَعُهُمُ اعْتِبَارَاتٌ مُشْتَرَكَةٌ أُصُولًا، وَتَارِيخًا، مِثْلُ: الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ظِلِّ الْخِلَافَةِ عَلَىٰ مَرِّ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

يطلق «البلد» علىٰ: بقعة محددة صغيرة من كُلٍ، يعني: جزء من كل؛ أما الأمة: فتطلق علىٰ الجنس، الأمة العربية، الأمة الإسلامية، الأمة الرومانية، هذه أمم.

والذي يعنينا هنا هو مفهوم الدولة الإسلامية، ليس بمفهوم الغرب، وليس بالمفهوم الحادث، ولكن بالمفهوم الشرعي الذي كان علىٰ عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

وَالَّذِي يَعْنِينَا هُنَا -بَعِيدًا عَنِ التَّعْرِيفَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ- هُوَ مَفْهُومُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَعْنَاهَا.

فَـ «الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ»: هِيَ الدَّوْلَةُ الَّتِي تَتَّخِذُ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مَصْدَرًا وَمَرْجِعًا رَئِيسِيًّا وَحِيدًا فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَالْقَوَانِينِ وَالنُّظُمِ الْإِدَارِيَّةِ الْمُنَظِّمَةِ لِحَيَاةِ النَّاسِ وَمُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلَةِ مِنْهَا.

الشرح:

هذا أول تعريف للدولة الإسلامية: أنها دولة تتخذ الشريعة مرجعًا لها، لا كما يدلسون علىٰ الناس بقولهم: روح الشريعة، وسيادة الشريعة.

«الشريعة» أي: أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من إيمان وكفر، أما قولهم: مبادئ الشريعة. نقول: ما المقصود بمبادئ الشريعة؟ يعني: لا مانع من أن أغير في القوانين، وآتي بقوانين غربية، وأقول: هذه مبادئ الشريعة، هي ليست شريعة ولكنها مبادئ شريعة؟! هذا تحايل علىٰ الشريعة، وليس تحكيمًا لها.

فتحكيم الشريعة يعني: أن تلتزم بكل أحكام الشرع، وتنظّمها وترتّبها، ولا مانع من أن تضع القوانين والنظم الإدارية المنظمة لحياة الناس، لا يمنع من ذلك إلا أهل الغلو وأهل الجهل؛ أما المسلم الصحيح فيعلم أن دولة الخلافة كان فيها قوانين ولوائح ونظم إدارية تنظم حياة من يعيش في ظلها، وهذه النظم والقوانين منبثقة من الشريعة، وتحت مظلتها، فهي لا تخرج عنها.

وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يأذن لسبيٍ كافر قد احتلم في دخول المدينة، ولكن هذا ليس عزيمة، أي: ليس حكمًا شرعيًّا واجبًا، حتىٰ كتب له المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو علىٰ الكوفة، يذكر له غلامًا صنعًا، ويستأذنه في دخول المدينة، فلما دخل هذا الكافر، وحصل ما حصل؛ قال عمر لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ألم أقل لكم؟!»، قال: «أتعزم علينا؟»، هنا الطاعة للأمير فيما يقول اجتهادًا، قال: «لا، ولكن كرهت أن يشاركنا فيها غير أهل الإسلام»(١)، والقصة رواها البخاري وابن سعد في الطبقات وغيرهما.

فهذا قانون منظم لحياة الناس، أن تستأجر بعض المشركين الذين يتقنون بعض المهن، والصناعات التي لا يتقنها أحد من المسلمين، فتكتسبها منه، ثم ترده إلىٰ بلاده.

فهذه القوانين والنظم لا تمنعها الشريعة البتة.

المتن:

كَمَا يُشِيرُ هَذَا الْمَفْهُومُ إِلَىٰ أَنَّ مُعْتَقَدَ وَدِينَ أَفْرَادِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَرَأْسَ هَذِهِ الْدَّوْلَةِ وَحَاكِمَهَا شَرْطًا أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا مُحَكِّمًا لِلشَّرِيعَةِ، مُلْتَزِمًا بِهَا، لَا يَخْرُجُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ وَلَا قَلِيلٍ، كَمَا سَيَأْتِي فِي صِفَاتِ أُولِي الْأَمْرِ.

الشرح:

(١) «الطبقات الكبرىٰ»، رقم: (٧٧).

إذن الدولة الإسلامية يحكمها مسلم، هذا أول شرط في الدولة الإسلامية، ولو حكمها مسلم وكان فيها كفار فإن هذا لا يغير صفة الدولة؛ لأن الدولة كما ترعىٰ حقوق المسلمين، كذلك ترعىٰ حقوق الذميين بشروط أهل الذمة، فأصل الدولة هو رأسها، ورأسها لا بد أن يكون مسلمًا، ويسمىٰ ولي أمر، لكن لا يسمىٰ ولي أمر إن أتىٰ بناقض، وإن سُمّي عرفًا فلا يسمىٰ شرعًا؛ لأن الإسلام وتحكيم الشريعة شرط في صحة ولايته.

المتن:

وَالدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَسْتَمِدُّ خَصَائِصَهَا مِنْ خَصَائِصِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، الَّتِي تَتَّخِذُهَا مَرْجِعِيَّةً لَهَا، فَالدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَتَّصِفَ بِالْوَسَطِيَّةِ وَالرَّبَّانِيَّةِ، كَمَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي أَحْكَامِهَا.

الشرح:

«الوسطية»: هي الأمر المقتصد الذي لا غلو فيه ولا تفريط؛ وأما الوسطية التي ينادون بها الآن فهي الانحلال والانسلاخ من الدين، فيقولون: «الوسطية» ألاَّ تمنع المسلمة من أن تتزوج بكافر، هذه وسطية! الوسطية عندهم: هي أن تقول إن الخمر والزنا بالتراضي، لا إشكال فيها، هذه وسطية! الوسطية: هي أن تكون الكنيسة بجوار المسجد، والمرقص، والخمارة، يدخلها من يدخلها، ويخرج منها من يخرج، لا تأمر ولا تنهَ، هذه حرية شخصية.

فالوسطية التي ينادون بها في زماننا: هي الانسلاخ من الدين؛ لذلك ترىٰ الآن في بعض البلاد التي تدعي أنها بلاد توحيد، ترىٰ الانحلال والتفسخ والفجور فيها من هذا الباب؛ لأن رأس الدولة بدأ يتكلم عن الوسطية ويضاهي دول الغرب، يقول: نحن أَوْلَىٰ بالوسطية من دول الغرب، كأنه يقول: نحن نريد أن نكون دولة غربية في قلب الأمة الإسلامية!

ففرق بين الوسطية التي لا غلو فيها ولا أرجاء، لا إفراط ولا تفريط، وبين الوسطية التي هي كفر بالشريعة الإسلامية وانسلاخ من الدين.

المتن:

تَقُومُ كُلُّ مُؤَسَّسَةٍ فِي الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِدَوْرِهَا الَّذِي حَدَّدَتْهُ الشَّرِيعَةُ الإِسْلَامِيَّةُ، فَـ «الْحَاكِمُ»: هُوَ الرَّاعِي الَّذِي يَرْعَىٰ أُمُورَ الرَّعِيَّةِ، وَيَتَّخِذُ الْقَرَارَاتِ الْمَصِيرِيَّةَ فِيهَا، بَعْدَ مُشَاوَرَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ.

الشرح:

فلا بد أن يرجع إلىٰ أهل الحل والعقد قبل أن يتخذ القرارات المصيرية، ولا يستقل برأيه فيها، كالسلم والحرب، وجائحة في بلاد المسلمين، أو ظاهرة ظهرت، كالعري، أو السفور، أو غير ذلك، فيجمع لها أهل الحل والعقد؛ لأنه مسؤول عن رعيته، فلا ينبغي أن يغفل عنها، وكان الإمام فيما مضىٰ يصلي بالناس الجُمَعَ والجماعات، وكان يتفقدهم؛ لأنه كان يشعر أنه هو المسؤول

عنهم، وكان الناس يشعرون أنهم هم مسئولون عن حمايته وعن حفظه، لأن حفظَه حفظٌ لهم؛ أما لما انقلبت الموازين وكفر الحكام، وبدلوا شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد الناس الثقة فيهم؛ لذلك أصبحوا ينقمون عليهم.

المتن:

وَلِهَذَا الْحَاكِمِ حَقُّ الطَّاعَةِ عَلَىٰ شَعْبِهِ فِي الْمَعْرُوفِ.

أَمَّا الرَّعِيَّةُ فَعَلَيْهِمْ وَاجِبَاتٌ كَذَلِكَ، تَتَمَثَّلُ فِي: الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَقْدِيمِ النَّصِيحَةِ لِلْحَاكِمِ، بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي حَدَّدَتْهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

الشرح:

يعني: الأصل أن يُنصح الحاكم سرّا، ينصحه العلماء وأهل الحل والعقد سرّا؛ حتىٰ لا يتجرأ عليه العامة، فمقام الخلافة مقام كبير، لذلك هو له أهل حل وعقد وعلماء، لذلك يجب علىٰ العلماء ما لا يجب علىٰ آحاد الرعية، العلماء يجب عليهم أن يناصحوا ولاة الأمر، ويذكروهم بالله سبحانه، ويخوفوهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا رأوا منكرًا، فلا بد أن يكلموهم، ويكرروا مناصحتهم.

كان الفضيل بن عياض والسلف ينصحون الخليفة، ويذهبون إليه، بعضهم يذهب إليه، وبعضهم ينتظره في مواسم الحج حتىٰ يقول له كلامًا شديدا، حتىٰ

أن أبا مسلم الخولاني -وهو تابعي مخضرم، شهد الإسلام والجاهلية، ولكنه لم ير النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دخل علىٰ معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال له: «السلام عليك أيها الأجير»[1]، قال هذا أمام الناس، وهو تابعي، ومعاوية صحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يقول: السلام عليك أيها الأجير، قال من كان حاضرًا: «الأمير!»، ففهم معاوية ما يريد، وقال: «دعوا أبا مسلم، فهو أعلم بما يقول»، فقال له: «إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيرا، فولّاه ماشيته، وجعل له الأجر علىٰ أن يحسن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن هو أحسن رعيتها ووفر جزازها حتىٰ تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها، وأضاعها حتىٰ تهلك العجفاء، وتعجف السمينة، ولم يوفر جزازها وألبناها، غضب عليه فعاقبه ولم يعطه الأجر»، يقول له: إنك أجير عند هؤلاء الرعية، فاتق الله فيهم حتىٰ لا يعاقبك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ تقصيرك في حقهم، فالأجير يؤدي حق ما استأجر عليه، هذا الفهم.

الآن ترىٰ من التملق، والتزلف، والرياء، والسمعة، الشيء العجيب، فتجد العالِم يتزلّف للحكام الظلمة والكفرة؛ من أجل أن يحافظ علىٰ منصبه أو علىٰ رئاسته، أو خشية من بطشهم وغير ذلك، فيداهنه علىٰ الباطل. لذلك يحب الحكام مثل هؤلاء العلماء الذين يداهنونهم، أما العالم الذي يتصدىٰ لهم،

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: (٤/ ١٣).

ويقول الحق، ولا يخشىٰ في اللـه لومة لائم، فيكرهونه، ويريدون أن يخرجوه من البلاد، أو يعتقلوه، أو يعذبوه، أو يشوهوا صورته، لذلك صدق قول نوح -عليه السلام- فيهم: {وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}، فلا بد أن يعمل العالم بعلمه، فيأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، لا نقول: شهّر بالخليفة علىٰ المنابر، ولكن أنصحه فيما تراه منكرًا يجب الإنكار عليه.

المتن:

اَلْفَرْقُ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالْحُكُومَةِ:

وَيَنْبَغِي التَّمْيِيزُ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالْحُكُومَةِ؛ فَمَفْهُومُ «الدَّوْلَةِ» أَكْثَرُ اتِّسَاعًا مِنَ «الْحُكُومَةِ» حَيْثُ إِنَّ «الدَّوْلَةَ» كِيَانٌ شَامِلٌ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ مُؤَسَّسَاتِ الْمَجَالِ الْعَامِّ وَكُلَّ أَعْضَاءِ الْمُجْتَمَعِ بِوَصْفِهِمْ مُوَاطِنِينَ.

الشرح:

فالدولة لا بد لها من حكومة. و «الحكومة»: هي النظام السياسي الإداري النائب للخليفة، أو هي رئيس الوزراء، أو الوزراء، أو الأمراء، أو الولاة في المناطق.

وقد تسمىٰ «الحكومة» في الاصطلاح الحديث: حكومة تسيير أعمال، يعني: أنها تسيّر أعمال الدولة. فالحكومة جزء من الدولة. والحكومة متغيرة متعاقبة، فيمكن أن تتغير؛ وأما الدولة فثابتة لا تتغير، لذلك انظر مثلًا إلىٰ الدول

الحديثة، تجد الحكومات متغيرة؛ وأما الدولة فباقية، لذلك سيأتي أن الخليفة (الحاكم) لا يتغير إلا بموته، أو بعزله إذا طرأ عليه ما يوجب العزل، أو بتنازله واستخلاف غيره، واختلف العلماء هل يجوز للخليفة أن يتنازل عن منصبه أم لا؟

فمنهم من قال: لا يجوز؛ لأنه اختير من قِبَل الأمة؛ فلا يجوز له أن يتنازل عن أمر اختاروه له.

وقال بعضهم: إذا رأىٰ أن في ذلك خيرًا، وأن في عدم تنازله مفسدة للأمة، تنازل.

وكلا القولين مبنيان علىٰ توفر شروط الإمامة فيه.

المتن:

وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ «الْحُكُومَةَ» لَيْسَتْ إِلَّا جُزْءًا مِنَ الدَّوْلَةِ، أَيْ: أَنَّ الْحُكُومَةَ هِيَ الْوَسِيلَةُ أَوِ الْآلِيَّةُ الَّتِي تُؤَدِّي مِنْ خِلَالِهَا الدَّوْلَةُ سُلْطَتَهَا، وَهِيَ بِمَثَابَةِ عَقْلِ الدَّوْلَةِ.

الشرح:

لا بد لمن يريد أن يقيم دولة إسلامية أن يفكر في آليات إقامتها علىٰ أرض الواقع، وأن يوفر المقومات التي تعين علىٰ قيام الدولة؛ من الحاضنة الشعبية التي ستكون نواة هذه الدولة عندما تقوم، ومن أصحاب المهن والتخصصات

الدينية والدنيوية، كالقضاة، والسياسيين؛ والاقتصاديين، والمزارعيين، والصناعيين؛ والمدرسين، والأطباء، وإلا ستنهار الدولة من الداخل، أو ستضطر إلىٰ الاستعانة بأصحاب هذه التخصصات من الخارج، فيدخل فيها من ليس منها؛ فيفسد نظام الدولة، وهذا ما حصل مع بعض الجماعات، قالوا: نحن عندنا وعندنا، وننادي بالدولة، فلما وصلوا إلىٰ الحكم، لم يكن عندهم شيء، فاستعانوا بالكفرة وبالظلمة، فأدخلوهم في نظام الحكم؛ فأفسدوا نظام الدولة، فسقطت وانهارت.

فيجب علىٰ من يريد أن يقيم دولة إسلامية أن يتخذ خطوات في سبيل تحقيق ذلك المطلب، **أولها**: تربية الكوادر، فلا بد من تربية الكوادر في جميع التخصصات من قبل أن تقام الدولة، فمثلا: الطلاب في المدارس المتوسطة أو الثانوية لا بد أن يُؤهلوا ليصبحوا بعد ذلك وزراء، وحكامًا، وسياسيين، وزراعيين، واقتصاديين في الدولة، وهذا الذي نجح فيه الغرب وفشل فيه العرب، انظر إلىٰ الغرب الآن، جعلوا مدارس سموها مدارس النخبة، يختارون الطلاب المتميزين ذوي الذكاء الحاد ممن يرونه ذا عقلية مميزة عن إخوانه، فيدخلونهم فيها، ثم يبدؤون يصنفونه حسب احتياجهم هم، لا حسب احتياج الطالب، فهم يريدون سياسيين، وحكامًا يحكمون، واقتصاديين، وأطباء، وعلماء في الفلك، وفي الإلكترونيات، فيربونهم وهم في مقتبل العمر، ويؤهلونهم لما يرون أنهم يصلحون له، ويجعلون لكل طالب ملفًا فيه مستقبله

السياسي والإداري، وما سيتولاه من المناصب، فيؤسسون من يدير الدولة وهم ما زالوا في المدارس. نحن نغفل عن هذا تماما، فالذي يريد أن يبني دولة يبني كوادرها من الصغر، حتىٰ يضمن ولاءهم، فأنت ربيته علىٰ يديك كما ربىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرف بأصحابه، فكان يعرف إمكانيات كل صحابي، وماذا يجيد.

هذا هو الذي نريده، نريد أن نؤسس الآن، ونختار النماذج المتميزة من الطلاب الذين نربيهم، وننفق عليهم أموالًا طائلة؛ لأن هؤلاء هم عمود الدولة، فإذا أردت بعد ذلك أن تدخل في المجال السياسي، والمجال الحربي، وجدت القادة، والمفكرين في الحرب، والعلماء، والفقهاء، فأنت تؤسس الدولة من الحاكم، تربيه علىٰ يديك، علىٰ قواعد الإيمان، وتؤسس أهل الحل والعقد، لا بد من عشرة علىٰ أقل تقدير، يكونون حول الحاكم، في جميع التخصصات، حتىٰ لا تحتاج إلىٰ استيرادهم من الخارج؛ فتدخل فيك من ليس منك.

فالذي يريد أن يبني الدولة يفكر بهذه العقلية، يفكر بعقلية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استخدام الإمكانيات، فلما أراد أن يترجم، ويفهم لغة العدو، قال لزيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«يا زيد، تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن**

يهود علىٰ كتابي»[١]، قال زيد: «**فتعلمت له كتابهم، ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتىٰ حذقته**»[٢].

كذلك عندما أراد أن يؤمِّر علىٰ الجيش قائدًا عسكريًا، ولّىٰ خالد بن الوليد، هل معنىٰ هذا أنهما أفضل من أبي بكر وعمر؟ لا، لكنها تخصصات، فيُولَّىٰ لها الأصلح، والأصلح هنا ليس هو الأتقىٰ والأروع والأزهد، إنما الأصلح هو من يصلح لهذا العمل، ولا يمنع أن يكون غيره أفضل منه؛ لأن الأمة كلها مجمعة علىٰ أن الأفضلية لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذلك الأوّلية لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، لكن ذلك لا يمنع أن يُولّىٰ عليهم من هو متخصص في عمله أكثر منهم. فلا بد أن نتعامل مع الدولة بهذه العقلية، نؤسس ونخطط، ولا نترك شيئًا للعشوائية، العشوائية هذه قاتلة، عندما تترك الأمور هكذا دون تنظيم، ودون ترتيب، ودون أخذ بالأسباب؛ تُفاجَأ بالصدمات وبالنكبات، فتقع في الحيرة؛ لأنك عملت عملًا ولم تدرك ما يترتب عليه، لذلك لا بد من فقه مآلات الأعمال، حتىٰ لا تأتيك المفاجآت التي تحيرك، وربما تقضي عليك.

---

(١) «مسند أحمد»، رقم: (٢١٦١٨)، «سنن الترمذي»، رقم: (٢٧١٥).

(٢) سبق تخريجه.

فالذي يريد دولة يؤسسها من القاعدة، يربي الأبناء والصغار علىٰ تولي المناصب في الدولة، يقول: هذا يصلح أن يكون حاكمًا، هذا يصلح أن يكون وزيرًا، هذا يصلح أن يكون قاضيًا، ونأتي له بالإمكانيات وننفق عليه في الدورات؛ حتىٰ يكون بارزًا بين أقرانه في هذا الأمر.

المتن:

إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ كِيَانٌ أَكْثَرُ دَيْمُومَةً وَاسْتِمْرَارًا مُقَارَنَةً بِالْحُكُومَةِ الْمُؤَقَّتَةِ بِطَبِيعَتِهَا؛ حَيْثُ يُفْتَرَضُ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْحُكُومَاتُ وَتَتَغَيَّرَ، وَقَدْ يَتَعَرَّضُ نِظَامُ الْحُكْمِ لِلتَّغْيِيرِ أَوِ التَّعْدِيلِ مَعَ اسْتِمْرَارِ النِّظَامِ الْأَوْسَعِ وَالْأَكْثَرِ اسْتِقْرَارًا وَدَوَامًا الَّذِي تُمَثِّلُهُ الدَّوْلَةُ.

كَمَا أَنَّ السُّلْطَةَ الَّتِي تُمَارِسُهَا الدَّوْلَةُ هِيَ سُلْطَةٌ مُجَرَّدَةٌ (غَيْرُ مُشَخَّصَةٍ)، بِمَعْنَىٰ أَنَّهَا غَيْرُ مُرْتَبِطَةٍ بِشَخْصِ الْحَاكِمِ أَوْ بِالْحُكُومَةِ الَّتِي تَحْكُمُ الدَّوْلَةَ.

الشرح:

لا بد من أن يُحَيَّد النظام الإداري للدولة عن النظام الحاكم، فإن من أكبر الأخطاء التي حصلت علىٰ مر التاريخ لا في زمننا هذا فحسب، بل في الزمن الأول أيضًا - أنهم كانوا لا يفرقون بين النظام الحاكم والنظام الإداري للدولة، فعندما كانت تقوم دولة علىٰ عقب دولة أخرىٰ، أو يأتي حاكم عقب آخر، يستأصل النظامَ الحاكم والنظامَ الإداري، فيقصي الموظفين ويبعدهم! هذا

نظام إداري للدولة، لماذا تقصيه؟! الحكومة تُقصَي (الحكومة الحاكمة)، أما إذا أُقصِي النظام الإداري للدولة، فإن الكفاءات التي كانت تدير الدولة تُبتَر.

فيجب أن نفرق بين النظام الإداري والنظام الحاكم، فالنظام الإداري كلٌّ في إدارته، كلٌّ في مصنعه، كلٌّ في شركته، هؤلاء موظفون عاديون، مواطنون ليس لهم دخل في الحكم، والذي ينبغي أن يُستأَصل هو النظام الحاكم الفاسد، ومَن ثبت مخالفته للإسلام من النظام الإداري؛ لكن المواطنين والنظام الإداري القائم بعمله لا ينبغي أن يُستأصل.

انظر مثلا: عندما قامت الدولة العباسية، استأصلت الدولة الأموية، استأصلتها حتىٰ قضت عليها نهائيا، حتىٰ لا تقوم لها قائمة، حتىٰ طاردتهم في الشِّعاب وفي الجبال، وأرسلت إليهم في الأندلس، وكانت تقتلهم قتلًا شنيعًا، وهذا الذي حصل في ربيع الأندلس، عندما كانت تقوم دويلة علىٰ أنقاض أخرىٰ، تستأصل التي قبلها، ومنهم ابن حزم، الذي أصابه ما أصابه، كان وزيرًا، ثم بعد ذلك كان سجينًا. فلا بد أن نفرق بين النظام الحاكم، والنظام الإداري للدولة.

المتن:

وَالصَّحِيحُ أَنْ يَكُونَ اخْتِيَارُ مُوَظَّفِي هَيْئَاتِ الدَّوْلَةِ وَتَدْرِيبُهُمْ -يُفْتَرَضُ عَادَةً أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُحَايِدِينَ سِيَاسِيًّا.

الشرح:

يعني: لا يُقحَهم موظفو الدولة في السياسة؛ لأن مهمتهم إدارة الدولة؛ أما لو أقحمتهم في السياسة وصنفتهم، فستسقط الدولة بسقوط حكومتها.

المتن:

تَحْصِينًا لَهُمْ مِنَ التَّقَلُّبَاتِ النَّاجِمَةِ عَنْ تَغْيِيرِ الْحُكُومَاتِ- تُرَاعِي فِيهَا الصَّالِحَ الْعَامَّ أَوِ الْخَيْرَ الْمُشْتَرَكَ وَالْبُعْدَ عَنِ التَّحَزُّبِ وَالتَّعَصُّبِ وَالِانْتِمَاءِ الْخَاصِّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَىٰ حِسَابِ مَصْلَحَةِ الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ؛ وَحَتَّىٰ لَا تَتَعَرَّضَ مُؤَسَّسَاتُ الدَّوْلَةِ إِلَىٰ الْقَهْرِ وَالظُّلْمِ وَالْمُطَارَدَةِ وَالْقَتْلِ وَالِاسْتِئْصَالِ عِنْدَ قِيَامِ الدُّوَلِ وَسُقُوطِهَا كَمَا حَدَثَ لِلدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ عَلَىٰ يَدِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ -إِنْ شَاءَ اللـه-.

في مصر -الآن- يستأصلون كل من ينتمي إلىٰ الدولة السابقة، حتىٰ إنهم يفصلون كل من كان موظفًا في دائرة حكومية.

المتن:

اَلْهَدَفُ مِنْ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَوَظِيفَتُهَا

الشرح:

ما وظيفة الدولة؟ ولماذا نُصِرّ علىٰ قيام دولة إسلامية؟ ما الفائدة التي تعود علينا من قيام الدولة؟

الجواب: من فوائد إقامة دولة إسلامية أن ننعم تحت ظل الشريعة؛ لأن المؤمن لا يأمن إلا في ظل الشريعة.

وكذلك رفع الظلم، فالظلم الواقع في العالم الآن ما كان ليقع لولا غياب الشريعة؛ أما لو كان شرع الله مطبقًا لنعم الناس جميعا: مسلمهم وكافرهم، وأنتم ربما رأيتم نماذج لهذا في أثناء قيام الدولة الإسلامية، كان الكفار الذميون يأمنون تحتها، حتىٰ اللصوص المنحرفون كانوا يأمنون تحتها إذا تابوا، فالشريعة الإسلامية مظلة الجميع، نظام من عند الله، ليس من عند البشر، لكن البشر يخطئون في تحكيمها، فلا يُنسب الخطأ إلىٰ الشريعة، بل يُنسب إلىٰ من وقع منه الخطأ في تحكيمها، فمثلا: الصلاة من دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والناس يخطئون في الصلاة، هل العيب في الصلاة أم العيب في الناس؟ العيب في الناس!

المتن:

إِنَّ الْهَدَفَ مِنْ قِيَامِ الدَّوْلَةِ: هُوَ اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُسلِمَةِ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ، يُنَظِّمُ حَيَاتَهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ شَرْعِ رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يُحَكِّمُونَ الشَّرِيعَةَ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّهَا، وَيَنْطَلِقُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ وَهَذَا الْوَطَنِ لِنَشْرِ دِينِ اللـه فِي الْعَالَمِ. هَذَا هُوَ الْهَدَفُ الْأَكْبَرُ مِنْ إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ: إِقَامَةُ دِينِ اللـه فِي الْأَرْضِ، وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَإِفْرَادُهُ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالْمُلْكِ وَالْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ.

هَذَا هُوَ الْهَدَفُ مِنْ بِنَاءِ الْوَطَنِ، وَالَّتِي تَقُومُ الدَّوْلَةُ فِيهِ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْوَظَائِفِ الْمُخْتَلِفَةِ...

الشرح:

فالهدف الأسمىٰ من قيام الدولة: أن نُحكّم شرع اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أن نتمكن من عبادة اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بما أراد وبما أحب، أن ننشر دين اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأرض، أن نعبِّد الناس لرب الناس، وأن تُحْكَم الأرض بشرع اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا حق اللـه، فاللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي خلق ورزق هو الذي يحكم، كيف يخلق هو ويحكم غيره؟! كمن يربي عبده وينفق عليه، ثم بعد ذلك يعمل هذا العبد مع عدو سيده، هذا ظلم لا يرضاه الإنسان لنفسه فكيف يرضاه للـه سبحانه، ولله المثل الأعلىٰ.

وحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاهد على هذا المعنى، فمن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(١).

وقد أشار رِبعيّ بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى هذا الهدف بقوله: «ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(٢)، هذه كلمات أرعبت الكفار؛ لأنه كان يأوي إلى ركن شديد، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كنت تأوي إلى الله فلا تخف من شيء، كل ما عليك فعله أن تتعرف إلى الله في رخائك حتى يعرفك في الشدة، أن تتعرف إليه بقيامك للّيل، بسجودك، بنفقتك، بصدقتك، بدعوتك لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حتى إذا وقعت في ضائقة، وجدت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي عبدته في الرخاء، معك في الشدة، وهكذا كان الصحابة.

المتن:

مِنْهَا:

أَوَّلًا: اَلتَّعْلِيمُ، وَالثَّقَافَةُ، وَالْمَعْرِفَةُ:

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٢٥)، «صحيح مسلم»، رقم: (٢٢).

(٢) انظر «البداية والنهاية»: (٩/ ٦٢١-٦٢٢).

فَإِنَّ الْعِلْمَ هُوَ أَسَاسُ كُلِّ عَمَلٍ نَاجِحٍ، وَهُوَ أَوَّلُ أَمْرٍ يَجِبُ أَنْ تَهْتَمَّ بِهِ الدَّوْلَةُ وَتَبْدَأَ بِهِ؛ كَمَا بَدَأَ بِهِ اللـه تَعَالَىٰ: {فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ} [محمد: ١٩].

وَأُمَّةٌ عَالِمَةٌ بِدِينِهَا وَبِمَا خُلِقَتْ لَهُ، هِيَ أُمَّةٌ مُتَقَدِّمَةٌ.

وَأُمَّةٌ جَاهِلَةٌ بِدِينِهَا وَأُمُورِ دُنْيَاهَا، هِيَ أُمَّةٌ جَاهِلِيَّةٌ مُتَخَلِّفَةٌ.

الشرح:

فيجب أن تُعَّد الكوادر التي ستحكم هذه الدولة إعدادًا علميّا، فالعلم هو الأساس، العلم هو الذي يرفعك، العلم هو الذي ينفعك. وأفضل العلوم: العلم باللـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن يُربَّوا علىٰ الدين، علىٰ العقيدة، علىٰ الطهارة، علىٰ الأمانة، علىٰ الصدق، علىٰ الوفاء.

إن تربية الكوادر التي ستحكم الدولة علىٰ هذه الأخلاق الحميدة التي جاء بها الإسلام منذ الصغر - يجعل الأمة في مأمن من الجور، والخيانة، والغدر، والعمالة.

وصدق الشاعر حيث قال:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا ❊❊ علىٰ ما كان عوده أبوه

و «من شبّ علىٰ شيء، شاب عليه».

المتن:

فَلَا بُدَّ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالتَّعْلِيمِ، وَإِنْشَاءِ الْكَتَاتِيبِ وَدُورِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ.

الشرح:

هذا هو الأصل، الأصل أن يتعلم أبناؤنا القرآن والسنة، والقراءة والكتابة، واللغة العربية، لا نحتاج أكثر من هذا، ثم بعد ذلك نرسلهم إلىٰ المدارس والكليات الأكاديمية ليتخصصوا في المجالات التي تحتاجها الدولة؛ أما إهمال هذه التخصصات فخطأ، فلا ينبغي أن نتركهم بالكلية، ولا أن نوجههم إلىٰ المدارس العلمانية، الصواب: أن نذهب بهم إلىٰ الكتاتيب ليتعلموا القرآن، والتوحيد والسنة والعقيدة، واللغة العربية، والحديث، وبعد ذلك نذهب بهم إلىٰ المدارس الأكاديمية لنعلمهم التخصصات التي نريدها في دولتنا، ومن الخطأ أن نعلمهم لمجرد التعلم، هذه مصيبة كبيرة نقع فيها الآن، ولذلك تجد الطالب يدرس خمس عشرة سنة ولا يستفيد شيئًا، والسبب في ذلك: أنه قلد غيره في السعي لنيل الشهادات، وما لنا نحن وهؤلاء الجاهليين؟! نحن أمة مسلمة، لا بد أن نركز علىٰ ما نحتاجه في دولتنا.

هذا يحتِّم علينا أن نراجع أنفسنا في تربية أولادنا، ونبدأ من الآن في تأسيسهم علىٰ وفق شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، من كان مخطئًا في توجيه أولاده فليرجع إلىٰ الطريق الصحيح.

المتن:

وَبِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تُرَاعِي الْعِفَّةَ وَالطَّهَارَةَ، وَتَمْنَعُ الِاخْتِلَاطَ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ (الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ)، وَوَضْعِ مَنَاهِجَ إِسْلَامِيَّةٍ، عَلَىٰ وَفْقِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، خَالِيَةٍ مِنَ الْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَةِ، تُرَسِّخُ التَّرْبِيَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الصَّحِيحَةَ فِي نُفُوسِ طُلَّابِ الْعِلْمِ، وَتُحَافِظُ عَلَيْهِمْ، وَتَحْمِيهِم مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالِانْحِرَافَاتِ الْعَقَدِيَّةِ، مَعَ أَسْلَمَةِ الْعُلُومِ التَّجْرِيبِيَّةِ الَّتِي تَنْفَعُ الدَّوْلَةَ وَأَفْرَادَ الْمُجْتَمَعِ: مِنْ طِبٍ، وَهَنْدَسَةٍ، وَتِجَارَةٍ، وَصِنَاعَةٍ، وَزِرَاعَةٍ، مَعَ ضَرُورَةِ مُوَاكَبَةِ التَّطَوُّرِ الْعِلْمِيِّ فِي الْعَالَمِ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ.

الشرح:

الدولة الإسلامية لا تكون منعزلة عن العالم، بل تواكب التقدم العلمي، ويكون لديها من هذه العلوم التجريبية ما يجعلها في مصاف الدول الكبرىٰ، فتسعىٰ دائما إلىٰ التقدم العلمي.

والمسلم عليه أن يحرص دائمًا علىٰ الاستفادة من العلم التجريبي في واقعه؛ حتىٰ لا يكون في معزل عن العالم، فالمسلم متقدم في كل شيء إذا أخذ بأسباب التقدم، إذا فهم معنىٰ التقدم، إذا علم كيف يستثمر هذا التقدم العلمي في تطوير الدولة وفي رقيها. فالعلوم التجريبية من طب وهندسة وغير ذلك، لا بد أن نوظفها في الدولة.

الآن الذي تكون عنده هذه العلوم يسافر بها إلىٰ بلاد الغرب؛ لأن الغرب يشتري العقول النادرة من الدول العربية. لقد عرف الغربيون قيمة هذه العقول؛ لذلك استطاعوا أن يستثمروها جيدًا في رقي بلادهم؛ أما الحكام العرب فيصدرون هذه العقول ويُهَجِرُونها ولا يهتمون بها، فيتلقفها الغرب ويتقدمون بها. انظر إلىٰ رواد التقدم في الدول الغربية، تجد رؤوسًا عربية إسلامية، هي التي كانت السبب في تقدم ونهضة هذه الدولة.

المتن:

وَلَا يَجُوزُ إِغْفَالُ تَعْلِيمِ الْمَرْأَةِ وَدَوْرِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ؛ بِإِنْشَاءِ التَّخَصُّصَاتِ الْخَاصَّةِ بِهَا فِي الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ الَّتِي تَخْدُمُ بَنَاتِ جِنْسِهَا: كَطِبِّ النِّسَاءِ، وَالوِلَادَةِ، وَالْجِرَاحَةِ الْعَامَّةِ، وَالْأَسْنَانِ، وَالْعُيُونِ، وَالْبَاطِنَةِ، وَالصَّدْرِ، وَالْجِلْدِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ التَّخَصُّصَاتِ الْخَاصَّةِ بِهَا؛ بِمَا يَحْفَظُ لَهَا حَيَائَهَا وَعِفَّتَهَا وَكَرَامَتَهَا، وَيَصُونُهَا مِنَ الِاخْتِلَاطِ الْمُحَرَّمِ بِالرِّجَالِ أَوِ الْكَافِرَاتِ.

الشرح:

وهذا حقيقة مجال نحن نحتاج إليه كثيرا، وقد سُئِلت عن طبيب يقول: زوجتي تريد أن تعمل طبيبة، وأنا لا أريد ذلك؛ وهي الآن في نهاية دراستها للطب، وبعضهم قال: أنا اشترطت علىٰ زوجتي ألّا تعمل في الطب، فقلت له: هل تحتاجون إلىٰ طبيبات في بلدكم؟

قال: نعم، نحتاج، نساؤنا ينكشفن علىٰ الرجال الأجانب. قلت: هذه مصيبة كبيرة، لماذا لا يكون عندنا نساء يعملن في المجالات الطبية الخاصة بالنساء؟! وقد كان للنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فريق من النساء يعملن في تمريض النساء، وترأسهن واحدة منهن، لماذا لا نفعل ذلك؟ لماذا عندما نحتاج أن نعالج نساءنا نذهب بهن إلىٰ الرجال أو إلىٰ الكفرة؟! لأننا لم نفكر أن نكتفي ذاتيًّا في المجالات التي تحتاج إليها النساء، في الطب والتعليم والهندسة... وغير ذلك من الأمور التي تحتاج إليها النساء في هذه البيئة، فنحن نحتاج علىٰ أقل تقدير من يعلمهن العلم الشرعي حتىٰ يربين أولادهن، ونحتاج كذلك أن نعلمهن الطب، والتمريض، بحيث يكون في كل بيت فرد يحسن أن يمرِّض، أو علىٰ الأقل يحقن بهذه الإبر العضلية وغيرها، إذا احتاج إليها أحد في البيت، فعندنا قصور في هذا، ولكن القصور لا بد أن يجبر بالإعداد من الآن، أن نعد النابغات من النساء في مجال الطب النسائي، حتىٰ نحفظ عورات النساء، وكذلك يكون عندنا اكتفاء في هذا المجال.

المتن:

وَمِنْ أَهَمِّ أَهْدَافِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ: الدَّعْوَةُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَنَشْرُ دِينِ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَمُعَامَلَةُ الْجَمِيعِ بِخُلُقِ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

هذا هو الأصل، إذا عاملت الجميع بخلق الإسلام فأنت تنشر الإسلام بخلقك. يسألني أحد الإخوة يقول: أنا طبيب، أريد أن أقسم علىٰ أن أعامل الجميع في مهنتي بالعدل، وأن أحافظ علىٰ أسرارهم، وأحافظ علىٰ كرامتهم، ولا أتأخر عن مساعدة أي إنسان، سواء أكان مسلمًا أم كافرا، هل هذا قسم صحيح؟

قلت له: نعم، صحيح، ليس فيه أي مخالفة، بل يجب عليك أن تعامل الجميع بخلق الإسلام، قال: وإن كانوا كافرا؟ قلت: وإن كانوا كفارا، عاملهم بخلق الإسلام، أخلاق الإسلام كفيلة بأن تجنبك كل المخالفات؛ أما إن عاملتهم بغير خلق الإسلام، فالعيب فيك أنت، فلا تقل: هذا خلق الإسلام، بل لو جاءك كافر، وهو يحتاج إلىٰ تمريض، أو أن تنقذ نفسه من الموت، فعالجه، لأن هذا هو خلق الإسلام.

فالمعاملة بخلق الإسلام هي دعوة إلىٰ الإسلام، لكنها دعوة صامتة لا كلام فيها، تدعوهم بخلقك فقط، بتبسمك. ربما إذا قبِلَك المخالف؛ بسبب أخلاقك، وأحبك، قبِلَ منك؛ أما لو كنت جافيًا له، وقاسيًا معه، وغليظا، وكنت علىٰ الحق، فإنه قد لا يقبله منك، بل أنت حينئذ تنفره عن الإسلام وأنت لا تدري.

المتن:

ثَانِيًا: تَأْسِيسُ جَيْشٍ قَوِيٍّ؛ لِحِمَايَةِ الدَّوْلَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللـه دَفْعًا وَطَلَبًا؛ لِحِمَايَةِ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ، وَالْأَفْرَادِ، وَحِفْظِ الْأَمْنِ، وَالنِّظَامِ، وَتَحْقِيقِ الْعَدَالَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الْفَوْضَىٰ وَالْعَشْوَائِيَّةِ؛ فَإِنَّ اللـه يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَدْفَعُ بِالْقُرْآنِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سُلْطَةٍ تُقَوِّمُ، وَسَيْفٍ يَرْدَعُ، مَعَ قُرْآنٍ وَشَرْعٍ يَهْدِي.

الشرح:

من وظائف الدولة: تأسيس جيش قوي، لا ليحارب الكفار فقط، ولكن ليحفظ الأمن في البلد، من اللصوص، وقطاع الطرق، والمنحرفين، والزائغين، والفاسدين؛ لأن هؤلاء إذا قيل لهم: صلُّوا. واتقوا اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخافوا اللـه. لم يستجيبوا، فهؤلاء لا بد لهم من رادع، لا بد لهم من درة عمر؛ حتىٰ تظهر هيبة الدولة؛ فلا يتجرأ علىٰ الدولة الرعاع والفسدة، وحتىٰ لا يستهان بالشرع، فإن تُرِك هؤلاء ليعملوا بالمنكرات، وينشروا الفساد، ويتسلطوا علىٰ الخلق، لقال لنا بعض ضعاف الإيمان والجهلة: هل هذا هو الشرع الذي أردتموه؟! الشرع جاء بالشر، وجاء بالفساد، وانتشرت الموبقات في ظل الشرع. فينسبون ذلك كله للشرع، والحقيقة أن العيب ليس في الشرع، وإنما العيب في من لم يحسن تحكيم الشرع؛ لذلك لا بد من القوة والحزم، فيكون المسئول حازما، لا يخشىٰ في اللـه لومة لائم، وينفذ في الناس الأحكام الشرعية، فإن لم يكن حكم شرعي، عزر من يستحق التعزير، والتعزير أحيانًا يصل إلىٰ القتل، من لم يندفع شره إلا بقتله، قتل.

فلا بد من حكومة، وأمن، وشرطة، وجيش، يردع؛ أما أن يُترَك الناس بلا رادع، بحجة أننا مسلمون، وديننا دين السماحة! فليس بصحيح؛ لأن الناس لهم حقوق، وأعراض المسلمات تنتهك، ولا يمكن أن تعالج هذه الأمور بدون قوة، فلا بد من الجيش القوي، جيش تَرَبَّىٰ علىٰ المبادئ الإسلامية الصحيحة، وعلىٰ العدل، وعلىٰ القوة، ثم بعد ذلك تأتي تلك الأمور، ففي الحديث يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت**»[1]، يعني: يخاف ولا يستحي. فلا بد من قوة ردع، تردع الخارجين عن شريعة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بالعدل والرحمة يتحقق الأمن والأمان للبلاد والعباد، ولن يكون ذلك إلا بتطبيق شرع الله الذي هو خير كله.

المتن:

وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، مَقَدَّمَةٌ عَلَىٰ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ بِالسَّيْفِ؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ لَيْسَ مَطْلَبًا مَرْغُوبًا لِذَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ وَسِيلَةٌ لِغَايَةٍ. تُسْلَكُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَتَنْقَضِي وَتَنْتَهِي عِنْدَ الْعَافِيَةِ مِنْهَا، «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ».

الشرح:

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٥٧٦٩).

«القتال ليس مطلبًا مرغوبًا لذاته»، يعني: ليس القتال مرغوبًا لأنه قتال، ولكنه مرغوب لأنه وسيلة لتحكيم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولنشر التوحيد في الأرض، ولتعبيد الناس لله وحده لا شريك له.

فشُرِع **الجهاد** لإفراد الله بالعبودية، وتطهير الأرض من الشرك والكفر والفساد، وإزالة عروش الطواغيت التي تعبد من دون الله.

وشرع **الجهاد لتحكيم شرع الله**، وإخراج العباد من عبادة العباد، إلىٰ عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، كما قال الصحابي الجليل رِبعي بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فما شرع الجهاد إلا للقضاء علىٰ الكفر والشرك، ونشر التوحيد والسلام؛ لأن الإسلام هو دين السلام، دين الأمن والأمان، دين العدل والسماحة، هذه هي الغاية التي شُرع من أجلها القتال. وقد فصلنا ذلك في «خماسية الجهاد»، و«شرح كتاب الجهاد لابن المبارك -رَحِمَهُٱللَّهُ-».

المتن:

ثَالِثًا: تَنْظِيمُ الْقَضَاءِ، وَإِنْشَاءُ مَحَاكِمَ شَرْعِيَّةٍ تَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ فِي نِزاعِهِمْ، وَتَحُلُّ مَشَاكِلَهُمْ.

الشرح:

الوظيفة الثالثة من وظائف الدولة: تنظيم القضاء.

وقلنا: ينبغي تربية القضاة في المدارس الخاصة بالدولة، نعكف علىٰ تربيتهم وتدريبهم؛ فنربي وكوادر علىٰ القضاء، وعلىٰ كل مجال من مجالات الدولة، حتىٰ نكوِّن كوادر لكل مجال، كوادر نعرفهم بأسمائهم، وبصفاتهم؛ فإذا أردنا أن نقيم دولة، واحتجنا إلىٰ المتخصصين في مختلف المجالات، وجدناهم؛ لأننا أعددناهم من قبل؛ امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ حيث يقول: {وَأَعِدُّواْ لَهُم}؛ أما أن نترك الأمور هكذا بدون إعداد وترتيب، وبدون تنظيم، فهذا لا يصلح أبدا.

المتن:

رَابِعًا: الرِّعَايَةُ الصِّحِّيَّةُ لِلشَّعْبِ وَأَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ: إِنْشَاءِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ الْعَامَّةِ وَالْمُتَخَصِّصَةِ فِي أَنْحَاءِ الدَّوْلَةِ، وَتَوْفِيرِ الْعِلَاجِ الْمُنَاسِبِ وَالضَّرُورِيِّ لِلنَّاسِ، وَإِنْشَاءِ مَعَامِلَ وَهَيْئَاتٍ صِحِّيَّةٍ تُتَابِعُ الْأَمْرَاضَ الْمُسْتَجِدَّةَ، وَصِنَاعَةِ الدَّوَاءِ الْمُنَاسِبِ؛ حِفَاظًا عَلَىٰ حَيَاةِ الشَّعْبِ وَأَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ.

الشرح:

فكما أن من وظائف الدولة تأسيس الجيش والقضاء، فكذلك من وظائفها توفير الرعاية الصحية، بحيث لو انتشر مرض أو فيروس، وُجِد صيادلة يركبون الدواء ويصنعونه، ووجدت المستشفيات التي يعالج فيها الناس، وتكون مجهزة بالأجهزة، وبالأماكن المخصصة لإقامة المرضىٰ، وأسِرَّة تستوعبهم، فتكون مستعدة لهذه النوازل.

لا بد من الإعداد الجيد، وتدريب الكوادر من الآن علىٰ ممارسة هذه الأعمال، وهم في الرخاء؛ حتىٰ إذا جاءت الشدة، وجدنا أصحاب المؤهلات التي تؤهل الدولة لتوفير الرعاية الصحية، وأصحاب الخبرات المتمرسين، ولا يكونون جديدين علىٰ هذه الأعمال.

المتن:

خَامِسًا: اَلْمُوَاصَلَاتُ، وَالِاتِّصَالَاتُ السِّلْكِيَّةُ وَاللَّا سِلْكِيَّة. وَخَدَمَاتُ الْمِيَاهِ وَالْكَهْرَبَاءِ وَالصَّرْفِ الصِّحِّيِّ. وَإِنْشَاءُ بِنْيَةٍ تَحْتِيَّةٍ قَوِيَّةٍ وَمَتِينَةٍ، عَلَىٰ أَحْدَثِ النُّظُمِ الْمَعْمُولِ بِهَا فِي الْعَالَمِ؛ لِسُهُولَةِ التَّوَاصُلِ، وَالتَّيْسِيرِ عَلَىٰ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ وَتَنَقُّلَاتِهِمْ. وَعَمَلُ خُطُوطِ نَقْلٍ عَامٍ دَاخِلِيٍّ، بَرِّيٍّ وَبَحْرِيٍّ وَجَوِّيٍّ، مَجَّانِيَّةٍ أَوْ بِرُسُومٍ رَمْزِيَّةٍ؛ رَحْمَةً بِالنَّاسِ.

الشرح:

الدولة لا تقوم بشرع الـلـه فقط، الدولة أكبر من هذا، وإلا كان فعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكان فعلها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان عمر يقول: «لو عثرت بغلة في العراق، لسألني الـلـه –أو قال: لخفت أن يسألني الـلـه– عنها: لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق يا عمر»، قد يقول إنسان: وما دخل هذا بالشريعة؟ نقول: هذا من تحكيم الشريعة، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن**

رعيته»[1]، فلا بد أن يكون الشرع محكمًا في جميع مناحي الحياة: المواصلات، تعبيد الطرق، علىٰ أحدث ما وصل إليه العلم الحديث؛ حتىٰ تكون دولة الإسلام في مقدمة الدول، لا أن تتخلف عن ركبها؛ لأنها لو تخلفت، سينسبون تخلفها إلىٰ الشريعة.

فدولة الإسلام لها نظام شامل كامل يحكم مناحي الحياة جميعًا، لا يوجد مجال من مجالات الحياة إلا وللشريعة فيه حكم، كما قال تعالىٰ: {مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ}، ولكن القصور في عقولنا نحن.

المتن:

سَادِسًا: رِعَايَةُ الْعَلَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ مَعَ الدُّوَلِ الْأُخْرَىٰ، وَالتَّعَامُلُ بِخُلُقِ الْإِسْلَامِ مَعَ حِفْظِ سِيَادَةِ الدَّوْلَةِ وَكَرَامَةِ الْمُسْلِمِينَ.

سَابِعًا: تَمْوِيلُ مُؤَسَّسَاتِهَا الْعَسْكَرِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ.

ثَامِنًا: إِصْدَارُ الْعُمْلَةِ.

تَاسِعًا: إِنْشَاءُ مَوَانِئَ، وَبِنَاءُ الْمَطَارَاتِ.

الشرح:

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٤٩٠٤)، «سنن الترمذي»، رقم: (١٨٠٠).

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل الرسائل إلىٰ الكفار قبل أن يدخل المدينة، وسماهم عظماء، قال: «**عظيم الروم**»(١)، «**عظيم القبط**». وكيف يقول هذا وهو كافر، ورأس في الكفر؟ نقول: هذا وصف، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنزلوا الناس منازلهم**»(٢)، حتىٰ لو كانوا كفارا. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل من أصناف المستحقين للزكاة: المؤلفة قلوبهم، وهؤلاء إما أن يكونوا كفارا، أو أشخاصًا ذوي وجاهة.

إذن الذي يُدِير الدولة لا بد أن يكون عاقلًا وعالما؛ حتىٰ لا يخطئَ، ويسيءَ إلىٰ الإسلام من حيث يدري أو لا يدري

المتن

اَلْعَنَاصِرُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الدَّوْلَةُ

الشرح:

ننتقل إلىٰ الحديث عن العناصر التي تتكون منها الدولة، وهي:

الأرض أو الوطن.

ثم الشعب.

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٦٢٦٠).

(٢) «سنن أبي داود»، رقم: (٤٨٤٢).

ثم الشريعة أو النظام الذي يحكم.

ثم رأس الدولة.

والوطن -كما سيأتي معنا- لا يشرُف إلا إذا كان يعلوه حكم الله سبحانه، فأرض يعلوها حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هي أرض مباركة شريفة، يجب الانتماء إليها، وأرض لا تحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويعلوها حكم الطاغوت، أرض غير مباركة، يُهاجَر منها إلىٰ أرض يَأْمن فيها المرء علىٰ دينه، وعلىٰ عرضه وماله.

المتن:

اَلْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: اَلْأَرْضُ وَالْوَطَنُ.

اَلْأَوَّلُ: بُقْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ مَحْدُدَةٌ بِحُدُودٍ مَعْلُومَةٍ.

الشرح:

هذه الأرض وهذا الوطن لا بد أن يكون محدّدًا بحدود معلومة؛ حتىٰ تُحفظ وتُصان، ومن أهم أهداف وخصائص ووظائف الحاكم: حفظ حدود دولة الإسلام من الاحتلال، ومن غارات العدو عليها، ومن غير ذلك، وكذلك حفظها لتحكيم شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها، فهي ليست مجرد بقعة، ولكنها بقعة مخصوصة لها صفات مخصوصة، وإلا لو كانت بقعة لا تتميز بتحكيم الشريعة لَانْتَمىٰ إليها كثير من الناس، ولحصل التعصب عليها، ثم تأتي بعد

ذلك الشبهات الخاطئة، ويقولون: حب الوطن عبادة! أي وطن تقصدون؟! هو الوطن الذي يحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أم الوطن الذي يعلوه حكم الطاغوت؟ كيف يكون وطن يُحكَم بغير شرع الله، ويعلوه حكم الطاغوت، وتنتشر فيه مظاهر الكفر والشرك، ثم يقال: إن هذا وطن وحبه عبادة؟!أي حب هذا؟ للكفر والشرك؟

فالكلام الذي نتكلمه هنا يتنزل علىٰ الأرض وعلىٰ الوطن الذي يحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حينئذ يكون حب هذا الوطن عبادة، لا يُحَبّ لذاته؛ ولكن يُحَبّ لما فيه من تحكيم شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإقامة دين الله عليه، ولا يمنع ذلك من الحنين إلىٰ الوطن، وتمني الرجوع إليه والعيش فيه عندما يعلوه حكم الله، وشريعة الله، والسعي إلىٰ ذلك.

المتن:

هِيَ قَاعِدَةُ انْطِلَاقِ الدَّولَةِ، تَكُرُّ مِنْهَا وتَفِرُّ إِلَيْهَا. وَبِدُونِ هَذِهِ القَاعِدَةِ لَا تُسَمَّىٰ دَوْلَةً، وَلَيسَ لَهَا سِيَادَةٌ وَلَا حُكْمٌ.

الشرح:

هذا الوطن أو البقعة، هو قاعدة الانطلاق، من أين ننطلق، ونحن مشتتون في الأرض، متفرقون، لا يجمعنا وطن، ولا تجمعنا أرض؟ بهذا تتضح أهمية هذه البقعة، هي قاعدة الانطلاق للجماعة المسلمة في بناء الدولة المسلمة،

هي بمثابة الدائرة أو الحوض الذي يجمع أهل الإسلام والعصبة المؤمنة فيه، كما جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العصبة المؤمنة في المدينة.

ففائدة هذه البقعة هي أنها مكان اجتماع العصبة المؤمنة، يكرون ويفرون منها وإليها، ينطلقون منها ليجاهدوا في سبيل الله، ويرجعون إليها، يهاجرون في الأرض لينشروا دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويرجعون إلىٰ القاعدة الأم.

المتن:

يَجْتَمِعُ فِيهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ وَيُقِيمُونَ فِيهَا حَيَاتَهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ شَرِيعَةِ الله، فَهِيَ الِاجْتِمَاعُ وَالْجَمَاعَةُ وَالْوَحْدَةُ، وَهِيَ الْوَطَنُ الَّذِي يَعْلُوهُ حُكْمُ الله.

الشرح:

حينما تنظر إلىٰ قيمة وأهمية هذه البقعة، وأنها نقطة الانطلاق، وتتخيل الحياة الطيبة التي يعيشها هؤلاء الناس، قوم يعيشون في هذه البقعة، يحكّمون شرع الله، شرع الله يحكمهم، متآلفون متحابون، تجمعهم الأخوة الإيمانية، وحياتهم الاجتماعية موافقة للأخلاق الإسلامية- تعلم أن هذه هي الحياة الطيبة؛ لذلك يجب علىٰ الأُمة إقامة هذه الدولة، بهذه الصفة وهذه الخصائص؛ لأنك كلما سرت في هذه الدولة، وهذه الأرض، وجدت مَعْلَمًا من معالم التوحيد والعقيدة في هذه الأرض، فلا ترىٰ فيها فاحشة، ولا منكرًا،

ولا ترىٰ فيها شركًا، ولا كفرًا، ولا مظهرًا من مظاهر الانحلال والتسيب الذي في البلاد الأخرىٰ.

إذن هذه الدولة هي الأصل، ولا بد من أن نعمل علىٰ إيجادها، لا بد أن نأخذ بالأسباب الشرعية لتكوين ووضع هذه اللبنة الأساسية لبناء هذه الدولة، لا ينبغي أن نغفل عن هذا أبدا.

ومما يجب القيام به وعدم الغفلة عنه أو إهماله، إن كنا نريد أن نطرد الكافر المحتل من بلادنا، ونقيم دولة الإسلام والشريعة: تفقد البنية التحتية للبلاد، والوقوف علىٰ وضع المجتمع وحياة الناس، اجتماعيًا، وتعليميًا، وصحيًا، والوقوف علىٰ مصادر الإنتاج المحلي، من زراعة، وما مقدار الأرض الصالحة للزراعة، ومقدار الأرض التي تحتاج إلىٰ استصلاح لتُزرَع، وعدد المصانع في البلاد، وماذا تُنتِج، والطاقة الإنتاجية لها، وعدد العاملين في قطاعات الدولة المختلفة، وتقدير ما تحتاجه البلاد من صناعات يحصل بها الاكتفاء الذاتي للناس، ويصدر الفائض للخارج، لا بد من التواصل مع القائمين علىٰ هذه القطاعات في الدولة، ومعرفة حقيقة كل وزارة وقيمتها، والوقوف علىٰ السلبيات والإيجابيات، وهكذا الحال في كل إدارات وقطاعات البلاد؛ حتىٰ نعد العدة للنهوض بالبلد، وما يصلح لكل قطاع من موظفين وولاة يعرفون جيدًا ما يقومون به، وما هو منوط بهم، قبل تولي الوظيفة،

لإعداد الخطط للإصلاح، وهذا يوفر الوقت والجهد والمال، وسرعة النهوض بالبلاد، وتوفير ما يحتاجه المواطن ليشعر بقيمة الشرع والعمل بالشريعة في حياته، وينعم بخيرات بلاده المنهوبة.

فلا يمكن لمن يريد أن يقيم دولة الإسلام أن يجهل مشكلات الناس، ولا يعرف ما تحتاجه كل إدارة، وكل قطاع، وكل قرية، وكل مدينة، وهذا يتطلب منا التواصل والوصول إلىٰ كل قطاعات المجتمع، وزرع العيون في كل مكان؛ للوقوف علىٰ حقيقة الوضع الحالي للبلاد، هذا مهم جدًا لقيام الدولة.

ولا مانع شرعًا من معرفة المخلصين في كل إدارة، وتوليتهم مسؤولية إدارتها بخبرتهم فيها، وهذا فيه من المصالح، وعدم إقصاء المصلحين، وتوصيل رسالة للناس: أننا منكم ولكم، وهذه البلاد بلادنا جميعًا، ليست لفئة معينة مخصوصة بالخير، وحرمان عموم الناس، رسالة واضحة صريحة: أنه لا مكان في دولة الشريعة للمفسدين والظلمة والكسالىٰ، بل الأصل الصدق والأمانة والكفاءة، والمعيار والميزان: (الرجل المناسب في المنصب المناسب)، وكلٌّ أمام الشريعة وحكم الله سواء، الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، بذلك تنهض البلاد، وتُبنىٰ بالعدل والعلم والرحمة والحكمة.

المتن:

وَأَشْرَفُ الْبِقَاعِ فِي الْأَرْضِ بُقْعَةٌ تَحْكُمُهَا الشَّرِيعَةُ، وَيَعْلُوهَا حُكْمُ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا الَّذِي يَسْعَىٰ إِلَيْهِ كُلُّ مُسْلِمٍ صَحِيحِ الْإِسْلَامِ: أَنْ يَعِيشَ فِي مُجْتَمَعٍ مُسْلِمٍ، وَبَيْنَ جَمَاعَةٍ مُسْلِمَةٍ، تَسُودُهَا الْأُلْفَةُ وَالْمَحَبَّةُ فِي اللهِ وَلِلَّهِ.

وَالْوَطَنُ لَا يُقَدَّسُ لِكَوْنِهِ وَطَنَكَ وَأَرْضَكَ الَّتِي وُلِدْتَ فِيهَا وَتَرَبَّيْتَ عَلَيْهَا؛ اَلْوَطَنُ يَشْرُفُ لِأَنَّهُ تَحْكُمُهُ شَرِيعَةُ اللهِ.

الشرح:

مهم جدا أن يكون هذا حاضرًا في ذهن كل مسلم. الوطن يشُرف ويحسُن الانتماء إليه إذا كان وطنًا يُحكم بشريعة الله، هذا يُوالَىٰ عليه، ويُعادَىٰ عليه.

لا نوالي ولا نعادي علىٰ الأرض لمجرد أنها أرض، ولكن لأنها تُحكَم بشرع الله، ويقام عليها دين الله، هذا ما نقاتل في سبيله، في سبيل دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا في سبيل الأرض.

أهل الجاهلية يقولون: من مات دفاعًا عن أرضه فهو شهيد، سواء أكان يهوديًا أم نصرانيًا، هو عندهم شهيد، شهيد الأرض، شهيد الوطن، شهيد الواجب، إذن يكثر الشهداء، ويكون الذي يموت من أجل أرضه بغض النظر عن عقيدته وديانته- شهدًا!

فالمطلوب هو أن تدافع عن هذه الأرض لأنها أرض تُحكَم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأنت لا تدافع عن الوطن لذاته، ولكن تدافع عن الدين القائم

فيه، وعن الشريعة التي تحكمه؛ لأنها إذا سقطت الشريعة، فلا قيمة للأرض، وستهاجر منها إلىٰ أرض تُحكَم بشرع اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لماذا نوضح هذه النقطة بالذات؟

لأنه كثُر في زماننا الانتماء إلىٰ هذه البُقع، والتعصب إليها، تجد العرق الشيشاني، العرق الروسي، العرق المصري، العرق العربي، كلٌّ يتعصب إلىٰ عرقه وجنسيته، وإلىٰ وطنه وأرضه، وأين التعصب للإسلام؟! أين الانتماء لشريعة الإسلام، وإلىٰ دولة الإسلام؟! لا تجد؛ فلا بد من وضوح هذا المعلم: أننا لا بد من إيجاد هذه الأرض، ولا بد من الموت في سبيل هذا الدين الذي يحكم هذه الأرض.

المتن:

وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ شَهِيدٌ، لَا كَمَا يُسَمُّونَهُ ويُرَوِّجُونَ لَهُ بِـ (شَهِيدِ الْوَطَنِ) وَ (شَهِيدِ الْحُبِّ)!

اَلْوَطَنُ يَشْرُفُ بِتَحْكِيمِ شَرْعِ اللـه.

وَأَرْضٌ تَحْكُمُهَا الشَّرِيعَةُ؛ هِيَ أَرْضٌ مُسْلِمَةٌ.

وَوَطَنٌ وَأَرْضٌ لَا تُحْكَمُ بِالشَّرِيعَةِ؛ هِيَ بِلَادٌ كَافِرَةٌ لَا خَيْرَ فِيهَا.

فَالْأَصْلُ الْإِسْلَامُ، وَتَحْكِيمُ شَرِيعَتِهِ.

وَإِلَّا مَنْ قُتِلَ مِنَ الْكُفَّارِ فَهُوَ شَهِيدٌ! لِأَنَّهُ قُتِلَ مِنْ أَجْلِ الدِّفَاعِ عَنْ وَطَنِهِ!

وَيَكْثُرُ الشُّهَدَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ، (شَهِيدُ الْحُبِّ)! وَ (شَهِيدُ الْوَطَنِ)! وَ (شَهِيدُ الْوَاجِبِ)!

وَإِنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ صَلِيبِيًّا أَوْ مُلْحِدًا (عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ)!

وهَذَا لَا يَصِحُّ فِي دِينِ الله.

مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا؛ فَهُوَ شَهِيدٌ.

الشرح:

الأرض التي ولِدتَ فيها، وتربيتَ فيها- لها ذكريات عندك، ولكن عندما يعلو دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلبك؛ يغطي علىٰ هذه النَّزَعات الشخصية والعاطفية. ومما يهوّن عليك فراق الأرض والوطن: أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هاجر من مكة، النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، خرج من مكة، خرج من مكة وهي بلد الله الحرام، وفيها بيت الله، ومع ذلك خرج منها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنها كانت دار كفر، لا يستطيع أن يقيم فيها دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يستطيع أن يدعو فيها إلىٰ شرع الله -سبحانه-، لأن المشركين لا يتركونه، بل يطاردونه، يعتقلونه، يحْصرونه، فالأرض حينئذٍ لا بد أن تُترَك، وإما يجاهد حتىٰ تحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المتن:

فَالْوَطَنُ لَيْسَ وَثَنًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، وَتُعْقَدُ عَلَيْهِ الْمُوَالَاةُ وَالْمُعَادَاةُ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ هُوَ دِينُ الله وَأَرْضٌ تُحْكَمُ بِشَرْعِ الله، لَا كَمَا يَدَّعِي كَهَنَةُ قُرَيْشٍ وَسَحَرَةُ فِرْعَوْنَ، كَمَا ضَرَبَ أحد الدعاة مثلًا بالكاهن والبقرة فقال: فَفِي قُرَيْشٍ كَانَ الْكَاهِنُ يَقُولُ لِعَابِدِي الصَّنَمِ: إِنَّ الصَّنَمَ يَطْلُبُ مِنْكُمْ بَقَرَةً؛ حَتَّىٰ يُلَبِّيَ طَلَبَكُمْ!

الشرح:

هذا المثال يجسّد الواقع الآن في زماننا، الطغمة الكافرة الحاكمة دائما يكلمون الناس عن الأرض والوطن، الوطن يحتاج، والأرض تحتاج، ووطننا وأرضنا، ويأخذون أموال الناس بأي طريقة من أجل الوطن، يقولون: الوطن يحتاج طرق، ومستشفيات. وفي الحقيقة هو يأخذ هذه الأموال لنفسه ولمصلحته، ولكن يجعل الوطن حيلة؛ ليستغل حب الناس لبلادهم طبيعةً، فهذا الوطن هو بقرة حلوب لهؤلاء الطغاة المجرمون، وكلما احتاجوا إلىٰ شيء طلبوا من الناس، يقولون: البلد تحتاج، البلد أمانة عندكم، البلد هذه فيها كذا وكذا. وفي الحقيقة هم يتكلمون لمصلحتهم، ولمصلحة الطغمة الفاسدة التي تحكم معهم، كلٌّ يستفيد من هذا في تحقيق مصالحه فقط، ولا يحققون مصلحة الوطن والأرض، وإلا لما قهروا هذا الشعب الذي يعيش في هذا الوطن وعلىٰ هذه الأرض، وما قيمة الأرض من غير شعب؟! إذن هم يعملون

لمصالحهم حقيقة، ولكن يدّعون أنهم يعملون لصالح الوطن. فهذا المثال ينطبق علىٰ كثير مما نعيشه الآن.

المتن:

اَلْحَقِيقَةُ: اَلصَّنَمُ لَا يَتَكَلَّمُ، وَمَنْ يُرِيدُ الْبَقَرَةَ وَيَسْتَفِيدُ مِنْهَا، هُوَ الْكَاهِنُ!

الشرح:

«الكاهن» أي: الحاكم والطغمة وحكومته الكافرة أو الفاسدة.

المتن:

فَالْوَطَنُ وَثَنٌ مَعْبُودٌ مِنْ دُونِ اللهِ، كَالصَّنَمِ لَا يَنْطِقُ.

وَلَوْ قَالَ الْكَاهِنُ لِلنَّاسِ: أُرِيدُ بَقَرَةً لِي. لَمَا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا أَحَدٌ.

الشرح:

يعني: لو قال بصريح العبارة: أنا أريد هذا لي. لم يعطه أحد، وهو يعلم هذا، ولكن لأنه يعلم هذا، طلب لنفسه عن طريق الوطن، الوطن يحتاج، الوطن يريد.

المتن:

لِذَلِكَ تَكُونُ الْحِيلَةُ بِإِيجَادِ صَنَمٍ يَعْبُدُهُ النَّاسُ وَيُقَدِّسُونَهُ، وَيَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ وَيُعَظِّمُونَهُ، ثُمَّ يَتَصَدَّرُ الْكَاهِنُ لِلْحَدِيثِ بِاسْمِ الصَّنَمِ، وَيَدْعُو النَّاسَ لِتَقْدِيسِ الصَّنَمِ وَتَعْظِيمِهِ؛ حَتَّىٰ إِذَا طَلَبَ مِنْ عَابِدِي الصَّنَمِ شَيْئًا بِاسْمِ الصَّنَمِ

دَفَعُوهُ لِلْكَاهِنِ، وَهُمْ فَرِحُونَ، بَلْ يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْكَاهِنِ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّ الصَّنَمَ قَد تَقَبَّلَ عَطَائَهُمْ!

وَمَنْ يَتَحَدَّثُ بِاسْمِ الْوَطَنِ هُمُ السِّيَاسِيُّونَ، الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ الْكُهَّانَ بِالنِّسْبَةِ لِلصَّنَمِ، وَعِنْدَمَا يَطْلُبُونَ مِنَ النَّاسِ التَّضْحِيَةَ لِلْوَطَنِ، فَهُمْ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ مِنَ النَّاسِ التَّضْحِيَةَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَمِنْ أَجْلِ بَقَاءِ سُلْطَانِهِمْ أَسْيَادًا عَلَىٰ بُسَطَاءِ النَّاسِ، وَالنَّاسُ الْعَابِدَةُ لِلْوَطَنِ فَرِحَةٌ، يَمُوتُ فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ؛ فَيُلْقِي عَلَيْهِ السَّادَةُ: (شَهِيدُ الْوَطَنِ)، بَيْنَما السَّادَةُ لَا يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ، وَلَا يَجْعَلُونَ أَبْنَاءَهُمْ يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْوَطَنُ، وَمِنْ أَجْلِهِمْ يَمُوتُ عَابِدُو الْوَطَنِ.

الشرح:

يعني: أنتم تدعون الناس إلىٰ الموت في سبيل هذا الوطن؛ حتىٰ يبقىٰ الوطن، لماذا أنتم لا تموتون كذلك في سبيل هذا الوطن؟ لماذا أنتم لا تقدمون أولادكم ليموتوا في سبيل هذا الوطن كما تطلبونه من الناس ومن أولادهم؟ الجواب: هم لا يريدون ذلك لأنهم هم الوطن؛ لأنهم هم الوثن الذي يعبده الناس، هذه هي الحقيقة.

المتن:

تَسْمَعُ دَائِمًا كَلِمَاتٍ ضَخْمَةً مِثْلَ: (خِزَانَةُ الدَّوْلَةِ - مُمْتَلَكَاتُ الدَّوْلَةِ - أَرَاضٍ مِلْكٌ لِلدَّوْلَةِ - هَيْبَةُ الدَّوْلَةِ - رَئِيسُ الدَّوْلَةِ) وَيَمُوتُ الْجَمِيعُ كَيْ لَا تَسْقُطَ الدَّوْلَةُ، الدَّوْلَةُ... الدَّوْلَةُ... الدَّوْلَةُ...

وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَسْأَلُ: (مَا الدَّوْلَةُ؟)! مَا هَذَا (الْمُسَمَّىٰ الِاعْتِبَارِيُّ) الْمُقَدَّسُ الَّذِي تَنْسِبُونَ إِلَيهِ كُلَّ شَيْءٍ؟

وَالَّذِي مِنْ حَقِّهِ أَيْضًا أَنْ يَسْلُبَ مِنْكُمْ كُلَّ شَيْءٍ (دِينَكُمْ، أَرْوَاحَكُمْ، كَرَامَتَكُمْ، لُقْمَةَ عَيْشِكُمْ)!

مَا هَذَا الْوَثَنُ الْمُقَدَّسُ الَّذِي تَطْلُبُونَ مِنَ الشُّعُوبِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ أَنْ تَجُوعَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْبَعَ هُوَ؟

وَأَنْ تَتَقَشَّفَ مِنْ أَجلِ أَنْ يَنْعَمَ هُوَ؟

وَأَنْ تَمُوتَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعِيشَ هُوَ؟

وَأَنْ تُهَانَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْفَظَ هَيْبَتَهُ؟

فِي الْحَقِيقَةِ؛ اَلدَّوْلَةُ هِيَ وَثَنٌ وَهْمِيٌّ، تَدَّعِيهِ مَرَاكِزُ الْقُوَّةِ الْمُغْتَصِبَةُ لِسُلْطَةِ اللـه؛ تَدَّعِي وُجُودَهُ حَتَّىٰ تَتَسَتَّرَ وَرَاءَ اسْمِهِ، بَيْنَمَا فِي الْحَقِيقَةِ كَلِمَةُ (الدَّوْلَةُ) لَا تَعْنِي عِنْدَهُمْ إِلَّا (السُّلْطَةَ وَمَرَاكِزَ الْقُوَّةِ)!

وَحَتَّىٰ يَتَقَبَّلَ النَّاسُ فِكْرَةَ الْخُضُوعِ وَالْإِذْعَانِ لَهُمْ؛ فَهُمْ يَدَّعُونَ دَائِمًا أَنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُونَهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ.

الشرح:

انظروا إلىٰ هذا المجرم الذي جوّع شعبَه، وبنىٰ قصورًا ضخمة جدًا، والبلد فيها قصور، بُنِيَت علىٰ أعلىٰ مستوىٰ من الفخامة والراحة، في أيام محمد علي وغيره، وكل حاكم لا يحكم بشرع الله ولا يتقىٰ الله في شعبه فهو مجرم سماه الله هو وأمثاله مجرمًا وهذا في القرآن كثير، ولكن هذا المجرم بنىٰ قصورًا ثم لما انكشف أمره وانفضح، قال: أنا لا أبني قصورًا لنفسي، أنا أبني قصورًا للبلد! وهل البلد تحتاج قصورًا، أم تحتاج أمنًا واستقرارًا ودينا؟! تحتاج مدارس، ومستشفيات، ومصانع! لذلك عندما يأخذ أموال الناس، ويقول: أنا أفعل كذا وكذا. فإن السذج من الناس يصدقون هذه الكذبة، يقولون: نعم، ادفعوا، وأعطوا، هذا الرجل يخدم البلد، هذا رجل مخلص، هذا رجل صادق... إلخ.

المتن:

يَأْخُذُونَ أَمْوَالَكَ، وَيَسْرِقُونَ حُقُوقَكَ، ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَخَذُوهَا لِأَجْلِ أَنْ يُوَفِّرُوا أَمْوَالًا لِلدَّوْلَةِ!

يُهِينُونَكَ شَرَّ إِهَانَةٍ، وَيَسْتَحِلُّونَ دَمَكَ، ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّهُم يَفْعَلُونَ ذَلِكَ حِفَاظًا عَلَىٰ هَيْبَةِ الدَّوْلَةِ!

يَسْتَغِلُّونَ الْجُنُودَ فِي حِفْظِ كَرَاسِيِّهِمْ وَسُلْطَتِهِمْ، وَيَزُجُّونَ بِهِمْ فِي مَوَاطِنِ الْمَوْتِ؛ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَحْمُونَ الدَّوْلَةَ!

إِذْ لَوْ قَالُوهَا صَرَاحَةً: (نَحْنُ نَقْتُلُكَ وَنُهِينُكَ وَنَسْلُبُ مَالَكَ؛ لِأَجْلِ سُلْطَتِنَا)؛ لَمَا تَقَبَّلَهَا أَحَدٌ!

ثُمَّ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُضِيفُوا مَزِيدًا مِنَ التَّقْدِيسِ، وَالتَّعْظِيمِ عَلَىٰ هَذَا الْوَثَنِ؛ سَمَّوْهُ بِاسْمِهِ الْمُقَدَّسِ؛ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ: فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ يَجْعَلُونَ الشَّعْبَ يُرَدِّدُ وَرَاءَهُمْ:

(نَمُوتُ نَمُوتُ... وَيَحْيَا الْوَطَنُ)، (نَحْنُ فِدَاءٌ لِلْبَلَدِ)، (عَاشَتِ الْبَلَدُ حُرَّةً...)

إِذَا كَانَ مَطْلُوبًا مِنَ الشَّعْبِ أَنْ يَمُوتَ لِتَحْيَا الْبَلَدُ؛ فَنَحْنُ نَتَسَاءَلُ -مَثَلًا- مَا مِصْرُ حَتَّىٰ يَمُوتَ الشَّعْبُ وَيُسْجَنَ وَيُهَانَ مِنْ أَجْلِهَا؟!

إِذًا فَمِصْرُ لَيْسَتِ الشَّعْبَ. هَلْ هِيَ الْأَرْضُ؟!

إِذَا كَانَتِ الْأَرْضَ، فَمَنْ وَضَعَ حُدُودَهَا؟ وَهِيَ حُدُودٌ تَتَغَيَّرُ عَلَىٰ مَرِّ التَّارِيخِ، وَالثَّابِتُ الْوَحِيدُ هُوَ الِاسْمُ فَقَطْ!

الشرح:

هم يقولون: يموت الشعب من أجل الوطن. ما هو الوطن الذي يموت الشعب من أجله؟ وما النفع الذي يعود علىٰ الشعب؟ لا شيء، فالحقيقة أن الوطن الذي يعنونه هم الطغاة ومن ينصرهم فقط، والشعب خادم لهذه الطغمة الكافرة.

المتن:

بَلْ مُعْظَمُ حُدُودِ الْأَرْضِ لِلْأَوْطَانِ الْحَالِيَّةِ، وَضَعَهَا الْإِنجِلِيزُ وَالْفِرَنْسِيُّونَ! وَلَمْ يَصْنَعْهَا جَدِّي وَجَدُّكَ!

وَهَبْ أَنَّنَا اتَّفَقْنَا عَلَىٰ حُدُودِ الْأَرْضِ، فَهَلِ الْأَرْضُ هِيَ الَّتِي تَمْتَلِكُ النَّاسَ، أَمِ النَّاسُ هُمُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَهَا؟

إِنَّكُمْ يَا سَادَةُ لَا يَمْلِكُ مُعْظَمُكُمْ شُقَّتَهُ الَّتِي يَقْطُنُ فِيهَا! وَمَنْ مَلَكَ أَرْضًا أَوْ شُقَّةً فَإِنَّهُ يَدْفَعُ عَلَيْهَا ضَرَائِبَ لِدَوْلَتِهِ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَأْجِرُهَا مِنْ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ وَحُكُومَتِهِ!

الشرح:

هذا واقع، لو كان عندك بيت ثم تعلَّلُوا واحتالوا عليك ليأخذوه منك بقولهم: البلد تحتاج هذا البيت، نريد أن نعمل مصنعًا، أو طريقًا، أو نعمل مصلحة عامة للبلد. فقد لا تستطيع أن تدفع عن نفسك؛ أمّا لو قالوها صراحة: نحن نريد هذا البيت لنا، أو لأبنائنا، لَمَا سلّمت لهم، ولقاتلتهم علىٰ هذا؛

لذلك هم يتخذون الوطن وثنًا يعبّدون الناس له؛ ليحققوا مصالحهم الشخصية.

المتن:

بَلْ حَتَّىٰ جَمِيعُنَا يَدْفَعُ فِي أَرْضِ الْوَطَنِ ثَمَنَ قَبْرِهِ الَّذِي سَيُدْفَنُ فِيهِ!

إِذًا أَيْنَ أَرَاضِي الدَّوْلَةِ الَّتِي تَمُوتُونَ فِي الدِّفَاعِ عَنْهَا؟!

إِنَّهَا أَرَاضِي الدَّوْلَةِ، أَرَاضٍ يُوَزِّعُهَا كَاهِنُ الدَّوْلَةِ (رَئِيسُ الدَّوْلَةِ) عَلَىٰ أَعْوَانِهِ وَأَتْبَاعِهِ؛ لِيَمْلِكَ وَلَاءَهُمْ لَهُ، وَيُعْطِيهَا لِرِجَالِ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدِينَ، وَالْمُسْتَثْمِرِينَ الْأَجَانِبِ؛ لِيَتَكَسَّبَ هُوَ وَحَاشِيَتُهُ مِنْ مَنَافِعِهَا، كَمَا تَكَسَّبَ كَاهِنُ قُرَيْشٍ مِنَ الْبَقَرَةِ.

إِذًا فَالدَّوْلَةُ أَوِ الْوَطَنُ هِيَ لَيْسَتِ الْأَرْضَ!

فَمَا الْمُتَبَقِّي مِنْ مَعْنَىٰ الدَّوْلَةِ أَوِ الْوَطَنِ لِيَمُوتَ النَّاسُ دِفَاعًا عَنْهُ؟!

اَلْمُتَبَقِّي مِنْ مَفْهُومِ الدَّوْلَةِ أَوِ الْوَطَنِ هُمْ -بِبَسَاطَةٍ- أَصْحَابُ السُّلْطَةِ وَمَرَاكِزِ الْقُوَّةِ!

وَأَنْتَ مَطْلُوبٌ مِنْكَ أَنْ تَجُوعَ وَتَتَقَبَّلَ الْإِهَانَةَ وَتَمُوتَ مِنْ أَجْلِ بَقَاءِ نِظَامِهِمْ!

مِنْ أَجْلِ أَنْ تُحَقَّقَ مَصَالِحُهُم فِي اسْتِمْرَارِ حُكْمِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ!!

هَذِهِ الْفِكْرَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الصَّنَمِيَّةُ الْوَثَنِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ، تَتِمُّ تَحْتَ اسْمِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ!

فَالْوَطَنِيَّةُ الَّتِي يُرِيدُونَ زَرْعَهَا فِي الشُّعُوبِ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللهِ، تَأْلِيهًا وَتَقْدِيسًا وَتَعْظِيمًا؛ مَا هِيَ إِلَّا خُضُوعٌ لِسُلْطَتِهِمْ بِشِعَارَاتٍ زَائِفَةٍ، وَيَجْعَلُونَ شَرِيعَتَهُمُ الْوَضْعِيَّةَ مَكَانَ شَرِيعَةِ اللهِ؛ حَتَّىٰ يَسْهُلَ عَلَيْهِمُ اسْتِعْبَادُ هَذِهِ الشُّعُوبِ الْمُنْتَسِبَةِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَيَتَقَبَّلَ النَّاسُ دِينَ الْمَلِكِ وَشَرِيعَتَهُ!

أَمَّا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، فَالنَّاسُ هُمْ مَحَلُّ الِاهْتِمَامِ، وَالْحَاكِمُ هُوَ خَادِمُهُمْ.

اَلْعُنْصُرُ الثَّانِي: (اَلشَّعْبُ) وَ(النَّاسُ) أَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ.

اَلنَّاسُ وَأَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِيهَا وَعَلَىٰ أَرْضِهَا، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ عَقِيدَتِهِمْ، فَالْإِسْلَامُ يَسَعُهُمْ جَمِيعًا.

الشرح:

إذن صفة هذه الأرض كما قلنا: البقعة التي تنطلق منها العصبة المؤمنة لتحكيم دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأرض، وهذه الأرض يعيش عليها أناس، هؤلاء الناس يظلهم دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشريعته.

هل يشترط في هذه الأرض أن يعيش فيها المسلم فقط؟

الجواب: لا؛ لأن شريعة الإسلام تسع المسلم والكافر، ولكلٍّ حكمه في هذه الأرض، فالكافر مُلزَم بأحكام أهل الذمة، ملزم إذا أراد أن يعيش في هذه الأرض بألّا يؤذي مسلمًا، ولا يتعدىٰ علىٰ امرأة، فإن آذىٰ مسلمًا، أو تعدىٰ علىٰ امرأة مسلمة، نقضت ذمته، وقتل بها، وملزم كذلك بألا يظهِر شعائره التعبدية علنًا، فإن أعلن شريعته، قتل، ونقضت ذمته، فالواجب عليه أن يعيش بشريعة الله في أرض الله.

الآن في زمننا هذا، لما رأىٰ هؤلاء الكفار هذا الكفر البواح، تجرؤوا علىٰ أهل الإسلام، وتجرؤوا علىٰ أعراض المسلمات؛ لأن الحاكم الذي يحكم هذه الأرض لا يعنيه إيمان أو كفر، لا يعنيه الناس، هو معني فقط بمصلحته وبقاؤه في هذا المكان حتىٰ يموت؛ ولذلك تراهم يستعينون بالكفار، لا يستعينون بهم حبًّا لهم، هم يبغضونهم في أنفسهم، ولكن يلجؤون إليهم لأنهم السند لهم، وهم السبب الوحيد لبقائهم في هذا المكان، فيقولون: نعم، هم كفار، وهم وهم، ولكن نحن محتاجون إليهم. ويقولون لهم: نحن عبيدكم، نفعل ما تريدون في شعوبنا! كل ذلك في مقابل أن يبقوا علىٰ هذه الكراسي؛ ويفعلون بشعوبهم أشياء عجيبة لا يتصورها عقل، ولا هي من الشهامة ولا من الرجولة؛ لأنهم ينفّذون كلام هذا الكافر لتحقيق مصالحه، وتثبيت ملكهم، فهم لا يبالون إذا بقوا علىٰ كراسي حكمهم بذهاب شعوبهم كلها، ولا يعنيهم ذلك؛ ولذلك هم ورقة في أيدي هؤلاء الكفار، وإذا انتهت هذه الورقة استبدلوا

بها غيرها؛ فتجدهم يبذلون قصارىٰ جهدهم في إرضاء هؤلاء الكفار، ولا يخرجون أبدًا عن الطريق الذي رسموه لهم، فلا يأتون من عند أنفسهم بشيء، فإذا أتىٰ واحد منهم بشيء من عنده في بلده، جاؤوا بغيره؛ حتىٰ يضمنوا ولاء الحكام لهم.

لذلك لا تتعجب من حاكم يجوّع شعبه، ويسجنه، ويقتله، ويطارده؛ من أجل إرضاء سيده فقط، والعقلاء يعرفون هذا، ولكن لا يستطيعون أن يتكلموا بهذا الكلام؛ رغبة ورهبة.

المتن:

اَلْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: شَرِيعَةٌ تَحْكُمُهَا.

شَرِيعَةٌ تَحْكُمُها، وَتُنَظِّمُ الْحَيَاةَ فِيهَا، بِوَضْعِ الْقَوَانِينِ وَاللَّوَائِحِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي تُنَظِّمُ حَيَاةَ النَّاسِ فِي الدَّوْلَةِ -كُلِّ النَّاسِ، سَوَاءٌ أَهْلُ الْإِسْلَامِ أَوْ أَهْلُ الذِّمَّةِ، أَوْ غَيْرُهُمْ- وَتُحَدِّدُ مَهَامَّ وَمَسْؤُولِيَّاتِ كُلِّ إِدَارَةٍ وَمُؤَسَّسَةٍ مِنْ مُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلَةِ وَفْقَ أُصُولِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ.

الشرح:

«شريعة تحكمها»، يعني: قانون يحكم الناس، حتىٰ لا يكونوا همجًا رعاعا، لا بد من قانون ينظمهم، ويرتب حياتهم، ويلزمهم بأمور لا يخرجون عنها، ويحكمهم، ويضبط أفكارهم وأهواءهم، وإلا لفعل كل إنسان ما يهواه؛

وكما يقول المثل: «من أمن العقوبة، أساء الأدب». إذا أُمنت العقوبة، ظهر الفساد.

المتن:

اَلْعُنْصُرُ الرَّابِعُ: رَأْسُ الدَّوْلَةِ.

الشرح:

إذا وجدت الأرض، ووجد الشعب الذي يعيش عليها، وأردنا تحكيم الشريعة، ووضعنا لوائح وقوانين إدارية تنظم حياة الناس، هل يشترك كل الناس في تنظيم هذه الدولة، أم هناك رأس يجتمعون عليه؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يهاجر إلىٰ المدينة -وأنا أريدك أن تتخيل هذا الواقع-، ليس ثَمَّ أرض، المسلمون متفرقون في الأرض، جزء في مكة، وجزء في البوادي والقبائل، وجزء في الحبشة، ثم بعد ذلك أوجد لهم المدينة، فهاجر الناس إلىٰ هذه الأرض.

بعد أن هاجر الناس إلىٰ المدينة ما القانون الذي يحكمهم؟ شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نزلت السور المدنية التي تنظم الحياة الاجتماعية للناس، وانظر إلىٰ القرآن المدني، معظم القرآن المدني يؤصل ويؤطر وينظم حياة الناس

الاجتماعية في المدينة، الزكاة، الصلاة، المعاملات، العلاقات الدولية الخارجية، الزواج، كل هذه كانت في المدينة.

وكان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو رأس الدولة، كانوا يصدرون عن رأيه، فلا بد من رأس يجتمعون عليها، ومعلوم أن أبا بكر وعمر هما وزيراه من بعده، حتىٰ وإن لم يسموهما وزيران، إلا أنه كان مشاهدًا معلوما من واقع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع أبي بكر وعمر، حتىٰ قال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: إني كنت كثيرا أسمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر**»[1]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمرأة: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**»[2]، هكذا كان في أبجديات الناس.

فلا بد أن يخطر ببالنا من يحكم هذه الأرض؛ لأنه عندما يحصل التمكين سيأتي الاختلاف، والعلم بالرأس يمنع الاختلاف، فلا بد من الاتفاق علىٰ هذه الرأس، وسيأتي معنىٰ صفاتها، ومميزاتها، وشروطها، وغير ذلك.

وهذا المنصب ليس تشريفًا بقدر ما هو تكليف، يعني: ليس فيه ميزة بقدر ما هو مسؤولية وهَمّ يحمله المسؤول، ليس نوعًا من الترف، بل المسؤول عليه عبء كبير جدّا، وحِمْل كبير جدّا، ينوء بحمله؛ لذلك يأتي بإخوانه المساعدين

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٣٦٨٥).

(٢) «صحيح البخاري»، رقم: (٣٦٥٩).

له، وإلا لو كان هذا المنصب تشريفًا، لَمَا شاركه فيه أحد، ولكن هو تكليف، فلا بد من مشاركة الجميع في هذا البناء.

المتن:

رَأْسُ الدَّوْلَةِ، أَمِيرُهَا، حَاكِمُهَا، وَلِيُّ الْأَمْرِ فِيهَا، يَخْتَارُهُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ؛ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَالْحُكَمَاءِ، وَأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَيرِ وَالْخِبْرَةِ بِالشُّورَىٰ وَالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

هَذِهِ مُكَوِّنَاتُ الدَّوْلَةِ عَلَىٰ الْإِجْمَالِ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الدَّوْلَةَ، وَمُكَوِّنٍ مِنْ مُكَوِّنَاتِهَا.

الشرح:

إذن، مكونات الدولة ليست أرضًا وشعبًا وشريعة فقط، بل عندنا رأس دولة/ حاكم/ رئيس/ ولي أمر/ خليفة.

وقد ذكرنا قبل أنه قبل أن يُختار الخليفة لا بد من الإعداد لقيام الدولة، فالدولة لا تأتي فجأة، بل لا بد أن نُعِدّ لها في الخفاء وفي السر، فعندنا أهل حل وعقد قبل الإعلان عن رئيس الدولة، وعندنا علماء، وعندنا مؤسسة علمية تخرّج لنا الأمراء والكوادر، حتىٰ لو لم تُعرَف، وعندنا حكماء، عندنا متخصصون في جميع المجالات، وعندنا أهل الصلاح، والدعاة، وأهل الزهد

والورع والتقوىٰ، وعندنا أهل الخبرة والخير، الخبرة في الزراعة؛ في الصناعة؛ في التجارة، عندنا كل هذه المكونات.

فإذا وُجِدَت الأرض، ووجد الشعب، وبدأنا نختار الرأس، وجدنا المقومات التي بنيناها في السنوات الماضية، وبناء علىٰ ذلك تُوزّع الأدوار مع رئيس الدولة، لكن لو دخلنا هذا الأمر فجأة، فسيسقط فجأة، لو دخلت في أمر من غير إعداد، فيسقط حتمًا وإن طال؛ لأنك لم تعدّ له، وليس لديك هذه المكونات.

المتن:

اَلْأَرْكَانُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ

بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمْنَا عَنِ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الدَّوْلَةُ، وَالَّتِي بِهَا تُسَمَّىٰ دَوْلَةً: مِنَ الْأَرْضِ وَالْوَطَنِ، وَأَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالنَّاسِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَالشَّرِيعَةِ الَّتِي تَحْكُمُهُمْ، وَرَأْسِ الدَّوْلَةِ الَّذِي يَسُوسُ النَّاسَ بِالْعَدْلِ وَالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وْالرَّحْمَةِ وَالْحَزْمِ- نَتَكَلَّمُ عَنِ الْأَرْكَانِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ، وَهِيَ شَرْحٌ وَتَفْصِيلٌ لِهَذِهِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ الْأَرْبَعَةُ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ هِيَ الْأَرْكَانُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ.

اَلرُّكْنُ الْأَوَّلُ: اَلشَّعْبُ وَأَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ.

إِنَّ الشَّعْبَ هُوَ الرُّكنُ الْأَسَاسِيُّ، وَهُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَفْرَادِ، يَتَوَافقُونَ عَلَىٰ الْعَيْشِ مَعًا فِي تَرَابُطٍ وَانْسِجَامٍ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَن نَتَصَوَّرَ وُجُودَ دَوْلَةٍ بِدُونِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ بِصِفَةٍ دَائِمَةٍ فَوْقَ إِقْلِيمِهَا، وَيَخْضَعُونَ لِسُلْطَتِهَا السِّيَاسِيَّةِ.

فَالشَّعْبُ هُوَ عُنْصُرٌ مِنْ الْعَنَاصِرِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ، فَأَيُّ كِيَانٍ سَيَاسِيٍّ لَا يُمْكِنُ أَن نُسَمِّيَهُ بِالدَّوْلَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أُنَاسٌ مُحَدَّدُونَ يَعِيشُونَ عَلَىٰ أَرَاضِيهِ بِصِفَةٍ دَائِمَةٍ.

وَلَيْسَ هُنَاكَ عَدَدٌ مُحَدَّدٌ لِسُكَّانِ الدَّوْلَةِ لِيُطْلَقَ عَلَيْهَا «دَوْلَةٌ».

الشرح:

هل يشترط عدد معين لإقامة الدولة؟

الجواب: نقول: لا، لا يشترط، ولكن لا بد أن يكون هناك اكتفاء ذاتي من الأفراد؛ حتىٰ لا يُحتَاج إلىٰ استيراد العقول من الخارج، فيدخل فيهم من ليس منهم، لأنها ليست عقولا مستوردة علىٰ الحقيقة، ولكنها عقول مستأجرة؛ تخدم من يدفع أكثر، لذلك لو جئت بعقل مستأجر ودفعت له المال للقيام بعملٍ ما، ثم وجد عدوُّك هذا العقل؛ لدفع له وزايد عليك وأخذ هذا العقل، وحينئذ ينكشف سرك؛ لأنه لا يحفظ سرّا، فليس عنده انتماء حقيقي، الانتماء الحقيقي يكون للإسلام، الانتماء الحقيقي يكون لدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، العقل المستأجر ليس عنده هذا الانتماء، هو عنده الانتماء لمن يدفع له أكثر، فهو أخذ منك خبراتك، واطّلَع علىٰ سرك وما عندك، ثم إذا وجد من يدفع أكثر، ذهب إليه، وأعطاه كل ما عندك. فإذا لم يوجد العدد الكافي من الأفراد للقيام بواجبات الدولة، فلا تتسمىٰ دولة، بل هي دولة مخترقة مهترئة، لا قيمة لها.

السؤال هنا: ما الذي يجب علينا فعله لتحقيق الاكتفاء الذاتي في الأفراد والخبرات؟

الجواب: البناء والإعداد، فلا بد أن نبني أنفسنا، وإن أخذ منا هذا البناء سنوات، لا تعنينا السنوات، ولكن تعنينا كيفية البناء، تعنينا كيفية تربية وإعداد

الكوادر العلمية في جميع التخصصات، حتىٰ يكون عندنا دولة بمعنىٰ الكلمة، نحن الذين ربينا أفرادها وكوادرها وقيادتها.

الكفار الآن عندهم كلية اسمها «كلية تربية القادة»، يضعون فيها أصحاب العقول النابغة، وينفقون عليها بكل ما يستطيعون؛ حتىٰ يكون انتماؤهم لهم، ويخرج منهم بعد ذلك الرؤساء، والوزراء، وصناع القرار.

ونحن كذلك لا بد أن يكون عندنا بيت لبناء القادة، وهل هذا البيت من السنة؟

الجواب: نعم، من السنة، هذا المحضن وهذه الكلية التي تبني وتربي القادة، كانت عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، متمثلة في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فكانت هي كلية تربية القادة والقدرات، ولكن انظر في كتب التاريخ والسيرة، لن تجد من يذكر لك ما كان يحصل في هذه الدار أبدا، لم يذكر أحد من الذين كتبوا في السيرة تفاصيل ما يحدث في دار الأرقم، ولكنهم عرفوا كيف رباهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المواقف التي حصلت بعد ذلك، والمحن والابتلاءات والفتن التي جاءت بعده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذين ثبتوا هم الذين رُبّوا في دار الأرقم.

فلا بد أن يكون عندنا دار كدار الأرقم، لا يعلم عنها أحد شيئًا، يُربَّىٰ فيها القادة كما ربّىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الصحابة، وهذا أمر في غاية الصعوبة، ليس

الأمر سهلا، ولكي تعرف ذلك، انظر إلىٰ الدماء التي سفكت، والجهود التي بذلت، والأموال التي أنفقت في بناء الدولة؛ ومن عرف قيمة ما يطلب، هان عليه ما يبذل، فالذي لا يتصور قيمة هذا البناء لن يعمل له، حتىٰ وإن كان في الدعوة ليل نهار، فكأنه يحرث في البحر، هل رأيتم حرثًا في البحر يخرج زرعًا؟! كالذي لا يكون مهمومًا بقيام دولة مسلمة تحكم بشرع الله، هو صالح في نفسه، ولكن فيه غفلة الصالحين، لا يعمل لنصرة دين الله في الأرض، ولا نصرة المسلمين المستضعفين في كل مكان، هو راضٍ بما هو عليه، ولا يقدّر قيمة بناء دولة إسلامية تُحَكِّم الشريعة في كل شؤون حياتها، لذلك لا يعمل لها، وهذا حال كثير من الدعاة اليوم إلا ما رحم ربك.

نحن نريد أن نقيم دين الله في الأرض، صرحًا يعبد فيه الله بشريعته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس هذا أمرًا هينًا أبدا، ولو كان هينًا لحمله وادعاه كل البطّالون.

فينبغي أن نسهَر له الليالي الطوال، نتفكر، ونكتب، ونسأل أنفسنا: كيف ننشئ دار الأرقام، كيف نربي فيها الذين يحكمون بلاد الإسلام، كيف نحافظ عليها من الاختراق والخونة والعملاء؟ لا ينبغي أن نغفل عن ذلك، وبقدر حملنا لهَمّ هذا الدين يكون بذلنا وتفكيرنا في بناء هذه الدولة، وإذا متنا علىٰ هذا فأجرنا علىٰ الله، وما الدروس، والدعوة إلىٰ التوحيد والسنة، وشرح

كتب التوحيد وعقيدة السلف الصالح، وطبع الكتب، ونشر القنوات، إلا تمهيدًا لبناء هذه الدولة.

انظر إلىٰ قيام الدولة العباسية، عندما أقامها دعاة بني العباس كانوا في بني أمية، يعيشون بينهم، بل دخلوا بغداد علىٰ ولاة بني أمية، ودخلوا قصور بني أمية في الشام، ولم يشعر بهم أحد، وعرفوا أخبارهم، وقام أبو مسلم الخرساني داعيةُ الدولة العباسية، يدعو بالكتب، والمقالات، والاجتماعات، وينفق الأموال والذهب، حتىٰ فوجئ بنو أمية بقيام الدولة العباسية في خراسان علىٰ يديه، واجتاحتهم اجتياحًا مفاجئًا، ولم يشعروا إلا وقد سقطت دولتهم.

نعود إلىٰ ما سقنا الكلام لأجله، وهو التنبيه علىٰ ألا يدخل فيك من ليس منك «العقول المستأجرة»، أبو مسلم الخرساني هو الذي أقام الدولة العباسية ومكّن لها، فكان جزاؤه القتل، قتله الخليفة العباسي؛ لأنه لم يكن منهم، كان انتماؤه للمنصب، فبعد أن مكّن لهم طَمِع في أن يشاركهم في الحكم، وبدأ يدعو، فاحتال عليه أبو جعفر، وجاء به وضرب عنقه، فقال له بعض الأمراء: يا أمير المؤمنين، الآن صرت خليفة(١).

لذلك أقول: دراسة السيرة والتاريخ الإسلامي فيها الكثير من العبر، ومن يقرأ السيرة بوجهةٍ عقديّة، يستطيع أن ينشئ جماعة متينة علىٰ التوحيد والسنة،

---

(١) انظر «البداية والنهاية»: (١٠/ ٢٩٥).

وبقدر الغفلة عن دراسة السيرة والتاريخ الإسلامي، يأتي الخلل في البناء الدعوي، فمن المهم أن تدرس هذه النماذج، وتحللها.

وإذا كنت تريد أن تعمل لدين الله بصدق، فدع الراحة، وكثرة النوم، نحن الآن نعد أنفسنا، فعلىٰ كل واحد منا أن يفكر، ويكتب، ويضع فكرته في هذا البناء بأي طريقة، أما أن نتكلم فقط، وندعو دعوة ليس فيها بناء كبناء دار الأرقم، فاعرف أنها إلىٰ زوال، وإن استمرت سنوات، بعض الدول استمرت (٥٠٠) سنة، بلاد الأندلس استمرت (٦٠٠) سنة، ومع ذلك سقطت؛ لأنها لم تحقق أسباب الاستمرار، لأنها مفتقرة لعوامل الثبات، ولذلك سنذكر في هذا الكتاب: أسس القيام، وعوامل الثبات، عندنا: أسس قيام الدولة، ثم عوامل ثبات هذه الدولة، ولم نأت بها من عند أنفسنا، بل أتينا بها من واقع عاشه العالم الإسلامي من عصر الخلافة الراشدة إلىٰ يومنا هذا، فنحن نستقرئ التاريخ لنأخذ منه العبر، ولا نجعل التاريخ مجرد قصص وحكايات نتسلىٰ بها، ونعلمها أولادنا عند النوم!

فهذا المنهج لا بد أن توطن نفسك عليه، وتعلم أنك كلك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا تقل: أنا أعطىٰ جزءا. لا، الكل لله، فإذا أعطيت كلك لله، وفقك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهداك وسددك وبصّرك.

المتن:

فَقَدْ كَانَ عَدَدُ أَفْرَادِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ قَلِيلًا جِدًّا مُقَارَنَةً بِغَيْرِهِمْ فِي زَمَانِهِمْ، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَدَدُ أَفْرَادِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ مَعْقُولًا؛ حَتَّىٰ يُمْكِنَ أَنْ تَنْشَأَ الدَّوْلَةُ.

الشرح:

الدولة الإسلامية في المدينة كان عدد أفرادها بالنسبة للدول الأخرىٰ قليلًا جدا، أين (٣٠٠)، (٤٠٠) إنسان في الدولة الإسلامية، من الآلاف المؤلفة والملايين في بلاد فارس والروم؟ ومع ذلك لم ينظروا إليها بعين الرهبة والخوف، بل مَلَكت هذه القلة هؤلاء الملايين، وفتحوا بلادهم، وقتلوهم، ففي بعض المعارك قتلوا منهم ربع مليون، فليست العبرة بالعدد، إنما العبرة بالعقيدة التي تحملها، وبالإمكانيات والإعدادات التي في مقدورك، والنصر أولًا وآخرًا من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن إذا خشيت هؤلاء، وقلت: أين نحن منهم؟ هم عندهم الطائرات، والصواريخ، وعندهم العدد...إلخ، أصابتك الهزيمة النفسية، وأين أنت من قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أين أنت من أهل الإسلام عندما كانوا ثلاثة آلاف في غزوة مؤته، وكان عدوهم (٢٠٠) ألف، كل واحد يقابله (٦٠) فارسًا، وما خافوهم؛ لأنهم يقاتلون بعقيدة، إما النصر وإما الشهادة، بهذه الروح وبهذه النفسية تقام الدولة؛ أما المنهزم نفسيًّا وروحيًّا، والله لو كان يملك أموال الدنيا كلها، لن يستطيع أن يقيم دولة، فالمؤمن يقاتل بإيمانه

وعقيدته لإعلاء كلة الله، لا بالإمكانيات المادية مع الخواء الروحي والعقلي، ونحن علىٰ ثقة أن الله ناصرنا، ما دمنا نأخذ بأسباب النصر.

المتن:

وَلَا شَكَّ أَنَّ كَثْرَةَ السُّكَّانِ يُعْطِي أَهَمِّيَّةً دَوْلِيَّةً خاصَّةً، وَمَرْكَزًا مَرْمُوقًا فِي الْمُجْتَمَعِ الدَّوْلِيِّ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْهُ، فَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُ دَوْلَةٍ دُونَ وُجُودِ مُجْمُوعَةٍ مِنَ الْبَشَرِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْشَأَ لَدَىٰ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ إِحْسَاسٌ بِضَرُورَةِ: إِشْبَاعِ حَاجَاتٍ شَتَّىٰ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَىٰ أَدَاءِ الْمَنَاشِطِ الْمَطْلُوبَةِ لِإِشْبَاعِ هَذِهِ الْحَاجَاتِ، وَالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَعْرُوفِ لِمَنْ وَلَّاهُ الله أَمْرَ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ.

وَالْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ فِي ظِلِّ دَوْلَةٍ وَبُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَحْكُمُهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ مَطْلَبٌ وَهَدَفٌ مِنْ أَهْدَافِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ.

وَإِذَا كَانَ الشَّعْبُ وَأَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ رُكْنًا مِنَ الْأَرْكَانِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ؛ فَيَجِبُ الِاهْتِمَامُ بِهَذَا الشَّعْبِ، وَتَرْبِيَتُهُ تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً صَحِيحَةً؛ بِتَوْفِيرِ كُلِّ مَا يُسَاعِدُهُ فِي الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ وَالْعِلْمِ بِالدِّينِ وَالدُّنْيَا.

الشرح:

يعني: لا بد من الجمع بين العلم التجريبي الدنيوي، وبين العلم الديني الشرعي، لا بد من الموازنة.

لا بد من هذا الانسجام، لا بد من الرقي في التعليم، وفي الدين والدنيا، لا بد من التجارة، والصناعة، والزراعة، هذه من عوامل ثبات الدولة، الدولة ليست كيانًا وحكومة قائمة فحسب، بل لا بد من عوامل الثبات.

وكما قلنا قبل: إن الحكومة، أو رأس الدولة، أو مجلس الوزراء - ليس هو منصبًا شرفيًا، بل هو عبء وشغل بإدارة هذه الدولة، كيف يوفر لهذا الشعب سبل الراحة والأمن والأمان في دينه ودنياه؟ كيف يوفر لهم موارد يعيشون منها؟

المتن:

وَكَذَلِكَ حَجْبُ وَمَنْعُ كُلِّ شَرٍ وَفَسَادٍ يَتَسَبَّبُ فِي غَيْبَةِ وَعْيِهِ الشَّرْعِيِّ، وَالسِّيَاسِيِّ، وَيُضَلِّلُهُ وَيُلَبِّسُ عَلَيْهِ الْحَقَّ. وَهَذَا دَوْرٌ مُهِمٌ يَقُومُ بِهِ الْإِمَامُ وَالْخَلِيفَةُ وَرَأْسُ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ وَظَائِفِهِ، اَلْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ دِينِ الشَّعْبِ، وَعَدَمُ تَمْكِينِ وَمَنْعُ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيبَهُ وَتَزْيِيفَ وَعْيِهِ، وَنَشْرَ الْفَسَادِ فِي الْمُجْتَمَعِ، مِنْ شَائِعَاتٍ بَاطِلَةٍ، وَأَفْكَارٍ غَرْبِيَّةٍ هَدَّامَةٍ تُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ.

الشرح:

هذا ما يمكن أن نطلق عليه اسم «**كتيبة الدفاع**»، نحن الآن ما عندنا دولة، لكننا نمهد لها، فلا بد أن يكون عندنا كتيبة علمية ترصد كل شبهة تثار في المجتمع، وتنقضها وترد عليها.

فيكون عملها متابعة كل ما يشاع ضد الإسلام، وشريعة الإسلام، والمسلمين، والمجاهدين، وأهل السنة، وأهل التوحيد، والرد عليه، فلا تسمح للأفكار الهدّامة أن تغزو أهل الإسلام، فهي لها بالمرصاد.

فلا ينبغي أن نغفل عن هذا الثغر، وإلا إن غفلنا عن هذا الثغر، وهو ثغر عظيم، نقص أهل الإسلام كل يوم، فهذا يلحد، وذاك يتشيّع، وهؤلاء يعبدون القبور، من أين أتت هذه الأفكار؟ بسببك أنت، أنت لم تحفظ بيضة أهل الإسلام، أنت لم تعرف مهنتك الأساسية: أن تحافظ علىٰ هؤلاء، وفَّرْت لهم الطعام والشراب، وجعلتهم وقودًا لجهنم؛ لم تحافظ علىٰ عقيدتهم، ولا جنبتهم طرق الانحراف التي تضل الشباب، ولا حاربت الأفكار الهدامة التي يروج لها أهل الكفر والإلحاد والبدع في المجتمع.

إذن لا بد أن يكون عندنا كتيبة دفاع قوية، ترد الشبهات عن أهل الإسلام؛ حتىٰ لا يتسلل فكر مخالف لفكر الإسلام وأهل السنة والجماعة في المجتمع المسلم. هذه مهمة ولي الأمر، والجهات الإعلامية هي المكلفة بهذا الأمر.

من الناس من يقول: الفكر بالفكر. نقول: هذا خطأ، هذا في المناظرات، هذا في الدروس العلمية، إنما عند ولي الأمر لا بد من تعزير، لا بد من سجن، لا بد من قطع رقاب؛ حتىٰ لا تنتشر، لو جئنا برجل يقول: أنا حر أن أتكلم، والرأي، والرأي الآخر. ثم يأتي بأفكار تخالف الإسلام، وأعلن هذا في القنوات الإعلامية، ثم جاء الحاكم والولي المسلم والمسئول ثم قال علىٰ الملأ أن هذا الرجل يروج لأفكار تخالف الإسلام، ولا نسمح لمثل هذا أن ينشر في دولة الإسلام، وهذه رقبته، وقطع رقبته علىٰ الملأ، هل سيجرؤ أحد أن يقول بقوله؟ قضيت علىٰ الفتنة، ربما يقول قائل: هذا غلو، نقول: فعلها الخليفة الراشد عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أقل من هذا، عندما تكلم صبيغ في متشابه القرآن، «قام إليه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فلم يزل يضربه حتىٰ دمي، ثم تركه حتىٰ برئ، ثم دعاه فضربه حتىٰ دمي، فلما كان في المرة الثالثة قال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلًا جميلا، وإن كنت تريد تداويني فقد والله برئت»(١) وكان يشهد الناس ذلك، فولي الأمر يعزر في مثل هذا؛ حتىٰ يكون رادعًا لغيره، أما أن تأتي وتقول: جزاك الله خيرا، بارك الله فيك، قال الله، قال الرسول. هذا لا ينفع إلا مع أهل الإيمان؛ أما أهل الشبهات والضلال لا تنفع معهم إلا العصا ودرة عمر.

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن»: (٣/ ٨٩)، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: (٢٣/ ٤١١).

هل يجرؤ أحد أن يقول مثل قول صبيغ؟ لأنهم عرفوا الجزاء، ما هي العقوبة؟ سجن؟ لا، ما عندنا سجن، ولا عندنا غرامة مالية، عندنا قطع رقاب المفسدين في الأرض، كما أمرنا الله بذلك؛ حتىٰ لا يجرؤ أحد علىٰ نشر الفساد في الأمة، من لم يندفع شره إلا بقتله قُتل، قتله ولي الأمر.

انظروا الآن من يتجرأ علىٰ جناب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسبه، ويستهزأ به، ويسخر منه -صلوات ربي وسلامه عليه-، بل يسخرون من رب العزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسبون الله سبحانه رب العالمين، هل تجد حاكمًا مسلمًا يقول: أنا أنتمي إلىٰ الإسلام، ويثأر ويغضب لله ورسوله؟ لا، ولا سمعنا حاكمًا أقام القصاص علىٰ من سب الله ورسول، بل سمعنا العكس، أنهم أصدروا قوانين لحماية الطواغيت والكفرة، وقالوا: من يسب الملك أو الرئيس أو الأمير، فله كذا وكذا، تغضبون لأنفسكم ولا تغضبون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! هذا هو الواقع.

إذن لا بد من حماية الجبهة الداخلية بالإعلام الموجه لمحاربة كل فكرة تخالف دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحن الآن في مرحلة الإعداد، لا بد أن يكون **عندنا كتيبة دفاع علمي**، تَتَتَبَّع كل فكرة تظهر في المجتمع المسلم، وهذه الكتيبة لها جهة مسؤولة عندها، ولها أشخاص معينون، يردون فورا، بعد ساعة يكون البيان المضاد؛ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، قبل أن تنتشر لا

بد أن ينتشر البيان المضاد لها، كما لو أنّ العدو أطلق صاروخًا، وقبل أن يصل الصاروخ إلىٰ هدفه أنت انتبهت، فأطلقت عليه صاروخًا مضادًا قبل أن ينفجر، هل له أثر؟ ليس له أثر؛ أما لو كنت غافلا ومنشغلًا بدنياك، والعدو أطلق الصاروخ وأنت لم تشعر، فسيصل إلىٰ هدفه وأنت لا تشعر، ويقع ويصيب الهدف وأنت لا تشعر، إلا بعد أن يقال: أصاب الصاروخ هدفًا، وأين أنت؟ أنت المسئول عن ترصده، لكنك لم تهتم، ولم تقم وزنًا للثغر الذي أوقفك الله عليه. هذه ثغور جهاد، لا بد أن ننتبه إليها.

المتن:

وَيَنْقَسِمُ هَذَا الشَّعْبُ إِلَىٰ فِئَاتٍ ثَلَاثٍ رَئِيسِيَّةٍ:

اَلْأُولَىٰ: أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الْحَاكِمَ.

اَلثَّانِيَةُ: اَلْحَاكِمُ.

اَلثَّالِثَةُ: عُمُومُ الشَّعْبِ، وَأَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ.

الشرح:

أيُّ شعب في الدنيا ينقسم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عوام الناس، الحرفيون، والصناعيون، وغير ذلك.

القسم الثاني: السياسيون وأهل الخبرة، وأهل الحل والعقد، الذين هم بمثابة العقل المدبر للدولة، الذين يديرون النظام الإداري للدولة، وكذلك الحكومة.

القسم الثالث: رأس الدولة، الحاكم الذي يصدرون عنه.

وكل قسم من هذه الأقسام له دور في تثبيت الدولة واستقرارها.

ولكل واحد من هذه الأقسام خصائص وصفات، وعلىٰ ولي الأمر أن يختار منهم من يخدم فيما يصلح له بعناية، ويكون يقظًا، فيحسن الانتفاع منهم.

نحن الآن بدأنا في مرحلة التكوين، ونتكلم في أسس قيام الدولة، ونفصّل في كل أساس وكل ركن؛ حتىٰ لا ننسىٰ أمرًا نستفيد منه في مرحلة البناء، وبعد أن ننتهي من مرحلة التأسيس وندخل في مرحلة الثبات، ندرس عوامل الثبات.

المتن:

وَسَنَتَكَلَّمُ عَنْ كُلِّ فِئَةٍ مِنْ فِئَاتِ تَكْوِينِ الْمُجْتَمَعِ بِمَا يُنَاسِبُ دَوْرَهَا فِي بِنَاءِ الدَّوْلَةِ.

مُكَوِّنَاتُ الشَّعْبِ

اَلْمُكَوِّنُ الْأَوَّلُ: أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ.

هُمُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُنَاطُ بِهِمُ اخْتِيَارُ الْخَلِيفَةِ وَمُبَايَعَتُهُ.

وَهُوَ تَدْبِيرٌ سِيَاسِيٌّ إِسْلَامِيٌّ غَيْرُ مَسْبُوقٍ، سَوَاءٌ فِي لَفْظِهِ أَوْ فِي وَظِيفَتِهِ، قَدْ اسْتَنْبَطَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنَ السَّوَابِقِ الَّتِي جَرَتْ فِي خِلَافَةِ الرَّاشِدِينَ.

الشرح:

إذا هذا يرجعنا إلىٰ الكلام عن لفظة (الخليفة)، وأن هذا لفظة غير شرعية كما يقوله بعض الناس، فقد كان الأمير يسمىٰ الملك والقيصر وكسرىٰ وسيد القبيلة وهكذا، فجاء الإسلام بمسمىٰ الخليفة والخلافة، فنقول لكل جاهل أحمق يقول: هذا لفظ مستحدث، من أين جئتم به؟ نقول: من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ليس من عند أنفسنا، راجع نفسك أنت.

المتن:

فَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَدْ عَقَدَ لَهُ الْبَيْعَةَ كِبَارُ الصَّحَابَةِ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ.

وَعُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَمَّا اسْتَخْلَفَهُ أَبُو بَكْرٍ اسْتَشَارَ فِيهِ كِبَارَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَعُثْمَانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَمْ يَعْقِدْ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حَتَّىٰ دَارَ عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ وَأَفَاضِلِ الْأَنْصَارِ وَأُمَرَاءِ الْجُنْدِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْمَدِينَةِ، وَأَخَذَ مُوَافَقَتَهُمْ عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَمَّا جَاءَهُ بَعْضُ النَّاسِ يُرِيدُونَ مِنْهُ الْبَيْعَةَ قَالَ: «إِنَّ بَيْعَتِي لَا تَكُونُ خَفِيًّا وَلَا تَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ رِضَا الْمُسْلِمِينَ».

الشرح:

يعني جاء إليه بعض الصحابة، وقالوا: نبايعك، قال: لا تكون بيعتي سرًّا، ولا تكون خفية، ولا تكون بمنأىٰ عن أهل الإسلام، وأهل الحل وأهل العقد، من الصحابة. هكذا أراد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن تكون هذه البيعة، كما كانت بيعة أبي بكر وعمر وعثمان.

المتن:

فَبَايَعَهُ الصَّحَابَةُ فِي الْمَسْجِدِ، وَبَايَعَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللـه، وَالزُّبَيرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَهُمَا مِنَ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وَيُطْلِقُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلمِ عَلَىٰ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ لَفْظَ «أَهْلُ الِاخْتِيَارِ».

الشرح:

إذن لهم أسماء، لو قلت لك: أخبرني بأسماء أهل الحل والعقد؟ تقول: أهل الحل والعقد، وأهل الاختيار، وأهل الشورىٰ. كل هذه أسماء تطلق علىٰ أهل الحل والعقد الذين يديرون الدولة.

قاعدة مهمة: لا تكون مركزية الإدارة في أمر ناجح أبدًا، هذه قاعدة مهمة جدًّا، مركزية الإدارة لا تبني نظامًا ناجحا.

ما معنىٰ مركزية الإدارة؟

أن يكون القرار في شخص واحد فقط، يستبد برأيه، وكلٌّ يصدر عن رأيه، ونظرته؛ وفكره، وعقله، ولا يسمح لأحد أن يشاركه في نظرته أو في عقله، {مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ}، أنا سأصل بكم إلىٰ بر الأمان، كهذا الطاغوت المجرم الذي يقول: أنا سأبني لكم دولة، ثم بعد عشر سنوات انهارت الدولة، حتىٰ اليوم الناس لا يجدون السكر، وهو يقول: أنا سأبني لكم دولة، لا تسمعوا لأحد غيري. كأنه يسير علىٰ خطىٰ سلفه فرعون، تماما بنفس اللفظ -سبحان الله-، هو هذا قال: {مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ}، وهذا المخذول يقول: لا تسمعوا لأحد غيري، أنا الذي أقول وأتكلم.

فمركزية الإدارة تؤدي إلىٰ الفشل، ولو كانت مركزية الإدارة ناجحة، لَمَا حثنا الله -سبحانه- وهو الذي خلقنا، وهو أعلم بما يصلحنا- علىٰ الشورىٰ، ولَمَا أنزل لنا نظام الشورىٰ في الإسلام، ولو كانت مركزية الإدارة ناجحة، لما قال الله -سبحانه- لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الذي يوحىٰ إليه من السماء: {وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ}، فهذه سنة ومنهج له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ولغيره إلىٰ يوم القيامة، والصحابة كذلك، وصفهم الله بصفة كانت في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، قال: {وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ}، فمدحهم الله بذلك.

إذن لا تتمركز إدارة البلاد حول شخص واحد، أنا الذي أريكم، أنا الذي أفعل، فمركزية الإدارة مذمومة شرعا، وهدامة، ولا تبني بناءً يستقر أبدا؛ لكن ينبغي أن تتشارك العقول في البناء.

فمركزية الإدارة هذه لا بد أن نتفطن لها.

المتن:

وَيُطْلِقُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلمِ عَلَى تِلْكَ الْجَمَاعَةِ لَفْظَ «أَهْلُ الِاخْتِيَارِ».

كَمَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَحْيَانًا لَفْظُ «أَهْلُ الشُّورَى».

وَأَحْيَانًا ثَالِثَةً «أَهْلُ الِاخْتِيَارِ وَالْعَقْدِ».

الشرح:

لو سألنا: من أهل الحل والعقد؟

فالجواب: هم طائفة ذوو خبرات مخصوصة، وقدرات مخصوصة، من أهل العلم، والتخصصات الدينية والدنيوية، لا الدينية فقط، فقد يُظَن أنّ أهل الحل والعقد هم الأمراء والعلماء، وليس صحيحًا، الأمراء والعلماء: هم «أولو الأمر»؛ أمّا أهل الحل والعقد: فهم المتخصصون في جميع المجالات التي تساهم في بناء الدولة، فالمتخصص في الاقتصاد من أهل الحل والعقد، والمتخصص في السياسة الخارجية من أهل الحل والعقد، والمتخصص في الحرب من أهل الحل والعقد، فنأخذ من كل تخصص البارزَ فيه، والماهرَ فيه،

ونضعه مع أهل الشورىٰ، أو أهل الحل والعقد، الذين يجتمعون عند النوازل، وكل يُدلِي بدلوه في تخصصه، الطبيب في الطب، والصناعي في الصناعة، والمهندس في الهندسة... وهكذا.

المتن:

فَإِذًا «أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ»: هُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ ذَوُو صِفَاتٍ مَخْصُوصَةٍ، يَقُومُونَ بِاخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ، وَعَقْدِ الْوِلَايَةِ لَهُ، وَهُمْ يُعَدُّونَ، فِي فِقْهِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، الْمُمَثِّلِينَ لِلْأُمَّةِ وَالْمُعَبِّرِينَ عَنْ رَغْبَتِهَا، فَاخْتِيَارُهُمْ هُوَ اخْتِيَارُ الْأُمَّةِ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:...

الشرح:

سيأتي معنا الحديث عن اختيار الخليفة بالانتخابات فيما يسمىٰ بالعملية الديمقراطية، وأنها طريقة فاسدة في اختيار الحاكم، وأن الطريقة الصحيحة الناجحة في اختيار الخليفة: هي أنا يختاره أهل الحل والعقد والشورىٰ، فأهل الحل والعقد ينوبون عن الأمة، أما في النظام الانتخابي الديمقراطي العلماني المعاصر، فإن أفراد المجتمع هم الذين يختارون الحاكم، فيستوي فيه الجاهل والعالم، والكافر والمسلم، ثم بعد ذلك يلبّسون علىٰ الناس السذج، فيقولون: هذا اختيار شرعي!

فأهل الحل والعقد ينوبون عن الأمة؛ لما فيهم من الصفات التي تؤهلهم لحسن الاختيار؛ أما في النظام الديمقراطي فيشارك النساء، والرجال، والأطفال، وكل من له حق التصويت- في اختيار الحاكم! وهذا هو الفساد بعينه.

المتن:

اَلْوَجْهُ الْأَوَّلُ: التَّسْمِيَةُ. فَتَسْمِيَةُ هَؤُلَاءِ بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ؛ دَالٌّ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ وَدَوْرِهِمْ فِي الْمُجْتَمَعِ؛ فَإِنَّ «أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ»؛ يَعْنِي: الَّذِينَ يَمْلِكُونَ إِبْرَامَ الْأُمُورِ وَنَقْضَهَا؛ وَلَا تَتَمَكَّنُ جَمَاعَةٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا قَبُولٌ وَاسِعٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَرِضًىٰ عَامٌّ عِنْدَهُمْ، بِحَيْثُ يَكُونُونَ مُعَبِّرِينَ عَنْ طُمُوحَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ، وَيَحُوزُونَ ثِقَتَهُمْ لِعِلْمِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ.

الشرح:

أهل الحل والعقد أناس معروفون بالعلم والصلاح؛ والعقل والحكمة، والناس يثقون فيهم، ويلجئون إليهم في حل مشاكلهم، ويرجعون إليهم في قضاياهم، وفي نوائبهم، وأفراحهم، وأتراحهم، وهذا يرجع بنا إلىٰ أمر ذكرناه قبل ذلك، وهو أنه يجب علىٰ أفراد الجماعة المسلمة ألا يكونوا بمعزل عن الناس، بل يكونوا مع الناس، يشاركوهم في كل شيء، حتىٰ يُعرَفوا بصلاحهم، وبتقواهم، وبعدلهم، وأمانتهم، فإذا احتيج إليهم، عرفهم الناس، وقالوا: هذا الذي يمثلنا.

المتن:

وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلْكِبَارِ أَصْحَابِ الشُّهْرَةِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَ النَّاسِ، الَّذِينَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ النَّاسُ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَهُمْ.

وَلَا يَمْلِكُ هَذَا -فِي الْحَقِيقَةِ- فَرْدٌ وَاحِدٌ أَوِ اثْنَانِ أَوْ أَرْبَعَةٌ -مَثَلًا- فِي أُمَّةٍ لَهَا هَذَا الِاتِّسَاعُ، كَمَا لَا يَملِكُهَا أَيْضًا مَنْ يَكُونُ خَامِلًا بَيْنَ النَّاسِ لَا يُشَارِكُهُمْ، بَلْ مُنْعَزِلٌ عَنْهُمْ، حَتَّىٰ وَإِنْ كَانُوا أَشْخَاصًا مُؤَهَّلِينَ تَأْهِيلًا مُمْتَازًا؛ مَا دَامُوا قَابِعِينَ فِي أَبْرَاجِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَلَا يَعْرِفُهُمُ النَّاسُ.

الشرح:

الداعية لا ينعزل عن الناس، لا يكون في «برج عاجي» منعزل عن الناس، بل يشارك الناس في تفاصيل حياتهم، حتىٰ يعرفوه بمواقفه معهم، هذا هو المسلم الصحيح، ومن أقوىٰ أسباب فشل الحركات الجهادية: عزلتهم وانفصالهم عن الناس ومشاكلهم وأمراض المجتمع.

فلا بد أن نخالط الناس، ولا ينبغي أن ننعزل عنهم. لذلك أنا أقول لكم: كونوا دائمًا حاضرين في مجتمعكم، في بلادكم، حتىٰ يشعرَ بكم الناس، ويجدوكم معهم في أفراحهم؛ وأحزانهم، في السراء والضراء.

المتن:

فَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِضَافَةً إِلَىٰ تَأْهِيلِهِمُ الْمُمْتَازِ وَأَمَانَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، هُمْ أُنَاسٌ مَشْهُورُونَ، مُنْغَمِسُونَ فِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ لِلْأُمَّةِ، لَهُمْ جُهْدٌ بَارِزٌ فِي إِدَارَةِ حَرَكَةِ الْمُجْتَمَعِ، فَهُمْ زُعَمَاءُ الْأُمَّةِ وَأُولُو الْمَكَانَةِ، وَمَوْضِعُ الثِّقَةِ مِنْ سَوَادِهَا الْأَعْظَمِ، بِحَيْثُ تَتْبَعُهُمْ فِي طَاعَةِ مَنْ يُوَلُّونَهُ عَلَيْهَا؛ فَيَنْتَظِمُ بِهِ أَمْرُهَا، وَيَكُونُ بِمَأْمَنٍ مِنْ عِصْيَانِهَا وَخُرُوجِهَا عَلَيْهِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ يَسْتَنِدُونَ إِلَىٰ قَبُولٍ وَاسِعٍ بَيْنَ الْأُمَّةِ، مَكَّنَهُمْ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الْبَتِّ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَقَبُولِ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

مسألة: لو تصدر لهذا المنصب الفاسقُ أو المرأة، أو من ليس أهلًا له، فما العمل حينئذ؟

فالجواب: أن الواجب حينئذ أن يستفيض البلاغ بين الناس علىٰ عدم أهلية الفاسق والمرأة؛ وطريق ذلك دعوة الناس، وبيان ذلك لهم، فالفاسق أو المرأة، وإن كانا يقومان علىٰ شؤون الناس، لا ولاية لهما شرعا؛ فإن صلاح العمل لا يدل علىٰ أهلية من قام به، كما أنه لا يدل علىٰ قبوله عند الله عَزَّوَجَلَّ، ودليل ذلك ما روته أُمُّنا عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: «قلت: يا رسول الله، ابن جدعان، كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟» قال: «**لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[(١)]، وابن

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (٢١٤).

جدعان، كما هو معلوم، هو مَن أسس حلف الفضول الذي مدحه رسول الـلـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ نصرةً لرجل ظُلم في مكة، ومع ذلك قال عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، «**إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي**»، يعني: ليس مسلما.

فالفاسق والمرأة لا يدل نفعهما للناس علىٰ صحة توليهما لذلك المنصب وأهليتهما له شرعا، فلا بد من بيان حكم الشرع فيهما بالعلم، والحلم، والحكمة؛ حتىٰ ينفَضّ الناس من حولهم برفق؛ لأن لهما أتباعًا ومعجبين، وحتىٰ لا يُساء الظن بأهل العلم والدعاة، فيرميهم الناس عن قوس واحدة، وتشاع عنهم الإشاعات بأنهم يكرهون النجاح، وأنهم متعصبون لجنس الرجال، ويكرهون المرأة، ونحو ذلك من الاتهامات الباطلة.

لذلك نقول: إن من مراحل الإعداد: استفاضة البلاغ، ولا يكون الإعداد محكمًا إلا باستفاضة البلاغ بين الناس عن الفكرة التي يُراد تطبيقها والعمل بها، حتىٰ يتبين حكم الـلـه فيها؛ أما أن يُترَك الناس من غير تعليم وبيان، ثم يتفاجؤون بالأمر، فإن هذا يؤدي إلىٰ إنكارهم لهذا الأمر الشرعي، وعدم قبولهم له، فتكون أنت السبب في ذلك، لأنك قصرت في تعليمهم وبيان حكم الـلـه لهم.

المتن:

وَقَدْ عَبَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ عَنْ هَذَا القَبُولِ الْوَاسِعِ لِأَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ بِلَفْظِ (الشَّوْكَةِ)، وَ(الشَّوْكَةُ)؛ تَعْنِي: الْقُوَّة، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ شَوْكَةٌ حَقِيقِيَّةٌ -بَعِيدًا عَنِ الشَّوْكَةِ الظَّالِمَةِ، الْمُرْتَكِنَةِ لِلْقُوَّةِ، الْبَاغِيَةِ- إِلَّا فِي ظِلِّ ذَلِكَ الْقَبُولِ الْوَاسِعِ لِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَيُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فَيَقُولُ:

«فَالْوَجْهُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يُعْتَبَرَ فِي الْبَيْعَةِ حُصُولُ مَبْلَغٍ مِنَ الْأَتْبَاعِ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَشْيَاعِ؛ تَحْصُلُ بِهِمْ شَوْكَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَمَنْعَةٌ قَاهِرَةٌ. بِحَيْثُ لَوْ فُرِضَ ثَوَرَانُ خِلَافٍ لَمَا غَلَبَ عَلَىٰ الظَّنِّ أَنْ يُصْطَلَمَ أَتْبَاعُ الْإِمَامِ».

الشرح:

«الاصطلام»: الاستئصال.

المتن:

وَيَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «بَعْضُ أَهْلِ الْكَلَامِ يَقُولُونَ: «إِنَّ الْإِمَامَةَ تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ أَرْبَعَةٍ». كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ اثْنَيْنِ». وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ وَاحِدٍ». فَلَيْسَتْ هَذِهِ أَقْوَالَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ.

بَلِ الْإِمَامَةُ عِنْدَهُمْ تَثْبُتُ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا، وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ إِمَامًا حَتَّىٰ يُوَافِقَهُ أَهْلُ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا؛ الَّذِينَ يَحْصُلُ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ مَقْصُودُ الْإِمَامَةِ. فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْإِمَامَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ، فَإِذَا بُويِعَ بَيْعَةً حَصَلَتْ بِهَا الْقُدْرَةُ وَالسُّلْطَانُ صَارَ إِمَامًا.

...فَإِنَّ الْإِمَامَةَ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ، وَالْمُلْكُ لَا يَصِيرُ مُلْكًا بِمُوَافَقَةِ وَاحِدٍ وَلَا اثْنَيْنِ وَلَا أَرْبَعَةٍ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُوَافَقَةُ هَؤُلَاءِ تَقْتَضِي مُوَافَقَةَ غَيْرِهِمْ بِحَيْثُ يَصِيرُ مُلْكًا بِذَلِكَ....) إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ: «فَمَنْ قَالَ: «إِنَّهُ يَصِيرُ إِمَامًا بِمُوَافَقَةِ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَرْبَعَةٍ، وَلَيْسُوا هُمْ ذَوِي الْقُدْرَةِ وَالشَّوْكَةِ». فَقَدْ غَلِطَ. كَمَا أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ تَخَلُّفَ الْوَاحِدِ أَوِ الاثْنَيْنِ وَالْعَشَرَةِ يَضُرُّهُ. فَقَدْ غَلِط.

اَلشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي أهل الشُّورَىٰ وَالِاخْتِيَارِ

الشرح:

نبه علىٰ أن هذه المسألة «الشروط المعتبرة في أهل الشورىٰ والاختيار» مسألة يراد ببيانها وتأصليها علميا أن تكون واقعًا عمليّا، ومنهجًا عمليّا، فالتأصيل العلمي مطلوب، ولكننا نريد أن توصل بالتأصيل العلمي إلىٰ المنهج العملي الذي نعمل به علىٰ الأرض. هذا هو المقصود من العلم.

والهدف من دراسة كتاب الدولة الإسلامية: هو أننا نسعىٰ إلىٰ إقامة دولة إسلامية في بلادنا، دولة تكون علىٰ منهاج النبوة، مراعين في ذلك الواقع الذي يحيط بينا، والتغيرات الدولية والمجتمعية، ومستفيدين من أخطاء الآخرين حتىٰ لا نقع فيها.

المتن:

وَيَنْبَغِي أَنْ تَتَوَافَرَ فِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ شُرُوطٌ تُؤَهِّلُهُمْ وَتُعِينُهُمْ عَلَىٰ صَوَابِ الِاخْتِيَارِ، وَقَدِ أَجْمَلَ الْمَاوَرْدِيُّ هَذِهِ الشُّرُوطَ بِقَوْلِهِ: «فَأَمَّا أهل الِاخْتِيَارِ فَالشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ:

أَحَدُهَا: الْعَدَالَةُ الْجَامِعَةُ لِشُرُوطِهَا.

وَالثَّانِي: الْعِلْمُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ عَلَىٰ الشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا.

وَالثَّالِثُ: الرَّأْيُ وَالْحِكْمَةُ الْمُؤَدِّيَانِ إِلَىٰ اخْتِيَارِ مَنْ هُوَ لِلْإِمامةِ أَصْلَحُ، وَبِتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ أَقْوَمُ وَأَعْرَفُ».

وَهَذِهِ الشُّرُوطُ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أهل الحل والعقد أَنْفُسِهِمْ.

الشرح:

الشرط الأول من الشروط التي يجب أن تتوفر في أهل الحل والعقد، أو كما يسمون بلسان العصر: «صناع القرار»: العدالة الجامعة لشروط العدالة، المؤدية إلىٰ البعد عن هوىٰ النفس، وإلىٰ القول بالحق، وتقديم مصلحة الدولة علىٰ المصلحة الشخصية.

ويسمىٰ أهل الحل والعقد «النَّصَحَة»، فهم ينصحون ليصلحوا، وليس لهم مأرب آخر، فلا يداهنون حاكما ولا أميرا ولا خليفة، بل يسعون لتحقيق مصلحة الأمة بالدين، فلا يمنون أنفسهم بالمناصب والرواتب أو غير ذلك،

ولا تتقوف مناصحتهم للحاكم علىٰ شيء من ذلك، إنما يقومون بذلك لله احتسابا، فالخليفة إذا كان راشدًا، صدر عن رأيهم؛ لعدالتهم، وإخلاص، وبعدهم عن الشهوات.

والشرط الثاني: العلم والفهم، والإحاطة بالأمور، والقدرة علىٰ الاستنباط والنظر والاجتهاد.

وليس المقصود بالعلم: العلم الشرعي فحسب، بل يدخل في ذلك أيضا: العلم بإدارة الدولة، والعلم بما يحصل في دار الخلافة.

والمقصود بالإحاطة: هو أن يحيط بما يدور في الدولة إجمالا، وإذا احتاج إلىٰ معرفة شيء علىٰ وجه التفصيل، كان له مصادره الخاصة، حتىٰ لا يعمل بالظن، وحتىٰ لا يكون أداة بيد الوشاة الذين غاية همهم ذكر الناس أو الأمراء أو الولاة بالمثالب والمعايب، بل الواجب عليه مع مثل هؤلاء أن يسمع ولا يلقي لكلامهم بالا؛ ويعتمد في التثبت من ذلك علىٰ مصادره التي يثق بها.

«يتوصل به إلىٰ معرفة من يستحق الإمامة»، يعني: أن يكون عالمًا بشروط الإمامة، عالمًا بطريق أو بكيفية معرفة من تتحقق فيه هذه الشروط، فالعلم بالشروط: جانب، والعلم بطريق معرفة من تحققت فيه هذه الشروط: جانب آخر، وهذا الأخير لا يقل أهمية عن الأول، بل ربما هو أولىٰ منه؛ لأنه ثمرة طيبة لتطبيق العمل بالعلم في الواقع والانتفاع به.

والشرط الثالث: الرأي والحكمة المؤديان إلىٰ اختيار من هو للإمامة أصلح، «من هو أصلح»، يعني: إذا كان أحد المرشحين للخلافة عالي الإيمان، وصاحب علم؛ وتقوىٰ، وورع، وزهد؛ ورجاحة عقل... وغير ذلك، ولكنه ضعيف في السياسة والملك، ووُجِد من ينافسه في ذلك، لكنه دونه، إلا أنه قوي في السياسة والإدارة والملك، كان الثاني أصلح لمنصب الإمامة من الأول؛ لأن «الأصلح» هنا ليس هو الأورع والأتقىٰ، لكن المقصود بالأصلح: من كان صالحًا لذلك المنصب، قويًّا فيه، مع علمه وصلاحه في دينه ونفسه، فلا بد أن يُنظر عند اختيار الإمام إلىٰ جميع هذه الاعتبارات، فإن النظر إلىٰ بعض هذه الاعتبارات وإغفال بعضها يفسد عملية الاختيار، فيكون الاختيار غير موفق، وتحدث بسبب هذا الاختيار مفاسد كثيرة، وكلها مفاسد متعدية، لأن فساد الخليفة قد يترتب عليه فساد الدولة.

وهذه الشروط التي ذكرناها في أهل الحل والعقد: شروط ذاتية، يعني: شروط تتعلق بذواتهم لا بغيرهم، وهناك شرط يتعلق بغيرهم لا بذواتهم.

المتن:

وَهُنَاكَ شَرْطٌ آخَرُ مَنْظُورٌ إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَهُوَ أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ يُسْرِعُ النَّاسُ إِلَىٰ مُوَافَقَتِهِمْ وَقَبُولِ اخْتِيَارِهِمْ.

الشرح:

هذا هو الشرط المتعلق بغيرهم، وهم عموم الشعب، «وَهُوَ أَنْ يَكُونَوا مِمَّنْ يُسْرِعُ النَّاسُ إِلَىٰ مُوَافَقَتِهِمْ وَقَبُولِ اخْتِيَارِهِمْ»، وهذه لا يحصل إلا لمن عُرِفت أحوالهم، ورُضِيت سيرتهم، وشُهِروا برجاحة عقولهم، ووصل إلىٰ الناس نفعُهم، فشاركوهم في جميع أحوالهم، حتىٰ فزع الناس إليهم عند نوائبهم، ولجؤوا إليهم لحل مشاكلهم، فقد علموا أنهم أهل حكمة وعلم، وأهل رشد وحلم، فإذا حلت بالناس النوازل، ودهمتهم الملمات والقلاقل، توجهت أنظارهم إليهم، يعلمون أنهم أهلٌ للنظر فيما دهاهم، وأقدر علىٰ دفع ما ألم بهم من النوائب.

والناس اليوم إذا نزلت بهم النوازل، فزعوا إلىٰ أهل الدين، رغم ما تقوم به الآلة الإعلامية من تشوههم، ولكنّ الناس استقر في أذهانهم أنهم أنصح الناس وأصلحهم لمثل هذه الأمور، وكذلك هم أهل الحل والعقد.

ومن هنا ننبه علىٰ أمر مهم جدًا، وهو أنه يجب علىٰ من يريد أن ينشئ دولة، أو ينشئ دعوة، مخالطةُ الناس، والدخولُ في واقعهم، وعدمُ الانعزال عنهم.

المتن:

وَهَذَا يُؤَدِّي بِنَا إِلَىٰ التَّعَرُّفِ عَلَىٰ مَكَانَةِ هَؤُلَاءِ فِي مُجْتَمَعِ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا تُسْرِعُ إِلَىٰ مُوَافَقَةِ وَقَبُولِ اخْتِيَارِ إِلَّا مَنْ تَعْلَمُهُ وَتَرَاهُ بَارِزًا مَشْهُورًا مُشَارِكًا فِي مَصَالِحِ النَّاسِ.

الشرح:

لأن الناس يهوَوْن من يخدمهم ويحقق مصالهم، والنفوس مجبولة علىٰ حب من يحسن إليها، سواء أكان ذلك الإحسان بالقول أم بالفعل، كبذل الأموال، والمشاركة في الأفراح، والمواساة في الأحزان؛ وقد كان النبي ﷺ يحث علىٰ الإحسان إلىٰ الناس، الإحسان إلىٰ الفقراء، والمساكين، وكان النبي ﷺ يحسن إلىٰ جميع الناس، الضعفاء منهم، كالنساء والأطفال، والأجلاف الغلاظ من الأعراب ونحوهم، وهذا من عظيم خلقه ﷺ، وقد حَمَل إحسانُه ورِفقُه ﷺ الأعرابيَّ الذي بال في المسجد علىٰ أن يقول: اللـهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدا! لِما رأىٰ من رفقه به وإحسانه إليه في تعليمه وتوجيهه.

فلا بد أن يكون الداعية والعامل للإسلام مهتمًا بقضايا الناس الكبرىٰ في بلده، وساعيًا في المشاريع التي يحتاجون إليها، والتي تسهل عليهم حياتهم، كتوفير الكهرباء والماء، وتيسير سبل المعيشة الكريمة، من تعبيد الطرق، وإنشاء وتجهيز المستشفيات، وتطوير العلاج، حتىٰ يشعر الناس بإحسانهم، ويظنون أنهم أقرب إليهم من غيرهم.

ولا ينبغي أن يكون بعيدا عنهم، ولا يشعر بهم ولا بمشاكلهم، لا يعرفهم إلا إذا كانت له مصلحة عندهم، كما هو حال المرشحين للبرلمانات

والانتخابات، فهؤلاء لا يعرفون الناس إلا في مواسم انتخابهم فقط، وبعد ذلك لا تسمع لهم ركزا، لذلك الناس يزهدون فيهم، ويبغضونهم، ولا يليق بالداعية أن يكون كهؤلاء الذين ليس لهم هم إلا الوصول إلىٰ المناصب والكراسي والمحافظة عليها، بل يكون قريبًا من الناس، يحل مشاكلهم، ويشاركهم في أفراحهم، ويواسيهم في أحزانهم، ويطلع علىٰ واقعهم وما يحتاجون إليه، هذا يمهد لنا الأرض، حتىٰ إذا قلنا: الله أكبر، أسرع الناس إلىٰ موافقتنا وقبول من نختاره حاكمًا عليهم.

المتن:

وَعَلَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّ أهل الحل والعقد لَيْسُوا مُجَرَّدَ أُنَاسٍ عَاكِفِينَ عَلَىٰ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، مُنْقَطِعِينَ عَنِ النَّاسِ وَعَنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُهُمْ مَجْهُولٌ بِالنِّسْبَةِ لِعُمُومِ النَّاسِ.

الشرح:

فالعالم إذا كان أعلم أهل الأرض، ولكنه بمعزل عن الناس، فلا قيمة له في واقع الناس؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عندما أمرنا بالدعوة إليه قال: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا}، من هم الناس؟ وكيف نقول لهم؟

لذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر علىٰ أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر علىٰ أذاهم**»(١)، وهذا بيان واضح من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن في الاحتكاك بالناس أذية يُحتَاج معها إلىٰ صبر، فالذي يخالط الناس تتمزق ملابسه، وينتهك عرضه، ويُنَال من سمعته، والناس لا يرفعونك علىٰ أعناقهم، إنما يدوسونك بأقدامهم، وقد بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنا هذا، فقرن مخالطة الناس بالأذىٰ، «**يخالط الناس، ويصبر علىٰ أذاهم**»، فلا تنتظر مدحًا، ولا تنتظر تكريما، لكن اعمل لله، لأننا عبيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا ننتظر مدحًا ولا ذما، وإن من علامات إخلاص العبد: استواء المدح والذم عنده، سواء عنده مدحهم إياه، وذمهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي سيحاسبك، وسيجازيك، وهذا يدفع عنك الرياء والسمعة.

المتن:

فَالْخَامِلُ (الَّذِي لَا ذِكْرَ لَهُ وَلَا جُهْدَ فِي حَرَكَةِ الْمُجْتَمَعِ) وَإِنْ كَانَ عَالِمًا، أَنَّىٰ يَنْتَبِهُ النَّاسُ لَهُ؟!

وَأَمَّا الْعَدَدُ الَّذِي تَنْعَقِدُ بِهِ بَيْعَتُهُمْ، فَلَيْسَ لِذَلِكَ حَدٌّ مَعْلُومٌ؛ إِذْ لَمْ يَثْبُتْ بِذَلِكَ نَصٌّ. وَالْمُتَيَقَّنُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ حُصُولَ الْإِجْمَاعِ لَيْسَ شَرْطًا فِي ذَلِكَ، كَمَا أَنَّ

---

(١) «السنن الكبرىٰ» للبيهقي، رقم: (٢٠١٧٤)، «سنن ابن ماجة»، رقم: (٤٠٣٢).

الْوَاحِدَ وَالِاثْنَينِ اللَّذَينِ يَعْقِدَانِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَصْلُحُ ذَلِكَ مِنْهُمَا.

الشرح:

إذن لا بد أن يتوفر عدد من أهل الحل والعقد لتنعقد بهم البيعة للإمام، ولا تنعقد ببيعة واحد واثنين من غير مشورة المسلمين، وقد رد شيخ الإسلام علىٰ من قال بأنها تنعقد بأربعة؛ لأن الأصل أنهم يصدرون عن عموم الناس.

فإذا بايع منهم عدد تنعقد به البيعة، ثم خالفهم بعد ذلك أحد، فلا تُعتبَر مخالفته، ويُعَدّ مخالفًا للمصلحة العامة، فلا يُلتَفَتُ إلىٰ المخالف للمصلحة العامة.

المتن:

وَقَدْ اسْتَعْرَضَ أَبُو الْمَعَالِي الجُوَيْنِيُّ كُلَّ الْأَقْوالِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ، وَخَلُصَ إِلَىٰ الْقَوْلِ: «فَالْوَجْهُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يُعْتبَرَ فِي الْبَيْعَةِ حُصُولُ مَبْلَغٍ مِنَ الْأَتْبَاعِ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَشْيَاعِ، تَحْصُلُ بِهِمْ شَوْكَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَمَنْعَةٌ قَاهِرَةٌ» (١).

الشرح:

فالعدد الذي تنعقد ببيعته الإمامة هو العدد الذي تحصل به شوكة وقوة ومنعة، فإذا لم تحصل بهم الشوكة والقوة والمنعة، فلا يُجرأ عليها؛ لأن الجرأة

(١) «غياث الأمم»: (٥٥).

في هذا تأتي بالمفسدة، وتأتي باستئصال الفئة المؤمنة، فلا يقوم لها قائمة بعد ذلك.

المتن:

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «بَعْضُ أهل الْكَلَامِ يَقُولُونَ: «إِنَّ الإمامة تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ أربعة». كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ اثْنَيْنِ». وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ وَاحِدٍ». فَلَيْسَتْ هَذِهِ أَقْوَالَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ.

الشرح:

فلا بد أن يبايعه أكثر أهل الحل والعقد، فلو كان أهل الحل والعقد مئة، وخرج منهم اثنان أو ثلاثة أو أربعة، وشذوا عن المئة، هل تنعقد الإمامة بهم؟

الجواب: لا؛ لأنه لا تنعقد الإمامة باثنين، فهذا فيه مفسدة للأمة، إذا كان انفرادُ الاثنين ببيعة الإمام عن باقي أهل الحل والعقد والرجاحة والرزانة- معتبرًا، إذن تفسد الأمة وتتشعب.

لذلك كان الواجب اجتماع السواد الأعظم من أهل الحل والعقد، فلو فرضنا أنهم مئة، وشذ منهم أربعة، فلا يُعتَبر بهؤلاء الأربعة ولا بالخمسة، وكذلك لو فرضنا أن خمسين بالمئة منهم بايع، فإنه لا تعتبر بيعتهم، لا بد أن يزيد العدد عن هذا، فالأقلية هي المخالفة، والأكثرية هي المعتبرة.

المتن:

بَلِ الْإِمَامَةُ عِنْدَهُمْ تَثْبُتُ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا، وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ إِمَامًا حَتَّىٰ يُوَافِقَهُ أَهْلُ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا، الَّذِينَ يَحْصُلُ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ مَقْصُودُ الْإِمَامَةِ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْإِمَامَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ، فَإِذَا بُويِعَ بَيْعَةً حَصَلَتْ بِهَا الْقُدْرَةُ وَالسُّلْطَانُ صَارَ إِمَامًا.

الشرح:

فالجيش إذا لم يوافق علىٰ الأمير، لا تنعقد إمامته وإن وافقه أهل الحل والعقد.

فإذ لم يحصل بهؤلاء رضا، وحصل اصطلام، وحصل تصادم، ماذا يفعل؟

نقول: في هذه الحالة نصبر؛ لأن أهل الشوكة لهم رأي، فلو دخلوا في صدام لهلكت الأمة، فعندك مثلا الجيش يختلف مع الشرطة، وهؤلاء عدد وهؤلاء عدد، وهؤلاء يقولون برأي، وأولئك يقولون برأي، ماذا يفعل أهل الحل والعقد حينئذ؟ لا بد من أن يتميزوا، ولا بد أن يحيدوا الطرف الذي هو ضد العدل وضد الرجاحة.

فإذا قيل: كيف وإذا فعلوا ذلك حصل بينهم اقتتال، واصطدام.

فالجواب: يقول أهل العلم: إذا كان الأمر كذلك وجب أن يبقىٰ الوضع علىٰ ما هو عليه، مع السعي لإصلاح ما يمكن إصلاحه حتىٰ تسنح الفرصة

بالتغيير. كأنهم يقولون: احتمال المفسدة الصغيرة أفضل وأحسن من وقوع المفسدة الكبيرة.

فالإمام هنا الآن طرأ عليه فسق أو فجور أو كفر، وأراد أهل الحل والعقد أن يغيروه، ولكنه امتنع بشوكة، وقال: أنا ما أخرج. هنا يقدر أهل الحل والعقد المصالح والمفاسد، مع قطعهم بعدم أهلية هذا للإمامة والخلافة، ويعلنون ذلك، ولكن لا يقومون بالتغيير درءًا للمفسدة، ويتحينون الوقت المناسب للمّ شمل الأمة علىٰ رجل يرتضيه أهل الحل والعقد.

تبين لك ألّا تلازم بين كفر الإمام أو كفر الحاكم وبين الخروج عليه، فالكفر هذا حكم شرعي منوط بالوصف مع الفعل، وقع فيه بقول أو اعتقاد أو عمل، أما الخروج عليه فيراعىٰ فيه المصلحة والمفسدة التي يترتب عليها خلع هذا الإمام؛ لأنك لو فعلت ذلك، وهو امتنع بشوكة، لفسدت الأمة، ولا سيما إذا كانت الأمة تترقبها الأعداء من كل صوب، ويتحينون هذه الفرصة للانقضاض عليها، وهدم الدولة وإسقاطها.

فإذن هذه أمور لا بد أن تدركها أنت، وهذه يسموها السياسة الشرعية، السياسة الشرعية أنك تأتي بالدليل والحكم الشرعي، وتعمل به وفق الواقع الذي أنت فيه، لا وفق واقع مضىٰ ليس له مناط هنا الآن.

فأنت تنزل هذا الحكم علىٰ هذا المناط، ثم تحرر هذا المناط وتنقيه من كل ما يشوبه؛ حتىٰ تأتي إلىٰ الحكم الشرعي الصحيح، وهل هو علىٰ الفور أم علىٰ التراخي؟ فإذا كان علىٰ الفور من غير مفسدة فهو واجب؛ أما إن كان الفور يسبب مفسدة، فهو علىٰ التراخي.

المتن:

...فَإِنَّ الْإِمَامَةَ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ، وَالْمُلْكُ لَا يَصِيرُ مُلْكًا بِمُوَافَقَةِ وَاحِدٍ وَلَا اثْنَيْنِ وَلَا أَرْبَعَةٍ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُوَافَقَةُ هَؤُلَاءِ تَقْتَضِي مُوَافَقَةَ غَيْرِهِمْ بِحَيْثُ يَصِيرُ مُلْكًا بِذَلِكَ...» [(١)].

الشرح:

يعني لو وافق هؤلاء الأربعة، وبموافقتهم يوافق الجميع؛ فتكون موافقتهم معتبرة، لأن كل الناس لهم تبعة؛ وأما لو وافقوا وعارضهم الجميع، فليست معتبرة.

الطالب: الذين قالوا إن البيعة تنعقد بالواحد، استدلالهم هو هو، يعني: يقولون: إذا وافق الناس بموافقة الواحد، كما بايع عمر أبا بكر، والآخرون بايعوه تبعًا له.

(١) «منهاج السنة النبوية»: (١/ ٥٢٦-٥٢٧).

الشيخ: نعم، لو الواحد هذا بايع والناس له تبع، فمعتبر؛ لأنه ليس له معارض، نحن نقول: الواحد أو الاثنان أو الأربعة إذا وجد لهم معارض، لا تنعقد الإمامة.

لكن لو تابع الواحد وبايع، وتبعته الأمة من أهل الحل والعقد، يكون هذا معتبرا، كما وافقوا علىٰ موافقة عمر، كل الناس بعد موافقة أهل الحل والعقد كل الأمة وافقت، إذن موافقتهم هنا معتبرة، نحن نتكلم في حالة الاختلاف، هل تنعقد البيعة باثنان أو أربعة مع اختلاف باقي أهل الحل والعقد؟ نقول: لا.

المتن:

إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ: «فَمَنْ قَالَ: «إِنَّهُ يَصِيرُ إِمَامًا بِمُوَافَقَةِ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَرْبَعَةٍ، وَلَيْسُوا هُمْ ذَوِي الْقُدْرَةِ وَالشَّوْكَةِ». فَقَدْ غَلِطَ. كَمَا أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ تَخَلُّفَ الْوَاحِدِ أَوِ الِاثْنَيْنِ وَالْعَشَرَةِ يَضُرُّهُ. فَقَدْ غَلِطَ»[1].

وَإِذَا كَانَتْ وَظِيفَةُ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ -عَلَىٰ مَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ- هِيَ اخْتِيَارُ الْإِمَامِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُضَافَ لَهَا وَظِيفَةٌ أُخْرَىٰ تُنَاسِبُ ذَلِكَ أَيْضًا، لَا سِيَّمَا أَنَّ حُدُودَ الْوِلَايَاتِ وَصَلَاحِيَّاتِهَا تُؤْخَذُ مِنْ: لَفْظِ

---

(١) المصدر السابق: (١/ ٥٣١).

التَّوْلِيَةِ، وَالْعُرْفِ، وَالْأَحْوَالِ، وهَذِهِ الْوَظِيفَةُ الْمُضَافَةُ: لَهَا تَعَلُّقٌ بِالْإِمَامَةِ، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهَا النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ وَظِيفَةُ الْمُتَابَعَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ لِأَعْمَالِ الْخَلِيفَةِ وَالْجِهَازِ التَّابِعِ لَهُ.

الشرح:

يعني: ليست مهمتهم اختيار الإمام والخليفة فحسب، وينتهي دورهم، بل تضاف إليهم وظيفة أخرىٰ هي أهم، وهي مراقبة أعمال الخليفة، والجهاز الإداري في الدولة، فإذا رأوا مخالفة ذهبوا وعارضوا، وقالوا: هذه مخالفة للشرع، لا بد أن تُغير.

فالمتابعة والمراقبة من خصائص ووظائف أهل الحل والعقد، وبذلك ينتظم نظام الملك، لأن الملك يعلم أن عليه رقيبا، يفحص أعماله، ويراقب أقواله، ويضبطون التشريعات والقوانين، وإذا أراد أن يقطع أمرا يأتي بهم ويستشيرهم، يقول: نريد أن نفعل كذا وكذا، نريد أن نضع قانونا، أو نظاما ينظم كذا وكذا، فهو يستشيرهم لأنه يعلم أنهم لن يسكتوا علىٰ مخالفة.

ومن المهم أن يكون المحيطون بالإدارة والحكم والملك يهمهم في المرتبة الأولىٰ: شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يداهنون، فلما حصلت المداهنة والمجاملة والغش في النصيحة، بدأ الفساد في الأرض، فإذا كانت المجاملات والمداهنات علىٰ حساب دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حلَّ الفساد، فمن كان

كذلك فليس بناصح، والمؤمنون نَصَحَة، ينصحون بحكمة وعلم، والذي تنصحه يعلم أنك تحب له الخير، لا تريد ملكا، لذلك لما قال ابن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني أترك حقي من ذلك»(١)، كان أحرىٰ أن يقبلوا رأيه، لأنهم علموا أنه لا يطمع في هذا الأمر، وأنه يحبهم، ويحب الخير لهم، فكذلك النصحة، أهل الحل والعقد، لا يسكتون علىٰ باطل، ويعرفون كيف يبلغونه للخليفة، والخليفة يأمن جانبهم؛ لأنهم لا يريدون ملكًا ولا رئاسة ولا شيئًا، يريدون حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا ما ينبغي أن يكون عليه أهل الحل والعقد وأهل العلم، وإلا تفقد صلاحيتهم.

المتن:

وَهِيَ وَظِيفَةُ الْمُتَابَعَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ لِأَعْمَالِ الْخَلِيفَةِ وَالْجِهَازِ التَّابِعِ لَهُ؛ بِغَرَضِ الْحِفَاظِ عَلَىٰ الْتِزَامِ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ بِالشَّرْعِ، وَعَدَمِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ.

وَهَذِهِ الْوَظِيفَةُ نَجِدُ أَسَانِيدَهَا الشَّرْعِيَّةَ فِي الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ مِنْ أَدِلَّةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، الَّتِي تَطْلُبُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامَ بِوَظِيفَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحِفَاظَ عَلَىٰ شَرْعِيَّةِ النِّظَامِ وَالْتِزَامِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْبَالِغَةِ الْأَهَمِّيَّةِ، وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الِاخْتِيَارِ بِالْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ كَانَ إِضَافَةُ

(١) «البداية والنهاية»: (١٠/ ٢١٠).

وَظِيفَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي الْجَانِبِ السِّيَاسِيِّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْسَبِ الْأَشْيَاءِ.

الشرح:

لأنهم أعلم بالاحتساب، أعلم بإنكار المنكر، وتثبيت المعروف في الأرض، وكذلك هم أعرف بالسياسة الشرعية التي تنبني عليها الحسبة، فلا ينكرون لمجرد الإنكار، بل ينكرون بشروط إنكار المنكر، إنكار المنكر لا بد ألّا يترتب عليه منكر أكبر منه، وإلا فاصبر واسكت حتىٰ يأتي وقت مناسب للتغيير، ولا تقل: إن هذا المنكر معلوم ظاهر، فلماذا لا تزيلونه؟ لأنه لم يأت الوقت المناسب لإزالته. ولا نقول أنه معروف، ونلبّس علىٰ الناس؛ لأن التلبيس هو الذي يأتي بالشر، فيظن الناس أن المنكر معروفًا، أو حلالًا لا شبهة فيه، لأن أهل الحل والعقد، والعلماء، وأهل الحسبة، ساكتون، لكن ينبغي أن يشيعوا في الناس أنه منكر، ولا يجوز في دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكن الوقت ليس مناسبًا لتغييره بالمعروف؛ حتىٰ لا يترتب عليه منكر أكبر منه.

الأصل الذي يهمك أنت كمسلم: أن تعرف أن هذا منكر لا يجوز في دين الله فقط، هذا الذي إليك، أما تغييره فإلىٰ أهل الحسبة.

المتن:

فَيَصِيرُ مُرَادُنَا بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ: هُمُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَتَوَافَرُ فِيهِمُ الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبَةُ، وَتَكُونُ وَظِيفَتُهُمُ: **اخْتِيَارُ الْخَلِيفَةِ**.

ثُمَّ الْمُتَابَعَةُ وَالْمُرَاقَبَةُ لِالْتِزَامِ النِّظَامِ بِالشَّرِيعَةِ، وَاتِّخَاذُ الْمَوْقِفِ الشَّرْعِيِّ الْمُنَاسِبِ بِنَاءً عَلَىٰ نَتَائِجِ الْمُتَابَعَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ، فَيَقُومُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِمَهَامِّ الْحِسْبَةِ وَلَكِنْ فِي الْجَانِبِ السِّيَاسِيِّ.

وَلِذَلِكَ قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ -عِنْدَمَا تَحَدَّثَ عَنْ مُوجِبَاتِ عَزْلِ الْخَلِيفَةِ-: «فَإِنْ قِيلَ: فَمَنْ يَخْلَعُهُ؟ قُلْنَا: الْخَلْعُ إِلَىٰ مَنْ إِلَيْهِ الْعَقْدُ» (١).

الشرح:

لأنهم هم الذين نصبوه، فإذا كان إليهم تنصيبه، فكذلك إليهم خلعه، فإذا قاموا بدورهم المنوط بهم؛ اطمأنت الأمة وركنت إليهم، ولم يقوموا بمثل هذه الثورات؛ لأن الأمور تجري علىٰ نظامها الشرعي؛ أما إذا استفحل الظلم وظهر الكفر وانتشرت مظاهر الشرك، ولا مانع لذلك، فقدَ أهل الحل والعقد صفاتهم، ولم يثق الناس بهم.

المتن:

صِفَاتُ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

---

(١) غياث الأمم: (٩٦).

«يَدُورُ كَلَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَىٰ أَنَّ الصِّفَاتِ الْمَطْلُوبَ وُجُودُهَا فِيهِمْ: هِيَ الْعَدَالَةُ الْجَامِعَةُ لِشُرُوطِهَا: الْإِسْلَامِ وَالْبُلُوغِ وَالْعَقْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْأَمَانَةِ.

الشرح:

هذا الأمر (العدالة) ينبغي أن يكون في جميع المسلمين، ولكن هؤلاء يزيدون عليهم الأمانة في العلم، والأمانة في المراقبة، وفي اتخاذ القرار لمصلحة الأمة، لا لمصالحهم الشخصية.

فالأصل أن يكونوا مستقيمين علىٰ دين الله، حتىٰ لو قلنا أنه يختص مثلا بالزراعة أو بالصناعة أو التجارة، فلو كان مستقيمًا علىٰ شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليس عالمًا، ولكنه مستقيم علىٰ الإسلام، فهذا يقبل في تخصصه.

المتن:

وَالْعِلْمُ بِأَحْكَامِ الْإِمَامَةِ؛ لِمَعْرِفَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا عَلَىٰ الشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا.

الشرح:

يعني يعرف أحوال السياسة الشرعية، ويعرف شروط اختيار الإمام، والمواصفات التي تجب في الإمام، ويعرف العلم الذي يزن به الأشخاص الذين يتقدمون لهذه الإمامة، ولا يكون غافلا.

المتن:

وَالْحِكْمَةُ وَالرَّأْيُ؛ الْمُؤَدِّيَانِ إِلَىٰ حُسْنِ الْمُفَاضَلَةِ وَالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ أَهْلِ الِاسْتِحْقَاقِ».

الشرح:

يعني: يوازن بين أهل الاستحقاق مِمَّن يتقدم للإمامة، هل هو يستحقها أو لا يستحقها؟

فلا بد أن يكون عليمًا بمن يستحق هذه الولاية وهذه الإمامة، علمَ شروط وعلمَ حال، وصفة ذات المترشح للإمامة، لا علمًا فقط بشروط الإمامة، ولكن عليمًا بمن يستحقها من الناس، خبيرًا بهم، عارفًا بأهليتهم لها.

المتن:

فَهَذِهِ الصِّفَاتُ مَتَىٰ تَوَافَرَتْ عِنْدَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَفْرَادِ، فَإِنَّ الْأُمَّةَ تَلْتَفُّ حَوْلَهُمْ وَتَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، وَتَصْدُرُ عَنْ آرَائِهِمْ وَتَفْزَعُ إِلَيْهِمْ فِي مُهِمَّاتِهَا وَمُلِمَّاتِهَا، وَتَرْكَنُ إِلَىٰ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَتَرْجِيحَاتِهِمْ، فَكَانَ تَحَقُّقُ هَذِهِ الشُّرُوطِ فِيهِمْ مِنَ الضَّمَانَاتِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ مَقْبُولِينَ عِنْدَ الْأُمَّةِ، وَمُعَبِّرِينَ عَنْ إِرَادَتِهَا.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ مِنْ طَبَائِعِ النُّفُوسِ أَنَّهَا تُسَلِّمُ فِي الْغَالِبِ لِمَنْ هُوَ أَجْوَدُ مِنْهَا رَأْيًا، وَأَسَدُّ فَهْمًا، وَأَقْدَرُ عَلَىٰ حَلِّ الْمُشْكِلَاتِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَلَكَاتِ وَقُدُرَاتِ

أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ هِيَ فِي الدَّرَجَةِ الْعَالِيَةِ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُهُمْ حَائِزِينَ عَلَىٰ رِضَا الْأُمَّةِ وَقَبُولِهَا.

الشرح:

لأن هؤلاء عندما تتوفر فيهم هذه الصفات؛ الأمة تقبلهم علىٰ ما هم عليه، وتصدر عن رأيهم، ولا تخالفهم، لأنها تثق في علمهم، وفي رأيهم، وفي أمانتهم، وفي سداد رأيهم؛ أما إن جاؤوا بغير هذا تفقد الأمة الثقة فيهم، ثم تأتي بعد ذلك المصائب في الأمة.

المتن:

مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ تَدْبِيرَ الِاخْتِيَارِ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ؛ إِنَّمَا هُوَ إِعْمَالٌ لِدَوْرِ الْأُمَّةِ فِي بِنَاءِ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ، وَلَيسَ تَهْمِيشًا لَهَا، أَوْ تَقْلِيلًا مِنْ شَأْنِهَا فِي ذَلِكَ، وَهُوَ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ اهْتَدَىٰ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ لِتَحْقِيقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ فِي الْوَاقِعِ.

الشرح:

يبقىٰ هذا هو الأصل، لماذا نفعل ذلك؟ للهدف الأكبر، وهو تحقيق الحكم الشرعي في واقع الناس، لا يكون حكمًا في الكتب فقط، ولا في الصدور فقط، بل الهدف من الحكم الشرعي: هو إعمال هذا الحكم في واقع الناس، الشريعة تحكم حقا في واقع الناس، ليس كلامًا يقال، بل واقع الناس، نحن نقول: دولة إسلامية، ونحن دولة التوحيد، ونحن دولة الدعوة، لكن هل هذا

الكلام، أو هذا الادعاء العريض، له واقع في حياة الناس؟ نتظر، هل دعوة التوحيد، ودولة التوحيد، ودولة الإسلام، يشاع فيها الكفر والفسق والفجور علنًا، وترعاه الدولة؟ هل دولة التوحيد، والدعوة والإسلام، تقام فيها صروح الربا التي تحارب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليل نهار، وتقول: هذه دولة؟ هل من شروط دولة الإسلام ودولة الدعوة والإمامة والخلافة: أن توالي أعداء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتفتح بلادها بلاد المسلمين وبلاد الدعوة والتوحيد للعدو الكافر الأصلي المحارب؛ ليضرب إخواننا المسلمين من أراضينا؟ هل هي دعوة الإسلام هذه؟ هذه دعوة دولة الإسلام؟ هذه دولة الإمامة؟ أن تفتح الأراضي والإمكانيات للعدو الكافر الصليبي المحارب، أو اليهودي المحتل، تفتح البلاد لضرب إخواننا المسلمين، إذن هذا كلام ادعاء لا حقيقة له، لذلك تفقد أقوالكم المصداقية عند الناس، حتىٰ عندما يخرج الكهنة أتباعهم ويروجون، ويأتون بالأسباب والمبررات، لا تقبلها الناس، حتىٰ عامة الناس، دعك من طلبة العلم، هذه بدهيات، إن كنت أنت مسلم، لماذا تسمح للكافر أن يضرب أخاك المسلم من أرضك؟ هذه بدهيّة، تقول لي: سياسة. وهل السياسة إلا سياسة شرعية يقام بها دين الله -سبحانه- في الأرض؟ ما هي السياسة عندكم؟ السياسة هي أن توالي أعداء الله علىٰ حساب دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ فالحكم الشرعي لا بد أن يكون واقعًا في حياة الناس، وإلا يكون ادعاءً أجوفًا لا حقيقة له.

المتن:

وَقَدْ طُبِّقَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ مَرَّتَينِ، مَرَّةً فِي اخْتِيَارِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَوَّلِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَمَرَّةً فِي اخْتِيَارِ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رَابعِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ.

فَفِي اخْتِيَارِ أَبِي بَكْرٍ اجْتَمَعَ الصَّحَابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بَعْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَحَدَثَتْ بَعْضُ الْمُنَاقَشَاتِ، وَلَمَّا خَشِيَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِنَ الاخْتِلَافِ بَادَرَ إِلَىٰ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وَقَدْ كَانَتْ مَكَانَتُهُ مَعْلُومَةً مَحْفُوظَةً عِنْدَ الصَّحَابَةِ.

الشرح:

فقد كان حاضرًا في أذهان الصحابة من يكون رأس الدولة، وذلك من الواقع الذي يعرفونه، ومن تزكية الخليفة قبله، والذي كانوا يعرفونه، فكان معلومًا عندهم أن الخليفة بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو أبو بكر، حتىٰ وإن لم يعلنوا هذا، عرفوا ذلك من أفعاله، ومن آرائه، ومن مكانته، لذلك لما أراد أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يتنحىٰ ويترك الخلافة، قالوا: «لا نقيلك ولا نستقيلك، كيف يرضاك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لديننا ولا نرضاك لدنيانا»[1]، أي: عندما قدمه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصلي بالناس، فهم يعرفون مكانته.

---

(١) «فضائل الصحابة» لإمام أحمد، رقم: (١٠١)، «تفسير القرطبي»: (١/ ٢٧٢).

لذلك نقول هنا: لا بد لمن أراد أن يقيم دعوة، أو دولة، أن يكون واضحًا بأعماله في حياة الناس، حتىٰ يرسخ في نفوس الناس وقلوبهم أنه هو هو، وكيف يرسخ ذلك في أذهانهم؟ بأفعاله، بأعماله، بشهامته، برجولته، بدينه، باستقامته، بإنفاقه، بإحسانه إلىٰ الناس، بمعاشرته الناس، بعدم تفريقه بين الغني والفقير، بل الفقير مقدم عنده علىٰ الغني، لا يوالي ولا يحابي، ومعروف بتاريخه.

ما الذي نستفيده من ذلك؟ نستفيد من ذلك أنه يجب علينا أن نعمل جاهدين علىٰ الأرض، لا في القنوات وفي الشاشات فحسب، بل يكون لنا جهد ملموس علىٰ الأرض يراه الناس، ويتحقق ذلك بطرق كثيرة، من أهمها: معايشة أحوال الناس، وطباعة الكتب وتوزيعها علىٰ الناس، وحل مشكلاتهم، وإبداء الآراء التي هي فيها حل معضلاتهم، رأي رشيد، وعمل سديد يشعر به الناس.

المتن:

وَكَانُوا مُوقِنِينَ بِأَنَّهُ جَدِيرٌ، بَلِ الْأَجْدَرُ بِهَا؛ إِذْ هُوَ فِي الذِّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنْ ذَلِكَ؛ لِذَلِكَ فَبِمُجَرَّدِ أَنْ بَايَعَهُ عُمَرُ أَقْبَلَ عَلَىٰ مُبَايَعَتِهِ الْمُهَاجِرُونَ ثُمَّ الْأَنْصَارُ، مُبَايَعَةَ رِضًا وَاخْتِيَارٍ.

الشرح:

لأنه ربما تكون المبايعة مبايعة علىٰ غير رضا واختيار، فتكون علىٰ إكراه، يقول: هم اختاروا، وأنا ما أحببت أن أنزع يد الطاعة، هو كاره هذا، غير راض؛ أما مبايعة سيدنا أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فكانت عن رضا واختيار وقناعة، فهم يعرفون مكانته ومنزلته.

المتن:

لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَملِكُ إِكْرَاهَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَمْ يُنَازِعْهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ، حَتَّىٰ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْبَيْعَةِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لَمْ يَكُونُوا يُنَازِعُونَهُ فِيهَا، ثُمَّ عَادُوا فَبَايَعُوا، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ الْمَوْجُودُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُمْ عُظَمَاءُ الْأُمَّةِ وَأَفَاضِلُهَا، وَهُمْ خُلَاصَةُ الْأُمَّةِ، فَلَمْ يَكُنْ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ أَنْ يُنَازِعَهُمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، أَوْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِمْ.

الشرح:

نفهم من هذا أن مجمع صفوة الأمة هو مركز الدولة وقاعدة الانطلاق، والقرىٰ والمدن كلها تابعة لها، فإذا صدرت عن أمر، فالأمة كلها لها متبعة.

المتن:

وَفِي اخْتِيَارِ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فَقَدْ حَاوَلَ قَتَلَةُ عُثْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنْ يُبَايِعُوهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ؛ إِذْ لَيْسُوا هُمْ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ.

الشرح:

هل تنعقد الإمامة بهؤلاء الذين جاؤوا لبيعته إذا كانوا خمسة أو عشرة واختاروا من هو أهل للإمامة، ولكنهم لم يُوافَقُوا علىٰ اختيارهم؟ الجواب: لا؛ لأنه يعتقد أنهم ليسوا أهلًا لبيعته، ولا تنعقد البيعة بموافقتهم، لذلك رفض، ولكنه تحسس بحكمته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال: بيعتي لا تتم سرّا، هم يريدون أن يبايعوه في السر، ثم يجبروا الناس ويكرهوهم، ويقتلونه كما قتلوا عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فهو تفطن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال ذلك حتىٰ ينسلخ منهم شيئًا فشيئًا حتىٰ لا يتغلبوا عليه، لأنهم يستطيعون أن يقتلوه، قال: بيعتي لا تتم سرا، ولكن يجتمع الناس وأنا معكم، فسكّنَهم.

المتن:

رُغْمَ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ تَمَكَّنُوا بِهَا مِنْ قَتْلِ الْخَلِيفَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ الَّذِينَ بِالْمَدِينَةِ، وَأَلَحُّوا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ؛ دَرْءًا لِلْفِتْنَةِ وَحِفْظًا لِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مُرْغَمًا.

الشرح:

سيدنا علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، كلهم لم يريدوا الخلافة، وهذا يدلك علىٰ أن الخلافة لا تُطلب، وأن النزاع الذي حصل بين الصحابة ليس علىٰ السياسة والملك، هم كلهم رفضوها، حتىٰ آخر الخلفاء الراشدين في العصر الأول، وبعده الحسن بن علي، كلهم لم يريدوا الخلافة، ولم يطلبوا الرئاسة والملك، بل هربوا منها، وأرغمهم الناس عليها.

المتن:

وَقَدْ كَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُمْ مِنَ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهُمْ فِي الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَخَطَبَ فِيهِمْ، مُبَيِّنًا حَقَّ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَنْ مَلَأٍ وَإِذْنٍ إِنَّ هَذَا أَمْرُكُمْ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ حَقٌّ إِلَّا مَنْ أَمَّرْتُمْ»(١).

فَهَاتَانِ الْبَيْعَتَانِ تَمَّتَا عَنْ طَرِيقِ بَيْعَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، الْمُعَبِّرَةِ عَنْ رَأْيِ الْأُمَّةِ وَاخْتِيَارِهَا»(٢).

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِهَذِهِ الْمُؤَسَّسَةِ رَئِيسٌ أَوْ أَمِينٌ أَوْ مُدِيرٌ، يُنَظِّمُ عَمَلَهَا الدَّاخِلِيَّ، مِنْ حَيْثُ الِاجْتِمَاعَاتُ وَأَوْقَاتُهَا، وَمِنْ حَيْثُ إِعْدَاد وَتَجْهِيزِ الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى بَحْثٍ وَتَبَادُلِ مَهَامِّ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ.

الشرح:

فلا بد لهذه المؤسسة، مؤسسة أهل الحل والعقد، مؤسسة البيعة، لا بد أن يكون لهم رئيس، ونائب، ينظم لهم حياة الدولة، وينظم لهم مهام كل عضو فيها، التي نسميها هنا «مهام إدارة الدعوة».

---

(١) «تاريخ الطبري»: (٤/ ٤٣٥).

(٢) من مقال بعنوان: «دور الأمة ومكانتها في بناء النظام السياسي»، لمحمد بن شاكر الشريف.

لولا هذه المهام، ولولا هذه الإدارة، لفشلت الأمور ولفسدت، فلا بد من إدارة، وكما أنها تنظم الدولة، كذلك تنظم رئاسة أهل الحل والعقد، لها رئيس، ولها نائب، ولها مسؤول، وكلٌّ علىٰ وظيفته المنوطة به، وهو يتابع، وتأتيه التقارير اليومية، هذا تم وهذا لم يتم، هذا عنده مشكلة، وهكذا، حتىٰ تسير الأمور علىٰ نظام؛ أما العشوائية، كل حسبما يتفق، فلا، لأن النفس داعية إلىٰ الدَّعَة والكسل، فيضيع الناس، وتضيع الأمة.

المتن:

مَهَامُّ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

مِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ لِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَظِيفَتَينِ أَسَاسِيَّتَينِ، هُمَا:

١- اخْتِيَارُ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَيْنَ مَنْ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ.

٢- الْقِيَامُ بِأُمُورِ الْحِسْبَةِ فِي الْمَجَالِ السِّيَاسِيِّ.

وَالْقِيَامُ بِأُمُورِ الْحِسْبَةِ فِي الْجَانِبِ السِّيَاسِيِّ يَتَنَاوَلُ أَمْرَينِ مُهِمَّيْنِ:

الْأَوَّلُ: الْمُتَابَعَةُ وَالْمُرَاقَبَةُ لِأَعْمَالِ الْخِلَافَةِ، وَالتَّصَرُّفُ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ الشَّرْعُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

الثَّانِي: وَهُوَ مُتَرَتِّبٌ عَلَىٰ الْأَوَّلِ، وَهُوَ عَزْلُ الْخَلِيفَةِ إِنْ فَعَلَ مَا يَتَوَجَّبُ ذَلِكَ، وَهُوَ مُسْتَفَادٌ أَيْضًا مِنَ التَّسْمِيَةِ نَفْسِهَا بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ؛ فَـ (الْعَقْدُ)؛ يَعْنِي:

مُبَايَعَة الْإِمَامِ الصَّالِحِ لِلْإِمَامَةِ. و (الْحَلُّ) يَعْنِي: عَزْل الْإِمَامِ مَتَىٰ خَرَجَ عَنْ حَدِّ الصَّلَاحِ لِلْإِمَامَةِ، وَاللُّغَةُ الْمُسْتَخْدَمَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَـ (الْعَقْدُ) نَقِيضُ (الْحَلِّ). وَ(الْعَقْدُ): الْعَهْدُ. وَ(الْعَقْدُ): اللُّزُومُ، وَالْعَزْمُ، وَالْإِبْرَامُ. وَ(الْحَلُّ): مِنْ حَلَّ الْعُقْدَةَ، يَحُلُّهَا حَلًّا؛ فَتَحَهَا وَنَقَضَهَا؛ فَانْحَلَّتْ.

الشرح:

الاسم يدل علىٰ الوظيفة، فهم «أهل الحل»، يعني: يحلون المشكلات، «والعقد»: يعقدون الاتفاقيات، والولاية، والإمامة، وغير ذلك.

المتن:

وَقَدْ أَوْمَأَ النَّصُّ الشَّرْعِيُّ بِتَكْوِينِ جَمَاعَةٍ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ ذَاتِ وِلَايَةٍ، لَهَا قُدْرَةٌ وَمَنَعَةٌ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَارَضَ ذَلِكَ أَوْ يَتَدَاخَلَ مَعَ قِيَامِ الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ بِتِلْكَ الْفَرِيضَةِ بِمُقْتَضَىٰ إِيمَانِهِ، قَالَ اللـه تَعَالَىٰ -فِي بَيَانِ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ شَرْعًا، الَّتِي تُلَازِمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ أَحْيَانِهِمْ-: {وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ} [التَّوْبَةُ: ٧١].

وَأَمَّا تَكْوِينُ الْجَمَاعَةِ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَقَدْ أَرْشَدَ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ} [آل عِمْرَانَ: ١٠٤].

قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: {مِنكُمْ}؛ تَبْعِيضِيَّةٌ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ عَلَىٰ ذَلِكَ: وَلْتَكُنْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ: إِنَّ (مِنْ) هُنَا: بَيَانِيَّةٌ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ: وَلْتَكُونُوا جَمِيعًا أُمَّةً...

أي: ولتكونوا جميعا أمة يدعون إلىٰ الخير، أما علىٰ المعنىٰ الثاني «من» للتبعيض، يعني: ولتكن منكم من هم أهل لمن ينكر ومن يحتسب؛ لأن الأمر بالمعروف له ضوابط وله شروط.

المتن:

وَهُنَا مُلَاحَظَةٌ مُهِمَّةٌ -فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ- كَشَفَتْ عَنْهَا أَلْفَاظُ الْآيَةِ: وَهِيَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَيْسَ مُجَرَّدَ دَعْوَةٍ لِلْحَضِّ عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ حَقِيقَةً، لَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ الْإِلْزَامِ بِهِ.

الشرح:

لو قام الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليس هناك شوكة تلزم الناس؛ أما لو قام به من له صفة الشوكة والإلزام انقاد الناس، وأضرب لك مثالًا تكلمنا فيه: مسألة القضاء، يرفع الأمر إلىٰ القاضي من المتخاصمين أو من غيرهما، يعني: رجل مسلم رأىٰ منكرًا معينًا، أيًّا كان، رجل وقع في كفر،

شرك، وقع في كبيرة محرمة، وغير ذلك، فهذا يرفع أمره إلىٰ القاضي بعد أن ينصحه وغير ذلك من الأمور، القاضي هنا ملزِم، عنده صفة الإلزام بإحضار المتخاصمين، أو المتهم، أو غير ذلك، عنده شوكة وقدرة، وأنت الآن ليس لك هذه الشوكة، أنت فقط تأمره وتنهاه بالمودة وبالمعروف، تقول: تعالوا ننهي هذا الأمر، هذا أمر ليس بجيد، لا بد أن ننهيه وننهي هذه الخصومة، فلو اعترضوا عليك ورفضوا، هل لك صفة إلزامية؟ قالوا لك: لن نحضر عندك، ولن نسمع كلامك، ولن نطيعك فيما حكمت، ماذا تفعل أنت؟ ليس لك صفة إلزامية. فالشوكة ملزمة، وهي ضرورية لاستقامة حال الأمة.

لذلك عندما نتكلم عن تكوين الجماعة، أقل شيء في الجماعة أنها تدير أحوال نفسها، هذه الجماعة هي أمة مصغرة، هي دولة مصغرة، وتلتزم وتسمع وتطيع لرأسها، للأمير أو لجماعة الحل والعقد الذين هم يديرون الجماعة أو الدعوة، لو لم تنجح هذه الجماعة في إدارة شؤون حياتها، فهي في إدارة الدولة أفشل، فأنت لا تستطيع أن تدير أهل بيتك، الذين هم تحت ولايتك، أبناءك وزوجتك وأولادك وإخوتك، أنت لا تستطيع أن تديرهم ولا تلزمهم، فكيف تستطيع أن تدير دولة؟! وبماذا تديرها؟ بنفسك أنت وبرأيك أنت؟ أم بمشاركة إخوانك جميعًا في هذه الإدارة؟

لذلك نخرج من هنا بتنظيم مسألة الدعوة، بمعنىٰ: الدعوة لا بد أن يكون لها رأس، ومسؤول عن الأُسرة، وعن الأولاد، وعن التبليغ، وعن الدعوة في الخارج وفي الداخل، وكل يرجع لهذه الإدارة وبالمشورة وبالرأي، لا بد أن يتفقد أولادنا وأسرنا ونساءنا وأمهاتنا وآباءنا، هل هم مستقيمون علىٰ الشرع؟ هل هناك مخالفات؟ هل هناك صعوبات؟ هل هناك مشاكل؟

إذا لم نقم بهذه الإدارة، ونتمرن فيها، ونتمرس علىٰ إدارة الدولة، وتكون محضنًا عمليًّا، وأرضًا صالحة ندير فيها الدولة ونجرب- إذن لا تقوم لنا قائمة، لا نستطيع أن نقيم أكبر من هذا؛ لأن الدولة كالجسد، وفيه رأس، وكان النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرأس، فبدأ بدعوة أهل بيته، دعا أمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأولاده، ومن هم تحت ولايته، هذا المحضن، أنا أبين لك كيف تبنىٰ الدولة، بدعوة الأقرب فالأقرب، ثم انتقل من البيت إلىٰ الأصحاب، ثم انتقل من الأصحاب إلىٰ المعارف، انتقل من المعارف إلىٰ الأقارب، إلىٰ كل من تستطيع أن تدعوه، بدأت تتوسع وتنتشر كالبقعة تنتشر في الأرض حتىٰ صارت الدولة، والدولة هذه لها جبهة داخلية، هو أمَّنها في الأول، هم كانوا معه، لم يغضوا الطرف عن مخالف في البيت، بل حاول معه مرة ومرتين وثلاث وأربع، حتىٰ استأمنه، وحتىٰ أمن جانبه وآمن به.

إذن لو لم ننجح في بيوتنا، وفي مجتمعاتنا، وفي دائرتنا الضيقة التي هي دائرة الإخوة، في إدارة حياتنا علىٰ شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فنحن في غيرها لا نستطيع.

المتن:

وَهَذَا يَسْتَدْعِي أَنْ تَكُونَ لِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ سُلْطَةٌ تُمَكِّنُهَا مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مَعْنَىٰ أَنَّهَا وِلَايَةٌ ذَاتُ قُدْرَةٍ وَمَنَعَةٍ؛ وَلِذَلِكَ فَقَدْ فَرَّقَتِ الْآيَةُ بَيْنَ هَذَا الْعَمَلِ وَبَيْنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْخَيْرِ، فَفَرَّقَتْ بَيْنَهُمَا فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ تَغَايُرِهِمَا وَإِنْ كَانَا يَعْمَلَانِ فِي دَائِرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ} [آل عمران: ١٠٤].

الشرح:

يبقىٰ هنا الدعوة للخير هذه لكل الأمة، إنما الأمر بالمعروف والنهي والمنكر هذه لجماعة مخصوصة، بصفات مخصوصة، بشوكة ومنعة مخصوصة.

المتن:

وَقَدْ نَشَأَتِ الْحِسْبَةُ -كَأَيِّ تَدْبِيرٍ تَنْظِيمِيٍّ- عَلَىٰ حَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. ثُمَّ مَعَ الِاتِّسَاعِ وَتَطَوُّرِ الْحَيَاةِ، وَتَشَابُكِ الْمَصَالِحِ حِينًا وَتَعَارُضِهَا حِينًا آخَرَ؛ أَخَذَتِ الْحِسْبَةُ تَتَطَوَّرُ فِي وَسَائِلِهَا تَبَعًا لِذَلِكَ، وَلَكِنْ فِي إِطَارٍ مَحْكُومٍ لَا تَخْرُجُ عَنْهُ،

وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَالْهَدَفُ الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْمُجْتَمَعِ فِي الْعَقَائِدِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَالسُّلُوكِ، وَالْمُعَامَلَاتِ.

وَقَدْ نَشَأَتِ الْحِسْبَةُ -كَأَيِّ تَدْبِيرٍ تَنْظِيمِيٍّ- عَلَىٰ حَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. ثُمَّ مَعَ الِاتِّسَاعِ وَتَطَوُّرِ الْحَيَاةِ، وَتَشَابُكِ الْمَصَالِحِ حِينًا وَتَعَارُضِهَا حِينًا آخَرَ؛ أَخَذَتِ الْحِسْبَةُ تَتَطَوَّرُ فِي وَسَائِلِهَا تَبَعًا لِذَلِكَ، وَلَكِنْ فِي إِطَارٍ مَحْكُومٍ لَا تَخْرُجُ عَنْهُ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَالْهَدَفُ الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْمُجْتَمَعِ فِي الْعَقَائِدِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَالسُّلُوكِ، وَالْمُعَامَلَاتِ.

كَمَا نَشَأَتْ أَيْضًا وِلَايَةُ الْمَظَالِمِ، وَالَّتِي كَانَ مِنْ مَهَامِّهَا النَّظَرُ فِي تَعَدِّي الْوُلَاةِ عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ، فَيَتَصَفَّحُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ لِيُقَوِّيَهُمْ إِنْ أَنْصَفُوا، وَيَكُفَّهُمْ إِنْ عَسَفُوا، وَيَسْتَبْدِلَ بِهِمْ إِنْ لَمْ يُنْصِفُوا.

الشرح:

التي هي ولاية المظالم، وديوان المظالم، لا بد لهؤلاء كلهم من ديوان مظالم، يرفع الناس إليه ظلم الولاة، وظلم الحكام، وإلا سيظلم الولاة الناس، ولا يتمكن الناس من رفع مظالمهم إلىٰ أولي الأمر، إلىٰ أهل الحل والعقد، إلىٰ الأمير؛ لأن الوالي يظلمهم، ولا يمكنهم من رفع أمورهم إلىٰ الأمير.

فإذا وليت شخصًا علىٰ بلدة، أحسنت الظن به، بعد مشورة وغير ذلك، فرأيته صالحًا لهذا، بعيدًا عن المصالح الضيقة؛ القرابة وغير ذلك، فيجب

عليك من منطلق مسئوليتك أنت كمسؤول من أهل الحل والعقد- أن تتابع هذا الوالي، تتابع أفعاله وأعماله مع الناس، وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرسل العيون ليتجسسوا ويعرفوا سيرة هذا الوالي مع الناس؛ حتىٰ يضمن العدل الذي هو من أسس القيام -وسيأتي معنا بعد ذلك: العدل، والتوحيد، والأخوة والمسجد-، فكان يبعث الناس يسألهم، ويتحسس سيرته فيهم، هل يصلي بهم، هل يقوم علىٰ حقوقهم؟ هل يجلس لهم أم لا يجلس؟ لأنه كان لكل والٍ مجلس مع الناس بين الصلوات، إما بعد الفجر، أو بعد العصر، أو في الليل، حتىٰ يستقبل الناس وينظر في مظالمهم، ويقضي حوائجهم، لا بد من هذا المجلس.

إذا غفلت عن وظيفتك، ولم تتابع الولاة، فهذا قصور سيأتي غالبًا علىٰ الدولة كلها، لا تحسب أن خطأ أهل الحل والعقد خطأ قاصر عليهم، بل هو خطر علىٰ الدولة يهدمها، يهدمها هدما، فإذا أغفلت دورك، والوالي لم يتق الله في الرعية، وصار يظلم، والناس تضجر، ولا يسمح لهم أن يرفعوا مظلمتهم إلىٰ الأمير أو الوالي، لذلك أُنشِئ ديوان المظالم.

الطالب: هل يختلف ديوان المظالم عن القضاء؟

الشيخ: نعم، ديوان المظالم يختلف عن القضاء، وهو مستقل عنه، وإن كان فرعًا منه، فديوان المظالم ينظر في مظالم الناس التي يرفعونها علىٰ الحكام،

والولاة، والوجهاء، وأعيان القوم، ويجلس له الحاكم بنفسه، أو يعين عالمًا فاضلًا أمينًا قويًّا في الحق ينوب عنه في ذلك، ويرفع هذه المظالم للحاكم مباشرة، لذلك لما أنشأ الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعض الوجهاء، والعلماء، والدعاة- ديوانَ المظالم؛ للقيام بمصالح الناس وحل مشاكلهم، وكان ذلك سنة ألف وأربعمئة وأربعة عشر تقريبا، وكان الناس يرفعون إليه مظالمهم؛ من ثقتهم فيه، ومن علمهم به، فقام الطغاة عليه قومة واحدة، وفصلوه من دار الإفتاء، ومن إمامة الإفتاء، ومن اللجنة الدائمة، فالطغاة لم يرضوا بهذا، وقالوا: أنت تريد أن تنشئ دولة داخل دولة؟! وماذا نحن نعمل بوزاراتنا وبغير ذلك؟! فاعتقلوهم وعزلوهم وناصبوهم العداء.

فكان المنصب هو الذي يشرف بوجود عالم مثل الشيخ ابن جبرين عضو الإفتاء أو عضو اللجنة الدائمة، كان المنصب يشرف به، ليس هو الذي يشرف بالمنصب، بل هو أكبر من المنصب، لذلك هو تعدىٰ حدوده في المنصب، المنصب يقيده، لذلك ينبغي ألا يكون رزق الذي يعمل لدين الله من الدولة؛ لأن هذا يكون سيفًا مسلّطًا عليك، إما أن تقول بما تقوله الدولة؛ وإما سنمنع عنك.

لذلك كان ابن مبارك عليه رحمة الله، وهو عالم من علماء الأمة، كان يتاجر بالمال، فقال للفضيل يومًا: لولا أنتم ما اتجرت[١]. يقصد إخوانه العلماء، إنما كان يتاجر ليكفهم عن أبواب السلاطين، وليسد حاجاتهم، ولا يجعلهم يطلبون، وهذا من كرمه ومن عزته ومن بصيرته في الحكم، مع أنها كانت خلافة تُحكّم شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومع ذلك كان لا يدع إخوانه العلماء يطلبون، كان هو يتفقدهم، ويرسل من يتفقد أحوالهم، ويرسل لهم بما يكفيهم؛ حتىٰ لا يلجئهم إلىٰ أبواب السلاطين، فإذا ذهبوا إلىٰ أبواب السلاطين فقدوا علمهم، وفتنوا.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضّب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
والقرآن أتانا من مقال نبيّنا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

(١) «تهذيب التهذيب»: (٧/ ٢٢٢)، «الثقات» لابن حبان: (٧/ ٨)، «سير أعلام النبلاء»: (١٠/ ٣٨٦).

حتىٰ لما عاتبه الفضيل ودعاه للتفرغ للعبادة وترك الجهاد للأشداء ولمن لا علم له، قال هذه الأبيات:

ولما وصل كتابه إلىٰ الفضيل في الحرم المكي، قرأه وبكىٰ، ثمّ قال: «صدق أبو عبد الرحمن ونصح»(١).

فأخبره أن العمل الذي يقوم به إنما يقوم به من أجله ومن أجل غيره، فهو ربما يكون علىٰ ثغر واحد من ثغور الأمة، ونفعه عائد عليه فقط؛ أما ابن المبارك فكان علىٰ ثغور أخرىٰ.

وهذا فيه بيان ما يقوم به الإنسان إذا جهله الآخر وذمه، فله أن يدافع عن نفسه، حتىٰ لما قالوا لابن تيمية: أنت تعامل التتار، وتواليهم، وتوالي النصارىٰ، وتهادنهم، وتأخد منهم رشاوي وأموالا، لما قام ابن الأفرم في الإمارة وحطوا عليه، قال: أنا؟! أنا أوالي النصارىٰ؟! أنا آخذ منهم أموال ورشاوي؟! أنا؟! أنا الذي جاهدت في كذا، وجعل يذكر هو ما قام به، وهو يقول هذا ليس من باب الدفاع عن النفس، ولكن من باب الدفاع عن منزلة الدين والعلم.

فلا بد أن نكف العلماء والدعاة عن أبواب السلاطين؛ حتىٰ لا يفتنوا، وحتىٰ لا يقولوا برأي الدولة، وهذا الذي حدث، نحن عندنا علماء كبار، عندهم

---

(١) «تاريخ الإسلام»: (١٢/ ٢٤٠)، «سير أعلام النبلاء»: (٧/ ٣٨٦).

علم، أنا أعرف هذا، ولكنهم فتنوا بالتزلف إلىٰ الحكام. أغدقوا عليهم؛ فتوسعوا في النفقات، ثم صاروا يضيقون عليهم؛ فخافوا من ذهابها، كأنهم فتحوا الدنيا ثم أغلقوها عليهم، فقالوا: كيف أعيش؟ أنا تعودت علىٰ القصر، وعلىٰ السيارة، وعلىٰ الخدم، وعلىٰ الحشم، وعلىٰ وعلىٰ...، هذه أساليب الطغاة مع العلماء، وإن لم تتفطن لها، ستنزلق قدمك، حتىٰ عندما كانوا يريدون منا أمرًا، كانوا يضيقون علينا في السجن، وفجأة يفتحون الزيارات ونحو ذلك، والدنيا تفتح عليك، ثم يضيقون ويطلبون، نريد كذا وكذا، هذا ما يسمونه سياسة العصا والجزرة، أنت تريد الجزرة؟ افعل كذا وكذا، وإن لم تقبل، فالعصا موجودة، نمنعك كل شيء، وكانوا يتعمدون أن يأتوا بأولاد الإخوة، ونسائهم، ويمرون من أمامك؛ حتىٰ يقولوا: أليس لك أولاد؟ أليس لك زوجة؟ أليس لك أهل يزورونك مثل هؤلاء؟ فتنة عظيمة، والثبات من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا تظن أنها سهلة. نسأل الله الثبات والعافية.

المتن:

وَيُمْكِنُ لِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ أَنْ يُتَابِعُوا وَيُرَاقِبُوا مُؤَسَّسَةَ الْخِلَافَةِ وَمَا ارْتَبَطَ بِهَا مِنَ الْمُعَاوِنِينَ: كَالْوُزَرَاءِ، وَأُمَرَاءِ الْأَقَالِيمِ، وَنَحْوِهِمْ.

الشرح:

لأنهم أرفع منهم مكانة، فهم الذين يختارونهم، وهم الذين لهم الرأي عندما يشاورهم الخليفة أو الإمام أو الأمير: ماذا ترون في فلان، متقدم لنا لوزارة الدفاع فلان، ومتقدم لنا للاقتصاد فلان، للصناعة فلان، ينظرون فيهم، ثم يبدون آراءهم، هذا يصلح وهذا لا يصلح، فهو نظام مخابراتي شرعي، نظام استخباراتي ديني، فيقولون: هذا عنده كذا، وعنده كذا، وهذا عنده كذا، والأصلح فلان، ولكن لا يغني هذا عن مراقبته ومتابعته، فنحن لا نفتنه ونتركه يتصرف كما شاء، ولكن نتابعه، ونكون سندا له.

المتن:

لِضَمَانِ تَقَيُّدِهِمْ بِالشَّرِيعَةِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ عَلَيْهَا، فَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا:

١- مُتَابَعَةُ التَّشْرِيعَاتِ وَاللَّوَائِحِ وَالتَّنْظِيمَاتِ الَّتِي يُصْدِرُهَا الْخَلِيفَةُ أَوْ مَنْ يُعَاوِنُهُ.

٢- مُتَابَعَةُ قِيَامِ الْخَلِيفَةِ وَأَعْوَانِهِ بِوَاجِبَاتِهِمُ الْمُلْقَاةِ عَلَىٰ عَوَاتِقِهِمْ.

الشرح:

يعني الخليفة له أعمال لا بد أن يقوم بها، لكن من يتابعه؟ يقول: أنا الخليفة، لا أحد يتابعني. كالقضاة الظلمة في زماننا، يقول: أنا ليس علي رقيب، أنا أنظر برأيي وأحكم. نقول: لا، حتىٰ الخليفة في الدولة الإسلامية ليس له الحرية المطلقة، بل يتابعه أهل الحل والعقد، يتابعون أعماله، لماذا لم ترسل

الجيوش للجهاد في سبيل الـله؟ هذا الثغر يحتاج كذا؟ وهكذا، يجلسون معه كل ليلة، يتفقدون أحوال البلد والدولة، وإلا سقطت، لو نام هؤلاء وغفلوا لسقطت الدولة. فتصور العبء الملقىٰ علىٰ أهل العلم في الدولة الإسلامية.

المتن:

٣- مُتَابَعَةُ عَلَاقَةِ الدَّوْلَةِ بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، مِنْ حَيْثُ حَالَةُ الْحَرْبِ، أَوِ الْعَهْدِ، أَوِ الذِّمَّةِ.

وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُتَابِعُ فِيهَا أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ انْتِظَامَ الْأُمُورِ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْتِزَامَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ.

الشرح:

هذا في الدولة الإسلامية؛ أما في الدولة الطاغوتية التي تدعي الإسلام فقد كانوا يكتبون المرسوم، وهيئة العلماء توقع عليه فقط، لا تدرسه، يوقع المرسوم، نريد علاقة مع أمريكا، مع فرنسا، نريد أن نعطيهم كذا ويعطونا كذا، وغير ذلك، ولا يستشيرون أهل الحل والعقد، ولا هيئة العلماء، ويكلمونهم في الهواتف وغير ذلك، ويوقعونهم علىٰ المعروض. هل هذه دولة شرعية؟ أنك تحكمها بالحديد والنار؟! نسأل الـله العافية.

المتن:

وَلَيْسَ لِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ أَنْ يَتَدَخَّلُوا فِي أَعْمَالِ الْخَلِيفَةِ؛ إِنَّمَا عَلَيْهِمُ الْمُرَاقَبَةُ وَالْمُتَابَعَةُ وَالتَّأَكُّدُ مِنْ جَرَيَانِ الْأُمُورِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ.

الشرح:

هذه وظيفتهم مع الخليفة، يراقبون أعماله بالمنظور الشرعي، هل يسير علىٰ الطريق الشرعي أم يحيد؟ إذا حاد يوقفونه.

المتن:

وَلَهُمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا فِي عَمَلِهِمْ بِمَنْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَالْفُقَهَاءِ، وَالْقُضَاةِ، وَأَصْحَابِ الِاخْتِصَاصَاتِ فِي الْمَجَالَاتِ التِّقَنِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

الشرح:

لأنها هي كما قلنا: ليست دولة منعزلة عن العالم، بل هي جزء من العالم، ولا بد أن تساير التقدم العلمي في كل شيء؛ لذلك نحن نريد أن نقف علىٰ كل شيء متقدم في العلم، ونشتريه، ونتدرب عليه؛ حتىٰ يكون لنا السبق، ولا نكون في ذيل الأمم. وهذا من باب الأخذ بأسباب القوة.

المتن:

وَلَيْسَ لِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وِلَايَةٌ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ، بَلْ هُوَ لَهُ الْوِلَايَةُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ فِيمَنْ يُبَايِعُهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

الشرح:

يعني مبايعة الخليفة علىٰ السمع والطاعة هي من أولويات أهل الحل والعقد، بل هم في المقدمة، ولا يباح لهم أن يخرجوا عليه لكونُهم يراقبونه، ولا أن يلزموه برأي يخالف الشريعة، لأنهم ليسوا حكامًا عليه، ولكنهم يراقبون أفعاله حتىٰ تكون علىٰ وفق الشرع.

المتن:

وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوا الْخَلِيفَةَ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ؛ مِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلُ بَاقِي الرَّعِيَّةِ، إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِعَدَمِ الْمُتَابَعَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ، فَذَلِكَ لَا يَجُوزُ. لِأَنَّهُمْ يُؤَدُّونَ وَاجِبًا شَرْعِيًّا.

وَالْخَلِيفَةُ لَا يَمْلِكُ عَزْلَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ؛ مَا دَامَ قَائِمًا بِوَاجِبَاتِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِهَا.

الشرح:

لأن طاعة ولىٰ الأمر واجبة في غير معصية الله تعالىٰ وليس لهم مخالفته في المعروف، وأهل الحل والعقد هم أولىٰ الناس بالعمل بهذا الحق لمعرفتهم وعلمهم بحق ولىٰ الأمر المسلم المطبق لشرع الله

وليس لولىٰ الأمر أن يعزل أحد من أهل الحل والعقد، بل هم الذين يعزلونه إذا طرأ عليه ما يوجب عزله وخلعه، كما سيأتي.

المتن:

- طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِاخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ

وَبَعْدَ أَنْ قَدَّمَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ تَصَوُّرًا فِي كَيْفِيَّةِ تَحْدِيدِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، نُقَدِّمُ طَرِيقَةً عَمَلِيَّةً لِقِيَامِ مُؤَسَّسَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِاخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ.

اَلْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: تَقُومُ جَمَاعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْهَيْئَةِ وَهُمُ: الْعُلَمَاءُ، وَالْقُضَاةُ، وَالدُّعَاةُ؛ بِتَصَفُّحِ أَحْوَالِ النَّاسِ، وَاخْتِيَارِ عَدَدٍ -وَلْيَكُنْ اثْنَي عَشَرَ رَجُلًا- مِمَّنْ يَصْلُحُونَ لِلْخِلَافَةِ؛ مِمَّنْ تَتَوَافَرْ فِيهِمُ الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبَةُ.

الشرح:

أول مرحلة: يختار أهل الحل والعقد بمعرفتهم بالدولة وبرجال الدولة عشرة، اثني عشر رجلًا، ممن يصلحون لهذا المنصب، ثم يفرزونهم، ويفاضلون بينهم؛ حتىٰ يتفقوا علىٰ واحد منهم.

المتن:

اَلْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: يُعْقَدُ اجْتِمَاعٌ مُوَسَّعٌ لِمُؤَسَّسَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْمُرَشَّحُونَ، مَعَ بَيَانِ مُسَوِّغَاتِ تَرْشِيحِ كُلِّ وَاحِدٍ وَمُؤَهِّلَاتِهِ الَّتِي أَهَّلَتْهُ، وَفْقَ نِظَامٍ شَرْعِيٍّ مُحَدَّدٍ مِنْ قِبَلِ الْمُؤَسَّسَةِ.

الشرح:

إذا كان منصب الإمامة سيخلو؛ لمرض الإمام، أو لطروء فسق وفجور عليه، فنريد أن نخلعه، فلا بد أن يكون عندنا بديل، يختار أهل الحل والعقد من يصلح لهذا المنصب، عشرة أو اثني عشر، ثم يعقدون مجلسًا لهيئة البيعة أو الحل والعقد، يتدارسون فيه هذه الشخصيات، بالتحليل والتدقيق والتفصيل؛ لمعرفة من يصلح.

فأول خطوة هي اختيار من يصلح من وجهة نظر الجميع، ثم بعد ذلك التحليل والتفصيل.

سائل: هل يجوز أن يرشحوا للإمام واحدًا من مجموعة أهل الحل والعقد؟

الشرح: يجوز، ولكن الأصل أنهم يبتعدون عن مثل هذا، لأنهم باختيارهم هذا سيدخل فيهم الطمع في الرئاسة، فيكون لهم خلفية اختيارية مسبقة، لذلك هم يبعدوا عن هذه المسألة، كما فعل عبد الرحمن بن عوف قال: أنا خارج هذه المسألة[1]، وإنما تنازل لأن عمر وضع الخلافة في ستة هو واحد منهم، وقال: لا تخرج منكم.

المتن:

---

(١) «البداية والنهاية»: (١٠/ ٢١٠).

اَلْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: تَتِمُّ الْمُدَاوَلَاتُ وَالْمُشَاوَرَاتُ لِمُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي جَوٍّ مِنَ السِّرِّيَّةِ؛ لِاخْتِيَارِ أَحَدِ هَؤُلَاءِ الْمُرَشَّحِينَ، وَيُبَايِعُهُ الْجَمِيعُ بِالْخِلَافَةِ الْبَيْعَةَ الخَاصَّةَ.

ثُمَّ يُعْلَنُ لِلنَّاسِ لِلْبَيْعَةِ الْعَامَّةِ.

الشرح:

إذن المرحلة الثالثة: بعد ثلاثة أيام من المداولات والمشاورات، يتفقون علىٰ شخص واحد، وهذا في سرية تامة، لا يعلم به أحد، لا الزوجة ولا الأولاد، تقول الزوجة: أين أنتم؟ ماذا تفعلون؟ لم نرك منذ ثلاثة أيام، أنت تزوجت؟ فيريد أن يطمئنها، فيقول: نحن عندنا مشاغل كبرىٰ. تقول: ما هي المشاغل الكبرىٰ؟ وتلح عليه حتىٰ يقول لها.

فينبغي أن يكون الاختيار في سرية تامة، فيختارون ويبايعونه سرًّا، ثم بعد ذلك يتحينون إعلانه للناس، بعد أن يعزلوا الخليفة القائم، أو يكون المنصب فارغا، فيقولون للناس: إننا اخترنا الأصلح للإمامة، والأصلح للملك والخلافة، وفيه تتوافر الشروط الشرعية المرعية، ونحن بايعناه، وعلىٰ الشعب أن يبايع، فيعلنونه للبيعة العامة، ثم بعد ذلك يفتحوا باب المشاورات والآراء المخالفة والاعتراضات، هذه تكون للأفراد الذين لهم وجاهة في الدولة؛ كرؤساء القبائل، ورؤساء الولايات، والأمراء، فينظرون في اعتراضاته علىٰ

الاختيار والبيعة، مع أنهم هم قرروا، وانتهت البيعة، لكنهم يريدون أن يعرفوا هل شيء خفي عليهم؟ أم هو قال ذلك طمعًا في ولاية آخر. فيسمعون ويفتحون باب الشكاوىٰ، وبعد ذلك يلزمون بشوكتهم من خالف، وإن اضطروا علىٰ قتله قتل، إن كان هذا المخالف له شوكة، وله جماعة، وقبيلة، وسيسبب ضررا في الأمة، عملا بحديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَن أتاكُمْ وأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ علَىٰ رَجُلٍ واحِدٍ، يُرِيدُ أنْ يَشُقَّ عَصاكُمْ، أوْ يُفَرِّقَ جَماعَتَكُمْ، فاقْتُلُوهُ».

فهذه المرحلة الثالثة.

المتن:

وَإِذَا حَدَثَ خِلَافٌ بَيْنَ الْأَعْضَاءِ وَلَمْ يَتَّفِقُوا عَلَىٰ شَخْصٍ وَاحِدٍ؛ كَانَ التَّرْجِيحُ فِي ذَلِكَ بِالْأَكْثَرِيَّةِ؛ إِذْ لَا مُرَجِّحَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ غَيْرُ ذَلِكَ، وَهُوَ أَمْرٌ مُعْتَدٌّ بِهِ شَرْعًا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُرَجِّحٌ غَيْرُهُ.

الشرح:

إما الأكثرية، وإما القرعة، لأنهم عدول كلهم، الذين اختاروهم، واجتمعت كلمتهم عليهم، يعني: كانوا عشرة، بعد ذلك خمسة، بعد ذلك ثلاثة، وانحصرت فيهم، واختلف أهل الحل والعقد فيهم، بعضهم يقول: فلان،

وبعضهم يقول: فلان، أو في اثنين، واختار نصفهم واحدًا، واختار النصف الباقي الآخر، فحاولوا الترجيح، ولم يترجح، إذن يقترعوا.

المتن:

وَفِيمَا رُوِيَ مِنْ تَفَاصِيلِ تَعْيِينِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلسِّتَّةِ، وَمَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَمَّتِ الْبَيْعَةُ لِعُثْمَانَ؛ ثَرْوَةٌ ضَخْمَةٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ، يُمْكِنُ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا فِي إِيجَادِ تَفْصِيلَاتٍ كَثِيرَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِهَذَا الشَّأْنِ.

الشرح:

لا بد ألا يأتي هذا الكلام من عقولنا، بل يأتي من شرعنا، والوقائع التي حدثت بعد ذلك، ومن يقف علىٰ تفاصيل بيعة سيدنا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكيف كان مجلس الحل والعقد (مجلس الشورىٰ) يقوم بهذه المفاوضات والمداولات، والجلسات السرية والمباحثات، والسفر وغير ذلك، يعلم أنه أمر ضخم جدًّا، فلا بد أن تطلع عليه؛ حتىٰ تعرف أن الأمر ليس هيّنًا، أنت تختار رأس الأمة، فإما أن يكون اختيارك فيه رفعة الأمة، أو يكون فيه انهيارها، فالأمر ليس بالهين.

المتن:

وَهِيَ تُمَثِّلُ تَفْصِيلَاتٍ مُفِيدَةً قَابِلَةً لِلتَّحْقِيقِ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ، إِضَافَةً إِلَىٰ أَنَّهَا مِنْ دَاخِلِ الْمَنْظُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

قال الماوَرْدِيُّ: «فَإِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ لِلِاخْتِيَارِ تَصَفَّحُوا أَحْوَالَ أَهْلِ الْإِمَامَةِ الْمَوْجُودَةِ فِيهِمْ [شُرُوطُهَا]، فَقَدَّمُوا لِلْبَيْعَةِ مِنْهُمْ أَكْثَرَهُمْ فَضْلًا وَأَكْمَلَهُمْ شُرُوطًا، وَمَنْ يُسْرِعُ النَّاسُ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَنْ بَيْعَتِهِ، فَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ مَنْ أَدَّاهُمُ الِاجْتِهَادُ إِلَىٰ اخْتِيَارِهِ عَرَضُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ أَجَابَ إِلَيْهَا بَايَعُوهُ عَلَيْهَا، وَانْعَقَدَتْ بِبَيْعَتِهِمْ لَهُ الْإِمَامَةُ؛ فَلَزِمَ كَافَّةَ الْأُمَّةِ الدُّخُولُ فِي بَيْعَتِهِ وَالِانْقِيَادُ لِطَاعَتِهِ» (١).

الشرح:

بعد أن ذكرنا الطريقة الإسلامية، لا بد أن نذكر الطريقة المخالفة للإسلام، والتي يظن بعض الناس في واقعنا المعاصر أن الانتخابات هي طريق صحيح لاختيار الحاكم المسلم، الانتخابات علىٰ الطريقة المعاصرة ليست من الإسلام في شيء، بل تناقض الإسلام، وتناقض منهج الإسلام، بل تسوي بين العالم والجاهل، بل تسوي بين صوت الكافر والمسلم، وهذا كله فساد؛ لأن آليات الاختيار منعدمة في من يختارون، سواء أكانوا يختارون الحاكم، أم يختارون النواب الذين يختارون الحاكم، فالأصل فيهم جميعا الجهل بالدين، وإن كان بعضهم متخصصًا في بعض العلوم التجريبية، فهذا لا يعطيه الحق ولا الأولوية في اختيار خليفة مسلم، أو حاكم مسلم، علىٰ وفق الشريعة الإسلامية،

(١) «الأحكام السلطانية والولايات الدينية»، بتحقيق: أحمد مبارك البغدادي: (٧-٨).

لأن أهل الحل والعقد لهم صفات مخصوصة، كما سبق أن بينا، ولهم وظائف مخصوصة، وإمكانيات مخصوصة؛ تؤهلهم إلىٰ الحكم علىٰ الأشخاص واختيارهم بالطريقة الموافقة للشروط الشرعية، وهذا لا تجده لا في الانتخابات، ولا تجده في اختيار النواب. هذه مسألة.

المسألة الأخرىٰ: أن النائب الذي يختار، لا يعرف من الإسلام شيئًا، لذلك تجد هذا النائب إما يصلي، أو يصوم، أو يحج، أو عنده من أعمال البر ما يفتخر أنها طاعات، ثم تجده في هذا المجلس يصوت أو يشرع تشريعًا يخالف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويظن أن هذا قربة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يظن أن هذا ينفع المسلمين، لماذا؟ لأنه يجهل بحقيقة الدين، يجهل بحقيقة لا إله إلا الله، يجهل بحقيقة الإسلام، يجهل بأن الله هو المشرع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ليس هناك مشرع سوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو لا يفهم هذا، لا يفهم أنه مشرع مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو لا يفهم أنه مشرع ضد شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لماذا؟ لأن الأصل الذي بنيت عليه هذه المنظومة أصل فاسد، أصل كفري، أصل شركي، بعيد عن الإسلام.

طيب ما مهمة الدعاة؟ ما مهمة أهل العلم؟ ما مهمة طلبة العلم؟

أن يفهموا حقيقة هذا الدين، وحقيقة اختيار الإمام، وبناء الدولة، ثم يفهموها الناس، ويشرحوها للناس، بدل أن تحكم علىٰ الناس أنهم كفار، أو

نواب الشعب كفار، وما استفدنا شيئا، بعض الناس يقول هذا من عشرات السنين، ولكنه لم يهتدِ إلىٰ أن يبين للناس العوام (الحاضنة الشعبية)، لم يبين لها حقيقة هذا الدين، لكنه يكفرهم، يعزلهم، يعيب عليهم، يحذرهم من الانتخابات بكلام مجمل عام، كلام مجمل ليس فيه تفصيل، الناس يريدون أن يفهموا؛ فإذا فهموا يعملون.

فالمطلوب من طلبة العلم: أن يبينوا حقيقة الإسلام، وحقيقة طريقة الإسلام في مثل هذه الأمور، بالرحمة وبالحلم، وبالتفصيل الذي يفهمونه، وبخطاب يفهمونه، ولا يتعجلوا. الطواغيت يعملون منذ عشرات السنين، ويكررون كلما تأتي هذه المناسبة، ونحن في معزل عن هذا، ننكر فقط، ونكفر، ونبدع، وغير ذلك.

فنريد أن نصحح المفهوم، نفهم الناس طريقة حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الله هو المستحق لهذا الحكم، وأن الله هو المستحق لهذا التشريع، وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نبين لهم أن هذا مضاد لقول: لا إله إلا الله. وأن علماء التجهم والإرجاء لبَّسوا عليهم: بأنه مهما فعل الإنسان من أفعال كفرية، طالما أنه يقول: لا إله إلا الله، فهذا لا يضره.

نفهِّم الناس من كلام اللـه عَزَّوَجَلَّ، ومن كلام رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، نأتي بالآيات من القرآن، وأحاديث النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفعل الصحابة، في من كفروهم، وقتلوهم، وهم يقولون: لا إله إلا اللـه. لأنهم نقضوا لا إله إلا اللـه، لأن لا إله إلا اللـه ليست كلمة مجردة تقال، بل لها ضوابط وأصول وقواعد.

لو فهّمنا الناس هذا، وصبرنا عليهم سنوات، حتىٰ نبني قاعدة شعبية عريضة علىٰ هذه المفاهيم، يكبر عليها الصغير، فنحن نزرع، وإن شاء اللـه تبارك وتعالىٰ بعد سنوات نجني، لا أقول: سنة أو عشر، أنا أقول: عشر سنوات، خمس عشرة سنة. إذا كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جنىٰ بعد خمس عشرة سنة، في زمن كان فيه التوحيد، وهو المبلغ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فنحن في زمن الردة، والبهتان، والفتن، وغير ذلك؛ فنحتاج إلىٰ وقت أطول. فأقول: نصبر ونزرع، لكن نزرع بعلم، وتفصيل، ولا نتعجل.

والآن سنأتي علىٰ الطريقة المعاصرة ونزنها بميزان الشرع؛ هل توافق، أم تخالف؟

المتن:

اَلِانْتِخَابَاتُ لَيْسَتْ طَرِيقًا صَحِيحًا فِي اخْتِيَارِ الْحَاكِمِ

إِنَّ مِنْ صَلَاحِيَةِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ: أَنَّ لَهَا فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ حُكْمًا، وَفِي كُلِّ نَازِلَةٍ بَيَانًا، وَفِي قَوَاعِدِهَا وَأُصُولِهَا بَيَانٌ لِكُلِّ الْمُشْكِلَاتِ، وَحَلٌّ لِكُلِّ

الْمُعْضِلَاتِ، وَالنَّاسُ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ لِبَيَانِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ لِكُلِّ الْوَقَائِعِ وَالْمُسْتَجِدَّاتِ الْحَادِثَةِ.

وَمِنْ ضِمْنِ الْقَضَايَا الْفِقْهِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ: مَا يَتَعَلَّقُ بِالطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ فِي السِّيَاسَةِ وَالْحُكْمِ، وَمِنْ أَشْهَرِهَا: الِانْتِخَابَاتُ، فَهِيَ وَسِيلَةٌ عَصْرِيَّةٌ جَدِيدَةٌ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مُخْتَلِفِ الْوِلَايَاتِ، مِنْ رِئَاسَةٍ أَوْ بَرْلَمَانٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَدِ انْتَشَرَ تَطْبِيقُهَا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ انْتِشَارًا كَبِيرًا، فَطَبَّقَتْهُ جَمِيعُ الْأَنْظِمَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَجَرَىٰ الْعَمَلُ بِهَا فِي كَثِيرٍ مِن بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ مِنَ الْمُهِمِّ أَنْ تَتِمَّ دِرَاسَةُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَبَحْثُ نَوَازِلِهَا؛ لِيُتَوَصَّلَ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ فِيهَا وَفِي الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا.

إِنَّ أَهَمِّيَّةَ هَذَا الْمَوْضُوعِ تَتَجَلَّىٰ بِأَهَمِّيَّةِ مُتَعَلَّقِهَا وَهُوَ الْحُكْمُ وَالْوِلَايَةُ، وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ لِأَيِّ مُجْتَمَعٍ.

الشرح:

«الطريقة الديموقراطية»: لا بد أن نفهم ما معنىٰ «الديموقراطية»؟ لأن كثيرًا من الدعاة الآن، يروجون لهذه الديموقراطية علىٰ أنها مشروع إسلامي، وأن الإسلام لا يضاد الديموقراطية، والديموقراطية أصبحت هي سمة العصر، هكذا يروجون، ويقنعون الناس أن لا مخرج لهم مما هم فيه إلا بالديمقراطية.

كلمة الديموقراطية تتردد كثيرا؛ فيجب علينا أن نحلل هذه الكلمة، نحللها علىٰ وفق منظور الذين اخترعوها، ثم نحللها علىٰ وفق الشرع، هل يقبل هذا الذي هم يقولونه في الديموقراطية دينُ الله أم يعارضه؟

فالديمقراطية عندهم: هي أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وكيف يحكم؟ يقول: إن الشعب صاحب السلطة المطلقة -وسيأتي معنا هذا بالتفصيل-، هو صاحب السلطة المطلقة في اختيار من يحكمه، ولا فرق بين أهل الديانات والعقائد في ذلك.

فأول نقطة في هدم الديموقراطية عند هؤلاء الناس: أنها تنحي سلطة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أن يحكم الناس، هذا أول ناقض من نواقض الديموقراطية.

الناقض الثاني من نواقض الديموقراطية: أنها لا تُبنَىٰ علىٰ الدين، ولا علىٰ الاعتقادات، بل هي تسوي بين المسلم والكافر، وبين الطائع والعاصي. وهذا ناقض ثان من نواقض الديموقراطية.

الناقض الثالث: أن هذه الديموقراطية أتت إلينا من الغرب الكافر، وليست نابعة من دين الله، إنما دخلت بلاد الإسلام عن طريق الكفار.

هل الديموقراطية مطردة؟ لا ليست مطردة؛ لأن صنم الديموقراطية عندما يكون لصالح الكفار، يعملون به، ويروجون له، وإذا كان لصالح الإسلام، يأكلون هذا الصنم، ولا يعترفون به، والوقائع أثبتت هذا. أقرب مثال نراه: ما

حصل في الجزائر في بداية التسعينيات، عندما دخلت جبهة الإنقاذ في الانتخابات البرلمانية الرئاسية، وفازت برئاسة الجزائر، هم دخلوا وفق لعبتهم الديموقراطية، كان من مفترض أن يحترموا الديموقراطية التي وضعوها، وروجوها، وصدروها إلىٰ بلاد الإسلام، كان يجب أن يحترموها علىٰ أي حال، أنت تقول أن الديموقراطية حكم الشعب بالشعب، الشعب حر في اختيار من يحكمه، اتفقنا، أنت تقول: لا علاقة للأديان بالديمقراطية، اتفقنا، لماذا لما جاء الإسلام نقضت كلامك وأكلت هذا الصنم الذي أنت صنعته بنفسك؟!

إذن هذه الديموقراطية لا وجود لها في واقع الناس، ولكن هي فكرة ساذجة، يروجها السذج؛ حتىٰ يلغوا مسألة التشريع، ومسألة أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الحكم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ثم إذا تعارضت مصالحهم معها يغيرون القوانين. لذلك ليست هي مطرده، القوانين الديموقراطية هذه يغيرونها علىٰ حسب أهوائهم ومصالحهم، ليست ثابتة.

إذن هم الذين وضعوها، وهم الذين يغيرونها حسب ما تقتضي مصلحتهم، إذن هذه مصلحة خاصة لأهل السلطة وأهل السيادة الذين يتحكمون في الشعب، وهم بمثابة السادة، والشعب بمثابة العبيد، والعبد لا يقرر مصيره، هكذا تقول الديموقراطية، العبد لا يقرر مصيره.

إذن أنت هدمت الأصل الأول الذي قامت عليه الديموقراطية، وأنت تقول: الشعب يختار من يحكمه، وهو يحدد مصيره، وأنت في الحقيقة لا تدع هذا الشعب يقرر مصيره، بل تجعله كالأغنام وأنت تسوقهم، هذه هي حقيقة الديموقراطية.

ما حكم الديموقراطية التي وصفناها في الإسلام؟ هل الإسلام يصح أن يقال: إسلام ديمقراطي؟ السؤال هنا: بعض الدعاة كانوا يروجون: أن عندنا ديمقراطية إسلامية، وعندنا علمانية إسلامية، وليبرالية إسلامية وغير ذلك من الأمور، نقول: هذا كله تلبيس الحق بالباطل، الديموقراطية: دين يخالف الإسلام، دين يغاير ويخالف الإسلام من كل الوجوه؛ فليس في الديموقراطية إسلام قط، هي مناقضة للإسلام، وكذلك العلمانية، دين يخالف الإسلام، دين يغاير الإسلام.

فالديموقراطية: دين غير الإسلام، والعلمانية: دين غير الإسلام.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال لنا في القرآن: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}.

لذلك نكفر دعاة العلمانية، ودعاة الديموقراطية، والليبرالية، والحرية، وغير ذلك من المصطلحات التي يروجها المتأسلمون لمصلحة الغرب

الكافر؛ لأن هؤلاء دعوا إلىٰ دين غير دين الإسلام، وجاؤوا بدين يريدون أن يفرضوه علىٰ بلاد الإسلام، وهو غير الإسلام.

فالديموقراطية تلغي سلطة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتشريع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض، وتجعلها لأهل الجهل والهوىٰ والمصالح الخاصة، وللأسف تروج علىٰ الشعوب باسم الإسلام، ويحملها أناس ينتمون إلىٰ الإسلام، أو ينتمون إلىٰ الدعوة، أو ينتمون إلىٰ السلف، أو السلفية، أو غير ذلك من المصطلحات، لماذا؟ لأنك رضيت بدين الديمقراطية، ورضيت بمبادئها ونتائجها، حتىٰ هم طلبوا منهم هذا، طلبوا أن تؤمن بهذه اللعبة التي اخترعوها، فأنت دخلت في مستنقع الديموقراطية؛ فلا بد أن ترضىٰ بنتنها وبقذارتها؛ أما إذا صنت الإسلام عن مثل هذه الكفريات، فلا يستطيعون أن يفرضوا عليك مثل هذه الأمور، متىٰ فرضوا عليك؟ عندما أطعتهم في كفرياتهم، وقلت: هذا باب ندخله حتىٰ نحكم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، طيب، هل يسمحون لك أن تحكم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ لماذا أنت تتوهم هذا؟ لماذا بعض السياسيين أو الإسلاميين الذي عملوا بالسياسة يتوهمون ذلك؟ لجهلهم بحقيقة إدارة العالم، يتوهمون، لماذا يتوهمون؟ عندهم أن هذا الحاكم الذي علىٰ هذه البلاد الإسلامية- هو حاكم مسلم يختاره الناس؛ حتىٰ يقوم علىٰ مصالحهم، هذه الفكرة التي عند كثير من السياسيين، وهذا غيبة وعي، أنا أسميه غيبة وعي؛ لأن الحقيقة التي يعرفها أهل العلم، وأهل الاختصاص، وأهل البصيرة،

في مثل هذه الأمور- أن هؤلاء الحكام علىٰ الدول العربية والإسلامية بمثابة موظفين عند الدولة الرئيسة، سواء أكانت الغرب، أم أمريكا، أم روسيا، أم ألمانيا، أم غير ذلك، هؤلاء الحكام يختارونهم بعناية، من الذي يختارهم؟ الشعب؟ لا، الدول الكبرىٰ هي تختار من يحكم هذه البلاد، ومن يمثلها، ومن يقوم علىٰ مصالحها.

فالحاكم يعلم هذا جيدا، أنه جاء بموافقة هذه الدول الكبرىٰ، ثم هو ملتزم بالطريق وبالخريطة التي رسموها له، لا يستطيع أن يخرج عنها.

طيب وما هذه التصريحات التي أحيانا يخرج بها، تصريحات عنترية، نقول: هذا كله مما اتفقوا عليه؛ حتىٰ يجمل صورته أمام الشعب، فإذن هذا الحاكم لا يستطيع أن يقرر أبدًا من عنده، بل هو له خريطة ملتزم بها، وإذا أراد أن يخرج غيروه، إما أن يؤلبوا عليه بالانتخابات، أو بالانقلابات العسكرية، أو بأي شيء آخر، ولا يبقىٰ إلا من يريدون.

وهؤلاء الحكام هم -كما قلنا- موظفون في الولايات، هذا الحاكم له كرت، أو له ورقة، وله خريطة، إذا انتهت الورقة والمهمة، تُغَير هذه الورقة بأخرىٰ، ثم بعد ذلك يروجون أسبابًا في الإعلام، وهم يملكون الآلة الإعلامية، يروجون أسبابًا في الإعلام: لماذا هذا انقلب عليه؟ ولماذا تنحىٰ؟ ولماذا قتل؟ كل هذه الأمور معلومة.

إذن الحاكم الذي جاء بطريق الكفار هل يستطيع أن يحكم بالإسلام؟ هذه قضية مهمة جدًا، الحاكم الذي جاء عن طريق الكفار، والكفار يكرهون الإسلام، ويصرحون في بلادهم أن العدو الأكبر لهم هو الإسلام، وهو الجهاد في سبيل الله، إذن هم يريدون إسلامًا علىٰ هواهم، فالإسلام الحقيقي ليس له مكان في هذه الدول، والحاكم الذي يحاول أن يفعل شيئًا من الإسلام يفعل بحدود ما هو مسموح له به فقط، ولا يزيد، وإن تاب وزاد، زال.

عندما دخل الإخوان في الانتخابات، حددوا لهم عددًا معينًا لا يتجاوزونه، وهو أقل من ثلث المجلس، لماذا؟ لأن القانون عندهم أنه إذا حصل الأعضاء علىٰ أكثر من ثلث المجلس، يستطيعون أن ينصبوا حكومة، فهم دخلوا بشروطهم، والإخوان كانوا يعرفون الحدود والضابط لهم، ولذلك دخلوا، دخلوا لتجميل الوجه الديمقراطي القبيح، حتىٰ يقولوا: عندنا ديمقراطية، وعندنا وعندنا.

لما كان هؤلاء النواب أكثر من ثمانين نائبًا، اعترضوا علىٰ بعض الأمور الشكلية التي لا تمثل أصل الدين؛ اعتقلوا منهم أعدادًا، مع أنهم نواب، فإذن النائب الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه من الاعتقال، أو من الطاغوت، مع أن له حصانة، كيف يحمي الشعب؟

إذن بمثل هذه الأمور، نفهم أن لعبة الديموقراطية أو العلمانية يريدون بها دينًا غير دين الإسلام يفرضونه علىٰ بلاد المسلمين، فلا بد أن نُفهِّم الناس حقيقة هذه الديموقراطية، وموقفها من الإسلام.

المتن:

ثُمَّ إِنَّ مَوْضُوعَ الِانْتِخَابَاتِ مِمَّا يُهِمُّ عَامَّةَ النَّاسِ؛ حَيْثُ يُشَارِكُونَ فِيهَا جَمِيعًا، وَتَظْهَرُ آثَارُهَا عَلَىٰ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، كَمَا أَنَّ انْتِقَالَ طَرِيقَةِ الِانْتِخَابَاتِ مِنَ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ يَسْتَدْعِي دِرَاسَةً عَمِيقَةً وَدَقِيقَةً لِهَا؛ لِمَعْرِفَةِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ فِيهَا.

فَهَذَا الْمَوْضُوعُ مِنَ الْمَسَائِلِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَىٰ دِرَاسَةٍ تَأْصِيلِيَّةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ تَتَنَاوَلُ الِانْتِخَابَاتِ اسْتِقْلَالًا؛ إِذْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الدِّرَاسَاتِ حَوْلَهَا إِنَّمَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا تَبَعًا لِبَحْثِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ.

وَالْمُرَادُ بِالِانْتِخَابَاتِ فِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ: اشْتِرَاكُ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الْبَالِغِينَ فِي الِاخْتِيَارِ.

الشرح:

هذا هو الأصل، أي شخص بالغ أيًّا كان جنسه، عقله، علمه، وأيًّا كانت عقيدته- يستطيع أن يشارك في الاختيار.

المتن:

وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ ذَلِكَ يَرَوْنَهُ أَصْدَقَ أُسْلُوبٍ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ رَأْيِ الْأُمَّةِ؛ وَبِالتَّالِي فَهُوَ أَفْضَلُ طَرِيقٍ لِتَمْثِيلِ الْأُمَّةِ.

وَالِانْتِخَابَاتُ -فِي حَقِيقَتِهَا- لَيْسَتْ مُجَرَّدَ آلِيَّةٍ لِلِاخْتِيَارِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ تَنْطَلِقُ مِنْ مَبْدَأٍ قَائِمٍ عَلَىٰ أَنَّ الشُّعُوبَ هِيَ سَيِّدَةُ نَفْسِهَا، وَأَنَّهُ لَا سُلْطَانَ عَلَيْهَا مِنْ خَارِجِهَا، وَانْطِلَاقًا مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي الِاخْتِيَارِ طَوَائِفُ الْمُجْتَمَعِ كُلُّهَا؛ فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلُّ مَنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَقَبُ (مُوَاطِنٍ).

الشرح:

هذه الكلمة (مواطن): هي صنم من أصنام العصر المعبودة في زماننا، لا بد لهذا الصنم أن يهدم؛ لأنهم يقدمون هذا المصطلح علىٰ الإسلام، وعلىٰ الدين، وعلىٰ العقيدة، وعلىٰ التوحيد، (المواطن) يعني: هو الذي ينتمي إلىٰ هذه البلد، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، ويُسَوّىٰ بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا مناط كفر. فهذه نواقض لا بد أن نعرفها ونضبطها.

المتن:

سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَمْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا أَوْ وَثَنِيًّا.

هذا وثن، وهذا الوثن لا بد أن نبينه للناس، لا نكتفي دائما بالحكم الشرعي لأنفسنا، من أسس العلم والانتفاع به في الدنيا والآخرة: نشره بين الناس، إذا

مَنَّ اللـه عليك بمسألة وفقهتها فقهًا جيدا، عليك أن تزكي هذه المسألة، وتبلغها للناس، هذا هو العلم.

أما أن تتعلم لنفسك، والناس بحاجة، بل بأمس الحاجة إلىٰ معرفة هذه المفاهيم، فهذه أنا أعتبرها خيانة، خيانة للعلم، وبخل به، واللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا بتزكية العلم، لا بالبخل به.

المتن:

لِأَنَّ لَهُ مِنَ الْحَقِّ فِي السِّيَادَةِ مِثْلَ مَا لِغَيْرِهِ، كَمَا يَدْخُلُ فِي الِاخْتِيَارِ النِّسَاءُ؛ لِلسَّبَبِ نَفْسِهِ أَيْضًا.

وَمِنَ الْأُمُورِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا فِي فِقْهِ الشَّرِيعَةِ أَنَّ غَيْرَ الْمُسْلِمِ لَا يَتَدَخَّلُ فِي الِاخْتِيَارِ، كَمَا أَنَّ النِّسَاءَ لَا مَدْخَلَ لَهُنَّ فِي الِاخْتِيَارِ أَيْضًا.

الشرح:

هذه المسألة مترتبة علىٰ الأصل، يعني: لا تفهم من هذا الكلام أن مشاركة النساء أو وغير المسلمين هي مناط الكفر، نقول: لا، مناط الكفر التسوية بين الكافر والمسلم، هذه فروع متفرعة عنه، فلا تترك الأصل وتتمسك بالفرع، لا تقل: كيف تخرج النساء للتصويت؟ كيف يصوت الصبيان والشباب والجهلة والعوام؟ هذا كلام لا يعقل، ولا يصدر من عاقل أصلًا، لا يجوز لك أن تقوله، هذا يدل علىٰ أن عندك غيبة وعي وجهل بالحقيقة، قل: الأصل الذي بنيت

عليه هذه العملية، وهي عملية الاختيار: عملية كفرية مناقضة للإسلام، وهي من باب المواطنة، من الذي وضع القوانين لتسوية المواطن، وتعريف المواطن؟ هؤلاء. فلا تتركوا الأصل، ولكن حرر الأصل أولًا.

المتن:

وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذَا الْأُسْلُوبِ أَمْرَانِ:

أَوَّلُهُمَا: جَوَازُ أَنْ يُرَشِّحَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ لِتَوَلِّي هَذَا الْمَنْصِبِ؛ أَيْ: يَسْأَلُ أَوْ يَطْلُبُ هَذَا الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ.

وَثَانِيهِمَا: إِبَاحَةُ الدِّعَايَةِ لِنَفْسِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهَا بِاسْتِحْقَاقِهَا لِهَذَا الْمَنْصِبِ وَقُدْرَتِهَا عَلَىٰ الْقِيَامِ بِأَعْبَائِهِ.

الشرح:

أولا: القانون الكفري أو الدستور الكفري يبيح ويجيز لأي مواطن أن يتقدم لهذا المنصب.

ثانيا: يبيح أن يطلب هذا المنصب لنفسه.

ثالثًا: يبيح له أن يمدح نفسه، ويعلن عن نفسه وعن خصائصه.

هذه الثلاث كلها مخالفة للإسلام؛ لذلك لما جاء المرجئة المعاصرون وقالوا: لو حكمنا يهودي، أو نصراني، سمعنا له وأطعنا، هكذا كانوا يخرجون ويقولون في القنوات، وهم بلحىٰ، ويتكلمون بقال الله، وقال الرسول،

ولكنهم عبيد لولي الأمر، هؤلاء عُباد أولي الأمر، قالوا: لو تأمر علينا، أو الشعب اختار يهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو مجوسيًّا، أو ملحدًا، سمعنا له وأطعنا، لماذا؟ لأنه ولي أمر.

إذا كان هذا يدخل علىٰ بعض من ينتسب إلىٰ العلم؟ فما بالك بالعوام؟ فهذه طامة كبيرة.

المتن:

وَكُلُّهَا أُمُورٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا بِمُقْتَضَىٰ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَإِذَا أَخْرَجْنَا مِنَ الِاخْتِيَارِ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخْرَجْنَا كَذَلِكَ النِّسَاءَ، وَلَمْ نَسْمَحْ أَيْضًا بِالتَّرْشِيحِ وَالدِّعَايَةِ.

فَإِنَّ طَرِيقَةَ الِانْتِخَابَاتِ تَظَلُّ مَعَ ذَلِكَ غَيْرَ مُحَقِّقَةٍ لِدَورِ الْأُمَّةِ فِي الِاخْتِيَارِ؛ لِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ.

الشرح:

يعني: حتىٰ لو قلنا: إن هذا لا يكون للنساء، ولا يكون لغير المسلمين، ولا يدعو لنفسه، ولا يروج لها، مع كل هذه يبقىٰ الأصل.

لذلك أقول لك: لا تهتم بالفرع؛ لأن الفرع ربما يُنقض، يقول: نذهب بالنساء، لا انتخاب للنساء، نذهب بغير المسلمين، لا انتخاب لغير المسلمين، لا تجوز الدعاية، لا تعمل دعاية لنفسك، هل معنىٰ هذا أنها أصبحت جائزة؟

لا لأننا أَصَّلْنا وقلنا: إن أصل المسألة يخالف الإسلام، ما ترتب عليها هو تفعيل لهذا الأصل، فهل لو أنت نفيت الفروع المترتبة علىٰ الأصل تكون العملية صحيحة؟

إذن هو يحصرك في المخالفات، ويضخمها لك، ويجعل أبواق الجهمية والمرجئة يتكلمون: كيف تسوون بين الرجل والمرأة؟ كيف تسوون بين المسلم والكافر؟ ويضخمون هذا الموضوع، فإذا ضغطوا عليه بشدة، قالوا: نحن استجبنا للإسلاميين؛ لأننا نحب الإسلام، وإن شاء الله نمنع النساء، ونمنع غير المسلمين، ونمنع الدعاية؛ فيهدأ الناس، هذا من التلبيس، هذا من التخدير، تعرفون الحقنة المخدرة، التي تُخدر الشعب؟ هم هكذا يفعلون.

فيضخم لك الأمر الذي هو ليس أصلًا؛ حتىٰ تركز عليه أنت، وتقول: هذا كل هدفنا، ما هو هدفكم؟ ما هو طلبكم أيها الإسلاميون؟ ألّا يُسوَّىٰ بين المسلم والكافر؟ تركوا الديموقراطية، الديموقراطية أصبحت سائغة، هم فرضوا عليهم الديموقراطية؛ لكن شغلوهم بفروع منبثقة من الديموقراطية، وجعلوها لهم أصلًا، وجعلوها لهم مطلبًا، يعني: أقصىٰ ما نطلب: أنكم لا تسوون بين المسلم والكافر، ولا تساوون بين الرجل والمرأة.

- طيب وماذا بعد ذلك؟

- الإسلام يحرم أن يطلب الإمارة لنفسه، ويدعو لنفسه.

- طيب وماذا تريدون؟

- نريد أن نكف الدعاية والإعلانات.

- الإسلام يأمر بهذا؟

- نعم.

- نحن معكم.

انظر إلىٰ ماذا استدرجوهم، ثم بعد ذلك أوحلوهم في هذا الوحل، من باب الفروع، طيب والأصل؟ هم أصّلوه في أنفسهم، ليس لهم مخرج ليرفضوا هذه الديموقراطية.

هكذا تكون اللعبة، يعني: أنت تملك كتابا، وأنا أخذته منك، أنت أقصىٰ ما تتمنىٰ أن أسمح لك بهذا الكتاب، يعني لا أجيز لك أن تطلب بحقك، ولو تفضلت عليك وأعطيتك فأنت متشكر لي، تقول: جزاك الله خيرا؛ لأنك مننت علي وأعطيتني هذا الكتاب الذي أنا أطالب به. هو أصلا ملكك! أنت أصلا نسيت أنه ملكك، أُخِذ منك وسُلِب! هكذا هم يفعلون.

المتن:

مِنْهَا: عُزُوفُ أَوْ غِيَابُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي ذَلِكَ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ، حَتَّىٰ يَصِلَ عَدَدُ الْمُشَارِكِينَ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ إِلَىٰ أَقَلَّ مِن نِّصْفِ الَّذِينَ يَحِقُّ لَهُمُ التَّعْبِيرُ عَنْ رَأْيِهِمْ حَسَبَ أَنْظِمَةِ الِانْتِخَابَاتِ.

الشرح:

يعني عزوف الناس عن المشاركة في هذه الانتخابات، لأنهم يعرفون أنها أصلًا ليس لها قيمة، ولعبة، وهم سيأتون بمن يريدون، فالناس أيست من هذا؛ لأنهم يعرفون أنه لا قيمة لأصواتهم، فأنتم تقولون أن الشعب هو الذي اختار، نحن ليس لنا اختيار، انظر عامة الشعب يعرفون هذا، ومع ذلك الإسلاميون يصرون علىٰ هذه اللعبة!

المتن:

وَمِنْهَا: وُجُودُ الْأَصْوَاتِ الْبَاطِلَةِ؛ نَتِيجَةَ الْوُقُوعِ فِي بَعْضِ مُخَالَفَةِ نِظَامِ الِانْتِخَابَاتِ.

وَمِنْهَا: تَوَزُّعُ أَصْوَاتِ النَّاخِبِينَ عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ مُرَشَّحٍ، حَتَّىٰ يَصِيرَ الْمُرَشَّحُ فَائِزًا فِي الِانْتِخَابَاتِ لِحُصُولِهِ عَلَىٰ الْأَغْلَبِيَّةِ، بَيْنَمَا هُوَ -فِي حَقِيقَةِ- الْأَمْرِ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا عَلَىٰ أَغْلَبِيَّةِ الْمُشَارِكِينَ فِي الِاخْتِيَارِ، وَهِيَ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ أَغْلَبِيَّةٌ نِسْبِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ أَغْلَبِيَّةً مُطْلَقَةً، أَيْ: يَحْصُلُ عَلَىٰ أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ الْأَصْوَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُرَشَّحِينَ الْآخَرِينَ، وَلَيْسَ الْحُصُولُ عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ الْأَصْوَاتِ مُجْتَمِعَةً.

الشرح:

يعني مثلًا: عندنا ألف شخص مستحق للتصويت، شارك منهم خمسمئة، المفروض أن توزع الخمسمئة علىٰ اثنين، هذا مئتان وخمسون، وهذا مئتان

وخمسون، حتىٰ يصل إلىٰ نصف المرشحين، لكنهم يرشحون أكثر من مرشح، خمسة، ستة، عشرة، فتتوزع أصوات الخمسمئة هؤلاء علىٰ المرشحين، ثم بعد ذلك الذي ينجح ينجح إما بعشرة أو بعشرين صوت، هكذا! هل هذه العشرة أصوات هي قيمة الشعب كله؟!

إذن أنت تبطل ما ادعيته أنت، من أن الشعب يحكم نفسه، أين الشعب؟ أين صوت الشعب؟ عندك مئة مليون، ينتخب منهم مليون فقط! والمليون هذا يوزع علىٰ عشرة مرشحين؟! وكل مرشح يأخذ مئة ألف، هذا لو رُشِّحَ في قريته لأخذ أكثر من هذه الأصوات.

فإذن هذه عملية باطلة، حتىٰ علىٰ نظامهم باطلة.

المتن:

وَمِنْهَا: -وَهُوَ الْأَهَمُّ- إِضَاعَةُ رَأْيِ الْفِئَةِ الْـمُمَيَّزَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، سَوَاءٌ كَانَ التَّمْيُّزُ عِلْمِيًّا أَوْ دِينِيًّا؛ فَرَأْيُ الْفِئَةِ الْمُمَيَّزَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ -وَفْقًا لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ- مُهْدَرٌ لَا قِيمَةَ لَهُ. وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ الْعُيُوبِ وَالْقَوَادِحِ الَّتِي تَقْدَحُ فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ؛ وَذَلِكَ إِذَا قَسَمْنَا الْمُجْتَمَعَ إِلَىٰ عِدَّةِ مُسْتَوَيَاتٍ مِنْ حَيْثُ النُّضْجُ وَالْمَقْدِرَةُ عَلَىٰ تَمْيِيزِ مَنْ يَصْلُحُ مِمَّنْ لَا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّنَا نَجْدُ أَنَّ الْمُسْتَوَىٰ الْأَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ هُمْ قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لِمَجْمُوعِ الشَّعْبِ.

الشرح:

يعني الذي عنده عقلية ليختار من المرشحين من هو أصلح وأقوىٰ، ويعرف إمكانياته ومميزاته، هؤلاء قلة قليلة جدا في الشعب، ومع ذلك أصواتهم مهدرة.

المتن:

وَأَنَّ الْكَثْرَةَ الْغَالِبَةَ مِنَ الشَّعْبِ لَمْ تَصِلْ إِلَىٰ هَذِهِ الْمُسْتَوَيَاتِ مِنَ النُّضْجِ وَالْوَعْيِ، عَلَىٰ اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ رَأْيَ هَذِهِ الْفِئَةِ ذَاتِ الْمُسْتَوَىٰ الْمُمَيَّزِ يَضِيعُ وَسْطَ تِلْكَ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ، وَلَا يَكُونُ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْأُمُورِ؛ إِذْ صَوْتُ الْعَالِمِ الْخَبِيرِ بِالْأُمُورِ يَسْتَوِي مَعَ صَوْتِ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَا يَمْلِكُ مِنَ الْمُؤَهِّلَاتِ أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهِ بَالِغًا عَاقِلًا. مِمَّا يُبَيِّنُ فَسَادَ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ رَأْيِ الْأُمَّةِ.

فَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي الِاخْتِيَارِ لَا تَصْلُحُ إِسْلَامِيًّا.

قَدْ يَرَىٰ بَعْضُ النَّاسِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ -بِفِعْلِ الدِّعَايَةِ الضَّخْمَةِ لِلنِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ- أَنَّنَا يُمْكِنُ أَن نَّأْخُذَ بِطَرِيقَةِ الِانْتِخَابِ فِي اخْتِيَارِ الصَّالِحِ لِلْإِمَامَةِ.

وَمُجْمَلُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَقُومُ عَلَىٰ:

١- أَنْ يَتَقَدَّمَ شَخْصٌ وَاحِدٌ أَوْ أَكْثَرُ، إِمَّا بِصِفَتِهِ الْفَرْدِيَّةِ وَإِمَّا عَنْ طَرِيقِ الْأَحْزَابِ -حَسَبَ الْأَنْظِمَةِ الْمَعْمُولِ بِهَا فِي كُلِّ بَلَدٍ-؛ طَالِبًا مِنَ النَّاسِ اخْتِيَارَهُ لِيَكُونَ رَئِيسًا لِلدَّوْلَةِ.

الشرح:

يعني: إما أن يرشح مواطن من عامة الشعب نفسه للرئاسة، بصفة فردية مستقلة، وإما أن ترشح الأحزاب واحدًا ينوب عنها، ليكون رئيسًا لهذه الدولة.

المتن:

٢- يَقُومُ الطَّالِبُ أَوِ الطَّالِبُونَ لِلرِّئَاسَةِ -عَنْ طَرِيقِهِمْ وَطَرِيقِ أَعْوَانِهِمْ- بِالدِّعَايَةِ وَإِظْهَارِ مَحَاسِنِهِمْ، وَإِبْرَازِ أَخْطَاءِ الْآخَرِينَ.

٣- بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنْ بِدَايَةِ التَّقَدُّمِ لِطَلَبِ الرِّئَاسَةِ، وَالدِّعَايَةِ لِذَلِكَ؛ يَتِمُّ الِاخْتِيَارُ مِنْ قِبَلِ الشَّعْبِ مِمَّنْ لَهُ حَقُّ الِاخْتِيَارِ، وَهُوَ كُلُّ مُوَاطِنٍ بَالِغٍ عَاقِلٍ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ دِيَانَتِهِ مُسْلِمًا كَافِرًا طَائِعًا فَاجِرًا مُلْحِدًا، الْمُهِمُّ يَكُونُ مُوَاطِنًا.

٤- يَفُوزُ بِرِئَاسَةِ الدَّوْلَةِ وَحُكْمِ الشَّعْبِ فَتْرَةً زَمَنِيَّةً مُحَدَّدَةً- مَنْ يَحْصُلُ عَلَىٰ أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ الْمُؤَيِّدِينَ؛ أَيْ: الْأَغْلَبِيَّةِ.

الشرح:

وهذا خطأ كذلك؛ لأن الحاكم المسلم يظل حاكمًا حتىٰ يموت، أو يطرأ عليه ما يوجب العزل، لكن ما لم يطرأ عليه موجب للعزل: لا عجز، ولا فسق، ولا فجور، فهو باقٍ في منصبه.

المتن:

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ قَدْ تَكُونُ فِي مَظْهَرِهَا الْخَارِجِيِّ طَرِيقَةً مُنَظَّمَةً، وَقَدْ يُخْدَعُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، لَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ شَرْعًا؛ لِأَنَّهَا لَا تُحَقِّقُ الشُّرُوطَ الَّتِي تَحَدَّثْنَا عَنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

أَوَّلًا: مُخَالَفَةُ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ لِلْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ:

فَقَدْ وَرَدَتِ النُّصُوصُ بِالْمَنْعِ مِنْ طَلَبِ الْإِمَارَةِ، وَلَوْ خَالَفَ الْمُسْلِمُ وَطَلَبَهَا؛ فَإِنَّ النُّصُوصَ قَدْ جَاءَتْ بِعَدَمِ مُوَافَقَتِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَالْمَنْعُ جَاءَ مِنْ جِهَتَيْنِ:

- مِنْ جِهَةِ طَلَبِهَا.
- وَمِن نَّاحِيَةِ الْمُوَافَقَةِ لِمَنْ طَلَبَهَا.

وَأَمَّا مُخَالَفَتُهَا فِي تَحْدِيدِ مَنْ إِلَيْهِمُ الِاخْتِيَارُ؛ فَهِيَ تُدْخِلُ فِي ذَلِكَ رَعَايَا الدَّوْلَةِ كُلَّهُمْ بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفَاسِقِينَ وَالْكُفَّارِ وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ وَهَذَا مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ (الْمُوَاطِنِينَ الْكُفَّارَ) لَا يَدْخُلُونَ فِي اخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ، وَكَذَلِكَ إِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَىٰ عَدَمِ دُخُولِ النِّسَاءِ فِي الِاخْتِيَارِ.

وَهَذَا التَّحْدِيدُ لِأَهْلِ الِاخْتِيَارِ فِي الطُّرُقِ الْمُعَاصِرَةِ نَاتِجٌ مِنْ طُغْيَانِ الْفِكْرِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ الْقَائِمِ عَلَىٰ أَنَّ السِّيَادَةَ لِلشَّعْبِ، وَأَنَّ الْقَانُونَ مَا هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ لِلْإِرَادَةِ الشَّعْبِيَّةِ.

الشرح:

العملية الديموقراطية يروجون لها علىٰ أنها تنفيذ لإرادة الشعب، طيب نحن الآن تدرجنا مع طريقة اختيار الحاكم في الطريقة الديموقراطية، فهل وجدنا اختيارًا للشعب فيها؟ لا، ليس للشعب اختيار فيها، هو فقط يسير مع القطعان، ثم بعد ذلك ينصبون عليه ما يرونه مناسبًا، والشعب وسيط لتنفيذ هذه المسألة، لكن ليس له دور؛ بدليل: أن الشعب لو لم يصوت في هذه الانتخابات، وصوت مثلًا عشرة، أو عشرون أو مئة، من مئة مليون؛ لقسموا هذه الأصوات علىٰ المتقدم، يقول: نحن عندنا مئة مليون، لكن لم يصوت في الانتخابات إلا مئة، وماذا نفعل؟! هذا هو حكم الشعب، إذن نقسم هذه الأصوات علىٰ المتقدمين، ثم بعد ذلك حتىٰ نصور للناس أننا أهل عدل، وأهل شفافية، ولا نخرج عن رأي الشعب، هذا رأي الشعب، طيب أين الشعب؟ لا يوجد شعب.

المتن:

وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا الْفِكْرِ يُصْبِحُ كُلُّ مُوَاطِنٍ فِي الدَّوْلَةِ (مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ) لَهُ نَصِيبٌ فِي السِّيَادَةِ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ حَقَّهُ فِي اخْتِيَارِ الْحَاكِمِ حَقٌّ أَصِيلٌ، وَهَذَا التَّصَوُّرُ الْعَلْمَانِيُّ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ: مُبَايِنٌ مُبَايَنَةً تَامَّةً لِدِينِ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

يعني: مفارق، ومغاير، ومخالف، لدين الإسلام، فقد تقدم أن الديمقراطية دين يخالف دين الإسلام من كل الوجوه، في الفكرة والتصور والتطبيق، في أصوله وفروعه، في التأصيل والتنزيل.

المتن:

حَيْثُ التَّشْرِيعُ فِيهِ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اُنْظُرْهَا فِي: [الْمُقَدِّمَةِ، وَالتَّنْبِيهَاتِ، وَالْحُكْمِ وَالتَّحَاكُمِ](١).

ثَانِيًا: اِشْتِمَالُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَلَىٰ الْمَفْسَدَةِ الَّتِي تَذْهَبُ بِالْغَايَةِ مِنْهَا.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَفَاسِدَ كَثِيرَةٍ؛ تُضَيِّعُ الْفَائِدَةَ الَّتِي تَطْلُبُ تَحْقِقَهَا.

الشرح

لأن التشريع حق لله وحده، وذكرنا الأدلة علىٰ هذا الأصل، وفصلناها فيما سبق، فلا داعي للتكرار هنا، وهي موجودة في كتاب «الحكم والتشريع لله وحده»، وكذلك لا تحقق الغاية الديمقراطية: من أن الشعب يختار من

(١) هذه كلها كتب للمؤلف، وهي منشورة علىٰ الشبكة العنكبوتية:
المقدمة: «مقدمة الرد علىٰ شبهات الخوارج والمرجئة ومقدمة في التوحيد».
التنبيهات: «التنبيهات المختصرة علىٰ المسائل المنتشرة».
الحكم والتحاكم: «الحكم والتحاكم وأحوال المتحاكمين».

يحكمه، ثم إن هذه الطريقة فيها مفاسد عظيمة جدًا، حتىٰ علىٰ قانون الديمقراطية، فلا الشعب يحكم، ولا الشعب يختار، ولا حتىٰ من أوهموه أنه اختاره من المرشحين يستطيع أن يحكم منفردًا عن الغرب الكافر الذىٰ نصبه!

المتن:

وَمِنْهَا:

١- إِمْكَانِيَّةُ تَزْوِيرِ الِانْتِخَابَاتِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ؛ نَظَرًا لِاتِّسَاعِ رُقْعَةِ الْأَرْضِ، وَكَثْرَةِ أَعْدَادِ النَّاسِ الَّذِينَ يَحِقُّ لَهُمُ الْمُشَارَكَةُ فِي ذَلِكَ، وَتَنَوُّعِ الْحَالَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ لِهَذِهِ الْأَعْدَادِ الْغَفِيرَةِ مِنْ أَقْصَىٰ دَرَجَاتِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ إِلَىٰ أَضْعَفِ الدَّرَجَاتِ.

٢- إِمْكَانِيَّةُ شِرَاءِ الذِّمَمِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ النَّاخِبِ وَبَيْنَ الطَّالِبِ لِلْمَنْصِبِ، حَيْثُ تُعقَدُ بَيْنَهُمَا صَفْقَةٌ بِمُقْتَضَاهَا يَمْنَحُ النَّاخِبُونَ مُوَافَقَتَهُمْ لَهُ، وَهُوَ يُعْطِيهِمْ عِنْدَ فَوْزِهِ بِالْمَنْصِبِ الِامْتِيَازَاتِ الَّتِي تَمَّ الِاتِّفَاقُ عَلَيْهَا.

الشرح:

يعني مثلا: نحن سننتخبك، ولكن ماذا تعطينا إذا فزت؟

- والله أنا أعطيكم هذه الحقيبة، حقيبة الصناعة، حقيبة وزارة الزراعة.

هكذا يوزعون.

- إذا أعطيناك أصواتنا، ماذا تعطينا أنت؟

إذن الولاء هنا ليس للدولة، ولا لمصلحة الدولة، ولا الشعب. يوزع بعضهم علىٰ بعض هذه المناصب الإدارية، التي ينبغي أنها توزع علىٰ الأكفأ، ولكن هنا يأتي الفساد؛ لأن العملية الانتخابية بنيت علىٰ باطل وفساد، فما يترتب عنها هو باطل وفساد.

المتن:

وَقَد تَكُونُ هَذِهِ الصَّفْقَةُ بَيْنَ الطَّالِبِ لِلْمَنْصِبِ وَبَيْنَ أَفْرَادِ النَّاخِبِينَ، كَمَا تَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَوَائِرَ انْتِخَابِيَّةٍ بِكَامِلِهَا.

الشرح:

يعني هذه كلها إما تأتي علىٰ الحزب، أو تأتي علىٰ الجماعة أو البلد، أو تأتي علىٰ الناخب ذات نفسه، يعني أنا أعطيك صوتي لكن ادفع لي مبلغ قدره كذا، فهم يشترون هذه الأصوات إما من الناخب، أو يوزعون حقائب الدولة علىٰ الأحزاب، وكلها مصالح لا دخل للشعب فيها.

المتن:

وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنَّ إِمْكَانِيَّاتِ الدَّوْلَةِ تُسَخَّرُ لِمَصَالِحِ الْأَفْرَادِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلَيْسَ لِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ، سَوَاءٌ كَانُوا طَالِبِينَ لِلْمَنْصِبِ أَوْ كَانُوا نَاخِبِينَ.

٣- وُجُودُ الدِّعَايَاتِ الضَّخْمَةِ الْكَثِيرَةِ، وَالَّتِي لَا تَخْرُجُ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ عَنْ زُخْرُفِ الْقَولِ الْبَاطِلِ الَّذِي يَقْلِبُ الْأُمُورَ رَأْسًا عَلَىٰ عَقِبٍ؛ فَيُصَوَّرُ الْحَقُّ

بَاطِلًا وَالْبَاطِلُ حَقًّا، فَلَا يَكُونُ الِاخْتِيَارُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ اخْتِيَارًا حَقِيقِيًّا، وَإِنَّمَا هُوَ اخْتِيَارٌ مُوَجَّهٌ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْآلَةِ الْإِعْلَامِيَّةِ لِطَالِبِي الْمَنَاصِبِ.

الشرح:

يعني: رجل مثلا يملك الآلة الإعلامية، والأموال، فيروج لنفسه في هذه القنوات، ويدفع أموالًا طائلة للقنوات؛ حتىٰ تروج إنجازاته، أو يطبع اللوائح والإعلانات بالملايين؛ حتىٰ يطغىٰ علىٰ الناس، أو يأتي بمندوبين ومعهم الأموال، ويوزعها علىٰ الناس، ويأخذ الهويات والبطاقات؛ حتىٰ يسجلها لاسمهم. هل هذا هو المقصود الشرعي، أو المقصود العرفي لمصلحة الناس؟ لا.

المتن:

٤- عُزُوفُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاخِبِينَ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي الِاخْتِيَارِ كَمَا تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْوَقَائِعُ الْكَثِيرَةُ حَتَّىٰ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يُقَالُ عَنْهَا إِنَّهَا مَهْدُ هَذَا النِّظَامِ-؛ مِمَّا يَجْعَلُ الِاخْتِيَارَ غَيْرَ مُعَبِّرٍ عَنْ حَقِيقَةِ رَأْيِ الْجَمَاعَةِ، بَلْ هُوَ يُعَبِّرُ عَنْ رَأْيِ الْمَجْمُوعَةِ النَّشِطَةِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَهِيَ الَّتِي لَهَا مَصْلَحَةٌ مُبَاشِرَةٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَوْ تُرِيدُ الْحُصُولَ عَلَىٰ مَصْلَحَةٍ مُبَاشِرَةٍ مِنْهُ.

٥- نَظَرًا لِلدَّوْرِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْآلَةُ الْإِعْلَانِيَّةُ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ مَا تُزَيِّنُهُ الدِّعَايَةُ مِنْ فَوْزِ أَشْخَاصٍ وَإِخْفَاقِ آخَرِينَ، فَإِنَّهُ تَكُونُ

نَتِيجَةً لِذَلِكَ تَكْلِفَةٌ مَالِيَّةٌ ضَخْمَةٌ تَفُوقُ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ الْقُدْرَةَ الْمَالِيَّةَ لِطَالِبِ الْمَنْصِبِ؛ مِمَّا يَدْفَعُهُ بَعْدَ الْحُصُولِ عَلَىٰ الْمَنْصِبِ إِلَىٰ تَعْوِيضِ ذَلِكَ بِكُلِّ طَرِيقٍ مُمْكِنٍ.

الشرح:

هو أنفق الملايين حتىٰ يصل إلىٰ ذلك المنصب، إذن أول خطوة سينفذها أن يحصل علىٰ الأموال التي أنفقها، يحصلها من ذلك المنصب، فإذن الشعب لم ينتفع، بل خسر خيرات بلاده لحساب هذا الفاسد الذي جاء.

المتن:

٦- كُلُّ طَالِبٍ لِلْمَنْصِبِ لَهُ فَرِيقٌ مُعَاوِنٌ يَعْمَلُ مَعَهُ لَيْلَ نَهَارَ، وَفِي حَالَةِ الْفَوْزِ فَإِنَّ طَالِبَ الْمَنْصِبِ يَعْمَلُ عَلَىٰ مُكَافَأَةِ هَذَا الْفَرِيقِ بِمَا تُتِيحُهُ لَهُ صَلَاحِيَّاتُهُ أَوْ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ التَّدَخُّلِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْأُمُورِ.

٧- عُزُوفُ كَثِيرٍ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْجَيِّدَةِ وَالْفَاضِلَةِ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ؛ لِمَا تَرَىٰ مِنَ الْفَسَادِ وَضَيَاعِ الْهَيْبَةِ وَالْمُرُوءَةِ فِي ذَلِكَ؛ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حِرْمَانُ الْأُمَّةِ مِنَ الْعَنَاصِرِ الَّتِي هِيَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا، بَيْنَمَا يَتَقَدَّمُ مَنْ لَيْسَ فِيهِمْ كَبِيرُ غَنَاءٍ.

وَالنِّظَامُ الْإِسْلَامِيُّ -بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ- مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ هَذِهِ الْمُخَالَفَاتِ وَالْعُيُوبِ، حَيْثُ لَا يُسْمَحُ فِيهِ لِلنَّاسِ بِطَلَبِ الْمَنَاصِبِ، وَإِنَّمَا يُرَشِّحُهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَهُمْ مِنْ أَفَاضِلِ النَّاسِ، وَمِنَ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْعِلْمِ

وَالصَّلَاحِ وَالْمَكَانَةِ الْأَدَبِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِذَا فَإِنَّهُ يَنْتَفِي فِي حَقِّهِمْ مَا لَا يَنْتَفِي فِي حَقِّ الْآخَرِينَ، وَكُلُّ مَا يُوجَدُ مِنْ خَطَأٍ فِي حَقِّهِم؛ فَهُوَ فِي غَيْرِهِمْ أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ، وَكُلُّ مَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ مِنْ خَيْرٍ؛ فَهُوَ فِيهِمْ أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ.

وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ مِنْ قُصُورٍ فِي ذَلِكَ؛ فَهُوَ مُنْغَمِرٌ فِي جَانِبِ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ الْمُتَحَقِّقَةِ مِنْ ذَلِكَ، وَنَحْنُ مُطَالَبُونَ عِنْدَ التَّعَارُضِ -إِنْ وُجِدَ- بِتَحْقِيقِ أَكْمَلِ الْمَصْلَحَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَدْنَاهُمَا، وَالطَّرِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْمُتَقَدِّمَةُ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَأْتِيَ بِأَفْضَلِ النَّاسِ عِلْمًا وَدِينًا وَكَفَاءَةً وَقُدْرَةً عَلَىٰ الْعَطَاءِ وَالتَّحَمُّلِ.

الشرح:

هذه الطريقة الشرعية، هي تأتي بأفضل من يحكم، أما هذه الطريقة العلمانية الديموقراطية فإنها لا تحقق مصلحة شعب، ولا مصلحة بلاد، تحقق مصلحة الطغمة الحاكمة فقط؛ لذلك أنت ترىٰ فساد الدول الآن، وانحلالها، وفقرها، وتخلفها، لماذا؟ هل من قلة إمكانياتها؟ الدول هذه من أغنىٰ الدول من حيث الإمكانيات، ما السبب؟ السبب: هو أن هذه العملية الديموقراطية جاءت لمصلحة الطغمة الحاكمة فقط، لا لمصلحة بلاد، ولا لمصلحة شعب.

المتن:

مَسْأَلَةٌ: حُكْمُ النَّاخِبِ وَالْمُنْتَخَبِ:

تَكَلَّمْنَا عَنِ الْانْتِخَابَاتِ وَالتَّصْوِيتِ وَالِاقْتِرَاعِ، وَقُلْنَا إِنَّهَا طَرِيقَةٌ مُعَاصِرَةٌ تُخَالِفُ الْإِسْلَامَ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهٍ، وَلَكِنْ مَا حُكْمُ النَّاسِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ التَّصْوِيتِ فِي هَذِهِ الِانْتِخَابَاتِ، وَاخْتِيَارِ مَنْ يُمَثِّلُهُمْ مِنَ الْأَعْضَاءِ الْمُتَرَشِّحِينَ؟

أَوَّلًا: النَّاسُ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ أَقْسَامٌ.

الشرح:

سميت «نازلة» لأنها لم تكن بهذه الطريقة في العصر الأول، إذن هي نازلة من النوازل يجب أن يجتهد فيها أهل الاجتهاد.

عندما تحكم علىٰ هذه المسألة وأنت تتصور أنها من مسائل النوازل والاجتهاد، فإذن تراعي فيها اختلاف وجهات النظر في الأحكام، فلا تكفير فيها.

إذن الناس العوام لا يعرفون حكم هذه المسألة، المرأة العجوز في البيت لا تعرف ما هي الديموقراطية ولا العلمانية، إنما هي تحاول بقدر المستطاع أن تنفذ ما يقوله الناس، وإن قالوه لها باسم الإسلام، حتىٰ أنهم كانوا يذهبون إلىٰ بعض البيوت ويقولون: إنه كانت في وقت عز الإسلام مثل هذه الأمور.

فهذه الأمور لا بد أن نوصّفها التوصيف الشرعي؛ حتىٰ نخرج منها بفقه نستطيع أن نتعامل به في واقع الناس.

فمسألة الانتخابات بهذه الطريقة الآن طريقة مستحدثة وليست أصلية في الشرع، فهي من مسائل النوازل التي يجتهد فيها علماء الأمة.

المتن:

أَوَّلًا: النّاسُ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ أَقْسَامٌ، وَلِكُلِّ قِسْمٍ حُكْمُهُ الْخَاصُّ بِهِ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفْرِيقِ وَالتَّفْصِيلِ:...

الشرح:

هذه المسائل مهمة، والتفصيل فيها مهم أيضًا؛ حتىٰ لا نطلق حكمًا عامًا ظالمًا جائرًا، فلا يُساوَىٰ فيها من يدخل هذه العملية الانتخابية وهو يعلم حكمها الشرعي، وهو يعلم مخالفتها للإسلام، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يحكّم الشريعة، وهو يدخل في هذه العملية الانتخابية وهو متسلح بالعلمانية والديموقراطية، هذا فريق؛ وبين من يدخل من باب الوجهة الإسلامية، وأنها تقليل للشر، مع كفره بالعلمانية والديمقراطية، هذا في المرشحين، أو في المنتخبين، فالذي ينتخب العلمانية، ويعلم أنها علمانية، لا نسويه بمن يدخل لينتخب الإسلام، وهو يعلم حقيقة العلمانية والإسلام.

وهناك صنف ثالث: وهم العوام الذين لا يعرفون علمانية ولا ديمقراطية، كيف لك أن تجعلهم يلحقون بالقسم الأول أو بالقسم الثاني؟

إذن هذه العملية المستحدثة، الناس ليسوا فيها سواء، فيها من يدخل عن علم وعن معرفة بأن هذه علمانية وديمقراطية، والإسلام يحارب هذا، ويحرم هذا، ومع ذلك يدخل في هذه العملية؛ لأنه لا يرضىٰ بالإسلام دينا، ولا يؤمن بالله حَكَما مشَرِّعًا، فكيف تسويه بمن يدخل من باب نصرة الإسلام؟! هو يظن هذا؛ يظن أنه يستطيع أن يقلل الشر. لا تستطيع أبدًا أن تسوي بينهما، هذا كافر مشرك، وهذا مسلم متأوّل، دخلت عليه مثل هذه الأمور والشبهات، باسم الإسلام ونصرة الشريعة، لا تسوية بينهما أبدًا.

وقد فصلنا ذلك في الدورة السابقة، وكذلك فصلناه في كتاب «المسائل والفوائد» من شرح كتاب مقدمة التوحيد.

المتن:

اَلْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الْمُرَشَّحُ الَّذِي يُرَشِّحُ نَفْسَهُ لِلرِّئَاسَةِ أَوِ الْبَرْلَمَانِ أَوْ لِلْوَظَائِفِ الْعَامَّةِ:

مِنْهُمْ مَنْ يُرَشِّحُ نَفْسَهُ مِنَ التَّيَّارِ الْإِسْلَامِيِّ؛ وَهَدَفُهُ نُصْرَةُ الْإِسْلَامِ، وَتَحْكِيمُ الشَّرِيعَةِ، وَأَلَّا يَتْرُكَ السَّاحَةَ لِلْكُفَّارِ وَالْعَلْمَانِيِّينَ يَنْشُرُونَ كُفْرَهُمْ وَفَسَادَهُمْ.

الشرح:

انتبه! القسم الأول عندنا في المنظومة الانتخابية هذه: من يدخل من باب الإسلام، وعنده عقيدة صحيحة، وتصور صحيح أن الإسلام ينبغي أن يحكم،

ولكنه دخلها لتقليل الشر، تقليل شر العلمانيين والديمقراطيين، حتىٰ لا تكون لهم السيادة، ولا تكون لهم اليد الطولىٰ، فينفذوا ما يريدون في الشعب؛ فنحن بقدر المستطاع ندرأ شرهم.

هل هذا الأصل صحيح أم خطأ؟ الراجح أنه خطأ، لماذا قلنا: راجح؟ لأننا قلنا: هذه نوازل، ومناطات اجتهاد، فنبين فيها ما ظهر لنا، ولا نلزم غيرنا ولا نكفره بما رأينا فيها؛ لأنها ليس فيها نص قطعي، بل هي قياس علىٰ الأحكام الشرعية المنصوص عليها؛ أما هذه الصفة فلم تكن أبدا في العصور الأولىٰ، فهي بين الراجح والمرجوح، والمجتهد فيها من علماء أهل السنة العاملين بعلمهم، المشهود لهم به: بين الأجر والأجرين.

- إذن أنت الآن تفرق، وتقول: إن هذه العملية الانتخابية لا تجوز، فما تقول في العلماء الكبار الذين قالوا بجوازها؟

- أنت من علمك وبحثك في المسألة تستطيع أن تقول: أخطؤوا في هذا، لم يصيبوا، جانَبَهم الصواب. ولا يمنعْك علمهم، ولا سابقتهم في الإسلام، أن تخالفهم فيما ذهبوا إليه، بل تقول: هذا الطريق غير صحيح.

من وجهة نظري الشرعية، ومن الواقع الذي يحكم فيه هؤلاء الناس، من الواقع، أنا أحكم عليهم بالواقع: أن الناس الذين دخلوا من هذا الباب لم

يقدموا شيئًا، أنت ترىٰ أنهم قللوا الشر، ودرؤوا الشر، ولكنا لا نرىٰ ذلك، أنتم ترون دخولهم فيه خير، ونحن نرىٰ أن دخولهم فيه شر.

فاختلاف النُّظَّار في مناطات الاجتهاد والتنزيل- ليس فيه إيمان ولا كفر، ولكن فيه خطأ وصواب، راجح ومرجوح.

هذا من ناحية الإسلاميين الذين دخلوا هذه العملية بفتاوىٰ علماء، أو باجتهادات، أو بغير ذلك.

المتن:

فَيَرَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مُزَاحَمَةِ هَؤُلَاءِ؛ دَفْعًا لِشَرِّهِمْ وَتَقْلِيلًا مِنْ فَسَادِهِمْ، مَعَ اعْتِقَادِ هَؤُلَاءِ بِكُفْرِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ، وَمَا دَخَلُوا هَذَا الْمُعْتَرَكَ إِلَّا مِنْ بَابِ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لـله -سُبْحَانَهُ-، كَمَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ؛ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ، وَتُصْرَفُ لَهُ الطَّاعَةُ، وَيُفْرَدُ بِالْعِبَادَةِ، وَمَنْ نَازَعَ الـله فِي حُكْمِهِ وَأَمْرِهِ وَتَشْرِيعِهِ فَقَدْ كَفَرَ وَخَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

هذا ما يقولوه ويعتقده الذين أفتوا بجواز دخول الإسلاميين في الانتخابات: أن الحكم لـله، وأن التشريع لـله، لكنهم أفتوا بالجواز من باب مزاحمة أهل الشر، وعدم ترك الساحة لهم، وتقليل فسادهم. هذا المدخل.

- طيب أنتم عندكم موازنة بين المصالح والمفاسد؟

- نعم نقرّ بها، ولكن أنتم نظرتم إلىٰ العملية الانتخابية، فهل فيها خير؟

- قالوا: لا، ليس فيها خير، ونعرف أنها شر، ولكن هذا الشر أمرنا الشرع أن نقلله، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أمرنا أن نقلله أو ندرأه بقدر المستطاع.

- طيب، لو تركتموه، ماذا يكون؟

- قالوا: لو تركناه لتسلط هؤلاء علىٰ الناس، ولفرضوا علينا قوانينهم، وليس لنا إلا أن نجاهدهم بالسلاح، ونغيرهم بالجهاد، وليس لنا قوة ولا منعة، وكذلك هم يتحكمون في مصادر الأمور، والجيش والشرطة وغير ذلك، وليس لنا باب لندخل فيها، فنحن وإن دخلنا من أبواب صغيرة، إلا أننا نزاحمهم في هذا، ولا نترك لهم الساحة مطلقًا يعيثون في الشعب والأرض فسادًا.

هذا تصور من أفتىٰ من العلماء الكبار بدخول مثل هذه الانتخابات.

المتن:

وَقَدْ أَفْتَىٰ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ فِي عَصْرِنَا لِأَبْنَاءِ التَّيارِ الْإِسْلَامِيِّ بِجَوَازِ التَّرَشُّحِ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

الشرح:

إذن من يشارك في العملية الانتخابية قسمان:

قسم إسلامي: مرشَّح، ومنتخِب.

وقسم علماني: مرشَّح، ومنتخِب.

المتن:

وَيُلْحَقُ بِهَذَا الْقِسْمِ: النَّاخِبُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَنْتَخِبُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْفَعُونَ شِعَارَ الْإِسْلَامِ وَتَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ مِنْ أَبْنَاءِ التَّيَّارِ الْإِسْلَامِيِّ؛ مُضَادَّةً وَمُحَادَّةً لِلتَّيَّارِ الْعَلْمَانِيِّ، وَمُعَادَاةً لِلنِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ.

فَحُكْمُ هَؤُلَاءِ يُبْنَىٰ عَلَىٰ أَصْلِ الْمَسْأَلَةِ؛ أَنَّهَا نَازِلَةٌ مِنَ النَّوَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي الْقُرُونِ الْأُولَىٰ، فَهِيَ مِنْ مَنَاطَاتِ الِاجْتِهَادِ وَمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ الَّتِي يَجْتَهِدُ فِيهَا عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ، وَتُعْقَدُ لَهَا الْمَجَامِعُ الْفِقْهِيَّةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَسَائِلَ الِاجْتِهَادِ حُكْمُهَا بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْأَجْرَيْنِ، وَلَيْسَتْ هِيَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ أَوِ التَّبْدِيعِ وَالتَّفْسِيقِ، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ الرَّاجِحِ وَالْمَرْجُوحِ، وَالْخَطَأِ وَالصَّوَابِ.

الشرح:

إذن هذا أصل لا بد أن تبني عليه علمك، هو أن تنظر أولًا: هل المسألة هذه نصية أم اجتهادية؟

«هل هذه المسألة نصية؟» أي: هل جاء فيها النص القطعي في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟

هل هذه النازلة نزلت في عصر الصحابة وقالوا فيها قولهم؟

هذه أول مسألة ينظر فيها طالب العلم.

ينظر أولا: من أي أقسام المسائل هي؟

١. هل هي من المسائل الأصلية التي لا خلاف فيها، وهي علىٰ قول واحد فقط، مثل مسائل التوحيد والرسالة؟

٢. أم من المسائل الخلافية علىٰ قولين أو أكثر.

٣. أم من مسائل الاجتهاد والنوازل التي تنزل بالأمة علىٰ مدار تاريخها.

٤. أم من المسائل الشاذة التي ليس فيها سلف.

لا بد أن ينزل المسألة علىٰ هذه الأربعة، لا بد أن يؤديك علمك، وتحقيقك العلمي، إلىٰ أن تنزل المسألة علىٰ هذه الأربعة، وهذا يتوقف علىٰ قوتك العلمية، وتمكنك من العلم الشرعي، وهل تفهم هذه المسألة علىٰ أصولها، أم أن عندك فيها شبهة، أم أنك لا تستطيع أن تحرر محل النزاع فيها، أم لا تستطيع أن تلحقها بفرع من الفروع الأربعة؟

فإذا كنت لا تستطيع، فاسأل أهل العلم الأكبر منك، هكذا تتدرج حتىٰ تصل إلىٰ القطع واليقين، أما أن تفتي في هذه المسألة وأنت لا تحسن من أي المسائل هي! فكيف تفتي بهذا؟! فمثلك كمثل القاضي الذي يحكم بعلمه، ويترك الأدلة، والقرائن، والبراهين، نقول: حكمك فاسد.

مسألة التشريع في البرلمان:

هم يقولون: إننا نشرع قوانين تنبثق من الشريعة الإسلامية، ويقولون: إننا لا نخالف الشريعة الإسلامية، فيضعون نصًّا فضفاضًا واسعًا، يقول: إن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للحكم، فنحن نأخذ بالشريعة الإسلامية.

فلما اعترض النصارىٰ، قالوا: نأخذ بمبادئ الشريعة الإسلامية.

- وهل يوجد قانون ينص علىٰ أن كل قانون يخالف الإسلام هو مردود؟

- قالوا: نعم، هو أن دين الدولة الإسلام، وكل قانون يخالف دين الدولة فهو مردود.

وهل يُعمَل بهذا القانون؟

الجواب: لا، بل يتحايلون عليه، فمثلا: عندما يأتون لمسألة منع الخمور، يقولون: إن الخمر حرام، -يعترفون بذلك- ولكن لا نصدر حكمًا بتحريمها؛ لأن عندنا مواطنين ليسوا مسلمين، وعندنا زوارًا يأتون إلىٰ بلادنا، فنجعلها في القانون العام: حرية شخصية؛ أما في القانون الشرعي فهي محرمة.

وكذلك الزنا، قالوا: الزنا حرام في الشرع، الزنا حرام عندنا، ولكن بعض الناس لا يلتزمون بهذا من الكفار، فنحن نجعل هذا من الحرية الشخصية؛ أما إذا وقع فيه المسلم، فالمسلم له ضوابط، وله حدود.

بعد ذلك بدؤوا يغيرون في هذا، وقالوا: إذا زنت المرأة علىٰ فراش الزوجية، فمن حق الزوج أن يعترض، فإذا اعترض فله حكمه؛ وإذا لم يعترض، فالزنىٰ بالتراضي ليس للقانون دخل فيه.

هكذا يقولون!

إذن هذا هو الكفر، لكن لا يأتي مرة واحدة، هم يروجونه علىٰ الناس باسم الإسلام.

وعندما يأتي المسلم الذي ينتمي لتيار إسلامي مثلًا، أيّ تيار من التيارات الإسلامية، أو الجماعات الإسلامية، ويدخل في الانتخابات البرلمانية، نقول له: أنت لماذا دخلت في البرلمان؟

- قال: أنا لا أمرر القوانين المخالفة للشرع.

- نقول له: أنت لا تستطيع أن تمنعها، أنت فقط تعلن أنك رافض لهذا القانون، ولا يتوقف هذا الرد علىٰ دخولك للبرلمان، يمكن أن تنكر هذا الأمر وأنت خارج البرلمان، تنكر بخطبة، تنكر بكتاب، ما الذي يجعلك تدخل في هذا؟

- قال: حتىٰ أعلم الناس أن هذا مخالف.

- نقول: هذا عذر غير مقبول أصلًا؛ لأنك تعرف أن هذه المظلة التي هي مظلة البرلمان هي مظلة تشريع، يشرعون، بل يصوتون علىٰ أحكام الـلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: نقبل حكم الـلـه أم لا نقبله؟

فهل ترضىٰ أنت أن يصوت الناس علىٰ حكم الـلـه؟!

لو أن ملِكًا من ملوك الأرض أصدر قانونًا، والناس جعلوه مفاصلة (مساومة) يرضون أو لا يرضون؛ الملك يغضب، يقول: كيف تشكّون في أمري، أو كيف تختارون في حكمي؟! وهذا ملك من ملوك الدنيا، ولله المثل الأعلىٰ، فكيف ترضىٰ أن يُصَّوَت علىٰ حكم الـلـه في مجلس يشرع فيه غير الـلـه؟!

فهذا كان جوابًا علىٰ بعضهم.

فهو لا يغير، ولا يستطيع. لأنه -كما قلنا- لما دخل الإسلاميون في هذه المناصب، حددوا لهم ألا يزيد عددهم عن ثمانين عضوًا بأي حال من الأحوال؛ حتىٰ لا يستطيعوا أن يعطلوا قانونًا أقره المجلس، فالمحصلة أنك دخلت لتجميل وجه العلمانية القبيح، هم استخدموك حتىٰ يقولوا: نحن عندنا حرية، وعندنا ديمقراطية؛ بدليل أن الإسلاميين دخلوا هذا المجلس، وسمحنا لهم أن يدخلوا.

إذن لا تجوز هذه العملية الانتخابية أبدا، سواء أكانت برلمانية أم غير ذلك، لا تجوز المشاركة بأي حال من الأحوال، في الانتخابات البرلمانية، ولا سيما في حال المشاركة، أما في حال المزاحمة، نعم، لك هذا، يعني ليس هناك قانون، وليس هناك انتخابات، والأمر متاح للإسلاميين ولغيرهم؛ فأنت هنا تجيش الناس ضد الكفر، المسألة هنا مسألة اختيار، ليست مسألة مشاركة، إنما هي مزاحمة، ليس ثم قانون، ولا ديمقراطية، ولا علمانية فقط، الكل يجيش لمن يختاره الناس، فحينها لا بد أن يدخل الإسلاميون بقوة؛ لأنها مزاحمة.

يعني: إذا زاحمت الكفر وزحته، فأنت الذي تحكم بالإسلام، بقوتك، بقوة السلاح، بقوة الشعب، فهذه مزاحمة، ليست مشاركة، وأنت الذي تحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يجوز لك أن تتخلف؛ وأما في المشاركة فتأثم؛ لأنك تروج لوجه العلمانية القبيح، يأخذونك سُلَّما، وأنت تعلم أنك لن تغير شيئًا، لا في البرلمان، ولا في خارج البرلمان.

لذلك قلنا للإخوة في أيام هذه الانتخابات: يا إخوة، في زمن المشاركة لا يجوز للمسلم أن يقترب من الانتخابات البرلمانية، أما في زمن المغالبة فواجب علىٰ كل مسلم، لنفرض مثلا أن هذا الحاكم شُنق، مات، سقط، والناس يريدون من يحكمهم، فهل أهل الإسلام يغيبون عن هذا المشهد،

والناس يطلبونهم؟ يقولون: تعالوا، الحكم سقط، وكل يستطيع أن يحكم. فعلىٰ كل مسلم من هذه البلد أن يشارك بقوة، وبكل ما يستطيع؛ لأن الزمن زمن مغالبة، وليس زمن مشاركة.

فعلينا أن نفرق بين زمن المغالبة وزمن المشاركة، ففي زمن المشاركة لا يجوز لمسلم أن يقترب من هذه المجالس النيابية؛ لأنه لن يفعل شيئًا إلا أنه يلمع الوجه القبيح للديموقراطية، ويسوغ لهم ما يفعلون في هذا المجلس، وهو لا يستطيع أن يغير حكم الله الذي جعلوه حكمًا آخر، بل لا يستطيع أبدا أن يثبت حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويجعله تشريعًا؛ لأنه لا يملك السلطة، ولا التشريع.

طيب ماذا يفعل، وهو يقول: أنا دخلت لأنكر؟

نقول: أنكر خارج المجلس، لك أن تنكر خارج المجلس، لكن لا توهم نفسك أنك دخلت هذا المجلس لتُسمِع صوت الحق فيه، هكذا يقولون، يقولون: دخلنا لنُسمِع الناس صوت الحق، وصوت الشريعة. طيب أسمعه خارج المجلس.

أنا أقول: إن عندك شهوة رئاسة؛ لأنك تقول: أنا ما دخلت هذا المجلس النيابي إلا لأرفع صوت الحق.

نقول: ارفعه خارج المجلس، بل يكون أولىٰ وأحسن؛ لأنك تُسمِعه الآن مثلًا لمئة، لألف، لألفين، لكنك تُسمِعه خارجه لملايين الناس.

فليس هذا مبررًا لدخول الإسلاميين للمجالس البرلمانية.

المتن:

وَبَعِيدًا عَنْ تَطَرُّفِ أَهْلِ الْغُلُوِّ فِي التَّكْفِيرِ، فَحُكْمُ هَذَا الْفَرِيقِ -سَوَاءٌ الْمُرَشَّحُ أَوِ الَّذِي يُرَشِّحُهُ وَيَنْتَخِبُهُ وَيُصَوِّتُ لَهُ-: أَنَّهُمْ أَخْطَؤُوا الطَّرِيقَ النَّبَوِيَّ فِي إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

الشرح:

يعني الإسلاميين الذين حققوا التوحيد، واجتهدوا في هذه النازلة، ورأوا أو رأىٰ علماؤهم أن دخولهم في هذا المعترك من باب درء المفاسد، نقول: هذا ليس بكفر، لا يكفر بذلك؛ لأنهم لم يرتكبوا ناقضًا مكفّرًا، بل دخلوا لتقليل الكفر والشرك، فلا بد أن نفرق بين هذا الفريق، ومن دخل وهو يعلم أن هذه علمانية، وينصرها، بل يصوت علىٰ قوانينها. هذا كله لا يجوز.

المتن:

وَإِعَادَةُ الْخِلَافَةِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ: بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَتَرْبِيَةِ النَّاسِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَاسْتِفَاضَةِ الْبَلَاغِ، وَتَبْصِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِحَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَبِأَسَالِيبِ الْعَلْمَانِيِّينَ فِي تَغْرِيبِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ؛ وَرَفْعِ

الالْتِبَاسِ عَنْ مَفْهُومِ الْعِبَادَةِ الَّذِي حَصَرَهُ الْمُنْحَرِفُونَ فِي الشَّعَائِرِ التَّعَبُّدِيَّةِ فَقَطْ، أَوْ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ، أَوْ بِرَفْعِ شِعَارِ تَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ تَلْبِيسًا وَتَدْلِيسًا عَلَىٰ النَّاسِ.

الشرح:

قلت لبعضهم: أنت إذا دخلت هذا المجلس، أو هذه الانتخابات، فأنت تسوغ للناس مسألة الانتخابات، وتلبس عليهم بأن هذا الطريق طريق شرعي لتقليل الشر. ولكن ادع إلىٰ التوحيد، ادع إلىٰ دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بصِّر الناس، أنت عندك آلة إعلامية ضخمة، وعندك مساجد، ادع الناس، ركز علىٰ قضية التوحيد، والحاكمية، والتشريع؛ ستجد الناس يفهمون.

قال: وهل يسمحون لك أن تدعو إلىٰ التوحيد، والحاكمية، والتشريع؟

قلت: سبحان الله! إذا كانوا لا يسمحون لي خارج المجلس، فكيف يسمحون لي داخل المجلس؟! هذا تناقض، إذا كانوا لا يسمحون لي أن أدعو إلىٰ دين الله خارج هذا المجلس النيابي، وأن أبصِّر الناس بالحاكمية، وبالتشريع، وبالتوحيد، وبالرسالة، وبالسنة، إذا منعوني من هذه المنابر، فأنت تعتبر أن هذا المجلس منبر؟!

- وإذا منعوك أنت؟

قال: أنا معي حصانة، لا يستطيعون أن يمنعوني، وأنا سأتكلم.

قلت: أنت ستتكلم لتفرغ شحنة بداخلك، وهم سيتركونك لتفرّغ، ولكنهم يعرفون أن صوتك لا قيمة له، ليس مسموعًا، فقط أنت لبست علىٰ الناس صحة هذه العملية الانتخابات البرلمانية؛ وأما لو دعوت خارج المجلس وتركوك فهذا أولىٰ، ولو منعوك فقد أعذرت إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن لا تدخل لمثل هذا.

بعد مدة رفعوا عنه الحصانة واعتقلوه، وقابلته، قلت: وماذا؟

قال: وماذا نفعل؟! نحن بذلنا وسعنا.

قلت: بذلت وسعك في غير الطريق الشرعي، كان يجب عليك أن تبذل وسعك وجهدك في الطريق الشرعي، في طريق الأنبياء، في الدعوة إلىٰ التوحيد، حتىٰ وإن قتّلت، وإن حرّقت؛ أما أن تستسهل طريقًا تهواه النفس؛ فهذا ليس بطريق الأنبياء، وكل ما ليس علىٰ طريق الأنبياء باطل، لا خير فيه، لا ينفع، فالشاهد: أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم.

المتن:

وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنْ أَسْبَابِ فَشَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

اَلْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ تَحْكِيمَ الشَّرِيعَةِ، لَيْسَ بُغْضًا فِيهَا؛ وَلَكِنْ بُغْضًا فِي التَّيَّارِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَنْ يُمَثِّلُهُ، وَدِفَاعًا عَنْ مَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَتَعَارَضُ مَعَ تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ، وَمِنْ عَدَمِ فَهْمِهِمُ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ لِلْإِسْلَامِ،

فَعِنْدَهُمْ سُوءُ فَهْمٍ وَالْتِبَاسٌ حَوْلَ مَفْهُومِ صَلَاحِيَةِ الْإِسْلَامِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَهْيِئَةِ النَّاسِ دِينِيًّا وَعِلْمِيًّا وَنَفْسِيًّا لِلْحُكْمِ بِالشَّرِيعَةِ، وَتَهْيِئَةِ الْبِلَادِ اجْتِمَاعِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا وَزِرَاعِيًّا وَصِنَاعِيًّا وَتِجَارِيًّا وَسِيَاسِيًّا، دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا؛ بِالشَّرْحِ وَالتَّفْصِيلِ لِمَزَايَا الْحُكْمِ بِالشَّرِيعَةِ، وَبَيَانِ قُصُورِ الْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ فِي تَلْبِيَةِ حَاجَةِ النَّاسِ وَأَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ وَحِمَايَتِهِمْ.

الشرح:

هذا هو القسم الثاني: من يكرهون التيار الإسلامي؛ من باب أنه تيار ينافسه في الحكم فقط، ويعيبون علىٰ التيار الإسلامي أنه يرفع شعار «الشريعة أوّلًا»، يعني: يعيبون عليه أنه يريد أن يجبر الناس علىٰ الحكم بالشريعة، دون أن يفهموا ما معنىٰ الشريعة.

فالفريق الثاني يقول: مهّدُوا للناس، وفهموهم حقيقة الإسلام، فهموهم أن الإسلام يحكم في جميع مجالات الحياة، زراعيًّا وصناعيًّا وتجاريًّا، ومهدوا للناس أن هذا الإسلام من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يجوز أن تجبروا الناس عليه.

هذه هي نقطة الصدام بينه وبين الإخوان مثلا، أو الجماعات الأخرىٰ.

يقول: أنا أومن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، أؤمن بالإسلام دينا ومنهجَ حياة، ولكنّ طريقتكم هذه ليست بصحيحة.

هو يعترض علىٰ طريقة الإسلاميين في أنهم يريدون أن يفرضوا الشريعة ويحكموا بها دون أن يهيئوا الناس، ويعرفوا ما معنىٰ الشريعة، ومعنىٰ الإسلام، ومعنىٰ لا إله إلا الله.

يقول: حتىٰ إذا ارتد الناس عن هذا المشروع الديموقراطي، كان عندهم حصيلة علمية شرعية ترجعهم إلىٰ الإسلام؛ لأنهم لو دخلوا في هذا المعترك، ولم يفهموا حقيقة الإسلام، سيرتدون مرة واحدة، دون أن يشعروا أنهم خرجوا من الإسلام، وهذا الذي حصل، لما جاء الإخوان قال الناس: نحن مسلمون، ولما سقط الإخوان قالوا: كلنا مع الحاكم الجديد. هكذا كلهم! وأصبح أصدقاء الأمس أعداء اليوم!

هذا تحول مصلحي، ليس تحولًا عقديًّا، لأنك أعطيت الناس ما يحبونه من مصالح، ومن راحة نفسية، وغير ذلك، ولم تعطهم الغذاء الروحي الإيماني، لم تعلمهم معنىٰ التوحيد، معنىٰ لا إله إلا الله؛ لذلك لما ارتدوا، ارتدوا جميعًا.

المتن:

وَهَذَا الْقِسْمُ يُؤْمِنُونُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَيُؤْمِنُونَ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ، وَيَعْمَلُونَ بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ، وَلَكِنَّهُمْ تَأَثَّرُوا بِالدَّعَوَاتِ التَّغْرِيبِيَّةِ فِي نِظَامِ الْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ جَهْلًا مِنْهُمْ

بِشُمُولِيَّةِ دِينِ الْإِسْلَامِ فِي الدِّينِ وَالْحَيَاةِ، وَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ جَهْلٌ وَالْتِبَاسُ حَالٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَيِّدُ الْقِسْمَ الثَّالِثَ جَهْلًا بِحَقِيقَتِهِ وَحُكْمِ الْإِسْلَامِ فِيهِ.

وَهَذَا الْقِسْمُ الثَّانِي: فِيهِمُ الشُّيُوخُ وَالْعَجَزَةُ وَالنِّسَاءُ وَعَوَامُّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَىٰ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَلَمْ يَسْمَعُوا بِالْعَلْمَانِيَّةِ، بَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّونَ دِينَهُمْ، وَيَغَارُونَ عَلَىٰ حُرُمَاتِ اللهِ، لَكِنْ عِنْدَهُمْ غَيْبَةُ وَعْيٍ بِالْوَاقِعِ وَالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، هَذَا الحَاذِقُ فِيهِمْ، فَمَا بَالُكَ بِالْعَوَامِّ وَالدَّهْمَاءِ الَّذِينَ إِنْ سَأَلْتَهُمْ عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ لَا يَعْرِفُونَ عَنْهَا شَيْئًا، أَوْ حَتَّىٰ الْحَاكِمِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِ.

الشرح:

يعني الرجل الذي هو في حقله، في أرضه، والمرأة العجوزة التي هي في بيتها، إذا سألتها عن العلمانية، ما تعرف، عن الديموقراطية، ما تعرف، هي فقط تعبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ فطرتها، وعندها القدر المجزئ من التوحيد الذي لا ينقضه شرك.

وكثير من الناس في العالم الإسلامي من هذا الصنف، لا يعرفون هذه المصطلحات ولا حقيقتها، ولكن الرؤوس هي التي تحركهم، وكل بحسب قدرته علىٰ اجتذاب هذه الكتلة معه أو ضده.

الإسلاميون فشلوا في هذا، فشلوا في تحييد هذه الكتلة وتفهيمها الإسلام، والنزول إليها في البيوت، والمزارع، والمصانع، وغير ذلك، مع أن العلمانيين نجحوا في ذلك، نجحوا في استقطابهم، ونجحوا في احتوائهم؛ لمجرد مصلحتهم؛ أما الإسلاميون فإنهم يفعلون ذلك دينا، أنهم لا يريدون منهم لا درهمًا ولا دينارًا، وإنما يريدون الدعوة إلىٰ دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المتن:

فَهُمْ عِنْدَهُمُ الْإِيمَانُ الْمُجْمَلُ، وَالْبَرَاءَةُ الْإِجْمَالِيَّةُ، وَالِانْقِيَادُ الْعَامُّ الْمُجْمَلُ لِلشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِ الدِّينِ، أَمَّا تَفَاصِيلُ الشَّرِيعَةِ فَأَنَّىٰ لِلْعَجَائِزِ فِي الْبُيُوتِ وَالشُّيُوخِ فِي الْحُقُولِ مَعْرِفَةُ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ؟!

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَحْكَامَ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِهَا، أَمَّا الْعَاجِزُ عَنِ الْعِلْمِ، غَيْرُ الْمُتَمَكِّنِ مِنَ الْعَمَلِ مَعَ بَذْلِ الْجُهْدِ وَاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فَهُوَ الْمَعْذُورُ.

اَلْقِسْمُ الثَّالِثُ: هُمْ دُعَاةُ الْعَلْمَانِيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ، وَهُمْ أَطْيَافٌ شَتَّىٰ: فَمِنْهُمُ الَّذِي يَنْتَمِي لِلْإِسْلَامِ. وَمِنْهُمُ النَّصَارَىٰ وَالْيَهُودُ. وَمِنْهُمْ مُلْحِدُونَ لَا دِينَ لَهُمْ؛ اِجْتَمَعُوا جَمِيعًا عَلَىٰ مُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ، وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ بُغْضِهِ وَكُرْهِهِ وَإِقْصَائِهِ عَنِ الْمَشْهَدِ، وَهُمْ يُعْلِنُونَ ذَلِكَ صَرَاحَةً؛ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ الْإِسْلَامَ؛ لِأَنَّهُ دِينُ التَّخَلُّفِ وَالرَّجْعِيَّةِ، وَهُوَ سَبَبُ تَأَخُّرِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ رَكْبِ الْحَضَارَةِ

الْغَرْبِيَّةِ، وَيُعْلِنُونَ صَرَاحَةً أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْعَلْمَانِيَّةَ، وَيُؤَيِّدُونَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الْغَرْبِيَّةَ بِكُلِّ صُوَرِهَا، وَيَسْعَوْنَ لِتَطْبِيقِهَا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

الشرح:

وهذا القسم بعضهم كان عندما يتكلم يقول: أنا مسلم أكثر منك، أتعلمني الإسلام؟! أنا مسلم أكثر منك، أنا أصلي الفجر في جماعة، وكل سنة أحج وأعتمر. وهو يفتخر بهذا، ومع ذلك هو لا يرضىٰ بالإسلام أن يحكم؛ لأنه هو بوق من أبواق الديموقراطية الغربية في بلاد المسلمين، هو فقط يريد أن ينفذ خطط الغرب في بلاد المسلمين، وهو يعرف حقيقة الديموقراطية، ويعرف حقيقة العلمانية، مع أنه يقول: أنا أصلي، وأصوم، وأحج. وبعضهم يتفاخرون أنهم ينفقون الأموال، ويبنون بيوت الأيتام، والمستشفيات، وغير ذلك.

نقول: هذا كله لا ينفعك، قولك: لا إله إلا الله، وصلاتك، وحجك، وصدقتك، هذا كله لا قيمة له، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يقبله منك؛ لأنك كفرت بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكفرت بشريعته، وكفرت بحكمه، فأنىٰ لك أن تكون مسلمًا؟! {وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا}، عندك أعمال عظيمة، صحيح، ولكن ذهب بها الكفر والشرك، هؤلاء لا حظ لهم في الإسلام.

المتن:

فَهَذَا الْقِسْمُ بِنَوْعَيْهِ (الْمُرَشَّحُ وَالَّذِي يَنْتَخِبُهُ): لَيْسُوا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ يَنْتَمِي مِنْهُمْ لِلْإِسَلَامِ، وَلَا بُدَّ لِاسْتِحْلَالِ دَمِهِ وَمَالِهِ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَاسْتِيفَاءِ الشُّرُوطِ وَانْتِفَاءِ الْمَوَانِعِ لِلْحُكْمِ بِتَكْفِيرِهِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا عُذْرَ لِمَنْ يَعْرِفُ حَالَهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ.

الشرح:

بعضهم يصرح -يكون خارجًا من المسجد، والسبحة في يده- ويقول: إن الذين يريدون أن يرجعونا إلىٰ قرون الظلام والتخلف والرجعية، وركوب الناقة والجمل، ويقصد بها قرون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

المرجئة يتوقفون في تكفير مثل هذا، يقول: هو يقول: لا إله إلا الله، وهو الآن خارج من المسجد، ويسبح، فكيف تكفره؟

نقول: لأنه أتىٰ بناقض مكفر يذهب بالتسبيح والصلاة، هذه ليست معضلة، الصحابة قاتلوا من كان يصوم، ويقرأ القرآن، ويحج، يعني: يفعل الطاعات، وكفروهم، وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم؛ من أجل أنهم امتنعوا عن أداء الزكاة فقط، وقاتلوا عليها، وهم يقولون: لا إله إلا الله.

المتن:

هَذَا بِاخْتِصَارٍ حُكْمُ الِانْتِخَابَاتِ وَالنَّاخِبِ وَالْمُنْتَخَبِ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِالْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ، وَتَنْحِيَةِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَحْكِيمِ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِدِينِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ.

الشرح:

إذا علمنا أن هذا كله نتيجة لغياب الشريعة ولغياب الخلافة، فإن هذا يدفعنا إلىٰ السعي والعمل في سبيل قيام الدولة وتحكيم شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حتىٰ تنتهي كل هذه المظاهر الكفرية والشركية.

المتن:

اِخْتِلَافُ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مَعَ الْـخَلِيفَةِ:

إِذَا فَعَلَ الْإِمَامُ شَيْئًا أَوْ أَصْدَرَ لَائِحَةً أَوْ تَنْظِيمًا، وَرَأَىٰ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِصَوَابٍ؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا فِي مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ، وَلَا يَقْطَعُونَ بِصَوَابِ اجْتِهَادِهِمْ وَبُطْلَانِ اجْتِهَادِ الْخَلِيفَةِ؛ فَإِنَّ لَهُمْ أَنْ يُرَاجِعُوهُ فِي ذَلِكَ وَيُشِيرُوا عَلَيْهِ بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ، فَإِنْ رَجَعَ إِلَىٰ رَأْيِهِمْ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَإِنْ أَصَرَّ عَلَىٰ اجْتِهَادِهِ فَلَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ حُقُوقِ وِلَايَتِهِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فِيهِ إِنْ كَانَ فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ أَوِ الْحُكْمِ أَوِ السِّيَاسَةِ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ فِي مَسَائِلِ الْفُتْيَا؛ فَإِنَّ مَسَائِلَ الْفُتْيَا لَا إِلْزَامَ فِيهَا مِنْ أَيِّ طَرَفٍ.

الشرح:

إذن الخليفة أو الحاكم لو اختلف مع أهل الحل في أمر من الأمور الاجتهادية، هل لهم أن يعترضوا عليه؟

الجواب: القول قول الخليفة وقول الحاكم في مناطات الاجتهاد؛ أما في الفتيا: فالفتيا ترجع إلىٰ نظر المفتي في الذي يفتي فيه، فلا إلزام فيها لأحد.

فإن كانت في مسائل قطعية غير اجتهادية، فلا اجتهاد فيها؛ فإذا خالف الحاكم في النصوص، فلأهل الحل والعقد أن يراجعوه ويلزموه بالرجوع إلىٰ الشريعة؛ لأنا ذكرنا في وظيفتهم أنهم مراقبون لعمل الخليفة في إدارة البلاد وتحكيم الشريعة، فإذا طرأ عليه فسق أو فجور أو عدول عن الشريعة، عليهم أن يرجعوه، لكن ليس لهم أن يعارضوه في مناطات الاجتهاد، هو خليفة واختير علىٰ وفق الضوابط الشرعية، فهو عالم، ليس بجاهل.

المتن:

قَالَ صَاحِبُ شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ: «وَقَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ، وَإِمَامَ الصَّلَاةِ، وَالْحَاكِمَ، وَأَمِيرَ الْحَرْبِ، وَعَامِلَ الصَّدَقَةِ؛ يُطَاعُ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَهُ فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ، بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِهِ»(١).

الشرح:

---

(١) «شرح الطحاوية» طبعة دار الفكر العربي: (٣٦٤)

لأن المخالفة هنا مخالفة لأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذا خالفوا في مناطات الاجتهاد كأنهم خالفوا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن النبي قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني**».

إذن لا يجوز لهم الخروج عن رأي الأمير في مناطات الاجتهاد؛ أما إذا كان الأمر فيه نص، فعلىٰ أهل الحل والعقد أن يعارضوه، ويقولوا: هذا أمر مخالف للشريعة، ونحن ما بايعناك إلا علىٰ تحكيم الشريعة، فإن خالفتها فلا طاعة لك علينا.

المتن:

إِذَا رَأَىٰ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ أَنَّ مَا اخْتَارَهُ الْخَلِيفَةُ فِيهِ مُخَالَفَةٌ وَاضِحَةٌ، وَأَنَّ مَا تَمَسَّكَ بِهِ الْخَلِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ أَقْوَالٌ ضَعِيفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، لَا يَنْبَغِي التَّعْوِيلُ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُمْكِنْ تَقْدِيمُ حَلٍّ يَرْضَىٰ عَنْهُ الطَّرَفَانِ؛ فَإِنَّ الْحَلَّ فِي ذَلِكَ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ الْـمَحْكَمَةِ، وَقَرَارُهَا مُلْزِمٌ لِلطَّرَفَينِ.

يرفعون أمره للقاضي، هم طرف، والحاكم طرف؛ لأن هذه المسألة ليست مسألة خاصة، بل هي مسألة تعم الأمة، فلا بد أن يخاصموه إلىٰ القضاء.

المتن:

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} [النساء: ٥٩]. وَيُسْتَشْهَدُ لِذَلِكَ بِالْمَحْكَمَةِ الَّتِي تَكَوَّنَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الْأُمَّةِ (مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ).

إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ أَوِ اللَّائِحَةُ أَوِ النِّظَامُ مُخَالِفًا لِدِينِ الْإِسْلَامِ مُخَالَفَةً يَقِينِيَّةً؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ يُنَبِّهُونَهُ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُ مُخَالَفَةَ ذَلِكَ لِدِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنْ اسْتَجَابَ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَإِلَّا أَصْدَرَتْ مَحْكَمَةٌ مُشَكَّلَةٌ لِهَذَا الْغَرَضِ حُكْمًا بِبُطْلَانِ ذَلِكَ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَبْطُلُ الْعَمَلُ بِذَلِكَ، وَيُصْبِحُ لَاغِيًا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ.

هذا يفعلونه الآن في نظام الحكم الحالي، هناك محكمة تسمىٰ «المحكمة الدستورية العليا»، إذا أصدر رئيس الجمهورية قانونًا، أو أصدر دستورًا ولم يوافق عليه أهل الحل، أو الأعضاء، أو غير ذلك، من هيئة كبار العلماء، تقوم هذه المحكمة بالنظر في قرار رئيس الجمهورية، فإما أن تبطله؛ وإما أن توافق عليه، فكانت تبطله أيام قوة العلماء، فكم من رئيس أصدر قرارًا، والمحكمة الدستورية أبطلته؛ أما الآن فقد أصدروا قانونًا ينص علىٰ أن رئيس الجمهورية يعيّن رئيس المحكمة الدستورية؛ وذلك حتىٰ يضمن ولاءه، ويضمن عدم اعتراضه علىٰ ما يصدره من قوانين، فتشكلت جبهة من كبار العلماء لتنظر في مثل هذه القضايا، فقالوا: إن قرار العلماء هذا غير ملزم لرئيس الجمهورية،

ولا ملزم للمحكمة الدستورية، لأنه يقول لك: المحكمة الدستورية أعلىٰ هيئة قضائية في الدولة؛ طيب حتىٰ لو خالفوا الشرع؟! هذا فيه نظر.

المتن:

إِذَا لَمْ يَقْبَلِ الْخَلِيفَةُ بِحُكْمِ الْمَحْكَمَةِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا يُعَدُّ مِنْهُ خُرُوجًا عَلَىٰ الْقَوَاعِدِ الدِّينِيَّةِ، وَمُخَالَفَةً صَرِيحَةً لِلْغَايَةِ الَّتِي نُصِبَ مِنْ أَجْلِهَا، وَهِيَ حِرَاسَةُ الدِّينِ وَسِيَاسَةُ الدُّنْيَا بِهِ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ يُصْدِرُونَ حُكْمًا بِعَزْلِ الْخَلِيفَةِ، وَبِصُدُورِ هَذَا الْحُكْمِ يَفْقِدُ الْخَلِيفَةُ مَنْصِبَهُ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقٍ وَصَلَاحِيَّاتٍ، وَلَا تَجِبُ لَهُ عَلَىٰ أَحَدٍ طَاعَةٌ، وَيَسْتَأْنِفُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَقْدَ الْخِلَافَةِ لِلصَّالِحِ لَهَا.

يَنْبَغِي نَشْرُ الْعِلْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ؛ حَتَّىٰ يَعْلَمُوا مَا عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُ.

الشرح:

ليس الغرض من هذا الكلام أن نقرأه بيننا وينتهي الأمر، ولكن نحاول أن نطبقه واقعًا عمليًّا في سبيل قيام الدولة الإسلامية.

عندما يعلم المتقدم لمنصب الولاية هذه الأمور، ويعرف دور أهل الحل والعقد، وأنهم يستطيعون أن يعزلوا الحاكم إذا طرأ عليه عارض من العوارض المسقطة لأهليته، وأنه إذا اجتهد في أمر يخالف فيه نصًا، عليهم أن يحاكموه إلىٰ القاضي- إذن يفكر ألف مرة؛ لأنه يدخل بعقلية أن هؤلاء يريدون تحكيم

شرع الله، ولا يريدون مصالحهم الشخصية، فإذا أراد هو مصالحه الشخصية، وجد فريقًا واقفًا له بالمرصاد، يقول له: هذا يصلح وهذا لا يصلح؛ إذن يستقيم.

لماذا استقامت الدولة الإسلامية؟ لوجود هذه الضوابط؛ ولكن لما طغىٰ هؤلاء، فلا رادع لهم، يشترون كل شيء، حتىٰ اشتروا العلماء، والقضاة، وليس في نظامهم شيء لا يباع إلا أصحاب الدين، فلا يباعون ولا يشترون، وهم يعرفون ذلك، صاحب الدين لا يباع ولا يشترىٰ، أما ما عدا صاحب الدين فكلّ يباع ويشترىٰ.

المتن:

مُوجِبَاتُ عَزْلِ الْحَاكِمِ:

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: «وَالَّذِي يَتَغَيَّرُ بِهِ حَالُهُ فَيَخْرُجُ بِهِ عَنِ الْإِمَامَةِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا: جَرْحٌ فِي عَدَالَتِهِ.

وَالثَّانِي: نَقْصٌ فِي بَدَنِهِ» [1].

---

(١) «الأحكام السلطانية»: (٢٤)، جاء في الأصل: «والذي يتغير حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان...الثاني: نقص في دينه».

وَفِي الْأَحْوَالِ الَّتِي تَنْدَرِجُ تَحْتَ مَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلَاتٌ كَثِيرَةٌ، اتَّفَقَ فِي بَعْضِهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَاخْتَلَفُوا فِي بَعْضٍ آخَرَ، وَمَوْضِعُ تَفْصِيلِ ذَلِكَ الْمُطَوَّلَاتُ، وَنَكْتَفِي هُنَا بِالْإِشَارَةِ إِلَىٰ بَعْضِ الْأُمُورِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا:

فَمِنْ ذَلِكَ: رِدَّةُ الْخَلِيفَةِ وَخُرُوجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنِ الْخِلَافَةِ.

الشرح:

سيأتينا في المكون الثاني من مكونات الشعب بعد أهل الحل والعقد: رأس الدولة (الحاكم)، سيأتي ذكر مواصفاته، واختياره، وغير ذلك.

لكننا نقول: إن الحاكم يعزل إذا طرأ عليه كفر مخرج من الملة، لأنه لا ولاية لكافر. هذا أصل.

عندما يأتي معنا في المكون الثاني من مكونات الشعب، وهو الحاكم، أول شرط من شروط الحاكم: أن يكون مسلمًا، عاقلًا، بالغًا. «مسلما»: فالإسلام شرط الولاية، فلا ولاية لكافر؛ فإذا طرأ عليه كفر، سقطت ولايته.

إذا لم يكن ثم أهل حل وعقد، وظهر عليه كفر، هل يلزم أن تصدر المحكمة حكما بكفره؟

الجواب: لا يلزم، لأنه يجب علىٰ العلماء، وهم أولوا الأمر -في أحد تفسيرات الآية-، أن يبينوا كفر هذا الحاكم، العلماء هم الذين يناط بهم بيان

كفر هذا الحاكم وسقوط طاعته وولايته، حتىٰ لو لم يكن لهم عزله؛ لأن الواجب علىٰ العلماء البلاغ، سواء أكان لهم صفة في الدولة أم ليس لهم صفة، يكون لهم صفة في الدولة في أيام الدولة الإسلامية؛ يكون لهم مكانة هامة في بناء الدولة، الذين هم أهل الحل والعقد.

وأما في زمن انعدام الدولة، فيجب علىٰ العلماء أن يبينوا للناس حكم الله في هذا الحاكم، ولا تأخذهم في الله لومة لائم؛ لأنهم بسكوتهم عن حكم الله في هذا الحاكم يتحملون وزر كل جريمة يقوم بها الحاكم؛ فبسكوتهم ظن الناس أنه مسلم له ولاية؛ فعاث في الأرض فسادا باسمهم هم، باسم العلماء، بسكوتهم.

المتن:

وَمِنْهُ: الْجُنُونُ الْـمُطْبِقُ.

الشرح:

المطبق يعني: الجنون العام الذي لا يفيق منه، ليس مرضًا عارضًا. فهذا أصل.

المتن:

وَمِنْهُ: ظُهُورُ الْخبَلِ فِي الْعَقْلِ، وَالْعَتَهِ فِي الرَّأْيِ، وَاضْطِرَابُ النَّظَرِ اضْطِرَابًا لَا يَخْفَىٰ دَرْكُهُ.

وَمِنْهُ: وُقُوعُ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَسْرِ، وَبُعْدُ تَوَقُّعِ خَلَاصِهِ.

الشرح:

والخبل هو فساد في العقل يمنعه من التفكير ويشله، والعته يعنىٰ معتوه مختل عقليًا وهو نقص في العقل، وكلها توجب عزله.

«وَمِنْهُ: وُقُوعُ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَسْرِ، وَبُعْدُ تَوَقُّعِ خَلَاصِهِ»، يعني: إذا وقع الخليفة في الأسر، وجب عزله؛ لأن الأسير لا يملك نفسه؛ فيخشىٰ أن يستغله أهل الأسر، فيعيثون في بلاد الإسلام فسادًا.

والأسر هنا ربما يكون أسرًا معنويًّا، كأن تأسره زوجته بهواها، وبآرائها الكفرية، فتؤثر علىٰ الرعية، لذلك قالوا: إن من أسباب سقوط الخلافة العباسية في آخرها: دخول الموالي، وكذلك سقوط الدولة العثمانية: دخول الغربيات، صرن يؤثرن في الحكم. فهنا أسر معنوي.

المتن:

وَالْأَسْرُ نَوْعَانِ: أَسْرُ الْجَسَدِ؛ وَهُوَ الْأَسْرُ الْحِسِّيُّ، وَأَسْرُ الْإِرَادَةِ وَالتَّصَرُّفِ؛ وَهُوَ الْأَسْرُ الْمَعْنَوِيُّ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ الْمَاوَرْدِيُّ بِـ (الْحَجْرِ).

وَهُنَاكَ مَا هُوَ أَشَدُّ فَسَادًا مِنْ أَسْرِ الْإِرَادَةِ، أَلَا وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةُ مُنَفِّذًا فِي الْمُسْلِمِينَ أَوَامِرَ الْكُفَّارِ وَإِرَادَتَهُمْ.

الشرح:

يعني: هو ما جاء حاكمًا إلا لينفذ أحكام الكفار، مثل الحكام الآن، هم جاؤوا بإرادة الدول الكافرة، وهم ينفذون إرادة هذه الدول، ولا يستطيعوا أن يخرجوا عنها قيد أنملة، ومن يفكر في الخروج عما رسم له، نُحّيَ وعُزل، واتهم اتهامات، وعُرّض للسجن والاعتقال.

فهؤلاء الحكام في زماننا ينفذون مخططات الكفار في بلاد المسلمين؛ لذلك يحمونهم، انظروا إلىٰ ما يحدث في غزة الآن، الدول الإسلامية بجوارها، واليهود يضربون المسلمين، وحكام المسلمين يتفرجون عليهم؛ لأن الذي أنشأ كيان اليهود هم الذين نصبوا هؤلاء الحكام علىٰ بلاد المسلمين.

إذن هي كلها منظومة واحدة، لا يخرجون عنها، لا دولة اليهود ولا الحكام يخرجون عنها، هم جميعًا ينفذون مخططًا واحدًا، وإلا لو كان هذا غير صحيح، لما سكت حكام المسلمين العرب عن قتال اليهود للمسلمين، بل كانوا انقضوا عليهم وقضوا عليهم مرة واحدة، ولكن هم ينفذون ما يريده الغرب منهم، والذي تريده أمريكا إبادة المسلمين في غزة لصالح اليهود، لذلك هم يساعدون اليهود بالسلاح وبكل شيء، والحكام العرب لا شيء.

فالذي جاء باليهود في هذه المنطقة، هو الذي جاء بالحكام في هذه البلاد، فلا تعجب من سكوت الحكام العرب عن المجازر التي قوم بها اليهود في غزة، ومنعهم المسلمين من نصرة إخوانهم، وغلق المنافذ والمعابر.

المتن:

فَإِذَا كَانَ الْخَلِيفَةُ وَاقِعًا تَحْتَ تَأْثِيرِ الْكُفَّارِ مُنَفِّذًا لِأَوَامِرِهِمْ؛ فَإِنَّ هَذَا يُخْرِجُهُ عَنْ حَدِّ الصَّلَاحِ لِلْخِلَافَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلْكَافِرِينَ سَبِيلٌ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ بِهَذَا قَدْ جَعَلَ لَهُمْ أَعْظَمَ السَّبِيلِ.

وَقَدْ يَكُونُ الْخَلِيفَةُ صَاحِبَ دِينٍ وَأَمَانَةٍ؛ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ، يَتَبَيَّنُ ضَعْفُهُ مِنْ عَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ ضَبْطِ الْأُمُورِ، وَمِنْ تَأَخُّرِ أَحْوَالِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَثْنَاءِ خِلَافَتِهِ تَأَخُّرًا بَيِّنًا وَاضِحًا.

الشرح:

من السذاجة عند بعض الإسلاميين أو بعض الناس أنهم يقولون: هذه المواقف مثل حرب غزة وغير ذلك، هذه المواقف عرت الحكام العرب؛ عرتهم لأن هذه المواقف كان يجب أن يتحركوا.

نقول: أنت ساذج، أنت مغيب، هم تعروا منذ أن أتوا من النظام الغربي والكافر، هم تعروا منذ أن رضوا أن يكونوا أتباعًا للغرب، أنت نائم، أنت غافل، الآن أن تقول: إنهم تعروا؟! هل تنتظر منهم انتفاضة؟! هل أنت تنتظر منهم صرخة، وكرامة، وشهامة، ورجولة، ونخوة؟! هل تنتظر منهم نخوة الكفار؟! إذن أنت ساذج، هؤلاء لا يختلفون عن اليهود، هم سواء، ولاؤهم سواء، لجهة معينة، ليس هناك اختلافات ولاء أبدا، وإلا فالحاكم القابع علىٰ

الحكومة الفلسطينية هذه هو بهائي، كيف يحكم بلاد المسلمين؟! بهائي يحكمهم! ومع ذلك يرىٰ شعبه يقتّل ويباد، ولا يتحرك، ولا استطاع أن يخرج يتكلم؛ لأنه مأمور بهذا.

فالذي لا يفهم هذه المنظومة؛ ينتظر في كل موقف من هؤلاء الحكام الكفار أن يتحركوا!

المتن:

فَإِذَا تَبَيَّنَ عَدَمُ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ سِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ وَانْتَشَرَ فِيهَا الْخَلَلُ، وَخِيفَ بِسَبَبِ ذَلِكَ انْفِرَاطُ عِقْدِ الدَّوْلَةِ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي وَالْحَالَةُ هَذِهِ أَنْ يُعْزَلَ عَنِ الْخِلَافَةِ، وَيَسْتَأْنِفَ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الِاخْتِيَارَ -عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ- لِمَنْ هُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَالْوَجْهُ فِي ذَلِكَ: أَنْ تُصْدِرَ مَحْكَمَةٌ مُشَكَّلَةٌ لِذَلِكَ حُكْمًا بِعَزْلِ الْخَلِيفَةِ، وَخُرُوجِهِ عَنْ حَدِّ الْخِلَافَةِ -أَوَّلًا-.

ثُمَّ تَبْدَأُ إِجْرَاءَاتُ عَقْدِ الْخِلَافَةِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَصْلُحُ لَهَا -ثَانِيًا-، وَقَدْ يَحْدُثَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ أَنْ يَسْتَظْهِرَ الْخَلِيفَةُ بِجُنْدِهِ الَّذِينَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ؛ فَمَا الْعَمَلُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ؟

الشرح:

إذا أصدرت المحكمة حكمًا بعزل الخليفة، ينعزل.

فإذا استنصر الحاكم أو الخليفة بالجنود الذين حوله، بالحرس الملكي، أو الحرس الجمهوري، لا يريد أن يتخلىٰ عن منصبه، وجمع جيوشه وأنصاره، ما الحكم في هذه الحالة؟

المتن:

وَلِهَذَا الْأَمْرِ حَلٌّ وِقَائِيٌّ وَآخَرُ عِلَاجِيٌّ:

أَمَّا الْوِقَائِيُّ: فَهُوَ نَشْرُ الْعِلْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِهَذِهِ الْمَسَائِلِ، وَتَعْلِيمُهَا لَهُمْ، وَوَضْعُ النِّظَامِ الَّذِي يُبَيِّنُ خُرُوجَ الْخَلِيفَةِ عَنِ الصَّلَاحِ لِمَنْصِبِهِ، وَتَفْهِيمِ الْأُمَّةِ أَنَّ صُدُورَ الْحُكْمِ مِنَ الْمَحْكَمَةِ بِعَزْلِ الْخَلِيفَةِ يُفْقِدُهُ جَمِيعَ صَلَاحِيَّاتِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ طَاعَتُهُ، وَإِذَا فَهِمَ النَّاسُ ذَلِكَ وَحَرَصُوا عَلَيْهِ وَتَمَسَّكُوا بِهِ أَمْكَنَ عَزْلُ ذَلِكَ الْخَلِيفَةِ وَتَعَيينُ بَدَلٍ لَهُ مِنْ دُونِ أَيَّةِ مَشَاكِلَ أَوِ اضْطِرَابٍ.

الشرح:

نحن قلنا قبل ذلك أن استفاضة البلاغ في الحاضنة الشعبية: هو أكبر عوامل النجاح للدولة الإسلامية، هو أكبر عامل من عوام ثبات الدولة الإسلامية، أن تُفهِم الناس حقيقة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتىٰ يحكموا هم علىٰ هذا الحاكم بعزله أو بعدم عزله، حتىٰ لا ينتظروا المحكمة، فإذا حكمت المحكمة وأهل

الحل والعقد بعزله، كانوا مع أهل الحل والعقد، فلا يرىٰ الحاكم شعبًا يحكمه علىٰ ما هو عليه من كفر وموجبات عزل.

فيجب علينا الاجتهاد في الدعوة، وتفهيم الناس مفهوم لا إله إلا الله وما ينقضها؛ حتىٰ إذا طرأ علىٰ الحاكم كفر، وظهر عليه شرك وناقض؛ انتفضوا وطلبوا من أهل الحل إسقاطه، فلا يجد الحاكم ناصرًا غير الفئة الصغيرة المحيطة به، وهذه لا تقوم بها النصرة.

لو عُدِم البلاغ، وما فهم الناس قضية التوحيد، لسالت الدماء، وسفكت، بين الحاكم المتمسك بمنصبه مع موجبات عزله، وبين الناس الذين لا يريدونه.

المتن:

لَكِنْ قَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَبْلُغَ الْخَلِيفَةُ فِي الظُّلْمِ وَالطُّغيانِ أَنْ يَمْنَعَ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ مُزَاوَلَةِ أَعْمَالَهِمْ، وَقَدْ يَسْجِنُهُمْ، وَقَدْ يَمْنَعُ الْمَحْكَمَةَ مِنَ الِانْعِقَادِ، وَيَسْتَعِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالْجُنْدِ الَّذِينَ يُغْدِقُ عَلَيْهِمُ الْأُعْطِيَاتِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَظْهَرُ (الْحَلُّ الْعِلَاجِيُّ).

الشرح:

كما حصل لهذا المجرم، اعتقل الناس، واعتقل العلماء، وجاء بأناس من عنده، واستقوىٰ بجيشه، واستولىٰ علىٰ الحكم.

المتن:

كُلِّهِ بِالْجُنْدِ الَّذِينَ يُغْدِقُ عَلَيْهِمُ الْأُعْطِيَاتِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَظْهَرُ (الْحَلُّ الْعِلَاجِيُّ).

وَقَدِ افْتَرَضَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ تِلْكَ الْحَالَةَ وَقَدَّمَ لَهَا الْحَلَّ الَّذِي نُوجِزُهُ فِيمَا يَلِي، يَقُولُ عَنِ الْخَلِيفَةِ:

«فَأَمَّا إِذَا تَوَاصَلَ مِنْهُ الْعِصْيَانُ، وَفَشَا مِنْهُ الْعُدْوَانُ، وَظَهَرَ الْفَسَادُ وَزَالَ السَّدَادُ، وَتَعَطَّلَتِ الْحُقُوقُ وَالْحُدُودُ، وَارْتَفَعَتِ الصِّيَانَةُ، وَوَضَحَتِ الْخِيَانَةُ، وَاسْتَجْرَأَ الظَّلَمَةُ، وَلَمْ يَجِدِ الْمَظْلُومُ مُنْتَصِفًا مِمَّنْ ظَلَمَهُ، وَتَدَاعَى الْخَلَلُ وَالْخَطَلُ إِلَى عَظَائِمِ الْأُمُورِ، وَتَعْطِيلِ الثُّغُورِ، فَلَا بُدَّ مِنِ اسْتِدْرَاكِ هَذَا الْأَمْرِ الْمُتَفَاقِمِ...، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِمَامَةَ إِنَّمَا تُعْنَىٰ لِنَقِيضِ هَذِهِ الْحَالَةِ.

الشرح:

يعني أن الإمامة ما جُعِلت إلا لحفظ الأمن في البلاد، وحفظ الثغور وبيضة الإسلام. هذا هو الأصل.

فإذا لم يحدث هذا، فلا قيمة للخلافة، ولا قيمة للحكم.

المتن:

فَإِذَا أَفْضَىٰ الْأَمْرُ إِلَىٰ خِلَافِ مَا تَقْتَضِيهِ الزَّعَامَةُ وَالْإِيَالَةُ[(١)]؛ فَيَجِبُ اسْتِدْرَاكُهُ لَا مَحَالَةَ، وَتَرْكُ النَّاسِ سُدًى مُلْتَطِمِينَ لَا جَامِعَ لَهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أَجْدَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْرِيرِهِمْ عَلَىٰ اتِّبَاعِ مَنْ هُوَ عَوْنُ الظَّالِمِينَ، وَمَلَاذُ الْغَاشِمِينَ، وَمَوْئِلُ الْهَاجِمِينَ، وَمُعْتَصَمُ الْمَارِقِينَ النَّاجِمِينَ...

فَأَقُولُ: إِنْ عَسُرَ الْقَبْضُ عَلَىٰ يَدِهِ الْمُمْتَدَّةِ لِاسْتِظْهَارِهِ بِالشَّوْكَةِ الْعَتِيدَةِ.

الشرح:

يعني: إذا ما قدرنا أن نقبض عليه؛ لأنه مستظهر بشوكة، بجيشه بشرطته، ففي هذه الحالة...

المتن:

إِنْ عَسُرَ الْقَبْضُ عَلَىٰ يَدِهِ الْمُمْتَدَّةِ لِاسْتِظْهَارِهِ بِالشَّوْكَةِ الْعَتِيدَةِ، وَالْعُدَدِ الْمُعَدَّةِ، فَقَدْ شَغَرَ الزَّمَانُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْحَقِّ، وَدُفِعَ إِلَىٰ مُصَابَرَةِ الْمِحَنِ طَبَقَاتُ الْخَلْقِ... فَإِنْ تَيَسَّرَ نَصْبُ إِمَامٍ مُسْتَجْمِعٍ لِلْخِصَالِ الْمَرْضِيَّةِ، وَالْخِلَالِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي رِعَايَةِ الرَّعِيَّةِ، تَعَيَّنَ الْبِدَارُ إِلَىٰ اخْتِيَارِهِ، فَإِذَا انْعَقَدَتْ لَهُ الْإِمَامَةُ، وَاتَّسَقَتْ لَهُ الطَّاعَةُ عَلَىٰ الِاسْتِقَامَةِ، فَهُوَ إِذْ ذَاكَ يَدْرَأُ مَنْ كَانَ، وَقَدْ بَانَ الْآنَ أَنَّ تَقْدِيمَ دَرْئِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ، فَإِنْ أَذْعَنَ، فَذَاكَ، وَإِنْ تَأَبَّىٰ عَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الطُّغَاةِ، وَقَابَلَهُ

---

(١) قال في «مختار الصِّحَاح» (٣٨): «(الإيالة): السِّياسة، يُقَالُ: آلَ الأمير رعيَّته... و (إيالا) أيضا؛ أي: ساسها وأحسن رعايتها».

مُقَابَلَةَ الْبُغَاةِ... وَإِنْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يَتَأَتَّىٰ نَصْبُ إِمَامٍ دُونَ اقْتِحَامِ دَاهِيَةٍ وَإِرَاقَةِ دِمَاءٍ، وَمُصَادَمَةِ أَحْوَالٍ جَمَّةِ الْأَهْوَالِ، وَإِهْلَاكِ أَنْفُسٍ وَنَزْفِ أَمْوَالٍ، فَالْوَجْهُ أَنْ يُقَاسَ مَا النَّاسُ مَدْفُوعُونَ إِلَيْهِ مُبْتَلَونَ بِهِ بِمَا يُفْرَضُ وُقُوعُهُ فِي مُحَاوَلَةِ دَفْعِهِ، فَإِنْ كَانَ الْوَاقِعُ النَّاجِزُ أَكْثَرَ مِمَّا يُقَدَّرُ وُقُوعُهُ فِي رَوْمِ الدَّفْعِ، فَيَجِبُ احْتِمَالُ الْمُتَوَقَّعِ لَهُ لِدَفْعِ الْبَلَاءِ النَّاجِزِ، وَإِنْ كَانَ الْمُرْتَقَبُ الْمُتَطَلَّعُ يَزِيدُ فِي ظَاهِرِ الظُّنُونِ إِلَىٰ مَا الْخَلْقُ مَدْفُوعُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يُسَوَّغُ التَّشَاغُلُ بِالدَّفْعِ، بَلْ يَتَعَيَّنُ الِاسْتِمْرَارُ عَلَىٰ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ...»[1]

إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ: «وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِإِتْمَامِ الْغَرَضِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَصَدِّيَ لِلْإِمَامَةِ إِذَا عَظُمَتْ جِنَايَتُهُ، وَكَثُرَتْ عَادِيَتُهُ، وَفَشَا احْتِكَامُهُ وَاهْتِضَامُهُ، وَبَدَتْ فَضَحَاتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَثَرَاتُهُ، وَخِيفَ بِسَبَبِهِ ضَيَاعُ الْبَيْضَةِ، وَتَبَدُّدُ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ نَجِدْ مَنْ نُنَصِّبُهُ لِلْإِمَامَةِ حَتَّىٰ يَنْتَهِضَ لِدَفْعِهِ حَسْبَ مَا يَدْفَعُ الْبُغَاةَ، فَلَا نُطْلِقُ لِلْآحَادِ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ أَنْ يَثُورُوا؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَاصْطُلِمُوا وَأُبِيرُوا[2]، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي ازْدِيَادِ الْمِحَنِ، وَإِثَارَةِ الْفِتَنِ، وَلَكِنْ إِنِ اتَّفَقَ رَجُلٌ مُطَاعٌ ذُو أَتْبَاعٍ وَأَشْيَاعٍ، وَيَقُومُ مُحْتَسِبًا، آمِرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَانْتَصَبَ بِكِفَايَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا دُفِعُوا إِلَيْهِ، فَلْيَمْضِ فِي ذَلِكَ قُدُمًا. وَاللهُ نَصِيرُهُ عَلَىٰ الشَّرْطِ

---

(١) «غياث الأمم»: (٨٠-٨٣).

(٢) **(اصطلموا)**: أي: استؤصلوا. انظر مختار الصحاح: (٢٥٨). **(أبيروا)** أي: أهلكوا. انظر «مختار الصحاح»: (٦١).

الْمُقَدَّمِ فِي رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ، وَالنَّظَرِ فِي الْمَنَاجِحِ، وَمُوَازَنَةِ مَا يُدْفَعُ، وَيَرْتَفِعُ بِمَا يُتَوَقَّعُ...

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ قَدَّمْتُمْ أَنَّ وَجْهَ خَلْعِ الْإِمَامِ نَصْبُ إِمَامٍ ذِي عُدَّةٍ، فَمَا تَرْتِيبُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ؟

قُلْنَا: الْوَجْهُ خَلْعُ الْمُتَقَدِّمِ، ثُمَّ نَصْبُ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّانِي يَدْفَعُهُ دَفْعَهُ لِلْبُغَاةِ، كَمَا سَبَقَ تَقْرِيرُهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَنْ يَخْلَعُهُ؟

قُلْنَا: الْخَلْعُ إِلَىٰ مَنْ إِلَيْهِ الْعَقْدُ» (١)

الشرح:

فإذا الخليفة طرأ عليه ما يوجب خلعه، وهو لم ينخلع، واستعصم بجيشه وبشرطته، نظر أهل الحل والعقد، فإذا رأوا من يخلفه، وتوفرت فيه شروط الإمامة، فإنهم يولونه وينصبونه، وهو يعامل هذا الذي أبىٰ أن ينخلع معاملة البغاة، فيعتدي عليه، ويأطره علىٰ الحق أطرًا.

فإذا كانت القوة متقاربة، يعني: هذا لا يُظَن أنه يزيح هذا، والدماء تنتشر، والأمور تفسد، ما يُفعَل؟ قال: يُهَدَّأ الناس، يعني: لا تقوم الثورات؛ لأن

---

(١) «غياث الأمم»: (٨٨-٩٦)، باختصار شديد.

والحالة هذه سيستأصل هذا المتغلب الذي رفض الانصياع، كلَّ من يخالفه، سيصطلم كل هؤلاء، وتذهب الفئة المؤمنة، وتُستأصل عن بكرة أبيها. وهذه مفسدة عظيمة لأهل التوحيد والإسلام، أن يستأصلهم الطاغوت.

لذلك عندما تكون الغلبة للطاغوت، وعندهم عوامل القوة، في هذه الحالة: الحكمة أن يهدأ أهل الحل والعقد، وأهل التوحيد والجهاد، ولا يعلنوا عن نفسهم في هذه الحالة؛ لأن مجرد إعلانهم في هذه الحالة سيخطفهم هذا الطاغوت خطفًا، ويقتلهم جميعًا، ولا تقوم للإسلام قائمة في هذا المكان.

فما الحل؟

الحل: أن يهدؤوا، ويجيشوا الناس بفهم لا إله إلا اللـه، وفهم التوحيد، وفهم النواقض التي وقع فيها هذا الخليفة، أو هذا الحاكم، أو هذا الإمام، وأوجبت كفره وعزله، ثم يعملوا علىٰ تنصيب آخر بجيش مضاد لهذا الجيش، حتىٰ وإن سالت بسبب ذلك بعض الدماء؛ لأن منصب الخلافة لا يشغر، لا بد من تنصيبه حتىٰ لو ترتب علىٰ ذلك شيء من المفاسد، ومن إراقة الدماء.

قالوا: فإذا امتنع فمن يخلعه؟ من يعلن أنه مخلوع؟

نقول: الذين نصبوه، أهل الحل والعقد، هم الذين يعلنون أن ولايته سقطت.

فإذا استقر ذلك في نفوس الناس، ولم يسمعوا له ولم يطيعوا؛ فسيجد نفسه يحكم نفسه، فإذن ينعزل لوحده.

المتن:

فَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، أَهْلُ الشُّورَىٰ وَالِاخْتِيَارِ، هُمُ الَّذِينَ يَنْصِبُونَ الْإِمَامَ وَيَخْتَارُونَهُ؛ عَلَىٰ وَفْقِ الشُّرُوطِ السَّابِقَةِ، وَهُمْ كَذَلِكَ الَّذِينَ يَخْلَعُونَهُ إِذَا طَرَأَ عَلَيْهِ مَا يُوجِبُ خَلْعَهُ.

فَالَّذِي يَخْتَارُ الْحَاكِمَ، وَمَنْ لَهُ حَقُّ تَنْصِيبِهِ وَتَوْلِيَتِهِ وَعَزْلِهِ هُمْ أَهْلُ الشُّورَىٰ؛ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ؛ أَهْلُ الِاخْتِيَارِ.

الشرح:

يعني: ليس الشعب هو الذين يختار الإمام.

المتن:

-كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ- عَلَىٰ الشُّرُوطِ الَّتِي يَجِبُ تَوَافُرُهَا فِي مَنْ يَتَوَلَّىٰ الْحُكْمَ أَوِ الْإِمَامَةَ الْعُظْمَىٰ -كَمَا سَبَقَ بَيَانُهَا-.

مَسْأَلَةٌ: هَلِ الْحَاكِمُ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ أَهْلِ الشُّورَىٰ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ تَعْيِينًا وَعَزْلًا؟

اَلْأَصْلُ أَنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالشُّورَىٰ وَالِاخْتِيَارِ، لَهُمْ مَجْلِسٌ مِنْهُمْ.

الشرح:

يعني: هم لهم مجلس، يختارون منهم رئيسًا عليهم ونائبًا له، فالذي يختار رئيس مجلس الشورىٰ هم أهل الشورىٰ أنفسهم، ليس الأمير، وليس الخليفة، وليس الملك؛ لأنه لو اختار هو لضمن ولاءه له علىٰ غير مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لذلك كان زمان في الأزهر، كان الذي يعيّن شيخ الأزهر هم العلماء؛ لأن شيخ الأزهر ينبغي أن يكون عالمًا من كبار العلماء، فكبار العلماء يجتمعون ويعينون لهم شيخًا للأزهر، وكانت هيئة مستقلة عن الحكم والرئاسة استقلالًا تامًا، فكان كل ملك، أو كل حاكم، يريد أن يكسب ود هذه المؤسسة (هيئة كبار العلماء)، ويسير في ركابها، ولا يخالفها؛ لأنه يعلم أن بمخالفتها سيثور عليه الناس ويسقطوه؛ لأن الناس متدينون بالفطرة.

وهذا الذي كان يفعله آل سعود مع أئمة الدعوة، أيام كان أئمة الدعوة أقوياء، وأصحاب كلمة؛ كان الملوك يسيرون في ركابهم، ولا يصدرون إلا عن رأيهم، ولا يقطعون لا رأيا داخليًّا ولا خارجيًّا إلا بمشورتهم، فلما ضعفوا، وبدؤوا يستقلون، وبدأ الملك يسيطر عليهم بالاستمالة والاحتواء، وأغدق عليه المال، فبدؤوا يميلون، ويوقعون فقط.

فهذا كان معمولًا به في زمن.

المتن:

اَلْأَصْلُ أَنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالشُّورَىٰ وَالِاخْتِيَارِ لَهُمْ مَجْلِسٌ مِنْهُمْ، خَاصٌّ بِهِمْ، مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ التَّخَصُّصِ، وَلَهُ نِظَامٌ إِدَارِيٌّ قَائِمٌ عَلَىٰ الِاقْتِرَاعِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

الشرح:

يعني هم الذين يختارون منهم رئيسهم؛ حتىٰ يضمنوا ولائه لله ولرسوله وللمسلمين، ويختارون نائبًا له، إذا غاب هذا يحل محله هذا. لا دخل للملك والخليفة في هذه المسألة.

المتن:

وَلَيْسَ عَلَىٰ التَّعْيِينِ مِنْ قِبَلِ الْحَاكِمِ؛ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ، أَوْ تَأْثِيرٌ فِيمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ تَدَابِيرَ تَخُصُّ الدَّوْلَةَ وَمَصْلَحَةَ النَّاسِ.

هَلْ لَهُمْ أَنْ يُحَدِّدُوا مُدَّةَ حُكْمِ الْخَلِيفَةِ أَوِ الْحَاكِمِ بِسَنَوَاتٍ مُحَدَّدَةٍ؟

اَلْأَصْلُ أَنَّ هَذَا لَا يُعْرَفُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَلَا تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ، فَالْخَلِيفَةُ وَإِمَامُ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ أَنْ يُنَصَّبَ إِمَامًا وَحَاكِمًا لَا يُعْزَلُ مِنْ مَنْصِبِهِ، وَلَا يَتْرُكُ سُدَّةَ الْحُكْمِ إِلَّا إِذَا طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ أَوْ عَتَهٌ أَوْ جُنُونٌ أَوْ مَرَضٌ، أَوْ عَارِضٌ مِنَ الْعَوَارِضِ يَمْنَعُهُ مِنْ مُمَارَسَةِ مَهَامِّ مَنْصِبِهِ؛ لِأَنَّهُ اِخْتِيرَ بِتَوَفُّرِ صِفَاتِ الْإِمَامَةِ فِيهِ، وَانْطِبَاقِ شُرُوطِهَا عَلَيْهِ، فَلَا يُنَازَعُ فِي مَنْصِبِهِ إِلَّا بِسَبَبٍ شَرْعِيٍّ -كَمَا سَبَقَ-.

وَتَحْدِيدُ مُدَّةِ وِلَايَةِ الْحَاكِمِ بِسَنَوَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، لَا تُعْرَفُ إِلَّا فِي النِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ، فِي ظِلِّ الْحُكْمِ الْعَلْمَانِيِّ وَالْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ، كَمَا تَنُصُّ عَلَيْهَا الدَّسَاتِيرُ فِي الْبِلَادِ الْكُفْرِيَّةِ.

نأتي للكلام علىٰ المكون الثاني من مكونات الشعب: وهو رأس الدولة (الحاكم)، وللحاكم شروط يجب أن تتوفر فيه، وله خصائص صفات، فليس كل أحد يصلح للحكم، بل للحاكم خصائص، إذا توفرت في شخص فهو أجدر بهذه المهمة؛ لأن الحكم تكليف، ومسؤولية تجاه الدولة والشعب، وليس تشريفًا، فلا يُتسَارع إلىٰ هذا المنصب.

المتن:

المكون الثَّانِي: الحَاكِمُ (رَأْسُ الدَّوْلَةِ):

(الحَاكِمُ) أَوِ (الْخَلِيفَةُ) أَوِ (الرَّئِيسُ) أَوِ (الْـمَلِكُ) أَوِ (الْأَمِيرُ): هُوَ جُزْءٌ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ المجتَمَعِ، وَاخْتِيَارُه أَمْرٌ وَاجِبٌ، وَضَرُورِيٌّ...

الشرح:

مر معنا الكلام عن وجوب إقامة الدولة، ووجوب تنصيب الخليفة، فالدولة لا تستقيم إلا برأس ينظمها، ويقوم علىٰ شؤونها، ولولا هذا الرأس لانفرط عقدها، وانتشرت الفوضىٰ في أرجائها، فلا بد من رأس يجتمعون عليه، ويصدرون عن أمره، وتُوزَّع عليهم التكاليف والوظائف والمهمات؛ لأن

الأصل أن المسلم فاعل، يعمل لو لا يسكن أبدًا، فإذا عمل هذه الأعمال، فلا بد من مهمة محددة تُناط به، ويلتزمها، ويَسأله عنها الحاكمُ، أو الرئيس، أو الملك، هل قام بهذا العمل وفق الأصول الشرعية أم لا؟

فلا بد أن يعرف كل فرد من أفراد الدولة دوره في البناء، لا تقل: أنا أساعد فقط، أو: أنا أعمل أعمالًا علىٰ قدر استطاعتي. بل لا بد أن تحدد وظيفتك؛ لأن سالمًا مولىٰ أبي حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في معركة اليمامة -وكان من القراء-، عندما اشتد القتال علىٰ أهل الإسلام، أخذ الراية بعد مقتل زيد بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، قال له المهاجرون: «أتخشىٰ أن نؤتىٰ من قبلك؟» فقال: «بئس حامل القرآن أنا إذًا»، ولذلك حفر لنفسه -رضي الله عنه وأرضاه- حفرة فقام فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذ، ثم قاتل، فقطعت يده اليمنىٰ، فأخذها بشماله فقُطعت، فاحتضنها، فما زال يحمل الراية حتىٰ صُرع[1]، وهو يحرص ألَّا يؤتىٰ الإسلام من قبله.

فلو تخيلنا هذا الموقف، وحملناه علىٰ كل واحد منا، وعرف كل واحد منا دوره في هذه الدولة، لبقيت دولة الإسلام شامخة مستمرة، ولكننا كثيرًا ما يؤتىٰ الإسلام من قبلنا، ونحن لا ندري، ونظن أننا علىٰ خير، ولكن سالمًا ضرب

---

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٩/ ٤٦٨)، و«مختصر سيرة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» لمحمد بن عبد الوهاب: (٢٨٠).

لنا مثلًا عظيمًا في العمل لهذا الدين، وهو أن تكون أنت الصخرة التي تتكسر عليها أهداف العدو، وأن تكون فداء لهذا الدين.

فهذه المسؤولية لا بد أن ينتبه لها كل مسلم، وعلىٰ كل فرد أن يعمل لهذا الدين؛ لا من أجل أمور أخرىٰ، لابد أن نبذل لهذا الدين، لا أقول: وقتًا، بل حياتنا كلها.

إذا لم نعط هذا الدين دماءَنا وأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فلسنا جديرين به، حتىٰ وإن ادعينا أننا من حملة هذا الدين، ولكننا لا نعمل له العمل الواجب.

ولكن سالمًا مولىٰ أبي حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ضرب لنا مثل المسلم حامل القرآن، الذي يخشىٰ أن يؤتىٰ المسلمون من قبله، فيسأله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة عن ذلك، لماذا أتي الإسلام من قبلك؟ لماذا لم تقف موقف المسلم الشجاع الذي يرىٰ ما عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فتهون عليه الدنيا وما فيها؟

فينبغي لنا أن نعمل لهذا الدين بهذه الروح، وإلا فنحن نضيّع أوقاتنا.

فإذا أردت أن تعمل لدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا بد أن تلتزم بعمل، وتقف علىٰ هذا الثغر؛ حتىٰ لا يؤتىٰ الإسلام من قبلك، هذا الذي ينبغي لنا في هذه الحياة الدنيا؛ أما أن نتكلم، ونعقد المجالس، ولا نرىٰ أثرَ ذلك في حياتنا، فإننا نخشىٰ أن يعاقبنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك.

المتن:

(الحَاكِمُ) أَوِ (الْخَلِيفَةُ) أَوِ (الرَّئِيسُ) أَوِ (الْـمَلِكُ) أَوِ (الْأَمِيرُ): هُوَ جُزْءٌ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ المجتَمَعِ، وَاخْتِيَارُه أَمْرٌ وَاجِبٌ، وَضَرُورِيٌّ لِاسْتِقَامَةِ حَيَاةِ النَّاسِ، وَحَتَّىٰ يَخْتَارَهُ أَهْلُ الحَلِّ والعَقْدِ أَهْلُ الشُّورَىٰ وَالِاخْتِيَارِ؛ لَا بُدَّ مِنْ تَوَفُّرِ شُرُوطٍ وَصِفَاتٍ تُؤَهِّلُهُ لِتَوَلِّي هَذَا الـمَنْصِبِ، وَيَكُونُ وَلِيًّا لِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ تَجِبُ طَاعَتُهُ، فَجَاءَتْ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ مُبَيِّنَةً الشُّرُوطَ اللَّازِمَ تَوَافُرُهَا فِيمَنْ يُخْتَارُ لِيَكُونَ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ: الْإِسْلَامُ، وَالْبُلُوغُ، وَالْعَقْلُ، وَالذُّكُورَةُ، وَالْعِلْمُ، وَالْعَدَالَةُ، وَالْقُرَشِيَّةُ.

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ زَادَ عَلَىٰ هَذِهِ الشُّرُوطِ؛ مِثْلَ:

الْعَدَالَةِ الْجَامِعَةِ لِشُرُوطِهَا.

وَالْعِلْمِ الْـمُؤَدِّي إِلَىٰ الِاجْتِهَادِ فِي النَّوَازِلِ وَالْأَحْكَامِ.

الشرح:

إذن الإسلام هو الأصل، والبلوغ، والعقل، والذكورة، والعلم، والعدالة، والقرشية إن توفر، فإن لم يوجد قرشي، فمسلم تتوفر فيه هذه الشروط.

«والعلم المؤدي إلىٰ الاجتهاد في النوازل»: أي: لا يكون جاهلًا، لا بد أن يكون ذا علم وبصيرة وفقه في النوازل؛ حتىٰ يكون له رأي، وحتىٰ لا يكون

ريشة في مهب أعداء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو مهب المنافقين الذين ربما يتسللون من حوله، فيفرضون عليه رأيًا، بل لا بد أن يكون ذا رأي، وعلم، ومعرفة باستنباط الأحكام، وفقه بالنوازل.

أما أن يتولىٰ هذا الأمر من لا يفقه في دين الله، أو لا يعرف النوازل، أو ليس ملمًا بالسياسة الشرعية، فهذا كله ثلمة في الإسلام، يُؤتَىٰ الإسلام من قبل هذا.

المتن:

سَلَامَةِ الحَوَاسِّ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ؛ لِيَصِحَّ مَعَهَا مُبَاشَرَةُ مَا يُدْرَكُ بِهَا.

الشرح:

فلا تعقد الإمامة للأعمىٰ.

وقد اختلف بعض المعاصرين في هل تنعقد الإمامة للأعمىٰ؟

فقالوا: لا تنعقد.

وقالوا: هل تكون لجاهل؟

قالوا: لا.

فتضاربوا في ذلك؛ لأنهم يريدون تحزّبًا لشخص ما في هذا الوقت، ونسوا الشروط الشرعية التي وضعها أهل الإسلام لمتولي هذا المنصب.

المتن:

وَسَلَامَةِ الأَعْضَاءِ مِنْ نَقْصٍ يَمْنَعُ عَنْ اسْتِيفَاءِ الحَرَكَةِ وَسُرْعَةِ النُّهُوضِ.

الرَّأْيِ الـمُفْضِي إِلَىٰ سِيَاسَةِ الرَّعِيَّةِ وَتَدْبِيرِ الـمَصَالِحِ، والشَّجَاعَةِ، والنَّجْدَةِ المؤدِّيَةِ إِلَىٰ حِمَايَةِ البَيْضَةِ وَجِهَادِ العَدُوِّ.

فَحَتَّىٰ يَكُونَ وَلِيَّ أَمْرٍ لِلْمُسْلِمِينَ تَجِبُ طَاعَتُهُ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ: مُسْلِمًا.

الشرح:

فلا ولاية لكافر، لا تنعقد الولاية لكافر. هذا أصل.

لذلك الذين يقولون: إن ولي الأمر وإن طرأ عليه كفر، فتصح ولايته في المعروف. هؤلاء خالفوا إجماع أهل السنة والجماعة علىٰ اشتراط الإسلام في من يتولىٰ الإمامة.

فلا بد أن يكون الإمام مسلمًا، وإذا طرأ عليه ناقض، أو ارتد عن الإسلام، سقطت ولايته، سواء أكان في الخير أم في الشر.

بعض أهل التلبيس وأهل الإرجاء يقولون: إذا كفر، أطعْه في المعروف. نقول: أطيعه في المعروف إن لم يكن إمامًا وكان من عامة الناس، وأمرني بمعروف في الدين، أطيعه وأسمع له؛ أما في منصبه هذا، فلا سمع له ولا طاعة،

بنص قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا**»(١)، فإذن سقطت ولايته بمجرد وقوعه في الناقض.

وأيًّا كانت مبرراتهم التي يأتون بها، فإن النص لا يحتملها، ولا تأويل مع النص.

المتن:

فَالْإِسلَامُ هُوَ الْأَصْلُ وَالْعِصَامُ؛ فَلَا تَنْعَقِدُ الْإِمَامَةُ لِغَيْرِ مُسْلِمٍ، وَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الكُفْرُ بَعْدَ تَوَلِّيهِ فَهُوَ مَعْزُولٌ لَا مَحَالَةَ، وَهَذَا الْقَدْرُ مُتَّفَقٌ عَلَيهِ بَيْنَ العُلَمَاءِ، وَالأَصْلُ فِي اعْتِبَارِ هَذَا الشَّرْطِ: النَّصُّ والإجْمَاعُ، قَالَ تَعَالَىٰ: {وَلَن اللـه للكافرين على المؤمنين سبيلا يَجْعَلَ الـلـه لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: ١٤١].

الشرح:

هذا نص من القرآن علىٰ أنه لا تنعقد الإمامة لكافر، فلا يجعل لأهل الكفر علىٰ المؤمنين سبيلًا وطريقًا.

المتن:

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٠٥٦)، ومسلم، رقم: (١٧٠٩).

ولا سَبِيلَ أَعْظَمَ مِنْ وِلَايَةِ الإِمَامِ الأَعْظَمِ، وقَالَ تَعالَى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ} [النساء: ٥٩].

الشرح:

الخطاب في قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ}، موجه لأهل الإيمان، {أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ}، {مِنكُمۡ} هنا: عائدة على المؤمنين، يعني: يكون هذا الإمام منكم، لا من غيركم.

المتن:

فَفِي قَوْلِه تَعَالَىٰ: {وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ} دِلَالَةٌ عَلَىٰ وُجُوبِ أَنْ يَكُونَ وُلَاةُ الأَمْرِ مِن الـمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ الآيةَ تَتَوجَّهُ بِالخِطَابِ إِلَيْهِم مِن البِدَايَةِ.

وقَدْ نَقَلَ أَهْلُ العِلْمِ الإِجْمَاعَ علىٰ هَذَا الشَّرْطِ، قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ: «أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنّ الإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ، وَعَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الكُفْرُ انْعَزَلَ».

أَنْ يَكُونَ رَجُلًا، فَلَا وِلَايَةَ لِامْرَأَةٍ، فَلَا تَنْعَقِدُ الإِمَامَةُ لِامْرَأَةٍ إِجْمَاعًا؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ مَلَّكُوا بِنْتَ كِسْرَىٰ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»، وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَأَصْحَابُ السُّنَنِ، وَالإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الـمُسْنَدِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ.

الشرح:

فلا ولاية لا عامة ولا خاصة للنساء في بلاد الإسلام، وهذا يقطع الطريق علىٰ دعاة العلمانية، والديموقراطية، والحرية، وغير ذلك، الذين يريدون أن يجعلوا المرأة مساوية للرجل في القضاء، وفي الحكم، وفي الرئاسة، وفي غير ذلك.

والمرأة الصالحة حدد لها الإسلام دورها، وهو البيت والزوج والأولاد، هذه الثلاث هي مهمة المرأة المسلمة، فإذا خرجت عنها، فسد المجتمع، لذلك نقول: المرأة تعمل في التمريض، وفي الطب، وفي غير ذلك، إذا كان نقصٌ في أمر متعلق بالنساء.

وعندما سئِلت وأم المؤمنين عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا-: أكنتن تجاهدن علىٰ عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟

قالت: نعم، ولكن كنا نطبب الجرحىٰ، هذا دورنا، لم نقاتل. (لم أجد نص الحديث. قالت الربيع بنت معوذ بن عفراء: «كنا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نسقي ونداوي الجرحىٰ ونرد القتلىٰ إلىٰ المدينة».

فليس علىٰ النساء قتال، لكن يطببن الجرحىٰ ونحو ذلك، فهن ردء في مثل هذه الأمور.

فإذا احتيج إليهن قاتلن بحسب الحاجة، فالحاجة تقدر بقدرها، كما قتلت صفية -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- يوم الأحزاب، يهوديًا كان يطوف بالحصن الذي فيه النساء والصبيان[1].

فالأصل في المرأة أن تلتزم دورها في البيت والزوج والأولاد.

فإذا انتبهت لهذه الثلاث، أخرجت لنا جيلًا عظيمًا علىٰ خلق القرآن؛ أما إذا تخلت عن مسؤوليتها، وانشغلت بغير ما خلقت له، فسد نظام المجتمع.

المتن:

وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ مَبْنَىٰ الإِمَامَةِ عَلَىٰ الاخْتِلَاطِ بِالرِّجَالِ وَالتَّشَاوُرِ مَعَهُم، وَمَبْنَىٰ الأُنُوثَةِ علىٰ السّترِ والقَرَارِ فِي البُيُوتِ، فَضْلًا عَن عَدَمِ صَلَاحِيَةِ المرْأَةِ فِي الغَالِبِ لِلْقَهْرِ والغَلَبَةِ، وَجَرِّ العَسَاكِرِ، وتَدْبِيرِ الحُرُوبِ، ونَحْوِه مِمَّا يُنَاطُ بِالأَئِمَّةِ، ولأَنَّ عِبْءَ المنْصِبِ يَتطَلَّبُ قُدْرَةً كَبِيرَةً لَا تَتَحَمَّلُهَا المرْأَةُ عَادَةً، ولا تَتَحَمَّلُ المسئُولِيَّةَ المُتَرَتِّبَةَ علىٰ هَذِهِ الوَظِيفَةِ فِي السِّلْمِ والحَرْبِ والظُّرُوفِ الخَطِيرَةِ؛ لِذَا أَجْمعَ الفُقَهَاءُ علىٰ كَوْنِ الإِمَامِ ذَكَرًا.

الشرح:

وليس الفقهاء فقط، بل أجمع علىٰ ذلك أهل الإسلام جميعًا، لأن المرأة إذا وَلِيت الإمارة والإمامة، لكان ذلك انخرمًا في أصل الإسلام، ومضادةً

(١) انظر «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٢٢٨).

ومناقضةً لحديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذي نهىٰ عن الاختلاط، فأنَّىٰ لامرأة أن تحكم ولا تختلط بالرجال؟! بل هذا لا بد منه؛ لذلك لا تكون لها ولاية في دولة الإسلام.

المتن:

أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا، بَالِغًا، حُرًّا؛ فَلَا وِلَايَةَ لِمَجْنُونٍ، وَلَا صَبِيٍّ، وَلَا عَبْدٍ.

أَمَّا البُلُوغُ فَأَمْرٌ بَدَهِيٌّ؛ لِأَنَّ الصَّبِيَّ لَيْسَ كُفْئًا لِمِثْلِ هَذِهِ المهَامِّ الكُبْرَىٰ، فهُوَ غَيْرُ مَسْئُولٍ عَنْ أَفْعَالِه، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ حُكْمٌ مُعَيَّنٌ.

وأَمَّا العَقْلُ فَمَطْلُوبٌ لِصِحَّةِ كُلِّ تَصَرُّفٍ خَاصٍ أو عَامٍ، وَلَا يُكْتَفَىٰ فِيهِ الحَدُّ الأَدْنَىٰ لِلْمُطَالَبَةِ بِالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّة: مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَنَحْوِهِمَا، بَل لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رُجْحَانِ الرَّأْيِ، بَأَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ صَحِيحَ التَّمْيِيزِ، جَيِّدَ الفِطْنَةِ، بَعِيدًا عَن السَّهْوَ وَالغَفْلَةِ، يَتَوَصَّلُ بِذَكَائِه إِلَىٰ إِيضَاحِ ما أَشْكَلَ، وَفَصْلِ مَا أَعْضَلَ. كَمَا قَالَ الماوَرْدِيُّ.

فَلَا تَنْعَقِدُ الإِمَامَةُ لِصَبِيٍّ، وَلَا لَمَجْنُونٍ إِجْمَاعًا؛ لَأَنَّ التَّكْلِيفَ مِلَاكُ الأَمْرِ وَعِصَامُه، وَلَا تَكْلِيفَ عَلَىٰ صَبِيٍّ وَلَا مَجْنُونٍ؛ كَمَا صَحَّ الحَدِيثُ عِندَ أَصْحَابِ السُّنَنِ الأَرْبَعَةِ، وَابْنِ حَجَرٍ فِي الفَتْحِ، وابنِ حَزْمٍ فِي الـمُحَلَّىٰ، وَالنَّوَوِيِّ فِي المجمُوعِ، قَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّىٰ يَبْلُغَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّىٰ يُفِيقَ»

فَلَا تَصِحُّ الإِمَامَةُ العُظْمَىٰ إِلَّا لِمُسْلِمٍ حُرٍّ، ذَكَرٍ، مُكَلَّفٍ، عَدْلٍ، مُجْتَهِدٍ، شُجَاعٍ، مُطَاعٍ، ذِي رَأْيٍ، سَمِيعٍ، بَصِيرٍ، نَاطِقٍ، قُرَشِيٍّ. وَلَا بُدَّ مِن بَيْعَةِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ مِن العُلَمَاءِ وَوُجُوهِ النَّاسِ.

الشرح:

فلو توفرت فيه هذه الشروط، ولم يبايعه أهل والعقد، فلا بيعة له، كما مر معنا في وظيفة أهل الحل والعقد؛ لأن الأمر ليس لهوىٰ الناس، وليس لما يختارونه، بل هذه المسألة منتظمة في عقود وشروط، فلا بد من أن يختاره أهل الحل والعقد.

المتن:

أَنْ يَكُونَ مُحَكِّمًا لِلشَّرِيعَةِ مُلْتَزِمًا بِهَا؛ فَلَا وِلَايَةَ لِمُبَدِّلٍ دِينَ اللهِ، وَلَا مُشَرِّعٍ مِنْ دُونِ اللهِ.

الشرح:

هذا الأمر الثالث: أن يكون ملتزمًا بأحكام الإسلام، محكّمًا للشريعة، فإذا بدل أحكام الإسلام، ولم يحكّم الشريعة، نقضت ولايته، وسقطت إمامته؛ لأن التبديل كفر، وقلنا أنه لا ولاية لكافر.

فلو كان مسلمًا، ثم طرأ عليه الكفر، سقطت ولايته، والذين يقولون: إن الحاكم الذي ورث ما كان قبله، من الكفر وعدم تحكيم الشريعة، مسلم تصح ولايته؛ لأنه جاء إلىٰ الحكم وهذه الأمور موجودة.

نقول: نعم، لو صدقناكم في هذا، وكان -كما تقولون- مسلمًا، وورث هذه التركة من الذي قبله، فلا بد أن يحكّم شريعة الإسلام، وإلا فهو راضٍ بما وجده، ولا يريد التغيير، ولا يريد أن يحكم الشرع، ولا يرفع للإسلام شأنًا، بل يسير في ركب من سبقه، ويزيد.

إذن شبهتكم هذه منقوضة بعمله في واقع الناس؛ لأن الذي يريد أن يغير حكم الكفر إلىٰ الإسلام، يعمل وهو مقبل علىٰ ذلك، أما أن يرضىٰ بذلك، فهذا تسقط ولايته.

المتن:

فَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الـلـه، وَشَرَّعَ مِنْ دُونِ الـلـه، وَسَنَّ القَوَانِينَ الـمُخَالِفَةَ لِلشَّرِيعَةِ، وَأَلْزَمَ النَّاسَ بِهَا، وَحَارَبَ أَهْلَهَا؛ فَلَيسَ وَلِيَّ أَمْرٍ لِلمُسْلِمِينَ وَلَا طَاعَةَ لَه؛ لِأَنَّه مُعَانِدٌ مُعْرِضٌ مَعَ قُدْرَتِه وَتَمَكُّنِهِ وَعَدَمِ عَجْزِه.

فالإِسْلَامُ وَتَحْكِيمُ شَرِيعَتِه شَرْطُ الوِلَايَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

وَلَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ الـلـه، بَل الطَّاعَةُ فِي الـمَعْرُوفِ فَقَطْ.

وَيَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّىٰ الحَاكِمُ المسْلِمُ بِصِفَتَي القُوَّةِ والأَمَانَةِ؛ يَقُولُ اللـه عَزَّوَجَلَّ: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ} [القصص:٢٦].

وَقَدْ أَخَذَ العُلَمَاءُ -رَحِمَهُم اللـه- هَذِهِ الآيَةَ مَأْخَذَ القَاعِدَةِ فِيمَن يَلِي أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْأَحَقَّ بِهِ هُوَ مَن تَوَفَّرَتْ فِيهِ هَاتَانِ الصِّفَتَانِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْـمُهِمَّةُ وَالـمَسْؤُولِيَّةُ أَعْظَمَ، كَانَ التَّشَدُّدُ فِي تَحَقُّقِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ أَكْثَرَ وَأَكْبَرَ.

يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَةَ: يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الأَصْلَحُ فِي كُلِّ مَنْصِبٍ، فَإِنَّ الوِلَايَةَ لَهَا رُكْنَانِ: القُوَّةُ وَالأَمَانَةُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ}، وَالقُوَّةُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ بِحَسَبِهَا؛ فَالقُوَّةُ فِي إِمَارَةِ الحَرْبِ تَرْجِعُ إِلَىٰ شَجَاعَةِ القَلْبِ، وَإِلَىٰ الخِبْرَةِ بِالحُرُوبِ، وَالـمُخَادَعَةِ فِيهَا، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَإِلَىٰ القُدْرَةِ عَلَىٰ أَنْوَاعِ القِتَالِ؛ مِن رَمْيٍ، وَطَعْنٍ، وَضَرْبٍ، وَرُكُوبٍ، وَكَرٍ، وَفَرٍ.

...وَالقُوَّةُ فِي الحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ تَرْجِعُ إِلَىٰ العِلْمِ بِالعَدْلِ الَّذِي دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَإِلَىٰ القُدْرَةِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ الأَحْكَامِ.

وَالأَمَانَةُ تَرْجِعُ إِلَىٰ خَشْيَةِ اللـه، وَأَلَّا يَشْتَرِيَ بِآيَاتِه ثَمَنًا قَلِيلًا، وَتَرْكِ خَشْيَةِ النَّاسِ، وَهَذِهِ الخِصَالُ الثَّلَاثُ الَّتِي اتَّخَذَهَا اللـه عَلَىٰ كُلِّ مَنْ حَكَمَ عَلَىٰ النَّاسِ فِي قَوْلِه تَعَالَىٰ: {فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ} [المائدة: ٤٤]...».

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «اجْتِمَاعُ القُوَّةِ وَالأَمَانَةِ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ، وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُولُ: «اللـهمَّ أَشْكُوا إِلَيْكَ جَلَدَ الفَاجِرِ وَعَجْزَ الثِّقَةِ».

الشرح:

هذا أمر ينبغي أن ننتبه له، ونتفطن له، أن القوة في كل ولاية بحسبها، فالقوة في الحرب تكون بالشجاعة والخبرة بالحروب والمخادعة فيها، وغير ذلك، والقوة في الفتيا تكون بالعلم، وفي القضاء بمعرفة العدل والقدرة علىٰ تنفيذ الأحكام.

يقول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «اللـهم أشكو إليك جلد الفاجر»[1]، إن الفجار يعملون لدينهم وعقيدتهم بقوة، ولا ينامون، ولا يهدؤون؛ لأنهم يعملون لعقيدتهم بخطىٰ ثابتة يسيرون عليها، ويورثونها لأولادهم وأحفادهم ومن بعدهم، فعندهم جلد، وعندهم صبر علىٰ باطلهم.

«وعجز الثقة»: أهل الإسلام، أهل الإيمان، أهل الجهاد، عندهم كسل، عندهم عجز في نفوسهم، ليست المشكلة في قدراتهم، بل عندهم قدرات كبيرة، ويستطيع الواحد أن يعمل المعجزات؛ لأنه مسلم مؤيَّد من اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكنه لا يكتشف نفسه، ويخذله الشيطان دائمًا، يقول له: أنت ماذا تفعل؟ أنت تستحق موقعًا أفضل من هذا. وينسىٰ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

(١)

ضرب مثلًا للعمل والجد حتىٰ في حال قيام الساعة، قال: «**إذا قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فليغرسها**»(١)، فلا تحقرن من المعروف شيئًا، أنت تملك طاقات هائلة جبارة لخدمة الإسلام، ولكنك لم تكتشف نفسك، ولم تعرف إمكانياتك، فلا بد أن تكتشف نفسك، وتعرف إمكانياتك، وتوظفها لخدمة دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلا نريد عجَزَة، لا نريد كسالىٰ، نريد أن نعمل، كلٌّ بحسب طاقته، وكل يرجع إلىٰ نفسه بالسؤال: أين دوري في نصرة دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

لا بد أن تعتقد أنك أنت اللبنة التي يكتمل بها بناء الإسلام ودولته، ولولا هذه اللبنة، ما اكتمل البناء؛ حتىٰ تشعر بقيمتك، وبأنك لست هاملًا، ولست خاملًا، بل علىٰ العكس، أنت ركن عظيم في بناء الدولة، لدرجة أنك اللبنة التي تكمل هذا العمل، ولولاها ما اكتمل العمل، فهذا يجعلك تعمل ليلَ نهار، وتجد، وتخطط، وتفكر، وتنقح أفكارك مع إخوانك؛ ماذا نفعل؟ ما المراد؟ ما المطلوب منا؟ كيف نطور من أنفسنا؟ كيف نستفيد من إمكانياتنا؟ هذا الذي يجب علىٰ المسلم.

المتن:

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، رقم: (٤٧٩)، وأحمد في «المسند»، رقم: (١٢٩٠٢).

«...فَالوَاجِبُ فِي كُلِّ ولَايَةٍ الأَصْلَحُ بِحَسَبِهَا، فَإِذَا تَعَيَّنَ رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ أَمَانَةً، وَالآخَرُ أَعْظَمُ قُوَّةً؛ قَدَّمَ أَنْفَعَهُمَا لِتِلْكَ الولَايَةِ، وَأَقَلَّهُمْا ضَرَرًا فِيهَا، فَيُقَدَّمُ فِي إِمَارَةِ الحُرُوبِ الرَّجُلُ القَوِيُّ الشُّجَاعُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ فُجُورٌ، عَلَىٰ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ العَاجِزِ وَإِنْ كَانَ أَمِينًا.

الشرح:

انتبه لهذا الكلام، وسيأتينا في دراسة العقائد: الصلاة مع كل بر وفاجر، والجهاد مع كل بر وفاجر.

والفجور هنا هل هو الفجور المطلق؟

الجواب: لا، الفجور هنا فجور مقيد، عنده إيمان، وعنده أصل الإسلام، ولكنه ليس كالمؤمن الآخر اقتراح: (ليس كامل الإيمان)، ولكنه قوي في مجاله، في الحرب، هو عليم بالحرب، ولكن فيه بعض الفجور، وبعض المعاصي، وبعض القصور، نقول: هذا لا يمنع من توليته، ومن السمع والطاعة له في ذلك.

المتن:

كَمَا سُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَدَ -عَن الرَّجُلَينِ يَكُونَانِ أَمِيرَينِ فِي الغَزْوِ، وأحدُهُما قَوِيٌّ فَاجِرٌ، وَالآخَرُ صَالِحٌ ضَعِيفٌ، مَعَ أَيِّهِمَا يُغْزَىٰ؟ فَقَالَ: «أَمَّا الفَاجِرُ القَوِيُّ

فَقُوَّتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَفُجُورُه عَلَىٰ نَفْسِه؛ وَأَمَّا الصَّالِحُ الضَّعِيفُ فَصَلَاحُهُ لِنَفْسِه، وَضَعْفُهُ عَلَىٰ المسْلِمِينَ؛ فَيَغْزُو مَعَ القَوِيِّ الفَاجِرِ....».

الشرح:

هذا فقه، لا بد أن نفهمه، إذا أردنا أن نطبقه علىٰ الأرض، فلا بد أن نستحضر السياسة الشرعية التي كانت لأسلافنا -رحمهم الله تعالىٰ، ورضي عنهم-.

فيجب في كل ولاية الأنفع فيها، القوي في موقعه، والأمين في موقعه، لا تنتظر من فرد أو مسلم أن يكون خارقًا في جميع المجالات، هذا يستحيل، كل له قدرات، ولكن الأمير، أو القائد، لا بد أن يوظف هذه القدرات في مكانها المناسب، ولذلك ما جُعِل الأمير إلا ليأتمروا بأمره؛ لأنه أدرىٰ بمصلحة الجماعة، وأدرىٰ بمصلحة الأمة، فيوظف هذه القدرات كل بحسبه.

وفي قصة طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي، وكان بألف فارس، لما ارتد عن الإسلام، وادّعى النّبوّة، فلقيهم خالد بن الوليد ببزاخة فأوقع بهم، وهرب طليحة إلى الشّام، ثم أحرم بالحج، في زمن أبي بكر، فرآه عمر، فقال: «إني لا أحبك بعد قتل الرّجلين الصّالحين: عكّاشة بن محصن، وثابت بن أقرم»، وذلك لمكانتهما البارزة في الإسلام، فعكاشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مشهود له بالجنة، ففي الحديث الصحيح في صفة السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، أن عكاشة قام فقال: «يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم»، فقال: «أنت منهم»، فقام رجل فقال: «ادع الله أن يجعلني منهم»، فقال: «سبقك بها عكاشة»[1].

---

(١) رواه أحمد في «المسند»، رقم: (٢٤٤٩)، والبخاري، رقم: (٦٥٤١)، (٢٢٠)، (٣٧٤).

قال طليحة لعمر: «هما رجلان أكرمهما الـلـه بيدي»، يعني أنا قتلتهما ودخلا الجنة، «ولم يهنّي على يديهما»، أي: لم أقتل كافرًا في وقتها.

فلما كانت حروب فارس -انظر هنا إلى فقه عمر، وكيف وظف الرجل المناسب في المكان المناسب، مراعيًا القوة والأمانة-، وشهد طليحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ القادسية، ونهاوند، كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن: «شاور طليحة في أمر الحرب ولا توله، فإن كل صانع أعلم بصانعته»، لأنه قوي يأخذ المسلمين في المتاهات، ويهلكهم ولا يبالي.

وأصر أن يذهب ويأخذ واحدًا من خير فرسانهم؛ لذلك قال عمر: «لا توله»، فهو مقدام، أن يقدم بنفسه على سبعين ألفًا هذا صعب، فرأى فرسًا لم ير في خيل القوم مثله، فضم مِقوَدَه إلى مقود فرسه، وحرك فرسه، فخرج يعدو، فتبعوه، فقتل اثنين منهم، وأسر واحدًا، وهو وحده، وساقه إلى سعد، فأتوا بالترجمان، واستخبره سعد، فقال: «أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قِبَلِي...، لم أر ولم أسمع بمثل هذا، أن رجلًا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا...»، ثم أسلم هذا الأسير، وحسن إسلامه، وكان عينا للمسلمين.

استشهد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في معركة نهاوند مع النعمان بن مقرن، سنة إحدى وعشرين للـهجرة(١).

وقصة النعمان أيضا فيها عبرة، تدلك علىٰ أن الذي يصدق مع الـلـه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يصدقه، وأن الذي يعمل لدين الـلـه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بصدق، يأتي بالمعجزات، الذي يعمل لدين الـلـه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ونصرة دين الـلـه، ويبذل نفسه، وماله، في سبيل الـلـه، فإن الـلـه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ينصره. فقد كتب إلىٰ عمر

(١) انظر «تاريخ الطبري»: (٣/ ٥١٤).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يخبره أن سعد بن أبي وقاص استعمله علىٰ جبابه الخراج، وقد أحببت الجهاد ورغبت فيه.

فكتب عمر إلىٰ سعد: إن النعمان كتب إلي يذكر أنك استعملته علىٰ جباية الخراج، وأنه قد كره ذلك، ورغب في الجهاد، فابعث به إلىٰ أهم وجوهك، إلىٰ نهاوند. فبعثه إلىٰ نهاوند، فلما أراد يغير علىٰ معسكر الكفار قال: إني مكبر ثلاثًا، فإذا كبرت الثالثة فاحملوا، ولا يلوين أحد علىٰ أحد، وإن قتل النعمان فلا يلوين عليه أحد، ثم قال: اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم، علىٰ إعزاز دينك ونصر عبادك.

فبكىٰ الناس... ثم حمل وحمل الناس، فسالت الدماء، حتىٰ قيل: إن النعمان زلق به حصانه في ذلك الدم، فوقع وجاءه سهم في خاصرته فقتله، فكان أول صريع، وفتح الله علىٰ المسلمين.

فأتوا النعمان وبه رمق، فقال: ما فعل الناس؟ قيل: فتح الله عليهم، قال: لله الحمد، اكتبوا ذلك إلىٰ عمر، وفاضت نفسه رَحِمَهُٱللَّهُ[1].

صدق الله فصدقه، لم يقل: أنا أمير، أو أنا شجاع، بل قال: اللهم افتح للمسلمين واجعلني أول شهيد، هذا الصدق، هذا الصدق، فاز، وماذا بعد الجنة؟! ماذا بعد أن يرضىٰ الله عنك وتموت شهيدًا في سبيل الله سبحانه؟!

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء»: (٣/ ٢٤٥)، و«تاريخ الطبري»: (٤/ ١٤٣).

ماذا تريد من الدنيا غير أن يرضىٰ الله عنك، وتموت علىٰ التوحيد والسنة، مجاهدًا في سبيل الله، ناصرًا لدين الله بقدر ما تستطيع؟!

فإذا كنا مخلصين، فلا بد أن نُتْبِعَ هذا الإخلاص بعمل جاد، ولا نفتر، نعمل ليل نهار؛ لأن العدو لا يفتر، يترقبنا، يترصدنا، يعمل لكسرنا وهزيمتنا، وينبغي ألَّا نغفل عن هذا أبدًا.

نسأل الله أن يوفقنا.

المتن:

ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا مَنْهَجَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا البَابِ:

«وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ لِمَصْلَحَةٍ مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَكُونَ مَعَ الأَمِيرِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي العِلْمِ وَالإِيمَانِ».

ثُمَّ لَخَّصَ كَلَامَهُ الطَّوِيلَ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَىٰ هَذِهِ الآيَةِ بِقَوْلِه: «وَالـمُهِمُّ فِي هَذَا البَابِ، مَعْرِفَةُ الأَصْلَحِ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِمَعْرِفَةِ مَقْصُودِ الوِلَايَةِ، وَمَعْرِفَةِ طَرِيقِ الـمَقْصُودِ، فَإِذَا عُرِفَتْ الـمَقَاصِدُ وَالوَسَائِلُ تَمَّ الأَمْر».

وَأُولُو الْأَمْرِ هُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ؛ هَذَا مَا فَسَّرَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَالْعُلَمَاءُ -لَا شَكَّ- هُم عُلَمَاءُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ أَي: الَّذِينَ يُفْتُونَ بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيُطَاعُونَ مَا لَمْ يُخَالِفُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ.

وَأَمَّا الأَمِيرُ، فَمَنْ هُوَ؟

الأَمِيرُ، وَالسُّلْطَانُ، وَالإِمَامُ، وَالرَّئِيسُ، عَلَىٰ بَلَدٍ: هُوَ كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ سُلْطَةٌ عَلَىٰ بَلَدٍ مَا، وَلَهُ شَوْكَةٌ وَسُلْطَانٌ، هَذَا هُوَ وَلِيُّ أَمْرِ هَذَا البَلَدِ.

الشرح:

يعني: استقلالًا، فإذا خرجنا من الإمامة العظمىٰ، والولاية العظمىٰ، إلىٰ الولاية الجزئية، وهي البلاد، فكلٌّ أمام علىٰ بلده، كل رئيس، كل أمير، كل والٍ- مسؤول عنها أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

وَقَد فَسَّرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا سَأَلَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْمَسَ: وَمَا الأَئِمَّةُ؟ قَالَ: «أَمَا كَانَ لِقَوْمِكِ رُؤُوسٌ وَأَشْرَافٌ يَأْمُرُونَهُمْ فَيُطِيعُونَهُمْ؟» قَالَتْ: بَلَىٰ. قَالَ: «فَهُمْ أُولَئِكِ عَلَىٰ النَّاسِ».

الشرح:

لذلك عندما تسقط الخلافة، أو تسقط الدولة الإسلامية، يكون العلماء هم مرجع الناس، يقومون بمقام الولاية، فإذا ذهبت هيبة العلماء، صار لكل منطقة مسؤول، فيتوزع الإخوة في البلاد، يحكمهم مسؤول عنهم؛ حتىٰ لا يتفرقوا في البلاد، وحتىٰ لا يكونوا عرضة للتمزق والتفرق، فلا بد من رأس يجتمعون عليها، حتىٰ مع سقوط الخلافة، لا بد من أمر تنتظم به حياة المسلمين، يتفقون علىٰ من يظنون به الخير منهم، فيجتمعون عليه، ويصدرون عن رأيه، ثم بعد

ذلك يتوسعون فيُدخِلون من يريد أن الدخول في مجتمعهم، وفي شريعتهم، وفي دينهم، ثم ينتشرون شيئًا فشيئًا، كما فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مكة.

المتن:

وقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُٱللَّهُ-: «النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَمَرَ بِطَاعَةِ الأَئِمَّةِ المَوْجُودِينَ الـمَعْلُومِينَ الَّذِينَ لَهُمْ سُلْطَانٌ يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَىٰ سِيَاسَةِ النَّاسِ، لَا بِطَاعَةِ مَعْدُومٍ وَلَا مَجْهُولٍ، وَلَا مَنْ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَىٰ شَيْءٍ أَصْلًا».

وَقَالَ فِي مِنْهَاجِ السُّنَّةِ: «بَلِ الْإِمَامَةُ عِنْدَهُم [أَيْ: أَهْلِ السُّنَّةِ] تَثْبُتُ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا، وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ إِمَامًا حَتَّىٰ يُوَافِقَهُ أَهْلُ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا، الَّذِينَ يَحْصُلُ بِطَاعَتِهِم لَه مَقْصُودُ الإِمَامَةِ، فَإِنَّ الـمَقْصُودَ مِن الإِمَامَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالقُدْرَةِ وَالسُّلطَانِ، فَإِذَا بُويِعَ بَيْعَةً حَصَلَتْ بِها القُدْرَةُ وَالسُّلْطَانُ، صَارَ إِمَامًا.

وَلِهَذَا قَالَ أَئِمَّةُ السَّلَفِ: مَنْ صَارَ لَه قُدْرَةٌ وَسُلْطَانٌ يَفْعَلُ بِهِمَا مَقْصُودَ الوِلَايَةِ؛ فَهُوَ مِنْ أُولِي الْأَمْرِ الَّذِينَ أَمَرَ اللـه بِطَاعَتِهِم مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللـه، فَالإِمَامَةُ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ».

مَعْنَىٰ أَنْ يَكُونَ وَلِيَّ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ:

وَلِيُّ أَمْرِ المسْلِمِينَ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ: هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّىٰ أَمْرَ دِينِ المسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ أَمْرُ المسْلِمِينَ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَمْرٌ غَيْرُ دِينِهِم، فَبِه صَارُوا أُمَّةً، وَبِه تَحَقَّقَتْ شَخْصِيَّةُ أُمَّتِهِم الحَضَارِيَّةُ، وَبِهِ وُجِدَ كِيَانُهُمْ السِّيَاسِيُّ، أَمَّا مَنْ يَتَوَلَّىٰ أَمْرًا آخَرَ؛ كَالَّذِي يَحْكُمُ بِالنِّظَامِ الدُّسْتُورِيِّ العَلْمَانِيِّ أَيًّا كَانَ، أَوْ بِالنِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ اللِّيبْرَالِيِّ الغَرْبِيِّ، أَو الفِكْرِ القَوْمِيِّ الِاشْتِرَاكِّيِّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ سِوَىٰ النِّظَامِ الإِسْلَامِيِّ الْمُحْتَكِمِ إِلَىٰ شَرِيعَةِ اللـه تَعَالَىٰ؛ فَهُوَ وَلِيُّ أَمْرِ مَا تَوَلَّاهُ، لَيْسَ هُوَ وَلِيَّ أَمْرِ المسْلِمِينَ، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي قَوْلِه تَعَالَىٰ: {وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]، فَكَيْفَ يُوَلَّىٰ أَمْرُ أُمَّةِ الإِسْلَامِ، وَقَدْ تَوَلَّىٰ أَمْرَ غَيْرِهَا؟!

الشرح:

من تدبر حال من يحكمون الدول الآن، علم أنهم ليسوا من الإسلام في شيء، هم تولوا أمرًا غير أمر الإسلام، فإما أنهم تولوا أمر الاشتراكية؛ أو أمر الديموقراطية، أو العلمانية، أو البعثية، أو العربية؛ ولم يتولوا أمر دين الإسلام، وإن ادعوا أنهم من أهل الإسلام، والأمور ليست بالدعاوىٰ، ولكنها بالحقائق، فإن كنت مسلمًا، فأرنا إسلامك، وأنت علىٰ رأس دولة مسلمة، والمجتمع مسلم، لماذا لا تحكّم فيهم الأمر الذي ولوك من أجله، وهو الإسلام؟ أنت تفعل كل شيء إلا الإسلام.

فحقيقة رؤوس هذه الدول: أنهم ليسوا من الإسلام في شيء، وإن ادعوا أنهم أهل توحيد، وأهل إسلام، فالإسلام لا بد أن يكون حقيقة علىٰ الأرض، ليس ادعاء، وليس شعارات فارغة، لا بد أن يكون حقيقة علىٰ الأرض، بأن نراه في الأنظمة، وفي المحاكم، وفي التعاملات، وفي التجارة، كل هذا لا بد أن يحكم بالإسلام، وإلا ما معنىٰ أن تكون حاكمًا علىٰ المسلمين؟ أن تحكم فيهم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وأما غير هذا فليس بإسلام.

المتن:

وَلِهَذَا وَرَدَت النُّصُوصُ الآمِرَةُ بِطَاعَةِ وُلَاةِ الأَمْرِ بِقَيدِ إِقَامَةِ الدِّينِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ الله، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشرح:

هذا شرط، يشترط أن يكون مسلمًا يقودنا بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا يرد علىٰ الفرية التي يروجها أهل الإرجاء، حيث يقولون: لا يهمك من يحكمنا. ونحن نقول: بل يهمك من يحكمك، لا بد أن الذي يحكمك يقودك بكتاب الله؛ أما أن يحكمك كافر، أو يهودي، أو نصراني، أو علىٰ أي ملة أخرىٰ غير الإسلام، فليس له طاعة، كما في هذا الحديث، وهو في صحيح مسلم.

أنتم تقولون: نحن نقدس السنة، هذه السنة: «**يقودكم بكتاب الله**»، ليس بكتاب آخر، يقودنا بكتاب الله وبسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس بكتاب الديموقراطية والعلمانية وغير ذلك.

المتن:

وَالحَدِيثِ الثَّانِي: «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ الله فِي النَّارِ عَلَىٰ وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ».

الشرح:

هذا شرط كذلك، «**ما أقاموا الدين**».

إذن ليست القرشية هي التي تميزه، وليست العربية هي التي تميزه، ولكن الذي يميزه هو إقامة الدين؛ لذلك قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**لا فضل لعربي علىٰ عجمي... إلا بالتقوىٰ**»[1].

ومعنىٰ إقامة الدين: أن يكون الحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يكون التشريع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

فَذَكَرَ أَنَّ الحُكْمَ بِكِتَابِ الله؛ أَيْ: تَحْكِيمَ الشَّرِيعَةِ، وَإِقَامَةَ الدِّينِ كَذَلِكَ؛ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ وِلَايَتِهِم الَّتِي تُوجِبُ طَاعَتَهُم.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤١١)، ضمن خطبة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أيام التشريق.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ تُبَيِّنُ أَنَّهُ إِنْ وَقَعَ مِنْ وَلِيِّ الأَمْرِ الشَّرْعِيِّ ظُلْمٌ فِي الرَّعِيَّةِ لَا يَبْلُغُ الكُفْرَ البَوَاحَ؛ أَيْ: لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ التَّنَكُّرِ لِلشَّرِيعَةِ، وَلَا نَبْذِ التَّحَاكُمِ إِلَيْهَا، وَلَا تَرْكِ إِقَامَةِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا هُوَ ظُلْمٌ فِي دُنْيَاهُم، أَوْ كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ: «أَثَرَة»، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُنَازَعَتُهُ الأَمْرَ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَىٰ ضَرْبِ وَحْدَةِ الأُمَّةِ، فَالحِفَاظُ عَلَىٰ وَحْدَتِهَا أَوْلَىٰ مِنْ إِزَالَةِ ظُلْمِ السُّلْطَةِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جُنَادَةَ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَىٰ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللـه، بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللـه بِهِ، سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللـه فِيهِ بُرْهَانٌ».

الشرح:

قال: «**إلا إن تروا كفرًا بواحًا، عندكم من اللـه فيه برهان**»[1]، فالإنسان يغض الطرف عن معاصي الحاكم، وعن مخالفاته في الدولة، ما لم تكن كفرًا؛ لأن الحفاظ علىٰ بيضة الإسلام، ووحدة الصف المسلم، هذه مصلحة عظيمة

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٠٥٥)، ومسلم، رقم: (١٧٠٩)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ»، رقم: (١٦٥٥٣).

تندثر فيها هذه المفاسد في المجتمع؛ حفظًا لدمائهم، ولئلا يطمع الكفار فيهم؛ أما إذا وصل الأمر إلىٰ الكفر، فلا صبر ولا طاعة أبدًا.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرط عليهم ألا ينازعوا الأمراء، يعني: لا تخرجوا عليهم، ولا تغيروهم، ولا تقاتلوهم، إلا إذا كفروا، لكن ما داموا في دائرة الإسلام، ولم يكفروا، ويحكمون شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاسمعوا لهم وأطيعوا؛ أما إذا كفروا، فلا سمع ولا طاعة، ولا بد أن يُغيَّروهم، وقد قلنا في مسألة التغيير: لا تلازم بين كفره والخروج عليه، فربما يكفر، ولكن لا نستطيع أن نخرج عليه، فهنا الصبر والإعداد، أما إذا كانت عندنا الشوكة والقدرة والمنعة، فإنه يغير في الحال لمجرد كفره؛ لنقضي علىٰ الكفر؛ لأنه لا توجد مفسدة أعظم من الكفر.

والذين يقولون: نراعي المصالح والمفاسد. لا بد أن يعتبروا أن أكبر مفسدة هي الشرك، وأعظم مصلحة هي التوحيد، فهذا الذي أُمرنا به.

فالمنكر الأكبر في الأرض: هو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمعروف الأكبر في الأرض: هو التوحيد، توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وأما ما دونهما فالأمر فيه موازنة، موازنة بين المصالح والمفاسد؛ أما عند الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، فلا.

المتن:

وَإِذَا ظَهَرَ فِي السُّلْطَةِ الكُفْرُ البَوَاحُ، فَهِيَ سُلْطَةٌ كَافِرَةٌ، لَيْسَ لَهَا طَاعَةٌ، وَيَجِبُ إِزَالَتُهَا مَعَ القُدْرَةِ، فَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ عَاجِزِينَ وَجَبَ عَلَيْهِم أَنْ يُعِدُّوا العُدَّةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً} [التَّوْبَةُ: ٤٦].

الشرح:

يعني لو أرادت جماعة أن تقيم دولة إسلامية، أو تنشئ نظامًا إسلاميًا، فما هي العدة التي أعدوها لذلك؟ لو أعدوا نظامًا، فهل هو مؤهل وصالح لإقامة الدولة، أم ينقصها الكثير؟ ينقصها العمل، ينقصها الجد، ينقصها الاجتهاد، ينقصها البحث والتطوير، هذا هو الذي يكون علىٰ واقع الأرض، فلا ترفع شعار إقامة الدولة، وأنت تمشي إلىٰ تحقيقه بخطًى بطيئة متكاسلة متهالكة، تمشي خطوة وتقف عشرًا، نقول: هذا ليس إعدادا.

الإعداد: أن تعمل الليل والنهار لهذا الأمر، الإعداد ألا تنام، الإعداد أن يكون نومك طاعة وتفكيرًا في هذا الأمر، كيف نقيم الدولة؟ كيف نطور؟ كيف نجمع الناس؟ كيف نصحح الأخطاء بأقل المفاسد؟ حتىٰ وأنت نائم تفكر في هذا، لعل الله يلهمك في نومك برؤية، أو بهاتف يصلحك، كما كان السلف -رحمهم الله تعالىٰ- عندما يحملون هذه الهموم، كان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يكرمهم بمثل هذه الأمور، حتىٰ أن الشافعي -رحمه الله تعالىٰ- كان عندما

ينام، يكون معه القلم والمحبرة، ويفكر ثم يقوم، حتىٰ رآه الإمام أحمد قام أكثر من مرة في الليل، وهو يظن أنه يقيم الليل، وهو نائم يفكر!

فكهذا لا بد أن يكون المسلم، حياته ونومه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وللعمل لدينه، {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ}.

فلا بد أن تبذل في الإعداد أقصىٰ ما عندك، لا أقل ما عندك، ثم تطور الذي هو عندك لأفضل ما يكون علىٰ أرض الواقع.

«وأثرة علينا»: يعني: شيء نحن نؤثره علىٰ أنفسنا، كما قال: «إن هذا الدين فيه أثرة» لم أجد هذا الأثر، يعني: فيه طمع، فيه حب، فيه رئاسة، فيه إنسان يؤثر الدنيا، حب الأولاد، حب الزوجة، حب المال، هذه أثرة، أما عند الدين يكون كل ذلك فداء لهذا الدين.

راجعت تفسير هذا الحديث فلم أجد هذا المعنىٰ مذكورًا.

اقتراح: «أثرة علينا» أي: اسمعوا وأطيعوا ولو اختص ولي الأمر نفسه بحظوظ الدنيا، ولو كان في ذلك تعديًا عليكم، بمنعكم حقوقكم، واختصاصه بها دونكم.

المتن:

وَمِنْ إِعْدَادِ العُدَّةِ: إِرْجَاعُ المسْلِمِينَ إِلَىٰ دِينِهِم.

الشرح:

هذا هو الأصل، كما قلنا: ينبغي ألَّا نهمل الحاضنة الشعبية في المجتمع، لا بد أن نهتم بالمجتمع المسلم، نهتم به دعويًّا، تربويًّا، اجتماعيًّا، سلوكيًّا، ولا نهمله.

لا بد أن يكون لنا دور في إصلاح هذا المجتمع، هؤلاء الناس مسلمون، ينتمون للإسلام، ولكن لم يجدوا اليد الحانية التي تأخذ بأيديهم، وتعليمهم دين الله، برفق وحكمة، فإما أن يعتزلوهم، أو يكفروهم، أو يبدعوهم، أو يأتوا لمصالحهم الدنيوية فقط.

فلا بد أن يكون لنا دور في المجتمع، بأن نفكر كيف ندعو الناس، هذا فقه، يسمونه «حكمة الدعوة»، كيف تدعو الناس؟ تدعوهم بماذا؟ وإلىٰ ماذا؟ وما هي الطرق التي توصل بها دين الله إليهم؟

فإن لم نستطع أن نجعلهم معنا فلا أقل من تحييدهم، لئلا يكونوا ضدنا، هذا أدنىٰ ما ينبغي أن نصل إليه، لكن الأصل أن ندعوهم، ونبذل الأسباب كما بذلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استفاضة البلاغ، حتىٰ يعرف دعوتك كل من في بلدك، صغيرًا أو كبيرًا، ويعرف ما تدعو إليه، ويعرف حقيقتك، ويعرف صلاحك، ويشعر بك في حزنه، وفي فرحه، وفي مشاكله، يجدك دائمًا أمامه. هذا الذي ينبغي في دعوة الناس.

المتن:

بِالدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَتَأْهِيلُ القِيَادَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَقُودُ الأُمَّةَ إِلَىٰ إِيجَادِ كِيَانِهَا السِّيَاسِيِّ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِهِ ظُهُورُ دِينِهَا فِي الأَرْضِ، وَتُقِيمُ بِهِ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ، وَتَحْمِلُهُ إِلَىٰ العَالَمِ بِالجِهَادِ.

الشرح:

وتأهيل القيادات الإسلامية التي تقود الأمة، تأهيل القيادات أي: تربية القادة. وقد ذكرنا هذا قبل ذلك.

لا بد أن يكون لنا محضن، نربي فيه من يتولىٰ القيادة بعد ذلك، لا بد أن نهتم بتربية القادة، أن نهتم بتربية الأفراد الذين هم معنا، لا بد أن نؤهلهم الآن، لأنهم سيصبحون بعد قيام الدولة قادة عليها.

فلا بد أن يفكر الواحد منا في هذا ويسأل: كيف أهتم بتربية القادة؟ ما دوري في ذلك؟ ما هو المنهج في تربية القادة؟ لا بد أن تضع منهجًا تربي عليه هؤلاء القادة، حتىٰ إذا قامت الدولة، نُصّب كلٌّ في مكانه، وعرف دوره، فلا يكون تائهًا لا يعرف ماذا يفعل، هو فوجئ بهذا، بل ينبغي أن يكون معدًا له، ومتدربًا عليه، يتدرب في واقع الجماعة الصغيرة، فيكلف بعمل من الأعمال، ويقوم به، ثم نقوّمه ونصوّبه؛ ليتأهل لذلك العمل، فإذا وقفت علىٰ هذا المنصب في الدولة، وقابلتك المشكلات، تقول: لم أفاجأ بها؛ لأنني تربيت عليها، وقابلتني

كثيرًا، وعالجتها، وناقشتها. فيكون صالحًا للقيادة جديرًا بها؛ أما أن يعيش هكذا هاملًا، ثم يفاجأ بالأمر، وهذا الأمر منوط به، وهو لا يدري ماذا يفعل، فهذا هو الفشل.

فيجب علينا أن نتعلم منذ الآن كيفية تربية القادة، ودعوة الناس، وكيفية الوصول بدعوتنا إلىٰ أكبر قدر من الناس.

المتن:

وَمِنْ إِعْدَادِ العُدَّةِ: تَوْجِيهُ الأُمَّةِ إِلَىٰ مَيَادِينِ الجِهَادِ، حَيْثُ يَصْبَغُ اللـه تَعَالَىٰ جُنُودَهُ بِصِبْغَةِ الحَقِّ مَعَ القُوَّةِ، وَيَضْرِبُ بِهِمْ أَعْدَاءَ الأُمَّةِ، عِنْدَمَا يَحْشِدُ الإِسْلَامُ أَجْنَادَه.

الشرح:

هذا أصل. إن ميادين الجهاد هي التي تربي الرجال، ميادين الجهاد هي التي تجعل الإنسان يبذل نفسه، ويحملها علىٰ يديه؛ قربانًا لـلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتقتل فيه الأثرة، تقتل فيه أن يستأثر بدنيا أو بمتاع أو بغير ذلك، إذ هو ذهب بنفسه، فكيف لهذه النفس أن تقوده إلىٰ شهوات الدنيا؟ هو يأطرها علىٰ الحق أطرًا، فكلما أرادت أن تأخذه إلىٰ الدنيا، رجعها إلىٰ هذا، وهذا هو الطريق.

الجهاد يهذّب النفوس، لكن لا بد أن يكون جهادًا سنيّا، علىٰ منهاج النبوة. هذا الذي نريده في هذا الوقت.

المتن:

وَأَمَّا مَنْ عَطَّلَ مِنْهُم (الحُكَّامِ) شَرْعَ اللهِ، وَلَمْ يَحْكُمْ بِهِ، وَحَكَمَ بِغَيْرِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا طَاعَةَ لَهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُم ضَيَّعُوا مَقَاصِدَ الإِمَامَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نُصِّبُوا وَاسْتَحَقُّوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَعَدَمَ الخُرُوجِ؛ وَلِأَنَّ الوَالِيَ مَا اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ إِلَّا لِقِيَامِهِ بِأُمُورِ المسْلِمِينَ، وَحِرَاسَةِ الدِّينِ وَنَشْرِهِ، وَتَنْفِيذِ الأَحْكَامِ، وَتَحْصِينِ الثُّغُورِ، وَجِهَادِ مَنْ عَانَدَ الإِسْلَامَ بَعْدَ الدَّعْوَةِ.

الشرح:

نحن إذا أقمنا دولة أو فتحنا دولة، وبجوارنا دول مسلمة، ولكنها تحكم بغير شرع الله، فماذا نفعل؟ هل نُغير علىٰ هذه الدول، أم ندعوها أولًا؟

الجواب: ندعوها بالحكمة والموعظة الحسنة، ندعوها بمكارم الشريعة، ندعوها بمصالح الشريعة، وأن لهم الخير في الدنيا والآخرة إذا حكموا شرع الله، ثم بعد ذلك نبين لهم مزايا هذه الشريعة، وأنهم مسلمون، وأنهم أولىٰ بشرع الله من الكفار، وغير ذلك.

فإذا استفاض البلاغ فيهم وفهموا، تحيز إلينا من التزم بهذا، ومن لم يلتزم إذا كانت عندنا قوة ومنعة، حاربناهم؛ حتىٰ يدخلوا في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن لم يكن لدينا قوة ولا منعة، عقدنا معهم الصلح، والاتفاقيات؛ حتىٰ لا يأتي

الكفار من قبلهم، من باب الدفاع المشترك، ثم لا نفتر عن دعوتهم بعد ذلك؛ لأن الدعوة مقدمة علىٰ القتال، لا نفتر عن دعوتهم حتىٰ يستفيض البلاغ، حتىٰ ينتشر بين الناس أن هؤلاء أهل دين، وأهل شريعة، وأهل إسلام، وهؤلاء أهل كفر، وأهل شرك، وأهل أصنام. حينئذ تحصل المفاصلة، وتتضح الرؤية، وتظهر دعوتك، {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}.

أما مع وجود الالتباس في الحال، فلا يجوز لك أبدًا أن تقدِم علىٰ القتال، التباس الحال هذا يجعلك دِينًا تتوقف في إراقة الدماء التي لا تتقين أهي علىٰ الإسلام والتوحيد، أم علىٰ الكفر والشرك والتنديد؟ لا تستطيع أن تتبين، والقتل يكون علىٰ القطع واليقين الذي لا شك فيه، أنت تزهق أرواحًا، فلا بد أن تعرف ما هي حقيقة هذه الأرواح، أهي مسلمة، وعندها التباس حال، أم هي كافرة معاندة؟

إن كانت كافرة معاندة قطعًا، وعندك المنعة، فقاتلها حتىٰ تفيء إلىٰ أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ أما إن كانت مسلمة، وعندها التباس حال، فالدعوة هنا أولىٰ، وهي مقدمة علىٰ القتال.

هذا يفيدنا في الواقع، لأنك ستجد ذلك كثيرًا في من حولك، اختلط عليهم الأمر، أهم مسلمون، أم مشركون؟ فإذا التبس هذا الأمر، فلا بد من التحقق

والتثبت، إياك أن تقدم علىٰ أمر تشك فيه ولم يظهر لك فيه القطع، فلا بد من القطع.

المتن:

وَيُوَالِي المسلِمِينَ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ الدِّينِ؛ فَإِذَا لَمْ يَحْرُسِ الدِّينَ، أَوْ لَمْ يَقُمْ بِأُمُورِ الْمُسلِمِينَ؛ فَقَدْ زَالَ عَنْهُ حَقُّ الْإِمَامَةِ، وَوَجَبَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ -مُتَمَثِّلَةً بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يَرْجِعُ إِلَيْهِم تَقْدِيرُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ- خَلْعُهُ، وَنَصْبُ آخَرَ؛ مِمَّنْ يَقُومُ بِتَحْقِيقِ مَقَاصِدِ الْإِمَامَةِ.

وَقَوْلُه تَعَالَى: {أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء:٥٩].

وَ (أُولُو الْأَمْرِ): هُمُ الأَئِمَّةُ، وَالسَّلَاطِينُ، وَالقُضَاةُ، وَكُلُّ مَنْ كَانَتْ لَهُ وِلَايَةٌ شَرْعِيَّةٌ، لَا وِلَايَةٌ طَاغُوتِيَّةٌ. «الشَّوْكَانِيُّ، فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ».

الشرح:

فالولاية الطاغوتية: هي ولاية علىٰ خلاف الإسلام وشريعته؛ لأنها تجاوزت حدود الإسلام، فخرجت عنه.

وهذا كان علىٰ أيام الشوكاني، فإذا كانت هذه ولاية طاغوتية منذ (٢٠٠) سنة، فماذا نقول نحن في زمننا هذا؟ زادت طغيانًا، فالولاية تكون ولاية في

أمرها، حتىٰ الرجل في بيته والٍ، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[(١)].

المتن:

فَـ (الْولَايَةُ الطَّاغُوتِيَّةُ) -كَمَا نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَهْلُ العِلْمِ قَاطِبَةً-: هِيَ كُلُّ ولَايَةٍ لَا يَكُونُ التَّحَاكُمُ فِيهَا إِلَىٰ شَرْعِ اللـه، وَتُرْغِمُ النَّاسَ عَلَىٰ التَّحَاكُمِ إِلَىٰ غَيْرِه مِنْ قَوَانِينَ وَضْعِيَّةٍ، وَأَنْظِمَةٍ غَرْبِيَّةٍ، فِي أَنْفُسِهِم وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِم.

الشرح:

«ترغم الناس»؛ لأن الناس بفطرتهم يحبون الإسلام، الناس بفطرتهم يحبون شرع اللـه، الناس بفطرتهم يحبون الجهاد، ويتشوقون إلىٰ الجهاد؛ لذلك عندما يرون مثل هذه الأمور ترىٰ الناس يخرجون؛ يخرجون لأنهم ناقمون علىٰ هذا الحاكم الظالم الذي يحكمهم بالحديد والنار، ولكن لا يجدون منفذًا، فإذا وجدوا بابًا يدخلون فيه، وجدتهم يخرجون بالمئات وبالآلاف؛ يريدون شرع اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودين اللـه، والجهاد في سبيل اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا فيه رد علىٰ أهل الغلو في التكفير، الذين يحكمون بتكفير الناس عمومًا، والمجتمعات المسلمة كلها. هذا كله ضلال وانحراف.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (٥٢٠٠)، وفي «الأدب المفرد»، رقم: (٢٠٦).

المتن:

وَنُصُوصُ الوَحْيَيْنِ تَأْمُرُ المسلِمِينَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ وَذَلِكَ بِشَرْطَينِ:

١- أَنْ يَقُودَهُمْ بِكِتَابِ الله تَعَالَىٰ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

٢- وَأَلَّا يَأْمُرَهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ.

الشرح:

إذن هذه الشروط شروط الطاعة:

أولا: لا بد أن يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ثانيا: ألا يأمرهم بمعصية.

فإن قادهم بكتاب الله والسنة، وأمرهم بالمعروف، فقد وجب عليهم السمع والطاعة وجوبًا؛ أما إذا لم يقدهم بكتاب الله، وقادهم بكتاب آخر؛ بقوانين وضعية، أو شركية، أو غير ذلك، وأمرهم بمعصية، فلا سمع له ولا طاعة. هذا هو الأصل في هذه المسألة.

نأتي الآن علىٰ ذكر الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة علىٰ وجوب تنصيب الإمام.

المتن:

الأدِلَّةُ مِنَ القُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَىٰ وُجُوبِ الإِمَامَةِ:

١- قَالَ اللـه تَعالَى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ} [النساء: ٥٩].

الشرح:

اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال في هذه الآية: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ}، النداء هنا لأهل الإيمان، قال اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ}، فهنا إن لم يكن أولي الأمر جملة ناقصة، فلا معنى لهذه الآية هنا؛ لأن اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل الطاعة للـه ولرسوله ولأولي الأمر، على وفق طاعة اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ورسوله، ثم لما ذكر التنازع قال: {فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ}، فهذا دليل على وجوب الإمامة.

المتن:

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: «أَوْلَىٰ الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، قَوْلُ مَن قَالَ: هُمُ الأُمَرَاءُ وَالوُلَاةُ؛ لِصِحَّةِ الأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِالأَمْرِ بِطَاعَةِ الأَئِمَّةِ وَالوُلَاةِ فِيمَا كَانَ للـه طَاعَةً، وَلِلْمُسْلِمِينَ مَصْلَحَةً».

وَقَالَ ابنُ حَزْمٍ: «القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ قَدْ وَرَدَ بِإِيجَابِ الإِمَامِ؛ مِنْ ذَلِكَ: قَوْلُ اللـه تَعَالَىٰ: {أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ} [النِّسَاءُ: ٥٩]، مَعَ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ صِحَاحٍ فِي طَاعَةِ الأَئِمَّةِ وَإِيجَابِ الإِمَامَةِ».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «الظَّاهِرُ -والله أَعْلَمُ- أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ أُولِي الأَمْرِ مِنْ الأُمَرَاءِ وَالعُلَمَاءِ».

الشرح:

فكل ولي، وكل عالم، وكل إمام- له الطاعة في المعروف.

المتن:

وَوَجْهُ الاسْتِدْلَالِ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّ الله -سُبْحَانَهُ- أَوْجَبَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ طَاعَةَ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُم؛ وهمُ: (الأئِمةُ)، وَالأَمْرُ بِالْطَّاعَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ نَصْبِ وَلِيِّ الأَمْرِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَىٰ لَا يَأمُرُ بِطَاعَةِ مَنْ لَا وُجُودَ لَهُ، وَلَا يَفْرِضُ طَاعَةَ مَنْ وُجُودُهُ مَنْدُوبٌ، فَالأَمْرُ بِطَاعَتِه يَقتَضِي الأَمرَ بِإِيجَادِه، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ إِيجَادَ إِمَامٍ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَيْهِم.

الشرح:

لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والدولة لا تستقيم، ولا يستقيم أمرها، إلا برأس يجتمعون عليه، ويسمعون ويطيعون له في المعروف؛ فدل ذلك علىٰ أن الأمر هنا للإيجاب.

المتن:

٢- قَالَ اللـه -سُبْحَانَهُ- مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: ٤٩].

الشرح:

فالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حاكمٌ بأمر اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأمره اللـه سبحانه أن يحكم بين الناس، إذن يوجد مرجع يرجع الناس إليه عند التنازع، وإلا إلىٰ من يرجعون عند التنازع؟ ستكون فوضىٰ، ويكون شتات، ويكون تفرق وتحزب، والإسلام جاء بضد هذا، جاء بالاجتماع، {وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ}.

المتن:

٣- وَقَالَ اللـه عَزَّوَجَلَّ: {فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ} [المائدة: ٨٣].

الشرح:

إذن هذا أمر للقاضي والحاكم أن يحكم بأمر اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويحكم بما أراه اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ووفقه، من أدلة القرآن والسنة، هذا أمر لا خلاف فيه.

وعلىٰ الحاكم، أو القاضي، أو الأمير، ألا يتنزل مع أهواء الناس، وألا يرضي الخصوم؛ لأنه إذا أرضىٰ الخصوم، فلن يفلح أبدًا؛ لأنه يتقلب في أهوائهم، كلٌّ يريد الحق له، كلٌّ يريد الحكم له؛ فالقاضي والحاكم لا يلتفت إلىٰ رضا الخصوم، ولكن الذي يعنيه هو رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يحكم بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رضي من رضي، وأعرض من أعرض.

المتن:

فَهَذَا أَمْرٌ مِنَ الله -تَعَالَىٰ- لِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا أَنْزَلَ الله؛ أَيْ: بِشَرْعِه، وَخِطَابُ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِطَابٌ لِأُمَّتِهِ مَا لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ يُخَصِّصُه بِه.

الشرح:

هذا هو الأصل، أن خطاب النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشرع، هو خطاب للأمة كلها، ما لم يأت دليل يخرجه عن هذا العموم إلىٰ الخصوص. فالأصل أن هذا خطاب للأمة كلها، فتسمع وتطيع في هذا الأمر.

المتن:

وَهُنَا لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ، فَيَكُونُ خِطَابًا لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا بِإِقَامَةِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ الله إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَعْنِي إِقَامَةُ الحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ إِلَّا إِقَامَةَ الإِمَامَةِ؛ لأَنَّ ذلك من وظائِفِها، ولا يُمكِنُ القيامُ بِهِ عَلَىٰ الوَجهِ الأكمَلِ

إِلَّا عَنْ طَرِيقِهَا فتكُونُ جَمِيعُ الْآيَاتِ الْآمِرَةِ بِالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ دَلِيلًا عَلَىٰ وُجُوبِ نَصْبِ إِمَامٍ يَتَوَلَّىٰ ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ.

٤- قَالَ اللهُ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥].

قَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ: «فالدِّينُ الحَقُّ لَا بُدَّ فِيهِ مِن الكِتَابِ الهَادِي وَالسَّيْفِ النَّاصِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ} [الْحَدِيد: ٢٥]. فَالْكِتَابُ يُبَيِّنُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْه، وَالسَّيْفُ يَنْصُرُ ذَلِكَ وَيُؤَيِّدُه.

الشرح:

إذن لا بد لهذا الدين من قوة تحميه، فالدعوة تسير بالحكمة والرحمة والعلم، فإذا صد الدعوة صاد، ومنعها مانع من نشر التوحيد والسنة في الأرض؛ كان لزامًا أن توجد قوة رادعة، تلزم وتردع، وتفسح المجال للدعوة، وتحارب من صد.

وهذه القوة هي السيف، والجيش، والجهاد، وإلا فستصبح الدولة ضعيفة لا شوكة لها، وتكون مطمعًا لأهل الكفر والفساد والعصيان.

فلا بد من قرآن يهدي، وسيف ينصر ويقوّم، هذا هو الأصل، «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١)، يردع بالسلطان وبالقوة، ما لا يزع بالقرآن، بعض الناس يقرأ القرآن، وتدعوهم، ولا يستجيبون، فإذا كانت قوة ملزمة، ألزمتهم.

لذلك لا بد من القوة التي تحمي الدين، لا بد من القوة التي تحمي الشرع، لا بد من القوة التي تقف علىٰ تطبيق شرع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فلو استحق إنسان حدًا من حدود الله، أو عقوبة من عقوبات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ المقدرة في كتابه، وأردت أن تطبقها عليه، من الذي يأتي بهذا الشخص إلىٰ مجلس القضاء؟ ما الذي يأتي به ليرد الحقوق إلىٰ أصحابها؟

إذا كنت وحدك، بدعوتك، وبالقرآن، فلن يسمع لك أحد، بل يجترئوا عليك؛ لأنهم إذا أمنوا العقوبة أساؤوا الأدب، إذا علموا أنه لا توجد عقوبة تردعهم؛ فعلوا ما يشاؤون؛ لذلك كان لزامًا علىٰ الإمام أن يكون له شوكة وقوة ومنعة تحميه، أي: تحمي المُلْك، والخلافة، والدولة، وكذلك تحمي الشريعة؛ لأنه لو لم تكن قوة تحمي، لاجترأ عليها الناس، وأبطلوها، فتسقط هيبتها من أعين الناس، حينئذ لو أردت أن تطبق حكمًا من أحكام الله، فلن

---

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٢/ ٣٠١).

استطعت؛ لأنه لن يسمع لك أحد ويطيع؛ لأن الناس بأهوائهم؛ أما إذا كانت قوة رادعة، ألزمتهم، وأتت بهم إلىٰ مجلس القضاء، أو إلىٰ إعطاء الحقوق.

المتن:

فمُهِمَّةُ الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَمَنْ أَتَىٰ بَعْدَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ؛ أَنْ يُقِيمُوا الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَىٰ وَفْقِ مَا فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ، وَأَنْ يَنصُرُوا ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ، وَهَذَا لَا يَأْتِي لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ إِلَّا بِتَنْصِيبِ إِمَامٍ يُقِيمُ فِيهِمُ الْعَدْلَ، وَيُنَظِّمُ جُيُوشَهُمْ».

٥- وَمِنَ الْأَدِلَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ أَيْضًا: جَمِيعُ آيَاتِ الْحُدُودِ، وَالْقِصَاصِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي يَلْزَمُ الْقِيَامَ بِهَا وُجُودُ إِمَامٍ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مَسْؤُولِيَّاتِهِ، فَتَشْرِيعُ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ؛ يَلْزَمُهُ مُسْبَقًا تَشْرِيعُ حُكْمِ لُزُومِ الْإِمَامَةِ وَقِيَامِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ؛ فَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمَرَ بِأُمُورٍ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ آحَادِ النَّاسِ الْقِيَامُ بِهَا.

الشرح:

«آحاد الناس»، يعني: الأفراد، الأشخاص، لا يستطيعون أن يقوموا بها، مع أن الله أمر بها، إلا أنه ليس في مقدور شخص أو اثنان القيام بهذه المهام.

المتن:

وَمِنْ هَذِهِ الأُمُورِ: إِقَامَةُ الحُدُودِ، وَتَجْهِيزُ الجُيُوشِ الْمُجَاهِدَةِ لِنَشْرِ الْإِسْلَامِ، وإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللـه، وَجِبَايَةُ الزَّكَاةِ وَصَرْفُهَا فِي مَصَارِفِهَا الْمُحَدَّدَةِ، وَسَدُّ الثُّغُورِ، وَحِفْظُ حَوْزَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَشْرُ الْعَدْلِ، وَدَفْعُ الظُّلْمِ، وَقَطْعُ الْـمُنَازَعَاتِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ الْعِبَادِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ أَفْرَادُ النَّاسِ الْقِيَامَ بِهَا، وَإِنَّمَا لَا بُدَّ مِنْ إِيجَادِ السُّلْطَةِ، وَقُوَّةٍ لَهَا حَقُّ الطَّاعَةِ عَلَىٰ الْأَفْرَادِ، تَقُومُ بِتَنْفِيذِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ، وَهَذِهِ السُّلْطَةُ هِيَ الْإِمَامَةُ؛ فَبِنَاءً عَلَىٰ ذَلِكَ يَجِبُ تَعْيِينُ إِمَامٍ يُخْضَعُ لَهُ وَيُطَاعُ، وَيَكُونُ لَهُ حَقُّ التَّصَرُّفِ فِي تَدْبِيرِ الْأُمُورِ حَتَّىٰ يَتَأَتَّىٰ لَهُ الْقِيَامُ بِهَذِهِ الْوَاجِبَاتِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «قَدْ عَلِمْنَا بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَبَدِيهَتِهِ أَنَّ قِيَامَ النَّاسِ بِمَا أَوْجَبَهُ اللـه مِنَ الْأَحْكَامِ عَلَيْهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجِنَايَاتِ وَالدِّمَاءِ والنِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَسَائِرِ الْأَحْكَامِ كُلِّهَا، وَمَنْعِ الظَّالِمِ، وَإِنْصَافِ الْمَظْلُومِ، وَأَخْذِ الْقِصَاصِ، عَلَىٰ تَبَاعُدِ أَقْطَارِهِمْ وَشَواغِلِهِمْ وَاخْتِلَافِ آرَائِهِمْ، وَامْتِنَاعِ مَنْ تَحَرَّىٰ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُمتَنِعٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ؛ إِذْ قَدْ يُرِيدُ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِم إِنْسَانٌ وَيُرِيدُ آخَرُ أَوْ جَمَاعَةٌ أُخْرَىٰ أَلَّا يَحْكُمَ عَلَيْهِم؛ إِمَّا لِأَنَّهَا تَرَىٰ فِي اجْتِهَادِهَا خِلَافَ مَا رَأَىٰ هَؤُلَاءِ، وَإِمَّا خِلَافًا مُجَرَّدًا عَلَيْهِم، وَهَذَا الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ضَرُورَةً، وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي الْبِلَادِ الَّتِي لَا رَئِيسَ لَهَا، فَإِنَّهُ لَا يُقَامُ هُنَاكَ حُكْمُ حَقٍّ وَلَا حَدٌّ، حَتَّىٰ

قَدْ ذَهَبَ الدِّينُ فِي أَكْثَرِهَا، فَلَا تَصِحُّ إِقَامَةُ الدِّينِ إِلَّا بِالْإِسْنَادِ إِلَىٰ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ».

الشرح:

فلا بد من جماعة، لا بد من سلطة، لا بد من قوة، وإلا لن تستقيم أمور الدولة بأي حال من الأحوال، فلا بد من هذه القوة الرادعة التي تحمي الدولة وتحمي الشريعة.

والقوة الآن مركزة في الجيوش، وهذا منوط بها، فهل هذه هي مهمته الأساسية؟

الجواب: لا، انقلبت هذه القوة الغاشمة، والسلطة المنفذة، إلىٰ حماية العروش والحكام والطواغيت.

فمهمتها الأساسية: حفظ بيضة المسلمين، وحفظ الدولة، وحفظ الحدود، وحفظ الشريعة، وما جُعِلت الجيوش والقوىٰ الرادعة إلا لحفظ الشريعة، وهذه مصلحة عامة للأمة، فلما انقلبت، تحولت قوتها وبطشها تجاه الشعب الذي يريد الشريعة.

لماذا انقلبت؟

لأن الحاكم الذي هو علىٰ رأس الدولة لا تعنيه الشريعة، ولا يعنيه حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فاستعمل هذه القوة العامة في المصالح الخاصة، القوة

العامة التي هي تحفظ الشريعة، وتحفظ الدولة -هذا الأصل فيها-، جعلها لمصالحه الخاصة، ففسدت الدول، وفسدت المجتمعات، لما وُسِّد الأمر إلىٰ غير أهله، وهذا من علامات الساعة، أن يوسد الأمر إلىٰ غير أهله، المهام العظام والوظائف الكبيرة تسند إلىٰ غير أهلها، النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا وسد الأمر إلىٰ غير أهله، فانتظر الساعة**»[1]، هذه علامة من علامات قيام الساعة، أن يوسد الأمر إلىٰ غير أهله، يولىٰ الفساق والفجار أمور الصلحاء والمسلمين.

المتن:

اَلْأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَىٰ وُجُوبِ الْإِمَامَةِ:

الشرح:

بعد أن ذكرنا الأدلة من القرآن علىٰ وجوب تنصيب إمام للمسلمين، نذكر الأدلة من السنة علىٰ وجوب ذلك، ملتزمين بالأصول الثلاثة المعصومة التي قررناها:

١. القرآن المحكم.

٢. والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩).

٣. وأقوال الصحابة، وفهمهم، وعملهم، -رضوان الـلـه عليهم أجمعين-.

المتن:

١- عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ: (١٨٥١).

الشرح:

وهذا كما سبق وشرحناه، أن كفار قريش كانوا لا يلتزمون، لا بطاعة، ولا باجتماع على أمير، هكذا كانت أمورهم؛ لذلك كان فيهم الخلاف والنزاعات، فلما جاء الإسلام، جمعهم على رأس، لذلك كان هذا من أسباب إعراضهم عن الإسلام.

وجاء في بعض الآثار أن أبا جهل كان يتكلم مع أحد أصحابه، وقال فيما قال: «والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟»[1]، ويروى أيضًا أنه قال: «تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب (جلسنا على

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٢٢٥).

الركب للخصومة) كنا كفرسي رهان (متساويين في الفضل)، قالوا: منا نبي، فمتىٰ ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»(١).

فهم كانوا لا يجتمعون علىٰ رأس؛ لذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة الجاهلية**»(٢)، أي: مات علىٰ عادات الجاهلية، وعلىٰ طباع الجاهلية، وليس معناه أنه كفر وخرج من الإسلام، بل يعني أن أهل الجاهلية كانوا لا يجتمعون علىٰ رأس، فمن مات وليس في عنقه بيعة، مات كما يموت أهل الجاهلية قبل الإسلام.

المتن:

قَالَ عِيَاضٌ: ««مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» (بِكَسْرِ الْمِيمِ)؛ أَيْ: عَلَىٰ هَيْئَةِ مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ، مِنْ كَوْنِهِم فَوْضَىٰ لَا يَدِينُونَ لِإِمَامٍ».

الشرح:

يعني: لا يطيعونه، ولا يلتزمون، ولا يجتمعون عليه.

المتن:

وَقَالَ العَيْنِيُّ: «قَولُه: «جَاهِلِيَّة»؛ أَيْ: كَمَوْتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ حَيْثُ لَمْ يَعْرِفُوا إِمَامًا مُطَاعًا».

---

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٤/ ١٦١).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٨٥١)، وأحمد في «المسند»، رقم: (٢/ ١١١).

فَإِذَا كَانَتِ الْبَيْعَةُ وَاجِبَةً فِي عُنُقِ الْـمُسْلِمِ، وَالْبَيْعَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا لِإِمَامٍ، فَنَصْبُ الْإِمَامِ إِذَنْ وَاجِبٌ.

٢ ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُم»، وَقَالَ: «لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُم».

الشرح:

هذا هو الأصل؛ ليجتمع الأمر على إمام، وتستقيم الأمور.

وسبق أن قلنا: تعريف الجاهلية الجامع المانع: هي كل ما يخالف الإسلام، إما مخالفة كلية، فيكفر بها؛ وإما مخالفة جزئية، فيُذَم بها.

المتن:

قَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ: «فَإِذَا كَانَ قَدْ أَوْجَبَ فِي أَقَلِّ الجَمَاعَاتِ وَأَقْصَرِ الاجْتِمَاعَاتِ أَنْ يُوَلَّىٰ أَحَدُهم؛ كَانَ هَذَا تَشْبِيهًا عَلَىٰ وُجُوبِ ذَلِكَ فِيما هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ».

٣ ـ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَىٰ الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ». فَيَدْخُلُ فِي الحُكْمِ وُجُودُ الخَلِيفَةِ أَوِ الإِمَامِ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الحُكْمِ، فَدَلَّ عَلَىٰ وُجُوبِ الإِمَامَةِ.

٤ـ عَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُم بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الـمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

الشرح:

هذا هو الأصل، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمرنا بالاجتماع علىٰ الخلفاء، وسماهم خلفاء، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القرآن سمىٰ ولي الأمر والحاكم الذي اجتمع عليه الناس: خليفة، عندما قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً}، خليفة يجتمع عليه الناس، ويقود الناس، ويسوس الناس بالإسلام.

فلفظ (الخليفة) في القرآن وفي السنة بهذا المعنىٰ.

المتن:

وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم أَنَّهُمْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بِالخِلَافَةِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثُمَّ استَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ -رَضِي الله تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ عُمَرُ أَحَدَ السِّتَّةِ الَّذِينَ اخْتَارُوا عُثْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثُمَّ بَعدَ اسْتِشْهَادِهِ بَايَعُوا عَلِيًّا بِالخِلَافَةِ، فَهَذِهِ سُنَّتُهُم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فِي الخِلَافَةِ، وَعَدَمِ التَّهَاوُنِ فِي مَنْصِبِهَا؛ فَوَجَبَ الاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الشرح:

أي: يجب علىٰ المسلمين جميعًا العمل علىٰ تنصيب إمام؛ لأن هذا أمر الله، وأمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، حتىٰ تستقيم لهم الحياة، ويستقيم لهم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَىٰ وُجُوبِ تَنْصِيبِ إِمَامٍ لِلْمُسْلِمِينَ:

أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ -رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم- عَلَىٰ تَعْيِينِ خَلِيفَةٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، بَلْ حَتَّىٰ قَبْلَ دَفْنِهِ وَتَجْهِيزِهِ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، «أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ -قَالَ إِسْمَاعِيلُ: يَعْنِي: بِالعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: «وَالله مَا مَاتَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ الله فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَا يُذِيقَنَّكَ الله المَوتَتَينِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَىٰ رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ الله أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [الزُّمَر: ٣٠] وَقَالَ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ

أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ} [آل عِمْرَانَ: ١٤٤]، فَنَشِجَ النَّاسُ يَبْكُونَ، وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلىٰ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُم أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيهِم أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، فَأَسْكَتَه أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللـه مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَلَّا يَبْلُغَه أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فتَكَلَّمَ أَبلَغَ النَّاسِ، فقَالَ فِي كَلَامِه: نَحْنُ الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ، فَقَالَ حُبَابُ بنُ الـمُنْذِرِ: وَاللـه لَا نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُم أَمِيرٌ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا، وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ، هُم أَوْسَطُ العَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُم أَنْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: بَل نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِه فَبَايَعَه، وَبَايَعَهُ النَّاسُ.

الشرح:

هذا فيه دلالة علىٰ أن اجتماع الناس علىٰ الإمام أمر لازم وحتمي.

والأمر الثاني: أنه لا يطلبها لنفسه؛ لأن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما تكلم وأبلغ، قال: «بايعوا عمر، وأبا عبيدة»، هؤلاء أولىٰ بهذه الإمامة مني، فعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سارع، وقال: «بل نبايعك أنت؛ فأنت سيدنا، وخيرنا، وأحبنا إلىٰ رسول اللـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس»، حتىٰ الأنصار الذين كانوا يقولون: «منا أمير ومنكم أمير»، نسوا هذا كله عندما اتضح لهم الرأس،

فاجتمعوا عليها بلا خلاف[١]. وهذه ميزة الأنصار والمهاجرين -رضي الله عنهم وأرضاهم-، فهنا لم يطلب لنفسه، ولكن الناس هم الذين يبايعونه، الناس هم الذين يطلبونه ليقوم بهذه المهمة.

الأنصار كانوا يقولون: «منا أميرنا ومنكم أمير»، وكانوا لا يعرفون أن الإمارة في قريش، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من هو في الأفضلية وفي الأولوية، أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعلم الأمة، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بعض المواقف يظن أن أبا بكر رجل أَسِيف، يبكي ويتضرع في الصلاة، لكنه كان في المواقف أشجع الناس، وأجمعت الأمة وأهل السنة علىٰ أن أشجع الناس بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما تتكلم عن الشجاعة، وعن قوة القلب، وعن الثبات، تجد أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل وأشجع وأثبت الأمة بعد نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وله موقفان يثبتان أنه هو المقدم في الأمة: موقف بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما وجه كلامًا لعمر دون أن يذكر أسمه، قال: «يا أيها الحالف علىٰ رسلك»، فلم يجلس، فقال: «أجلس يا عمر»، فجلس، فبدأ يتكلم بالآيات التي نسيها وغفل عنها عمر والصحابة، حتىٰ أن عمر يقول: «والله كأني أسمعها أول مرة»، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٦٦٧).

{أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ}، وقال: «فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»[١]، هذه الكلمات تحتاج قلبًا ثابتًا، تحتاج إلىٰ شجاعة؛ رأس الأمة الذي كان ينزل عليه الوحي من السماء، انقطع ومات، فهاج الناس واختلفوا، لذلك ارتدت قبائل العرب، ولم يبقىٰ منها إلا مكة والمدينة، فهذا أمر صعب، ثبت فيه الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، هذا موقف لا يثبت فيه إلا من ثبته الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الموقف الثاني: موقف الردة، عندما ارتدت قبائل العرب، وأراد أبو بكر أن يقاتلهم جميعًا، قالوا: النبي مات، والأمة تفرقت، فنريد أن نجتمع حتىٰ لا يأتوا إلىٰ المدينة يتخطفونا، ويقتلونا في المدينة، ما عندنا شوكة، ما عندنا قوة، ما عندنا منعة.

ولكنه كان أفقه الأمة، وأشجع الأمة، وأثبت الأمة، قال: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين، لأجهزن جيش أسامة»[٢].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٤٥٤)، (١٢٤١)، (١٢٤٢)، والإمام أحمد في «مسنده»، رقم: (٢٥٨٤١)، وانظر «سيرة ابن هشام» (٤/ ٦٦٤)، و«سبل السلام» (٢/ ١١١).

(٢) انظر «البداية والنهاية»: (٧/ ٩).

كانوا يقولون له: أرجع بعث أسامة إلىٰ المدينة، إلىٰ أن تهدأ الأمور، ونرىٰ الناس، ونرجعهم إلىٰ الإسلام؛ لأن المدينة ليس فيها جيش، وأنت أخرجت البعث، فأبقه. فرفض، وكان هذا من قوة قلبه وشجاعته وفقهه.

أين الفقه في هذا؟

العرب يترقبون، فقالوا: الآن مات النبي، وسنهجم علىٰ المدينة. فلو أرجع جيش أسامة، لأحس العرب بضعفهم، وقالوا: هم ضعفاء، لذلك أرجعوا بعث أسامة، هم قلة الآن، فنهجم عليهم ونقضي علىٰ بيضة الإسلام.

فلما أصر علىٰ إرسال بعث أسامة، كان هذا فيه رسالة للناس: أنه لو لم يكن عندهم قوة ومنعة وضعف ما أرسلوه، لما أرسلوا جيش أسامة، لأبقوا جيش أسامة في المدينة، ولكن لما كانوا أقوياء، وعندهم جيوش أخرىٰ، وأعداد أخرىٰ، أخرجوا هذا الجيش، وأبقوا من يحارب في المدينة.

وهذا الذي وصل إلىٰ الكفار فعلًا، خافوا لما أرسلوا جيش أسامة، وقالوا: في المدينة قوة كبيرة، وزعوها، فالذي ذهب مع أسامة قلة، والكثرة موجودة، فكان ذلك سببًا في ردع الكفار عن المدينة.

انظر إلىٰ فقهه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ! لأنه كان صاحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لذلك كان خليفته، ومن خير الأمة، ومن الخير الذي أراده الله بها أن جاء بأبي بكر بعد

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لو جاءوا بغير أبي بكر لانفرط العقد، وشعروا بالخلاف والتفاوت بين شخص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

المتن:

فَالصَّحَابَةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجمَعِينَ- بِمُجَرَّدِ أَنْ بَلَغَهُم نَبَأُ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَادَرُوا إِلَىٰ عَقْدِ اجْتِمَاعِ السَّقِيفَةِ الَّذِي ضَمَّ كِبَارَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَتَرَكُوا أَهَمَّ الأُمُورِ لَدَيْهِم ذَلِكَ الوَقْت، وَهُوَ تَجْهِيزُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَشْيِيعُهُ.

الشرح:

لماذا تركوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته في بيته، وذهبوا يعقدون لواء الإمامة واختيار الحاكم؟

الجواب: لأنه لا تقوم الدولة ولا تثبت إلا به، حتىٰ لا تكون فوضىٰ، فلا بد من إحكام الأمر، لا بد من اختيار رئيس، لا بد من اختيار أمير وخليفة، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات، وهو من هو في حياتهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتركونه! يتركونه ميتًا في بيته، ثم يذهبون يتكلمون في الإمامة! لعظمها، وانتظام الأمر بها، فلا تقوم للأمة قائمة إلا بها.

المتن:

قَالَ ابنُ حَجَرٍ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالْخِلَافَةِ: «تَرَكُوا لِأَجْلِ إِقَامَتِهَا أَعْظَمَ الْـمُهِمَّاتِ، وَهُوَ التَّشَاغُلُ بِدَفْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ فَرَغُوا مِنْهَا».

الشرح:

يعني: حتىٰ أثبتوها لأبي بكر، فلما أثبتوها لأبي بكر، رجعوا ودفنوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

وَقَالَ الهَيْتَمِيُّ: «اِعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ الصَّحَابَةَ -رِضْوَانُ الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِم أَجمَعِينَ- أَجمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ نَصْبَ الْإِمَامِ بَعْدَ انْقِرَاضِ زَمَنِ النُّبُوَّةِ وَاجِبٌ، بَلْ جَعَلُوهُ أَهَمَّ الْوَاجِبَاتِ؛ حَيْثُ اشْتَغَلُوا بِهِ عَنْ دَفْنِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

الشرح:

وهذا فيه دلالة قوية علىٰ وجوب تنصيب الإمام.

المتن:

وَمِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْإِجْمَاعِ عَلَىٰ وُجُوبِ الْإِمَامَةِ:

١- قَالَ الْـمَاوَرْدِيُّ فِي الْإِمَامَةِ: «عَقْدُهَا لِمَن يَقُومُ بِهَا فِي الْأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَإِنْ شَذَّ عَنْهُمُ الْأَصَمُّ».

الشرح:

الأصم هذا الذي كان يقول: لا تجب. ولكنه كما قال: «فإنه كان عن الدين أصم»، عيبًا له، فكان لا يرىٰ الإجماع علىٰ الإمامة.

المتن:

٢- قَالَ ابنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقَ جَمِيعُ أَهْلِ السُّنَّة، وَجَمِيعُ الْـمُرْجِئَةِ، وَجَمِيعُ الشِّيعَةِ، وَجَمِيعُ الْخَوَارِجِ، عَلَىٰ وُجُوبِ الْإِمَامَةِ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ وَاجِبٌ عَلَيهَا الِانقِيَادُ لِإِمَامٍ عَادِلٍ، يُقِيمُ فِيهِم أَحْكَامَ اللـه، وَيَسُوسُهُم بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا رَسُولُ اللـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ».

الشرح:

انظر إلىٰ كلام ابن حزم -رَحِمَهُٱللَّهُ- وهو دقيق ومحدَّد، قال: «الانقياد لإمام عادل»، ليس لأي أمام، فشَرَط فيه العدل، ثم شَرَطَ فيه أن يحكم بأحكام اللـه، ثم شَرَطَ فيه أن يحكم بأحكام الشريعة، هذه هي الشروط التي يجب توافرها، فليس تنصيب أي إمام كما يقال الآن: إيت بأي حاكم كافر ملحد علماني، لا يعني. ولكن يشترط أن يكون عادلًا، كما مر معنا في خصائص الإمام.

المتن:

٣- قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «لَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَلَا بَيْنَ الْأَئِمَّةِ، إِلَّا مَا رُوِيَ عنِ الْأَصَمِّ؛ حَيْثُ كَانَ عَنِ الشَّرِيعَةِ أَصَمَّ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَالَ بِقَولِهِ وَاتَّبَعَهُ عَلَىٰ رَأيِهِ وَمَذْهَبِهِ».

٤- قَالَ النَّوَوِيُّ: «أَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّه يَجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ نَصْبُ خَلِيفَةٍ».

٥- قَالَ ابنُ خَلْدُونَ: «نَصْبُ الْإِمَامِ وَاجِبٌ، وَقَدْ عُرِف وُجُوبُهُ فِي الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَىٰ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيهِ فِي أُمُورِهِم، وَكَذَا فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَلَم تُتْرَكِ النَّاسُ فَوْضَىٰ فِي عَصْرٍ مِنَ الْأَعْصَارِ، وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَىٰ وُجُوبِ نَصْبِ الْإِمَامِ».

٦- قَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا: «أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَجُمْهُورُ الطَّوَائِفِ الْأُخْرَىٰ عَلَىٰ أَنَّ نَصْبَ الإِمَامِ؛ أَيْ: تَوْلِيَتَهُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ، وَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ».

الشرح:

محمد رشيد هذا كان تلميذًا للإمام محمد عبده، وكان فيه بعض ما كان في شيخه، بعض الاعتزال، والعقل، وغير ذلك، فلما من الله عليه بدراسة دعوة الشيخ محمد، آمن بها، وانقلب رأسًا علىٰ عقب، وبدأ يدعو إلىٰ التوحيد، ويحذر من الشرك، بدأ يدعو إلىٰ السنة، ثم قرأ كتب شيخ الإسلام التي كانت ممنوعة في هذه الأزمنة عند المدرسة العقلية المعتزلية في ذلك الوقت، ثم أنشأ مجلة سماها «مجلة المنار»، كانت تأصل مثل هذه الأمور، وله تفسير اسمه «تفسير المنار»، كان ينشره في هذه المجلة.

فكان من أقوىٰ أنصار دعوة التوحيد، بعد أن كان تلميذًا لشيخ دعوة الاعتزال في زمانه، محمد عبده، حتىٰ كانوا يسمونه الإمام محمد عبده، وكان هو ورفيقه جمال الدين الأفغاني يسيرون في مثل هذا، ولكن محمد رشيد رضا نحا نحوًا آخر عندما شرح الله صدره لدعوة التوحيد، فبدأ يقرأ ويستوعب، وبدأ يحتك بعلماء الدعوة، حتىٰ فتح الله عليه، وكان رأسًا بعد ذلك في الدعوة إلىٰ التوحيد.

المتن:

اَلْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ تُوجِبُ تَنْصِيبَ إِمَامٍ، وَحَاكِمٍ، وَرَأْسٍ، يَجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ وَيَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ بِمُفْرَدِهِ وَحِيدًا مُسْتَقِلًّا عَنِ الْآخَرِينَ، بَل لَا بُدَّ أَنْ يَعِيشَ مَعَهُم حَتَّىٰ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ حَيَاتِهِ.

الشرح:

إذن جئنا بالأدلة علىٰ وجوب تنصيب الإمام من القرآن، ومن السنة، ومن عمل الصحابة -رضوان الله عليهم-، ومن أقوال علماء أهل السنة.

خامسًا: دلالة العقل والفطرة علىٰ وجوب تنصيب الإمام.

هذه خمسة أدلة: القرآن، والسنة، وفهم الصحابة وعملهم، وإجماع أهل العلم من التابعين وغيرهم، وكذلك دلالة العقل والفطرة.

المتن:

وَتَتَحَقَّق مَصَالِحُه، وَهَذِهِ الْـمُخَالَطَةُ قَدْ يَنْتُجُ عَنْهَا أَحْيَانًا تَعَارُض مَصَالِحِهِ مَعَ مَصَالِحِهِمْ، وَيَحْدُثُ بِسَبَبِهَا الِاحْتِكَاكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَيَحْصُلُ التَّنَازُعُ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَمِيرٍ يَخْتَصِمُ إِلَيهِ النَّاسُ، وَيَرتَضُونَهُ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، وَيُنَظِّمَ شُؤُونَ حَيَاتِهِمْ؛ فَكَانَ تَنْصِيبُ الْإِمَامِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لِلْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ حُقُوقِ النَّاسِ، وَضَمَانِ اسْتِقْرَارِ الْحَيَاةِ، وَدَفْعِ الْفَوْضَىٰ وَأَضْرَارِهَا؛ لِأَنَّ فِي عَدَمِ اتِّخَاذِ إِمَامٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْأَضْرَارِ وَالْفَوْضَىٰ مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا اللـه، وَدَفْعُ الضَّرَرِ وحِمَايَةُ الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ (الدِّينِ، وَالنَّفسِ، وَالْعِرْضِ، وَالْمَالِ، وَالْعَقْلِ)؛ وَاجِبٌ شَرْعًا، وَمِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ حِفْظُهَا، وَهَذَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِإِقَامَةِ إِمَامٍ لِلْمُسْلِمِينَ.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنبَلٍ: «الْفِتْنَةُ إِذَا لَمْ يَكُنْ إِمَامٌ يَقُومُ بِأَمْرِ النَّاسِ».

الشرح:

هذه هي الفتنة الكبرىٰ، الفتنة عند الإمام أحمد: ألا يوجد إمام يسوس الناس، هذه الفتنة.

لو تأملت في كلام الإمام أحمد، ونظرت إلىٰ واقعنا، لرأيت أن ما نحن فيه من فتنة إنما هو لغياب الإمام والخليفة والحاكم المسلم، إذا نظرت إلىٰ ما نحن فيه من فتنة وتخلف وتنازع وتفرق، لرأيت أن كل ذلك بسبب غياب

الإمام والخليفة المسلم، الذي يجمَع هؤلاء جميعًا تحت راية الدولة الإسلامية.

المتن:

وَقَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ لَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهم لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِالِاجتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ؛ فَالتَّعَاوُنُ عَلَىٰ جَلْبِ مَنَافِعِهم، وَالتَّنَاصُرُ لِدَفعِ مَضَارِّهِم؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: «الإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ»، فَإِذَا اجْتَمَعُوا فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِن أُمُورٍ يَفْعَلُونَها يَجْتَلِبُونَ بِهَا الْـمَصْلَحَةَ، وَأُمُورٍ يَجتَنِبُونَها لِمَا فِيهَا مِن الْـمَفْسَدَةِ، وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ لِلْآمِرِ بِتِلْكَ الْـمَقَاصِدِ، وَالنَّاهِي عَن تِلكَ الْمَفَاسِدِ، فَجَمِيعُ بَنِي آدَمَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ طَاعَةِ آمِرٍ وَنَاهٍ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ دِينٍ، فَإِنَّهم يُطِيعُونَ مُلُوكَهُمْ فِيمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَعُودُ بِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ، مُصِيبِينَ تَارَةً، وَمُخْطِئِينَ أُخْرَىٰ».

الشرح:

ابن تيمية يريد أن يقول: إذا كان هذا في الأمم التي ليس لها دين، تجتمع علىٰ رأس وملك، فأهل الدين وأهل التوحيد أولىٰ بذلك، والناس لا تستقيم حياتهم، ولا يزدادون طاعة وإيمانًا، إلا بالاجتماع والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فالخير الذي أنتم فيه الآن إنما هو بسبب اجتماعكم؛ لأنكم اجتمعتم علىٰ طاعة؛ فازدادت هذه الطاعة، وازداد الأفراد الذين في الجماعة، فلولا اجتماعكم، ما كانت هذه الجلسات العلمية لتقام، كيف تقام هذه المجالس

وكلٌّ مع نفسه، وكل بحسب هواه، متفرقين في الأرض، كل مشغول بحياته، فلما شعرتم بهذا، اجتمعتم على الطاعة وعلى البر، ثم كنتم سببًا في إقامة هذه الدروس، ثم كنتم سببًا في تبليغ دين الـلـه للناس في الأرض، سواء أكان هنا أم عبر الوسائل.

فإذا كانت جماعة كهذه صغيرة، والـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينفع بها هذا النفع، فما بالك بالأمة! ما بالك بالدولة! فهذا أمر معلوم بالفطرة والعقل.

المتن:

وَاتِّبَاعُ قَائِدٍ مُعَيَّنٍ لَيْسَ مِمَّا فَطَرَ الـلـه عَلَيْهِ بَنِي الْإِنْسَانِ فَحَسْبُ، بَلْ يُشَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْحَيَوَانَاتِ وَالْحَشَرَاتِ، فَالْإِبِلُ عَادَةً مَا تَتبَعُ قَائِدَهَا (الْجَمَلَ الْفَحْلَ)، فَتَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَهتَمُّ رَاعِي الْإِبِلِ إِلَّا بِتَوْجِيهِ هَذَا الْقَائِدِ، وَمِنْ ثَمَّ تَتبَعُهُ الْبَقِيَّةُ، وَكُلٌّ مِنَ النَّحْلِ وَالنَّمْلِ يَتَّخِذُ لَهُ مَلِكًا -مِنْ سُلَالَةٍ مُعَيَّنَةٍ- يَقُومُ بِحِمَايَتِهِ وَتَوْفِيرِ مَا يَحْتَاجُهُ، وَيَتبَعُهُ حَيْثُ كَانَ، فَكَيْفَ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي مَنَحَهُ الـلـه الْعَقْلَ، وَجَعَلَهُ يُدْرِكُ الْخَطَأَ مِنَ الصَّوَابِ، وَيَعْرِفُ مَا يَنفَعُهُ مِمَّا يَضُرُّه؟!

الشرح:

هذا الاجتماع ليس عند الإنسان فقط، بل عند الحيوان، وعند الحشرات، حتى الجِمَال لها قائد تتبعه، حتى الأسود، الأسود لا تعيش هكذا متفرقة، لا

بد لها من قائد يقودها، حتىٰ النحل، النحل حياته عجيبة منظمة، تأمل قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها.

إذا كان وجوب الاجتماع علىٰ رأس في الحيوانات، وفي الحشرات، فالإنسان من باب أولىٰ، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ}، فالحيوانات تجتمع علىٰ رأس، والحشرات تجتمع علىٰ رأس، وبنو آدم يختلفون علىٰ تنصيب إمام لهم! هذه عجيبة من العجائب.

المتن:

مَسْأَلَةٌ: هَلْ يَجُوزُ تَعَدُّدُ الأَئِمَّةِ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ أَمْ لَا؟

ذَهَبَ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَعَدُّدُ الْأَئِمَّةِ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، بَلْ حَكَىٰ بَعْضُهُمُ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ.

الشرح:

«علىٰ ذلك»، يعني: علىٰ أنه لا يجوز تعدد الأئمة في زمن واحد، وفي أرض واحدة.

فإذا تعددت بلاد المسلمين وتوسعت، وصعب التواصل بينهم، كأن تكون -مثلًا- دولة في المشرق، ودولة في المغرب، كما كانت الدولة العباسية في بلاد الشام، ودولة بني أمية في بلاد الأندلس- فقد قال بعض العلماء: يجوز إذا تعذر جمعهم في إمارة واحدة، وتعذرت المتابعة والرعاية، وتعذر التواصل بينهم في

هذا، فيكون هؤلاء لهم أمير وهؤلاء لهم أمير؛ أما إذا كان التواصل سهلًا، ولا تتعذر المتابعة، فلا بد من رأس واحدة.

المتن:

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لِخَلِيفَتَيْنِ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ». انْتَهَىٰ.

وَقَالَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ: «إِذَا عُقِدَتِ الْإِمَامَةُ لِإِمَامَيْنِ فِي بَلَدَيْنِ لَم تَنْعَقِدْ إِمَامَتُهُمَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْأُمَّةِ إِمَامَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَإِنْ شَذَّ قَوْمٌ فَجَوَّزُوهُ». انْتَهَىٰ

الشرح:

جوَّزوه للأمور التي ذكرناها، لتعذر التواصل والمتابعة بينهم، لوجود المفاوز والبحار، وغير ذلك، فيصعب عليهم المتابعة، وليسوا في بلد واحد تجمعهم بقعة واحدة.

المتن:

وَهَؤُلَاءِ المانِعُونَ مِنْ تَعَدُّدِ الأَئِمَّةِ مِنْهُم مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ اتَّسَعَتْ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ أَمْ لَا، وَهَذَا مَذْهَبُ الأَكْثَرِينَ، وَصَرِيحُ النُّصُوصِ يَشْهَدُ لَهُ.

الشرح:

وهذا هو الأولىٰ؛ حتىٰ لا يستقل حاكم بإقليمه، وقد كان من أسباب سقوط الدولة العباسية: أنها توسعت أطرافها، وصَعُب علىٰ الولاة متابعتها، فاستقل كل والٍ بمنطقته عن الخلافة؛ وصار ينازع الخليفة أمره، فحصلت النزاعات والتفرقات.

كذلك الدولة العثمانية عندما سقطت وتوزعت، أصبحت كل دولة تستقل بالحكم عن الدولة الأم؛ لأنه تصعب المتابعة والتواصل وغير ذلك، فانفرط عقدها.

فالأصل أن يكون إمام واحد حتىٰ لو اتسعت.

المتن:

وَمِنْهم مَن ذَهَبَ إِلىٰ جَوَازِ التَّعَدُّدِ إِذَا وُجِدَ سَبَبٌ مَانِعٌ مِن الاتِّحَادِ عَلَىٰ إِمَامٍ وَاحِدٍ، وَذَكَرَ إِمَامُ الحَرَمَين الجُوَيْنِيُّ أَهَمَّ هَذِهِ الأَسْبَابِ بِقَوْلِه: «مِنْهَا اتِّسَاعُ الخِطَّةِ، وَانْسِحَابُ الإِسْلَامِ عَلَىٰ أَقْطَارٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَجَزَائِرَ فِي لُجَجٍ مُتَقَاذِفَةٍ.

الشرح:

يعني: في جزر بعيدة، في أبعاد البحار والمحيطات، لا يوصل إليها، فيتعذر متابعتها من ولي الأمر في بلد الإسلام.

المتن:

وَقَدْ يَقَعُ قَوْمٌ مِنَ النَّاسِ نُبْذَةً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِم نَظَرُ الإِمَامِ.

الشرح:

يعني: يصعب علىٰ نظر الإمام أن يصل إليهم، لرعايتهم ومتابعتهم.

المتن:

وَقَدْ يَقَعُ قَوْمٌ مِنَ النَّاسِ نُبْذَةً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِم نَظَرُ الإِمَامِ، وَقَدْ يَتَوَلَّجُ خِطٌّ مِنْ دِيَارِ الكُفْرِ بَيْنَ خِطَّةِ الإِسْلَامِ، وَيَنْقَطِعُ بِسَبَبِ ذَلِكَ نَظَرُ الإِمَامِ عَنِ الَّذِينَ وَرَاءَه مِنَ المسْلِمِينَ...»، قَالَ: «فَإِذَا اتَّفَقَ مَا ذَكَرْنَاهُ فَقَدْ صَارَ صَائِرُونَ عِنْدَ ذَلكَ إِلَىٰ تَجْوِيزِ نَصْبِ إِمَامٍ فِي القُطْرِ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ أَثَرُ نَظَرِ الإِمَامِ». اِنْتَهَىٰ مِنْ «غِيَاثِ الأُمَمِ».

الشرح:

يقول الجويني: بهذه الشروط نعم، أما بغيرها فلا.

المتن:

وَقَالَ القُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِه: «لَكِنْ إِذَا تَبَاعَدَتِ الأَقْطَارُ وَتَبَايَنَتْ، كَالأَنْدَلُسِ وَخُرَسَانَ، جَازَ ذَلِكَ».

الشرح:

خراسان: هي أفغانستان، وهذه هي بلاد ما وراء النهر، كانت تسمىٰ خراسان.

المتن:

وَعَلَىٰ المسْلِمِينَ اليَوْمَ السَّعْيُ الحَثِيثُ مِنْ أَجْلِ التَّوْحِدِ، فَإِنَّ الأُمَمَ الآنَ تَتَسَارَعُ إِلَيْهِ فِي وَقْتٍ لَا يَجْمَعُهَا فِيهِ دِينٌ وَلَا عُرْفٌ، فَكَيْفَ وَالمسْلِمُونَ يَجْمَعُهُم الدِّينُ، وَالله أَعْلَمُ.

هَلِ الحُكَّامُ اليَوْمَ خُلَفَاءُ وَأَئِمَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ؟

الشرح:

بيَّنَّا أكثر من مرة أن هؤلاء لا تنطبق عليهم مسألة الإمامة ولا الخلافة.

المتن:

الحُكَّامُ اليَوْمَ هُمْ بِمَثَابَةِ الوُلَاةِ وَالأُمَرَاءِ عَلَىٰ الدُّوَلِ وَالمَنَاطِقِ وَلَا يَتَعَدَّىٰ حُكْمُهُم البَلَدَ الَّذِي هُمْ فِيه، لِذَلِكَ هُم لَيْسُوا خُلَفَاءَ وَلَا أَئِمَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ تَسَمَّىٰ بَعْضُهُم بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ!

الشرح:

هذه مصيبة، بعضهم يسمي نفسه أمير المؤمنين، أو يسميه شعبه بأمير المؤمنين، وهو غارق في الكفر، والإلحاد، وشرب الخمور، والرذيلة، والخنا، وغير ذلك، فأنىٰ لهذا أن يكون أميرًا للمؤمنين؟!

فمن المصائب إطلاقهم مثل هذه الأسماء عليه.

المتن:

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَؤْلَاءِ الحُكَّامَ مُوَظَّفُونَ.

الشرح:

هذه الحقيقة التي لا ينكرها كل بصير، هذه الحقيقة التي لا ينكرها إلا أعمىٰ، لا يرىٰ ولا يبصر، لا بعينيه ولا بقلبه: أن هؤلاء الحكام موظفون لدىٰ الدول الكبرىٰ، لدىٰ -كما يسمونهم- دول المركز.

يقولون له: أنت تحكم هذه الدولة، ولك خطة ومنهج تسير عليه، إن خرجت عنه فأنت معزول، إما أن تُعزل بالثورات، أو تُعزل بالإقالة، أو تُعزل بالاغتيالات، فاختر لنفسك.

فلسان حاله يقول: أجعلوني ملكًا ورئيسًا حتىٰ أموت، ولكم ما تطلبون، إن أردتم أن أهلك شعبي كله، فأنا أهلكه، إن أردتم أن أضيق عليه، أضيق، إن أردتم أن أمنع عنه سبل الحياة وأسجنه في سجون جماعية، فما عندي مانع، أنا طوع أمركم، بشرط أن تجعلوني حاكمًا حتىٰ أموت.

هذه هي حقيقة الحكام في زمننا اليوم.

فإذا طمعت أن يثور حاكم لموقف في الأمة يحتاج رجلًا وشهمًا، فأنت واهم وساذج؛ لأن هذا الحاكم لا يثور أبدًا، ولا يتحرك الدم في عروقه أبدًا؛ لأن الذين نصبوه لم يأذنوا له، فكيف يتصرف من عند نفسه؟!

أتظن أنه يستطيع أن يتصرف في أموره؟! بل لا يستطيع أن يتصرف في أمور بيته إلا بإذنهم، دعك من أمور الدولة، لا يستطيع أن يتزوج أو يزوج أبنائه أو

بناته إلا بإذن أسياده؛ فكيف تريد منه أن يتصرف في دولة؟! فهو أجير وموظف عند أسياده الذين نصبوه.

هذه حقيقة، تفحصها، وتأملها، وتدبرها، تجدها كذلك، وإلا لو كان حاكمًا ربانيًّا صحيح الإسلام، مستقلًا برأيه، وبدينه عن دين الكفار؛ لجيش الجيوش، وهيّأ الأمة للجهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والانقضاض علىٰ المحتل الذي يحتل بلاد المسلمين.

فإن لم يستطع هذا، فلا أقل من أن يعتز بدينه، ويحكم شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بلده، لا أقل من ذلك، وهو يدعي أنه مسلم، ويدعي أنه مؤمن، ويدعي أنه علىٰ الكتاب والسنة.

المتن:

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَؤْلَاءِ الحُكَّامَ مُوَظَّفُونَ مِنْ قِبَلِ الدُّوَلِ الكُبْرَىٰ، الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا بِالْوَلَاءِ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهَا فِي شَعْبِهِم وَمُوَاطِنِيهِم وَلِسَانُ حَالِهِمْ: (اِجْعَلُونِي مَلِكًا وَأَفْعَلَ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ)، فَهَؤُلَاءِ لَا وِلَايَةَ لَهُمْ وَلَا طَاعَةَ، وَيَجِبُ عَلَىٰ الأُمَّةِ أَنْ تُعِدَّ العُدَّةَ لِتَنْصِيبِ إِمَامٍ وَحَاكِمٍ يَحْكُمُ بِشَرْعِ اللهِ، وَلَا يَحِيدُ عَنْه فِي كُلِّ أُمُورِه، وَتَأْخُذَ بِأَسْبَابْ التَّمْكِينِ، وَتَسْتَفِيدَ مِنْ تَجَارِبِ مَنْ سَبَقُوهَا فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ عِنْدَ الحَدِيثِ عَنْ أَسْبَابِ السُّقُوطِ.

وَاجِبَاتُ الحَاكِمِ:

الشرح:

قد وصلنا إلىٰ الكلام عن واجبات الحاكم، وكأن الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقدر الأقدار لنتكلم اليوم عن واجبات الحاكم، في ظل الأحداث التي تمر بها الأمة الإسلامية، ولا يخفىٰ علىٰ مسلم متابع لما يحدث للمسلمين في فلسطين وفي غيرها، علىٰ يد اليهود والكفار.

ومن واجبات الحاكم في هذه الأحداث: أن ينصر الأمة، وينصر الإسلام، ولا يتكلم بالسياسات، ولا بالموازنات، الحاكم هو الذي يجب عليه أن يحرك الأمة للجهاد في سبيل الـلـه، الكفار لا يستحيون، ولا يستترون، ولكن يستعلنون بكفرهم، وعداوتهم، ومساعدتهم لإخوانهم الكفرة.

فيجب علىٰ الحاكم أن يجيش الأمة للجهاد في سبيل الـلـه؛ لرفع لا إله إلا الـلـه، ونصرة دين الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يجب علىٰ الحاكم أن يقف دائمًا في صف الشريعة، فإن لم يستطع أن يقف في صف الشريعة، فلا أقل من أن يقف في صف الشعب الذي يريد الشريعة، الذي ينادي بتطبيق الشريعة، وبالجهاد في سبيل الـلـه.

فنسأل الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن ينصر دينه، وسنة نبيه، وعباده المجاهدين، ونسأله سبحانه ألّا يحرمنا الأجر في ذلك، إما بمشاركة إذا فتح الـلـه

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنا باب جهاد علىٰ منهاج النبوة؛ لرفع راية لا إله إلا الله، ولتكون الشريعة هي الحاكمة، أو بدعم دعوي، أو مادي، لعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يكتب لنا أجر الجهاد والرباط. اللهم أمين.

المتن:

فَبَعدَ أَنْ تَمَّ اخْتِيَارُ الحَاكِمِ، وَإِمَامِ المسْلِمِينَ، مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ، وَالاخْتِيَارِ وَالشُّورَىٰ، وَفْقَ الشُّرُوطِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالصِّفَاتِ المرْعِيَّةِ، ذَاتِيَّةً كَانَتْ أَوْ مُكْتَسَبَةً، وَتَنْصِيبُهُ حَاكِمًا عَلَىٰ البِلَادِ؛ عَلَيهِ وَاجِبَاتٌ يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهَا.

الشرح:

«الصفات المرعية ذاتية كانت أو مكتسبة»: هنا سؤال: لماذا كان القائد قائدًا؟

القائد له صفات القيادة، فمن أهم صفات القائد بعد الإيمان والإسلام، والشروط الذاتية:

الأولىٰ: أنه قائد نفسه، يقودها إلىٰ دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يقودها بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذا رأىٰ من نفسه حيدة بعيدة عن الشرع، ألزمها بالرجوع إلىٰ الشرع. هذه أول صفة من صفات القائد.

الثانية: من صفات القائد أنه يحمل هم أصغر فرد في الأمة، ولا يترك شيئًا للقدر، ولا يترك شيئًا للصدفة، ولا للعشوائية، كل شيء عنده بمقدار، لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ويعطيها حقها من التفكير ومن التدبير.

النبي ﷺ مع أنه كان يحمل همّ الأمة كلها، إلا أنه عندما كانت تأتيه امرأة كانت تأخذ بيده، ويسمع لها ويرد عليها، فكان النبي ﷺ يحمل هم كل فرد في الجماعة، كل فرد في الأمة.

بل تعجب عجبًا شديدًا عندما ترىٰ القائد يفكر فيما لا يفكر المرء فيه لنفسه، فمثلا: أنا عندي مشكلة ما، ولا أحسن التدبير فيها، فأجد القائد، أو الإمام، أو الحاكم، هو الذي يكلمني، ويقول لي: ماذا فعلت في كذا؟ فعلنا لك كذا وكذا. يسهر علىٰ كل كبيرة وصغيرة.

فعندما علم النبي ﷺ أن جابر بن عبد الله قتل أبوه، وخلف لجابر أخوات صغار، فقال له النبي: «**تزوجت؟**»، قال: «نعم»، قال: «**فبكر، أم ثيب؟**» قال: «بل ثيب يا رسول الله»، قال: «**فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك**»، قال: قلت له: «إن عبد الله هلك، وترك تسع بنات، أو سبع، وإني كرهت أن آتيهن بمثلهن، فأحببت أن أجيء بامرأة تقوم عليهن، وتصلحهن»، فالنبي الله ﷺ علم أنه لا يستطيع أن ينفق علىٰ زوجته ولا علىٰ أخواته، ولم ينسها ﷺ.

انظر إلىٰ التفكير العميق في مفردات فرد من أفراد الأمة.

فلما رجع من الغزو، وكان لجابر جمل، فقال: «**يا جابر، بعني جملك هذا**»، قال: «هو لك يا رسول الله»، قال: «بل بعنيه»، جابر فكر من (كلمة غير واضحة) الثمن وهو لا يملك، قال جابر: «فلما قدم رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة غدوت عليه بالبعير، فأعطاني ثمنه ورده علي»[(١)]، يعني: لا نريد منك ثمنًا، ما فعلت ذلك إلا لمساعدتك، لحل مشكلته.

أنا أضرب لك أمثلة للقائد الأعلىٰ للأمة؛ حتىٰ يكون قدوة لكل قائد في مكانه، فيفكر في كل فرد من أفراد الجماعة المسلمة، أو الأمة المسلمة، يقوم عليه قيامًا؛ لذلك قال: «قائدًا»، يعني: هو الذي يقود بنفسه، ولا يترك أحدًا يقوم بعمله، وإلا لانهدمت الأمة، ولكثرت الآراء، فتصير الأمور مختلطة، وعشوائية.

هذه صفة القائد: أن يرعىٰ كل كبيرة وصغيرة، وإلا فلا يكون أهلًا لهذا المنصب.

فليس من السهل أن تُخرِج قائدًا يقود الأمة، يقود الأمة بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويقود نفسه أولًا.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٣٠٩)، ومسلم رقم: (٧١٥).

فتخيل هذا القائد الذي لا تغيب عنه لا مشكلة عامة، ولا مشكلة خاصة، وهو الذي يدبر، وهو الذي يفكر، يفكر في الجبهة الداخلية، ويفكر في الجبهة الخارجية، هذا كله لا يغيب عنه.

إذا تخيلت هذا، وأنزلته علىٰ الخلافة الراشدة، تجد هذا واضحًا جليًّا، كان الخليفة في هذه المدة يعمل حسابًا لكل فرد في الأمة صغيرًا كان أم كبيرًا.

وانظر إلىٰ عمر عندما لم يجعل للمولود حظ في بيت المال، فكان لا يفرض إلا للفطم؛ يريد بقدر المستطاع أن يجيش الجيوش للجهاد، فلما رأىٰ الأمهات يفطمن أولادهن، لام نفسه، ثم أمر مناديًا فنادىٰ أن لا تعجلوا صبيانكم علىٰ الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلىٰ الآفاق أن يفرض لكل مولود في الإسلام[1].

ولما خرج مرة في الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه *** وأرقني أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه *** لحرك من هذا السرير جوانبه

فقال عمر: «لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك»[2].

---

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٧/ ٢٦٦).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ»، رقم: (١٧٨٥٠).

والذي يجعله يفكر في هذا علمه أنه مسؤول أمام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأمام هذه الأمة التي استرعاه الله إياها بهذا الأمر.

ونجمل هذه الصفة فنقول: اليقظة، فلا يغفل عن أحوال الأمة. هذه أول صفة من صفات القائد.

المتن:

فَيَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا أَمِينًا، وَعَادِلًا عَلِيمًا، وَصَادِقًا نَزِيهًا، يَنْصَحُ رَعِيَّتَه وَلَا يَخُونُهُم، وَيُؤَدِّي حُقُوقَهُم وَلَا يُنْقِصُهُم، وَيَعْدَلُ بَيْنَهُم وَلَا يَظْلِمُهُم، وَيَسُوسُهُم بِالعِلْمِ وَالرِّعَايَة.

الشرح:

يعني: العلم بهم؛ أما العلم الشرعي فقد فرغنا من الكلام عنه، وهو ما وُلّي إلا لأنه عالم، ولكن المقصود هنا: العلم بهم، وبأحوالهم، وبظروفهم.

وإن لم يستطع أن يصل هو بنفسه إلىٰ الناس، أرسل العيون.

لذلك قلنا أنه يتابع الولاة، فإذا لم يتابع الولاة، استأثروا بما عندهم، فتفسد الأمة.

المتن:

لَا بِالجَهْلِ وَالغِوَايَةِ، وَيَصْدُقُهُم وَلَا يَكْذِبُهُم، وَيَتَّقِي الله فِيهِم، وَمِنْ ذَلِكَ:

- حِفْظُ الدِّينِ عَلَىٰ أُصُولِه.

- إِقَامَةُ القَضَاءِ العَادِلِ بَيْنَ النَّاسِ لِحِفْظِ حُقُوقِهِم.

الشرح:

فهو الذي يتابع القضاة بنفسه، في القضايا العامة، والقضايا الخاصة، هل يسيرون في الناس بسيرة العدل والإنصاف، أم يوجد بعض الجور؟

المتن:

- حِمَايَةُ البِلَادِ وَأَمْنِهَا.

الشرح:

يحمي البلاد من الأعداء، ومن الكفار، وكذلك يحمي البلاد من الأفكار التي تلوث عقول المسلمين، يحمي البلاد من كل ما يشوب المسلم دينًا ودنيا، فضلًا عن أنه يحمي حدود الأمة بالجهاد والرباط في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المتن:

- تَطْبِيقُ الحُدُودِ؛ صِيَانَةً لِحُرُمَاتِ الله تَعَالَىٰ وَحُقُوقِ النَّاسِ.

- إِقَامَةُ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَىٰ.

- جِبَايَةُ الصَّدَقَاتِ وَالفَيْءِ (الأَمْوَالُ العَامَّةُ).

- تَوْزِيعُ الأَمْوَالِ العَامَّةِ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهَا.

- تَوْلِيَةُ الْمَنَاصِبِ العَامَّةِ لِلْأُمَنَاءِ الأَكْفَاءِ.

الشرح:

فلا تأخذه في الله لومة لائم في ذلك، فيضع الرجل المناسب في المكان المناسب، لا يهمه من هو، وابن من؟ ولا تهمه الوسائط، إنما يهمه هل هو كفء وجدير بهذا المنصب أم لا؟

كما فعل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع أبي ذر، مع حبه الشديد لأبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، ولكنه قال: «**أنت ضعيف**»(١)، فهو يولي الرجل المناسب في المكان المناسب.

المتن:

- أَنْ يُبَاشِرَ بِنَفْسِهِ مُشَارَفَةَ الأُمُورِ، وَتَصَفُّحَ الأَحْوَالِ؛ لِيَنْهَضَ بِسِيَاسَةِ الأُمَّةِ وَحِرَاسَةِ المِلَّةِ.

الشرح:

أكبر خطأ يقع فيه الحاكم: أن يُعزل أو يَعزل نفسه في قصره، بأن يعزله من حوله، فلا يوصلون إليه أخبار الأمة، أو يوصلونها علىٰ غير حقيقتها، أو يَعزل نفسهَ بالانشغال بأمور الدنيا عن أمور الدولة.

فأكبر خطأ يقع فيه: هو أن يجعل من حوله هم الذين يقودون الدولة، وهو مشغول بأمور أخرىٰ، فلا ينبغي أن يسمح لهم بعزله عن الدولة، بل إن رأىٰ ظلمًا في البلاد أو في الرعية لا يصل إليه، أرسل هو العيون، لا عن طريق العصبة الحاكمة؛ حتىٰ تأتيه بالخبر اليقين.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٨٢٥).

المتن:

وَالبُعْدُ كُلَّ البُعْدِ عَن تَوْلِيَةِ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ الْمَنَاصِبَ فِي الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ.

الشرح:

وقد كان هذا سببًا من أسباب سقوط الدول، كما سنأتي عليها إن شاء الله -تبارك وتعالىٰ-.

وأسباب سقوط الدول لا بد أن ندرسها دراسة وافية؛ لأن هذه الأسباب هي التي جعلت الدولة الإسلامية تنهار، لذلك لو كنا نريد بقاء الدولة واستمرارها وثباتها، فلا بد أن نعالج هذه الأسباب معالجة واقعية بصدق؛ حتىٰ لا تتكرر، لأننا نريد استمرار الدولة الإسلامية، ونريد ثباتها وانتشارها.

وقد مرت أسباب الانهيار علىٰ الأمم من قبلنا، فيجب علينا إذا كنا صادقين العناية بدراستها، وفحصها، وتلخيصها، سببًا سببًا، فننظر ما الأسباب التي أدت إلىٰ السقوط؟ وما الغفلة التي حصلت؟

المتن:

قال الله تعالىٰ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣} [الأحزاب: ١ - ٣]،

قَالَ تَعَالَىٰ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ} [آل عِمْرَانَ: ١٠٠]، وَقَالَ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ} [آل عِمْرَانَ: ١٤٩]، وَقَالَ: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البَقَرَة: ١٠٩]، هَذَا فِي الكَافِرِينَ.

الشرح:

إذن تقريب الكافرين وتوليتهم المناصب في الدولة: من أهم أسباب الانهيار، ومن أهم أسباب الغزو الفكري للبلاد.

وانظر إلىٰ أول انحراف حدث في الدولة العباسية، هو ترجمة كتب اليونان، وإدخالها إلىٰ بلاد المسلمين، وتمكين الكفرة من الدولة، فبدؤوا أولًا بنشر أفكارهم بين أهل المناصب، ثم نشروها بين الناس.

فلما أقنعوا الطغمة الحاكمة الذين هم قدوات الناس، بدأوا ينشرون هذه الأفكار في الشعب كله، فحصلت هذه الفتنة، تقريب الكفار، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أمر أن نبعدهم، ونحاربهم؛ لأن العلاقة بين الإسلام والكفر علاقة محاربة، لا علاقة سلم أبدًا، فالأصل أن تجاهد في سبيل الله؛ لإعلاءِ

كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولنشر التوحيد في الأرض، والقضاء على الشرك والكفر، فيجب الجهاد ما دام الكفر في الأرض، فالعلاقة بين الإسلام والكفر علاقة حرب، وإن تخللتها الهدن، ولكنها هدن مؤقتة ليست دائمة.

كيف تقرب الكفار، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لك في القرآن: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، هل يوجد أفصح وأوضح من هذا؟! أن هذا العدو الكافر لا يريد بك خيرًا، وإن أظهر لك من المحاسن، ومن المودة، ومن حسن العشرة، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك؛ فما هو إلا لاستمالتك واحتوائك، فالأمة الإسلامية أو القائد أو الخليفة المسلم، يقع في مثل هذا بأمرين:

إما بالاستمالة، أو بالاحتواء.

الأمر الأول: إما أن يستميلوه بالعطايا والمميزات، والأشياء التي ليست في بلاده، من باب المساعدة، من باب أننا نحبك، ونحب أن نتواصل معك، ومن باب إقامة العلاقات، وغير ذلك، كما حصل مع الدولة العباسية، والدولة العثمانية، فيظن أنهم أصدقاء، هم كفار نعم، ولكنهم أصدقاء! فينسى حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الثاني: الاحتواء، يحتوونه عن طريق العصبة التي بجواره، يرسلون له من يكون عينًا وجاسوسًا عليه، وهو لا يدري.

وهو ما نسميه «اختراق الجبهة الداخلية»، ويكون هذا بأن يولي في أمر الدولة من لا يعرفه ولا يعرف أصله، فيولي يهوديًا أو نصرانيًّا، ولكنه محب أو تظاهر بالإسلام.

فينبغي ألّا يقرب من منصب القيادة إلا من عرفه معرفة حقيقية، عرف دينه، وعقيدته، وثباته، وصلابته؛ وأما أن يقربه من باب المصلحة، أو من باب التجارة، أو من باب إقامة المصانع في البلد، أو الاستثمار، أو الترفيه، فلا ينبغي، وهذا ما يسمونه «سياسة الاحتواء»، فإذا فشلوا في استمالته، حاولوا احتواءه، وهم لا يحتوونه ذاتيًّا لأنه قوي ويقظ.

ونستفيد من هذا فائدة عظيمة، وهي أن نغلق علىٰ مجلس القيادة «الدائرة المغلقة»، فيكون أعضاء مجلس القيادة من أقرب الأقربين، لا يدخل فيهم إلا من هو منهم عقيدةً، ومنهجًا، ودينًا، وخلقًا، ويكون مغلقًا دون غيرهم، لا يُفتح بأي سبب من الأسباب، أحيانا تأتي النوازل وتضطر أن تفتح، نقول: هذا خطأ، فإن اضطررت أن تفتح، فافتح وأنت يقظ، وعينك علىٰ كل من يقترب، سواء أكان بصفة تاجر، أم بصفة صانع، أو مستثمر؛ لأنه ما دخلت الجواسيس إلىٰ بلاد الإسلام إلا بهذه الصفات، ما دخلوها إلا بصفتهم مستكشفين، أو جغرافيين، أو كيميائيين، هكذا يدخلون، فلا بد أن يكون المسلم يقظًا.

والآيات السابقة في الكفار، فنهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن طاعة الكافرين الظاهرين، والآن نذكر ما جاء في المنافقين.

المتن:

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُنَافِقِينَ، فَيُوَضِّحُ الْقُرْآنُ خَطَرَهُم أَيْضًا عَلَى الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ؛ قَالَ تَعَالَىٰ فِي مَعْرِضِ بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ: {وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾} [البَقَرَة: ١٤، ١٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ} [المائِدَة: ٥٢].

الشرح:

إذن الاختراق لا يكون من الكفار وحدهم، فربما يكون من المنافقين، والمنافق دائمًا رِدْء للكافر، هذه قاعدة، فإذا قربت المنافق المتظاهر بالإسلام، وأنت تعلم أنه منافق، فاعلم أنه ردء للكافر، بمعنى أنه سيفتح الباب للكفار في بلاد الإسلام، وأن الكفار سيستعملون هؤلاء المنافقين؛ لأنهم يعرفون أنهم منافقون، لا تهمهم إلا مصالحهم؛ لذلك يستولون عليهم، فكما تحذر من الكفار، احذر من المنافقين، وضعاف الإيمان.

المتن:

وَيَجِبُ عَلَىٰ وَلِيِّ الأَمْرِ أَوِ الحَاكِمِ أَنْ يَجْمَعَ حَوْلَهُ بِطَانَةً صَالِحَةً تَتَّقِي اللـه عَزَّوَجَلَّ، مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَالْعَقْلِ، وَالتَّخَصُّصِ، وَيَأْتَمَّ وَيَأْخُذَ بِمَشُورَتِهِم فِي شُؤُونِ البِلَادِ، وَهَلْ هِيَ تُخَالِفُ شَرْعَ اللـه عَزَّوَجَلَّ؛ أَمْ أَنَّهَا مُوَافِقَةٌ لِلشَّرْعِ؟

الشرح:

وقد سبق أن قلنا في هذه المسألة: ينبغي القضاء علىٰ المركزية.

مركزية الإدارة: أن تجعل كل اختصاص الدولة في يدك أنت، فهذا لا يصلح أبدا، بل يجب أن يكون حولك من أهل العلم والتقىٰ والتخصص من تستعين بهم في مجالات تخصصاتهم، فإذ كنت بصدد مشروع ما، أتيت بأهل التخصص فيه، وأخذت بمشورتهم، كأن تريد عمل مشروع صناعي، ولست خبيرًا في الصناعة، فتأتي بالمتخصصين المقربين، من أهل التقىٰ والورع، فتأخذ بمشورته؛ لأنه من أهل التخصص، وكذلك في الصناعة، وفي الحرب، وفي كل مجال.

وإنما عملك أن تراقب من بعيد، ثم توازن الأمور بما عندك من عقل وعلم بالسياسة الخارجية، وتطبق.

فلا بد أن تحيط العصبة المؤمنة وأهل الصلاح بالحاكم، وإلا لو تركت هذه العصبةُ الحاكمَ، انفض من حولِه أهلُ الصلاح، واقترب أهل الفساد، ففسدت الدولة، فلا بد أن يستعين دائمًا بأهل الصلاح.

فإذا غفل الحاكم، وقرّب أهل الفساد، فما الواجب علىٰ أهل الصلاح؟

الواجب علىٰ أهل الصلاح أن يبينوا له أن هؤلاء ليسوا بنصَحَه، بل هم منافقون غششة، ونحن لا نريد إلا صلاح الأمة ودين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأرض، وهؤلاء يريدون كذا وكذا، ولا نسمح لك أن تضيع الأمة في هؤلاء.

فإن قيل: إذن يغضب الحاكم. نقول: لا يعنيك، أنت نصحت لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأديت واجبك، والله وتعالىٰ سيكافئك بما في قلبك، ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾، كما نزلت في العباس. فلا تجعل الحاكم عرضة لأهل الفساد أبدًا.

المتن:

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مُشَاوَرَةَ وَلِيِّ الأَمْرِ لِأَهْلِ العِلْمِ وَالعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالاخْتِصَاصِ فِي النَّوَازِلِ وَالأُمُورِ الهَامَّةِ؛ أَمْرٌ لَا غِنَىٰ عَنْهُ، وَهُوَ حِصْنٌ تَتَحَصَّنُ بِهِ الأُمَّةُ مِنْ عَوَاقِبِ الاسْتِبْدَادِ بِالحُكْمِ وَالقَرَارِ، الَّذِي يَفْتَحُ عَلَيْهَا ثَغَرَاتٍ خَطِيرَةً، قَدْ لَا يُدْرِكُهَا وَلِيُّ الأَمْرِ، وَإِنَّمَا بِالْمُشَاوَرَةِ يُنَبَّهُ إِلَيْهَا.

الشرح:

هذا يسمونه «تنقيح العقول»، يعني: أنا عندي فكرة، ورأيت فيها رأيًا واحدًا، فشاورت فلانًا فأبدىٰ رأيًا، وفلان أشار برأي، وثالث كذلك، أصبح عندي أربعة عقول، أربع وجهات نظر، كل عقل ينظر من زاوية خَفِيتْ عليّ

أنا، بمعنىٰ أني أرىٰ هذا الجانب فقط، ولكن لا أرىٰ الجانب الآخر، فهنا الناصح يريني الجانب الآخر الذي لم أره.

فهذه العقول تتفكر في أمر واحد، وتراه من جميع الزوايا، لا من زاوية واحدة؛ ولا بنظرة أُحَادية؛ لأن أحادية النظر عشوائية قاتلة، أن ترىٰ الموضوع بنظرتك أنت الأحادية، وتغفل عن نظرات الآخرين، وهم يصرخون فيك: الأمر ليس هكذا، الأمر ليس هكذا. وأنت لا تسمع؛ لأنك صادق في رؤيتك، لإنك تتكلم عما تراه أنت، وهم كذلك يتكلمون عما يرون، أما لو اجتمعت هذه العقول الأربعة، والنظرات الأربع، من جميع الزوايا، كان الأمر واضحًا جليًّا من جميع جوانبه، فكان الرأس مسددًا.

فلا بد من تنقيح العقول في الأفكار والنوازل بالأمة، هذا يجعلها في طريق الرشاد والأمان.

المتن:

قَالَ ابْنُ خُوَيْز مَنْدَاد: «وَاجِبٌ عَلَىٰ الوُلَاةِ؛ مُشَاوَرَةُ العُلَمَاءِ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَفِيمَا أُشْكِلَ عَلَيْهِم، مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَوُجُوهِ الجَيْشِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالحَرْبِ، وَوُجُوهِ النَّاسِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَصَالِحِ، وَوُجُوهِ الكُتَّابِ وَالوُزَرَاءِ وَالعُمَّالِ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ البِلَادِ وَعِمَارَتِهَا».

الشرح:

يعني: كل في تخصصه، وأنت تشرف عليهم فقط.

المتن:

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «وَالشُّورَىٰ مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ، وَعَزَائِمِ الأَحْكَامِ، مَنْ لَا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ العِلْمِ وَالدِّينِ، فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ...

الشرح:

عزله واجب لأنه يستأثر بالرأي فيّضيع الأمة، وهذه ليست له، بل الأمة كلها مشاركة، وإلا فما فائدة أهل الحل والعقد؟!

المتن:

هَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ، وَقَدْ مَدَحَ اللـه الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} [الشورىٰ:٣٨]» القرطبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فِي تفسيره.

وَالعُلَمَاءُ الَّذِينَ يُعَوَّلُ عَلَيْهِم فِي الشُّورَىٰ وَالحَلِّ وَالعَقْدِ هُمْ أَهْلُ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّونَ، العَالِمُونَ العَامِلُونَ، الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ فِي اللـه لَوْمَةَ لَائِمٍ، النَّاصِرُونَ لِلْحَقِّ وَالدَّلِيلِ، لَا أَصْحَابُ الهَوَىٰ، وَلَا الْمُتَزَلِّفُونَ إِلَىٰ الحُكَّامِ رَغَبًا وَطَمَعًا، فَأَمْثَالُهُمْ لَا يَدْخُلُونَ ابْتِدَاءً فِي أَهْلِ العِلْمِ، بَلْ هُمْ كَمَا وَصَفَهُمْ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «...مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

الشرح:

يعني: قد يكون المنافق عليم اللسان، فإذا تكلم أخذ بقلوب الناس وعقولهم، بليغ، يخطب ويتكلم كأنه أمير المؤمنين، يخاف علىٰ الأمة، لكنه منافق.

المتن:

فَالْوَاجِبَاتُ الَّتِي تَلْزَمُ الحَاكِمَ وَوَلِيَّ الأَمْرِ، وَالَّتِي يُنَصَّبُ مِنْ أَجْلِهَا -عَلَىٰ التَّفْصِيلِ-:

«**أَحَدُهَا**: حِفْظُ الدِّينِ عَلَىٰ أُصُولِهِ الْمُسْتَقِرَّةِ، وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، فَإِنْ نَجَمَ مُبْتَدِعٌ، أَوْ زَاغَ ذُو شُبْهَةٍ عَنْه، أَوْضَحَ لَهُ الحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابَ، وَأَخَذَه بِمَا يَلْزَمُه مِنَ الحُقُوقِ وَالحُدُودِ؛ لِيَكُونَ الدِّينُ مَحْرُوسًا مِن خَلَلٍ، وَالأُمَّةُ مَمْنُوعَةٌ مِنْ زَلَلٍ...

الشرح:

فالأصل فيه أنه يلتزم بالشرع، ويلتزم بأصول أهل السنة والجماعة، فإذا زاغ فالأمة المتمثلة في أهل الحل والعقد يرجعونه إلىٰ الأصل؛ لأن الأمة لا تجتمع علىٰ ضلال، فلو تركوه؛ رغبةً أو رهبةً، فسدت الأمة، وفسد نظام الحكم.

المتن:

الثَّانِي: تَنْفِيذُ الأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَشَاجِرِينَ، وَقَطْعُ الخِصَامِ بَيْنَ المتنازِعِينَ، حَتَّىٰ تَعُمَّ النَّصَفَةُ، فَلَا يَتَعَدَّىٰ ظَالِمٌ، وَلَا يَضْعُفَ مَظْلُومٌ.

الشرح:

وقد قلنا أن أساس الملك هو العدل، فالدولة تقوم علىٰ العدل والإنصاف.

المتن:

الثَّالِثُ: حِمَايَةُ البَيْضَةِ، وَالذَّبُ عَنِ الحَرِيمِ؛ لِيَتَصَرَّفَ النَّاسُ فِي الْمَعَايِشِ، وَيَنْتَشِرُوا فِي الأَسْفَارِ، آمِنِينَ مِنْ تَغْرِيرٍ بِنَفْسٍ أَوْ مَالٍ.

الشرح:

يعني: هو عليه أن يحفظ بيضة أهل الإسلام، ويحفظ بيوتهم، وحريمهم، إذا هم خرجوا إلىٰ التجارة، أو إلىٰ الجهاد، أو غير ذلك؛ حتىٰ يطمئن الذي يخرج أن أهله في أمان؛ أما إذا كان يخرج وهو مشغول علىٰ أهله أنهم ليسوا في أمان، ويتعرضون إلىٰ اعتداء، واغتصاب، وغير ذلك، فلا تُسَلّم له الولاية، بل يجب عزله؛ لأنه تقصير في حق لازم من حقوق الأمة، وهو حفظ حرماتها.

المتن:

وَالرَّابِعُ: إِقَامَةُ الحُدُودِ؛ لِتُصَانَ مَحَارِمُ اللـه تَعَالَىٰ عَنِ الانْتِهَاكِ، وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عِبَادِهِ مِنْ إِتْلَافٍ وَاسْتِهْلَاكٍ.

وَالخَامِسُ: تَحْصِينُ الثُّغُورِ بِالعُدَّةِ الْمَانِعَةِ، وَالقُوَّةِ الدَّافِعَةِ، حَتَّىٰ لَا تَظْفَرَ الأَعْدَاءُ بِغِرَّةٍ يَنْتَهِكُونَ فِيهَا مُحَرَّمًا، أَوْ يَسْفِكُونَ فِيهَا لِمُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهَدٍ دَمًا.

الشرح:

فبدل أن يجعل هذا الجيش حول قصره، يحرسه من شعبه، يجعل الجيش علىٰ ثغور الأمة، وحدود البلاد؛ حتىٰ يعرف الكفار والمعتدون أن ثَمّ جيشٌ، ورباطٌ، وأسودٌ، يقفون علىٰ هذه الحدود، فيخافوا، ولا يتجرؤوا علىٰ حرمات المسلمين.

المتن:

وَالسَّادِسُ: جِهَادُ مَنْ عَانَدَ الإِسْلَامَ بَعْدَ الدَّعْوَةِ حَتَّىٰ يُسْلِمَ أَوْ يَدْخُلَ فِي الذِّمَّةِ؛ لِيُقَامِ بِحَقِّ اللـه -تَعَالَىٰ- فِي إِظْهَارِهِ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ.

الشرح:

الكفار ثلاثة:

الأول: كافر مشرك، ككفار قريش وغيرهم، فهؤلاء ليس لهم إلا السيف أو الدخول في الإسلام.

الثاني: الكافر الأصلي: يهودي، أو نصراني، أو مجوسي علىٰ رأي بعض أهل العلم، هؤلاء لهم السيف، أو الدخول في الإسلام، أو عقد الذمة ودفع الجزية لأهل الإسلام.

الثالث: هو الكافر المرتد، هذا ليس له إلا القتل.

فهل تُعقَد الاتفاقات مع الكافر المرتد؟

نقول: لم يحدث أبدًا أن عقد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المرتدين اتفاقًا، أو جعلهم كحكم الكفار الأصليين أو المشركين أبدًا.

وهذه مسألة ينبغي التفطن إليها؛ لأننا عندما نقول أن الجماعة المسلمة المتمكنة المجاهدة، أو التي تعلن أنها مجاهدة- لا يجوز لها أن تعقد اتفاقيات مع المرتدين الذين هم يحاربونها، وما خرجوا إلا لمحاربتهم، فبعد فترة من الوقت أصبح هذا العدو الكافر المرتد الذي كانوا يحاربونه هو الصديق المقرب! لموازنات سياسية على الأرض، فبعد أن كنت تحارب هذا الكافر المرتد، وتوجه له سلاحك بقوة، أصبحت تهادنه وتعقد معه الاتفاقيات، بل تحارب إخوانك المجاهدين إذا حاربوه من غير إذنك، وتقول: بيننا وبينهم هدنة! إذن أين شرع الله؟ أين العلم؟

هل يعقد بين أهل الإسلام والمرتدين هدنة؟ ائتوني بعلم من هذا، هل فعله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

تقول لي: لم يكن في زمن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرتدين.

نقول: لا، كان في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكفرة والمرتدون، عندما ارتد مسيلمة الكذاب ومن معه من بني حنيفة في آخر عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ماذا فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أرسل لهم بعث أسامة.

وعندما ارتد جزء من أهل اليمن مع الأسود العنسي، ماذا فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أرسل مفرزة لقتله ومحاربته.

هذا فِعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المرتدين.

وقد بينا أنواع الكفار، وقلنا: الكافر المشرك تدعوه إلىٰ الإسلام، إما يدخل في الإسلام أو يُقاتل؛ أما الكافر الأصلي: يهودي، أو نصراني، إما تدعوه إلىٰ الإسلام، فيدخل في الإسلام، أو يدفع الجزية إن لم يدخل الإسلام، أو السيف بينك وبينه، وهذا تعقد معه المهادنات، وكذلك الكافر المشرك، تعقد معه المهادنات، كما هادن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشًا.

أما الكافر المرتد فليس له إلا السيف.

فادعاؤك بأنك مجاهد في سبيل الله، وأنك تريد إقامة دولة إسلامية، ثم تخالف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخص خصائص الدولة، وهي الجهاد في سبيل الله، دليل علىٰ أنك تريد مصالحك الشخصية والموازنات، أو أنك تدعي أن هؤلاء ليسوا كفارًا، يبقىٰ أنت أخرجت من هذه المسألة.

ونحن نبين هذه المسألة لأن الواقع فيه مثل هذه الأمور؛ جماعة تخرج تقول أنها جماعة مجاهدة في سبيل الله.

- تجاهدون من؟

- الحكّامَ المرتدين الذين بدلوا شرع الله، ووالوا الكفار.

- جيد، نحن معكم، نقاتل في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وإزالة هؤلاء الطواغيت من الأرض.

بعد فترة وجدنا التغير عليكم، بعد أن كنتم تسيرون لجهاد الكفار الذين أنتم تقولون أنهم كفار مرتدون، بدأتم تديرون الدائرة علىٰ أهل الإسلام من إخوانكم المجاهدين، وتقاتلونهم؛ لأنهم لا يأتمرون بأمركم.

- وما هو أمركم؟

- أن تكفوا عن هذا الكافر المرتد.

- لماذا؟

- لأن بيننا وبينه اتفاقيات، ومعاهدات، وموازنات.

- وهل هذا يصح في دين الله؟

- نعم، يصح في دين الله عَقْدُ مهادنات مع الكافر.

- حددوا أي صنف من الكافر؛ حتىٰ يزول الالتباس. هذا كافر مرتد، وأنتم ما خرجتم جهادًا إلا لإسقاطه، وتحكيم شرع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ!

فهذا فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وما فعل الصحابة من بعده؟ أهادنوا الكافر المرتد؟

الصحابة أجمعوا بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيادة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ قتال المرتدين، قتالَ كفر وردة، ولم يهادنوهم، ولم يوازنوا بين هذه المصالح والمفاسد، بل لما قال بعض الصحابة -ما هو أنا وأنت-: «يا أبا بكر نغفل عنهم»، ما قال: نهادنهم، نغفل عنهم، وننشغل بغيرهم حتىٰ تتقوىٰ الدولة، قال: «والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لقاتلتهم علىٰ منعه»[1]، ولم يراع أي ظروف أخرىٰ، وكان هو أفقه الأمة، وأعلمها، وأشجعها، بعد نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن أجمع الصحابة علىٰ قتال المرتدين، ولم يقبلوا منهم لا مهادنة، ولا أي شيء من هذه الأمور، بل اشترط عليهم أبو بكر أن يتبعوا أذناب الإبل، وألَّا يدخلوا المدينة، ولا يُقبَل منهم إسلامٌ، حتىٰ تظهر توبتهم.

الذي فعلوه فقط ألا يودوا قتلاهم، فقال: هذا لهم، بعد إلحاح من عمر، ولكن سموهم مرتدين، ولم يهادنوهم.

فمن أين لك عقد الاتفاقيات مع الكافر المرتد، ثم بهذا الاتفاق تمنع إخوانك المجاهدين أن يجاهدوا هذا الكافر المرتد، بل وتقتلهم وتأسرهم وتطاردهم؟!

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٢٨٤ – ٧٢٨٥)، والنسائي في «سننه»، رقم: (٢٤٤٣).

لا بد أن يبحث هذا بحثا علميًّا، بحثًا شرعيًّا، إذا كان عندكم علم في هذه المسألة خفي علينا، أخبرونا، ونحن سمعًا وطاعة للدليل الشرعي.

هل تجوز معاهدة الكافر المرتد؟

الذي نعلم من دين الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عقيدة وفقهًا: أن المرتد يقتل متىٰ قدر عليه، لذلك قالوا: ليس له توبة، ويقتل علىٰ كل حال.

(لعل الشيخ أراد الذي يسب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو يسب الـلـه عَزَّوَجَلَّ، فقد قال ابن تيمية في «الصارم المسلول»، تحت المسألة الثانية، بعد أن بين أن حديث إسلام عبد الـلـه بن أبي السرح يدل علىٰ أن ساب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا توبة له إلا بعفوه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ولا خلاف بين المسلمين علمناه أن الكافر إذا جاء تائبًا مريدًا للإسلام مظهرا لذلك لم يجز قتله لذلك**» ثم قال: «**ولا فرق في ذلك بين الأصلي والمرتد، إلا ما ذكرناه من الخلاف الشاذ في المرتد، مع أن هذا الحديث يبطل ذلك الخلاف**»، فنقل الإجماع علىٰ أن المرتد تقبل توبته، وبين أن الخلاف في ذلك شاذ غير معتبر، وأن هذا الحديث يبطل هذا القول الشاذ).

تستشهدون بأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قتل بعض المرتدين، وعفا عن بعضهم!

نقول: نعم، هذا لوليّ الأمر، ولكن انظر إلىٰ حيثيات الأمر، عندما جاء عثمان بعبد الله بن أبي السرح، وكان أخًا له من الرضاعة، وكان قد ارتد ورجع إلىٰ مكة، وآذىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدأ (كلمة غير واضحة) النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعباس معه كذلك، وكان معه أبو سفيان، مع قصة عثمان، وقصة أبي سفيان، وكلاهما مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ما فهمت)، فقال عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله بايع عبد الله» ثلاثًا، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساكت، «يا رسول الله إنه أجارنا علىٰ (كلمة غير واضحة) العباس» (لم أجد هذا السياق)، والنبي صامت، فلما ألح عليه إلحاحًا شديدًا، بايعه علىٰ مضض منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أقبل علىٰ أصحابه فقال: «**أما كان منكم رجل رشيد يقوم إلىٰ هذا حين رآني كففت يدي عن مبايعته فيقتله؟**»، وهذا دليل علىٰ وجوب قتله، قالوا: «يا رسول الله، هلّا غمزت بعينك» يعني: هلا أشرت إلنا بعينك، قال: «**ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»(١)، ما كان ينبغي أن أفعل هذا، ولكن أنتم ترون أنه يلح وأنا أصمت، صموتي هذا رفض، وإلا لو كان موافقة لقلت له بلساني، ولكن هو يلح وأنا أسكت، هذا دليل علىٰ أني غير راض، «**أما كان منكم رجل رشيد يقوم**

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، رقم (٤٣٥٩)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ»، رقم: (١٣٢٧٧).

إلىٰ هذا حين رآني كففت يدي عن مبايعته فيقتله؟»، هذا دليل علىٰ وجوب قتل المرتد.

ويدل علىٰ ذلك أيضًا: قتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض المرتدين.

إذن هذه السيرة العملية، وهذه السيرة الفقهية في معاملة الكافر المرتد، فمن أين لكم حكم جديد؟ بعد أربعة عشر قرنًا من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستتباب أحكام الإسلام، أجئتم بدين جديد؟! أنزل عليكم الوحي بهذا؟!

إذن هذه أمور لا بد أن تفصل، ولا تأخذك في الله لومة لائم.

فأما أن تؤجل قتالهم إلىٰ حين، فهذا يُقبل، أن تنشغل بأمور أخرىٰ، بإعداد ونغير ذلك، فهذا يقبل؛ وأما أن تقول: بيني وبينهم معاهدات، وأنا أحارب من يحاربهم نيابة عنهم. وتوجه سلاحك لإخوانك المجاهدين، وتطاردهم، وتقتلهم، وتسجنهم، ثم بعد ذلك تدعي أن هذا قتال شرعي! تدعي أنه تحكيم للشريعة! وتدعي أن جماعتك جماعة مسلمة تريد أن تحكم شرع الله في الأرض!

انظر إلىٰ واقعك، هل جاهدت الكفار؟ هل طبقت الشريعة في الأرض التي تحكمها؟ مع أن كل من يطلع علىٰ أحوالك يقول بأن عندك من القدرة، والمنعة، والعدة والعتاد، ما لم يكن في وقت سابق، عندك كل إمكانيات تحكيم

الشريعة، فلماذا لم تحكمها؟ لماذا تفعل الموازنات بين الكفر والنفاق؟ هذا ليس إسلامًا.

فنحن نريد أن تتضح مثل هذه الأمور؛ حتىٰ لا يلبّس علينا، ونؤكد علىٰ أننا لا نتكلم بلسان جماعة معينة، ولا حزب معين، ولا طائفة معينة، نحن نتكلم باسم الإسلام وأهل السنة والجماعة، وليس لنا اسم غير هذا، ومن رمانا بغير هذا، فهو مفترٍ علينا، كاذب علينا، لا أحد يستطيع أن يصنفنا ويقول: نحن أتباع هذه الجماعة، أو تلك. لا ننتمي إلىٰ أحد إلا إلىٰ أهل السنة وأهل الإسلام.

وما هدفنا؟

هدفنا هو إقامة التوحيد والسنة في الأرض، والجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله في الأرض، هذا هدفنا الذي نحيا من أجله، وننتقل من بلد إلىٰ بلد ندعو إلىٰ دين الله، وأي بلد يفتح باب الدعوة فنحن نسارع في دخوله؛ لتحقيق هذا الهدف، ونتلمح أي فرصة ندعو فيها إلىٰ دين الله وإلىٰ عقيدتنا: التوحيد والسنة، والجهاد في سبيل الله علىٰ منهاج النبوة؛ لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإزالة الكفر من الأرض. هذا منهجنا، هذه طريقتنا.

فالذي يرمينا بغير هذا فهو كاذب مفتر علينا، يحاسبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يريد أن يجعلنا في دائرة ضيقة مذمومة، حتىٰ يصل إلىٰ ذمنا بها، يقول: أنتم

أتباع هذه الجماعة، أنتم أتباع الحزب الفلاني، وهذه جماعة مذمومة، وجماعة السلف والعلماء كذا.

نقول: من الذي جعلك ترمينا بهذا؟ هل نحن صرّحنا؟ هل نحن نقول أننا أتباع الحزب الفلاني، أو الجماعة أو القضية الفلانية، نحن نقول بملء فينا، وأعلىٰ صوتنا: نحن مسلمون، أهل السنة والجماعة، الطائفة المنصورة، هذه عقيدتنا، عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة المسلمين، اسمنا (المسلمون)، (أهل السنة)، أتريد أن تخترع لنا اسمًا آخر حتىٰ تجد مسوغًا لتقليب الناس علينا، ولتحريضهم علينا؟! هذا بينك وبين الله.

مسألة: إذا كانت معاهدة المرتدين عامة غير جائزة، فهل معاهد أفراد المرتدين لمصلحة المسلمين جائزة؟ كأن يقبض علىٰ أحد المرتدين، فتعاهده علىٰ ألا تقتله إذا جاء مثلًا بالأخبار، أو كشف عن أسرار؛ لمصلحة الأمة.

الجواب: هذا يجوز؛ لأنه فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن قتل المرتد يرجع إلىٰ الأمام، إما يعفو عنه وإما يقتله.

فإن لم يوجد إمام كان ذلك للأمير، قائد الجماعة المسلمة.

المتن:

وَالسَّابِعُ: جِبَايَةُ الفَيْءِ وَالصَّدَقَاتِ، عَلَىٰ مَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ نَصًّا وَاجْتِهَادًا، مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا عَسْفٍ.

وَالثَّامِنُ: تَقْدِيرُ العَطَايَا وَمَا يُسْتَحَقُّ فِي بَيْتِ الْمَالِ، مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْتِيرٍ، وَدَفْعُهُ فِي وَقْتٍ لَا تَقْدِيمَ فِيهِ وَلَا تَأْخِيرَ.

التَّاسِعُ: اسْتِكْفَاءُ الْأُمَنَاءِ وَتَقْلِيدُ النُّصَحَاءِ فِيمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ وَيَكِلُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ؛ لِتَكُونَ الْأَعْمَالُ بِالْكَفَاءَةِ مَضْبُوطَةً، وَالْأَمْوَالُ بِالْأُمَنَاءِ مَحْفُوظَةً.

الْعَاشِرُ: أَنْ يُبَاشِرَ بِنَفْسِهِ مُشَارَفَةَ الْأُمُورِ، وَتَصَفُّحَ الْأَحْوَالِ؛ لِيَنْهَضَ بِسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ وَحِرَاسَةِ الْمِلَّةِ، وَلَا يُعَوِّلُ عَلَىٰ التَّفْوِيضِ تَشَاغُلًا بِلَذَّةٍ أَوْ عِبَادَةٍ، فَقَدْ يَخُونُ الْأَمِينُ وَيَغُشُّ». الماوردي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في: «الأحكام السلطانية».

الشرح:

نعم قد يخون الأمين ويغش. فلا تتشاغل عن حفظ أعراض الناس.

المتن:

وَهَذِهِ الوَاجِبَاتُ العَشَرَةُ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا، هِيَ مَحَلُّ اتِّفَاقٍ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ، لَا يَخْتَلِفُ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا اثْنَانِ، وَلَا يَنْتَطِحُ عَلَيْهِ كَبْشَانِ، وَهَذِهِ الوَاجِبَاتُ هِيَ الَّتِي لِأَجْلِهَا يُنَصَّبُ الحَاكِمُ، وَيُسْمَعُ لَهُ وَيُطَاعُ، وَيُصْبَرُ عَلَىٰ جَوْرِهِ وَفُجُورِهِ.

الشرح:

إذا كان متصفًا بهذه الصفات؛ يُصبَر عليه لفجوره في ذاته، أو جوره في بعض الأمور التي لم يجعلها قانونًا عامًا ملزمًا.

المتن:

لِأَنَّ غَايَةَ فُجُورِهِ تَكُونُ فِي نَفْسِهِ وَعَلَيْهَا.

أَمَّا قِيَامُهُ بِهَذِهِ الوَاجِبَاتِ؛ فَفِيهِ حِفْظُ الدِّينِ وَالْبِلَادِ وَالعِبَادِ، وَهُوَ الْغَايَةُ، حَتَّىٰ يَمُنَّ اللـه بِالْعَدْلِ الصَّالِحِ، الْجَامِعِ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْصَّلَاحِ، وَالْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ.

أَلَا فَلْيَتَّقِ اللـه كَذَّابُونَ أَفَّاكُونَ، يُلَبِّسُونَ عَلَىٰ الْعَامَّةِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَيُوهِمُونَهُمْ زُورًا وَتَضْلِيلًا؛ أَنَّ هَؤُلَاءِ الحُكَّامَ الْمُعَاصِرِينَ الْمُغْتَصِبِينَ الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَىٰ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُمْ أَهْلُ وِلَايَةٍ وَطَاعَةٍ، وَسَمْعٍ وَجَمَاعَةٍ، وَأَنَّ أَحَدَهُم هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالصَّادِقُ الْوَعْدِ الأَمِينُ.. أَلَا شَاهَتْ وُجُوهُ الْمُجْرِمِينَ، الْمُنْتَفِعِينَ الْمُضِلِّينَ؛ فَأَيُّ شَرْعٍ أَقَامَهُ هَؤُلَاءِ؟! وَأَيَّ دِينٍ مَكَّنُوا (أَيُّهَا الْسُّفَهَاءُ)؟! قَاتَلَ اللـه الجَهْلَ وَأَهْلَهُ، وَمَحَقَ أَهْلَ البَاطِلِ وَأَزْهَقَهُ.

الشرح:

اللـهم أمين!

فهذه واجبات الحاكم التي يجب أن يقوم بها، وما نُصّب إلا من أجلها، وإلا لو اخترمها فقد سقطت ولايته، وسقطت شرعيته.

المتن:

حُقُوقُ الْحَاكِمِ...

الشرح:

إذا قام بهذه الواجبات، فكذلك له حقوق.

المتن:

قَالَ الإِمَامُ الْمَاوَرْدِيُّ: «إِذَا قَامَ الإِمَامُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُقُوقِ الأُمَّةِ، فَقَدْ أَدَّىٰ حَقَّ اللـه تَعَالَىٰ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ، وَوَجَبَ لَهُ عَلَيْهِمْ حَقَّانِ: الطَّاعَةُ وَالنُّصْرَةُ، مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ».

فَحَقُّ الْحَاكِمِ الْمُسْلِمِ الشَّرْعِيِّ: السَّمْعُ وَالْطَّاعَةُ لَهُ بِالْمَعْرُوفِ، فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَلَوْ عَلَىٰ أَثَرَةٍ عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّهُ النُّصْحُ لَهُ، وَشَدُّ أَزْرِهِ، وَعَوْنُهُ عَلَىٰ الْخَيْرِ.

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عَلَىٰ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ».

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ».

وَمَعْنَىٰ قَوْلِه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»: مِنَ الاِسْتِئْثَارِ؛ أَيْ: عَلَيْكَ الْطَّاعَةَ وَإِنِ اخْتَصَّ الأُمَرَاءُ بِالْدُّنْيَا، وَلَمْ يُوصِلُوكُمْ حَقَّكُمْ مِمَّا هُوَ عِنْدَهُمْ.

الشرح:

يعني: لو منعوك من أثرة، فأدِّ الذي عليك.

المتن:

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الْدَّارِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ الْنَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

الْمُكَوِّنُ الثَّالِثُ مِنْ مُكَوِّنَاتِ الْشَّعْبُ، بَعْدَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالشُّورَىٰ وَالِاخْتِيَارِ وَالْحَاكِمِ الْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ:

هُمْ عَامَّةُ الْشَّعْبِ مِنَ الْنَّاسِ الْعَوَامِّ، وَهُمُ الْحَاضِنَةُ الْشَّعْبِيَّةُ الَّتِي عَلَيْهَا الْمَعْرَكَةُ، وَيَتَنَافَسُ عَلَيْهَا أَصْحَابُ السُّلْطَةِ؛ لِضَمَانِ وَلَائِهَا.

وَهَذَا مَا غَفَلَتْ عَنْهُ الْحَرَكَاتُ الإِسْلَامِيَّةُ، وَفَشِلَتْ فِيهِ.

الشرح:

فالحاضنة الشعبية هي الشعب، والشعب مكون من مكونات الدولة، فكيف تغفل عنه؟ كيف تغفل عن عقله، وعن فكره، وعن تنمية قدراته، وعن حفظه من الشبهات، والشهوات، والبدع، والانحرافات والغزو الفكري؟ كيف

تسمح له أن ينفتح علىٰ كل ضلالة إلا دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ وكيف تسمح له بكل انحراف، ولا تسمح له بكل خير في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

إذن هذه هي الحاضنة الشعبية التي غفل عنها كثير ممن يعمل للإسلام، ولم يعرفها إلا في الأزمات والمصالح فقط، فإذا لم تعرفها في الرخاء، فكيف تريد أن تعرفك في الشدة؟ أنت لم تقدم لها اليمنىٰ حتىٰ تذكرك.

فمن المهم جدًا في تكوين الدولة: الاهتمام بالشعب، معرفة الشعب، واحتياجات الشعب، ما يتطلبه الشعب، مشاكل الشعب، حتىٰ تساهم بقدر المستطاع، لا تتفرج.

هذه هي الحاضنة التي ستكون ردءًا لك في جهادك لإقامة الدولة، إذا أغفلتها، فأنت بلا حماية، وبلا ظهر.

المتن:

الرُّكْنُ الثَّانِي مِنَ الْأَرْكَانِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ: الْأَرْضُ وَالْوَطَنُ (الْإِقْلِيمُ): إِذَا وُجِدَ الشَّعْبُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الِاسْتِقْرَارِ عَلَىٰ إِقْلِيمٍ مَا، يَكُونُ مُسْتَقَرًا لِلشَّعْبِ وَمَصْدَرًا رَئِيسًا لِثَرْوَةِ الدَّوْلَةِ، وَ (إِقْلِيمُ الدَّوْلَةِ): هُوَ ذَلِكَ الْجُزْءُ الْمُحَدَّدُ مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، الَّذِي تُبَاشِرُ الدَّوْلَةُ عَلَيْهِ سُلْطَانَهَا، وَلَا يُمَارَسُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ غَيْرُ سُلْطَانِهَا.

الشرح:

يعني: هذه الأرض وهذا الوطن له حدود، يسمونها «حدود سيادة»، فواجب عليك الحفاظ علىٰ هذه الحدود، حدود سلطانك في هذه الأرض.

المتن:

وَيَتَكَوَّنُ إِقْلِيمُ الْدَّوْلَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ:

جُزْءٍ أَرْضِيٍّ: وَهُوَ الْجُزْءُ الْيَابِسُ الَّذِي تُعَيِّنُهُ حُدُودُ الْدَّوْلَةِ، وَيُسْتَعْمَلُ سَطْحُ الْأَرْضِ وَمَا دُونَهُ مِنْ طَبَقَاتٍ إِلَىٰ مَا لَا نِهَايَةٍ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ الْسَّطْحِ مِنْ مُرْتَفَعَاتٍ، كَالْجِبَالِ وَالهِضَابِ.

الشرح:

فالمكون الأرضي: هو جزء من الأرض محدود ومعلوم، له سيادة معينة، وعليه حكم شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وعندنا مكون مائي، ومكون هوائي في السماء، وهي حدودك في السماء، فيجب عليك أن تعرفها حتىٰ تحفظها، ولا يعتدي عليها معتد.

المتن:

وَجُزْءٍ مَائِيٍّ: وَيَشْمَلُ الْمِيَاهَ الْمَوْجُودَةَ دَاخِلَ حُدُودِ الْدَّوْلَةِ، مِنْ أَنْهَارٍ وَبُحَيْرَاتٍ وَنَصِيبٍ مِنَ الْبِحَارِ الْعَامَّةِ الْمُلَاصِقَةِ لِإِقْلِيمِ الْدَّوْلَةِ، وَتُسَمَّىٰ (الْمِيَاهَ الْإِقْلِيمِيَّةَ).

وَجُزْءٍ هَوَائِيٍّ: وَيَشْمَلُ طَبَقَاتِ الْهَوَاءِ فَوْقَ الْإِقْلِيمَيْنِ: الْأَرْضِيِّ وَالْمَائِيِّ، حَسَبَ مَا هُوَ مُحَدَّدٌ وَمَعْلُومٌ دَوْلِيًّا، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَالْوَطَنِ - عِنْدَ الْحَدِيثِ عَلَىٰ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الدَّوْلَةُ-.

مَنِ الَّذِي يُعَمِّرُ هَذِهِ الْأَرْضَ؟

الشرح:

يعني: عندنا أرض، وعرفنا حدودها، فمن الذي يعمرها؟ من الذي يجعلها عامرة بالتوحيد، وبالشريعة، وبالجهاد، وبالصناعة، والزراعة، والتجارة، وغير ذلك؟

المتن:

يُعَمِّرُ هَذِهِ الْأَرْضَ الشَّعْبُ وَأَفْرَادُ الْمُجْتَمَعِ، مِنْ شَقِّ التُّرَعِ وَالْمَصَارِفِ، وَإِقَامَةِ الْقَنَاطِرِ وَالسُّدُودِ؛ لِتَوْفِيرِ الْمَاءِ اللَّازِمِ لِاسْتِصْلَاحِ الْأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّةِ، وَتَنَوُّعِ الْمَحَاصِيلِ الْمَزْرُوعَةِ الَّتِي تَحْصُلُ بِهَا كِفَايَةُ النَّاسِ مِنَ الْقُوتِ الْأَسَاسِيِّ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ حَيَاتُهُمْ، هَذَا فِي مَجَالِ الزِّرَاعَةِ.

الشرح:

يعني: أولًا: تعمر هذه الأرض باستصلاح كل بقعة فيها زراعيًّا؛ لتحقيق التالي:

أولًا: اكتفاء الدولة وأفراد المجتمع من هذه الزراعة.

ثانيًا: تأمين قوت البلاد، وتحصينها من المجاعات، والطوارئ التي تطرأ علىٰ الناس.

المتن:

أَمَّا فِي مَجَالِ الْصِّنَاعَةِ: فَبِنَاءِ الْمَصَانِعِ الْمُنْتِجَةِ لِلسِّلَعِ الْمُهِمَّةِ وَالْضَّرُورِيَّةِ لِحَيَاةِ الْنَّاسِ، مِمَّا يَحْتَاجُونَهُ فِي وَاقِعِهِم، وَيَسْتَعْمِلُونَهُ فِي بُيُوتِهِم؛ مِنْ إِنْشَاءِ مَحَطَّاتِ الْكَهْرَبَاءِ وَالْطَّاقَةِ، وَرَصْفِ الْطُّرُقِ، وَإِقَامَةِ الْكَبَارِي وَالْجُسُورِ الَّتِي تُيَسِّرُ عَلَىٰ الْنَّاسِ سُهُولَةَ الْتَّنَقُّلِ، وَمُتَابَعَةِ الْتَّطَوُّرِ الْصِّنَاعِيِّ فِي الْعَالَمِ؛ حَتَّىٰ لَا تَتَخَلَّفَ الْدَّوْلَةُ عَنِ الرَّكْبِ الْصِّنَاعِيِّ، وَحَتَّىٰ تَحْصُلَ الْكِفَايَةُ، وَالِاسْتِغْنَاءُ -قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ- عَنِ الِاسْتِيرَادِ مِنَ الْخَارِجِ، فَالْدَّوْلَةُ الْمُسْلِمَةُ -شَاءَتْ أَمْ أَبَتْ- جُزْءٌ مِنَ الْنِّظَامِ الْعَالَمِيِّ، وَتَرْبِطُهَا بِهِ رَوَابِطُ طَبِيعِيَّةٌ -بِحُكْمِ الْوُجُودِ-، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَنْعَزِلَ، وَلَا تَتَخَلَّفَ، وَلَا تَكُونَ عَالَةً عَلَىٰ غَيْرِهَا، فَلَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَسْتَغِلَّ الْإِمْكَانِيَّاتِ الْمُتَاحَةَ وَتُطَوِّرَهَا.

الشرح:

ينبغي أن تحاول الدولة المسلمة بقدر المستطاع أن تكفي ذاتَها في مجال التصنيع بكل أنواعه: العسكري، والدوائي، والغذائي، وغير ذلك، بأن تصنع سلاحها، وتصنع دواءها؛ بما يعود عليها بالمنافع المختلفة، من توظيف العمالة، وإنتاج السلع التي تعود علىٰ المجتمع المسلم بالكفاية والرفاهية.

فالأصل ألَّا تحتاج إلىٰ غيرك، عندك أراض، لماذا لا تبني مصانع؟ لماذا لا تقوي دولتك صناعيّا؟ لماذا دائمًا تحتاج أن اشتري من الكفار سلاحًا؟ وهذا الكافر يستعمل هذا السلاح أحيانًا في التجسس عليك، أنت الآن ليس عندك خبرات، يعطيك السلاح وأنت تظن أنه سلاح، وهو في الحقيقة آلة تجسس يعرف بها كل ما عندك.

فلو أقمت المصانع، وصنّعت السلاح، والسلع الأساسية لقيام الدولة، فهذا كله يجعل الدولة قوية متينة.

المتن:

وَأَمَّا فِي مَجَالِ الْتِّجَارَةِ: بِإِقَامَةِ الْأَسْوَاقِ الْتِّجَارِيَّةِ، وَبِنَاءِ الْمَوَانِئِ، وَاسْتِغْلَالِ الْمَوَارِدِ الْمَائِيَّةِ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا، وَجَعْلِهَا مَحَطَّاتٍ لِلتَّوَاصُلِ مَعَ دُوَلِ الْعَالَمِ، وَالْتَّبَادُلِ الْتِّجَارِيِّ بَيْنَ دُوَلِ الْجِوَارِ وَغَيْرِهَا، وَجَلْبِ الْسِّلَعِ وَالْبَضَائِعِ الْنَّافِعَةِ لِلدَّوْلَةِ، الَّتِي لَيْسَتِ مَوْجُودَةً فِيهَا.

الشرح:

رأس مال الدولة: التجارة، والدولة التي تملك رأس مال، دولةٌ قوية، تتحكم في أمورها، ولا تسمح لغيرها بالتدخل فيها.

فلا بد من المال، المال عصب الدولة. وأنت بغير المال محتاج إلىٰ عدوك دائمًا. فاعرف هذا.

المتن:

وَأَمَّا فِي مَجَالِ الْصِّحَةِ وَالْتَّعْلِيمِ: فَبِإِنْشَاءِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ الْعَامَّةِ وَالْمُتَخَصِّصَةِ، وَتَوْفِيرِ الْأَجْهِزَةِ الْطِّبِّيَّةِ الْمُتَطَوِّرَةِ وَالْحَدِيثَةِ، وَالْكَادِرِ الطِّبِّيِّ الْمُتَدَرِّبِ، وَكَذَلِكَ بِإِنْشَاءِ الْمَدَارِسِ، وَالْجَامِعَاتِ، وَدُورِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَالِاهْتِمَامِ بِتَعْلِيمِ الْبَنَاتِ فِي مَدَارِسَ خَاصَّةٍ بِالْنِّسَاءِ، وَمَجَالَاتٍ خَاصَّةٍ بِالْنِّسَاءِ؛ لِمَنْعِ الِاخْتِلَاطِ، وَقَطْعِ سُبُلِ الْفَسَادِ.

مَنِ الَّذِي يَقُومُ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ الْإِدَارِيَّةِ الْكَامِلَةِ لِلدَّوْلَةِ؟

الَّذِي يَقُومُ عَلَىٰ تَنْظِيمِ حَيَاةِ الْنَّاسِ وَإِدَارَةِ الْدَّوْلَةِ: هِيَ الْحُكُومَةُ الَّتِي تُنْشِئُ الْوِزَارَاتِ وَالْهَيْئَاتِ، وَتُعَيِّنُ الْوُلَاةَ، وَتُوَزِّعُ الْمَهَامَّ، وَتُحَدِّدُ مَسْؤُولِيَّةَ وَعَمَلَ كُلِّ وِزَارَةٍ وَهَيْئَةٍ.

ننتقل للكلام عن الركن الثالث من الأركان التي تقوم عليها الدولة، وهو السلطة، أو السيادة، أو الحكومة، هذه كلها فرعيات منبثقة من الأصل، التي تسمىٰ: «إدارة الدولة».

فلا بد أن يكون للدولة نظام إداري تقوم عليه، من الذي يقوم عليه؟

الحاكم، هو الذي يُعَيّنها مع أهل الحل والعقد، لا ينفرد الحاكم باختيار الحكومة، أو باختيار الولاة، أو باختيار أمراء المناطق، بل يجتمع مع أهل الحل والعقد للتشاور في من يصلح لهذا، ثم بعد ذلك يختار هو من يناسب،

بعد أن يقترحوا عليه، ويناقشوه، يحاوروه، والأصل في هذا: الصدق، ليس فيه مجاملة، الأصل فيه: أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب؛ لأنها ليست قضية شخصية، بل هي قضية الأمة بأسرها.

لذلك انظر لما أراد عمر أن يستخلف بعده، لو كان هذه الأمر أمرًا شخصيًّا، لكان أحب إلىٰ عمر أن يقول: استشيروا عبد الله بن عمر، واجعلوه من أهل الشورىٰ، لكنه قال: استشيروه ولا تولوه؛ لأنه عَلِم أعباء الإمارة، علم مسئوليتها، هي تشريف نعم، ولكنها تكليف بقدر ما هي تشريف.

فالرجل المناسب يكون في المكان المناسب، وليس معنىٰ أنه لم يولَّ هذا المنصب أن فيه عيبًا أو به نقصًا، بل علىٰ العكس، فربما يكون أفضل ممن تولىٰ، ولكن لكل مكان رجل مناسب؛ حتىٰ نستطيع أن نقيم هذه الدولة.

المتن:

الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنَ الْأَرْكَانِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ: (الْسُّلْطَةُ) وَ(الْسِّيَادَةُ) وَ(الْحُكُومَةُ).

الْسُّلْطَةُ لَا يَكْفِي لِقِيَامِ الْدَّوْلَةِ وُجُودُ شَعْبٍ مُعَيَّنٍ عَلَىٰ إِقْلِيمٍ مُعَيَّنٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ قِيَامِ حُكُومَةٍ تُبَاشِرُ الْسُّلْطَاتِ بِاسْمِ الْدَّوْلَةِ، وَإِذَا مَا تَيَسَّرَ لِأُمَّةٍ مَا أَنْ تُقِيمَ حُكُومَةً تَخْضَعُ لِسُلْطَانِهَا؛ فَإِنَّهَا تُصْبِحُ دَوْلَةً.

الشرح:

يعني: الدولة بغير الحكومة لا تسمىٰ دولة، ما الذي يدل علىٰ أنها دولة؟

لها رأس وشعب، ولكنهم كالقطيع، لا يحكمهم حاكم، ولا ولي، ولا رجل ولا والي يقوم علىٰ أمورهم.

فإذا كان لها حكومة أُطلِق عليها «دولة»؛ لأن عندها نظامًا إداريًّا يدير هذه الدولة، هذه دلالة علىٰ أن الدولة هي دولة صحيّة، لها مقومات الاستمرار والثبات.

المتن:

وَ(السُّلْطَةُ): هِيَ الْقُوَّةُ، وَالْغَلَبَةُ، وَالسَّيْطَرَةُ، وَالْحَزْمُ فِي ضَبْطِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ؛ مِنْ خِلَالِ الْحُكُومَةِ الَّتِي يُعَيِّنُهَا الْحَاكِمُ لِتُسَاعِدَهُ فِي إِدَارَةِ الدَّوْلَةِ.

وَالسُّلْطَةُ الْمُطْلَقَةُ: لِله وَحْدَهُ، كَمَا أَنَّ السِّيَادَةَ لِله وَحْدَهُ -سُبْحَانَهُ- وَلِدِينِهِ وَلِشَرِيعَتِهِ.

الشرح:

هنا يحصل الخلط في معنىٰ السيادة، فبعض الغلاة عندما تقول: السيادة للحكومة أو للشعب أو غير ذلك. يظن أنك تنازع لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سلطانه وفي سيادته وفي حكمه، نقول: هذا فهم خاطئ؛ لأنك تبني علىٰ المفهوم المخالف.

فبعد أن أصلنا أسس الدولة، وأركان الدولة، وجعلنا حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشريعته هي السائدة، فالسلطة أو الحكومة هنا، منبثقة من سلطة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وحكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلا فلا تصبح دولة إسلامية.

إذن الضابط لهذه السيادة ولهذه السلطة: أن تكون منبثقة ومتبعة لشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلو خرجت هذه السلطة، أو هذه الحكومة، أو هذه القيادة، عن شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لفقدت شرعيتها، ولكن هذه السيادة هي سيادة خاصة، بأشخاص معينين، يطلق عليهم في النظام العام: «حكومة»، التي هي النظام الإداري لهذه الدولة، لهم السيادة في ضبط الأمور وحزمها، بقوانين إدارية تضبط إدارة الدولة، فالجيش، لا بد له من قوانين إدارية حازمة تضبطه، والشرطة، لا بد لها من قوانين ملزمة تضبط أفراد الناس، والشعب لا بد له من إطار عام يضبطه ولا يخرج عنه؛ حتىٰ لا يتجرأ علىٰ سلطة الدولة.

هذا معنىٰ السلطة هنا، فليست هي منازعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حكمه وتشريعه، وإلا فقدت الدولة أسمها الشرعي، ولكنها من باب القوانين، واللوائح الإدارية، التي تنظم حياة الدولة، وحياة الناس.

المتن:

مَنْ يَمْلِكُ السِّيَادَةَ فِي الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ؟ هَلِ الْحَاكِمُ أَوِ الْأُمَّةُ أَوْ غَيْرُهُمْ؟ حَيْثُ ذَهَبَ بَعْضٌ أَنَّ السِّيَادَةَ تَكُونُ لِلْأُمَّةِ، وَاسْتَدَلَّ بِالنُّصُوصِ الَّتِي تُخَاطِبُ الْأُمَّةَ بِمَجْمُوعِهَا، وَبِمَبْدَأِ الشُّورَىٰ فِي الْإِسْلَامِ.

وَهَذَا مَرْدُودٌ لِأَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: لِأَنَّهُ يَقْتَضِي إِمْكَانَ التَّنَازُلِ عَنِ السِّيَادَةِ.

وَالثَّانِي: لِأَنَّ السِّيَادَةَ سُلْطَةٌ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ.

فَالْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ حَدَّدَتِ الْإِطَارَ الْعَامَّ لِكَافَّةِ التَّصَرُّفَاتِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ صَادِرَةً مِنَ الْحُكَّامِ أَمِ الْمَحْكُومِينَ، فَكُلٌّ خَاضِعٌ لَهَا، وَمُلْزَمٌ بِطَاعَةِ أَحْكَامِهَا، فَالشَّرِيعَةُ حَاكِمَةٌ لِغَيْرِهَا، وَلَا يَجُوزُ تَجَاوُزُهَا، أَوْ إِلْغَاؤُهَا، أَوْ تَبْدِيلُهَا، أَوْ تَعْدِيلُهَا.

الشرح:

السيادة المطلقة هي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بمعنىٰ: هل تكون السيادة العامة المطلقة للشعب أو للحكومة أو لولي الأمر؟

نقول: لا، بل كل هؤلاء ينزوون وينزلون تحت حكم الله وشريعة الله، لكن لهم حق في إدارة هذه البلاد بقوانين منبثقة من حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهي حكومة يظلها حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسيادة مقيدة منبثقة من سيادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسلطانه على الكون.

هذا مهم جدًا تعريفه وتحقيقه؛ لأن تحرير المناط في مثل هذه الأمور يعصمك من الالتباس في المفاهيم والمصطلحات، ففرق بين السلطة العامة والسلطة المقيدة، وبين الدستور العام الذي هو شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والدستور واللوائح والقوانين المنظمة لحياة الناس.

المتن:

يَقُولُ تَعَالَىٰ: {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ} [الأنعام:٥٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا} [سورة الأحزاب: ٣٦]، وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [سورة النساء:٥٩]، وَقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْسَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

الشرح:

إذن هذه الآيات تدل على أن الحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والسيادة المطلقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان الكلام في الطاعة، فالطاعة هنا لله ولرسوله

ولأولي الأمر، انتبه لهذا؛ فهذه الآية ضابطة لمثل هذه النوازل، إذا كان الكلام عن الطاعة، فالطاعة لـلـه ولرسوله ولأولي الأمر.

وإذا كان الكلام عن التنازع، فالآية بنصها ردت التنازع إلىٰ الـلـه ورسوله فقط، ولم تذكر أولي الأمر؛ لأن ولي الأمر نازل تحت حكم الـلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يخرج عنه.

ومر معنا أنه إذا كانت الخصومة بين ولي الأمر وأهل الحل والعقد، رفعوا الأمر إلىٰ القضاء.

ففرَّقَ الـلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية بين الطاعة المطلقة في المعروف، لـلـه ولرسوله وأولي الأمر؛ وعند التنازع، بألّا يُرَدّ التنازع إلىٰ ولي الأمر؛ لأنا لو رددنا التنازع إلىٰ ولي الأمر، أدخلنا ولي الأمر في التشريع والسيادة مع الـلـه ورسوله.

ففرق بين الطاعة المطلقة لـلـه ولرسوله ولولي الأمر الذي طاعته تابعة لطاعة الـلـه ورسوله، أي: الطاعة في المعروف، وبين حال التنازع، ففي حال التنازع هل نرده إلىٰ ولي الأمر كذلك؟

إذا قلنا هذا، فإنا نجيز التحاكم إلىٰ القوانين الوضعية والبرلمانات؛ لأنه مفهوم قولنا: إن ولي الأمر هو الذي يحكم ويرد إليه التنازع. ولكن هذا لم يرده الـلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووضحه وبينه أتم بيان وأحسنه، قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ

فِي شَيۡءٖ} فردوه إلىٰ من؟ {إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ}، ولم يذكر أولي الأمر هنا، مع أنه ذكر في الآية طاعتهم في المعروف، قال: {أَطِيعُواْ} هذا في المعروف، ففرق هنا بين الطاعة في المعروف، وبين رد التنازع، فلا يكون رد التنازع إلا إلىٰ حكم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ورسوله.

إذن لا يخرج ولي الأمر من هذه المسألة، فهو محكوم بالشرع، لذلك قلنا: إذا تنازع ولي الأمر وأهل الحل والعقد، يقضي بينهم القاضي، فهو فرد كأفراد الأمة ينزل تحت حكم الله سبحانه ولا يخرج عنه.

وهذا لا تجده في الواقع الآن، لا تجد حاكمًا ينزل بنفسه للقضاء، وإن أراد أن يلبّس علىٰ الناس اخترع قضية ما، وخصومة ما، ثم تحاكم إلىٰ القضاء، وأعلنها الإعلام، أن هذا الرئيس وهذا الملك خاصم فلانًا، ولم يستعمل سلطاته، وتحاكم إلىٰ القضاء. هذا إن أرادوا، ولكن هذا لا يحدث.

المتن:

فَالْسِّيَادَةُ فِي الْدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، فَالْتَّشْرِيعُ لَهُ وَحْدَهُ -سُبْحَانَهُ-، وَهَذِهِ الْسِّيَادَةُ مُتَمَثِّلَةٌ فِي شَرِيعَتِهِ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وَالْدَّوْلَةُ إِنَّمَا تَسْتَمِدُّ سِيَادَتَهَا مِنْ خِلَالِ الْتِزَامِهَا بِالْأَحْكَامِ الْشَّرْعِيَّةِ وَتَنْفِيذِهَا لِهَا، وَلِلْأُمَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ حَقُّ تَوْلِيَةِ الْإِمَامِ وَمُحَاسَبَتِهِ وَعَزْلِهِ وَمُرَاقَبَةِ الْسُّلْطَةِ

الْحَاكِمَةِ فِي الْتِزَامِهَا حُدُودَ اللهِ، وَلَيْسَ لَهَا وَلَا لِلسُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ الْحَقُّ فِي الْعُدُولِ عَنْ شَرِيعَةِ اللهِ.

الشرح:

هذا ينبني علىٰ ما ذكرناه قبل، وهو أن ولي الأمر الذي اختاره أحل الحل والعقد يشترط أن يكون ملتزمًا بالشريعة، فإذا خرج عنها، نازعوه إلىٰ القضاء، وهذا يبين لك معنىٰ السيادة هنا، والفرق بين السيادة العامة المطلقة، والسيادة المقيدة.

المتن:

فَلَا عِبَادَةَ إِلَّا للهِ، وَلَا طَاعَةَ إِلَّا للهِ وَلِمَنْ يَعْمَلُ بِأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ، فَيَتَلَقَّىٰ سُلْطَانَهُ مِنْ هَذَا الْمَصْدَرِ الَّذِي لَا سُلْطَانَ إِلَّا مِنْهُ، فَالْسِّيَادَةُ عَلَىٰ ضَمَائِرِ الْنَّاسِ وَعَلَىٰ سُلُوكِهِمْ للهِ وَحْدَهُ، بِحُكْمِ هَذَا الْإِيمَانِ، وَمِنْ ثَمَّ فَالْتَّشْرِيعُ وَقَوَاعِدُ الْخَلْقِ، وَنُظُمُ الِاجْتِمَاعِ وَالِاقْتِصَادِ لَا تُتَلَقَّىٰ إِلَّا مِنْ صَاحِبِ الْسِّيَادَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ.

الشرح:

معنىٰ هذا: أن كل القوانين الإدارية واللوائح المنظمة للدولة، لا تخرج عن شريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهي منبثقة منها.

فما دور البرلمانيِّ، عضوِ البرلمان المنتخب في الدولة الإسلامية؟ ما مهمته؟

مهمته: أن يستنبط من الشريعة الإسلامية، نُظُمًا، ولوائح، وقوانين، ينظم بها حياة الناس، ثم يعرضها علىٰ اللجنة الشرعية: هل هذه القوانين توافق شرع الله أم ترفضه؟

فهو يتحرك في دائرة الشريعة، ولا يخرج عنها، فهو في دائرة حاكمة عليه وعلىٰ غيره، وهي دائرة الشرع.

فمهمته أن ينظر -إذا كان فقيها- في نصوص الشرع، ثم يستنبط منها أحكامًا تنظم حياة الناس في الدولة، ثم يعرض ما أداه إليه نظره علىٰ اللجنة الشرعية، من العلماء، وأهل الحل والعقد (مجلس الشورىٰ)، هل يسمح الشرع بهذه القوانين المنظمة، أم يعارض؟

فهذا يرجع إلىٰ أهل الحل والعقد الذين هم مجلس الشورىٰ، واللجنة الشرعية التي تنظر في اللوائح والقوانين.

فإن كانت مخالفة ردوها، وإن كانت موافقة أقروها.

هذا هو نظام الدولة في الإسلام.

المتن:

لَا تُتَلَقَّىٰ إِلَّا مِنْ صَاحِبِ السِّيَادَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ؛ مِنَ اللـه، فَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ الْإِيمَانِ بِاللـه، وَمِنْ ثَمَّ يَنْطَلِقُ الْإِنْسَانُ حُرًّا إِزَاءَ كُلِّ مَنْ عَدَا اللـه، طَلِيقًا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ إِلَّا مِنَ الْحُدُودِ الَّتِي شَرَعَهَا اللـه، عَزِيزًا عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا بِسُلْطَانٍ مِنَ اللـه.

مَظَاهِرُ السِّيَادَةِ فِي الدَّوْلَةِ؛ لِلسِّيَادَةِ مَظْهَرَانِ:

الْأَوَّلُ: الْمَظْهَرُ الْخَارِجِيُّ، وَيَكُونُ بِتَنْظِيمِ عَلَاقَاتِهَا مَعَ الدُّوَلِ الْأُخْرَىٰ فِي ضَوْءِ أَنْظِمَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، وَحُرِّيَّتِهَا فِي إِدَارَةِ شُئُونِهَا الْخَارِجِيَّةِ؛ وَتَحْدِيدِ عَلَاقَاتِهَا بِغَيْرِهَا مِنَ الدُّوَلِ، وَحُرِّيَّتِهَا بِالتَّعَاقُدِ مَعَهَا، وَحَقِّهَا فِي إِعْلَانِ الْحَرْبِ أَوِ الْتِزَامِ الحِيَادِ.

وَالسِّيَادَةُ الْخَارِجِيَّةُ: مُرَادِفَةٌ لِلِاسْتِقْلَالِ السِّيَاسِيِّ.

الشرح:

بمعنىٰ أن العلاقة الخارجية لا تسمح بأي حال بأن يدخل الآخرون في شؤون الدولة الداخلية، وإلا لفقدت السيادةُ مظهرَها.

وهذا هو الواقع الآن، تجد الحكام لا يستطيعون أن ينكروا علىٰ حكام الغرب، ولا أن ينصحوهم، ولا أن يقولوا لهم مثلًا: الشذوذ خطأ، وهذا لا يجوز، وأنتم أضللتم الناس، وأسأتم للإنسانية (كلمة غير واضحة: هذا من باب...).

فمن المستحيل أن يتدخل الحكام العرب في بلاد الغرب، بل إنهم يسمحون لحكام الغرب أن يتدخلوا في حياتهم، وينكروا ما في واقعهم وفي شعوبهم، بل يضغط عليهم حكام الغرب لتغيير هذا؛ لأنهم لا سيادة لهم.

الحكام العرب ليس عندهم سيادة؛ لذلك تجد الحكام الكفار يتدخلون في شؤونهم الداخلية، وهؤلاء الحكام لا يعاملونهم بالمثل، فلا يستطيعون أن ينكروا عليهم في مجتمعاتهم؛ لنقص السيادة عندهم، فهؤلاء ليس لهم سيادة، إنما هم -كما قلنا من قبل- ولاة موظفون عند الدول الكبرىٰ، إذن أنىٰ للموظف أن يعترض علىٰ سيده ورئيسه ومديره؟!

هذا هو الواقع الآن.

فليسوا مستقلين سياسيًّا، وإلا لَمَا تَدخّل الكفار في قوانين دولة إسلامية شعبها مسلم، فمثلا: نحن نرفض الشذوذ، ونرفض القوانين المنظمة له، وكذلك نرفض الاختلاط في بلادنا، فتجدهم يتدخلون، وقولون: كيف تفصِلُون بين الجنسين؟ لماذا لا تقبلون بالحرية الشخصية؟! لماذا لا تسمحون بالشذوذ والخمر والزنا وغير ذلك؟ ثم يقولون لهم: أنتم عندكم جمود، أنتم عندكم تخلف، لا بد أن تسايروا العصر.

وفي المقابل لا يجرؤ حاكم من حكام العرب، إذا انتشر في المجتمعات الغربية الكبرىٰ مثل هذه الأمور، أن يعلق علىٰ حاكم الدولة الكافرة في دول

الغرب، لا يجرؤ أن يقول له: امنع الاختلاط، إن الشذوذ مخالف للإنسانية، ليس مخالفًا للإسلام فحسب، بل هو مخالف للإنسانية. لا يستطيع أن يتدخل في حياة شعبه، مع أنه يسمح للحاكم الغربي الكافر أن يتدخل في شؤونه الإسلامية؛ فهو يعتز بحريته وكفرياته، والحاكم هنا يستحي أن يتكلم فيما يجوز له الكلام العام فيه! لا يتكلم باسم الإسلام، يكلم كما يتكلمون هم، باسم الإنسانية، والمواطنة، والمعايشة، والمسامحة، ومثل هذه المصطلحات الفضفاضة التي يستعملونها ليضغطوا عليك، ويقولون لك: أنت غير متسامح، أنت لا تقبل الآخر. ويقصدون بالأخر: الكافر.

فهذا نقص في السيادة، ليس عندك سيادة، لا تَدّعِ أنك سيد علىٰ بلدك وعلىٰ أرضك، وتخرج في وسائل الإعلام وتقول: سيادتنا وأرضنا لا مساس بها. شعارات!

ولكن اذكر لنا موقفًا واحدًا أنكرت فيه علىٰ حكام الغرب في دولهم، لا يوجد.

المتن:

وَمُقْتَضَاهَا عَدَمُ خُضُوعِ الدَّوْلَةِ صَاحِبَةِ السِّيَادَةِ لِأَيَّة دَوْلَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ، وَالْمُسَاوَاةُ بَيْنَ جَمِيعِ الدُّوَلِ أَصْحَابِ السِّيَادَةِ، فَتَنْظِيمُ الْعَلَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ يَكُونُ عَلَىٰ

أَسَاسٍ مِنَ الْاسْتِقْلَالِ، وَهِيَ تُعْطِي الْدَّوْلَةَ الْحَقَّ فِي تَمْثِيلِ الْأُمَّةِ، وَالْدُّخُولِ بِاسْمِهَا فِي عَلَاقَاتٍ مَعَ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ؛ أَنَّ هَذَا الْمَظْهَرَ لَا يَعْنِي أَنْ تَكُونَ سُلْطَتُهَا عُلْيَا، بَل الْمُرَادُ أَنَّهَا تَقِفُ عَلَىٰ قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْدُّوَلِ ذَاتِ الْسِّيَادَةِ، وَلَا يَمْنَعُ هَذَا مِنَ ارْتِبَاطِهَا وَتَقْيِيدِهَا بِالْتِزَامَاتٍ أَوْ مُعَاهَدَاتٍ دَوْلِيَّةٍ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْدُّوَلِ.

الشرح:

الأصل أن يكون للدولة الإسلامية علاقات خارجية مع دول الجوار، سواء أكانت هذه الدول إسلاميةً أم كافرة، فإذا كانت إسلامية فيُتعامل معها بخلق الإسلام، وبمعاهدات الإسلام، وفقًا للشريعة، وإن كانت الدول كافرة فيُتعاقد معها من باب الأمن الخارجي، والمعاهدات العامة في السلم العام؛ للتبادل التجاري والصناعي، وغير ذلك من الأمور.

مسألة: هل للدولة الإسلامية أن تعقد اتفاقًا يخالف الشريعة الإسلامية مع الدولة الكافرة؟

نقول: هذا لا يجوز بحال.

وهل لها أن تقبل بعض الشروط التي تكون مجحفة بأهل الإسلام؟

نقول: هذا في حال الضرورة، ولا يكون ملزِمًا عامًا، كما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية، ولكن هل كان فيه مخالفة لأصل من أصول الدين؟

الجواب: لم يكن.

إذن **ضابط الاتفاقات الخارجية مع الدول الأخرىٰ**: ألا تهدم أصلًا من أصول التوحيد والعقيدة، وما سوىٰ ذلك يندرج في قواعد الموازنة بين المصالح والمفاسد للدولة والشعب، والمصالح العامة والمصالح الخاصة. هذا أصل في هذه المسألة.

مسألة: في المجتمع الدولي بندان رئيسان:

الأول: أن تسمح للعلاقات التجارية في بلدك.

والثاني: ألّا تعتدي علىٰ أحد.

هذان أهم بندان عندهم في قيام الدولة.

فماذا نفعل بالبند الثاني؟ أننا لن نعتدي علىٰ أحد، أو مثلًا لن نوسع رقعتنا، هل نعمل به مؤقتًا؟ مع أنه مخالف لأصولنا؛ لأن الجهاد فرض علينا.

الجواب: الأصل أن ننظر ماذا فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحال؟ فنستلهم هذه المسألة من فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما ذهب إلىٰ المدينة، وكان الأصل أن ينشر الإسلام وينشر التوحيد، ولكن كان الوقت وقت إقامة دولة، واستتبابها، وتمكنها، فكانت تَرُدّ العدوان فقط، ولم يكن جهاد الطلب قد فرض، وإنما كان جهاد الدفع؛ فلما قويت الدولة، وقويت رؤوسها، وتمكنت جذورها في الأرض، بدأت تتوسع وتنتشر بالقوة والمنعة والشوكة، ولم تلتفت لأي اتفاقيات في مثل هذه الأمور؛ لأن الأصل هو نشر التوحيد في الأرض، والقضاء علىٰ الكفر والشرك، فلو كانت عندك قوة ومنعة، فستفعل ما أمرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، وهو أن تدعو الناس إلىٰ التوحيد، وتدعو الناس إلىٰ الدخول في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإن أبوا، فيُنظَر هل هم مشركون؟ فليس لهم إلا الدخول في الإسلام أو السيف، وإن كانوا أهل كتاب، فالدخول إلىٰ الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال.

هذا إن كنت تملك القوة والمنعة لنشر الإسلام في الأرض.

لكن إن لم يكن عندك القوة المانعة، فإنك تُعِدّ، وترتب، وتقوي أركان الدولة، وتحصنها وتقويها في جميع المجالات: صناعيًّا، وزراعيًّا، وتجاريًّا، وعلميًّا، وصحيًّا، وغير ذلك، ثم بعد ذلك تأتي شيئًا فشيئًا.

فإن كانت القوىٰ العالمية لا تسمح لك -بوضعك وإمكانياتك- أن تتوسع، فلا أقل من أن تقوم بالأصل، وهو أن تحكُم أرضك بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

وأن تكون لك السيادة المطلقة في إدارة شؤون بلدك، ولا تسمح لأحد أن يتدخل فيها.

هذه هي العلاقة الدولية في حالة الضعف، والعلاقة الدولية في حالة القوة.

فالدولة لها حالتان في العلاقة الخارجية، الأصل أنها تعقد اتفاقيات للدفاع المشترك؛ حتىٰ لا تستعدي الدول من حولها، وهي لم تتمكن بعد، فيتكالبوا عليها، ويستأصلوها من الأصل.

فلما كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مستحضرًا لهذا، وأراد أن يعقد اتفاقية الدفاع المشترك، بعث إلىٰ قائدَيْ غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة علىٰ أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فلما أراد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يفعل، بعث إلىٰ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: «يا رسول الله، أمرًا نحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟» قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلىٰ أمر ما**»، فقال له سعد بن معاذ: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم علىٰ الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرًىٰ أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا، والله

ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتىٰ يحكم الله بيننا وبينهم»(١).

فعندنا ضعف وقوة، ففي حالة الضعف لا بد أن نقوي ونعد ونؤصل هذه المسائل، في حالة القوة ننتشر بقدر ما تسمح لنا القدرة والمنعة.

فإن لم يسمح النظام الدولي العالمي الآن، إذن نحكم أرضنا بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحافظ علىٰ هذه الأرض، نحافظ عليها بحكمها بشرع الله، وبالسيادة التي لا تسمح لأحد أن يتدخل في شؤون الدولة، وكذلك بألَّا نعطي الدول الكافرة امتيازات في داخل دولتنا؛ لأن هذا -كما سيأتي في أسباب السقوط- كان من أقوىٰ أسباب سقوط الدول، فأعطوا للكفار امتيازات في الدولة الإسلامية، وسمحوا لجالياتهم بالاستقلال في عباداتهم، وأنظمتهم، لذلك صاروا يبنون الكنائس، ويبنون المعابد في بلاد الإسلام، والأصل أنهم لا يسمح لهم بذلك، فلا تكون هناك معابد وكنائس وبيع يعبد فيها غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يكون هذا في بلاد الإسلام.

فلو سمح الحاكم بامتياز من أجل أن يأخذ بعض الإمكانات، فهذا يؤثر علىٰ أصل الدين، فيجعل دينين في البلد الذي يدعي أنه بلد إسلام، وهي لم تكن، ولكن من باب الاضطرار كما تدعي، أو من باب الضرورة، فسمحنا

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٦/ ٣٩-٤٠)، و«سيرة ابن هشام»: (٢/ ٢٢٣).

لمثل هذه حتىٰ نعدي هذه التجربة، أنت لا تعديها بل أنت تضخمها، وهم لا يسكتون علىٰ ميزة أنت أعطيتهم، بل هم يعتادون إلىٰ امتيازات كثيرة، وكلما أعطيتهم طمعوا، حتىٰ تصبح أنت في دولتك غريبًا، لا تستطيع أن تفعل شيئًا؛ بسبب هذا التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين.

ضابط هذه المسألة: في حال القوة ننتشر، وفي حال الضعف نحافظ علىٰ إمكاناتنا ومكاسبنا.

المتن:

وَيَكُونُ بِبَسْطِ سُلْطَانِهَا عَلَىٰ إِقْلِيمِهَا وَوِلَايَاتِهَا، وَبَسْطِ سُلْطَانِهَا عَلَىٰ كُلِّ الرَّعَايَا، وَتَطْبِيقِ أَنْظِمَتِهَا عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، لَكِنَّ الْدَّوْلَةَ الإِسْلَامِيَّةَ وَلِمَا تَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ سَمَاحَةٍ، وَوَفْقًا لِلْأَحْكَامِ الْشَّرْعِيَّةِ تَمْنَحُ الْذِّمِّيِّينَ حَقَّ تَطْبِيقِ أَحْكَامِهِمُ الْخَاصَّةِ فِي جَانِبِ حَيَاتِهِمُ الْأُسَرِيَّةِ؛ إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ امْتِيَازًا لَهُمْ، وَلَا يُقَيِّدُ أَوْ يَحُدُّ مِنْ سُلْطَانِ الدَّوْلَةِ أَوْ سِيَادَتِهَا، وَيَكُونُ قَابِلًا لِلْاسْتِرْدَادِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُوجَدَ دَاخِلَ الْدَّوْلَةِ سُلْطَةٌ أُخْرَىٰ أَقْوَىٰ مِنْ سُلْطَةِ الْدَّوْلَةِ.

الشرح:

وهذا الذي حصل في نهاية الدولة العثمانية، جعلوا للكفار امتيازات في البلاد، وجعلوهم يتحاكمون إلىٰ دينهم داخل الدولة، فكانوا يرتكبون الجرائم، فإذا أرادت الدولة أن تحاسبهم قالوا: ليس لكم أن تحاسبوا رعايانا؛

لأن عندنا قانون وامتيازات أنتم أعطيتمونا إياها، فنحن الذين نحاكم رعايانا، وليس لكم سلطة عليهم.

فجعلوا سلطة أخرىٰ داخل بلاد الإسلام مع السلطة الإسلامية، وحينئذ بدؤوا يستجلبون الكفار، ويوسعون رقعتهم في البلاد، حتىٰ صارت كأنها مستوطنة محتلة في أرض الإسلام، وأصبحت بعد ذلك أوكارًا للجواسيس، التي يسمونها الآن «سفارات»، و«قنصليات»، وغير ذلك، وهي في حقيقتها أوكار للجواسيس علىٰ أهل الإسلام.

والمصيبة الكبرىٰ أن هؤلاء الحكام يعلمون أن هذه الكيانات الغربية علىٰ الأراضي الإسلامية، هي أوكار للتجسس علىٰ أهل الإسلام، ومع ذلك لعجزهم وضعفهم لا يستطيعون أن يمنعوها، مع أن هذا نقض للعهد، فلو افترضنا وجود أهل ذمة الآن، ويدفعون الجزية، وفعلوا ذلك، لكان نقضًا لذمتهم، فوجب قتلهم جميعًا، لكنهم لا يستطيعون. يكتشفون هذه الأوكار، وهذه العمليات التجسسية، ثم يسترون عليها، ويبقوا الأمر علىٰ ما هو عليه، ولا يخرجوا الجواسيس، بل يبقوهم علىٰ ما هم عليه!

فهذا إن دل علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ أنهم لا سيادة لهم علىٰ أرضهم.

فإذا سمحت للكفار في بلدك، فلا تلومن إلا نفسك.

الطالب:.......

الشرح: دعك من هذا، أنا أتكلم علىٰ الدولة الإسلامية، يعني الكفار فيما بينهم ليس لنا علاقة بهم، ولكن نحن نتكلم علىٰ الدولة الإسلامية، والخوارق التي تأتي من الخارج وتهدم هذه الدولة، أولها: فتح الامتيازات للكفار في بلدك، كأنك الآن شبهت هذه الدولة بهذه الحلقة القوية، ثم أنت مع إحكامك لهذه الحلقة القوية لا يستطيع أحد أن يدخل، فإذا أرخيت هذه الحلقة، فسيسهل عليهم أن يدخلوا، يدخلوا بأي اسم أو أي باب، فإذا دخلوا من هذا الباب الضيق فسرعان ما يتسع، حتىٰ لا يبقىٰ لك إلا شيء صغير في بلدك، في بلدك أنت، بعد أن كان كل هذا لك، أصبح ولا تتحكم فيه.

فهذه خطوة مهمة جدًا في الانتباه لها، وهذا ليس علىٰ الدول فقط، بل هو الآن علىٰ الجماعة المسلمة، لا نسمح لمن هو ليس منا أن يدخل فينا، ولا يطلع علىٰ حقيقتنا وأسرارنا وعملياتنا ومنهجنا؛ لأننا لا ندري عنه، نعم هو منا ومن قبيلتنا ونعرفه ونعرف أهله، ولكنه ليس عل منهجنا، وليس علىٰ عقيدتنا، فلا نأمن شره، لا نأمن انقلابه، حتىٰ لو كان هو في ذاته طيبًا وجيدًا، ولكنه ليس ثابتًا في عقيدته، يكثر التنقل، لماذا يكثر التنقل؟ ليس عنده علم أصلي يضبطه، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وهذا جاهل يتحرك بالعاطفة، أو يتحرك بعدم الثبات، حتىٰ ولو كنا لا نقدح في دينه ولا في علمه، لكننا لا نرضىٰ طريقته في عدم الثبات، هو يتنقل، وهذا التنقل يضرنا نحن؛ لأنه في كل يوم علىٰ دين جديد.

فما يحصل للدولة لا يحصل للجماعة؛ لأن الجماعة هي الأرض الصلبة المنبثقة من منها الدولة؛ لأن الدولة فكرة، ثم بعد ذلك أصبحت هدفًا، الفكرة هذه اجتمع عليها من يوافقها، وكبرت، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما جاءه الوحي من ربه كان وحده، ثم سرعان ما بدأ ينتشر هذا النور، حتىٰ ملأ الأرض كلها، ونحن كذلك نبدأ بفكرة، ثم نجتمع عليها، ثم ندعو لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ سُلْطَةُ الْدَّوْلَةِ عَلَىٰ سُكَّانِهَا سَامِيَةً وَشَامِلَةً، وَأَلَّا تَعْلُوَ عَلَيْهَا سُلْطَةٌ أُخْرَىٰ أَوْ تُنَافِسَهَا فِي فَرْضِ إِرَادَتِهَا.

الشرح:

لذلك إذا رأىٰ بعض الناس رجلًا يزني مثلًا، أو يسرق، أو يقتل، فقام وقتله، نقول: هذا افتئات علىٰ الدولة، وعلىٰ ولي الأمر، والسلطة، ومنازعة للدولة في سلطتها؛ لذلك الدولة تردّ بقوة غاشمة؛ لأنها تشعر أنها اغتصبت سيادتها، وأنه يوجد من ينازعها في هذه السيادة.

فلا يجوز شرعًا أن تقيم الحدود بنفسك، لا يجوز إذا رأيت رجلًا يشرب الخمر، أو رجلًا يزني، أو رجلًا يختلط، أو رجلًا يسب دين الله- أن تقيم عليه الحد، طالما أنك في دولة إسلامية، بل لا بد أن ترفع أمره إلىٰ السلطة، إلىٰ ولي

الأمر؛ لأنه هو المنوط به حفظ الأمن، والمنوط به معاقبة المخالفين، وإلا لو تخلىٰ عنها وجعلها للأفراد، لم تكن دولة، وستكون غابة: القوي يأكل الضعيف، وكل يدعي ويتهم، ويقتص، بدون ثبوت.

والأصل في هذه الأمور ثبوت التهمة، فأنت اتهمت زيدًا من الناس، هل بمجرد اتهامك له يجوز لك أن تعاقبه وتقتله أو تأخذ ماله؟

هذه تهمة، كيف تَثْبُت؟ تثبت عند القضاء، والدولة تجعل القضاة حتىٰ يقيموا العدل في الناس؛ أمّا أن ترىٰ هذا رأيًا بهواك، ثم تذهب وتنفذ، هذا كله افتئات علىٰ السلطة، وعلىٰ الدولة، وعلىٰ ولي الأمر، وهذا لا يجوز شرعًا.

لو سمحت الدولة بذلك، فاعلم أن سلطتها ضعيفة، وأنها دولة ضعيفة، ينازعها الناس في سلطتها المنوطة بها، وهذا من ضعف الرأس، وإذا كان الرأس قويًّا كان الجسد قويًّا، وإذا كان الرأس مريضًا، فالجسد كذلك، سيموت.

وإذا كان الحاكم قويًّا حازمًا، فإن الدولة تنضبط.

الأصل أن الجسد يديره قلب واحد، {مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ}، وإذا كان له قلبان، يفسد ويموت، كذلك الدولة لها رأس واحد، إذا سمح لآخرٍ أن يدير ما هو منوط به، فسيفسد النظام.

المتن:

وَكِلَا الْمَظْهَرَينِ فِي الْدَّوْلَةِ مُرْتَبِطٌ بِالْآخَرِ، فَسِيَادَتُهَا الْخَارِجِيَّةُ هِيَ شَرْطُ سِيَادَتِهَا الْدَّاخِلِيَّةِ.

وَهَذِهِ الْمَظَاهِرُ لِلسِّيَادَةِ -سَوَاءٌ أَكَانَتْ فِي الْخَارِجِ أَمْ الْدَّاخِلِ- أَقَرَّهَا الْإِسْلَامُ وَفْقًا لِلْأَحْكَامِ الْشَّرْعِيَّةِ، فَعَلَىٰ صَعِيدِ الْسِّيَادَةِ الْخَارِجِيَّةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هَيْبَتُهَا وَمَكَانَتُهَا بَيْنَ الْدُّوَلِ، وَأَلَّا تَتْبَعَ أَوْ تَخْضَعَ لِغَيْرِهَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: {وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١]، أَيْ: فِي الْدُّنْيَا بِأَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِم اسْتِيلَاءَ اسْتِئْصَالٍ بِالْكُلِّيَّةِ، وِإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَىٰ بَعْضِ الْنَّاسِ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... وَقَدِ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَصَحِّ قَوْلَي الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ الْمَنْعُ مِنْ بَيْعِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ لِلْكَافِرِ، لِمَا فِي صِحَّةِ ابْتِيَاعِهِ مِنَ الْتَّسْلِيطِ لَهُ عَلَيْهِ وَالْإِذْلَالِ.

الشرح:

مسألة: هل يجوز بيع العبد المسلم للكافر؟

الجواب: لا يجوز؛ لأن هذا مناقض للآية، بل الأصل أن يُسعَىٰ في فكاكه وعتق رقبته.

وهذه من مقاصد جعل عتق الرقبة كفارة لبعض الذنوب، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرضىٰ بالرق.

فإذا كان الإسلام يبيح هذا ويسمح به، فكيف تناقضه وتجعل الكفار أولياء علىٰ المسلم، حتىٰ وإن كان عبدا؟! هذا لا يجوز. إذا كان هذا في الفرد، فهو في الأمة أولىٰ، فلا تجعل للكافر علىٰ الأمة سلطانًا.

المتن:

فَالْآيَةُ تُحَرِّمُ مَنْحَ الْكَافِرِ أَيَّةَ سُلْطَةٍ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ، فَكَيْفَ الْحَالُ إِنْ تَسَلَّطَتْ دَوْلَةٌ كَافِرَةٌ عَلَىٰ دَوْلَةٍ مُسْلِمَةٍ؟!

وَمَسْأَلَةُ تَطْبِيقِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَالْذِّمِّيِّينَ أَيْنَمَا وُجِدُوا؛ مَا هِيَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ سِيَادَةِ الْدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ رَعَايَاهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ عَدَمُ جَوَازِ الْتِحَاقِ الْمُسْلِمِ بِوَظِيفَةٍ فِي جَيْشِ الْكُفَّارِ الْأَصْلِيِّينَ، وَالْعَمَلِ فِي شُرْطَتِهِمْ؛ لِمُنَافَاةِ ذَلِكَ لِاسْتِعْلَاءِ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْكَافِرِ، وَلَا يَسْلَمُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ وَالْكُفْرِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَقَدْ فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

الشرح:

لأن بعض الناس لا يفهم حقيقة هذا الدين، فهو مغيب عن إسلامه، وإن كان يدعي أنه مسلم.

فالأصل ألّا تكون تحت سلطة الكافر، الأصل أن تحارب حتىٰ تخرج عن سلطة الكافر، فكيف تذهب بنفسك راضيًا تحت سلطة الكافر؟!

كثير ممن يلتحقون بجيوش الكافرة، يدعون أنهم أهل إسلام، وأهل توحيد، وأهل سنة، وهذا خلل في الفهم؛ لذلك لا بد أن نبين للناس حقيقة هذا الأمر، وخصوصًا في البلاد التي هي محتلة من الكافر، تجد المسلمين يذهبون إلىٰ الكفار ليلتحقوا تحت سلطتهم، بجيشهم، أو بشرطتهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منع هذا ولم يرضه، وكرمك؛ وأنت تذهب بنفسك، وتلتحق بجيش وشرطة الدولة الكافرة، وتكون تحت سلطتهم؟!

فالأصل في هذا المنع.

نعم هناك تفصيل في بعض الصور، ولكن الأصل أن عندنا حكمًا عامًا: لا يجوز أبدا لمسلم يؤمن بالله ورسوله أن يلتحق بجيش الكفار أبدًا؛ أما التفاصيل فلها أحكامها، كأن يرسل ولي الأمر من يكون عينًا للمسلمين، فهذا منوط بالدولة الإسلامية.

أما أن تذهب مختارًا بنفسك؛ من أجل الراتب والمال، نقول: هذا لا يجوز أبدًا، مهما كان، والأصل فيه المنع، والمنع هنا للكفر؛ لأن في ذلك إعانة لهم، وتوليًا، بل ربما يكون هذا التولي كفرًا مغلّظًا، وذلك عندما يحارب في جيش الكفار أهلَ الإسلام، فيكون هنا الكفر مغلظًا من وجهين:

الوجه الأول: التحاقه بجيش الكفار من غير ضرورة.

والوجه الثاني: قتاله أهل الإسلام.

فالردة هنا ردة مغلظة، وليست مجردة.

فنحن نتكلم الآن عن الحكم العام؛ أما التفاصيل فلها أحكامها كما قلنا، حتىٰ لا يأتي أهل الغلو أو أهل الإرجاء ويقولوا: أنتم تأخذون هذا الكلام. نقول: لا، احملوا الكلام علىٰ أصله، الأصل: المنع بأي حال من الأحوال، لا يجوز التحاق المسلمين بجيش الكفار أو شرطتهم، هذا الأصل، وإذا ذهب راضيًا مختارًا مع علمه بالحكم، فهو كافر مرتد، وإذا ذهب إلىٰ قتال أهل الإسلام، فهو كافر مرتد، كفرًا مغلظًا مزيدًا؛ للالتحاق بالرضا وعدم الإكراه، وقتاله أهل الإسلام كذلك، فقد كفر وخرج من الإسلام من بابين.

هذا هو الحكم العام.

لذلك لا بد أن نبين نحن هذه المسألة لأبناء قومنا بلسانهم؛ حتىٰ يفهموا، فنحن نخشىٰ عليهم أن يموتوا كفارًا، وهم يظنون أنهم أهل إسلام، وماذا نستفيد نحن من موتهم علىٰ الكفر، بل نحن نأخذ بحُجَزِهم عن النار، كما قال النبي ﷺ: «**إنكم تتقاذفون في النار، هو آخذ بحجزنا ﷺ**»،[1] كذلك نحن رحماء بالناس وبني قومنا، ننقذهم بالعلم، ننقذهم بالشرع، ننقذهم بالإسلام، نبيِّن لهم، نفهّمهم، نرحمهم.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٦١١٨)، ومسلم، رقم: (٢٢٨٤)، بلفظ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ».

أهم يظنون أنهم بذلك ينصرون الإسلام؟ أي نصرة للإسلام هذه؟!

وهذا التأصيل فيه بيان للمسألة التي دار حولها النقاش وسيدور، وهي مسألة التحاق أهل الإسلام بجيش الكفر، كالجيش الروسي أو الأوكراني مثلًا، فالمسألة مبنية علىٰ هذا التأصيل السابق، وأن الأصل المنع، حتىٰ لو جعلنا ضوابط من باب خوف الأمن، ومن باب الانعزال، ومن باب الانفصال، ومن باب خوف الرجوع، كل هذه الأمور ليست واقعة في الواقع (الكلام فيه إبهام)، وهم يخدعون أنفسهم، يقولون: نحن منفصلون عنهم، ولسنا تحت رايتهم. هذا كله ليس له واقع، بل الواقع عكس ذلك.

فإذا قيل: إذا قالوا لنا: لكم راية خاصة، ومعسكر خاص، ولكن إذا استوليتم علىٰ غنائم، فأعطونا إياها، ليس لكم الحق فيها. فهل ندخل معهم؟

نقول: أنتم تخدعون أنفسكم، توهمون أنفسكم أنكم مستقلون، وفي الحقيقة أنتم تحت السيادة العامة، ولا تسمح هذه الدولة بنقض سيادتها، حتىٰ لو كانت في حالة حرب. ونحن كذلك لا بد ألَّا نسمح.

المتن:

وَعَلَىٰ صَعِيدِ الْسِّيَادَةِ فِي الْدَّاخِلِ فَقَدْ جَاءَتِ الْنُّصُوصُ الَّتِي تَحُثُّ عَلَىٰ طَاعَةِ اللـه وَرَسُولِهِ، وَوُلَاةِ الْأَمْرِ، وَالْنَّهْيِ عَنِ الْخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا}، [النساء: ٥٩].

وَقَيَّدَ رَسُولُ اللـه أَمْرَ الْخُرُوجِ بِغِيَابِ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ سِيَادَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، بِقَوْلِهِ: «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ».

الشرح:

«**من رضي وتابع**»، رضي بهذا وتابع عليه، راضيًا مختارًا.

المتن:

قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا»، أَوْ: «مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ».

وَدَلَّ الْحَدِيثُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَىٰ الْخُلَفَاءِ بِمُجَرَّدِ الظُّلْمِ أَوِ الْفِسْقِ مَا لَمْ يُغَيِّرُوا شَيْئًا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

هذا يرجع إلىٰ الأصل الذي اخترنا عليه ولي الأمر، فولي الأمر له شروط، وإنما تولىٰ هذا المنصب بهذه الشروط، فالكلام علىٰ ولي الأمر الذي توفرت فيه تلك الشروط، وهو ملتزم بها، فإن جار وظلم، لا نخرج عليه، ولكن إن كفر، فلا سمع ولا طاعة له، ونخرج عليه بالقوة.

المتن:

وَإِنَّمَا مَنَعَ عَنْ مُقَاتَلَتِهِمْ مَا دَامُوا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ الْإِسْلَامِ حَذَرًا مِنْ هَيْجِ الْفِتَنِ وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ أَشَدَّ نِكَايَةً مِنَ احْتِمَالِ نُكْرِهِمْ وَالْمُصَابَرَةِ عَلَىٰ مَا يُنْكِرُونَ مِنْهُمْ.

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُغِيرُ إذَا طَلَعَ الفَجْرُ، وكانَ يَسْتَمِعُ الأذَانَ، فإنْ سَمِعَ أذَانًا أمْسَكَ وإلَّا أغَارَ».

الشرح:

هذا درءًا للفتن.

المتن:

وَدَلَّ الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ الْأَذَانَ شِعَارٌ لِدِينِ الْإِسْلَامِ؛ لَا يَجُوزُ تَرْكُهُ؛ فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ بَلَدٍ أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَرْكِهِ كَانَ لِلسُّلْطَانِ قِتَالُهُمْ عَلَيْهِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ مُجَرَّدَ وُجُودِ الْمَسَجِدِ فِي الْبَلَدِ كَافٍ فِي الاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَىٰ إِسْلَامِ أَهْلِهِ، وَإِنْ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ الْأَذَانُ.

الشرح:

لهذا بم يصير الكافر به مسلمًا؟ ذكرنا الدلالات.

وهذا فيه رد علىٰ أهل الغلو في التكفير، الذين لا يعتبرون بالدلالات الظاهرة في الحكم علىٰ الناس بالإسلام، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتبر بالدلالات الظاهرة، كالأذان، وبناء المسجد؛ لأنها شعيرة من شعائر الإسلام.

فأهل الغلو جهال، وجهلهم وبعدهم عن أهل العلم هو الذي أوقعهم في مثل هذا، فاستقلوا بالفهم، ولم يعتبروا بكلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أنهم يقولون في كلامهم: نتبع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نتبع الصحابة. وهكذا، لكنهم لا يفقهون هذه الأمور لجهلهم، فيكفّرون الناس، ويكفرون المجتمعات، ويكفرون من خالفهم، حتىٰ وإن كانوا من أهل التوحيد. وهذا لا يكون أبدًا في دولة الإسلام.

المتن:

مِمَّا سَبَقَ يَتَّضِحُ أَنَّ ظُهُورَ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ -وَخَاصَّةً الصَّلَاةَ وَالْأَذَانَ- هِيَ جُزْءٌ مِنْ مَظَاهِرِ السِّيَادَةِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقِيَامِ الصَّلَاةِ أَدَاءَ أَفْرَادٍ مِنَ النَّاسِ لَهَا، بَلِ الْمُرَادُ أَنْ تَكُونَ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ الْإِمَامِ.

الشرح:

يعني: أن يسمح الإمام بهذا، لا أن يصلي الناس فقط، هذه مهم جدًا.

فمثلا هنا في تركيا، في أيام أتاتورك، منَع الأذان، ومنع شعائر الإسلام، نقول: هنا هو فقد السيادة العامة للدولة، فالدولة تغيرت من دولة إسلامية إلىٰ دولة كفرية، ففقدت السيادة العامة، فقدت شعيرة الإسلام، مثل: الأذان، والصلاة،

وغير ذلك. فهذا لا بد أن يكون حتىٰ لو سمح للناس بالصلاة في بيوتهم، هذا لا يعني إسلامًا، بل لا بد أن يكون هذا هيئة للإمام.

المتن:

وَفِي ذَلِكَ دِلَالَةٌ عَلَىٰ اعْتِبَارِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ فِي ثُبُوتِ عَقْدِ الْإِسْلَامِ مِنْ وَجْهٍ، وَعَلَىٰ مُنَازَعَةِ الْأَمْرِ أَهْلَهُ فِي حَالَةِ الْكُفْرِ الْبَوَاحِ الصُّرَاحِ «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا»، مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهَذَا مَنُوطٌ بِالْقُدْرَةِ وَالْمَنَعَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي «الْخُمَاسِيَّةِ»، وَ «الْمُقَدِّمَةِ»، وَفِي «الْحُكْمِ وَالتَّحَاكُمِ»، وَ «التَّنْبِيهَاتِ».

تَعْرِيفَاتُ الْحُكُومَةِ:

هِيَ النِّظَامُ السِّيَاسِيُّ الَّذِي يَتِمُّ مِنْ خِلَالِهِ إِدَارَةُ الْبَلَدِ أَوِ الْمُجْتَمَعِ وَتَنْظِيمِهِ، أَوْ أَنَّهَا شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ مُمَارَسَةِ السُّلْطَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ.

أَوْ هِيَ الْهَيْئَةُ الَّتِي تَمْتَلِكُ الْقُوَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لِفَرْضِ التَّرْتِيبَاتِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقَوَانِينَ اللَّازِمَةِ لِلْحِفَاظِ عَلَىٰ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَتَنْظِيمِ حَيَاةِ الْأَفْرَادِ الْمُشْتَرَكَةِ.

أَوْ هِيَ السُّلْطَةُ الْأَعْلَىٰ، وَلَهَا مُطْلَقُ الْحُرِّيَّةِ فِي التَّصَرُّفِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَىٰ مُعَاقَبَةِ الْمُخَالِفِينَ لِقَرَارَاتِ الْحُكُومَةِ.

أَوْ هِيَ الْمَسْؤُولَةُ عَنْ وَضْعِ الْسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ بِأَكْمَلِهِ، وَهِيَ آلِيَّةُ الْتَّوْجِيهِ لِمُجْتَمَعٍ مُعَيَّنٍ.

وَظَائِفُ الْحُكُومَةِ:

١. حِفْظُ الْنِّظَامِ: لَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِ أَنْ يَعِيشُوا دُونَ سُلْطَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ، وَبِالْتَّالِي فَإِنَّ الْحِفَاظَ عَلَىٰ الْسَّلَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ هُوَ الْهَدَفُ الْأَسَاسِيُّ لِلْحُكُومَةِ.

الشرح:

بسلطتها، بقوانينها، بلوائحها المنظمة، بجيشها، بشرطتها، بالنظام الإداري فيها، لو فقدت النظام الإداري، لهبطت الدولة، وضعفت، وزالت.

لا بد أن يكون النظام الإداري للدولة قويًّا، وصارمًا، وحازمًا؛ حتىٰ لا يسمح لمتجرّئ أن يتجرّأ ويخرج عن الشريعة.

المتن:

مَعَ مُرَاعَاةِ ضَبْطِ الْنَّاسِ عَلَىٰ وَفْقِ شَرْعِ اللهِ، وَمُرَاقَبَةِ الْمَسْؤُولِينَ وَالْمُتَنَفِّذِينَ فِي الْدَّوْلَةِ بِمَدَىٰ الْتِزَامِهِمْ بِشَرْعِ اللهِ.

الشرح:

أي: الذين يقومون بهذا النظام هم أصلًا ملتزمون بالشرع، لا يكونون فسّاقًا، ولا يكونون فجّارًا، ولا يكونون كفارًا، وإلا فكيف يحكم كفار أهل توحيد؟! إذن يظلموهم؛ لأن هؤلاء الكفار، أو الفسقة، أو الفجرة- يرون أهل التوحيد

والالتزام والسنة خارجين عن ماهية الدولة، فيعتبرونهم خوارج، يعتبرونهم مرَّاقًا، إرهابيين، متطرفين؛ لأنهم لا يفتقدون مثل هذا.

فلا بد أن يكون المسؤولون والمتنفذون أهلَ ديانة، وأهل عدل، وأهل صلاح، وإلا لو كانوا فسّاقًا وفجّارًا، فسيرون كل من يخالفهم ضدهم، ولسان حالهم: أنا لا أصلي، أنا لا أصوم، أنا لا أتعبد، أنا لا أقرأ، أنا أكره اللحية، أكره الالتزام بالسنة، أكره الحجاب، إذن أنا سأحارب كل من ينازعني في هذا، ثم أدعي أن هذا هو نظام الدولة، وأهم يخالفون نظام الدولة، ونظام الدولة ليس كذلك.

المتن:

حَتَّىٰ لَا تَكُونَ مُجَرَّدَ أَسْمَاءٍ وَشِعَارَاتٍ إِسْلَامِيَّةٍ مِنْ دَوْلَةِ الشَّرِيعَةِ، وَدَوْلَةٍ تَحْكُمُ بِشَرْعِ اللهِ، وَدَوْلَةٍ تَلْتَزِمُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا تَخْرُجُ عَنْهُمَا، ثُمَّ نَجِدُ الْوَاقِعَ تَفَسُّخًا وَانْحِلَالًا مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَمَحَارَبَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالصِّدْقِ وَالْحَقِّ وَدُعَاةِ الْإِصْلَاحِ، وَالزَّجَّ بِهِمْ فِي السُّجُونِ وَالْمُعْتَقَلَاتِ، مَعَ إِفْسَاحِ الْمَجَالِ لِلْمُنَافِقِينَ وَأَعْدَاءِ الشَّرِيعَةِ يَعِيثُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، بِنَشْرِ الْفَاحِشَةِ وَالتَّفَسُّخِ وَالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ بِاسْمِ الْوَسَطِيَّةِ وَالاعْتِدَالِ!

الشرح:

الوسَطية التي ينادون بها هي المروق من الدين، يريدون إسلامًا علىٰ هوىٰ أمريكا، وعلىٰ هوىٰ روسيا، علىٰ هوىٰ الغرب، علىٰ هوىٰ الكفار، يريدون إسلامًا ترضىٰ عنه دول الكفر، لا إسلامًا من عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، بل هم يسألون أهل الكفر: كيف تريدون أن تكون شعوبنا؟ حتىٰ نكون تحت مظلتكم، وتحت سيادتكم، وننال رضاكم.

- نريد فتح المدارس المختلطة، نريد إفساح المجال للآخر (الكافر)، نريد الحرية الشخصية: من يزني يزني، من يسرق يسرق، من يفعل الشذوذ لا تحاربوه، من يعبد الشيطان لا تحاربوه، هذه حرية شخصية، الإسلام دين السماحة، الإسلام دين الوسطية، هكذا ينادون.

{وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ}، بل هم يضنون عليك بدينهم، فلا يسمحون لك أن تدخل في دينهم، إذن أنت رضيت بالدنيَّة والذل إلىٰ هذا الحد.

المتن:

٢. الْدِّفَاعُ ضِدَ الْأَعْدَاءِ، وَحِمَايَةُ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الْعُدْوَانِ الْخَارِجِيِّ.

٣. إِدَارَةُ الْظُّرُوفِ الِاقْتِصَادِيَّةِ يَقَعُ عَلَىٰ عَاتِقِ الْحُكُومَاتِ، وَتَهْيِئَةُ الْظُّرُوفِ لِلْنُّمُوِّ الِاقْتِصَادِيِّ، وَالِازْدِهَارِ الْمَادِّيِّ.

٤. ضَبْطُ هَذِهِ الْأَسْوَاقِ مِنْ خِلَالِ تَنْظِيمِ حُقُوقِ الْمِلْكِيَّةِ، وَحِمَايَةِ الْمُسْتَهْلِكِ، وَإِنْفَاذِ الْعُقُودِ، وَقَوَانِينِ الصِّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ، وَإِعَادَةِ تَوْزِيعِ الدَّخْلِ وَالْمَوَارِدِ عَلَىٰ الشَّعْبِ.

الشرح:

إذن هذه النظم الإدارية والقوانين، تراعي مصلحة الشعب أوّلًا، لا تراعي مصلحة طغمة حاكمة تحكم هذا الشعب بالحديد والنار، وتستأثر بثروات البلاد.

لا بد أن تضبط مثل هذه، لو فقدت هذه الشرعية لوجدت الفساد المتوقع في الأرض.

المتن:

وَالْخُلَاصَةُ:

أَنَّ مَفْهُومَ السُّلْطَةِ وَالْحُكُومَةِ وَالسِّيَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ تَعْنِي الْحُكْمَ بِشَرْعِ الله، وَعَدَمَ الْخُرُوجِ عَنْهُ، مَعَ الْقُوَّةِ وَالْحَزْمِ، وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ وَتَكْثِيرِهَا، وَاجْتِنَابِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، وَهَذَا الْمَفْهُومُ عَلَيهِ عُلَمَاءُ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ، وَلَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُم فِي لُزُومِ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَمُرَاعَاةِ مَصَالِحِ النَّاسِ، وَهَذَا هُوَ أَصْلُ الْإِسْلَامِ وَحَقِيقَتُهُ.

الشرح:

ما مضىٰ كان تمهيدًا، والآن نشرع في أسس القيام وعوامل الثبات، يعني: ما الأسس التي تقوم عليها الدولة وتثبت؟ مِنَ التوحيد، والعدل، والإخاء، هذه ثلاث قواعد وأصول.

فلا بد لنا جميعًا أن ندرس هذه التمهيدات والمقدمات، ونقف عليها، قبل أن ندخل في أسس القيام؛ حتىٰ نستوعب الفكرة، ويكون عندنا الأساس الذي سنبني عليه.

أول أساس: التوحيد، ثم العدل، ثم الإخاء.

كل هذه الأمور ستأتي تباعًا، لكن لو لم يكن ما مضىٰ الكلام عنه واضحًا، فتأكد أنه بقدر هذا الالتباس، وهذا الغبش، وهذا الإشكال، سيترتب علىٰ ما سيأتي.

المتن:

أُسُسُ الْقِيَامِ وَعَوَامِلُ الثَّبَاتِ

الشرح:

«أسس القيام»، يعني: ما هي الأسس التي تقوم عليها هذه الدولة وتكون عاملًا لثباتها؟

فهذه أسس القيام وعوامل الثبات، لا أسس القيام فقط.

تكلمنا عن بعض أسس القيام فيما مضىٰ، ولكن الآن نتكلم عن الأسس التي بها تثبت الدولة، وإذا سقط منها ركن، أو عنصر، أو أساس، سقطت الدولة.

والدول لا تسقط فجأة، الدولة تسقط شيئًا فشيئًا؛ لغفلة الحاكم، وفساد الحكومة، فلا بد أن ننتبه لمثل هذا؛ حتىٰ لا نفاجأ بسقوط الدولة، ثم نقول: كيف سقطت؟! الدول لا تسقط فجأة هكذا كالبيت، بل تضعف أركانها، ويستشري الفساد في جوانبها، ثم يعدو عليها العدو فينهيها.

المتن:

بَعْدَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ عَنِ الدَّوْلَةِ وَمَفْهُومِهَا وَمَعْنَاهَا، وَوُجُوبِ قِيَامِهَا، وَعَنَاصِرِهَا وَأَرْكَانِهَا؛ تَأْتِيٰ أُسُسُ الْقِيَامِ، وَعَوَامِلُ الِاسْتِمْرَارِ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَأَوَّلُ أَصْلٍ، وَأَوَّلُ عَامِلٍ مِنْ عَوَامِلِ الثَّبَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ؛ هُوَ **التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ**.

الشرح:

أول عوامل الثبات والاستمرار: هو التوحيد؛ لأن صاحب العقيدة الصحيحة هو الذي يقاتل، وهو الذي يجاهد، وهو الذي يبني، وهو الذي يثبت في المحن، لا تجد صاحب عقيدة إلا وهو منصور في مجاله، أيًا كان مجاله، ولا تجد خللًا في العقيدة إلا ويترتب عليه خلل في الواقع، وفي التصرفات.

فلو أمعنت النظر في الواقع الذي نعيش فيه، وفي بعض العلماء والدول، تجد الخلل الذي وقع من الخلل في عقيدتهم؛ ولذلك نحن نؤسس الأفراد والطلبة والأبناء علىٰ العقيدة الصحيحة، حتىٰ لا تشوبها شائبة، أيًا كانت هذه الشائبة، فأنا أصور العقيدة بالثوب الأبيض النقي، فكلما جاءته لوثة نكتت فيه نكتة سوداء، سواء أكانت إرجاء، أم غلوًّا، أم صوفية، أم انحرافًا في الفكر، واعتزالًا، فلا بد أن تكون العقيدة نقية صافية لا شبهة فيها، وكيف تكون كذلك؟

بالصبر، وبالعلم، وبالحلم؛ نصبر علىٰ التعليم، لا نتعجل؛ لأن مراحل التأسيس -كما قلنا- هي من أطول المراحل، فمن تعجل التأسيس انهدم بناؤه؛ لأنه لم يبنيه علىٰ قواعد ثابتة.

فلا يتعجل الإنسان تأسيس العقيدة، ولكن يحررها ويدققها، وينظر هل مرت مسألة لم يفهمها؟ هل توجد بعض المسائل التي هي في الواقع تحتاج إلىٰ تحرير، أو غير واضحة في أذهان الأفراد؟ فلو وُجِدت بعض المسائل في الواقع تحتاج تحريرًا، أو فيها التباس علىٰ بعض الأفراد، فينبغي أن تُحرّر، وتدرس، وتضبط، وتراجع، وتناقش؛ حتىٰ تنجلي الصورة، فتبقىٰ بيضاء نقية.

المتن:

اَلْأَسَاسُ الْأَوَّلُ: التَّوْحِيدُ (لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله).

التَّوْحِيدُ: هُوَ إِفْرَادُ الله بِالْعِبَادَةِ، وَإِخْلَاصُهَا لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الإِيمَانُ الصَّادِقُ الْكَامِلُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، الإِيمَانُ بِهِ وَتَعْظِيمُهُ، وَالْيَقِينُ الْكَامِلُ فِي قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَحَقِّيَّتِهِ بِالطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله)، عَاشَ لَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتْرَةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَانِ؛ مِنْ أَوَّلِ الْبَعْثَةِ وَإِلَىٰ أَنْ مَاتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَزْرَعُ فِي النَّاسِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمُوجَزَةَ جِدًّا، الَّتِي تُوَضِّحُ لِلنَّاسِ مَعْنَىٰ عِبَادَتِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله).

الشرح:

قولنا: «يزرع في الناس»؛ لأن تعليم العقيدة كالزرع، تزرع في النفوس زرعًا، والذي يزرع لا بد أن يكون ماهرًا في رعاية الزرع، حتىٰ يعرف ما يصلحه وما يفسده، فكذلك صاحب العقيدة يزرعها في أفراد الناس زرعًا، حتىٰ تنبت وتثبت، وتكون جذورها في أعماق الأرض، وفروعها في السماء، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ}.

المتن:

كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي وَسْطَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ يَقُولُ لَهُمْ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحُوا، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ»، وَ «تُفْلِحُوا»: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَنَجَاةُ الْبَشَرِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ فِي الدُّنْيَا بِتَحْقِيقِ (لَا إِلَهَ إِلَّا الله)، وَنَجَاةُ الْبَشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْعَمَلِ بِـ (لَا إِلَهَ إِلَّا الله).

الشرح:

مر معنا في الدروس المنهجية معنىٰ لا إله إلا الـله، ومقتضياتها، وشروطها، ونواقضها، والعمل بها، فنكتفي بشرحها هناك عن شرحها هنا.

المتن:

اَلتَّوْحِيدُ أَسَاسُ الْمِلَّةِ، وَوَحْدَةُ الْأُمَّةِ، وَهِيَ عَقِيدَةُ أَهْلِ الْسُّنَّةِ، {قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢} [الزمر: ١١-١٢].

اَلتَّوْحِيدُ مَخْبَرُ الْإِسْلَامِ وَمَظْهَرُهُ، وَلُبَابُ حِسِّهِ وَجَوْهَرُهُ؛ لَا يَقْبَلُ الـله غَيْرَهُ؛ {وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥].

اَلتَّوْحِيدُ: إِخْلَاصُ الدِّينِ لـله وَحْدَهُ {أَلَا لِـلـه ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ} [الزمر: ٣].

اَلتَّوْحِيدُ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ سَمَا، وَمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ نَجَا؛ «إِنَّ الـله قَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الـله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الـله» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

اَلتَّوْحِيدُ يُمَثِّلُ الْإِسْلَامَ الصَّحِيحَ، وَالْمُعْتَقَدَ الْحَنِيفَ، لَا يُقْبَلُ غَيْرُ أَحْكَامِهِ، وَلَا يُحْتَكَمُ إِلَىٰ غَيْرِ شَرْعِهِ {إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِـلـه} [يوسف: ٤٠]، {وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا} [الْكَهْفُ: ٢٦].

وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْآرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ، وَتَبَايَنَتِ الْقَوَانِينُ والنُّظُمُ، فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْمَرَدُّ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ؛ {وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ} [الشورىٰ: ١٠].

الشرح:

هذه النصوص تدل علىٰ عظم أصل التوحيد وأساسه، وهذه الأدلة لا بد ألا تمر عليك مرورَ الكرام، بل لا بد أن تتدبرها، فالتوحيد يأخذ عمرك كله، ويأخذ عمر الداعية كله، منذ أن يهديه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلىٰ أن يموت.

المتن:

اَلتَّوْحِيدُ هُوَ الْخِيَارُ الْأَوْحَدُ؛ {وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ} [المائدة: ٥].

اَلتَّوْحِيدُ شِعَارُ الْمُوَحِّدِينَ، وَدِثَارُ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَمْزُ عِزَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ {وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١].

اَلتَّوْحِيدُ هِدَايَةٌ لِلْقُلُوبِ زَمَنَ الْفِتَنِ، وَتَثْبِيتٌ لِلْأَرْوَاحِ وَقْتَ الْمِحَنِ...

عُذِّبَ بِلَالٌ بِالرَّمْضَاءِ، وَتَحْتَ وَهَجِ السَّمَاءِ؛ لِيُفْتَنَ عَنْ دِينِهِ، أَوْ يُشْرِكَ فِي تَوْحِيدِهِ، فَكَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى قَوْلِ: «أَحَدٌ أَحَدٌ» {قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ} [اَلْإِخْلَاصِ: ١] وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: {لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا} [اَلْكَهْفُ: ٣٨].

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَىٰ أَيِّ جنبٍ كَانَ فِي اللـه مَصْرَعِي
وَذلِكَ فِي ذَاتِ الإِلهِ وإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

الشرح:

قائل هذه الأبيات هو خبيب بن عدي، لما قالوا: سنقتلك علىٰ شجرة، ونصلبك، وغير ذلك، وساوموه علىٰ دينه.

انظر إلىٰ الثبات، لذلك أقول لك: كان لدار الأرقم كان مكانة في تربية النفوس علىٰ العقيدة، والصلابة عليها.

قالوا: «أتحب أن يكون محمد مكانك، وأنك معافًىٰ في أهلك ومالك؟» قال: «واللـه ما أحب أني بين أهلي ومالي، ومحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المكان الذي هو فيه تشوكه شوكة». فخرجوا به.

قالوا: سنقتلك.

قال: «ما يهمني أن تقتلوني، ولكن دعوني أصلي ركعتين للـه»، وهو أول من سن ركعتين قبل القتل، وقال: «واللـه لولا أنكم تظنون أني جزعت من الموت لأطلت فيهما»[١].

---

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٥/ ٤٩٩)، (٤/ ٧٥).

انظر إلىٰ إقباله علىٰ الموت بثبات؛ لأنه يعلم ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعلم أنه علىٰ الحق، متثبت مما هو عليه، لا يشك فيه، يأتيه المرجفون في هذه المحنة الصعبة، ويزلزلونه عن عقيدته، يريدون أن يفتنوه في آخر لحظة، وهو ثابت كالجبل، يقبل علىٰ الموت بجنان ثابت قوي.

قال: لا أبالي، ولا يهمني، ولكن اللهم أبلغ عنا رسولك السلام، فقالها ثلاثًا، وهو في مكة يُقتل ويُصلب، والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، قال: «**وعليك السلام يا خبيب، وعليك السلام يا خبيب**»(١)، وهو في المدينة، من الذي حمل سلام خبيب إلىٰ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ الذي مات من أجله خبيب، وهو الله، هو التوحيد؛ إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالملك والحكم والتشريع والعبادة.

فالعقيدة تجعلك كالجبل، وإن كنت ضعيفًا هزيلًا في الجسد، فالقوة ليست قوة الجسد، القوة قوة القلب، القوة قوة العقيدة.

المتن:

اَلتَّوْحِيدُ عَقِيدَةٌ وَاعْتِقَادٍ، وَاسْتِسْلَامٌ وَانْقِيَادٌ؛ {قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد: ٣٠].

الشرح:

---

(١) انظر «السيرة النبوية من البداية والنهاية»: (٣/ ١٣٠).

وهذا الذي لم يجتمع لأبي طالب، لم يكن منقادًا مستسلمًا، -كما مر معنا في شرح «ست مواضع»- عنده حب وإخلاص وصدق ورغبة، ولكن لم يكن منقادًا.

المتن:

لَا يَجْتَمِعُ الدِّينُ الصَّحِيحُ وَالتَّوْحِيدُ الْخَالِصُ، مَعَ الثِّقَةِ بِالْعَدُوِّ، وَالرُّكُونِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا؛ {وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [هود: ١١٣].

إياك أن تثق بعدوك، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فصل لك هذا، وقطعه قطعًا إلىٰ يوم القيامة، قال: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، جاءك التحذير وجاءك العلم ممن خلقك، وهو عالم بك، فلماذا لا تصدق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنت تدعي أنك مسلم؟! الله يخبر أن هؤلاء الكفار لن يرضوا عنك أبدًا حتىٰ تتبع ملتهم، ثم إن اتبعت ملتهم فإنهم لا يسمحون لك أن تدخل فيها، فقد خسرت دينك ودنياك، ولن يسمحوا لك حتىٰ بالدخولِ في دينٍ باطل، فلِمَ الذلة والهوان؟ لأنك وثقت في عدوٍ حذرك الله منه، فإياك أن تثق في العدو، اعقد معه الاتفاقيات، ولكن علىٰ أساس الدين، اعتز بعقيدتك، اعتز بدينك، ارتفع به في هذه المجالس وهذه الاتفاقيات والمعاهدات.

{ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ}: يدخل فيهم الذين كفروا، ويدخل فيهم الذين ظلموا من أهل الإسلام، وأهل النفاق، وغير ذلك، فهي عامة شاملة.

إياك أن تثق فيمن يحارب الله ورسوله، إياك أن تثق فيمن يحاد الله في حكمه، وفي عبادته، ويحارب شرع الله في الأرض، حتىٰ وإن أحسنت به الظن، فأقل شيء هو ليس عنده عقل ليفهم الشرع، حتىٰ وإن قلت: إنه متأول، ولا يكفر -كما تقول المرجئة وعُبَّاد أولياء الأمور-، فلا تثق به، فهذا لا يجعلك تثق به.

وما ذلت الأمة ولا ضعفت ولا سقطت إلا بهؤلاء السذج، الذين يثقون في العدو، يثقون في الكافر.

المتن:

لَا يَجْتَمِعُ الدِّينُ الصَّحِيحُ وَالتَّوْحِيدُ الْخَالِصُ، مَعَ الثِّقَةِ بِالْعَدُوِّ، وَالرُّكُونِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا؛ {وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [هود: ١١٣].

إِنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ نَحْيَا بِقِيمَةِ التَّوْحِيدِ وَاقِعًا؛ لِتَرْسِيخِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وَلَا نَعِيشُ انْفِصَامًا وَانْفِصَالًا بَيْنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ؛ فَقَدْ أَمَرَنَا -سُبْحَانَهُ- بِأَنْ يَجْرِيَ فِي قُلُوبِنَا الْيَقِينُ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ الشَّكُّ فِي كَوْنِهِ الْمُتَفَرِّدَ بِالْعِبَادَةِ، وَأَنَّهُ -تَعَالَىٰ-

اَلرَّبُّ الْمَرْبُوبُ، وَالْإِلَهُ الْمَعْبُودُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ لَا عَلَىٰ الصُّورَةِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا عَدَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَفَاضَلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلَّا بِخُلُقِ التَّقْوَىٰ {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ} [الحجرات:١٣].

إِنَّ وُضُوحَ قِيمَةِ التَّوْحِيدِ تَصْنَعُ كِيَانَ الْإِنْسَانِ وَجَوْهَرَهُ، فَتَرْبِطُهُ بِالله مُرَاقَبَةً وَمُشَاهَدَةً، فَيَعِيشُهَا وُجُودًا، فَيُحِبُّ مِنْ أَجْلِهَا وَيُبْغِضُ، وَيُنَاصِرُ وَيُعَادِي مِنْ أَجْلِهَا.

إِنَّ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ الَّذِي صَلَحَ بِهِ الْأَوَّلُونَ سَيَصْلُحُ بِهِ الْآخِرُونَ لَا مَحَالَةَ.

إِنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي ضَمِنَ الْعِزَّةَ وَالْمَنَعَةَ وَالْقُوَّةَ لِأَسْلَافِهِ لَا يَزَالُ هُوَ التَّوْحِيدَ الَّذِي لَا يُغَيِّرُهُ الزَّمَنُ، وَلَا تُجَافِيهِ الْفِطْرَةُ، وَلَا تَنْسَخُهُ الْمَذَاهِبُ.

يُجَسِّدُ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإسلام، وَذُلًّا يُذِلُّ الله بِهِ الْكُفْرَ»، وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: «قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ».

الْمُسْلِمُ الْحَنِيفُ أَيْنَمَا حَلَّ نَفَعَ، وَأَيْنَمَا ظَهَرَ سَطَعَ، يَسْعَىٰ بِكُلِّ مَا عَلِمَ وَاعْتَقَدَ لِإِحْيَاءِ مَا انْدَرَسَ مِن مَعَالِمِ الْحَنِيفِيَّةِ، فِي بَيْتِهِ وَعَمَلِهِ، فِي إِعْلَامِهِ

وَمِنْبَرِهِ، يُرَسِّخُ عَقِيدَةَ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، يُحَقِّقُ مَبْدَأَ الْعِزَّةِ بِالتَّوْحِيدِ وَعَدَمِ التَّنَازُلِ عَنْ شَرْعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ {فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤]، {أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} [النحل: ٣٦]، {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

فَالدَّوْلَةُ الَّتِي تَتَمَسَّكُ بِالتَّوْحِيدِ وَتَعْمَلُ بِهِ حَقِيقَةً بَيْنَ النَّاسِ؛ هِيَ دَوْلَةٌ مَنْصُورَةٌ مُنْتَشِرَةٌ عَزِيزَةٌ مَنِيعَةٌ بِعِزِّ التَّوْحِيدِ وَتَمَسُّكِهَا بِهِ.

اَلدَّوْلَةُ الَّتِي تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ وَتُطَبِّقُ دِينَ اللهِ فِي الْأَرْضِ؛ هِيَ دَوْلَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ غَالِبَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُعَادِيهَا وَهَذِهِ هِيَ كَانَتِ الدَّوْلَةَ النَّبَوِيَّةَ وَعَصْرَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ؛ عِنْدَمَا تَمَسَّكَتْ بِالتَّوْحِيدِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَمَنْهَجَ حَيَاةٍ؛ سَادَتِ الْأُمَمَ وَفَتَحَتْ قُلُوبَ الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ الْبِلَادَ.

فَالْعَمَلُ بِالتَّوْحِيدِ أَصْلٌ وَأَسَاسٌ وَعَامِلٌ مِنْ عَوَامِلِ ثَبَاتِ الدَّوْلَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا وَبِدُونِهِ يَكُونُ الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالضَّعْفُ وَالِانْهِيَارُ وَالسُّقُوطُ.

الشرح:

إذا كان التوحيد أصلًا وأساسًا من أسس قيام الدولة، وعاملًا من عوامل ثباتها، فكيف نُفعِّل هذا في واقع الناس؟

كيف نجعل التوحيد أصلًا وأساسًا في واقع الناس، ما الوسائل والخطوات العملية التي نتوصل بها إلىٰ ذلك؟

وقد أهملت بعض الجماعات وبعض الدول هذا العنصر الأساسي في حياة الناس، واهتموا بمأكلهم، ومشربهم، وترفهم، حتىٰ أصبحت دولة مترفة، لا يعرف شعبها شيئًا عن التوحيد ولا عن أصوله، وإن عرفوا تعريفه العام، ولكن لا يعرفون تفاصيله، فهي دولة خائرة ضعيفة من داخلها.

المتن:

الْأَسَاسُ وَالْعَامِلُ الثَّانِي: **اَلْعَدْلُ**.

لَقَدْ دَلَّتِ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَسُنَنُ اللهِ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أَنَّ الْعَدْلَ دِعَامَةُ بَقَاءِ الْأُمَمِ، وَمُسْتَقَرُّ أَسَاسَاتِ الدُّوَلِ، وَبَاسِطُ ظِلَالِ الْأَمْنِ، وَرَافِعُ أَبْنِيَةِ الْعِزِّ وَالْمَجْدِ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِدُونِهِ.

الشرح:

العدل: هو وضع الشيء في موضعه، وهو ضد الظلم، فالظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، والعدل: هو إعطاء كل ذي حق حقه في الشريعة، لا تُأمَر بأن تعطي أزيد من الحق فتظلم، ولا أقل من الحق فتظلم.

والعدل: هو أخذ كل إنسان في الدولة الإسلامية ما يستحقه.

وقد ذكرنا أنه إذا تنازع أهل الحل والعقد وولي الأمر الذي هو رأس الدولة، أنهم يرجعون إلىٰ المحكمة، وهذا هو العدل، لا فرق في ذلك بين رئيس ولا غفير، ولا جليل ولا حقير، كلهم سواسية أمام حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فإذا حققنا العدل بهذا المفهوم، ضمنا الثبات والاستمرار، إذا حققناه بهذا المفهوم الشرعي، لا بمفهومنا ولا بنظرتنا، المفهوم الشرعي الذي دل عليه كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ - سدنا الأمم.

لذلك لا تعجب عندما كان رأس الدولة ينام تحت شجرة في الطريق؛ لأنه لا يشعر في نفسه ولا الرعية تشعر بالظلم، ولا يخافون مغبة ثورته ولا غضبه.

فكلٌ عرف حقه ومستحقه، كل عرف دوره، وما شذ إلا القليل، والقليل الذي شذ يعرف عقوبته في الشرع، فكل يسير في الطريق المستقيم.

فتأصيل التوحيد في الناس، وسيرة العدل فيهم، أصلان متلازمان، فإذا اختل مفهوم التوحيد، اختل مفهوم العدل، فهما مرتبطان لا ينفكان.

المتن:

اَلْقِسْطُ وَالعَدْلُ هُوَ غَايَةُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ كُلِّهَا، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}.

الشرح:

قوله تعالىٰ: {فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}، هذا للردع؛ لذلك قلنا أن من أسس الدولة: قيام جيش قوي يحمي الدولة، ويحمي الشريعة، وإلا لتجرأ عليها السفهاء والكفار.

ولما ذكرنا أن من أولويات الإمام: الحزم والعزم؛ فلا يدع فكرة تخالف الشريعة تنتشر في المجتمع، ويأخذ علىٰ يد السفهاء؛ حتىٰ يحمي عقول الناس.

فمن واجبات الإمام والخليفة: حماية توحيد الناس وإسلامهم، وألَّا يُعرّضَهم للشبهات، فإذا ترك الناس لأفكارهم وما تهوىٰ نفوسهم، ضلوا، وزالت الدولة من أساسها.

المتن:

{وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ} [الحَدِيدُ:٢٥] بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

إِذَا قَامَ فِي البِلَادِ عَمَّرَ، وَإِذَا ارْتَفَعَ عَنِ الدِّيَارِ دَمَّرَ.

إِنَّ الدُّوَلَ لَتَدُومُ مَعَ الْكُفْرِ مَادَامَتْ عَادِلَةً، وَلَا يَقُومُ مَعَ الظُّلْمِ حَقٌّ، وَلَا يَدُومُ بِهِ حُكْمٌ.

إِنَّ الْعَدْلَ فِي حَقِيقَتِهِ: تَمْكِينُ صَاحِبِ الْحَقِّ لِيَأْخُذَ حَقَّهُ.

الشرح:

«تمكين صاحب الحق»، أي: لا يخاف من رفع مظلمته؛ لأنه يعلم أنه سيأخذ حقه بالعدل، ولن يظلم علىٰ ظلمه، فهذا يجعله دائمًا متصالحًا مع نفسه ومع المجتمع.

أما إذا علم أنه لن يأخذ حقه، وأنه سيُظلَم علىٰ ظلمه، فإنه لن يرفع مظلمته.

المتن:

أُمَّةٌ أَمَرَهَا رَبُّهَا بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي كِتَابِهِ أَمْرًا مُحْكَمًا، وَحَتْمًا لَازِمًا: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا} [النساء:٥٨].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا} [النساء:١٣٥].

لَا أَعْدَلَ وَلَا أَتَمَّ وَلَا أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَىٰ مِنْ عَدْلِ شَرِيعَةِ اللهِ، فَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الْمَصَالِحِ الْخَالِصَةِ أَوِ الرَّاجِحَةِ، بَعِيدَةٌ عَنْ أَهْوَاءِ الْأُمَمِ وَعَوَائِدِ الضَّلَالِ.

وَإِنَّ مِنْ أَوْلَىٰ مَا يَجِبُ الْعَدْلُ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ حَقَّ اللهِ -سُبْحَانَهُ- فِي تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ كَمَا أَمَرَ وَشَرَعَ خُضُوعًا وَتَذَلُّلًا، وَرِضًىٰ بِحُكْمِهِ وَقَدَرِهِ، وَإِيمَانًا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

الشرح:

هذه أُولَىٰ درجات العدل، وهي أن تعطي لـله حقه، وأي ظلم أعظم من أن تعطي حق الله لغيره؟! أعظم الظلم: أن تصرف العبادة لغير الله الذي خلقك، وأنعم عليك بهذه النعم، وهو المستحق للعبادة.

الله جعل لك قانونًا وأنت تتحاكم إلىٰ غيره! الله أنزل لك شريعة تسير بها في الحياة، وأنت تنحي شريعة الله، وتأتي بشريعة أخرىٰ! هذا أعظم الظلم.

المتن:

وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ بِالله عَزَّوَجَلَّ، وَأَعْظَمُ الذَّنْبِ أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًا وَهُوَ خَلَقَكَ.

ثُمَّ الْعَدْلُ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ؛ تُؤَدَّىٰ كَامِلَةً مَوْفُورَةً، مَالِيَّةً أَوْ بَدَنِيَّةً، قَوْلِيَّةً أَوْ عَمَلِيَّةً.

يُؤَدِّي كُلُّ وَالٍ مَا عَلَيْهِ مِمَّا تَحْتَ وِلَايَتِهِ فِي وِلَايَةِ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَىٰ، ثُمَّ نُوَّابُ الْإِمَامِ فِي الْقَضَاءِ وَالْأَعْمَالِ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ أَوْ مَرْفِقٍ.

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو.

وَإِنَّ وُلَاةَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ حَقٌّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقِيمُوا الْعَدْلَ فِي النَّاسِ، وَقَدْ جَاءَ فِي مَأْثُورِ الْحِكَمِ وَالسِّيَاسَاتِ: «لَا دَوْلَةَ إِلَّا بِرِجَالٍ، وَلَا رِجَالَ إِلَّا بِمَالٍ، وَلَا مَالَ إِلَّا بِعِمَارَةٍ، وَلَا عِمَارَةَ إِلَّا بِعَدْلٍ».

الشرح:

العدل هو أساس الملك، وهو الذي تدوم به الدولة.

قولنا: «لا دولة إلا برجال»، الدولة لا تقوم إلا برجال، ونعني بالرجال: الذين لهم الصفات التي بيناها، وهؤلاء يحتاجون إلىٰ تربية خاصة، وعناية خاصة، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذكر الرجال في القرآن، وبين لنا صفاتهم: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ} يعني: عن توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، {مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا}، أي: ثابت علىٰ الطريق، هذه صفات الرجال التي تقوم عليهم الدولة.

«ولا رجال إلا بمال» فالمال عصب الدولة، وعصب الدعوة، لذلك لا بد أن يكون المال عنصرًا أساسيًّا لثبات الدولة، ولا سيما أن الدولةَ دولةُ التوحيد، فهذا التوحيد لا بد له من مال تستمر به الدولة.

فننظر كيف نجمع الرجال ونربيهم؟ وننظر كذلك كيف ننمي المال وموارد الدولة؟

«ولا مال إلا بعمارة»، يعني: هذا المال ينفق علىٰ عمارة الدولة، من صناعة، وتجارة، وزراعة، وغير ذلك.

«ولا عمارة إلا بعدل»، فلا يستأثر أحد بهذا المال لنفسه، ولا بهذه الإمكانيات والمصانع لنفسه، فالعدل يرجع إلىٰ الأصل، فكل هذه المقدرات ترجع إلىٰ العدل، إن لم يكن عدل، فسدت، ووضعت في غير موضعها.

لذلك ترىٰ البلاد الإسلامية فيها من الإمكانيات والقدرات المهولة الضخمة، ومن ضخامتها وكثرتها يطمع الكفار فيها؛ ولذلك هؤلاء العملاء الموظفون علىٰ هذه المحميات التي يسمونها «دول»، يستأثرون بهذه المقدرات لأنفسهم ولأوليائهم من الكفار، فتجدها من أكثر الدول تخلفًا، وأشدها ضعفًا وفقرًا؛ وذلك لتخلف العدل.

المتن:

حُكْمٌ كُلُّهُ عَدْلٌ وَرَحْمَةٌ، فِي خَفْضِ الْجَنَاحِ وَلِينِ الْجَانِبِ، وَقُوَّةِ الْحَقِّ، عَدْلٌ وَمُسَاوَاةٌ، تَكُونُ فِيهِ الْمَسْؤُولِيَّاتُ وَالْوِلَايَاتُ وَالْأَعْمَالُ وَالْمُهِمَّاتُ تَكْلِيفًا، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ تَشْرِيفًا.

الشرح:

العمل في الدولة والجماعة مسؤولية، هذه المسؤولية والمهمات: تكليف، إذا كُلّف فرد في الجماعة وفي الدولة بعمل، فينبغي أن يقوم به خير قيام؛ لأنه

يعمل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أولًا قبل أن يعمل لأميره أو لرئيسه أو لوزيره، فيعمل بصدق، وبحب لهذا العمل.

ووالله، وتالله، وبالله! لو عمل كل منا لدين الله بحب، لتغيرت مفاهيم كثيرة جدًا، ولكن بعضنا يشعر أن هذا تكليف صعب عليه! بل هذا تشريف لك! وكما يقال في بعض الدول العربية، عندما يجدون المرأة تحسن الطبخ، يقولن: «نَفَسْها حلو»، يعنون أنها تطبخ بحب، لا تطبخ بغل، وحسد، وكره، وبغض، متضايقة أنها تعمل، بل تعمل وهي محبة؛ لأنها تعمل لمن تحب، زوجها، أولادها، أهلها، كذلك العمل عندما يكون بحب، تجد فيه البركة، تجد فيه النماء.

فلا بد أن نعمل الأعمال بحب؛ لأننا نعمل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتفرح عندما تكلف بعمل، وتحزن حزنًا شديدًا لأنك لا تكلف بعمل، لأنك عضو في الجماعة ولم تكلف بعمل؛ لأنه يعلم أن هذا تشريف.

المتن:

وَتَبِعَاتٍ لَا شَهَوَاتٍ، وَمَغَارِمَ لَا مَغَانِمَ، وَجِهَادًا لَا إِخْلَادًا، وَتَضْحِيَةً لَا تَحْلِيَةً، وَمَيْدَانًا لَا دِيوَانًا، وَأَعْمَالًا لَا أَقْوَالًا، وَإِيثَارًا لَا اسْتِئْثَارًا.

الشرح:

هذا هو الأصل في الأعمال، ليست هي مغنمًا لك، ليست مكسبًا لك، بل على العكس، أنت أحيانًا تدفع من جيبك لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتنفق من وقتك الذي هو لراحتك ونومك وأكلك وأولادك، تجعله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي ليست استراحة، ليست ديوانًا ومكانًا تجلس فيه وتستريح، وتتكيف بالمكيفات والمشروبات، لكنه ميدان عمل وجهاد تخرج فيه طاقتك، كخلية النحل، كلٌّ في عمله مشغول، هذا هو العمل المثمر الذي يكون سببًا في ثبات الدولة.

المتن:

وَفِي مِثْلِ هَذَا صَحَّ الْخَبَرُ عِنْدَ ابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ، وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ سَابِعُ سَبْعَةٍ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

أَمَّا نَزَاهَةُ الْقَضَاءِ، وَنَقَاءُ ضَمَائِرِ الْقُضَاةِ، فَحَسْبُكَ بِهِ مِنْ عَدْلٍ وَقِسْطٍ.

الشرح:

لأن العدل -كما قلنا- تقوم عليه الدول، لذلك يحتاج إلىٰ أفراد كما وصفناهم، رجال تربوا علىٰ التوحيد، إذا تولوا هذه المناصب، لم يروا إلا الله

أمامهم، فيعملوا بالعدل، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا مداهنة، ولا استعطاف، ولا استجداء من رئيس أو أمير.

فتكون أنت وخصمك أمام القضاء سواء، فتخلع منصبك ونياشينك وقدراتك، وتتحاكم وخصمك إلىٰ القاضي.

المتن:

صَاحِبُ الْحَقِّ فِي جَوِّ الْقَضَاءِ الْعَادِلِ؛ يَشْعُرُ بِالثِّقَةِ وِالْأَمَانِ فِي أَرْوِقَةِ الْمَحَاكِمِ، وَفِي دَوَاوِينِ الْقَضَاءِ مُطْمَئِنٌّ إِلَىٰ عَدَالَةِ الْقَضِيَّةِ، وَنَزَاهَةِ الْحُكْمِ، وَشَرَفِ سَرَائِرِ الْحُكَّامِ.

الشرح:

لأنك عندما تذهب إلىٰ القضاء وأنت مطمئن إلىٰ أنك لن تُظلم، بل ستأخذ حقك كاملًا، لا يُبخَس به شيء؛ لأن الذي يقضي بينك وبين خصمك هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالقاضي ما هو إلا منفذ لحكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المتن:

وَالْمُتَّهَمُ بَرِيءٌ حَتَّىٰ تَثْبُتَ إِدَانَتُهُ، وَلَأَنْ يُخْطِئَ الْحَاكِمُ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ، هَذَا تَعْرِفُهُ دُنْيَا الْحَضَارَاتِ وَدِينُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

جاء فِي الخبر عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ الله مَعَ القَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ تَخَلَّىٰ الله عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ»، وَفِي رِوَايَةِ الْحَاكِمِ: «فَإِذَا جَارَ تَبَرَّأَ الله مِنْهُ».

عَدْلٌ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ، وَقِسْطٌ يَكْفَلُ الْحَقَّ لِلنَّاسِ كَلِّ النَّاسِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَعْدَاءِ الْمُنَاوِئِينَ؛ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لله شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} [المائدة: ٨].

هَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْعَالَمِيُّ الَّذِي جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، عَدْلٌ يَتِمُّ فِيهِ ضَبْطُ النَّفْسِ وَالتَحْكُمُ فِي الْمَشَاعِرِ.

إِنَّهُ الْقِمَةُ الْعُلْيَا وَالْمُرْتَقَى الصَّعْبُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَبِدِينِهِ دُسْتُورًا وَحَكَمًا.

إِنَّهُ عَدْلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِكْيَالٌ وَاحِدٌ، وَمِيزَانٌ وَاحِدٌ.

فَالتَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ وَالْأَخْذُ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَمُرَاقَبَةُ الْوُلَاةِ وَالْجِهَازِ الْإِدَارِيِّ؛ مِنْ أَعْظَمِ عَوَامِلِ ثَبَاتِ الدَّوْلَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا.

اَلْأَسَاسُ الثَّالِثُ: الْالْتِزَامُ بِالشَّرِيعَةِ.

اَلْأَسَاسُ الثَّالِثُ مِنْ أُسُسِ الثَّبَاتِ وَعَوَامِلِ الِاسْتِمْرَارِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ:

هُوَ **الْالْتِزَامُ بِالشَّرِيعَةِ، وَمُرَاقَبَةُ الْجِهَازِ الْإِدَارِيِّ لِلدَّوْلَةِ** مُرَاقَبَةً صَارِمَةً تَمْنَعُ الْفَسَادَ فِي الدَّوْلَةِ، وَتَرْدَعُ كُلَّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الله، أَوْ

نَشْرَ الْفِتْنَةِ فِي الْبِلَادِ؛ بِتَفْعِيلِ تَطْبِيقِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَدَوْرِ وَلِيِّ الْأَمْرِ فِي عُقُوبَةِ التَّعْزِيرِ، وَالْعَمَلِ بِقَاعِدَةِ: (مَنْ لَمْ يَنْدَفِعْ شَرُّهُ إِلَّا بِقَتْلِهِ قُتِلَ تَعْزِيرًا).

الشرح:

تفعيل دور الشريعة، ومراقبة الجهاز الإداري للدولة: هو الأصل والأساس الثالث في ثبات الدولة.

وذلك بمتابعة النظام الإداري للدولة، ومراقبة الولاة والموظفين، وهل يلتزمون بأحكام الله أم يجورون؟ فهم لا يستطيعون أن يغيروا الأحكام؛ لأنهم قضاة ومنفذون لدستور الدولة، لكن التغيير يأتي من الأعلىٰ، عندما يغير الحاكم الدستور والنظام، ويجعله قانونًا ملزمًا للناس، هذا كل يعرفه، لكن القضاة يلتزمون بالشريعة، والناس يلتزمون بالشريعة، والولاة يلتزمون بالشريعة.، كيف تطمئن أن هؤلاء يعملون بالشريعة؟ لا بد من المراقبة، فبعد توزيع المهام، تتابعهم.

فالالتزام بالشريعة هو الروح التي تسري في جسد الدولة، فإذا نُزِعت الشريعة وبُدّلَت، فهي دولة ميتة، لا روح فيها، يُتوقَّع منها كل شر وكل فساد.

المتن:

وَكَذَلِكَ مُرَاقَبَةُ وُلَاةِ الْمَنَاطِقِ، وَمَدَىٰ الْتِزَامِهِمْ بِالنَّزَاهَةِ وَالشَّفَافِيَةِ وَالْبُعْدِ عَنْ ظُلْمِ الرَّعِيَّةِ، وَأَنَّ كُلَّ النَّاسِ سَوَاءٌ أَمَامَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ وَعِنْدَ تَطْبِيقِ الْحُدُودِ؛ «وَاللـه لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتٍ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشرح:

هذا هو الضابط.

المتن:

لَا بُدَّ مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ فِي كَسْبِ الْقُوَّةِ وَبِنَاءِ جَيْشٍ قَوِيٍّ، وَاقْتِصَادٍ مُسْتَقِلٍ قَائِمٍ عَلَىٰ تَنْمِيَةِ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالصِّنَاعَةِ، وَالزِّرَاعَةِ، وَالتِّجَارَةِ، وَاسْتِغْلَالِ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ، وَتَوْظِيفِ إِمْكَانِيَّاتِهَا فِي كَسْبِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْعَشْوَائِيَّةِ وَالْفَوْضَىٰ، وَالسَّيْرِ فِي رَكْبِ الْعِلْمِ، وَعَدَمِ التَّبَعِيَّةِ لِلْكُفَّارِ، وَعَدَمِ السَّمَاحِ لَهُمْ بِالتَّدَخُّلِ فِي شُؤُونِ الْمُسْلِمِينَ.

مَرَاحِلُ تَكْوِينِ الدَّوْلَةِ:

اَلْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: بِنَاءُ الْمُسْلِمِ مِن دَاخِلِهِ: عَقِيدَتِه وَتَصَوُّرَاتِهِ وَعِبَادَتِهِ.

الشرح:

تكلمنا عن المقدمات، وتكلمنا عن أسس الثبات، وقلنا أن أسس الثبات: هي التوحيد، والعدل، والالتزام بالشريعة ومراقبة الجهاز الإداري للدولة، هذه الأصول والقواعد التي تقوم عليها الدولة.

فإذا قامت الدولة، تأتي مراحل البناء، والمرحلة الأولىٰ من بناء الدولة: وهي بناء المسلم، الذي هو عنصر أساسي في الدولة، ألم نقل: «لا دولة إلا برجال»؟

الدولة تحتاج إلىٰ رجال، فكيف نربي هؤلاء الرجال، الذين تقوم عليهم الدولة؟ نربيهم كما ربىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه في دار الأرقم، فلا بد من محضن علمي دقيق ومنظم وصارم ومُمَنهج، لا يحيد عنها.

فمن أسس المرحلة الأولىٰ للدولة: بناء الفرد بناءً منهجيًّا عقديًّا، بأطر تعليمية صحيحة، نستمدها من تربية النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة.

وتتم هذه المرحلة في سرية تامة، كما فعل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار الأرقم.

قد يقول لنا قائل: النبي ﷺ قام بهذا في سرية تامة لأنه كان في دار كفر، والكفار يحيطون به من كل مكان، وجاء بأمر تنكره العرب؛ فكان لا بد من السرية.

نقول: وهل يغيب عنك وعن عقلك الساذج هذا، أننا في دار كفر، ويحيط بنا الأعداء من كل جانب، ويتربصون بنا، بل ويضعوننا تحت المجهر، ويراقبون حركاتنا وسكناتنا؟!

فهذه هي المرحلة الأولىٰ: أن نهتم ببناء الفرد، وأول ما يبنىٰ فيه: العقيدة، والتوحيد، والوعي السياسي بالواقع الذي يعيشه؛ ولذلك ذكرنا في هذا الكتاب مقدمات في السياسة الشرعية، وسيأتي بعد هذا الباب مباشرة: «الوعي السياسي».

نقول: «بناء» لأننا نبني، كما يُبني الجدار، فنبنيه علىٰ العقلية السياسية التي يتعامل بها في واقعه؛ حتىٰ لا ينعزل، وحتىٰ لا يأتي بما يخالف الشريعة، وهو يظن أنه ينصر الشريعة.

فالعلم بالواقع السياسي، والعقلية السياسية التي يتعامل بها مع الواقع المحيط، من إيمان، وكفر، ونفاق، وردة، وغير ذلك، يحتاج إلىٰ مرحلة بناء كبناء العقيدة تمامًا، بل هي لا تنفك عنها، فكما تبني الفرد علىٰ العقيدة تبنيه علىٰ الوعي السياسي.

وكما قلنا: نستمد بناء الفرد من تربية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة، الذين حملوا هذه الدولة علىٰ أعناقهم، وبنوها بدمائهم وأشلائهم، في زمن الفتن، ولم يرتد منهم أحد في زمن الردة؛ لأنهم تربوا في دار الأرقم، فهذا يدلك علىٰ قوة المنهج، وقوة التربية، وقوة البناء.

وأسس البناء -كما قلنا- فيها التوحيد، وفيها الوعي السياسي، وفيها الفقه، وفيها النظرة، وفيها الجهاد، وفيها التربية الجهادية، وفيها التربية الإيمانية.

وهذا كله يتم في سرية تامة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبي ذر، عندما أراد أبو ذر أن يعرِف خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسل أخاه ليأتيه بخبره، فلما رجع، قال له أبو ذر: «لم تغن عني شيئًا»، وذهب بنفسه، وبقي في الحرم يسأل ويتقصىٰ، فقابل عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرتين أو ثلاثا، وعلي يقول له: «ألا تعرف رجل كذا كذا؟» قال: «لا». يسكت، يسكت، فلما استوثق، هذا كله يلح عليه، وانتبه لهذا جيدًا، الدعوة الوليدة تحتاج إلىٰ أنصار، إذا كان علي يريد أنصارًا، فلماذا لم يسارع عندما جاءه رجل يسأل عنه؟ وهو يفرح أنه سيزيد الدعوة الوليدة عنصرًا، وهو عنصر جاء من بعيد، وجاء ناصرًا، لماذا لم يسارع به مباشرة؟ التربية علىٰ الوعي السياسي، وعلىٰ الأمن والأمان.

وبعد مدة يقال: أسبوع، يقال: أسبوعان، كان يأكل فيها التمر والماء، حتىٰ سمن أبو ذر، وكل يوم يتردد علىٰ علي، فلما استوثق منه علي، وكل هذا علي يسأل عنه ويتفطن، كالمخابرات يسأل.

وعلي شاب صغير عمره خمسة عشر سنة، فتخيل هذا، أنا ألفت نظرك إلىٰ العقلية التي ربىٰ عليها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فينبغي أن نتفحص هذا، وندققه، فلا يمر مرور الكرام، بل دقق وتأمل، فعلي عمره عندئذ خمسة عشر سنة، ويبصر هذه الأمور!

استوثَق منه وقال: سأتبين حتىٰ لا أخسره، وكذلك حتىٰ لا أوقع الجماعة المسلمة في مصيبة، فبعد أن سمع منه، قال: أنا سأمشي أمامك، فإذا رأيتني أصلح حذائي فاعلم أنه لا يتبعنا أحد.

انظر الدقة، نسير وأنا أمامك، وأنت ورائي، فإذا رأيتني أصلح حذائي، فهذه دلالة وعلامة لا يراها أحد علىٰ أن الطريق آمن، فاتبعني، ثم بعد ذلك لم يذهب معه مباشرة إلىٰ دار الأرقم؛ لم يذهب حتىٰ يتبين هل هو صحيح؟ فرجع أمرَه إلىٰ القائد الأعلىٰ، ما تصرف بنفسه، وما فرح، وقال: أنا جئت بشيء جديد. وربما يأتي لهم بحية، يأتي لهم بعقرب، يقتلهم، يأتي لهم بجاسوس يهدم وكرهم.

انظر إلىٰ العقلية كيف رباهم؟ ذهب به للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعيدًا عن المقر العام، بدأ يسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما بايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آمن أبو ذر.[1] في كلام الشيخ زيادات وأشياء لم أجدها في الروايات، وبعضها مخالف لما في الروايات.

ينبغي أن يكون هذا الموقف حاضرًا في ذهن المربي، لا يغيب عنه، وكذلك الموجه، والقائد، والأمير؛ حتىٰ يؤمن الجبهة الداخلية للجماعة الوليدة، وحتىٰ لا يدخل فيها من يهدمها.

فعندما تتأمل هذا المشهد من ذلك الصبي، تعلم أهمية التربية، وعدم الاستعجال فيها، فلا تتعجل، ولكن عالج وأنت تربي الأفراد، فعندما تربي الأفراد، ستظهر فيهم أمراض؛ لأنهم بشر يعتريهم ما يعتري البشر من خطأ وصواب، فكيف تتعامل مع هذه الأخطاء والأمراض؟ فمثلا: عندنا عنصر كسلان، وخامل، نقطعه أم نعالجه؟

نعالجه، فربما ينصلح؛ لأن الأصل العام: أنه صالح، لكن فيه هذا الأمر، فنصلحه، ونعالجه، حتىٰ يستقيم.

بهذا يتبين لنا أهمية دار الأرقم، فهو المحضن الأساسي الرئيس في بناء الدولة.

---

(١) انظر «صحيح البخاري»، رقم: (٣٨٦١)، و«صحيح مسلم»، رقم: (٢٤٧٣).

المتن:

عِنْدَمَا أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَلَاغِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ؛ حَرَصَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ التَّرْبِيَةِ الذَّاتِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبِنَاءِ شَخْصِيَّةِ الْمُؤْمِنِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَرَبَّاهُمْ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَيَّنَ لَهُمْ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ، وَوَضَّحَ لَهُمْ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَيَسِيرُونَ فِيهِ بِكُلِّ صِدْقٍ، وَأَخْبَرَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ لِمَنْ ثَبَتَ وَصَبَرَ وَمَاتَ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَرْطًا أَنْ تَصِلَ لِنِهَايَةِ الطَّرِيقِ وَتَرَىٰ النَّصْرَ وَانْتِشَارَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ شَرْطَ الْفَوْزِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ؛ أَنْ تَمُوتَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، تَمُوتَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، تَمُوتَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ.

الشرح:

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخدعهم، ولم يغشهم، بل بين لهم حقيقة الطريق، فهذا الطريق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، والراحة والأموال، والأكل والشرب، والفسح والسهرات، بل هو طريق فيه دماء وأشلاء، فيه سجن وتعذيب، فيه حرمان من الأهل والمال والزوجة، طريق كله عقبات.

فبين لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معالم الطريق، وحقيقة الطريق، حتىٰ يكونوا علىٰ بينة من أمرهم، ورفع هذا الطريق إلىٰ الأعلىٰ، فقال: الموت. لماذا رفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ الأعلىٰ، إلىٰ الموت؟ حتىٰ إذا لقيهم ما هو أقل من الموت تحملوه، وقال: هذا لم نصل، إلىٰ أن القتل بعد، لكنه التعذيب والقتل والجلد

وغير ذلك، وهذا عرفناه، أما القتل لم نصل. فإذا وصل إلىٰ القتل عرفوا أن نهاية القتل جنة.

فوضوح معالم الطريق، وما فيه من عقبات- من أقوىٰ الأسباب التي تعين الفرد علىٰ المضي في الطريق.

فالأصل أن توضح للأفراد حقيقة هذا الطريق.

هذا طريق الجنة، نحن نبيع أنفسنا لـلـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم}، فنحن بعنا لـلـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فهل نحن صادقون في هذا البيع؟

فالطريق كله عقبات، ولكن نهايته جنة.

ومما يعينك علىٰ السير في هذا الطريق أن تعلم أنه ليس شرطًا أن تنتصر وترىٰ النصر بعينيك، فلا تقل: أين النصر؟ أين التمكين؟ {أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ}، {حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا} وفي رواية: {كَذَّبُواْ}.

{وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾}، انظر إلىٰ تصوير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الموقف وشدته.

فليس شرطًا أن تصل إلىٰ نهاية الطريق، ناس كثير ماتوا في مكة ولم يشهدوا نصر دولة الإسلام، ولا عزها، ولا تمكينها، ولكنهم في الجنة، لأنهم ماتوا علىٰ الطريق.

فالشرط: أن تموت علىٰ الطريق، أن تموت علىٰ التوحيد والسنة، تموت ناصرًا لدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالموت سيأتيك لا محالة، لا مفر منه، ولكن شتان بين موت وموت، شتان بين من يموت ناصرًا لدين الله، مجاهدًا في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ومن يموت خاذلًا لدين الله، متخاذلًا عن نصرة دين الله، شتان بينهما.

المتن:

وَكَانَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ يَتَفَقَّدُهُمْ، وَيَزُورُهُم فِي بُيُوتِهِمْ كُلٌّ عَلَىٰ حَسَبِ حَالِهِ، كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أُمِّنَا عَائِشَةَ ب قَالَتْ: «لَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ الله طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً» يَتَدَارَسُونَ فِيهِ أُمُورَ الدَّعْوَةِ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ وَيَتَفَقَّدُونَ فِيهِ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْرَادَ الْجَمَاعَةِ الْمُسلِمَةِ، فَلَا بُدَّ

فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الْجَلَسَاتِ الْخَاصَّةِ وَالدُّرُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِبِنَاءِ الْمُسْلِمِ عَقَدِيًّا وَإِيمَانِيًّا.

الشرح:

وهذا من الأمور المهمة: تفقد المسؤول لإخوانه، ومتابعة كل فرد في الجماعة، لا بد ألَّا يغيب عنه احتياج كل أخ، وظروف كل أخ، ومشاكل كل أخ، لا بد أن يقف عليها بنفسه، ولا ينتظر من يبلغه، بل يسأل هو بنفسه، لا ينتظر من الأخ أن يسأل، أو يغيب حتىٰ يسأله، لا، هو يعرف لماذا غاب؟ ولماذا تكاسل؟ لأنه مطلع.

وهذه مسؤولية الأمير، مسؤولية القائد، مسؤولية الخليفة، مسؤولية رئيس الدولة، مسؤولية رئيس الجماعة، يتفقدهم بنفسه؛ حتىٰ يصلح ما تفسده الوقائع والواقع المعاش.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع كثرة همومه، وانشغاله، كان لا يترك شيئًا صغيرًا ولا كبيرًا إلا ويفكر فيه، ولو كان لا يخطر علىٰ بال الفرد، لكن المسؤول يفكر فيه، ويراه كبيرًا، كيف يحله؟ كيف يذلل العقبات للناس؟ كيف يجعلهم يعبدون الله، ويعملون بشيء من الاطمئنان والأريحية؟ كيف لا أضيق عليهم؟ كيف لا أشدد عليهم؟ هذه مسؤوليته.

وقد مر معنا حديث أم المؤمنين في البخاري، أنها قالت: «لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرفي النهار، بكرة وعشية»[(١)]، يأتي يتدارس أمور الدعوة، إذن لا بد من التربية الخاصة، والجلسات والدروس التي تربي.

والذي يقال للخاصة لا يقال للعامة، فإذا أنزلت هذا المنزل، بهذه الطريقة، استوثقت من أمرك، وثبتت عقيدتك، وثبتت قدمك على الطريق، حتى تكون ثابتًا، وتعرف ما عليك فعله.

هذه التجارب تكسبك حسن تصرف، وخبرة في التعامل مع الأحداث؛ لأنها ترد عليك كثيرًا، فأنت جعلت لها مخرجًا، حتى لا تحتاج في كل مرة إلى مخرج، فأنت جعلت لها مخرجًا، وفهمت كيف تحل؟ وكيف تدار؟ وهذا الأخ مشكلته كذا، وهذا الأخ مشكلته كذا، أصبحت متمرسًا في ذلك، ويكسبك كل يوم خبرة ومتانة في الطريق.

المتن:

وَكَذَلِكَ إِنْشَاءُ الْمَدَارِسِ الشَّرْعِيَّةِ وَالتَّخَصُّصَاتِ التَّجْرِيبِيَّةِ مِنْ طِبٍ وَهَنْدَسَةٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَنْفَعُ الْأُمَّةَ حَتَّى تَكُونَ بِمَثَابَةِ الْمَحَاضِنِ الْآمِنَةِ لِأَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الَّتِي يَتَرَبَّى فِيهَا أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٧٦).

اَلْوَعْيُ وَالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ:

(اَلْوَعْيُ): هُوَ الْيَقَظَةُ، وَالْفَهْمُ، وَإِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَالْإِحَاطَةُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، وَهُوَ ضِدُّ الْغَفْلَةِ وَالْعُزْلَةِ عَنِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ وَمَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ أَخْطَارٍ.

الشرح:

أتْبَعْنا المرحلةَ الأولىٰ من مراحل البناء: الوعيَ السياسي، وسنتكلم بعد ذلك عن السياسة الشرعية، مفهومها، تعريفها، خطواتها، كيفية إدارتها، كل هذا سيأتي إن شاء اللـه تبارك وتعالىٰ، ولكن نتكلم عن الوعي؛ ما معنىٰ الوعي؟ هذا إن شاء اللـه سنتدارسه فيما بعد.

المتن:

وَ (غَيْبَةُ الْوَعْيِ): هِيَ الْغَفْلَةُ عَنْ قَضَايَا الْأُمَّةِ، وَهِيَ مَسَبَّةٌ وَنَقْصٌ؛ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: «الضَّمِيرُ الْمُعْتَلُّ وَالْفِكْرُ الْمُخْتَلُّ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ. وَقَدِ انْتَمَتْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ أُمَمٌ فَاقِدَةٌ الْوَعْيَ، عَوْجَاءَ الْخُطَىٰ، قَدْ يَحْسَبُهَا بَعْضُ النَّاسِ أُمَمًا حَيَّةً وَلَكِنَّهَا مُغْمًىٰ عَلَيْهَا. وَالْحَيَاةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَقُومُ عَلَىٰ فِكْرٍ نَاضِرٍ؛ إِذِ الْغَبَاءُ فِي دِينِنَا مَعْصِيَةٌ».

الشرح:

هذا الغباء أحيانًا يكون غباءً دينيًّا، ويكون غباء سياسيًّا، غباء سياسي من غيبة الوعي؛ لا عنده فقه في السياسة الشرعية، ولا عنده فقه في الواقع، فتشعر من كلامه أن عنده غباء مستحكمًا، كيف يتصرف في هذا الأمر بهذه الطريقة؟! حتىٰ الرجل العادي يتكلم بهذا.

فلا بد من الوعي؛ لأن غيبة الوعي مرض لا بد من التخلص منه.

المتن:

وَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ عُمُرِ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْوَاقِعِ وَكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَهُ وَمَعَ خُصُومِ الدَّعْوَةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْعُزْلَةِ وَالْمُقَاطَعَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَهَذَا يَتَطَلَّبُ فِقْهَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَعْرِفَةَ قَوَاعِدِ التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ وَإِعْمَالَهَا فِي الْوَاقِعِ.

الشرح:

نتكلم الآن عن السياسة الشرعية، وكيفية التفاعل معها في واقع بناء الدولة.

ونحن نتكلم عن مراحل تكوين الدولة، والمرحلة الأولىٰ: بناء المسلم من داخله، عقيدة، وتصوّرًا، وعبادة، ولا بد أن يكون لدىٰ المسلم عقيدة ينطلق منها، وكذلك لا بد أن يكون عنده تصور لهذه العقيدة، كيف يطبقها في واقعه؟ وكذلك لا بد أن تكون له عبادة تقربه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويستعين بها علىٰ نوائب الدهر والفتن والابتلاءات والمحن.

وعندما تتكلم في العلم لا بد وأن تتكلم في كيفية الاستفادة من العلم، عندما تتكلم من العلم، وتوجه، وتدعو الناس، فلا بد أن تبين للناس كيفية الاستفادة من العلم، وضربت مثلًا أننا الآن في حرب مع اليهود، والعالم الإسلامي كله يتفاعل مع هذه الحرب؛ نصرةً لإخوانه، ولكن ليس عنده الفقه، كيف يُفَعِّل هذه النصرة في خطوات عملية علىٰ الأرض؟ يتكلم ويشجب وينكر، ويبين سوءات اليهود، وغير ذلك من الأمور الجيدة، لكن هل هذا يكفي في مثل هذا الحال؟

لا يكفي، فما هو المطلوب من الداعية؟

المطلوب من الداعية: أن يبين للناس خطوات عملية للنصرة، خطوات عملية علىٰ الأرض للتفاعل مع الحدث؛ أما أن تنكر، فالكل ينكر! حتىٰ الحكام الرسميون ينكرون، وكل من لا ينتمي إليك، حتىٰ بعض الكفار ينكرون، ويشجبون.

وماذا بعد؟ هنا السؤال! لا بد للداعية أن يضع طرقًا واقعية يستفيد منها الناس علىٰ الأرض، منهجًا عمليًّا يطبقونه علىٰ الأرض، وإلا ستكون أنت نسخة مكررة مما سبق، الإنكار والشجب والكلام وغير ذلك.

ولا نقلل من الإنكار والشجب والكلام، بل هذا نافع من باب التحريض، ولكن الحدث أكبر من هذا، الحدث يتعدىٰ الكلام، فلا بد أن تبين دعوتك

للناس، تبين لهم كيف يتعاملون مع هذا العلم علىٰ الأرض، خطوات عملية، منهج، خطوة أولىٰ، خطوة ثانية، خطوة ثالثة، وهكذا.

إذن أنت ترسم لهم منهجًا يعيشون به في واقع الناس، هكذا كان النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندما جاءه مسلم بمشكلة ما عنده، النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما قال له: توكل علىٰ الله، وصل، وادعه، ونحو ذلك، بل قال: خذ هذه واشتر قدومًا، ثم اذهب واحتطب، ثم بعه. أعطاه حلًّا عمليًّا لمشكلته، هكذا يجب أن يتفاعل المسلم مع قضايا الأمة.

عندما نتكلم عن النصرة بوسائلها بعض من لا فقه له، ينكر هذه الخطوات؛ لأنه استمرأ الذل والهوان، فلم يعرف إلا الكلام والشجب والإنكار، وهذا لا يفيد في مثل هذه النوازل العظام.

فالشاهد من هذا: أنه لا بد من منهج عملي يستفيد الناس منه في الواقع، يعرفون من خلاله: كيف ينصرون دينهم؟ كيف ينصرون إخوانهم؟ هذا الذي يجب علينا أن نفعله، أما أن نقف عند حدود الكلام، والحدَثُ أكبر من الكلام، فلن تستفيد الأمة من مجرد كلمات هنا أو هناك، هي عبارة عن تنفيس، فالحكام يتركون الناس يتنفسون غضبًا؛ حتىٰ لا ينقلبوا عليهم وعلىٰ عروشهم، فهي مسكنات للشعوب، لكنها لا تحل مشكلة، المشكلة قائمة؛ أما لو جاءت علىٰ واقع الأرض بأطر عملية، وخطوات منهجية، فهذا الذي ينفع،

أنت الآن انتقلت من باب الكلام إلىٰ باب العمل، انتقلت من باب الدفاع إلىٰ باب الهجوم، هذا هو الذي علمناه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان هذا هو المنطلق الأساسي في تكوين الفرد المسلم.

المتن:

تَعْرِيفُ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ:

«هِيَ رِعَايَةُ شُؤُونِ الْعَامَّةِ فِي مُخْتَلِفِ نَوَاحِي الْحَيَاةِ مِنْ خِلَالِ الْحُكْمِ، بِمَا يُحَقِّقُ مَصَالِحَهُمْ مِنْ جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُمْ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُمْ، وَفْقَ أَحْكَامِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاجْتِهَادَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

الشرح:

فأصل السياسة الشرعية: الكتاب والسنة، ولا تسمىٰ سياسة شرعية من غير كتاب ولا سنة، ثم بعد ذلك تأتي اجتهادات أهل العلم، فالواجب عند حدوث النوازل: أن يجتهد علماء الأمة فيها، ولا يخرجوا عن أصول الكتاب والسنة.

المتن:

أَوْ يُمْكِنُ اخْتِصَارُهُ بِالْقَوْلِ: هِيَ رِعَايَةُ شُؤُونِ الْعَامَّةِ وَفْقَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» [(١)].

الشرح:

---

(١) «مفهوم السياسة الشرعية»: (١٢).

يسوسون الأمة بالشرع، فلا يسوسونها بالديمقراطية، أو بالعلمانية، أو بالمناهج الكفرية، أو المخالفة لدين رب البرية، هذه كلها مخالفات تأتي بالمصائب علىٰ الأمة؛ لأنها بعيدة عن منهج اللـه.

وهل لـلـه منهج؟

نعم، هو الذي خلقنا، وأرسل لنا رسلًا وكتبًا، ووضع لنا منهجًا نسير عليه، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم بما يصلحنا، فصلاحنا في السير علىٰ منهج اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا حِدْنا عن هذا المنهج، ضللنا، أيًا كانت السبل والطرق.

المتن:

فَهِيَ «تَدْبِيرُ الشُّؤُونِ الْعَامَّةِ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَا يَكْفُلُ تَحْقِيقَ الْمَصَالِحِ وَدَفْعَ الْمَضَارِّ مِمَّا لَا يَتَعَدَّىٰ حُدُودَ الشَّرِيعَةِ أَوْ أُصُولَهَا الْكُلِّيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ وَأَقْوَالَ الْأَئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ» [(١)].

«وَمِنْ أَمْثِلَةِ السِّيَاسَةِ فِي عَصْرِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ:

مَا قَامَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِنِ اسْتِخْلَافِهِ لِعُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الشرح:

(١) كتاب «السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية»، لعبد الوهاب خلاف (١٥).

هذا من السياسة الشرعية، وهو أن يستخلف الخليفة من يراه أهلًا للخلافة؛ لأن هذا أصلح للأمة، فهو سياسة للأمة بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس انفرادًا اقتراح: (ليس استبدادًا)، بل هو سياسة شرعية منبثقة من الكتاب والسنة.

المتن:

وَمَا قَامَ بِهِ عُمَرُ مِنْ جَعْلِ أَمْرِ الْخِلَافَةِ شُورَىٰ فِي سِتَّةٍ مِنْ أَفَاضِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِعَايَةً لِمَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، وَتَجْنِيبِهَا مَضَرَّةَ الِاخْتِلَافِ.

الشرح:

هذا يرجع علىٰ تعريف السياسة، وهي جلب المنافع ودفع المضار، فتولية خليفة باختيار أهل الشورىٰ يدفع التنازع والاختلاف، ويرجع إلىٰ الألفة والاجتماع، فهذا من السياسة الشرعية المنضبطة.

المتن:

وَمِنْ ذَلِكَ جَمْعُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، وَإِحْرَاقُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَصَاحِفِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ مِنَ الِائْتِلَافِ وَالِاتِّفَاقِ، وَيَدْفَعُ مَضَرَّةَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ.

يعني: من السياسة الشرعية جمع سيدنا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المسلمين علىٰ مصحف واحد، وهذا من المصلحة الشرعية التي تجمع المسلمين وتوحدهم.

وَكَذَلِكَ مَا أَمَرَ بِهِ عُثْمَانُ مِنْ إِمْسَاكِ ضَوَالِّ الْإِبِلِ لَمَّا ضَعُفَتِ الْأَمَانَةُ، وَصَارَ تَرْكُهَا مُضَيِّعًا لَهَا عَلَىٰ أَصْحَابِهَا.

الشرح:

هذا من السياسة، كانت الإبل تسير دون أن يرعاها راعٍ، سئل النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ضالة الإبل قال: «**ما لك ولها، دعها، فإن معها حذاءها وسقاءها، ترد الماء، وتأكل الشجر، حتىٰ يجدها ربها**»[1]، هذا هو الأصل، فلما كثرت السرقات، وضعفت الأمانة عند الناس، رأىٰ سيدنا عثمان أن تُمسَك، وأن يكون لها أطر تحميها وتحفظها، وعلامات؛ حتىٰ يعرف أن هذه من إبل الصدقة (ليس الكلام علىٰ إبل الصدقة، إنما الكلام علىٰ ضوال الإبل عمومًا)، فهذه سياسة شرعية لجلب المنافع للأمة، ودفع المضار عنها.

الطالب: هو سياسةً أدخلها في اللقطة؟ إمساك ضوال الإبل.

الشرح: لا، إمساكها، إمساكها يعني: حجزها، هي كانت سائبة، كانت تسير، فهو جعل لها حواضن، وجعل لها أماكن ترعىٰ فيها، إمساكها، يعني: حصارها في مكان محدد، الإمساك عكس الإفلات.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٧٢٢)، ولفظه: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ اللُّقَطَةِ الذَّهَبِ أَوِ الْوَرِقِ فَقَالَ: اعْرِفْ وِكَاءَهَا وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، فَإِنْ لَمْ تَعْرِفْ فَاسْتَنْفِقْهَا، وَلْتَكُنْ وَدِيعَةً عِنْدَكَ، فَإِنْ جَاءَ طَالِبُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَأَدِّهَا إِلَيْهِ. وَسَأَلَهُ عَنْ ضَالَّةِ الْإِبِلِ فَقَالَ: مَا لَكَ وَلَهَا، دَعْهَا فَإِنَّ مَعَهَا حِذَاءَهَا وَسِقَاءَهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّىٰ يَجِدَهَا رَبُّهَا... الحديث».

الطالب: ظننت أن الشخص يستطيع أن يمسكها كاللقطة.

الشيخ: هي كانت في ضياع الأمان هكذا، كل من يراها يأخذها، معناه هذا ليس الأصل، الأصل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يتركها هل تعرف صحابها ووكائه معها؟ لا ليس لك دخل بها، ليست هذه مما تلتقط، وهذه كانت تترك هكذا سائمة في الأرض وترعىٰ وغير ذلك، ثم ترجع إلىٰ صاحبها، كثرت السرقات وقلت الأمانة، فبدؤوا يعدون علىٰ إبل الصدقة، فبدؤوا يأخذونها، فهذا هذه مضرة علىٰ الدولة، هذه أموال الدولة تنتهك باسم أنها ليس لها صاحب، إذن نؤطر هذه المسألة ونقننها، نجعل هذه الأرض مثلًا لإبل الصدقة، ونجعل لإبل الصدقة علامات معينة تحددها، فالذي يراها يعرف أنها من إبل الصدقة؟ فإذن هذه كلها من السياسة الشرعية.

المتن:

وَمِنْ ذَلِكَ نَفْيُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِنَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ لَمَّا افْتُتِنَتْ بَعْضُ النِّسَاءِ بِجَمَالِهِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَاهُ، لَمَّا كَانَ فِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ مَصْلَحَةِ الْعِفَّةِ وَالطَّهَارَةِ، وَدَفْعِ مَضَرَّةِ تَعَلُّقِ الْقُلُوبِ بِهِ.

الشرح:

ربما يقول قائل: وما ذنب نصر بن حجاج، أن يُغَرّب ويخرج من ماله؟

قال: دفعًا لفتنته.

- لكن ليس له دخل بها!

قال: ستسبب مفسدة، إذن لا بد من دفعها، ويجب علىٰ ولي الأمر أن يدفع المفاسد والشرور عن الأمة، هذه من أهم واجباته، فإذا ترك الأمر هكذا، فسدت الأمة، وفسدت الدولة، فهذا من السياسة الشرعية، ربما ترىٰ أنت أن فيها ظلمًا لنصر، ولكن فيها خير له.

المتن:

وَمِنْ أَمْثِلَةِ مَا تَلَاهُمْ مِنْ عُصُورٍ: تَسْعِيرُ السِّلَعِ الَّتِي يُضْطَرُّ إِلَيْهَا النَّاسُ إِذَا تَمَالَأَ التُّجَّارُ عَلَىٰ رَفْعِ سِعْرِهَا بِغَيْرِ مُسَوِّغٍ يَدْعُو لِذَلِكَ، فَكَانَ فِي التَّسْعِيرِ دَفْعُ مَضَرَّةِ الظُّلْمِ عَنِ الرَّعِيَّةِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ لِلتُّجَّارِ...

الشرح:

لأن الأصل أن يترك التسعير للناس، الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المسعر هو الله**»[1]، فلما فحش الطمع في التجار، ووصل بهم الطمع إلىٰ الاحتكار؛ والاحتكار محرم، فرأىٰ ولي الأمر أن يضبط هذه المسألة بتسعير السلع، هو

---

(١) رواه الترمذي في «سننه»، رقم: (١٣٦١)، وابن ماجة في «سننه»، رقم: (٢٢٠٠)، كلاهما عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «غَلَا السِّعْرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ الله، قَدْ غَلَا السِّعْرُ، فَسَعِّرْ لَنَا» فَقَالَ: «إِنَّ الله هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَىٰ رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ»».

يعرف أصلها، ويعرف تكلفتها علىٰ التاجر، ويعرف بكم يبيع، وكم يكسب فيها.

فهذا من منطلق علم شرعي، ليس فيه ظلم للتجار، بل هو منع لاحتكار هذه السلع، ودفع لظلمهم عن الناس، فوجب ذلك، مع أن الأصل عدم التسعير، وإنما سَعَّر لدفع الضرر والشرور عن الناس.

ولهذا أمثلة كثيرة في السنة، فعلها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفعلها الصحابة من بعده، إعمالًا لهذا الأصل.

ومن ذلك امتناعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هدم الكعبة وبنائها علىٰ قواعد إبراهيم؛ لمصلحة الناس، حتىٰ لا تكون لعبة في أيدي الناس والحكام والأمراء.

فالسياسة الشرعية يحصل فيها الخلل؛ لأنها في أذهان الناس صورة معينة، فالسياسة في أذهانهم هي الديموقراطية والعلمانية، فنحن نعرّف لهم السياسة الشرعية، حتىٰ يعرفوا أنها غير السياسة المعاصرة التي أصلها الديموقراطية والعلمانية، فالسياسة الشرعية غير السياسة المعاصرة، فالسياسة الشرعية هي دفع المضرة عن الأمة؛ أما العلمانية والديموقراطية فهي جلب المفاسد للأمة، وشتان بينهما، شتان بين من يجلب المفاسد، ويشيع الفاحشة والضلال في الناس، وبين من يقلل هذه المضار ويدفع الشرور عن الناس.

فالناس لا يفهمونها علىٰ أصلها، لا اللغوي ولا الشرعي، فالمتبادر إلىٰ أذهانهم هذه الصورة التي يرونها في واقعهم؛ هذا سياسي، وما معنىٰ سياسي؟ هل يسوس الناس بالشرع، أم سياسي يتعامل بالانتخابات والبرلمانات والتشريعات وغير ذلك؟

فلا بد أن نوضح أوّلًا: ما معنىٰ السياسة الشرعية؟ ثم ما مفهومها؟ ثم ما أهداف السياسة الشرعية؟ حتىٰ تتميز عن السياسة العلمانية والديمقراطية، لولا هذه الفروق، لما كان فرق بين هذه وتلك، فلا بد أن نوضح مثل هذا.

المتن:

وَالْأَمْثِلَةُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهَا تَحْقِيقُ الْمَصْلَحَةِ وَدَفْعُ الْمَضَرَّةِ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ لِلشَّرِيعَةِ» [(١)].

---

(١) «فتاوىٰ الصاوي».

- عَنَاصِرُ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ:

يَتَضَمَّنُ مَفْهُومُ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ ثَلَاثَة عَنَاصِرَ رَئِيسِيَّةٍ، وَهُمْ كَالتَّالِي:

أَوَّلًا: الرِّيَاسَةُ وَالْقِيَادَةُ:

وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّئِيسُ أَوِ الْحَاكِمُ قَادِرًا عَلَىٰ الْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الْمُهِمَّةِ الْمُوكَلَةِ إِلَيْهِ، رُجُوعًا لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٤٧].

حَدَّدَتِ الْآيَةُ شَرْطَيْنِ أَسَاسَيْنِ فِي اخْتِيَارِ الْإِمَامِ؛ هُمَا: الْعِلْمُ وَالْجِسْمُ.

الشرح:

ما معنىٰ العلم؟ أن يعلم بأصول أهل السنة والجماعة، وأصول البدع؛ حتىٰ يحترز منها في مجتمعه.

والجسم: أن يكون سليمًا من الآفات والأمراض التي تعوقه، وليس المقصود أن يكون ضخمًا، بل المقصود أن يكون سليمًا في جسمه من العاهات والأمراض التي تعوقه عن ممارسة مهامه.

والعلم يكون بالعلم الشرعي الذي يؤهله للنظر في المناطات وفي النوازل وغيرها، حتىٰ إذا جاء أهل الاجتهاد بأمر يخالف الشرع، كان هو الذي يدفعه

أولًا؛ لأن عنده علمًا بأن هذا لا يوافق الشرع ويخالفه، فيدخل في محاورات مع أهل الحل والعقد الذين يريدون تبديل شرع الله سبحانه، ومخالفة الشرع، فالعلم عاصم من ذلك.

المتن:

وَيُقْصَدُ بِهِ سَلَامَةُ حَوَاسِّهِ مِنَ النَّقْصِ، وَجَسَدِهِ مِنَ الْعَاهَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ بِالْإِمَامَةِ، أَوِ الَّتِي تَعِيبُ صَاحِبَهَا.

وَأَضَافَ الْعُلَمَاءُ شَرْطَ الذُّكُورَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْبُلُوغِ وَالشَّجَاعَةِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا صِفَاتٌ جِبِلِّيَّةٌ، وَأَمَّا الصِّفَاتُ الْمُكْتَسَبَةُ؛ فَهِيَ الْعِلْمُ وَالْوَرَعُ.

أَمَّا الْعِلْمُ فَالشَّرْطُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مُجْتَهِدًا بَالِغًا مَبْلَغَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَيُقَدَّمُ الْأَعْلَمُ مِنْ مُسْتَوْفِي الصِّفَاتِ فِي حَالِ فُقِدَ هَذَا الشَّرْطُ.

الشرح:

قوله: «عند المتقدمين»، لأن هذا ليس شرطًا عند المتأخرين، فالإسلام ليس شرطًا عند المتأخرين، بل هو الانتساب فقط، حتىٰ لو أتىٰ بجميع النواقض، فيعقد للإمام والحاكم والرئيس والأمير والملك بمجرد انتسابه للإسلام. فهذا لا بد أن يعتبر.

المتن:

وَيَجِبُ أَنْ يَتَّسِمَ الْحَاكِمُ بِالتَّقْوَىٰ وَالْوَرَعِ.

إِذَا اسْتَجْمَعَ الْإِمَامُ هَذِهِ الصِّفَاتِ، الْحِسِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ، الْجِبِلِّيَّةَ وَالْمُكْتَسَبَةَ، كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ الْمَنْصِبِ، وَجَمَعَ النَّاسُ أَمْرَهُمْ عَلَيْهِ، وَنَزَلُوا عِنْدَ رَأْيِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْغَرَضَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْإِمَامَةِ جَمْعُ شَتَاتِ الرَّأْيِ، وَاسْتِتْبَاعُ رِجلِ أَطْيَافِ الشَّعْبِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ إِرَادَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وحَالَاتِهِمْ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَتْبُوعُ بِالْمَكَانَةِ الَّتِي يَخْضَعُ لَهَا الْمَجْمُوعُ فَسَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْخُرُوجِ عَلَيْهِ وَإِثَارَةِ الْفِتَنِ فِي وِلَايَتِهِ.

ثَانِيًا: القِيَامُ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِمَا يُصْلِحُهُ:

فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِمُ عَلَيْهِ مُسْتَجْمِعًا الصِّفَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْإِمَامِ، فَيَتَفَرَّعُ عَنْ هَذَا الْمَبْدَإِ الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ فِي مَفْهُومِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

ثَالِثًا: الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ:

وَهُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ؛ أَيْ: الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَ (**الْمَعْرُوفُ**): كُلُّ مَا أَمَرَ الله تَعَالَىٰ بِهِ، وَ(**الْمُنْكَرُ**): كُلُّ مَا نَهَىٰ الله تَعَالَىٰ عَنْهُ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْقِيَامَ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِمَا يُصْلِحُهُ يَقْتَضِي مَعْرِفَةَ هَذَا الشَّيْءِ مَعْرِفَةً دَقِيقَةً بِمَاهِيَّتِهِ وَأَسْبَابِ صَلَاحِهِ وَفَسَادِهِ، فَإِذَا تَحَصَّلَتْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ اسْتَطَاعَ الْقَائِمُ

عَلَيْهِ أَنْ يُشَرِّعَ لَهُ مَا يُصْلِحُهُ وَيُؤَدِّي إِلَىٰ الِاسْتِفَادَةِ مِنْهُ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، وَهَذَا أَمْرٌ عَامٌّ يَشْمَلُ عَظَائِمَ الْأُمُورِ وَصَغَائِرَهَا» [(١)].

- مُتَطَلَّبَاتُ النَّظَرِ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ:...

الشرح:

يعني: هل يستطيع كل إنسان أن ينظر في السياسة الشرعية، ويستخرج منها قواعد يحكم بها الشعب، أو يفرضها علىٰ الناس؟

لا، السياسة الشرعية لها مقتضيات، ولها طبيعة، ولها خصائص، إذا توفرت في الإنسان، كان له أن يجتهد في السياسة الشرعية، ويكون من أهل الرأي والحل والعقد.

المتن:

نَظَرًا لِطَبِيعَةِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمُتَقَدِّمِ بَيَانُهُ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُ النَّاظِرَ فِيهَا وَالْمُتَفَقِّهَ أُمُورٌ مِنْهَا:

١. الْمَعْرِفَةُ التَّامَّةُ بِأَنَّ الشَّرِيعَةَ تَضْمَنُ غَايَةَ مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَأَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ صُورَةً وَمَعْنًىٰ؛ بِحَيْثُ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ غَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ قَدْ أَكْمَلَ الدِّينَ وَقَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

---

(١) من مقال علىٰ موقع «موسوعة السياسة»، بعنوان: «السياسة الشرعية».

الشرح:

يعني: لا بد أن يعتقد الناظر أو المسلم أن هذه الشريعة شريعة الشمول والكمال، أي: شاملة لجميع مناحي الحياة؛ الزراعية، والصناعية، والسياسية، والحكم، والاجتماعيات، والأسريات؛ وكذلك كاملة في كل شيء، لا نقص فيها؛ لأنها من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالذي من عند الله هو علىٰ صفة الكمال المطلق الذي لا عيب فيه.

فإذا نظر المسلم للسياسة الشرعية بهذا النظر، وجد لكل مشكلة مخرجًا، يستحيل علىٰ مسلم ينظر في السياسة الشرعية بهذه المقتضيات والمتطلبات، ألا يجد حلًّا لأي مشكلة، هذا يستحيل علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويستحيل في شريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: {مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ}، فكل شيء في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مجملًا ومفصلًا، وهذا المجمل فسره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالوحي كذلك.

فيعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذه الشريعة فيها حل للبشرية، فيها رقيها، فيها سعادتها، فيها تقدمها، فيها نصرها، فيها قوتها، وينظر بهذا النظر، ويأخذ الأمة إليه، لا يحيدها عنه.

فالأمة إذا حُكّمت فيها شريعة الله، سادت الأمم، أما إذا تنحت عن الشريعة، وأهملتها، واعتقدت أنها لا تصلح لهذا الزمان، وأنها ليست مواكبة

للعصر، فهذا لن يفلح أبدًا؛ لأنه نفىٰ الاعتقاد الجازم بصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، فلا بد أن يأتي بعقله وبعقول غيره؛ حتىٰ يصلحوا ما أفسدته الشريعة، وحتىٰ يكملوا ما نقصته الشريعة. هكذا يقولون!

المتن:

٢. وَمِنْهَا الِاطِّلَاعُ الْوَاسِعُ عَلَىٰ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ مَعَ الْفَهْمِ لَهَا وَلِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ السِّيَاسَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَوِ النَّبَوِيَّةِ.

الشرح:

إذن لا بد من الاطلاع الواسع؛ لذلك نقول: عندما تقرأ، اقرأ بتدبر، اقرأ بتمعن، استخرج الفوائد والدروس؛ لأن هذه الفوائد والدروس تنفعك فيما بعد، عندما تأتي بنازلة من النوازل، وأنت لا تجد لها حلًا، ارجع إلىٰ ما دوَّنْته أنت من قواعد وأصول، ستجد فيها الحل.

فالتجرد في القراءة، والتدبر فيها، ينفع، بل يقصّر علىٰ طالب العلم العمر والوقت والمال؛ لأن الذي يقرأه في شهر بتأمل، يقرأ أضعاف أضعافه من غير تأمل، ولا يشعر به، ولا يشعر بفائدته في الواقع، فلو قرأت عشرين كتابًا أو مئة كتاب، فما حصيلة ذلك في واقعك العملي؟ صفر؛ لكن لو قرأت كتابًا في ستة أشهر أو أكثر، فكأنك تنحت في الصخر، والنقش علىٰ الحجر يصعب أن تزيله، فأنت تترك آثارًا في الأرض تسير عليه.

فلا بد من أن تقرأ بتدبر وفهم، وتدوّن هذه الدروس والفوائد، لا تمر عليك مرورًا، تأملها مرة بعد مرة، وكلما تأملتها ستخرج منها بفوائد، إذا تأملتها عشر مرات، ففي كل مرة تستخرج منها؛ لأنك تمعن النظر، فيفتح الله لك أبواب ما أغلق عليك في الأول.

وكذلك أنت تستهدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتستقوىٰ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتطلب منه الفهم والمعونة والتدبر، لماذا؟ ليس لك، بل للأمة.

تقول: اللهم افتح عليَّ هذا، اللهم فهمني هذا، اللهم انفع به. فأنت تفتقر إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتىٰ في طلبك العلم؛ حتىٰ تقتل في نفسك الاستعلاء، والعلو، والغرور، والرياء، والسمعة، والتكبر بالعلم، وتقول: أنا عندي ما ليس عند الناس، أنا أفعل. بل أنت دائمًا تتبرأ من حولك وقوتك، وتلجأ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تقول: يا رب، فهمني، يا رب، علمني، يا رب، انفعني وانفع بي، اللهم إنّ تحتي رعية، اللهم سددني ووفقني، حتىٰ آخذ بهم إلىٰ رضاك. هكذا يفتقر إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما إذا وُكِل إلىٰ نفسه، وهو مسؤول عن رعية، فهذا كله من الضلال والكبر والعياذ بالله.

المتن:

٣. وَمِنْهَا الْمَعْرِفَةُ الْوَاسِعَةُ الدَّقِيقَةُ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَأَنَّ مَبْنَاهَا عَلَىٰ تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ الْأُخْرَوِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ.

الشرح:

اجعل هذا أصلًا عندك: أن كل ما في الشريعة صالح للبشر، وجالب لسعادتهم، ودارئ للمفسدة عنهم.

المتن:

٤. وَمِنْهَا التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الشَّرَائِعِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَزْمِنَةِ، وَالسِّيَاسَاتِ الْجُزْئِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْمَصَالِحِ الَّتِي تَتَقَيَّدُ بِهَا زَمَانًا وَمَكَانًا.

الشرح:

عندنا أصول كلية، يسمونها الثوابت والمتغيرات؛ فهذه الثوابت لا بد أن يعرفها طالب العلم والداعية، الثوابت لا تتغير، الأحكام ثابتة إلىٰ يوم القيامة، والفتوىٰ تتغير بتغير المناط والزمان والمكان والأشخاص؛ أما الأحكام فثابتة إلىٰ يوم القيامة.

والقواعد الكُلّية للشرع ثابتة، لا يكون الحرام حلالًا أبدًا، ولا يكون الحلال حرامًا أبدًا، هذا قطعي؛ أما في مناطات التنزيل، فيجوز أن ترتكب حرامًا لدفع ضرر أكبر منه، يجوز هذا.

هل معنىٰ هذا أنك تلغي الحكم، أو تبدله من نفسك؟ هذه فتوىٰ، هذا مناط. فنفرق بين الثوابت والمتغيرات.

المتن:

٥. وَمِنْهَا الْمَعْرِفَةُ بِالْوَاقِعِ وَالْخِبْرَةُ فِيهِ، وَفَهْمُ دَقَائِقِهِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَىٰ الرَّبْطِ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّة.

الشرح:

لا بد أن يكون الذي ينظر في السياسة خبيرًا بالواقع وفهم الناس، لا يكون منعزلًا عن الناس في صومعة عالية بعيدة عن واقع الناس، لا بد أن يخالط الناس، ويفهم ما يحتاجونه في دينهم ومعاشهم، وإلا كان في معزل، وإذا تكلم عن الناس كان متكلمًا عن واقع لا يعيشه، وعن مكان لا يعرف حقيقته، فلا بد للمتكلم أن يراعي المناط، فيحققه، ويحرره، وينقحه؛ حتىٰ يستطيع أن يقول فيه قولًا سديدًا.

فجهلك بالمكان والزمان والأشخاص يترتب عليه جهل في الحكم، وانحراف عن الشريعة.

المتن:

٦. وَمِنْهَا دِرَاسَةُ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ لِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْفِقْهُ فِيهَا.

الشرح:

لا بد من هذا المرجع، هذا رصيدك، أن تطلع علىٰ تاريخ الخلفاء الراشدين، تطلع علىٰ هذا التاريخ العظيم، فهو ثروة علمية ضخمة، تستطيع أن تستخرج منها كل ما يعِنّ لك ويستجد من أمور في واقعك؛ لأن هؤلاء كانوا

مؤيدين من الـلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هؤلاء كانوا يسيرون علىٰ تثبيت دعائم الإسلام بعد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فهذه ثروة لماذا لا تستغلها؟ لماذا دائمًا تعكف علىٰ المعاصرين الذين هم أقل بكثير من العلماء، لا أقول: من الصحابة، بل من العلماء، وتترك هذا الجيل القرآني الفريد، لماذا تزهد فيه؟ ألأن واقعك يزهد في تاريخ الإسلام والخلفاء وغير ذلك، ويرتبط بالكفار من الفلاسفة والحكماء؟ لماذا تسير أنت في ركابهم وأنت مسلم؟!

لماذا يكون عندك صدود عن هذا الإرث العظيم، من الأحكام، والفتاوىٰ، والسياسة الشرعية، وإدارة البلاد؟!

فهذا لا بد أن ترجع له، تجْرده، تجرد عصر الخلافة بعد أن تجْرد عصر النبوة، والسياسات الشرعية التي كان يتعامل بها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع من يحيط به، سواء أكانوا كفارًا، أم مسلمين، أم منافقين.

تقف علىٰ حياة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك، ثم بعد أن تدون هذه القواعد والأصول والأحكام والفوائد التي تستطيع أن تستفيد منها في واقعك، تنتقل إلىٰ عصر الصحابة، عصر الخلفاء الراشدين، تبدأ بعصر سيدنا أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتبدأ بمواقفه السياسية، وكيف تصرف بالسياسة الشرعية فيما يخص الدولة، داخليًا وخارجيًا، وتجرد هذا العصر تمامًا، وهذه الفترة، ثم

كذلك عصر عمر؛ لأنه كان أوسع، ثم عثمان؛ لأنه كان في الولايات أوسع، ثم علي في زمن الفتن، وكيف تصرف فيها؟ لأن زمن سيدنا عليٍّ أشبه بزماننا.

فعندما تعكف علىٰ دراسة تاريخ الخلفاء وسياساتهم، وتتصور التصور الصحيح لواقعك، وترتبط بينهما، وتعرف أوجه التشابه بينهما، فكأنك تعيش الواقع تمامًا، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيهديك ويرشدك، ويوحي إليك أن هذا هو الصواب، ويبعث لك دلائل ورسائل أن هذا هو الصحيح؛ لأنك متجرد، تريد أن تأخذ بالأمة إلىٰ الخير والصلاح، تريد أن تنتشلها من هذا المستنقع الذي وقعت فيه، مستنقع الديموقراطية والعلمانية، والانحراف وتنحية الشريعة، وأنت كأنك تنحت في صخر، الناس في غياب عن هذا، وأنت تريد أن ترجعهم، وهم في غفلة شديدة، كيف تفعل أنت؟ الأمر شديد، فلا بد أن يكون العلم هو رصيدك.

المتن:

٧. وَمِنْهَا مَعْرِفَةُ أَنَّ الِاجْتِهَادَ فِي بَابِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ لَيْسَ بِمُجَرَّدِ مَا يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ، وَإِنَّمَا يَلْزَمُ التَّقَيُّدُ فِي ذَلِكَ بِالْمَصَالِحِ الْمُعْتَبَرَةِ شَرْعًا.

٨. وَمِنْهَا رَحْمَةُ النَّاظِرِينَ فِي هَذَا الْبَابِ بِعْضِهِمْ بَعْضًا عِنْدَ الِاخْتِلَافِ فِي مَوَاطِنِ الِاجْتِهَادِ» [1].

---

(١) «السياسة الشرعية تعريف وتأصيل»، لمحمد بن شاكر الشريف.

الشرح:

فأنت عندما تنظر في مواطن الاجتهاد، تنظر بعين الرحمة، وتشفق عليه؛ لأنه ما أراد إلا الخير مثلَك، ولكنه ضل الطريق، وفقك اللـه أنت، فتنظر في مناط الاختلاف؛ لأنه يتفق معك في التأصيل، هو ملتزم بأصول أهل السنة، ملتزم بأصولك تمامًا، ولكنه يخالفك في مناطات الاجتهاد والنظر، فأنت تشفق عليه، تقول: واللـه هذا مسكين؛ لأنه لم تتضح له هذه المسألة، ووضوحها في كذا وكذا، وكذا وكذا. وأنت تأخذ بيده حتىٰ يفهم هذه المسألة.

إذن هذا اختلاف رحمة، لا اختلاف عذاب، لا يجعلك هذا الاختلاف تعاديه، ثم تناصبه العداء، ثم تعلن بهذه العداوة، هذا كله من عدم فقه السياسة الشرعية، وكذلك هو مضاد للوحدة الإيمانية؛ لأنك تتمسك بالجزئيّات علىٰ حساب الكليات، والعكس هو الصحيح؛ لأن كل من وافق في التأصيل، ووافق في أصول أهل السنة والجماعة، فيلزمك أن تغض الطرف عما خالفك فيه في التنزيل؛ لأنك تعلم كمجتهد وناظر في السياسة الشرعية، أن التنزيل يختلف باختلاف نظر المجتهد فيه، فلماذا تنكر؟!

هناك فرق بين التوضيح والبيان، وبين الذم والإنكار، وضح لأنك تعلم أن هذا مناط تختلف فيه وجهات النظر.

ونأخذ مثلًا مسألة الكافر المحارب، الأصل أن الكافر المحارب حلال الدم والمال، {فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ}.

وهو يتفق معك علىٰ أن هذا الكافر المحارب حلال الدم والمال، إنما يختلف معك في تحديده، أو في تحديد الأمان الذي هو فيه، هل يعتبر أمانًا أم لا؟ فهو يختلف معك في التنزيل، في النظر، في الاجتهاد، هل هذا معيب له؟ هل هذا يسوغ لك أن تعنفه أو تكفره أو تبدعه؟ لا، هو اتفق معك في أن هذا كافر محارب، يجب أن نأخذ دمه وماله، فكيف نأخذ الدم والمال؟ هذا النظر في السياسة.

والمحارب إما أن يكون متمثلًا في دولة أو في أفراد، فالدولة بمؤسساتها ومكوناتها ومقتضياتها (كلمة غير واضحة)، هذه كلها غنيمة للمسلمين، أيّ شيء في مكونات الدولة، مقومات الدولة، أركان الدولة، كل هذا حلال لك.

والأفراد؟ الأفراد المناط القطعي، المناط القطعي في الجيش والشرطة، هذه أفرادها مناط قطعي؛ لأنهم هم أصل المحاربة، إذن تتقصد، الدولة إذن كلها حلال لك، تتقصد أفراد الجيش والشرطة هذا حلال لك، لا مناط فيه.

والخلاف في الفرد الذي لم يتبين لي أهو من الجيش والشرطة، أم هو غير محارب؟ هنا شبهة.

هل أنت استقصيت كل أفراد الجيش والشرطة؟ هل أنت تقصدتهم؟ لماذا تنتقل إلىٰ مناط مختلف، وتترك المناط المتحقق؟ هذا خبل.

طيب، أنا متفق معه في هذه الجزئية، فينبغي أن نفرغ منها، ثم ننتقل إلىٰ غيرها؛ لأننا إذا انتهينا منها، سقطت الدولة الكافرة؛ لكننا نختلف فيها، ولم ننته منها، وننتقل إلىٰ غيرها، ما فائدة ذلك؟ من الشيطان.

إذن يختلفون دائمًا في شبهة الأمان، هل هذا أمان؟ هل هذا أمان كلي؟ هل هذا مستأمن؟ هل هذا معاهد؟ هل هذا ذمي؟ يختلفون في المعين، في تحقيق مناطها (كلمة غير واضحة)، مع اتفاقهم في الأصل.

فما الذي يحدوهم إلىٰ ذلك؟ الخوف، الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوعيد من قتل آمنًا أو معاهدًا وعيد شديد جدًا، حتىٰ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لم يرح رائحة الجنة»(١).

إذن أنت تقدر هذا الخوف، وهذا الورع، وهذا الحياء، مع أنه مقدم معك علىٰ تحقيق المناط الصحيح، أن المحارب هذا أنت تقصده بنفسه، تقصده بعينه، لدمه وماله؛ ثم يختلف معك في الآلية، هل إذا اخذناه يترتب عليه مفاسد؟ طيب، المفسدة هذه ننظر فيها؛ هل هي واقعة علىٰ الفرد الذي هو

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (٣١٦٦).

يقوم بالعمل، أم واقعة علىٰ الجماعة المسلمة والإسلام؟ هذا يختلف فيه الاجتهاد والنظر، نقول: هذا من السياسة الشرعية.

فمن لم يفقه هذه يأتِ بالمصائب، ولا يسوس أمة أبدًا؛ لأنه لا يستطيع أن يستوعب العقول المخالفة له في النظر والاستدلال، بل يجعل لها جبهات مضادة تقتله، ثم بعد ذلك يشنعون عليه أنه من الخوارج، من التكفيرين، من الإرهابيين، من أهل التفجير والتفخيخ والقتل، وهكذا، فيحرض الأمة عليه، تحرض الأمة علىٰ مسلم يتفق معك في الأصل، ويختلف معك في التنزيل! هذا من الجهل بالسياسة.

فهذه الأمور مهمة جدًا، أن الداعية أو طالب العلم يقف علىٰ هذه، حتىٰ لا يفتح علىٰ نفسه جبهات هو لا يستطيع أن يفتحها الآن، وتؤدي به إلىٰ السقوط والانهيار. هذا علم دقيق ليس لأي أحد أن يتكلم فيه، فهذا مهم جدًا في هذه المسألة.

المتن:

- قَوَاعِدُ فِي فِقْهِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ:

هَذِهِ بَعْضُ الْقَوَاعِدِ فِي فِقْهِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ قَوَاعِدُ نَظَرِيَّةٌ، مِنَ الْمُمْكِنِ مَعْرِفَتُهَا لِكَثِيرٍ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، وَأَمَّا تَطْبِيقُهَا وَتَحْقِيقُ مَنَاطِهَا فِي الْوَاقِعِ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ.

الشرح:

إذن هذه القواعد يعرفها كل أحد، ليست بمجهولة، هي في كتب العلم، وكتب السياسة الشرعية، ولكن العبرة ليست بذلك؛ العبرة بمن يفهمها، ويعمل بها، ويطبقها علىٰ أرض الواقع.

لأنه كما قلنا: لا بد أن نُفهّم الناس طرقًا عملية لتفعيل الشرع، نفهم الناس طرقًا عملية لينزلوا هذا العلم علىٰ الواقع، ويتعاملوا به في واقع الناس، هذا هو الأصل الذي ينبغي أن يكون.

فهذه القواعد لا بد من تطبيقها، وتحقيق مناطها في الواقع، وهذا ليس لكل أحد، بل لأهل العلم الذين هم تحققوا به.

المتن:

الصَّلَاحُ وَالْفَسَادُ نَقِيضَانِ، وَضِدَّانِ لَا يَلْتَقِيَانِ، وَإِذَا كَانَتِ (**السِّيَاسَةُ**) -كَمَا تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ لُغَةُ الْعَرَبِ- تَعْنِي: الْإِصْلَاحُ وَالِاسْتِصْلَاحُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِإِزَالَةِ أَوْ دَفْعِ نَقِيضِهِ أَوْ مَا يُضَادُّهُ، وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ السِّيَاسَةَ الْكَامِلَةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَقْلِيلِ الْمَفَاسِدِ وَدَرْئِهَا وَتَعْطِيلِهَا.

وَالسِّيَاسَةُ الْمُطْلَقَةُ هِيَ الَّتِي تَقُومُ بِذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ، لِجَمِيعِ الْخَلِيقَةِ عَوَامِّهِمْ وَخَوَاصِّهِمْ، فِيمَا يَظْهَرُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَفِيمَا

يُبْطِنُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الْمُطْلَقَةُ، أَوِ السِّيَاسَةُ الْكَامِلَةُ الشَّامِلَةُ لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا رَسُولٌ يُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، وَيَتْبَعُهُ فِي ذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِسُنَّتِهِ.

وَأَمَّا جُهُودُ الْبَشَرِ الْمَبْتُوتَةُ عَنِ الْوَحْيِ.

الشرح:

«مبتوتة عن الوحي»، أي: مقطوعة عن الوحي.

المتن:

فَلَا تَتَعَدَّىٰ -مَهْمَا بَلَغُوا مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّقَدُّمِ- تَدْبِيرَ أُمُورِ الْمَعَاشِ، وَإِصْلَاحَ مُعَامَلَاتِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي ظَوَاهِرِهِمْ عَلَىٰ حَسَبِ مَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ عُلُومِهِمُ الْقَاصِرَةِ.

الدِّينُ وَالسِّيَاسَةُ:

وَيَتَبَيَّنُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ سِيَاسَةٌ لِإِصْلَاحِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ لِإِصْلَاحِ الْآخِرَةِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ عَنْهَا.

الشرح:

هذا يرجع إلىٰ المصلحة الأولىٰ، التي هي تعريف السياسة، أنها سياسة الناس علىٰ وفق الشرع، مع اعتقادهم أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان، كل مشكلة في واقع الناس لها حل في كتاب الله.

المتن:

وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةُ الْقُرْآنِ تُصَدِّق ذَلِكَ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ الْغَرِيبِ: «(الدِّينُ): الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ...

الشرح:

يعني: معنىٰ الدين ليس قاصرًا علىٰ العبادات وغير ذلك؛ فالدين له مفهوم أشمل، يشمل معاني الدنيا كلها.

المتن:

قَالَ الله تَعَالَىٰ: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ} [يوسف: ٧٦].

الشرح:

يعني: في ملكه وسلطانه، «في دين الملك» هنا: في طريقة الملك ودينه وسلطانه.

المتن:

أَيْ: فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ».

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ: «(دِنْتُهُ) (أَدِينُهُ) (دَيْنًا): سُسْتُهُ، (وَدِنْتُهُ): مَلَكْتُهُ، (وَدَيَّنْتُهُ الْقَوْمَ): وَلَّيْتُهُ سِيَاسَتَهُمْ».

الشرح:

هذا من الخضوع.

المتن:

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «الشَّرِيعَةُ سِيَاسَةٌ إِلَهِيَّةٌ».

وَقَدْ كَتَبَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- رِسَالَةً فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، قَالَ فِي أَوَّلِهَا: «فَهَذِهِ رِسَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ فِيهَا جَوَامِعُ مِنَ السِّيَاسَةِ الْإِلَهِيَّةِ»، وَبَيَّنَ أَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ آيَةِ الْأُمَرَاءِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَسَمَّاهَا: «سِيَاسَةً إِلَهِيَّةً».

وَهُوَ مَا يُكَوِّنُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَىٰ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي يُعْتَدُّ بِهَا شَرْعًا هِيَ السِّيَاسَةُ التَّابِعَةُ لِلشَّرِيعَةِ، وَأَمَّا السِّيَاسَةُ الْمُخَالِفَةُ لِلشَّرْعِ، وَإِنْ بَدَا لِبَعْضِهِمْ أَنَّهَا مُحَقِّقَةٌ لِبَعْضِ الْمَصَالِحِ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِسِيَاسَةٍ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَإِنْ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِالْحَقَائِقِ وَلَيْسَ بِالْأَسْمَاءِ؛ فَإِذَا كَانَ الِاسْمُ يُخَالِفُ الْحَقِيقَةَ، فَلَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا عِبْرَةَ بِهِ.

الشرح:

لأنهم إذا سمعوا كلمة «السياسة» تبادر إلىٰ أذهانهم السياسة التي يمارسه الناس، بل يتبادر إلىٰ أذهانهم أنها السياسة التي يمارسها بعض الإسلاميين عند دخولهم البرلمانات وغير ذلك. هذه هي السياسة في مفهومهم.

فهل بيَّن أحد مفهوم السياسة الشرعية للناس، وبين مراد السياسة الشرعية؟ لا، لم يتكلم أحد، بل تركوا المجال للسياسيين في واقعنا المعاصر، يتكلمون بالديمقراطية والعلمانية وغير ذلك.

هذا الذي يتبادر إلىٰ الذهن عند كلمة «السياسة» في واقعنا، فلا بد أن نحرر هذا، ونبينه للناس.

المتن:

ذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: أَنَّ عَضُدَ الدَّوْلَةِ كَانَ يَمِيلُ إِلَىٰ جَارِيَةٍ، فَكَانَتْ تَشْغَلُ قَلْبَهُ، فَأَمَرَ بِتَغْرِيقِهَا؛ لِئَلَّا يَنْشَغِلَ قَلْبُهُ عَنْ تَدْبِيرِ الْمُلْكِ. وَعَلَّقَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا هُوَ الْجُنُونُ الْمُطْبِقُ؛ لِأَنَّ قَتْلَ مُسْلِمٍ بِلَا جُرْمٍ لَا يَحِلُّ، وَاعْتِقَادُهُ أَنَّ هَذَا جَائِزٌ كُفْرٌ، وَأَنَّ اعْتِقَادَهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَكِنَّهُ رَآهُ مَصْلَحَةً، **فَلَا مَصْلَحَةَ فِيمَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ**».

الشرح:

انظر عندما تتفتق العقول بعيدًا عن الشرع، هو أحب جارية، وهو ملك، فإما أن يعتقها ويتزوجها، وإما أن يبتعد عنها، ويخرجها من عنده، ويبتعد عن الشبهة، ويبتعد عن المناط؛ أما أن يقتلها، ويقول: هذه من السياسة! كيف تقتل نفسًا بغير حق؟!

هذه مثال علىٰ السياسة غير الشرعية.

فضابط السياسة الشرعية: أن يكون منطلقها وأساسها وأصلها: الدين.

المتن:

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ مُفْلِحٍ فِي الْفُرُوعِ قَوْلَهُ: «أَكْثَرُ السَّلَاطِينِ يَعْمَلُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا بِالْعِلْمِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ سِيَاسَةً، وَالسِّيَاسَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ».

الشرح:

فإطلاق لفظ «السياسة»، من غير تقييد بوصف «الشرعية» خطأ.

فلذلك لا بد أن يتكرر هذا المصطلح كثيرًا علىٰ ألسنة الدعاة، لا أن يتكلموا عن السياسة من غير تقييد بوصف «الشرعية»، فيجب أن يبينوا دائمًا أن السياسة الشرعية تقتضي كذا، ومن السياسة الشرعية كذا، فلا تتكلم بالسياسة فقط، حتىٰ لا يظن الناس أنك تتكلم بمثل ما يتكلم الناس، لكن بين ما تقصد بكلمة «السياسة».

المتن:

الِاجْتِهَادُ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ:

وَإِذْ يَتَبَيَّنُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الْكَامِلَةَ تَقُومُ عَلَىٰ جَلْبِ مَصَالِحِ الدَّارَيْنِ، وَدَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَالْغَوَائِلِ عَنْهُمَا.

الشرح:

أي: عن الدنيا والآخرة، لا تظن أن السياسة هي سياسة الدنيا فقط، لا، بل هي سياسة الدنيا والآخرة.

المتن:

فَإِنَّ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُدْرَكٌ بِالنُّصُوصِ، كَمَصْلَحَةِ الْعِبَادَاتِ مِنْ صَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَزَكَاةٍ، وَمِثْلِ تَنَاوُلِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ، وَمِثْلِ سَتْرِ الْعَوْرَاتِ، وَاجْتِنَابِ النَّجَاسَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْمَفَاسِدُ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُدْرَكٌ بِالنُّصُوصِ كَالرِّبَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالسَّرِقَةِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍ، وَالظُّلْمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مَا هُوَ مُدْرَكٌ بِالِاجْتِهَادِ، لَا سِيَّمَا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَجَدِّدٌ بِتَجَدُّدِ الْأَزْمَانِ وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ ظُرُوفِ الْمَكَانِ.

الشرح:

التي هي النوازل التي تنزل بالأمة، فيختلف فيها نظر المجتهد، فمن المهم معرفة ذلك؛ حتىٰ لا تثرب علىٰ من خالفك في التنزيل، والنظر، والاجتهاد، وحتىٰ تتأدب بآداب الإسلام مع المخالف في مناطات النظر والاجتهاد، طالما أنه وافقك في أصوله العظام.

المتن:

وَالْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ الْمُدْرَكَةُ بِالِاجْتِهَادِ يَدْخُلُ الْخَطَأُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَصوِيرِهَا وَتَحَقُّقِهَا فِي آحادِ وَأَفْرَادِ الصُّوَرِ الْوَاقِعَةِ كَثِيرًا؛ فَقَدْ يُظَنُّ مَا لَيْسَ بِمَصْلَحَةٍ حَقِيقِيَّةٍ مَصْلَحَةً يَنْبَغِي تَحْصِيلُهَا، وَقَدْ يُظَنُّ فِي الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ مَا لَيْسَ بِمَفْسَدَةٍ حَقِيقِيَّةٍ مَفْسَدَةً يَنْبَغِي دَفْعُهَا وَإِزَالَتُهَا.

وَيَعْظُمُ هَذَا الْخَلْطُ وَالِاضْطِرَابُ عِنْدَمَا لَا تَتَمَيَّزُ الْمَصَالِحُ مِنَ الْمَفَاسِدِ، فَتَكُونُ الْمَصْلَحَةُ الْمَطْلُوبُ تَحْصِيلُهَا تَكْتَنِفُهَا مَفْسَدَةٌ أَوْ عِدَّةُ مَفَاسِدَ، وَكَذَلِكَ قَدْ تَكُونُ الْمَفْسَدَةُ الْمَطْلُوبُ دَفْعُهَا مُخْتَلِطَةً بِمَصْلَحَةٍ أَوْ عِدَّةِ مَصَالِحَ، وَلَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا عَلَىٰ الِانْفِرَادِ، فَيَكُونُ فِي دَفْعِهَا دَفْعًا لِتِلْكَ الْمَصَالِحِ.

الشرح:

يعني: عندك مفسدة، وعندك مصلحة، ولا تندفع هذه المفسدة إلا بزوال هذه المصلحة، فتختلفون في النظر، يقول قائل: كيف تزيل هذه المصلحة وهي مصلحة للأمة؟ فهو ينظر بعين المصلحة، وأنت تنظر بعين المفسدة، فالمصلحة عنده أكبر من المفسدة المتحققة، علىٰ تصوره هو، وأنت تنظر إلىٰ هذه المفسدة علىٰ أنها أكبر من المصلحة بأضعاف كثيرة، ومفسدتها أعم علىٰ الأمة.

نضرب لك مثالًا: الذين يقولون: إننا ندخل في الانتخابات والمجالس النيابية حتىٰ نقلل الشر، ونحكِّم الشريعة. هم ينظرون إلىٰ دفع مفسدة غياب الشريعة يكون بالدخول في البرلمانات والمشاركة ورفع الصوت بالإسلام.

نعم، أنتم لكم نصيب من الاجتهاد والنظر.

والفريق الآخر يقول: أنتم بدخولكم إلىٰ هذه المجالس، أقررتم بشرعية الكافر المرتد، طيب أنتم تكلفكم هذه أموال وأوقات وتغييب للشريعة،

الطريق الأصلح: أننا نعد الدولة وجيشها؛ حتىٰ ننقض علىٰ هؤلاء المرتدين، ونقيم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. هذه وجهة نظر.

- طيب، هل فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ نعم فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

- هم يقولون: الدماء وعصمة الدماء.

- نقول: هل عصمة الدماء أعظم من عصمة الدين والشريعة؟ هذه موازنة، هذه مفسدة وهذه مفسدة؛ فأيهما أعظم، مفسدة الدين، مفسدة غياب الشريعة، أم إراقة الدماء؟ والدماء التي تراق هي في سبيل تحكيم الشريعة، هي في سبيل إقامة الدولة الإسلامية.

- هل فعل النبي صلىٰ الله عليه ذلك؟

- نعم، فعل ذلك، بل الدماء والأشلاء تطايرت من أصحابه؛ كان في سبيل إقامة الدولة، وشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا الطريق أقصر؛ لأنه هو الفعال، لأنك لا تساوم علىٰ الشريعة، وعدوك يراهن علىٰ السياسة العلمانية والديمقراطية، ويجرك إليها جرًا، وأبواقه الإعلامية تمدحها وتبين مصالحها، والرأي والحرية وغير ذلك، وأنت لا تستطيع أن تعلن عن مصالح الشريعة، وفوائد الشريعة؛ لأنه يقيد إعلامك، ويجعله محدودًا، بل ويظهرك في صورة الساذج المتخلف، الذي لا يعرف شيئًا عن التقدم.

فدرء هذه المفسدة، والعقبة الكؤود أمام شرع الله، يكون بالمجابهة والقتال، فبدل أن تدخلوا في هذا المعترك، وفّروا هذه الجهود للإعداد والاستعداد للجهاد، لقيادة الأمة كما قادها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذه مناطات تختلف فيها وجهات النظر، ولكن عندما تبين المصلحة، وتبين المفسدة، لا بد أن يكون عندك علم ونظر في تقييم المصلحة والمفسدة، والموازنة بينهما، هل هذه مصلحة حقيقية؟ هل هذه مفسدة حقيقية؟ لو أزلنا هذه المفسدة فستأخذ معها بعض المصالح؟ هل المصلحة توازي المفسدة؟ وهكذا، ليست كلامًا في الكتب، بل لا بد أن ينزل علىٰ الأرض، وتُحَدّد المصالح والمفاسد.

المتن:

لِذَلِكَ فَإِنَّ الْفِقْهَ فِي هَذَا الْبَابِ لَا يَصْلُحَ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ الْمُبْتَدِئُونَ أَوِ الشَّادُونَ فِي الْفِقْهِ.

الشرح:

«الشادون»، يعني: عندهم تشدد في الفقه والنظر، وكذلك لا يفقهون الأمور الفقهية علىٰ أصلها، فإما أن يأخذوا بالعزائم في مواطن الرخص، وإما أن يأخذوا بالرخص في مواطن العزائم، وهذا كله فساد.

المتن:

وَإِنَّمَا هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ فُقَهَاءٍ مُتَضَلِّعِينَ تَضَلُّعًا كَامِلًا فِي فِقْهِ الشَّرِيعَةِ بِمَعْنَاهُ الشَّامِلِ، إِضَافَةً إِلَىٰ الْخِبْرَةِ الْوَاسِعَةِ بِالْوَاقِعِ.

الشرح:

يعني: لا يصلح لهذا الأمر الطلاب الذين لا يحسنون مقاصد الشرع؛ ليس عندهم فقه في المقاصد ولا المآلات، ولا يعرف معنىٰ المقاصد، ولا معنىٰ المآلات، فكيف يتكلم في هذه المسائل الكبار؟!

فلا بد أن يحسن أوّلًا الكلام في الفقه، وقواعده، والمصالح المبنية عليه، وكذلك لا بد أن يكون مطلعًا ومتضَلِّعًا من فقه المآلات والمقاصد، إذا قمت بهذا العمل ما الذي ينبني عليه؟ ما هي المصالح المترتبة علىٰ ذلك؟ أما أن يتكلم في هذه المسائل، وهو يجهل كل هذه الأمور، فسيأتي بالعجائب، بل ويجادل عنها ويناقش، كأنه شيخ الإسلام!

المتن:

وَلَعَلَّنَا فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ نُعَرِّجُ عَلَىٰ بَعْضِ الْقَوَاعِدِ الْفِقْهِيَّةِ الَّتِي تَضْبِطُ هَذَا الْأَمْرَ.

فَمِنْ ذَلِكَ:

الْقَاعِدَةُ الْأُولَىٰ: لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ:

وَهِيَ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ، بَلْ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ الْفِقْهِ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَعَلَيْهَا تَنْبَنِي فُرُوعٌ فِقْهِيَّةٌ كَثِيرَةٌ يَعْسُرُ حَصْرُهَا فِي هَذَا الْمَقَالِ، وَمُسْتَنَدُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَدَلِيلُهَا نَصُّ حَدِيثِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا ضرر ولا ضرار»» [1].

أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ، وَابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي الدِّرَايَةِ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْهِدَايَةِ، وَالشَّوْكَانِيُّ فِي الدَّرَارِي الْمُضِيَّةِ.

«مَعْنَىٰ الضَّرَرِ وَالضِّرَارِ:

(الضَّرَرُ) وَ**(الضِّرَارُ)** قِيلَ: هُمَا لَفْظَتَانِ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ عَلَىٰ وَجْهِ التَّأْكِيدِ، وَيُقَالُ: **(الضَّرَرُ)** الَّذِي لَكَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَعَلَىٰ غَيْرِكَ فِيهِ مَضَرَّةٌ، وَ**(الضِّرَارُ)** الَّذِي لَيْسَ لَكَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَعَلَىٰ غَيْرِكَ الْمَضَرَّةُ، وَقِيلَ: **(الضَّرَرُ)** أَنْ تَضُرَّ بِمَنْ لَا يَضُرُّكَ، وَ**(الضِّرَارُ)** أَنْ تَضُرَّ بِمَنْ أَضَرَّ بِكَ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُجَازَاةِ بَالْمِثْلِ وَالِانْتِصَارِ لِلْحَقِّ، بَلْ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِضْرَارِ وَالِانْتِقَامِ، وَقَدْ عَلَّقَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ تِلْكَ الْأَقْوَالِ بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِي يَصِحُّ فِي النَّظَرِ وَيَثْبُتُ فِي الْأُصُولِ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَضُرَّ بِأَحَدٍ سَوَاءٌ أَضَرَّ بِهِ قَبْلُ أَمْ لَا، إِلَّا أَنَّ لَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ وَيُعَاقِبَ إِنْ قَدَرَ، بِمَا أُبِيحَ لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالِاعْتِدَاءُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَهُ مِثْلَ مَا اعْتُدِيَ بِهِ

---

(١) «قواعد في فقه السياسة الشرعية»، لمحمد بن شاكر الشريف.

عَلَيْهِ(١)، وَالِانْتِصَارُ لَيْسَ بِاعْتِدَاءٍ وَلَا ظُلْمٍ وَلَا ضَرَرٍ، إِذَا كَانَ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أَبَاحَتْهُ الشَّرِيعَةُ».

الشرح:

فالضرر هو: الظلم، وليس هو أخذ الحق، فأخذ الحق لا يمنعه الشرع، ولكن بالمثل، من غير زيادة، ومن غير إحداث ضرر، فالشرع يعتبر بذلك، ويمنع الظلم، وكذلك يمنع الضرر.

المتن:

تَفْسِيرُ الْقَاعِدَةِ:

الضَّرَرُ وَالضِّرَارُ الْوَارِدَانِ فِي الْحَدِيثِ وَرَدَا لَفْظَيْنِ نَكِرَتَيْنِ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ؛ مِمَّا يُفِيدُ الِاسْتِغْرَاقَ وَالْعُمُومَ، وَهَذَا مَعْنَاهُ نَفْيُ سَائِرِ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ ابْتِدَاءً أَوْ مُجَازَاةً؛ فَالضَّرَرُ لَا تُبِيحُهُ الشَّرِيعَةُ لِأَحَدٍ، وَلَا تَشْرَعُهُ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِي الشَّرْعِ مَشْرُوعِيَّتُهُ فَلَيسَ بِضَرَرٍ وَإِنْ كَانَ فِيهِ إِزْهَاقُ الْأَنْفُسِ أَوْ هَلَاكُ الْأَمْوَالِ؛ وَانْطِلَاقًا مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ الضَّرَرَ يُمْنَعُ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِهِ، فَيُمْنَعُ قَبْلَ وُقُوعِهِ، عِنْدَ تَوَقُّعِ حُدُوثِهِ وَتَوَفُّرِ الدَّوَاعِي لِذَلِكَ.

الشرح:

---

(١) في «التمهيد» لابن عبد البر، بتحقيق د. بشار عواد ترتيب الشاملة الشبكية (١٢/ ٥٣٣) قال: «والاعتِداء بالحقِّ الذي هُو مِثلُ ما اعتُدِيَ به عليه». وفي طبعة المغربية بترتيب الشاملة (٢٠/ ١٦٠) زاد لفظة (لَهُ): «بِالْحَقِّ الَّذِي لَهُ هُوَ مِثْلُ مَا اعْتُدِيَ بِهِ عليه». فالظاهر أن كلمة (هو) ساقطة هنا.

أي: قبل هذا يرجع إلىٰ فقه المآل والنظر، أنت إذا قمت بهذا فسيسبب ضررًا، فالأصل هنا أنك تمنع وقوعه× لأن الضرر يُزَال، فهذه قاعدة أخرىٰ ضابطة: «الضرر يزال»، فإذا وقع الضرر، فلا بد أن يُرفع هذا الضرر، وهل يُرفَع هذا الضرر بضرر أكبر منه، أم أقل منه؟ بأقل منه.

المتن:

وَذَلِكَ كَالْإِجْرَاءَاتِ، أَوِ التَّنْظِيمَاتِ وَالتَّرْتِيبَاتِ الْوِقَائِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ مِنْ شَأْنِهَا مَنْعُ الضَّرَرِ جُمْلَةً، أَوْ تَضْيِيقُ مَجَارِيهِ، وَتَقْلِيلُ إِمْكَانِيَّةِ حُدُوثِهِ، فَتَحْدِيدُ الْمَنَاطِقِ الصِّنَاعِيَّةِ الْمُقْلِقَةِ، أَوِ الَّتِي يَنْتُجُ عَنْهَا غَازَاتٌ سَامَّةٌ، أَوْ رَوَائِحُ كَرِيهَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّجَمُّعَاتِ السَّكَنِيَّةِ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَكَذَلِكَ تَنْظِيمُ الْمُرُورِ بِمَا يُسَهِّلُ حَرَكَةَ النَّاسِ وَالْحَيَاةَ، وَيَمْنَعُ الْأَضْرَارَ النَّاتِجَةَ عَنْ تَرْكِ النَّاسِ يَسِيرُونَ كَيْفَمَا شَاءُوا، فَذَلِكَ أَيْضًا مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

الشرح:

ذكرنا هذا المثال لأن كثيرًا ممن لا يفقهون هذه السياسة، يكفرون بمثل هذه المناطات، يقولون: أنت تلتزم بإشارة المرور، وكيف تفرق بين المناطق الصناعية والمناطق السكنية، وتشق علىٰ الناس أن يذهبوا إلىٰ مصانعهم علىٰ أقدامهم أو بسياراتهم؟ لماذا لم تجعل المصانع مع السكن؟ وهكذا، كذلك لماذا أنت تقر وتقف في الأكمنة الكمائن أم الأمكنة التي تبحث عن المرضىٰ،

وعن المخدرات، وتكشف عن اللصوص والجرائم؟ الصور محرمة، لماذا تطبع الصور، وتوزعها، وتنشرها؟

كل هذه من الضوابط، واللوائح الإدارية المنظمة لحياة الأمة، المنبثقة من السياسة الشرعية، التي هي في مصالح الأمة، ليس هذا تشريعًا، ولكنها من السياسة الشرعية، لوائح إدارية، ونظم وقوانين إدارية، تحكم حياة الناس، وهي من السياسة الشرعية، فلو تُرِكت الأمور هكذا، لفسدت الحياة، ولسادت الفوضىٰ بين الناس.

المتن:

كَمَا أَنَّ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَىٰ مَنْعِ الضَّرَرِ قَبْلَ وُقُوعِهِ إِعْدَادَ الْعُدَّةِ الْمُسْتَطَاعَةِ مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تُرْهِبُ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّ الْمُسْلِمِينَ وَتُخِيفُهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: {وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠].

وَيُمْنَعُ الضَّرَرُ أَثْنَاءَ وُقُوعِهِ، وَذَلِكَ بِمُدَافَعَتِهِ، وَعَدَمِ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ وَالْإِذْعَانِ، وَيَنْبَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ كَرَدِّ الْمُعْتَدِي وَمُدَافَعَةِ الْعَدُوِّ الصَّائِلِ وَمُقَاتَلَتِهِ؛ فَقَدْ «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «لَا تُعْطِهِ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ:

«قَاتِلْهُ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ». وَيُمْنَعُ الضَّرَرُ بَعْدَ وُقُوعِهِ.

الشرح:

هناك فرق بين القتل والمقاتلة، القتل: أن تقتل إنسانًا، المقاتلة: أن تدافعه، تدفعه بما يندفع به، إذا اندفع بكلمة، فلا يندفع بكلمتين، إذا اندفع بعصا، فلا تضربه بسيف، هكذا تدفعه بما يندفع به، هذه يسمنوها المقاتلة، وأما القتل فهو إزهاق الروح.

المتن:

وَهَذَا التَّعْبِيرُ فِيهِ نَوْعُ غَرَابَةٍ؛ إِذْ كَيْفَ يُمْنَعُ، وَهُوَ قَدْ وَقَعَ؛ وَذَلِكَ يُتَصَوَّرُ إِمْكَانِيَّتُهُ فِي صُورَتَيْنِ:

الصُّورَةُ الْأُولَى: الْعُقَوبَاتُ الْمَشْرُوعَةُ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ؛ فَإِنَّ تَشْرِيعَ الْعُقَوبَاتِ وَتَقْرِيرَهَا عَلَى مُحْدِثِي الضَّرَرِ وَمُرْتَكِبِيهِ تَكُونُ عِظَةً وَعِبْرَةً لِلْآخَرِينَ؛ بِحَيْثُ يُمَثِّلُ ذَلِكَ رَدْعًا وَزَجْرًا يَمْنَعُ مِنْ تَكْرَارِهِ، أَوْ يُقَلِّلُ مِنْ فُرَصِ حُدُوثِهِ، عَلَى حَدِّ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: {وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٩]، وَلَا تَجُوزُ الْمُجَازَاةُ أَوِ الْعُقُوبَةُ عَلَى الضَّرَرِ بِإِحْدَاثِ ضَرَرٍ مِثْلِهِ عَلَى الْمُعْتَدِي لَا فَائِدَةَ مِنْهُ لِلْمُعْتَدَى عَلَيْهِ؛ فَمَنْ أَفْسَدَ شَيْئًا أَوْ أَتْلَفَهُ لَا تَكُونُ عُقُوبَتُهُ بِإِفْسَادِ شَيْءٍ مِثْلِهِ عَلَيْهِ إِذَا أَمْكَنَ تَعْوِيضُ

الْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْإِفْسَادَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فِيهِ مَزِيدٌ مِنَ الْإِفْسَادِ وَالْإِضْرَارِ بِدُونِ فَائِدَةٍ مِنْهُ.

الشرح:

لماذا؟ لأنهم يقولون: «من أتلف شيئًا فعليه إصلاحه»، لا يقولون: من أتلف شيئًا فيُتلَف مثله، نقول: لا، من أتلف شيئًا فعليه إصلاحه، لو تعطلت سيارتك، فأخذت سيارة أخيك، أو صديقك، أو زميلك في العمل، فاصطدمت بالسيارة وأنت تسير، فأتلفت جزءًا من السيارة، هل هو يذهب ويتلف جزءًا مثله من سيارتك؟ الشرع يقول: لا، يقول: «من أتلف شيئًا فعليه إصلاحه»، فعليك إصلاح هذا الشيء الذي أتلفته، ولا تكلفه ما لم يتلفه هو، فإنه أحسن إليك بإعطائك أو بتأجيرك هذه السيارة، فإذا أتلفت جزءًا منها فعليك إصلاحه، لا أن يذهب هو ويتلف نفس الجزء الذي عندك، نقول: هذا ليس من مقتضىٰ الشرع، ولا قواعد الشرع.

المتن:

وَإِنَّمَا تَكُونُ عُقُوبَتُهُ بِأَنْ يُصْلِحَ مَا أَفْسَدَ، أَوْ يُعَوِّضَ عَنْهُ بِمِثْلِهِ إِذَا لَمْ يُمْكِنِ الْإِصْلَاحُ، فَإِذَا تَعَذَّرَ ذَلِكَ وَلَمْ يُمْكِنْ، فَإِنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ مَا فُعِلَ بِلَا زِيَادَةٍ، فَإِنَّ فِي هَذَا إِرَاحَةً لِقَلْبِ الْمَظْلُومِ الْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ؛ فَمَنْ أَفْسَدَ حَيَاةَ إِنْسَانٍ عَمْدًا، فَإِنَّ الْمُعْتَدِيَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْلِحَ مَا أَفْسَدَ بِرَدِّ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، كَمَا

أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْطِيَ مِثْلَهُ، فَتَكُونُ عُقُوبَتُهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِ الْقَاضِي حَيَاتَهُ، إِلَّا إِذَا تَنَازَلَ صَاحِبُ الْحَقِّ (وَلِيُّ الدَّمِ).

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: إِزَالَةُ آثَارِ الضَّرَرِ عَنْ طَرِيقِ التَّعْوِيضَاتِ الْمَشْرُوعَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الضَّرَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، أَوْ تُخَفِّفُ آثَارَهُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ حَدٍّ مُمْكِنٍ؛ فَقَدْ رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَىٰ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ خَادِمٍ بِقَصْعَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتْ بِيَدِهَا، فَكَسَرَتِ الْقَصْعَةَ، فَضَمَّهَا وَجَعَلَ فِيهَا الطَّعَامَ»، وَقَالَ: «كُلُوا»، وَحَبَسَ الرَّسُولَ -أَيْ: الْخَادِمَ- وَالْقَصْعَةَ، حَتَّىٰ فَرَغُوا، فَدَفَعَ الْقَصْعَةَ الصَّحِيحَةَ، وَحَبَسَ الْمَكْسُورَةَ».

الشرح:

هذا اسمه التعويض، ألم نقل: الضرر يزال؟ عندما يأتي إليك إنسان، ويقول لك: أنا صدمت سيارتك، وأريد أن أعطيك مالًا، تقول: لا، أنا لا آخذ العوض. نقول: هذا خطأ، هذه عادة منتشرة في الناس، يقول: أنا لا أقبل العوض! اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لك هذا، قصعة بقصعة، فلا تقل: أنا لا أقبل العوض، العوض من اللـه، لا، هذا ضرر يزال، والشرع أباح لك هذا، فهذه من العادات الفاسدة في بلاد المسلمين.

المتن:

مُبَادَرَةُ الضَّرَرِ عِنْدَ أَوَّلِ ظُهُورِهِ:

وَمَنْعُ الضَّرَرِ يَسْتَوْجِبُ مُبَادَرَتَهُ سَوَاءٌ قَبْلَ حُدُوثِهِ وَعِنْدَ تَوَقُّعِ ذَلِكَ، أَوْ أَثْنَاءَ حُدُوثِهِ، أَوْ بَعْدَ حُدُوثِهِ، عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يتَأَنَّىٰ بِهِ؛ فَإِنَّ التَّأَنِّي فِي ذَلِكَ وَتَرْكَ الْمُبَادَرَةِ رَبَّمَا أَدَّىٰ إِلَىٰ اسْتِفْحَالِهِ، بِحَيْثُ يَخْرُجُ عَنِ السَّيْطَرَةِ، وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ إِزَالَتِهِ، أَوْ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ جُهُودٍ مُضَاعَفَةٍ عَمَّا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَوْ دُفِعَ أَوَّلَ أَمْرِهِ.

الشرح:

فالمبادرة إلىٰ إزالة الضرر أولىٰ شرعًا، فالنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما كسرت القصعة، دخل وجاء بقصعة جديدة، وأنهىٰ الموضوع، لم يجعله يتشعب ويكبر، ويكثر فيه القيل والقال: هي التي كسرت، لا هي التي جاءت...

فمنعُ مفاسد الضرر المترتبة عليه بالمبادرة إلىٰ إصلاحه.

مثال: أنت أفسدت شيئًا لأخيك، وأنت تعرف أن ثمنه مثلًا عشر ليرات، فأعطيته عشر ليرات، فالموضوع انتهىٰ، أما لو تركته، بدأ يتفرع، وحصل الجدال: هو الذي أخطأ، لا هو الذي جعل، هو الذي قال، لا أنت الذي قلت... فالمسارعة بإزالة الضرر تمنع وتقطع فروعه المتشعبة بالفساد.

المتن:

وهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الْمُرْتَدِّينَ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بَادَرَ فِي دَفْعِ ذَلِكَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ، وَلَمْ يَتَأَنَّ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَسْتَمِعَ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ رَأْيٍ أَوْ مَشُورَةٍ مِنْ أَحَدٍ؛ إِذْ أَدْرَكَ بِبَصِيرَتِهِ -هُوَ أَهْلٌ لَهَا- الْإِيمَانِيَّةِ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي بِدُونِ مُوَاجَهَتِهِمْ يَكُونُ قُوَّةً لِلْمُرْتَدِّينَ وَضَعْفًا لِلْمُسْلِمِينَ، فَبَادَرَهُمْ.

الشرح:

فإذا تركت الكفار فإنهم يتنفسون؛ أما لو ضربتهم فأوجعتهم، ثم تابعت الضرب فأوجعتهم، ولم تسمح لهم بأن يلتقطوا أنفاسهم، فإذن تقطعها تمامًا؛ أما لو ضربت وانتظرت، كأنك تسمح لهم أن يتجمعوا، ويستعيدوا قوتهم من جديد، ويجمعوا أمرهم، هذا ليس من السياسة.

فلا تدع العدو يتنفس، اقض عليه مرة واحدة؛ حتىٰ لا تقوم له قائمة.

لكن تخيل لو أن سيدنا أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ترك المرتدين، ماذا كان سيحصل؟ سيذهبون إلىٰ المدينة؛ أما لما قضىٰ عليهم في أول الأمر، ما قامت لهم قائمة.

وانظر إلىٰ العكس، وهذا أيضًا من السياسة، لكن هذا كان أمرًا شرعيًا، عندما علم سيدنا عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بأمر أتباع عبد الله بن سبأ، وتوغلهم في الدولة، ما الذي كان يجب في هذا الوضع؟ القطع نهائيًا، حتىٰ لا تقوم لهم قائمة.

كذلك في العصر الحديث، عندما وصل بعض الإسلاميين لحكم بعض الدول، ماذا فعل؟ ترك المجرمين والكفار والسفهاء حتىٰ نالوا منه، ثم قتلوه، لكن لو تعامل معهم بالسياسة الشرعية، لا بالسياسة البرلمانية ولا العضوية وغير ذلك، وجمع هؤلاء وقتلهم في ميدان عام، الإعلاميين، الذين يحاربون، ثم أوقفهم في ميدان عام، والناس جميعًا يشاهدون، ثم بيّن أن هؤلاء أفسدوا في الأرض كذا وكذا، وحُكْم الله فيهم كذا، وقام بقتلهم جميعًا، هل يجرؤ أحد أن يقوم ويعارض الإسلام؟ لا؛ لأنه عرف العقوبة.

هذه هي السياسة الشرعية الغائبة في زماننا.

المتن:

وَقَصَدَهُمْ إِلَىٰ أَمَاكِنِهِمْ، وَلَوْ قُدِّرَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَةَ مَنْ أَشَارَ بِالتَّرَيُّثِ فِي ذَلِكَ فَلَرُبَّمَا تَغَيَّرَ وَجْهُ التَّارِيخِ.

الشرح:

هذه القواعد تحتاج إلىٰ تكرار، وشرح، وتبسيط؛ لأنها هي التي يبنىٰ عليها السياسة الشرعية، ولو تعجلنا فيها فلن نستفيد.

فهمنا القاعدة الأولىٰ، وفهمنا الصور المتفرعة عليها، فهمنا أن من السياسة الشرعية ألا تشاور أحيانًا، وتذهب بعزمك وبصيرتك.

وعلمت أن من السياسة الشرعية أنك إذا ناظرت، وإذا استشرت، فسيستفحل الضرر، ولكن كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنبيه: {فَإِذَا عَزَمْتَ} يعني: إذا عزمت علىٰ الأمر الذي وضح عندك وضوحًا لا لبس فيه، {فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ}، وامض، هذا الذي يقصد به.

المتن:

الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: الضَّرَرُ يُدْفَعُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ:

وَيَنْدَرِجُ تَحْتَ قَاعِدَةِ «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» قَوَاعِدُ أُخْرَىٰ، مِنْهَا:

أَنَّ الضَّرَرَ يُدْفَعُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ؛ فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِ الضَّرَرِ وَإِزَالَتِهِ -كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ- فَإِنَّهُ يُدْفَعُ وَيُسْعَىٰ فِي إِزَالَتِهِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ؛ فَمَهْمَا أَمْكَنَ دَفْعُهُ مِنَ الضَّرَرِ دُفِعَ؛ فَإِنَّ مَا لَا يُدْرَكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ جُلُّهُ.

الشرح:

ما معنىٰ «ما لا يدرك كله لا يترك جله»؟ يعني: القدرة مناط التكليف، فإن لم تقدر علىٰ شيء ما، وقدرت علىٰ جزء منه فلا تتركه.

مثال: إذا استطعت أن تصلي الصلوات الخمس في جماعة، فافعل؛ وإن لم تستطع، فأدرك ولو صلاة واحدة، فإن لم تستطع، فلا تتركها كلها.

هذا معنىٰ: «ما لا يدرك كله لا يترك جله».

المتن:

فَإِذَا أَمْكَنَ دَفْعُ الضَّرَرِ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْقَىٰ شَيْءٌ مِنْهُ دُفِعَ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يُدْفَعُ مِنْهُ مَا أَمْكَنَ دَفْعُهُ.

الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: احْتِمَالُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ:

عِنْدَ دَفْعِ الضَّرَرِ أَوِ السَّعْيِ فِي إِزَالَتِهِ، قَدْ لَا يَتَيَسَّرُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْوُقُوعِ فِي ضَرَرٍ آخَرَ، وَهُنَا يَتَحَتَّمُ عَلَيْنَا إِذَا أَرَدْنَا إِزَالَةَ الضَّرَرِ أَنْ نَقَعَ فِي ضَرَرٍ آخَرَ، وَالْمَقْصُودُ دَفْعُ الضَّرَرِ بِالْكُلِّيَّةِ؛ فَإِذَا تَعَذَّرَ ذَلِكَ وَلَمْ يُمْكِنْ، فَإِنَّهُ يُحْتَمَلُ أَخَفُّ الضَّرَرَيْنِ، فَإِذَا كَانَ الضَّرَرُ الْمَدْفُوعُ يَزِيدُ عَنِ الضَّرَرِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَىٰ ذَلِكَ دُفِعَ، وَإِنْ كَانَ الضَّرَرُ الْمُتَرَتِّبُ أَعَلَىٰ مِنَ الضَّرَرِ الْمَدْفُوعِ، لَمْ يُدْفَعِ الضَّرَرُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ.

الشرح:

يعني: يُترك لو كان يسبب ضررًا أعلىٰ؛ لأن دفعه ليس فيه مصلحة، بل هو يسبب ضررًا أكبر، فاحتمال الأخف أفضل من حدوث الأقوىٰ.

المتن:

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِذَا تَرَتَّبَ عَلَىٰ دَفْعِ الضَّرَرِ ضَرَرٌ آخَرُ، لَمْ يُدْفَعِ الضَّرَرُ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ الضَّرَرُ الْمُتَرَتِّبُ أَقَلَّ مِنَ الضَّرَرِ الْمَدْفُوعِ؛ لِأَنَّ هَذَا يُخَالِفُ قَاعِدَةَ السَّعْيِ فِي إِزَالَةِ الضَّرَرِ.

الشرح:

أنت مأمور بالسعي، مأمور أن تأخذ بقدر المستطاع بما كلفك الله.

المتن:

وَقَدْ عَبَّرَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَنْ تِلْكَ الْقَاعِدَةِ بِقَاعِدَة: (احْتِمَالِ أَخَفِّ الضَّرَرَينِ)، أَوْ (أَهْوَنِ الشَّرَّيْنِ)، أَوْ (تُدْفَعُ الْمَفْسَدَةُ الْعُظْمَىٰ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا) أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ.

وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ لَهَا فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ جَاءَ بَعْضُهَا فِي السِّيَاسَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ الْخِضْرُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عِنْدَمَا خَرَقَ السَّفِينَةَ؛ فَقَدْ كَانَ فِي خَرْقِهِ لَهَا ضَرَرٌ، وَلَكِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِيَدْرَأَ ضَرَرًا أَشَدَّ، وَهُوَ مُصَادَرَةُ السَّفِينَةِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ الظَّالِمِ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، فَخَرْقُ السَّفِينَةِ ضَرَرٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ بِلَا شَكٍّ أَقَلُّ ضَرَرًا مِنْ ضَيَاعِ السَّفِينَةِ كُلِّهَا، فَلَمْ يُمْكِنْ إِزَالَةُ الضَّرَرِ الْكَبِيرِ إِلَّا بِاحْتِمَالِ الضَّرَرِ الْأَقَلِّ. وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يُقَالُ فِي قَتْلِهِ لِلْغُلَامِ، وَهَذِهِ وَتِلْكَ مِنَ السِّيَاسَةِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْخِضْرَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَالَ لِمُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بَعْدَمَا بَيَّنَ لَهُ وَجْهَ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ: {وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [الْكَهْفُ: ٨٢].

الشرح:

فهم القواعد الشرعية في الوعي السياسي، يُكسِب الطالبَ ملكة علمية واسعة، فيستوعب كل ما حوله؛ أما إذا غاب عنه الوعي السياسي، تجده

متحجرًا، لا يستوعب كل ما حوله؛ لأنه ليس له عند علم في هذه المسألة، وكلما زاد علمه، زاد استيعابه للمصالح والمفاسد، والموازنة بينهما في تحقيق مصالح الشريعة.

لذلك من أعظم الأبواب العلمية: باب مقاصد الشريعة، وفقه المآلات، هذا باب عظيم، لا يلج فيه إلا الراسخون في العلم.

وباب مقاصد الشريعة هو أن تقف علىٰ مراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من هذا العمل، ثم تفقه ما يترتب علىٰ هذا العمل (فقه المآلات)، أنت أصبحت ربانيًا، تسير بنور الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يضرك من خالفك؛ لأنك وقفت علىٰ مراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ووقفت علىٰ تحقيق المصلحة في المآل، وربما تكون المصلحة غير متحققة الآن؛ كما في خرق الخضر السفينة، فإذا نظرنا إلىٰ الحال حكمنا علىٰ هذا الفعل بأنه خطأ، ولكنه يصلح في المآل، لذلك استوعبه موسىٰ عليه السلام لما بان له المآل؛ لأنه لم ير المَلِك، ولكنه استنكر الفعل في الحال، فقال: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}، هذا لا يجوز في شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فسكت حتىٰ علم هذا الأمر، فبين له، ففهم.

وكذلك في الغلام، وقع أمرٌ عظيمٌ، كيف تقتل نفسًا معصومة؟ هذا لا يكون في دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أبدًا، العقل لا يصدقه!

لذلك يقولون في قصة موسىٰ والخضر: الشريعة والحقيقة، فالحقيقة كانت عند الخضرة، والشريعة كانت عند موسىٰ عليه السلام، فلما ظهرت الشريعة عارضت الحقيقة، واعترضت عليها، فلما بان للشريعة أثر الحقيقة سلم بها، وآمن بها.

فلا بد من اعتبار هذا؛ فنحن في زمن نحتاج فيه إلىٰ فقه مقاصد الشريعة، وفقه المآلات؛ لأننا مستضعفون، ليس عندنا قوة ومنعة وشوكة، نحن نبذل قصارىٰ جهدنا حتىٰ نكوّن ونبني قاعدة بناء ننطلق منها، حتىٰ يكون لنا شوكة وتهابنا الناس؛ أما الآن فنحن مشرذمون، مستضعفون، متفرقون، لا تجمعنا رأس، ولا دولة، ولا راية، فسنكون مطية لأهل الفساد.

لذلك انظر مثلًا: لما جعل أبو بصير أسيد الثقفي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قاعدةَ انطلاق، ولم يجعلها بعيدة عن دولة الإسلام، جعلها علىٰ ساحل البحر، قريبة من المدينة؛ ردءًا لهم، وبدأت تتوسع هذه القاعدة، وكان وحده فقط، أسس ثم بدأ يجمع، ثم صار هو ملاذًا للمستضعفين في الأرض، فلما سمع به أبو جندل بن سهيل بن عمرو، ذهب مع سبعين من المستضعفين، حتىٰ في بعض كتب السيرة قالوا: وصلوا إلىٰ ثلاثمئة رجل. قوة ضاربة، وأخذ لهم مكانًا وقاعدة انطلاق، يكرون ويفرون، حتىٰ هابهم الكفار [1].

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٣٢٤)، و«البداية والنهاية»: (٦/ ٢٣٦-٢٣٧).

فمسألة الاستضعاف ليست مسألة مستمرة نسلم لها ونخنع لها، لا، بل لا بد من إصلاح هذه المرحلة، لا بد للمسلم والمجاهد أن يرفع هذا الاستضعاف، ويجعله حلف قوة وتمكين؛ كما فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما فعلت النماذج من بعده.

لكن كيف هذا؟ هنا السؤال، إن لم يكن لدي علم، فسأتخبط، وأضطرب وأتعثر، فلا بد أن أتسلح بالعلم، وأستنير به، ولا بد من أسباب القوة.

هذا مهم جدًا في هذه المرحلة.

المتن:

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِذَا اجْتَمَعَتِ الْمَصْلَحَةُ وَالْمَفْسَدَةُ فَالْعَمَلُ عَلَىٰ أَرْجَحِهِمَا:

هُنَاكَ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا تَكُونُ فِيهَا الْمَصْلَحَةُ خَالِصَةً، أَوِ الْمَفْسَدَةُ خَالِصَةً، بَلْ يَجْتَمِعُ الْأَمْرَانِ فِي آنٍ؛ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ التَّعَامُلُ مَعَ أَيٍّ مِنْهُمَا عَلَىٰ انْفِرَادٍ، فَلَا تُحَصَّلُ الْمَصْلَحَةُ إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْمَضَرَّةِ، وَلَا تُزَالُ الْمَضَرَّةُ أَوْ تُدْفَعُ إِلَّا بِإِزَالَةِ الْمَصْلَحَةِ وَدَفْعِهَا، فَإِنْ كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ أَرْجَحَ مِنَ الْمَضَرَّةِ؛ فَإِنَّ الْمَصْلَحَةَ تُحَصَّلُ، وَإِنْ أَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَحْصِيلِ الْمَضَرَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَنْغَمِرُ إِلَىٰ جَانِبِ الْمَصْلَحَةِ الْأَكْبَرِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَضَرَّةُ أَرْجَحَ فَإِنَّهَا تُدْفَعُ، وَإِنْ أَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ دَفْعِ مَصْلَحَةٍ هِيَ أَقَلُّ مِنَ الْمَضَرَّةِ شَأْنًا.

وَمِنْ فُرُوعِ تِلْكَ الْقَاعِدَةِ: فِدَاءُ أَسْرَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَالِ؛ فَتَحْرِيرُ الْأُسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ مَصْلَحَةٌ، بَيْنَمَا ذَهَابُ جُزْءٍ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ الْكُفَّارِ مَفْسَدَةٌ، لَكِنَّ مَصْلَحَةَ تَحْرِيرِ أَسْرَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَرْجَحُ مِنْ مَفْسَدَةِ ذَهَابِ جُزْءٍ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ الْكُفَّارِ؛ فَتُرَجَّحُ. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ تَبَادُلُ الْأَسْرَىٰ، وَإِعْطَاءُ بَعْضِ الْمُؤَنِ لِلْكُفَّارِ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ تَوْصِيلُ الْمُؤَنِ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُحَاصَرِينَ إِلَّا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَائِلِ.

الشرح:

الأصل أن مال الكافر المحارب حلال، فكيف تعطيه مالك يتقوىٰ به؟! كيف تعطيه المال الذي أنت تأخذ بالأسباب، وتعرّض نفسك للخطر للاستيلاء عليه؟!

- أُعطِيه لتحقيق مصلحة أخرىٰ، وهي فداء أسارىٰ المسلمين.

- لكنك مطالب بتجفيف منابع الكفار، وقطع المؤنة عنهم: الماء والشراب؛ حتىٰ يستسلموا، فكيف تعطيهم المؤنة التي يتقوون بها؟

- لأنها ستصل إلىٰ المسلمين فيتقوون معهم، أحفظهم من الموت.

وأقوىٰ من هذه: مسألة التترس؛ والتترس إما أن يكون من الكفار، وإما أن يكون من المسلمين، يعني: إما أن يحتمي الكفار بأسرىٰ المسلمين، أو يحتمي

المسلمون بأسرىٰ الكفار، كيف هذا؟ نقول: هذه موازنة، موازنة بين هذا وبين ذاك.

- وكذلك كيف تسمح لنفسك أن تعيش في بلاد الكفار، وأنت مطالب بهجرانهم، وبقتالهم، وبذبحهم؟

- لتحقيق مصلحة أكبر، للاطلاع عليهم وعلىٰ أسرارهم؛ لأكون عينًا للمسلمين عليهم.

إذن إذا اتسعت فروع القاعدة، اتضحت لك الرؤية.

وهذا من باب الموازنة في مقاصد الشريعة. هذا مهم جدًا في هذه المسألة.

المتن:

وَقَدْ لَخَّصَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ بِكَلَامٍ بَدِيعٍ فَقَالَ: «الشَّرِيعَةُ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، وَأَنَّهَا تُرَجِّحُ خَيْرَ الْخَيْرَيْنِ وَشَرَّ الشَّرَّيْنِ، وَتُحَصِّلُ أَعْظَمَ الْمَصْلَحَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَدْنَاهُمَا، وَتَدْفَعُ أَعْظَمَ الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا»، إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَهَذَا بَابِ التَّعَارُضِ بَابٌ وَاسِعٌ جِدًا، لَا سِيَّمَا فِي الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ الَّتِي نَقَصَتْ فِيهَا آثَارُ النُّبُوَّةِ وَخِلَافَةِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَ تَكْثُرُ فِيهَا، وَكُلَّمَا ازْدَادَ النَّقْصُ ازْدَادَتْ هَذِهِ الْمَسَائِلُ، وَوُجُودُ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اخْتَلَطَتِ الْحَسَنَاتُ بِالسَّيِّئَاتِ، وَقَعَ الِاشْتِبَاهُ وِالتَّلَازُمُ؛ فَأَقْوَامٌ قَدْ يَنْظُرُونَ

إِلَىٰ الْحَسَنَاتِ فَيُرَجِّحُونَ هَذَا الْجَانِبَ وَإِنْ تَضَمَّنَ سَيِّئَاتٍ عَظِيمَةً، وَأَقْوَامٌ قَدْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ السَّيِّئَاتِ فَيُرَجِّحُونَ الْجَانِبَ الْآخَرَ، وَإِنْ تَرَكَ حَسَنَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَالْمُتَوَسِّطُونَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ الْأَمْرَينِ قَدْ لَا يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَوْ لِأَكْثَرِهِمْ مِقْدَارُ الْمَنْفَعَةِ وَالْمَضَرَّةِ، أَوْ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يَعْنِيهِمُ الْعَمَلُ بِالْحَسَنَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَاتِ؛ لِكَوْنِ الْأَهْوَاءِ قَارَنَتِ الْآرَاءَ» (١).

وَالْفِقْهُ الصَّحِيحُ -فِي هَذَا الْبَابِ-: الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ مَا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيمَ، وَتَأْخِيرُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَتَحْصِيلُ مَا حَقُّهُ أَنْ يُحَصَّلَ.

الشرح:

هذه خلاصة هذه المسألة: أن تنظر ما هو الأولىٰ لدينك ولإسلامك، وتفعله، وما هو أولىٰ بالتأخير فتفعله، وليس معنىٰ التأخير أنك تهمله؛ لأنك تتحقق هل هو مصلحة أو مفسدة، ولكن هذه تعارضت معها مصلحة أو مفسدة أخرىٰ.

المتن:

وَدَفْعُ مَا حَقُّهُ أَنْ يُدْفَعَ-، يَحْتَاجُ إِلَىٰ عِلْمٍ صَحِيحٍ بِمَرَاتِبِ الْأَعْمَالِ وَدَرَجَاتِهَا وَتَفَاوُتِهَا.

الشرح:

---

(١) انظر «مجموع الفتاوىٰ»: (٢٠/ ٤٨-٥٨).

هذا الذي نقوله دائمًا، لا بد أن يكون لديك فقه صحيح بمراتب الأعمال ودرجاتها ومآلاتها، ولولا ذلك اضطربت، لولا ذلك تعثرت، لولا ذلك لانقطعت عن الوصول. فلا بد من هذا العلم.

المتن:

فَيُمَيِّزُ بَيْنَ الضَّارِ وَالْأَشَدِّ ضَرَرًا، وَالضَّارِّ الْخَالِصِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ نَفْعٌ، وَالضَّارِّ الَّذِي يَصْحَبُهُ نَفْعٌ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّالِحِ وَالْأَشَدِّ صَلَاحًا، وَالصَّالِحِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَفْسَدَةٌ، وَالصَّالِحِ الَّذِي تُخَالِطُهُ الْمَفْسَدَةُ، وَيُوَازِنُ بَيْنَ الصَّلَاحِ وَبَيْنَ الضَّرَرِ عِنْدَ الِاخْتِلَاطِ، فَيُعْرَفُ أَرْجَحُهُمَا وَأَخْطَرُهُمَا، وَيُعْمَلُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوَاعِدِ.

الشرح:

فلا بد أن يصحبك العلم، طالما أنك تعمل لدين الـلـه، لو غاب العلم عنك لحظة، أو حصل فيه إشكال، أو حصل فيه تداخل، وقع من المفاسد بقدر ما يحصل من ذلك، فنحن نركز علىٰ العلم؛ لأن العلم به نتعبد الـلـه، وبه نجاهد، وبه نتعامل مع الناس... وهكذا.

المتن:

أَخَفُّ الضَّرَرَيْنِ وَالْفَهْمُ الْخَاطِئُ:

يَظُنُّ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَمْ يُحَقِّقِ الْأُمُورَ وَيُدَقِّقْهَا أَنَّ أَخَفَّ الضَّرَرَينِ هُوَ أَيْسَرُهُمَا وَأَسْهَلُهُمْا فِي بَادِي الرَّأْيِ؛ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ أَيَّةِ ضَوَابِطَ أُخْرَىٰ، **وَالْمُرَادُ بِأَخَفِّ الضَّرَرَينِ هُوَ مَا كَانَ أَخَفَّ الضَّرَرَيْنِ بِالْمِعْيَارِ الشَّرْعِيِّ.**

الشرح:

فليس أخف الضررين بأهواء الناس، ولكن بالمعيار الشرعي، بمصالح الإسلام والمسلمين، هذا هو المعيار الشرعي، أما بعقولنا، فلا، هذا فهم خاطئ.

المتن:

وَلَيْسَ بِالْمِعْيَارِ النَّفْسِيِّ أَوِ الْعَاطِفِيِّ؛ فَقَدْ يَكُونُ أَخفُّ الضَّرَرَيْنِ شَرْعًا هُوَ الْأَشَدُّ أَوِ الْأَصْعَبُ فِيمَا يَظْهَرُ؛ فَقَدْ مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قِتَالَهُمْ، وَرَأَىٰ غَيْرُهُ تَرْكَ قِتَالِهِمْ وَمُحَاوَلَةَ تَأَلُّفِهِمْ، وَقَدْ يَرَىٰ الرَّائِي مِنْ بَعِيدٍ أَنَّ نَصْبَ الْقِتَالِ أَمْرٌ شَدِيدٌ، وَأَنَّ الْأَيْسَرَ مِنْهُ تَرْكُ الْقِتَالِ مَعَ مُحَاوَلَةِ تَأَلُّفِهِمْ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْأَخَفُّ ضَرَرًا، وَهُوَ أَهْوَنُ الشَّرَّيْنِ، لَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَفَضَ ذَلِكَ وَأَبَىٰ أَشَدَّ الْإِبَاءِ، وَكَانَ الْقِتَالُ عِنْدَهُ أَخَفَّ الضَّرَرَيْنِ وَأَهْوَنَ الشَّرَّيْنِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يَقْبَلْ مَشُورَةَ مَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ، وَأَقْسَمَ بِالله الْعَظِيمِ بِقَوْلِهِ: «وَالله لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَىٰ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهِ»، وَ(**الْعِقَالُ**): الْحَبْلُ الَّذِي تُوثَقُ بِهِ الْإِبِلُ؛ فَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَا يَنْصِبُ الْقِتَالَ عَلَىٰ حَبْلٍ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ

الزَّمَانِ؛ لَكِنَّ الْأَمْرَ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْخُرُوجِ عَلَىٰ الدِّينِ وَالِامْتِنَاعِ عَنِ الْتِزَامِ بَعْضِ أَحْكَامِهِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ -بَعْدَ تَرَدُّدٍ قَصِيرٍ- عَلَىٰ صَوَابِ رَأْيِ أَبِي بَكْرٍ، وَحَمِدُوا لَهُ مَوْقِفَهُ ذَلِكَ؛ وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عَلَىٰ أَنَّ نَصْبَ الْقِتَالِ لِمَنْ أَبَىٰ الْتِزَامَ شَرَائِعِ اللـه أَوْ بَعْضِهَا أَخَفُّ ضَرَرًا مِنْ تَسْوِيغِ مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهَا.

لو نزلنا هذا المثال هنا، وقلنا لإخواننا: يا إخوان، لا تدخلوا هذه اللعبة الديموقراطية، واللعبة العلمانية، ووفروا ما تنفقونه في هذه الأمور للجهاد في سبيل اللـه، فطريق الجهاد أفضل وأخف ضررًا من هذا، أن تضيّعوا وقتكم في هذا. هم كانوا يقولون: هذا الأصلح والأخف ضررًا في وقتنا؛ لأن وقتنا وقت ضعف.

- وهل معنىٰ الاستضعاف أنك تستسلم للواقع الكافر؟! ادفعه.

أنت تبذل هنا جهدك، وتلوث الإسلام، وشبهة الإسلام، وصلاحه في كل زمان ومكان، كل هذا تضرب به عرض الحائط، مع أنها مفاسد؛ خوفًا من أن تجاهد، خوفًا من أن يقال أنك مجاهد، أو يقولوا أنك متطرف، أو إرهابي، أو غير ذلك، هذا كله ليس من احتمال أخف الضررين. هذا فهم خاطئ لمثل هذه المسألة.

المتن:

فَأَخَفُّ الضَّرَرَيْنِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْقَبُولَ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ الْمُخَالِفِ لِلشَّرِيعَةِ، وَالْإِذْعَانَ لَهُ، وَلَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَمَعَهُ الصَّحَابَةُ إِذْ أَخَذَ هَذَا الْقَرَارَ؛ فَقَدْ أَعَدَّ الْعُدَّةَ لِذَلِكَ، وَجَهَّزَ الْجُيُوشَ وَرَتَّبَهَا وَأَشْرَفَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ هُنَاكَ تَقْصِيرٌ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ؛ وَلِذَلِكَ فَقَدْ كَلَّلَ اللـه جُهُودَ الصَّحَابَةِ بِالنَّجَاحِ، وَأُغْلِقَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ الْفِتْنَةِ، لَوْ فُتِحَ لَضَاعَ الدِّينُ.

الشرح:

هذا هو الفقه، دائمًا تتجرد لقبول الحق، وينشرح صدرك، وتتمسك به، فإذا تمسكت بالحق الذي عندك فيه من اللـه برهان، نصرك اللـه، وأيدك اللـه، بل شرح قلوب العباد لك؛ لأنك صادق مخلص، وعندك علم.

فلذلك كان أبو بكر أفقه الأمة بعد نبيها صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، انظر، وقف وحده في صف الصحابة كلهم، ليسوا صحابة وحسب، بل هم السابقون، ومع ذلك عندما دلَّل علىٰ موقفه، رجعوا كلهم إليه، وحمدوا له هذا، ولذلك يقولون: أفضل مواقف أبي بكر: بعد موت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي فتنة المرتدين.

المتن:

الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: مُرَاعَاةُ الْمَآلِ وَاعْتِبَارُهُ:

فِقْهُ مَآلَاتِ الْأَعْمَالِ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ.

الشرح:

بيَّنَّا هذا، ولكن نريد توضيحًا لهذا الأمر.

المتن:

وَالْمُرَادُ بِالْمَآلِ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ إِلَيْهِ فِي عُقْبَاهُ.

فَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهْجُمَ عَلَىٰ فِعْلِ الشَّيْءِ أَوِ الْإِحْجَامِ عَنْهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ الصَّلَاحِ أَوِ الضَّرَرِ فِي بَادِي الرَّأْيِ.

الشرح:

«بادي الرأي»: الصورة الظاهرة، عندما تفكر في الأمر تظهر لك صورة مباشرة، فالصورة المباشرة هذه خادعة، لا تُقدِم عليها، ولا تُحجِم عنها، إلا بعد أن تدرسها جيدًا، وتعرف المآل، يعني: بعد أن تقوم بهذا العمل، هل يعود علىٰ الإسلام والشريعة بالخير أم بالشر؟ هذا اسمه (فقه المآل)، ما هو مآل عملك؟ ما الذي يؤول إليه؟

أنت الآن تكلمت بكلمة، وانطلقت الكلمة، هل قبل أن تتكلم بها عرفت مآلها؟ هل ستسبب ضررًا للإسلام والمسلمين، أم خيرًا لهم؟ هذا هو المآل.

ربما تأخذك حماسة الشباب، وتنطلق، وتغتر بالمظهر العام، ثم بعد ذلك تندم، يا ليتني لم أقل هذه الكلمة؛ لأنك لم ترَ المآل، لم تر الصورة واضحة هكذا.

المتن:

بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي مَآلِهِ وَعَاقِبَتِهِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ ظَاهِرُهُ الْفَسَادُ، وَعَاقِبَتُهُ وَمَآلُهُ غَيْرُ ذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ ظَاهِرُهُ الصَّلَاحُ، وَعَاقِبَتُهُ أَيْضًا غَيْرُ ذَلِكَ.

وَنَحْنُ هُنَا لَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْمَآلِ الَّذِي هُوَ غَيْبٌ عَنَّا مِمَّا يُقَدِّرُهُ اللـه؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ؛ وَمِنْ ثم عدم الْقُدْرَة عَلَىٰ مُرَاعَاتِهِ، وَإِنَّمَا **مُرَادُنَا** التَّبَصُّرُ فِي الْأُمُورِ لِإِدْرَاكِ الدَّلَائِلِ وَالْقَرَائِنِ الْخَفِيَّةِ الْمُقْتَرِنَةِ بِالْأَمْرِ، الَّتِي لَا تَبْدُو لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، الَّتِي يَتَبَيَّنُ مِنْهَا أَنَّ مَآلَ الْأَمْرِ يَخْتَلِفُ عَنْ مَبَادِيهِ.

وَاخْتِلَافُ الْمَآلِ مَعَ الِابْتِدَاءِ يُتَصَوَّرُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: مِنْ جِهَةِ التَّصَرُّفِ نَفْسِهِ، وَهَذِهِ يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهَا.

الثَّانِي: مِنْ جِهَةِ مُخَالَفَاتِ النَّاسِ وَتَقْصِيرِهِمْ وَوُقُوعِهِمْ فِي الْمَعَاصِي، وَهَذِهِ لَا تُرَاعَىٰ بِإِطْلَاقٍ، وَلَا تُهْمَلُ بِإِطْلَاقٍ، بَلْ لِكُلِّ حَالَةٍ مَوْقِفٌ خَاصٌ بِهَا.

فَمِنَ الْجِهَةِ الْأُولَىٰ: مَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَائِشَةَ: «لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ».

الشرح:

ما الذي فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ راعىٰ المآل؛ خوف الردة والتلاعب، يقولون: هو يتلاعب بالكعبة، إذن هذا ليس بنبي، هذا ليس بدين.

وانظر إلىٰ عظمة الكعبة، وبنائها علىٰ قواعد إبراهيم، انظر إلىٰ هذا العمل الضخم، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمنىٰ أن يفعل هذا، ما الذي يمنعك يا رسول الله؟ عمل مشروع، ويحبه الله ورسوله، ما الذي يمنعك؟

يمنعني المآل، فلما استتب الأمر، أصبح عاديًّا، انتشر الإسلام، ووضحت المفاهيم.

المتن:

فَالرَّسُولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ فِي مَآلِ هَذَا التَّصَرُّفِ الصَّحِيحِ الْمَطْلُوبِ، فَوَجَدَ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ يَنْفِرُونَ مِنْ ذَلِكَ لِحَدَاثَةِ عَهْدِهِمْ بِالْكُفْرِ، فَكَفُّهُ هَذَا الْمَآلَ عَنْ ذَلِكَ التَّصَرُّفِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ وَاجِبًا عَلَى الْفَوْرِ.

الشرح:

فعندنا فعل واجب علىٰ الفور، وفعل واجب علىٰ التراخي، ويتأخر الواجب الفوري لمآل أوجب منه.

أريدك أن تتخيل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يتمنىٰ ويحب أن يغير هذا الأمر، لماذا لا تغيره يا رسول الله؟ لأن هذا مآله يأتي بمفسدة، و هذه المفسدة أكبر من المصلحة الراجحة الآن.

المتن:

وَلِذَلِكَ تَرْجَمَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُ بِقَوْلِهِ: «بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ» قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: «وَفِيهِ اجْتِنَابُ وَلِيِّ الْأَمْرِ مَا يَتَسَرَّعُ النَّاسُ إِلَىٰ إِنْكَارِهِ، وَمَا يَخْشَىٰ مِنْهُ تَوَلُّدِ الضَّرَرِ عَلَيْهِمْ فِي دِينٍ أَوْ دِنْيَا» (١)» (٢).

الشرح:

حتىٰ لو أردت أن أفعل عملًا صحيحًا، ولكن لا يفهمه الناس، فأنا أؤخره حتىٰ يستفيض البلاغ، حتىٰ يفهم الناس، فإذا قلته بعد ذلك قبلوه، أما إذا قلته قبل استفاضة البلاغ، فلن يقبلوه حتما، وسينكروه؛ لأنهم يجهلونه، والإنسان عدو ما يجهل؛ أما عندما يبين لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأدلة، والمآلات، والخير، والمفاسد، والمصالح، يقبلونه.

المتن:

«وَالْكَعْبَةُ هِيَ بَيتُ اللـه فِي الْأَرْضِ، وَقِبلَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ عَظَّمَ اللـه قَدْرَهَا بَيْنَ النَّاسِ، حَيْثُ جَعَلَها مَهْوَىٰ القُلوبِ وَمَقْصَدًا لِلْحَجِّ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَرْوِي التابعيُّ الأسودُ بنُ يَزيدَ النَّخَعيُّ أنَّ عبدَ اللـه بنَ الزُّبيرِ ب قَالَ لَهُ: «إِنَّ عَائِشَةَ ب كَانَتْ تَخُصُّكَ بِبَعْضِ حَدِيثِهَا»، وَسَأَلَهُ عَبْدُ اللـه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ حَدِيثِهَا مَعَهُ الَّذِي كَانَ فِي شَأْنِ الْكَعْبَةِ، فَذَكَرَ لِعَبْدِ اللـه بْنِ الزُّبَيْرِ ب أَنَّهَا

(١) «فتح الباري»: (٣/ ٤٤٨).

(٢) «قواعد في فقه السياسة الشرعية»، لمحمد بن شاكر الشريف.

حَدَّثَتْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسْأَلَةِ هَدْمِ الْكَعْبَةِ، حَيْثُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُرِيدُ هَدْمَهَا، فَيَجْعَلُ لَهَا بَابَيْنِ، بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تُعَظِّمُ أَمْرَ الْكَعْبَةِ جِدًّا، فَخَشِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَظُنُّوا -لِأَجْلِ قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِتَرْكِ الْكُفْرِ وَدُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ- أَنَّهُ غَيَّرَ بِنَاءَهَا لِيَنْفَرِدَ بِالْفَخْرِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

الشرح:

انظر هنا، الكلام لعبد الله بن الزبير، عبد الله هنا فهم ماذا من هذا الحديث، الذي هو العمل بالعلم، أو تطبيق العلم علىٰ الواقع؟ فهم أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتنع من هذا في وقته، خوفَ حصول المفسدة، والآن أنا أريد أن أطبق ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهواه؛ لأنه زالت المفسدة، فقام وغير الكعبة، وفتح لها بابان: باب هنا، وباب هنا، وأقامها علىٰ قواعد إبراهيم.

فلما جاء الحجاج، رماها بالمنجنيق فهدمها، ثم جاء يريد أن يبنيها علىٰ القواعد، فقال: لا، أجعلها علىٰ ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما جاءت الدولة العباسية علىٰ أنقاض الدولة الأموية، قالت: لا، نجعلها علىٰ ما كانت عليه زمن بني أمية، فنفتحها، فقالوا: لا، لا تجعلوها ألعوبة بيد الناس.

المفسدة هنا أكبر، مع أنه لا يوجد ضرر، قالوا: لا، لا تجعلوها ألعوبة في أيدي الحكام، هذا بيت الله يُعظم، فاتركوه علىٰ ما هو عليه. انظر إلىٰ هذا الفقه، استقامت الدنيا به، وتخلف يؤذن بالاضطراب.

المتن:

وَهَذَا التَّغْيِيرُ فَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرُ ب، يَعْنِي بَنَىٰ الْكَعْبَةَ عَلَىٰ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ الْحَجَّاجُ فَرَدَّهَا كَمَا كَانَتْ، وَتَرَكَهَا مَنْ بَعْدَهُ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَتَلَاعَبَ النَّاسُ بِالْكَعْبَةِ، فَيَكْثُرَ هَدْمُهَا وَبُنْيَانُهَا، فَتَذْهَبَ هَيْبَتُهَا مِنْ صُدُورِ النَّاسِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: تَرْكُ الْمَصْلَحَةِ لِأَمْنِ الْوُقُوعِ فِي الْمَفْسَدَةِ.

وَفِيهِ: تَرْكُ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ خَشْيَةَ الْوُقُوعِ فِي أَنْكَرَ مِنْهُ.

وَفِيهِ: أَنَّ الْإِمَامَ يَسُوسُ رَعِيَّتَهُ بِمَا فِيهِ إِصْلَاحُهُمْ وَلَوْ كَانَ مَفْضُولًا، مَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا.

وَفِيهِ: تَأْلِيفُ وَلِيِّ الْأَمْرِ قُلُوبَ رَعِيَّتِهِ؛ لِئَلَّا يَنْفِرُوا، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِمَا يُخَافُ أَنْ يَنْفِرُوا بِسَبَبِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَرْكُ أَمْرٍ شَرْعِيٍّ»[١].

---

(١) الموسوعة الحديثية علىٰ موقع الدرر السنية الشبكي عند شرح حديث الأسود: قَالَ لي ابنُ الزُّبَيْرِ: كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إلَيْكَ كَثِيرًا فَما حَدَّثَتْكَ في الكَعْبَةِ؟ قُلتُ: قَالَتْ لِي: قَالَ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا

«وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَدَمُ قَتْلِ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُنَافِقِينَ وَتَعْلِيلُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»» [(١)].

وَقَدْ فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْمُقَدِّمَةِ، وَقُلْنَا هُنَاكَ أَنَّ هَذَا وَجْهٌ مِنَ الْوُجُوهِ مَرْجُوحٌ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُم لِعَدَمِ ثُبُوتِ التُّهْمَةِ عَلَيْهِمْ بِأَدِلَّةِ الثُّبُوتِ، وَدَفَعُوهَا بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ.

الشرح:

لأن المآل غير واضح، العرب الذين يريدون أن يدخلوا في الإسلام، عندما يسمعون أن محمدًا يقتل أصحابه لمجرد كلمة قالها، لمجرد كلمة يقتل؟! هذا دين هذا؟ فهنا المآل غير واضح، فلما وضح المآل زال السبب.

المتن:

«وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا أَرَادَ قَتْلَ ابْنِ صَيَّادٍ - عَلَىٰ أَسَاسِ أَنَّهُ الدَّجَّالُ - كَمَا فِي الصَّحِيحَينِ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ».

عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ -قَالَ ابنُ الزُّبَيْرِ- بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وبَابٌ يَخْرُجُونَ فَفَعَلَهُ ابنُ الزُّبَيْرِ.

(١) «قواعد في فقه السياسة الشرعية» لمحمد بن شاكر الشريف، و«شرح كتاب مقدمة التوحيد» للمؤلف.

الشرح:

إذا كان ابن الصياد هو المسيخ، فأنت لست بقاتله يا عمر، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أن الذي يقتل الدجال هو عيسىٰ عند باب لد، بالحربة، يذوب كما يذوب الملح، في فتن أشراط الساعة.

فإذا كان يا عمر، ابن الصياد هو المسيخ، فأنت لست بقاتله، فاتركه، وإن لم يكن هو، فلا خير لك في قتل معصوم الدم، هو كان يهوديًا، ثم بعد ذلك أسلم، فكيف تقتله؟ فهذا ظن واحتمال، ابتعد عنه؛ لأنه لو كان هو قطعًا، فأنت لست بقاتله، حتىٰ لما ذهب إليه النبي يتلصص (يتصنت؟) عليه؛ أيقظته أمه، قالت: محمد يا صاح. استيقظ، قال: والله لو تخبره لتبينه.

حتىٰ بعد ما أسلم ابن صياد هذا، ودخل في الإسلام، وذهب إلىٰ الحج، ورجع، كان عنده شيء من رَئِيِّه من الجن، عنده شيء من المس، عنده من الشيطان، كان يقول كلامًا يخوّف الناس، يخافون منه، فكان له دلالة، لكن النبي أخبر أنه ليس هو.

المتن:

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا فَعَلَهُ الْخِضْرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إِقَامَتِهِ لِلْبَيْتِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ عَلَىٰ مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: قَبُولُ تَوْبَةِ الْمُحَارِبِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَإِسْقَاطُ الْعُقُوبَاتِ عَنْهُ؛ فَإِنَّ عَدَمَ قَبُولِ تَوْبَتِهِ وَعَدَمَ إِسْقَاطِ الْعُقُوبَاتِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ مَزِيدِ الْإِفْسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمُحَارِبُ غَيْرَ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ مِنْ خَطَرِهِ وَضَرَرِهِ؛ بَيْنَمَا قَبُولُ تَوْبَتِهِ وَإِسْقَاطُ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ يَدْعُوَانِهِ إِلَىٰ الْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَالْكَفِّ عَنْ جَرَائِمِهِ.

الشرح:

وهذا الذي فعله النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندما قبل توبة بعض المرتدين؛ لما شفع فيهم عثمان، مثل: عبد الله بن أبي السرح، حسن إسلامه، وكان أسدًا، وكذلك أبو سفيان بن حرب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ عندما دخل في هذا، لما كانت معركة اليمامة، وقف علىٰ ابنه يزيد، وعلىٰ ابنه معاوية، وقال: «اليوم يوم النصر، اليوم موقف نرد به موقفنا ضده، (لم أجد هذا النص) وقاتل قتالًا شديدًا[(١)]، لماذا؟ هو قُبلت توبته، وحسن إسلامه، وبدأ يفعل أعمالًا تَجُبُّ هذه المصائب التي كان يعملها، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سخره.

المتن:

وَبِالنَّظَرِ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَآلِ جَاءَ التَّشْرِيعُ بِإِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ عَنِ الْمُحَارِبِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ إِذَا تَابَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ

(١) انظر «البداية والنهاية»: (٩/ ٥٦٥-٥٦٦).

وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾} [المائدة: ٣٣-٣٤].

الشرح:

انظر إلىٰ عكرمة بن أبي جهل؛ كان أسدًا في الجاهلية، وأسدًا في الإسلام، ولما ذهبت إليه امرأته، وهو علىٰ سِيْف البحر، يريد أن يركب، قالت: «تعالَ، إني قد استأمنك لك محمدًا»[1]، ماذا فعل هو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه؟

حتىٰ أن خالدًا -وهو ابن عمه- كان يفتخر به، ويقول: «انظروا، نحن لا نهاب الموت»، عكرمة هذا كان أسدًا هصورًا، قال: من يبايعني علىٰ الموت؟ فقام أربعون رجلًا ما رجع منهم واحد، حتىٰ مات رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هذا الإسلام يدعوك الىٰ هذا، عندما توازن بين المصالح والمفاسد، وتفتح الأبواب للخير، الناس يسيرون فيه، أما أن تغلقه، وتضيقه عليهم بجهل، يكرهون الإسلام.

المتن:

وانظر كتاب «جامع الأحاديث» للسيوطي (٣٥/ ٣٥٩)، و «جمع الجوامع» للسيوطي (٢٠/ ٥٦٥، ٥٦٦).

وَمِنَ الْجِهَةِ الثَّانِيَةِ: جِهَةِ تَقْصِيرِ النَّاسِ وَوُقُوعِهِمْ فِي الْمَعَاصِي:

قَدْ يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَسْتَوْجِبُ إِقَامَةَ الْحَدِّ عَلَيْهِ، وَإِنَّ إِقَامَةَ الْحَدِّ قَدْ تَدْفَعُ الْمَحْدُودَ إِلَىٰ الْهَرَبِ إِلَىٰ دُوَلِ الْكُفْرِ، وَاللَّحَاقِ بِهِمْ، وَبِالنَّظَرِ إِلَىٰ هَذَا الْمَآلِ؛ فَإِنْ كَانَ تَحَقُّقُ ذَلِكَ مُمْكِنًا قَوِيًا فِي الْوَاقِعِ، فَإِنَّ الْحَدَّ يُؤَخَّرُ إِلَىٰ حِينِ انْتِفَاءِ ذَلِكَ.

الشرح:

هذا يؤخر، ولا يُلغىٰ ولا يبطل، لكن يؤخر تنفيذه.

لما أرسل أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعمر؛ قال: «عندي اثنان شربا الخمر، أفأحدُّهما؟»، فقال: «إياك أن تفعل هذا»، يقول لمن؟ أريد أن أبين لكم أمرًا مهمًّا جدًا، وهو أن هذا الكلام ليس بين الغليفي وبين إخوانه وطلبة العلم وغير ذلك، وإنما هو بين صحابيين، بين عمر وأبي موسىٰ الأشعري، صحابيان كبيران، ومع ذلك اختلط عليه الأمر.

فأبو موسىٰ أعمل الأصل، قال: هذا شرب الخمر، كيف نؤجل الحد؟ هذا تغيير لحدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا حكم بغير الشريعة، لا بد أن يُقام عليه الحد، ولكن كان هناك أمير، كان رأس، كانت دولة، قال: أستشير. فلما أرسل له، عمر كان أفقه وكان أعلم، والعلم يسود، العلم دائمًا يسودك، قال: «إياك

أن تفعل»، قال: «ولمه؟»، قال: «فيغضبان وأنت بأرض كفار، فيلحقان بالكفر، فتفقد إسلامهما من أجل حد واجب»[(١)].

وهذا يدلك علىٰ أن المجاهد بشر، يعتريه ما يعتري البشر، لا يمنع أنه يقع في المعاصي، يشرب الخمر، ما هي بمشكلة، ولكن هل يخرج من الإسلام؟ لا، أنا أريد أن أقول لك أن هذه طبائع البشر، لا تكفره من أجل شرب الخمر. هل معنىٰ أنه يجاهد أنه لا يقع في المعاصي، معصوم من المعاصي؟ لا، ما قال لك هذا، من قال أن المجاهد معصوم؟! لا.

فانظر إلىٰ هذا الفقه، فهنا قدم الإسلام علىٰ الحد؛ حتىٰ يرجعوا إلىٰ البلاد ويقيموا الحد.

أنا أقصد أريد المسألة هنا، الفهم، هل لمَّا ذهب أبو موسىٰ الأشعري لهذا، وأراد إقامة الحد عليهما، كان مخطئًا؟

في الأصل لا، هو يريد أن يطبق الشرع، أنت ارتكبت ما يوجب حدًا، فأنا أقيم عليك الحد، ما المشكلة في هذا؟

لكن لما استشار، وهنا فائدة الشورىٰ، لا تستقل بفهمك عن العلماء، لا تستقل بفهمك عن أولي الأمر، لا تستقل أبدًا، شاور إخوانك، شاور أهل

---

(١)

العلم، اللـه قال لك هذا: {فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ}، اسألوا أهل العلم، ألم يكن أبو موسىٰ من أهل العلم؟! هذا كان صحابيًّا كبيرًا، لكن يوجد أعلم منه، لم يستقل برأيه، ويقول: أنا رأيي صحيح. لا، أسأل، فلما سأل، اتضح له أن رأيه خطأ، لماذا يا أمير المؤمنين؟ لأنه يترتب عليه، ويؤول إلىٰ شر أكبر منه، فالمعصية خير من الكفر، هم عصاة لكنهم مجاهدون، أنت الآن تنقلهم إلىٰ الكفر.

المتن:

وَإِنْ كَانَ تَحَقُّقُهُ بَعِيدًا، فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الِالْتِفَاتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ مُبْطِلٌ لِلْحُدُودِ كُلِّهَا، وَفِي ذَلِكَ جَاءَ التَّشْرِيعُ بِعَدَمِ إِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْحَرْبِ؛ فَقَدْ وَرَدَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَإِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ لِابْنِ الْقَيِّمِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ قَوْلُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا تُقْطَعُ الْأَيْدِي فِي الْغَزْوِ»، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «وَالْعَمَلُ عَلَىٰ هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمُ الْأَوْزَاعِيُّ لَا يَرَوْنَ أَنْ يُقَامَ الْحَدُّ فِي الْغَزْوِ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَلْحَقَ مَنْ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ بِالْعَدُوِّ؛ فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ مِنْ أَرْضِ الْحَرْبِ، وَرَجَعَ إِلَىٰ دَارِ الْإِسْلَامِ، أَقَامَ الْحَدَّ عَلَىٰ مَنْ أَصَابَهُ»[1].

الشرح:

---

(١) «شرح سنن أبي داوود» لابن رسلان: (١٧/ ٣٤٤).

وهذا فيه مسألة فقهية مهمة جدًا؛ ألا وهي مسألة العمل بالحديث عند أهل العلم، فأحيانًا يكون الحديث ضعيفًا، والعمل عليه عند أهل العلم، وأحيانًا يكون الحديث صحيحًا، بل في أعلىٰ درجات الصحة، ولا يكون العمل عليه عند أهل العلم.

لماذا؟ قال: لطبائع الناس في الشرع، الشرع يراعي طبائع الناس، فهذا الحديث قال بعض العلماء: في سنده ضعف. ثم بعد ذلك كان العمل عليه عند أهل العلم، يأخذون به، لا يقومون مثل هذا.

وإذا كان الحديث صحيحًا، وليس العمل عليه، كحديث ابن عباس في الصحيح: أنه جمع من غير سفر، ولا مطر، ولا مرض، أنت لست مسافرًا، ولا مطر، فكيف تجمع؟ قال: من باب تخفيف الضرر علىٰ المسلمين، من باب رفع المشقة عن المسلمين(١)، هذا ليس عليه أهل العلم، لكن لو عمل به لكان أصلًا.

نضرب لهذا مثالًا: أنت جئت من سفر بعيد، وقبل العشاء عند المغرب، ولو نمت، وأنت مرهق، لما استيقظت لا للعشاء ولا للفجر، فيجوز لك أن

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، رقم: (٧٠٥)، من حديث ابن عباس، ولفظه: صَلَّىٰ رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا بالمَدِينَةِ، في غيرِ خَوْفٍ، وَلَا سَفَرٍ. قالَ أَبُو الزُّبَيْرِ: فَسَأَلْتُ سَعِيدًا: لِمَ فَعَلَ ذلكَ؟ فَقالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ كما سَأَلْتَنِي، فَقالَ: أَرَادَ أَنْ لا يُحْرِجَ أَحَدًا مِن أُمَّتِهِ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ: قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَا أَرَادَ إِلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَرَادَ أَنْ لَا يُحْرِجَ أُمَّتَهُ.

تجمع وتقصر في هذه الحالة، وتقدم العشاء، وأنت مقيم ولست مسافرًا، ولا مطر، إن فعلت هذا في بعض الأحيان فأنت رفعت المشقة عنك، من باب رفع الحرج، لكن هل هذا عليه أهل العلم؟ لا، حتىٰ أن العلماء لا يذكرونه ولا يفصلون فيه، حتىٰ لا يركن الناس إلىٰ مثل هذا، ويجعلوها الشيعة يصلون ثلاث صلوات فقط.

انظر إلىٰ فقه المآل، يا إخوان، العلم نور، العلم ينورك، العلم يفقهك، العلم يرفعك، فلا بد أن تغوص في هذا العلم؛ لذلك أنتم ربما تستغربون عندما أقول لكم: لا بد أن تقرأ أكثر من خمس عشرة ساعة يوميًا، أنت تستغرب؛ كيف أقرأ خمس عشرة ساعة؟ نقول: هذه لذة العلم، عندما تبحث كل يوم مسألةً جديدة، وتقف علىٰ علم جديد ينورك، ويقربك إلىٰ ربك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تشعر بلذة وقيمة الحياة، وأنك في نعمة.

المتن:

الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: تَقْدِيمُ الْأَهَمِّ أَوِ الْأَوْلَىٰ:

الْأُمُورُ لَيْسَتْ كُلُّهَا عَلَىٰ وِزَانٍ وَاحِدٍ؛ فَبَعْضُهَا مُهِمٌ وَبَعْضُهَا أَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً، وَبَعْضُهَا نَتَائِجُهُ أَعْظَمُ وَفَضْلُهُ أَكْثَرُ، وَالْقُدْرَةُ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ فِي الْوَاقِعِ أَقْوَىٰ.

فَإِذَا تَعَارَضَتِ الْأُمُورُ وَتَضَايَقَتْ، وَلَمْ يُمْكِنْ تَحْقِيقُهَا جَمِيعًا؛ إِمَّا لِضِيقِ الْوَقْتِ، وَإِمَّا لِلْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِمَّا لِلتَّعَارُضِ، فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ الْأَهَمُّ أَوِ الْأَوْلَىٰ ثُمّ الَّذِي يَلِيهِ وَهَكَذَا.

وَيَتَحَدَّدُ الْأَوْلَىٰ مِنْ خِلَالِ عِدَّةِ عَنَاصِرَ: الْفَضْلُ وَالْأَهَمِّيَّةُ، وَالنَّتَائِجُ الْمُتَوَقَّعَةُ، وَالْقُدْرَةُ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ وَالتَّنْفِيذِ؛ فَقَدْ يَكُونُ أَمْرٌ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرٍ، لَكِنْ لَا قُدْرَةَ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ، فَيَكُونُ الْبَدْءُ بِتَنْفِيذِ الْأَقَلِّ فَضْلًا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَوْلَىٰ لِلْقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّنْفِيذِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ تَقْدِيمِ الْأَوْلَىٰ قَوْلُ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذٍ عِنْدَمَا بَعَثَهُ دَاعِيًا إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللـه، أَنْ يُوَحِّدُوا اللـه تَعَالَىٰ...» الْحَدِيثُ.

إِذْ تَوْحِيدُ اللـه وَعِبَادَتُهُ وَتَرْكُ الشَّرِيكِ أَوْلَىٰ قَضِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ فَائِدَةٍ لِعِبَادَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ زَكَاةٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، إِذَا فُقِدَ ذَلِكَ الْأَصْلُ؛ لِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ هِيَ الْأُوْلَىٰ وَالْأَهَمُّ، وَلِذَا كَانَتْ لَهَا الْأَوَّلِيَّةُ فِي الدَّعْوَةِ.

وَقَدْ يَتَّفِقُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَىٰ أَصْلِ تِلْكَ الْمَقُولَةِ، لَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي تَنْزِيلِهَا عَلَىٰ الْوَاقِعِ، فَيَكُونُ مَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ عِنْدَ جَمَاعَةٍ مُؤَخَّرًا عِنْدَ غَيْرِهِمْ،

وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ تُقَسَّمَ الْأَوْلَوِيَّاتُ فِي هَذَا الصَّدَدِ إِلَىٰ نَوْعَيْنِ: **أَوْلَوِيَّاتٍ مُطْلَقَةٍ، وَأَوْلَوِيَّاتٍ نِسْبِيَّةٍ.**

أَمَّا (**الْمُطْلَقَةُ**) فَهِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْإِسْلَامِ نَفْسِهِ كَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَكَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ وَكَبَائِرِ الذُّنُوبِ. وَهَذِهِ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ وَالْأَمْكِنَةِ.

الشرح:

«وهذه يحتاج إليها في جميع الأزمان والأمكنة» إلىٰ يوم القيامة، الدعوة إلىٰ التوحيد، والتحذير من الشرك، أولوية لا تعدلها أولوية، حتىٰ عند الكفار الأصليين، حتىٰ عند المحاربين؛ «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك**»، الإسلام لا يدعو للدم، ولا يدعو إلىٰ القتل، ولا عنده شهية إلىٰ سفك الدماء، الإسلام يريد أن يحكم شرعه في الأرض، الإسلام يريد من الناس أن يدخلوا في دين الله أفواجًا، هذا هو الأصل، أن يدخل الناس في الإسلام، لا نريد دماءهم ولا أموالهم، فقط نريد أن يدخلوا في الإسلام، فإذا دخلوا في الإسلام بغير قتال، فنحن كسبنا.

المتن:

وَأَمَّا (**الْأَوْلَوِيَّةُ النِّسْبِيَّةُ**) فَهِيَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ ظَرْفَي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ؛ فَقَدْ يَنْتَشِرُ جَهْلٌ بِقَضِيَّةٍ شَرْعِيَّةٍ فِي مَكَانٍ وَيَنْتَشِرُ الْجَهْلُ بِقَضِيَّةٍ أُخْرَىٰ فِي مَكَانٍ

آخَرَ، فَيَكُونُ الْأَوْلَىٰ فِي كُلِّ مَكَانٍ الْحَدِيثَ عَنِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا، وَقَدْ يَنْتَشِرُ فَسَادٌ فِي مَكَانٍ وَيَنْتَشِرُ فَسَادٌ آخَرُ فِي مَكَانٍ آخَرَ، فَيَكُونُ الْأَوْلَىٰ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ فِي كُلِّ مَكَانٍ الْفَسَادَ الْمُنْتَشِرَ فِيهِ.

وَتَقْدِيمُ الْأَهَمِّ أَوِ الْأَوْلَىٰ لَا يَعْنِي التَّقْلِيلَ مِنْ أَيَّةِ شَعِيرَةٍ أَوْ شَرِيعَةٍ جَاءَتْ بِهَا النُّصُوصُ وَلَوْ كَانَتْ فِي بَابِ السُّنَنِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، كُلُّ مَا هُنَالِكَ أَنْ نُنَزِّلَ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمُنَزَّلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا الشَّارِعُ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ تَعَدٍّ أَوْ تَجَاوُزٌ لِلشَّرْعِ، كَمَا لَا يَكُونُ تَفْرِيطٌ أَوْ تَقْصِيرٌ عَنْهُ، وَقَدْ **قَسَّمَ أَهْلُ الْعِلْمِ أُمُورَ الشَّرْعِ وَمَصَالِحَ الْعِبَادِ إِلَىٰ ثَلَاثِ مَجْمُوعَاتٍ:**

أَوَّلُهَا: الضَّرُورِيَّاتُ. **وَثَانِيهَا**: الْحَاجِيَّاتُ. **وَثَالِثُهَا**: التَّحْسِينَاتُ.

فَالضَّرُورِيُّ مُقَدَّمٌ عِنْدَ التَّعَارُضِ عَلَىٰ الْحَاجِيِّ، وَكَذَلِكَ الْحَاجِيُّ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ التَّحْسِينِيِّ.

تِلْكَ بَعْضُ الْقَوَاعِدِ فِي فِقْهِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ قَوَاعِدُ نَظَرِيَّةٌ، مِنَ الْمُمْكِنِ مَعْرِفَتُهَا لِكَثِيرٍ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، وَأَمَّا تَطْبِيقُهَا وَتَحْقِيقُ مَنَاطِهَا فِي الْوَاقِعِ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ» (١).

الشيخ:

---

(١) «قواعد في فقه السياسة الشرعية»، لمحمد بن شاكر الشريف.

إذا ضعفت الأمة فالرأس مريض، الدولة كالجسد إن لم يشعر الرأس بالجسد والبدن، سقطت وماتت.

وأسباب سقوط الدولة: أن الرأس لا يشعر بالجسد، لا يشعر به، ولا يجعله في حياته، لذلك تسقط الدولة.

(هذا الكلام جاء في أول الدرس، وليس مرتبطا بهذا الموضع من المتن)

المتن:

السياسة الشرعية ترتكز في تحقيق أهدافها علىٰ مبدأ مهم، وهو مبدأ التدرج، فقد بدأ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة إلىٰ توحيد اللـه عَزَّوَجَلَّ، وإصلاح الفطرة، ثم بنىٰ علىٰ ذلك الأساس المتين دولة الإسلام، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رفيقًا في تعامله، لا ينتصر لنفسه، بل يُغَلِّب مصلحة الدعوة ووحدة الأمة.

الشرح:

إذن أسباب قوة الدولة وشوكتها: إدراك العدو الخارجي المتربص، هذا مهم جدًا، والترابط الداخلي، هذه قواعد لا بد أن تنتبه لها.

إذن أسباب قوتها: أن تدرك المخاطر التي تحيط بك، والعدو المتربص بك، وتدرسه أكبر من دراستك لنفسك؛ لأنه لا يهدأ كذلك في دراستك.

ثم الترابط الداخلي، هذا يجعلك قويًا متماسكًا مطمئنًا، لا يستطيع أحد أن يفت في جسدك، لماذا؟ لأنها كالجسد الواحد.

فهذا أصل السياسة الشرعية في إقامة الدولة.

المتن:

سياسة الأنبياء لشعوبهم وأقوامهم:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن من نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العباد أن كرمهم وشرفهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالبصيرة، وهي العقول التي أنار الله عَزَّوَجَلَّ بها الإنسان، وفضله على غيره.

وأعظم من ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل تلك البصيرة نورًا وهدى، يسير بها الإنسان في ظلمات الآراء والأهواء والشهوات، وجلَّى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك بكتبه المنزلة على رسله وأنبيائه، فكان الأنبياء يحملون النور والمشعل لإنارة العقول، وتبديد الظلام فيها، والسياسة التي توصلهم في ذلك إلى الغاية التي يريدونها، فتجردوا من حظوظ النفس والأهواء والشبهات والشهوات، ليصلوا إلى الغاية المنشودة؛ لهذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ أنبيائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قادة في الدين والدنيا، وهم ساسة في إيصال الحق، يسوسون النفوس، ويسوسون الأفراد،

ويسوسون الدول والحكام، يسوسون الرجال والنساء، ويسوسون الصغار، ويسوسون عمالهم، ويسوسون أيضًا إنفاق الأموال.

ولهذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم كلما ذهب نبي خلفه نبي بعده».

الشرح:

فأعظم أسباب فشل الأمة، وهزيمتها: النزاع في الجزئيات زمن صراع الكليات، زمن صراع الكليات هذا يغيب عن السياسة، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ساسوا الأمة في جميع هذه النواحي، لا بد أن يسوسوا هذه الأمة؛ لأنا قلنا: الأمة كالجسد الواحد، فأنت تحافظ علىٰ الجسد بأطرافه جميعًا، فإن لم تكن مؤهلًا، فأنت تكون سببًا في هزيمة الأمة، لا بد من هذا أولًا.

المتن:

الحكمة من سياسة الأمور:

معنىٰ السياسة أن الإنسان بطبعه برأيه بقوله بفعله يخرج عن الجادة مع طول الزمان وتقادمه، وذلك أن الإنسان في داخله شيء من مطامع النفس وهواها، ربما يصورها علىٰ أنها آراء أو أقوال حقيقية، ثم يحيد أو يحيد مع الزمن إلىٰ غير مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشرح:

إذن كيف تحقق الدولة أهدافها؟ تحققها بالسياسة الشرعية، كيف؟

أولًا: بفقه الأولويات.

ثانيًا: بترتيب الأعمال.

ثالثًا: بإدراك العدو الخارجي.

رابعًا: بالترابط الداخلي. هذا مهم جدًا.

خامسًا -وهو الأهم-: التدرج في التطبيق الشرعي، ويُقبَل ما هو قادر، ويُنظَر ما هو عاجز. هذا مهم جدًا في هذه المسألة.

المتن:

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد جعل في الإنسان فطرة ونزوة، وهي جانب الشهوات، جوانب الشهوات لا حد لها ولا حصر، وهي التي تنبت عليها الآراء والأفكار والشبهات، ثم بعد ذلك تتحول علىٰ أنها مدارس فكرية ونظرية في ذلك، وإنما هي غرائز.

الشرح:

فأول شيء: إصلاح الفطرة من الجاهلية التي تلوثت بها، ومن العادات الحاكمة؛ لأن -كما قلنا- الأمة كالجسد، والجسد لا يديره إلا قلب واحد، {مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ}، هل سمعت أن قلبين في جسد واحد؟ فالأمة كذلك تصدر عن قلب واحد، عن رأي واحد.

فإذا رأيت الاضطراب في الأمة، وإذا كان الخطاب مرتعشًا، فاعلم أنه لم يكتبه إلا واحد؛ لأنه بَعُدَ عن الشورىٰ، بَعُدَ عن التمكن، بَعُدَ عن القوة، فتجده مضطربًا، أما إذا كان في جماعة، وأمة، وشورىٰ، تجد الأمر سديدًا.

وفهم هذا مهم في هذه المرحلة.

المتن:

لهذا ما من شبهة، ولا يوجد رأي شاذ، إلا وأصله قد نبت عن شهوة وغريزة، وهذه الغريزة لا يبوح بها صاحبها، وإنما يشرعها بشيء من الرأي، فإذا الظالم أراد أن يستحوذ بالمال لحبه للمال، بحث عن مشرع له، ثم أصبح بعد ذلك دينًا وشريعة، فإذا أحب الإنسان غريزة السمع والبصر والشهوة من جهة فرجه، أو مطعمه، أو تملكه، أخذ ذلك عن طريق الشهوة، ثم أراد بعد ذلك أن يسول له أن هذا من العمل المباح، وأخذ يُنَظِّر له.

الشرح:

إذن من أعظم أسباب النصر: الاجتماع علىٰ التوحيد والسنة، والعمل بهما، يرد شهوات النفس، لا يجعلها تفعل هذا.

كذلك كل عمل يا إخوة، -وافهموا هذا جيدًا- كل عمل لا يثمر في الأمة إلا بالوحدة والاجتماع، كل عمل استطعت أن تفعله لا يثمر في الأمة إلا

بالوحدة والاجتماع، والوحدة والاجتماع بهما صلاح الدين والدنيا، وصلاح الدين والدنيا لا يكون إلا برأس يجتمعون عليه.

هذه لا بد أن تَنْقُشَها علىٰ قلبك، ولا تغيب عنك؛ حتىٰ تستفيد مما تتعلم، اِسْعَ في الفكرة، ولا تيأس، ويحدوك دومًا الأمل، أن الناس سيفهمون، النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لو تسلل إليه هذه الفكرة -التي هي اليأس، وأن الناس لا يفهمون ولا يستوعبون- ما كان أقام الدين، ولكنه يفهم عقول للناس، ويفهم أن هذا يحتاج إلىٰ صبر، بل يحتاج الىٰ نفس طويل، وحلم، وعلم، وحكمة، حتىٰ يفهم الناس حقيقة ما يقوم به النبي. المصيبة أن الناس لا يدركون أهمية ما يسعون إليه؛ لذلك تجدهم يتخبطون في مثل هذه الأمور.

المتن:

ولهذا لما كانت الشبهات متلازمة مع هذه الشهوات، وتتزاوج وتنتج بعد ذلك عقائد فاسدة، جاء الله بالأنبياء، وجاء الله عَزَّوَجَلَّ بالرسل، جاء الله عَزَّوَجَلَّ بنُذُر الحق، وأنزل عليهم الكتب ليسوسوا الناس، ويعيدوهم إلىٰ جادة الحق، لهذا إذا ترك الإنسان لنفسه العنان، واسترسل بخطراتها، فللنفس وساوس، ولها غرائز، تتزاوج الأهواء والأفكار بالشبهات، حتىٰ تنتج من ذلك مدارس بعيدة عن منهج الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الشرح:

فالانحراف يبدأ باتباع الهوىٰ وحب الشهوات، ثم التدرج في هذه الشهوات، ثم الاستمراء، وإيجاد المبررات لهذه الشهوات، وإيجادها بنفسه؛ لأنه استمرأها. فبماذا تقطعها؟ تقطعها بالعلم والمتابعة، لا بد أن تتابع؛ لأن النفس موجودة، والشيطان موجود، فلا بد أن تتابع مدىٰ قبول النفس لهذه الشهوات، وتقطعها عندها، أنت تقطعها عند هذه المسألة.

المتن:

لهذا في قول النبي صلىٰ عليه وسلم: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياء، كلما ذهب نبي خلفه نبي بعده» المراد من هذا: أن الناس كحال القافلة التي تسير في الأرض مع طريقهم يتيهون عن ذلك، ويتفرقون جماعات، ينفرد منهم أناس يمنة ويسرة، ويأتي النبي ويقوم بجمع الناس وإعادتهم إلىٰ تلك الجادة، هكذا كلما هلك نبي جاء نبي بعده، يعني أنه لا بد من المتابعة حتىٰ يستقيم أمر الأمة.

الشرح:

لا تيأس، لا تقل: أنا ليس عندي الآن من يعينني علىٰ الخير، لا أجد علىٰ الخير أعوانًا. ابدأ بمن معك، وتابع، ثم بعد ذلك لا تيأس أبدًا، ارسم الطريق، ثم وضحه جيدًا، ووضح معالمه، وسيأتي من يسير علىٰ هذا الطريق من بعدك، حتىٰ لو كنت وحدك، انظر كما جاء في الصحيح، أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يأتي النبي وليس معه أحد**»، لم يكن معه أحد، لم يؤمن بفكرته أحد، ولا بدينه

أحد أبدًا، «**والنبي يأتي ومعه الرجل والرجلان**»[(١)]، إذن هذا يجعلك لا تيأس، يجعلك تحاول، هذا نبي، ومؤيد من السماء، ومع ذلك لم يترك الأسباب، لم يتطرق إليه اليأس، ويقول: أنا دعوت سنة سنتين ثلاثة، ولما ينتبه لي أحد، ما الذي أفعله أنا؟ لا أترك هذا الطريق.

أنا أبين لك طريق الأنبياء؛ حتىٰ تتضح لك معالم الطريق، فإن لم تتضح لك معالم الطريق، فاعلم أنك لا تستطيع أن تخطو خطوة في هذا الطريق.

فلا بد أن تستنير بالأنبياء؛ لأنك عندما تعلم أن النبي المؤيد بالوحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يدعو سنوات طوال، وليس معه أحد، أو معه اثنان، أو ثلاثة، فأنت أفضل بكثير، أنت معك أكثر من عشرة، فلو أفلحت وهُديت إلىٰ إصلاح هؤلاء العشرة، فأنت جعلت أمة بأكملها.

بل أشد من ذلك: انظر إلىٰ نوح عليه السلام، عندما دعا ألف سنة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يضرب لنا مثل هذه الأمور، وأريدك أن تتدبر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما يضرب لك هذا المثل بألف سنة، ويضرب لك النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المثل بالرجل والرجلين مع النبي، ففيه حكمة، ما الهدف من هذا؟ ما الذي يريد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبلغه لنا؟ أن هذا الطريق وإن سرت فيه وحدك علىٰ الحق، فأنت أمة وحدك، لا تستوحش، لذلك كان الإمام أحمد يقول: «محمد

---

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (٢٢٠)، «مسند أحمد»، رقم: (٢٤٤٨).

بن أسلم أمة وحده» (لم أجد هذا الخبر)، كما قال اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن إبراهيم: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}.

إذن نستخلص من هذا: أنك لا تستوحش الطريق وقلة السالكين، بل ادع إلىٰ سبيل ربك بالعلم، والحكمة، ولا يضرك من أتىٰ ولم يأت، لو كانت هذه الفكرة مندرجة في عقول الأنبياء (الكثرة والعدد)، لما دعوا، ولكن رب عشرة أفضل من مئات الألوف.

فلا تيأس، ولا تنظر لكثرة الأتباع وقلتهم، انظر فقط لصحة الطريق والمنهج، هذا الذي يعنيك.

المتن:

تدرج الباطل في ترسخه في حياة الناس ونفوسهم:

في استعمال لفظ السياسة في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم»، يعني أنهم يعيدونهم علىٰ سبيل التدرج شيئًا فشيئًا، ولهذا اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول كما في الحديث: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين»، يعني أن الإنسان ربما ينحرف ويُجْتال من حيث لا يشعر، ولهذا الإنسان ربما ينقلب اتجاهه درجات كاملة عن الاتجاه الذي سعىٰ إليه مع مرور الزمان، من حيث لا يشعر.

الشرح:

يعني: الانحراف لا يأتي فجأة، أنت تسير وتظن أنك علىٰ الجادة، وأنت منحرف! وتظن أنك علىٰ الجادة! ولكن الانحراف لا يأتي فجأة، بل تدرجًا، فقطْعُ هذا التدرج الانحرافي: من المتابعة، المتابعة من نفسك، ومن إخوانك من حولك، يردونك.

لذلك الأمير أحوج إلىٰ الناصح الأمين من المادح، لا بد أن يجد علىٰ الخير أعوانًا، يقولون له: أنت أخطأت، قف، اتق الله. ولا يحتاج إلىٰ من يقول له: جزاك الله خيرًا، أنت عملت وفعلت، أنت ليس هناك أحد مثلك، أنت أنت. هذا لا يحتاجه، هذا يفسده، لكنه يحتاج الناصح الأمين، عندما يشعر ببعض فلتات يرجعه، هذا هو المهم.

المتن:

ولهذا الإنسان إذا سلك طريقًا في الأرض أو في البحر، إذا كان الانحناء في ذلك بعيدًا، فإنه ينعكس اتجاهها من حيث لا يشعر، وربما الإنسان إذا أراد أن يصلي في برية، أو في طريق سفر، يتجه إلىٰ غير القبلة؛ لأنه يظن أن الاتجاه إلىٰ هذه الجهة، بينما هو استدار من حيث لا يشعر؛ أما الاستدارة القريبة فيشعر بها الإنسان ولو كان يسيرًا.

ولهذا مع طول الأمل ومع طول الأمد تتغير النفوس والأفكار والآراء، وكذلك العقائد من حيث لا يشعر الناس.

ولهذا الإنسان بحاجة إلىٰ شيء من السياسة، ولشيء من الرعاية، ولهذا الإنسان حينما يكون راعيًا علىٰ بهائمه من الإبل والبقر والغنم وغيرها، يقوم بجمعها في حال مسيره، حتىٰ لا تفترق، مع البون بين بني آدم وهذه البهائم، إلا أن الناس في سيرهم في الأرض يتدرجون من حيث لا يشعرون في الباطن، ولكن البهائم أسرع من بني آدم، وبنو آدم في ذلك أبطأ، ويتفقون بعد ذلك في الغاية، ما لم يبعث الله عَزَّوَجَلَّ أنبيائه يسوسون البشرية.

الشرح:

إذن الاجتماع طبيعة وفطرة في النفوس، حتىٰ عند البهائم، البهائم لا يريدون التفرق، البهائم يريدون أن يجتمعوا، وتسوسهم قطيعًا يسيرون خلفه، إذا كان هذا في البهائم، فما بالك بالإنسان الذي كرمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ أليس هذا يحدوه أن يؤصل هذا؟

المتن:

انحراف الأمم عند تأخر الرسل:

وكلما تأخر إرسال نبي، ولم يأت للأمة نذير، وعطلت الأمة رسالة الأنبياء، التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ فيهم، بدأ الانحراف في الأمة شيئًا فشيئًا، ولهذا قوم لوط ما بدأوا باللوطية ابتداء، بل أصبحوا علىٰ خلق وعلىٰ فطرة، ثم بدؤوا بذلك، يقول عبد الله بن عباس وأنس بن مالك وغيرهم، يقولون: «إنهم ما

بدؤوا بذلك إلا بعد أن استحلوا الزنا، ثم لوطية النساء، ثم بعد ذلك وصلوا إلىٰ أمر الرجال، وهذا أمر معلوم بداهة، أن الناس لا ينحرفون مثل هذا الانحراف في يوم وليلة.

الشرح:

فالانحراف لا يأتي فجأة، لذلك أمرنا الشارع بقطع البدع، وأمرنا الشارع بقاعدة سد الذرائع، مع أنها ربما لا تكون نصًا في التحريم، هي في المآل، تؤول في المآل، لماذا أمرنا الله بذلك؟ حتىٰ نقطع سبل الانحراف، سد الذرائع هي الطرق الموصلة إلىٰ الشر، أمرنا الشارع أن نقطعها؛ حتىٰ لا نتدرج.

لذلك نقول: إذا غاب الناصح الأمين، ظهر المنافق الخائن؛ وإذا غاب أهل الحق ودعاته، ظهر أهل الباطل ودعاته، هذه مقابلة.

انتبهوا يا إخوان لهذا.

هذه أمور لا بد من أن نتدبر فيها، لا بد أن نستفيد منها في أرض الواقع، بالصبر والحلم، ضع أمامك هكذا دائما: النبي المؤيد من السماء، يأتي النبي وليس معه أحد، هذا لا تغيب عنك وأنت في الطريق إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حتىٰ لا يستهويك الشيطان وييأسك، فانتبه لهذا، هذا مدخل رهيب من مداخل الشيطان، فإذا أنت قهرته بالدليل الشرعي، انقهر، وإذا استرسلت معه في الفكرة، استهواك واستولىٰ عليك وتدرج بك، لكن لو قطعت الفكرة: إخوانك

لا يساعدونك، وكل لا يريد الاجتماع، وكل يريد فكرته فقط، أنت لماذا تفعل؟ افعل مع نفسك. هذا أول التدرج، لكن قل له: أنا أُمرت أن أعمل، وآخذ بالأسباب، ولا انظر لمن يتبعني، ولمن لا يتبعني، النبي يأتي وليس معه أحد، والنبي يأتي ومعه اثنان أو ثلاثة، وأنا معي أكثر من ذلك. فافرح بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، اقطع، ولا تسترسل، الاسترسال تدرج، افهموها جيدًا، الاسترسال تدرج، الاسترسال مع الأفكار الشيطانية تدرج لا تشعر به أبدًا، لو كنت في السفر، ورأيت الشمس من هنا، تستطيع أن تحدد القبلة وهي تجاهك، لكن لو غابت عنك، اتجهت أي اتجاه، وتظن أنك تصلي للاتجاه صحيح، لماذا؟ بَعُدَ.

المتن:

كذلك كفار قريش، حينما عبدوا من دون الله عَزَّوَجَلَّ الأصنام والأوثان، جعلوا ذلك لآرائهم وعقولهم، فكان الشيطان يسوسهم في الباطل، والأنبياء يسوسون في الحق، فإذا غاب النذر، وغاب الأنبياء، ساسهم الشيطان لأمر الانحراف.

كيف بدأت الوثنية؟

لما بعد العهد فيهم وضعفت رسالة العلماء، ولم يكن لديهم شيء من التعبد، ذهب عمرو بن لحي إلىٰ بلاد الشام، ونظر في الأصنام والأوثان، ثم

جلبها إلىٰ مكة، كانوا بداهة لا يجوزون لأنفسهم أن يسجدوا لها، وأن يطوفوا عليها من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشرح:

الانحراف يحدث شيئًا فشيئًا، كذلك الإصلاح، يحدث شيئًا فشيئًا، التدرج فيه شيئًا فشيئًا.

المتن:

وإنما ينظرون إليها تعظيمًا، ثم جاء جيل بعد ذلك صرفوا لها نوعًا من العبادة؛ كبعض الاستقسام بالأزلام عند هذه الأصنام، أو شيء من الحلف إذا أراد الإنسان أن يغلظ يمينه أو شيء من هذا، ثم بدؤوا بالتمسح والتبرك، ثم عظموها من دون الله، كما جاء عن أبي رجاء كما في البخاري قال: «كنا إذا كان أحد منا في سفرة ولم يجد صنمًا احتلب ضرع شاة علىٰ تراب، فإذا يبس طاف عليه»، هل هذا الأمر كان في البداية؟ ما كان الأمر في البداية هكذا، هل تناسخت العقول من عقل إلىٰ عقل علىٰ هذه الحيدة؟ تكون، ولهذا الشيطان يسوس الناس علىٰ الأمد البعيد، وكل جيل ينظر إلىٰ موضع قدميه.

الأنبياء حينما جاؤوا بالرسالة، وأحاطوها بجملة من الحياطات لا يخشون علىٰ إنسان اليوم، ولكن يخشون علىٰ أجيال قادمة، ولهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدد في جانب البدعة، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما جاء في الصحيح من حديث

عائشة: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، ويقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ}، ما اكتفىٰ بالاتباع، بل قال: {وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ}، يعني: أن الحيد عن الصراط المستقيم نسبية، شيئًا فشيئًا، ثم يحيد الإنسان، ولا يشعر بعد آلاف الكيلو مترات إلا أن الاتجاه انعكس، بدلًا من أن تكون جهته جهة الشمال، فإذا هو جهة الجنوب.

ولهذا الإنسان إذا سلك طريقًا بريًا ومداه (طوله) مئات الكيلو مترات أو آلاف الكيلو مترات، فإنه يرىٰ أن هذا الخط مستقيم، مثلًا إذا كان علىٰ اتجاه متقارب، ولكن الإنسان إذا نظر إليه من الجو في طائرة أو نحو ذلك، فإنه يرىٰ أن هذا الخط منحرف، لو أخبر السائق في ذلك لقال: إنه ليس منحرفًا وإنما هو مستقيم؛ لماذا؟ لأن هذا يرىٰ البداية ويرىٰ النهاية.

ولهذا فالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وله المثل الأعلىٰ يرىٰ تحولات الأفكار كما يتحول الإنسان حينما يسير في برية ثم يأتيه بعد ذلك، فجاءت الحياطة لأمر الدين، ولهذا الأمور التي تمس الديانة من جهة البدع والمحدثات يشدد فيها في الدين، لماذا؟ لأن الإنسان لا يتحول عنها، وإنما هي هرمية، شخص يضع حجرًا، ثم حجرًا، ثم حجرًا؛ لأنه جانب تعبدي بخلاف المعاصي فإن الشيطان يحب البدع أكثر من المعاصي، لماذا؟ لأن البدع تدين، لا يمل عنها الإنسان

ويتوب منها؛ لأنه يرىٰ أنها دين، وإذا كان هذا الجيل يضع لبنة بدعة، والجيل الذي يليه لبنة أخرىٰ من البدع، ولبنة ثالثة ورابعة، فبعد ألف سنة يتحول الدين بالكامل، كما تحول اليهودية والنصرانية، ولهذا البدعة عظمت في الإسلام؛ لماذا؟ لأن اللـه عَزَّوَجَلَّ حمىٰ دينه فأنزل الذكر: {وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}.

الشرح:

لماذا هذا التحول؟ لعدم النظر إلىٰ المآل، كل ينظر في وقته وساعته تحت قدمه فقط، ولا أحد ينظر إلىٰ المآل، لا أحد ينظر إلىٰ العمل الأكبر، لا أحد ينظر إلىٰ إقامة شرع اللـه في الأرض، لا أحد ينظر إلىٰ تمكين العصبة المؤمنة في الأرض، لا أحد ينظر إلىٰ هذا، ينظر إلىٰ وقته وساعته فقط؛ ففقه المآل مهم جدًا في الشريعة.

ولذلك أنت عندما تسير في مثل هذه الأمور لا بد أن تنظر إلىٰ المآل، لا تنظر إلىٰ ساعتك، انظر إلىٰ المآل، ولذلك لما تشرع قانونًا، وتؤطر طرقًا منهجية، أنت لا تجعلها لك، والذين معك هم يعرفون، ولكن تريد الذين بعدك، حتىٰ لا يضلوا الطريق.

المتن:

وَحَفْظَ اَلذِّكْرِ، وَحِفظَ اَلدِّينِ مِنْ اَلتَّبْدِيلِ وَالْبِدَعِ، لِأَنَّ اللـه عَزَّوَجَلَّ شَدَّدَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ اَلْأُمُورِ، فِي اَلْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ، وَلِهَذَا اَلْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: هَذَا اَلْأَمْرُ

بِدْعَةٌ؛ أَيْ: رُبَّمَا تَرَىٰ أَنْتَ اَلْيَوْمَ أَنَّهُ سَهْلٌ وَهَيِّنٌ، وَلَكِنْ يَأْتِي جِيلٌ بَعْدَ ذَلِكَ يَضَعُ لَبِنَةً أُخْرَىٰ وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً وَخَامِسَةً حَتَّىٰ يَتَحَوَّلَ اَلْأَمْرُ عَنْ أَمْرِهِ اَلَّذِي جَعَلَهُ اللـه عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِ، كَمَا تَحَوَّلَ اَلْمُشْرِكُونَ مِنْ أصنام وتماثيل وَضَعُوهَا؛ لِأَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ بَعْدَ اَلْحَنِيفِيَّةِ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ صَلَاةٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ صِيَامٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ اَلْعِبَادَاتِ، إِلَّا بَعْضَ مَنَاسِكِ اَلْحَجِّ اَلَّتِي بَقِيَتْ مِنْ إِبْرَاهِيمْ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَإِنَّهُ زَالَ، فَأَصْبَحَتْ اَلْقُلُوبُ حِينَئِذٍ خَاوِيَةً تُرِيدُ اَلْعَمَلَ. فَعَمْرُو بْنُ لِحَيٍّ جَاءَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ اَلْأُمُورِ؛ لِيَشْغَلَ هَذَا اَلْفَرَاغَ اَلْمَوْجُودَ عِنْدَهُمْ؛ فَضَلَّ وَأَضَلَّ، وَلَكِنَّهُمْ مَا ضَلُّوا لِأَوَّلِ اَلْأَمْرِ، بَلْ بَدَؤُوا عَلَىٰ سَبِيلِ اَلتَّدَرُّجِ، حَتَّىٰ اِنْحَرَفُوا وَوَصَلُوا إِلَىٰ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ اَلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ ضُلَّالًا فِي هَذَا اَلْجَانِبِ، وَقَاتَلُوا دِفَاعًا عَنْ اَلْحِجَارَةِ اَلَّتِي لَوْ كَانَ أَجْدَادُهُمْ أَحْيَاءً حِينَمَا جَاءَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍ بِهَذَا لَقَالُوا: اِهَدِّمهَا يَا مُحَمَّدْ، وَلَا شَأْنَ لَنَا بِهَا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهَا لَمْ تَتَوَغَّلْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنْ عَلَىٰ سَبِيلِ اَلتَّدَرُّجِ تَوَغَّلَتْ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّىٰ بَلَغُوا مَا بَلَغُوا.

الشرح:

إذن هذا يدعونا إلىٰ السؤال: كيف يسوس الخليفة الرعيةَ، والقائدُ جنودَه؟ بالتدرج هكذا، كما هو يعلم أن الشرك والبدع دخلت شيئًا فشيئًا، وتوارثتها الأجيال، فذلك هو يسوس بالتدرج لاقتلاعها من قلوبهم، وإسقاطها من نفوسهم، وإلا ستظل في قلوبهم، حتىٰ لو أسقطتها ماديًا، لذلك نحن نقول: لا

نريد إسقاط الكفر والطواغيت علىٰ الحقيقة قبل أن نسقطها في قلوب الناس، الناس لا بد أن تعرف أن هذا هو دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حتىٰ إذا جئت بهم، كانوا لك عونًا؛ أما إذا لم يفهموا حقيقة التوحيد، ولا معنىٰ لا إله إلا الله، ولا معنىٰ الدولة، ولا معنىٰ الجماعة، ولا معنىٰ الوحدة، فكيف يساعدونك علىٰ أمرٍ هم لم يفهموه؟ تجد المعارضة؛ لأن الفكرة غير واضحة عندهم، الفكرة غير واضحة، فما دوري؟ أوضحها. وضحتها ولكن وجدت بعض الإشكالات، أحلها. وجدت بعض التحفظات، أجعلها معكم فقط، لكم كل ما أعطي لكم، فقط تريد أن نجتمع.

إذن أنت بسياستك وفقهك تستطيع أن تُكوِّن وتُكبِّر؛ أما بدون فقه المآل والتدرج، فلن تستطيع؛ ستجد الأمر متحجرًا متصلبًا عندك، لا تستطيع أن تتحرك، لكن لو عندك التدرج والفقه وبعد النظر، ستقبل.

المتن:

كَذَلِكَ وَدٌّ وَسُوَاعُ وَيَغُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرٌ، هَؤُلَاءِ أَسْمَاءَ رِجَالٍ صَالِحِينَ، كَيْفَ عُظِّمُوا؟ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّدَرُّجِ، بِصُوَرٍ عُلِّقَتْ عَلَىٰ الْحِيطَانِ، أَنَّ هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاء، وَهَؤُلَاءِ اَلْأَوْلِيَاءُ عَلَىٰ اَلْإِنْسَانِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ شَيْئًا مِنَ الِاحْتِرَامِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي جِيلٌ بَعْدَ ذَلِكَ يَصْرِفُ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ التَّعْظِيمِ، ثُمَّ حُوِّلُوا مِنْ صُوَرٍ

مُعَلَّقَةٍ إِلَىٰ أَجْسَامٍ وَتَمَاثِيلَ، ثُمَّ نُصِبَتْ وَوُضِعَتْ مُضَاهَاةٌ لله عَزَّوَجَلَّ بِجِوَارِ اَلْبَيْتِ اَلْحَرَامِ.

الشرح:

هذا الوضع كيف يعالج؟ بالحكمة، والتدبر، والتدرج. لا بد من هذا.

المتن:

سِيَاسَةُ اَلْأَنْبِيَاءِ لِلْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ:

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ اَلْأَنْبِيَاءَ يَأْتُونَ بِسِيَاسَةِ الْعُقُولِ وَسِيَاسَةِ النُّفُوسِ، وَلَوْ اِسْتَنْكَرَ الْإِنْسَانُ، لِأَنَّ مَا تَحْمِلُهُ أَنْتَ لَيْسَ مِلْكًا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَكَ.

الشرح:

هذا مهم جدًا، ما تحمله من دعوة وهمٍّ دعوة ليس ملكًا لك، هذا ملك الأجيال التي تأتي بعدك، لذلك عندما تحمل هم الدعوة فينبغي أن يكون هذا منقدحًا في ذهنك، أن هذا الذي تقوم به ليس ملكًا لك، هو ملك لمن يسمعك، هو ملك لمن سيأتي بعدك، هو ملك لمن سيطلع عليه؛ لذلك أنت تتحرىٰ ألا يخرج منك إلا ما هو صالح في الحال وفي المآل.

المتن:

لِمَنْ جَاءَ بَعْدَكَ، فَإِذَا اِنْفَرَدَ الْإِنْسَانُ بِأَمْرِ اخْتِيَارِ اَلرَّأْيِ، أَوِ اخْتِيَارِ الْفِكْرِ، أَوِ اخْتِيَارِ الْقَنَاعَاتِ، فَهَذِهِ الْقَنَاعَاتُ لَوْ كَانَتْ فَرْدِيَّةً تَمُوتُ بِمَوْتِ اَلْإِنْسَانِ، لَكَانَ

اَلْأَمْرُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهَا تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا الْأَحْكَامُ وَالْعَقَائِدُ وَالْآرَاءُ وَالْأَفْكَارُ اَلَّتِي تَمَسُّ اَلدِّيَانَةَ لَيْسَتْ لِلْإِنْسَانِ، وَإِنَّمَا للـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلـه أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ}.

هَلِ الْحُكْمُ عِبَادَةٌ؟

نَعَمْ، عِبَادَةٌ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِلْكًا لَكَ، اَلْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَدِّلَ لِبَاسَ أَهْلِ بَلَدِهِ، لِأَنَّهُ وَرِثَهُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، وَلَا خِيَارَ لَهُ بِهَذَا غَالِبًا، لَمْ يَسْتَطِعْ كُلُّ جِيلٍ أَنْ يُغَيِّرَ اَللِّبَاسُ، فَكَيْفَ يُغَيِّرُ اَلْأَفْكَارَ؟ لِأَنَّهَا لَا تَتَغَيَّرُ إِلَّا بَعْدَ أَجْيَالٍ مَدِيدَةٍ، وَلِهَذَا الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جَعَلَ اَلْأَمْرُ لَدَيْهِ حَتَّىٰ لَا يَفْرِضَهُ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ. وَالـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جَعَلَ اَلْأَمْرُ إِلَيْهِ أَيْضًا، وَحَمَىٰ دِينَهُ مِنَ التَّبْدِيلِ بِالْبِدَعِ وَالشَّهَوَاتِ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ أَفْكَارَ اَلْبَشَرِ تُبْنَىٰ كَحَالِ الْهَرَمِ ثُمَّ تَتَحَوَّلُ عَنْ بِدَايَتِهَا.

اَللِّيبْرَالِيَّةُ اَلْغَرْبِيَّةُ نَشَأَتْ مِنْ مَبْدَإِ حُرِّيَّةِ اَلْعَمَلِ وَالِاقْتِصَادِ.

الشرح:

هذا الأصل الأول، أصل الليبرالية، نشأت من باب حرية العمل والاقتصاد، أن الكل يعمل، وهو حر فيما يعمل فيه، لم يخطر ببال من قال ذلك هذا التحول.

أصبحت أصنامًا تعبد من دون الـلـه، آلهة تُعبد من دون الـلـه، وهل كانت في بدايتها هكذا؟ لا، لم يخطر ببالهم أصلًا أن تكون هكذا، ولكن لما توارثتها

الأجيال، جعلوها آلهة تعبد من دون الله، ولها أطر وقدس وشعائر ومقدسات، هكذا، ولو قضيت علىٰ الفكرة من أولها، ما وصل لما وصل إليه.

المتن:

ثُمَّ تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ الْأَخْلَاقِ، ثُمَّ إِلَىٰ نِكَاحِ الذُّكُورِ بِالذُّكُورِ، وَنِكَاحِ الْإِنَاثِ بِالْإِنَاثِ، ثَمَّ بَلْ نِكَاحِ الْبَهَائِمِ أَيْضًا. هَذَا التَّحَوُّلِ، هَلْ الَّذِينَ ابْتَدَؤُوا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرِ سَيَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ؟ أَبَدًا، مَا كَانَ يَخْطُرُ فِي بَالِهِمْ، لَوْ تَيَقَّنُوا ذَلِكَ لَتبَرُؤوا مِنْ هَذَا الْفِكْرِ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ الْغَرْبَ إِنَّمَا تَرَكُوا الدِّينَ الْمُبْدَلَ إِلَىٰ الرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُوجَدُ لَدَيْهِمْ بَدِيلٌ؛ أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَهِيَ أُمَّةُ دِينٍ صَحِيحٍ تَامٍّ، حَفِظَ الله تَعَالَىٰ عَلَيْهَا رَأْيهَا، وحَفِظَ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهَا شَرِيعَتَهَا، وحَفِظَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلَيْهَا آدَابَهَا وَأَخْلَاقَهَا.

هُنَاكَ نَزَوَاتٌ مِنْ الْبَشَرِ تُرِيدُ التَّمَرُّدَ عَلَىٰ شَرِيعَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هَذَا التَّمَرُّدِ جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ بِسِيَاسَةِ هَذَا الْأَمْرِ، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رَسَمَ الْحَقَّ وَأَمَرَ النَّاسُ بِأَنْ تَسِيرَ عَلَيْهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ خَارِجِينَ عَلَيْهِ، خَارِجُونَ عَلَيْهِ لِدَافِعِ الشُّبْهَةِ، وَخَارِجُونَ عَلَيْهِ لِدَافِعِ الشَّهْوَةِ.

الشرح:

وكذلك خارجون عليه لدافع الشبهات المتعلقة بأصل عمل، هم يؤمنون بالعمل، ولكن عندهم شبهات متعلقة بأصل العمل.

فما دورنا نحن؟ نجلي هذه الشبهات حتىٰ تتضح صورة العمل.

المتن:

هُنَاكَ أَصْحَابُ نَزَوَاتٍ، وَالنَّزَوَاتُ فِي هَذَا تَتَبَايَنُ، هُنَاكَ مَنْ نَزْوَتُهُ فِي السَّمْعِ، مِنْ حُبِّ السَّمَاعِ، أَوْ التَّمَتُّعِ مَثَلًا بِسَمَاعِ النَّمِيمَةِ وَالْأَحَادِيثِ وَالْأَقَاوِيلِ فِي النَّاسِ، وَالشَّمَاتَةِ فِيهِمْ وَالتَّعْيِيرِ، يَسْتَلِذُّ بِأَمْثَالِ هَذَا الْأَمْرِ، وَهُنَاكَ مِنْ يَسْمَعُ الْمُحَرَّمَاتِ، كَالطَّرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُنَاكَ مَنْ شَهْوَتُهُ بِقَوْلِهِ؛ بِلِسَانِهِ، بِالْكَلَامِ، وَالْوَقِيعَةِ، وَالسَّبِّ، وَالشَّتْمِ، وَيَسْتَمْتِعَ بِأَمْثَالِ هَذَا الْأَمْرِ، وَهُنَاكَ مَنْ شَهْوَتُهُ بِأَكْلِهِ، وَهُوَ يُحِبُّ أَكْلَ أَوْ شُرْبَ الْحَرَامِ، كَالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ؛ كَأَكْلِ الرِّبَا وَمَالِ الْيَتِيمِ وَغَيْرِ هَذَا، أُنَاسٌ يُشَرِّعُونَ، وَأُنَاسٌ يَشْتَهُونَ مِنْ غَيْرِ تَشْرِيعٍ.

يعني: أناس يشرّعون ولا يشتهون، وأناس يشتهون ولا يشرّعون.

المتن:

فإذا سألت عن الخمر قال: حرام ولكنه يتناول ذلك، ولكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل ثقل الشبهة؛ لأنها بِدعةٌ أعظمُ خطرًا من الشَّهْوَة؛ لأن الإنسان إذا زالت شهوتُه القائمة في نفسه تخلىٰ عن الشهوة، ولهذا كبار السن

إذا كَبِرُوا، تقدموا في العمر، قربوا إلىٰ الـلـه، وتركوا المحرمات، أما البدع ازدادوا تمسكًا بها.

الشرح:

هذا واقع، تجد الرجل بلغ تسعين سنة وسبعين سنة، وما زال مصرًا علىٰ دعاء غير الـلـه؛ لأنه يظن أنها عبادة، تقربه إلىٰ الـلـه، مع أنه كان في الصغر لا يفعل هذا، لماذا؟ كان شابًا، فلما هو كبر: أنا أريد أن ألجأ إلىٰ الـلـه. وما هو لجوؤك إلىٰ الـلـه؟ أتقرب بطاعته. وما هي طاعته؟ أن أدعو الأولياء، أو أدعو الطواغيت، أو غير ذلك.

فهذا مفهوم لا بد أن يتغير.

المتن:

لأنه يراها دينًا، إذن فهي أشد رسوخًا؛ أما الشهوة فهي بطيئة التحول إلىٰ شبهة، فتتحول إلىٰ شبهة بعد أمد طويل، ولهذا عظمت محاربة البدع في الشريعة أعظم من مواجهة الشهوات، لماذا؟ لأن الإنسان قد غُرِس في نفسه وازعٌ بحرمة هذا الشيء، وينتظر الأمر حتىٰ يتخلص منه، فإذا اغتنىٰ ترك الربا، وإذا تزوج ترك المحرمات وغير ذلك، أو كبر وضعف فيه الوازع ابتعد عن جوانب المحرمات، إذن ثمة إقلاع سريع بخلاف البدعة، ولهذا عظمت من هذا الوجه.

الشرح:

فالسياسة والمتابعة تمنع التدرج في الانحراف، أنت تتابع ما عليه الناس، تتابع ما آلوا إليه، تتابع الأفكار والتحولات، ثم تنكرها وتبين ضدها.

المتن:

أهمية التدرج في التشريع والدعوة إلىٰ الحق:

المخالفون لدين الحق هؤلاء الذين يخرجون عن الصراط المستقيم لهم توجهات متعددة، ولهذا يعجب كثير من الناس من شدة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في موضع، ولينه في موضع آخر، من جهة تعامله مع المخالفين، ومن جهة كذلك تبليغ الحق، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما أنزل الحق علىٰ نبي من أنبياءه جملة واحدة، وإنما أنزله الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ سبيل التدرج، ولهذا كفار قريش حينما رغبوا عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو تفكروا في عدم نزول القرآن جملة واحدة، لماذا لا ينزل القرآن جملة واحدة فنرىٰ بداية ونهاية؟ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ماذا قال لهم؟ {كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ}.

الشرح:

إذن التدرج في الشريعة ثبات، كذلك التدرج في العمل الدعوي ثبات، لا تقدِم علىٰ خطوة أخرىٰ قبل أن تثبت علىٰ التي قبلها، لا تتعدَّ مرحلة قبل أن تتقن التي قبلها، فالتدرج ثبات، والاستعجال سقوط وهزيمة، اعرف هذا جيدًا.

المتن:

{كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ}؛ يعني أن التدرج في أحكام الشريعة، وتعليم الناس لها أعظم للثبات، بخلاف ما ينزل عليهم من أحكام الله عَزَّوَجَلَّ جملة واحدة ثقيلة.

لماذا؟ لأن الإنسان لا يقبل التحول كاملًا، وإنما يريد التدرج، لماذا؟ لأنه فطر علىٰ هذا الأمر، ولهذا جاءت الشرائع بالتدرج في أمر المخاطبين، ولهذا يقول عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله يقول: «إنك إن علمت الناس الإسلام جملة، تركوه جملة».

لهذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذًا إلىٰ اليمن، كما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس، قال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهذا من سياسته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- قال: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب»، يعني: ليسوا وثنيين كقريش «إنك تأتي قومًا أهل كتاب» وهذا بداية من سياسته، أنه ينبغي لمن يوجه الخطاب أن يعلم حال المخاطبين، وأن الناس ليسوا علىٰ مراتب واحدة.

الشرح:

هذا مهم جدًا! بطيء ولكنه أكيد المفعول، وأُبيّن لك هذا بوضوح: أنت عندما تضع لك منهجًا لتحفظ القرآن، واجتهدت، وحفظت سورة البقرة في أسبوع، وآل عمران، وهكذا، وختمت القرآن في ستة أشهر، ختمته ولم تتدبره،

ختمته ولم تفهم ما فيه، تجدك مع حفظك للآيات تقع في مناقَضَتِها؛ لأنك لم تتدرج.

انظر إلىٰ الصحابة؛ انظر إلىٰ سيدنا عمر مثلًا، حفظ البقرة في عشر سنين، وذبح ذبيحة(١)، ولكنه فهم المقصود من هذا.

إذن ثبت، حفظ، ثم عمل، ثم فهم، هذا هو الأصل. فالتدرج في الفهم كذلك، لكن لو أخذته جملة واحدة، ضاع جملة واحدة.

المتن:

معالم بارزة في سياسة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة والتبليغ:

والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يأتيه أحد من الأقوام إلا قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من القوم؟».

الشرح:

لا بد للقائد أن يعرف من حوله، ويتعرف عليهم؛ حتىٰ ينزلهم منازلهم.

المتن:

---

(١) لم أجد هذا اللفظ، وجاء في «مجموع الفتاوىٰ»: (١٣/ ٣٣١): «وَقَالَ أَنَسٌ: «كَانَ الرَّجُلُ إذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَلَّ فِي أَعْيُنِنَا، وَأَقَامَ ابْنُ عُمَرَ عَلَىٰ حِفْظِ الْبَقَرَةِ عِدَّةَ سِنِينَ قِيلَ: ثَمَانِ سِنِينَ ذَكَرَهُ مَالِكٌ»»، والروايات كلها عن ابن عمر، وليس فيها ذكر لذبح الذبيحة.

حتىٰ يعلم دينهم، ويعلم حالهم، ويعلم الوجيه منهم؛ حتىٰ يضعه علىٰ أمره، ولهذا جاء في حديث عائشة -عليها رضوان الـله- قالت في الرجل الذي أعطته كسرة وسأل، وجاء الرجل الآخر وأُجلس وأُكرم، فقيل لها في ذلك، فقالت: «أمرنا رسول الـله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ننزل الناس منازلهم».

لهذا الخطاب يتوجه إلىٰ الإنسان بحسب مقامه، وبحسب بحاله، وكذلك يتوجه الخطاب إليه بحسب بعده وقربه من الحق، ولهذا النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لمعاذ بن جبل: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الـله وأن محمدًا رسول الـله».

وجاء في رواية في الصحيح: «إلىٰ أن يوحدوا الـله».

هذا الخطاب فيه إشارة إلىٰ أن هؤلاء ليسوا مسلمين منحرفين، بحيث تخاطبهم علىٰ الانحراف الذي وقعوا فيه، وإنما هم أبعد من ذلك، أي: من أهل الكتاب، وليسوا وثنيين أيضًا، لماذا؟ لأن الوثنية في ذلك هي مشركة بالـله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أظهر إشراكًا من كفر كفار قريش، فغرس التوحيد فيهم في جانب الربوبية أعظم من غرسه في أهل الكتاب، فأمر النبي صلىٰ الـله عليه أن يعلمهم الحق علىٰ سبيل التدرج.

فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فليكن أول ما تدعوهم إليه» يعني: ذكر الأمر بالترتيب، فذكر «أول» يعني: لا تأت إلىٰ الثاني حتىٰ تنظر في أمر الأول، «فليكن

أول ما تدعوهم إليه إلىٰ أن يوحدوا الله»، حتىٰ يعطيهم ذلك تامًا، قال: «فإن هم أجابوك إلىٰ ذلك» يعني: انظر إلىٰ ردة الفعل، ماذا يقولون؟ «فإن هم أجابوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أجابوك لذلك»، يعني: انتظر بعد ذلك ماذا يرجعون؟ لا تعطهم الإسلام كاملًا؛ حتىٰ لا ينفروا منه، ولهذا الإنسان إذا أراد أن يدعو أحدًا خالي القلب من تعاليم الإسلام، يعني أنه موغل في جانب الضلال، عليه أن يرأف به؛ لماذا؟ لأن نفرته من الحق هذه النفرة التي يجدها الإنسان من الحق، هي نفرة ربما تكون بسبب ظلام الجهل، لأن القلب إذا أوغل في ظلام الجهل نفر من نور الحق؛ لأن الإنسان حينما يكون في موضع ظلام تستروح عينه الظلام، وتستنكر حينئذ النور، فإذا أراد أن يخرج إلىٰ النور انكمش، كذلك القلب ينكمش من الحق إذا كان موغلًا في الظلام، فعلىٰ الإنسان أن يأخذ به برأفة، وأن يشعره أيضًا أن هذه النفرة وهذه الكراهة الموجودة في القلب للحق، هذه كراهة بسبب كونه في الظلام، عليه أن يرأف به، ويأخذ به علىٰ سبيل التدرج حتىٰ يرىٰ النور.

الشرح:

لا بد أن نفهم أنك تتدرج في الطريق، ولا تعدو إلىٰ الخطوة الثانية قبل أن تتمكن من الخطوة الأولىٰ، لا تعدو ولا تخطو.

وأضرب لك مثالًا: الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعلم بخلقه، فلما علم أن هؤلاء القوم الذين أرسل الله لهم محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عندهم عادات صعب أن يتخلصوا منها، مثل شرب الخمر، كانت عندهم كالماء، الله يعلم هذا؛ لأنه خلقنا، فبدأ ينوه لهم من بعيد أن هذه ليست طيبة، وفيها شر، وفيها شيء من المنكرات، وشيء من المصالح، لكن هذا لا ينفع، الله سبحانه أعطاهم فكرة أن هذا الأمر لا يصلح لكم، هم بدؤوا ينتبهوا أن هذا الأمر الذي اعتدوا عليه فيه شر، {فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ}، هذا عرفوه، {وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ}، ولما فهموا هذا، واستوثقوا منه، جاء التحريم بالكلية، هذا تدرج مع المخاطب، تخيل لو كان أمرهم مباشرة بتحريم الخمر، كانوا امتنعوا، ولو امتنعوا لكفروا، حققنا المصلحة نحن؟ لم نحقق المصلحة.

فهذا لا بد أن يراعىٰ في العمل الدعوي.

المتن:

ولهذا كان بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ يأتي إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قبل إسلامه، ويقول: «يا رسول الله، إني أريد أن أسلم».

قال: «أسلم».

قال: «ولكني أجدني كارهًا». يعني كاره ما أنت فيه.

قال النبي صلىٰ الله عليه: «أسلم ولو كنت كارهًا».

الشرح:

هذا كلام النبي! لو جاء واحد إلينا، وقال: أنا أريد أن أعرف التوحيد والجهاد، ولكن أنا كاره هذا التوحيد والجهاد. ماذا كان يرد عليه الأخ؟ أنت كافر ومرتد. وهكذا، ولكن انظر إلىٰ الحكمة في التدرج في إصلاح نفوس الناس ومخاطبتهم، أنا كاره لما أنت عليه يا رسول الله، قال: «**أسلم ولو كنت كارهًا**»، لماذا؟ لأنك إذا دخلت وأنت كاره، ستعرف حقيقة هذا الأمر، فتحبه علىٰ معرفة، أما إذا كنت خارجه لا تعرف الخير الذي فيه، فستظل كراهتك له.

المتن:

يعني: هذا الأمر كقول الإنسان للشخص: اخرج إلىٰ النور ولو كنت كارهًا، بعد ذلك سيبقىٰ الحق لديك وسترىٰ.

لهذا ينبغي الرحمة والرأفة بالحق؛ لأن البعيد عن الحق يجد وحشة منه، ولهذا كذلك الإنسان في نفسه إذا وجد وحشة من الحق، ليعلم أن هذه الوحشة من الحق ليست حكمًا بكون هذا الأمر حقًا أو باطلًا؛ إنما لأنه بعيد عن الحق فيحتاج إلىٰ القرب منه علىٰ سبيل التدرج.

كما أن الإنسان يسوس غيره، عليه كذلك أن يسوس نفسه من جهة القرب من الحق علىٰ الشيء اليسير، ككون الإنسان في ظلام، لا يخرج إلىٰ النور مباشرة حتىٰ لا يضر نفسه، وإنما يكون علىٰ سبيل التدرج حتىٰ يبقىٰ، بخلاف

الإنسان الذي يأتي دفعة واحدة، كالذي يكون في ظلام ثم يخرج إلىٰ النور فإنه يرتد ويرجع، أو ربما يتألم أو نحو ذلك، ولهذا حتىٰ لا يرتد ولا ينتكس، عليه أن يأخذ الحق من أعلاه، إذا أراد الحق.

ولهذه السياسة الشرعية في الحق، تختلف عن السياسة الشرعية في الباطل.

الشرح:

إذن طول العهد علىٰ الطريق يستلزم بعد النظر، لا تصد الناس عن أمر هو في أنفسهم، فقط ادعهم إلىٰ أن يدخلوا ويعرفوا بأنفسهم، لا تحبّطهم، لا تيَئِّسهم، ولكن قل لهم: ادخل، ورَ النور، الآن النور يتعب عينيك؛ لأنك كنت في ظلام، طبعي، أنت كنت في ظلام، إذن النور سيتعب عينيك، أنت كنت في جهل، العلم سيتعب نفسيتك، ولكن تدرج فيه واعلم، تعرف عليه برفق.

المتن:

ابتداء الدعوة بالتوحيد وإصلاح الفطرة:

إذا أراد الإنسان أن يدعو أو يُرْشد إلىٰ الحق، أو يرشد إلىٰ الحق، أو أن يسلك الحق، فعليهم أن يبدأ بالحق من ماذا؟ من أعلاه، لماذا؟ لأنه التوحيد، يبدأ بالحق من أعلاه وهو التوحيد.

وأما بالنسبة للشر فيبدأ بأعظمه، وهو أدناه إليه؛ وذلك لأنه أخطر وأضر علىٰ نفس الإنسان، لهذا النبي ﷺ يدعو الناس إلىٰ التوحيد

ويحذرهم من الشرك، لهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة دعا الناس إلىٰ التوحيد؛ لأنه لا مساومة في أمر التوحيد، ولا يقدم عليه شيء، ولا يوجد في جانب التوحيد مجاملات، وإنما النبي صلىٰ الله دعاهم إلىٰ هذا الأمر، ولم يدعهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ الصلاة، ولا إلىٰ الزكاة، ولا إلىٰ الصيام، ولا إلىٰ الحج، لماذا؟ حتىٰ يقبلوا بالتوبة.

الشرح:

إذن الأمر يبدأ من أعلاه في التوحيد، ويبدأ من أسفله بالتدرج، ووضْع المنهج ليستمر ويورث، أنت عليك فقط أن تضع المنهج، ثم يستمر ويورث، وهذا لا يكون إلا بالمتابعة، التوريث لا يكون إلا بالمتابعة، متابعة الناس، هذا مهم جدًا.

المتن:

ولهذا ينبغي أن نعلم أن الرسالة إذا أراد الإنسان أن يوجهها، إذا كان عالمًا، داعيةً، إمامًا، كاتبًا، إعلاميًا، إذا أراد أن يوجه أمر الناس، فعليه أن يبدأ بأخطر شيء فيهم، وخطورة الشيء الذي يكون في الناس، هل مرده إلىٰ ذات الإنسان ونفسه، ربط الإنسان وعاطفته، أم إلىٰ ميزان الشريعة؟ ما هي ميزان الشريعة؟ هي التي حكمتها النصوص.

ولهذا انشغال البعض بآداب الإسلام فقط، وتعليم الناس إياها علىٰ أنها هي الإسلام، وإهمال جانب التوحيد، وهم واقعون في الشرك، هذه ليست دعوة الأنبياء، ولكن دعوة الأنبياء هي أن يدعو الناس إلىٰ التوحيد حتىٰ يتحقق فيهم، ويقرن مع التوحيد ما شاء من جوانب الآداب، لماذا؟ حتىٰ يعلموا أنه ليس بخارج عن الفطرة؛ لهذا قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما كان يدعو كفار قريش بمكة، كان يدعوهم إلىٰ عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، يدعوهم مع ذلك إلىٰ العفاف والطهر والأمانة، وكذلك يدعوهم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إلىٰ الصدق؛ هذه الأشياء لماذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يدعوهم إليها مع التوحيد؟ مع أنه لم يدع إلىٰ الصلاة، ولا الزكاة، ولا إلىٰ الصيام، لماذا؟ ليعلم الناس أن دعوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ دعوة فطرة، هو يدعوكم إلىٰ التوحيد، وأيضًا يدعوكم إلىٰ الصدق، يعني: لست بكاذب، هم كانوا يتهمونه بالكذب، يدعوهم إلىٰ الحق وأدائه، كذلك يدعوهم إلىٰ الأمانة، لأني لا أخون أمانة، ولا أدعي أني أحمل رسالة ثم أخون بتبديلها لرغبات نفسي.

ولهذا أبو سفيان قبل إسلامه لما سئل عن النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: إلىٰ ماذا يدعوكم؟ قال: «يدعونا إلىٰ عبادة الله، وإلىٰ العفاف، وإلىٰ الأمانة، وإلىٰ الصدق» وهذه من الأخلاق؛ لماذا؟ لأنها قاعدة تقوم عليها جميع الشرائع وجميع العبادات.

ولهذا نقول: ينبغي أن نفرق بين ما كان من أمر توطين الفطرة وبين غيره، يجب أن يقترن مع التوحيد، ولا يؤجل ما كان من أمر الفطرة.

الشرح:

هذا مهم جدًا يا إخوان، لا تقل: أنا أدعو مع التوحيد إلىٰ الصلاة. لا، ادع مع التوحيد إلىٰ الفطرة، التي هم يعرفونها حتىٰ مع كفرهم، يعرفون الصدق والأمانة، يعرفون العفاف، هذا يعرفونه بفطرتهم، فأنت أعلمهم أن هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه، يدعو إلىٰ ما أنتم عليه من فطرة؛ يقبلوه.

المتن:

ما هو أمر الفطرة؟ الفطرة التي خلق اللـه عَزَّوَجَلَّ عليها الإنسان أصلًا، وأوجدهم عليها كبشر، قبل أن تعلم الصلاة، وقبل أن تعلم الصيام، وقبل أن تعلم الزكاة، أمر الفطرة ينبغي أن تعود الفطرة إلىٰ حقيقتها.

ما هي الفطرة؟ الفطرة في ذاتها هي أن يعلم الإنسان أن الكذب حرام، وأن خيانة الأمانة محرمة، وأن الكذب محرم، وأن الفجور محرم، وأن قتل النفس محرم، هذا تدل عليه الفطرة أم لا تدل عليه؟ تدل عليه الفطرة، ومتىٰ ينحرف الناس؟ ينحرف الناس بعد ذلك مع بداية الغرائز فيهم بين الناس وحب الانتصار للنفس، يقع القتل والسب والشتم والكذب والتحايل؛ حتىٰ يغنم الإنسان أكثر من صاحبه، أو بتعليم غيره له، ولهذا الصبي إذا نشأ صغيرًا عندما

تسأله سؤالًا فيجيبك بالحق، لا يعرف الكذب إطلاقًا، متىٰ يتعلم الكذب؟ يتعلم الكذب من أبيه ومن أمه من أخيه وأخته، من جيرانه يبدأ يتحول ويتعلم الكذب يأخذه تلقينًا، من الذي علمه أن هذا فطرة لا تخبر إلا بما لديك، اللـه عَزَّوَجَلَّ فطره، ولهذا اللـه عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه العظيم: {فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا}، ويقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ما من مولود إلا ويولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، إذن الخلل طارئ علىٰ أصل بشرية الإنسان، لهذا ينبغي للإنسان أن يقرن مع التوحيد إصلاح الفطرة وترميمها حتىٰ يعود الإنسان؛ لماذا؟ لأن حال الإنسان قلب الإنسان وكذلك عقله كحال القلب، إذا كان مخلوقًا علىٰ الفطرة لا يقبل الحق يتسرب منه؛ الإناء إذا كان لديك إناء مستوٍ، وأردت أن تضع فيه ماء يملؤه، فإنه يمتلئ، ولكن إذا أخذت هذا الإناء وقمت بثنيه ووضعت الماء فيه، هل يستوعب الماء كاملًا؟ لا يستوعب الماء كاملًا بل يفيض؛ لماذا؟ لأنه مبدل، كذلك فطرة الإنسان إذا بدلت لا تقبل الحق، لهذا ينبغي للإنسان أن يرمم الفطرة، وأن يدعوها إلىٰ التوحيد، لهذا الذين ينفرون من الحق سبب النفرة من الحق ما هي؟ هو أن فطرتهم مبدلة، الفطرة لديهم مبدلة، الناس تبديلهم في ذلك يتباين، منهم مَن قالَبُ قلبِهِ ثنيه في ذلك يسير، ومنه من هو شديد، ومنه من هو بعيد عن الحق، ولهذا تجد من أرباب الانحلال الغربي من تخاطبه مثلًا في الشذوذ، ما يسمونه زورًا بنكاح المثليين، فإنه يقوم بالتهكم بهذا الأمر؛ لماذا؟ لأنه بعيد

جدًا عن أمر الفطرة، وقالَبه في ذلك غير مستوٍ إطلاقًا، أما من كان قريبًا فإنه ينكر شيئًا، فيفيض منه جزء يسير من الحق، والفطرة الكاملة هي التي تستوي، لهذا اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أمر بالحفاظ علىٰ الفطرة؛ حتىٰ تقبل الحق كاملًا، فإذا تبدلت بعدت عن الحق كله، ولم يأتها شيء منه علىٰ الإطلاق.

الشرح:

التمسك بالسنة نجاة، نجاة من الفتن، والتخلي عن السنة وهجرانها كذلك بالبدع.

وهنا خطأ شرعي يقع فيه الناس المعاصرون الآن، يقولون بزواج المثليين، ويقولون بالحرية الشخصية، وللأسف بعض العلماء يندرج ويسير خلف هذه المصطلحات، ونحن قلنا: يجب التقيد بالمصلحات الشرعية، لماذا يسمونها بغير أسمائها؟ حتىٰ يقبلها الناس.

فما هو الاسم الشرعي لهذا الفعل؟ هو لواط، ليس زنا، الزنا بين رجل وامرأة، إنما هذا لواط، يسمونه مثلية؛ ليقبله الناس، فلو تمسك المسلمون حتىٰ الدولة علىٰ الجانب الرسمي، والحكومات، لو كان عندها فهم! وقالت: لا، هذا عندكم مثلية، ولكن عندنا لواط، وعقوبة اللواط القتل، وكذلك المرأة مع المرأة هذا يسمونه سحاق، في ديننا يسمونه سحاق، وكذلك القتل.

فعندما نسمي الأمور بأسمائها التي سماها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا نجري وراء هذه، نُفهِم الناس رسالة: أن كلامكم هذا يوافق ديننا، مع أنه يخالف فطرتكم التي تلوثت، ولكن يخالف ديننا.

فالتمسك بالألفاظ الشرعية يجعلك دائمًا في حِلّ من التمسك بالألفاظ الحادثة، كثير من الناس، من المسلمين، إذا قلت له: الزواج المثلي. لم يعرفه؛ مصطلح حادث، جميل، (المثل) يعني: مثله. لا يصلح، لكن لو قلت له: هذا هو اللواط، وهذه هي جريمة قوم لوط الذين أخذهم الله بالعذاب، إذن حتىٰ لو صغير يبدأ يفيق.

هذا هو تغييب الأمة، تغييب وعي الأمة بتغيير المصطلحات، فيتمسك بها.

المتن:

لهذا نقول: أي خرم في جانب الفطرة فإنه يتسع، فجاءت الشريعة بالتشديد فيه، التشديد في جانب الكذب، التشديد في جانب الحياء، التشديد في جانب الأخلاق؛ حتىٰ لا تنخرم، لماذا؟ لأنها قاعدة يتكئ عليها كل شيء، موسىٰ عليه السلام يقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كان حييًا ستيرًا، يستحي أن ترىٰ عورته، وكانت بنو إسرائيل إذا اغتسلوا يغتسلون عراة»، هذا تبديل للفطرة أو ليس بتبديل؟ تبديل للفطرة. يقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ثم آذاه قومه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر عنا إلا لأن به عيبًا من برص أو جذام أو نحو ذلك»،

قال: «فأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يبرئه، فذهب موسىٰ ليغتسل ويستتر فوضع ثيابه علىٰ حجر، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ الحجر أن تهرب بثيابه، فخرج موسىٰ يلحقها ويضربها ويقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر» من جهة نظر الإنسان أيهما أهون؛ أن يتوجه الخطاب إلىٰ موسىٰ ويبدي عورته للناس، أو يتوجه الخطاب للحجر ليهرب بثياب موسىٰ؟ أيهما أهون؟ الخطاب لمن؟ لموسىٰ، لماذا الله عَزَّوَجَلَّ ما أمر موسىٰ أن يبدي عورته؟

الشرح:

انظر إلىٰ حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مراعاة الفطرة كذلك، هو قادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يوجه موسىٰ ويقول: أنا ليس بي شيء، وهذا جسدي، لكن هذا يخالف فطرة موسىٰ، لا يفعل هذا من نفسه، ولكن إذا جاءه الأمر اضطرارًا، وجد أنه... دون شعور، فحصل المقصود، لكن بنفسه لا.

المتن:

وأمر الحجر بأن يهرب بثياب موسىٰ؛ السبب في ذلك أن جانب الفطرة إذا أنخرم اتسعت، ويبدأ فيه بالتدرج، انظروا إلىٰ حجاب المرأة إذا فتح له باب اتسع، انظروا إلىٰ جوانب الأخلاق، إذا فتح له باب اتسع، لهذه الأمور الفطرة التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ كاملة مجرد أن يفتح لها أمر يتسع، لهذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير دائرة الكون وجاذبية الأرض، ولم يغير فطرة الإنسان.

الشرح:

الحجر ملصوق في الأرض بالجاذبية، ولكن اللـه غير هذا؛ حتىٰ يحافظ علىٰ الفطرة.

لذلك فقه الشريعة وسد الذرائع هذا الذي يوصلنا إليه؛ الآن إذا تدرج وقال: تساهلنا في موضوع الحجاب، وبعد ذلك نحن تساهلنا في موضوع كشف العورات، هو لو كشفها بنفسه سيستمرئ، مرة فمرة فمرة، سيستمرئ، لكن لو أخذ بالقطع لن يجرؤ، لذلك كان سيدنا عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخذ بهذا، هو كان حييًا، لكنه قال: «منذ أن بايعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم تمس يدي عورتي»، فاشتد في الحياة أكثر، حتىٰ أن بعضهم كأبي موسىٰ وغيره، كان إذا دخل الحمام أطفأ السراج؛ حتىٰ لا يرىٰ نفسه، انظر إلىٰ الحياء والشدة في هذا، أخذ بالعزيمة، لكن لو فعل هذا، وبدأ ينظر لنفسه، وبدأ يتلمح، وبدأ ينظر، سيستمرئ، لكنه قطع السبل والطرق الموصلة للشر، لذلك عندنا قاعدة في الشرع تسمىٰ قاعدة سد الذرائع، التي هي الطرق الموصلة للشر، أنا لا أتسلسل معها، الحجاب خلاص هو حجاب شديد، أنت لابسة خيمة، وأنت سوداء، وأنت وأنت، أفضل من أن استمرئ فأتخلف فأتعرىٰ، خذوا بقوة.

المتن:

ولم يأمر موسىٰ أن يظهر عورته لبني إسرائيل ليبرئ نفسه، مع أن الغاية واحدة: ظهور العورة، لكن تظهر العورة وأنت خجل منها، ولا تظهر العورة برغبتك أنت، لماذا؟ لأنك تنفر من هذا الأمر.

لهذا نقول: إنه ينبغي مع الدعوة إلىٰ التوحيد الدعوة إلىٰ ضبط الفطرة، وضبط جانب الحياء، وضبط جانب الصدق، والأمانة، مع الدعوة إلىٰ التوحيد، وأن تكون مع التوحيد ومع ما بعد التوحيد أيضًا من أمور الصلاة والصيام علىٰ سبيل الدوام، لماذا؟ لأن اختلالها يعني اختلال البقية، فإذا اختل الصدق جاء النفاق، وإذا اختلت الأمانة جاءت الخيانة، وإذا اختل الحياء جاء في ذلك السفور وجاء في ذلك أيضًا انحراف الناس في جوانب الفواحش.

ولهذا نقول: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما كان يدعو كفار قريش في مكة، أول ما دعاهم إليه هو التوحيد، لهذا إذا أردنا أن نعلم طريقة دعوتنا إلىٰ الناس، علينا أن نأخذها كما كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعونا، يدعو إلىٰ توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويحرص علىٰ الأمور الفطرية التي يبدلها الناس، ولهذا حفظها له أبو سفيان قال: «كان يدعونا إلىٰ التوحيد، ويدعونا إلىٰ الصدق والأمانة والعفاف»، يعني: أنه دعانا إلىٰ هذا ما دعانا إلىٰ الصلاة، ما دعانا إلىٰ الزكاة، ما دعانا إلىٰ الصيام، لماذا؟ لأن هذه لا تقبل من الإنسان وليس بموحد، وهذا

هو ما أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا أن يأمر به المشركين من أهل الكتاب، لما بعثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ اليمن.

تفريق النبي صلىٰ الله ليه وسلم في دعوته بين ما يقبل التجزئة وما لا يقبل:

الشرح:

حتىٰ تفهم هذا أنت كداعية، تفهم ما تقبله من الناس في الأصل، وما لا يُقبل. هذا مهم جدًا.

المتن:

كذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سياسته حتىٰ في دعوته للناس ينظر إلىٰ الحق الذي يتجزأ والحق الذي لا يتجزأ، الحق الذي لا يتجزأ يرفض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجزئته؛ لأن التجزئة تشويه له، والحق الذي يتجزأ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل تجزأه؛ لماذا؟ لأن بعض الحق أهون من باطل كامل.

ففرق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين التوحيد وبين أداء الصلاة، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا كفار قريش إلىٰ توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وترك الأصنام بالكلية، لا مساومة لصنم واحد منها، بل إزالة الأصنام بالكلية، وعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، جاءه كفار قريش كما روىٰ ابن جرير الطبري وغيره: «جاء كفار قريش فقالوا: اعبد آلهتنا ستة أشهر، ونعبد إلهك ستة أشهر»، وأرادوا من ذلك توسطًا، لكن هل التوحيد يقبل التجزئة أو لا يقبل التجزئة؟

لا يقبل التجزئة، وهو كفر كله، لماذا؟ لأن التوحيد باطل، بمجرد أنني أقتنع أن لكم أن تعبدوا أصنامكم ولو بعد ستة أشهر، فهذا كفر، بمجرد وجود القناعة القلبية في هذا؛ لأن الإيمان قول وعمل واعتقاد، فلم يقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم ذلك، ولهذا أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ قوله: {قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣}، فجعل في ذلك المفاصلة والمفارقة، ولكن حينما جاءه رجل أراد أن يبايعه في أمر الصلاة، كما روى الإمام أحمد في كتابه المسند، من حديث قتادة، عن نصر بن عاصم: أن رجلًا منهم جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأراد أن يبايعه، ولكنه يشترط ألا يصلي إلا صلاتين، قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بايع وصل صلاتين».

الشرح:

دخل في الأصل، الأصل الذي يقبل التجزئة، مع أن الصلاة حق، وسيحاسب عليها بعد دخوله، ولكن هو يريد أن يدخل في الأصل، انزل تحت الراية فقط، وبعد ذلك ستعرف أنت بنفسك.

المتن:

لأنه كان وثنيًا، وسيدخل التوحيد، وما بعد التوحيد هو أداء الصلاة، يؤمن بها إيمانًا أنها خمس، ولكنه يعجز عن أدائها، لماذا؟ لأن العرب حينما كانوا يأتون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كان فيهم شيء من الأنفة والكبر، منهم من يستثقل الركوع، ويريد أن يبايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويشترط ألا يخر إلا قائمًا،

يعني لا يمر بالركوع، لماذا؟ لأنه يرىٰ أن هذا ذلة عند قومه، فيريد أن يدخل بالتوحيد، ولكن لا يريد مثل هذا الأمر؛ لأنه لا يستشعر هذا الأمر أنه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فبايع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الرجل الذي يريد أن يدخل الإسلام بإيمانه بأركان الإسلام، ولكن العمل يريد أن يصلي صلاتين فقط، فبايعه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ ألا يصلي إلا صلاتين، لماذا؟ لأنه إما أن يبقىٰ وثنيًا، وإما أن يبقىٰ مسلمًا فاسقًا، فأيهما أهون؟ أن يدخل الإسلام ويكون فاسقًا ولا يبقىٰ علىٰ الوثنية، وهذا من الرحمة بالخلق.

الشرح:

الموازنة هنا بين المصالح والمفاسد.

فمن سياسة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تعامله مع الناس تفريقه بين ما يقبل التجزئة وبين ما لا يقبل التجزئة، وإنما قبل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منه صلاتين؛ لأنه يؤمن بالخمس.

القارئ:

يعني سيؤمن بالخمس، أو عامة يؤمن بالخمس، لكن يعجز عن أدائها؟

الشرح:

لأن العجز مسقط، هو كأنه يقول له: ادخل وائت بما تستطيع، وعندما تعرف، ويدخل التوحيد قلبك، ستعرف وتقوم به بنفسك، لا أجادلك في هذا،

أنا أجادلك الآن لأنك لا تعرف، ولكن أدعوك لتدخل، فبعد أن تدخل ستعرف بنفسك، فتريحني من التعريف.

المتن:

وإشكاله إنما هو في الأداء نفسه، وقد جاء في المسند: «أن رجلًا جاء إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبايعه واشترط ألا يخر إلا قائمًا» «قائمًا» يعني: لا يريد أن يركع.

الشرح:

عندهم أنفه، حتىٰ لما سجدوا والشيطان أيضًا، سجدوا جميعهم، إلا رجلين، أخذا حفنة من الأرض، وضعاها علىٰ رأسه؛ أنفةً وكبرًا، يعلم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا.

المتن:

أراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدخل دائرة التوحيد، وأن يدخل دائرة الإسلام، ثم بعد ذلك يتوطن بها، ويألف حينئذ قلبه.

الشرح:

فكل من ينفر من الحق تبدلت فطرته، فلا بد من ترميم الفطرة، كل من يَنْفِر من الحق، فاعلم أن فطرته تبدلت، فإذا كان هذا، فلا بد أن ترمم الفطرة أولًا مع التوحيد.

المتن:

الأمور التي ينبغي مراعاتها عند التعامل مع المنكر:

ومن سياسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: التفريق بين مراتب المخالفين، المخالفون ليسوا علىٰ درجة واحدة، وإن اختلفوا من جهة بشاعة القول والرأي وكذلك الأفعال، أكثر الناس أو غالبهم يشدون أو يرخون من جهة نوع الخطأ، لا من جهة حال فاعله، وينظرون إلىٰ هذا الجانب، بل نقول: إن الإنسان إذا أراد أن يقوم علىٰ أمر بالنكير، فلينزل إلىٰ ثلاث جهات.

الشرح:

فلا بد للمسلم أن ينظر إلىٰ ثلاث جهات أو ثلاث مراحل قبل أن ينكر المنكر.

المتن:

الجهة الأولىٰ: الفاعل وحاله، وذلك لأن أحوال الناس تختلف، منهم الجاهل ومنهم العالم؛ لأن الجاهل فعل هذا الأمر من غير علم، فيحتاج إلىٰ رأفة وتعليم، فيُلان مع الجاهل ولو كان فعله أشد من فعل العالم.

الشرح:

وضرب مثلًا بالرجل الذي بال في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الفعل كبير وشنيع وقبيح، فالذي ينظر إلىٰ الفعل ولا ينظر إلىٰ المنكر عليه، لا بد أن يخطئ، ويأخذه الفعل، كيف تفعل هذا؟ هذا أمر.

فالذي ينظر إلىٰ الفعل كفعل لا يكون عالمًا، ولا يكون فقيهًا، والفقيه هو الذي ينظر إلىٰ الفاعل، يعني: إلىٰ حال الفاعل، من جهل ومن علم، ومن قصد ومن خطأ، وغير ذلك، وهذا الذي حصل من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الصحابة، فلما بال الرجل، الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- لم ينظروا إلىٰ الرجل، ولكن نظروا إلىٰ الفعل، ولم ينظروا إلىٰ الفاعل، فهاجوا عليه، وأنكروا عليه، وكادوا أن يقتلوه، كيف تتبول في مسجد نحن نصلي فيه؟! وبعقلية الغلاة: أنت كافر، كيف تبول في المسجد؟ أنت مستهزئ؛ إذن أنت لا تعظم، أنت كافر، ويحل دمه، ولو كان عندهم في أيديهم سلاح لقتلوه، ولبرروا قتله، لماذا قتلتموه؟ هذا بال في المسجد، إذن هو مستهزئ، إذن هو كافر، إذن هو مرتد.

وإذا نظرنا إلىٰ نظرة العالم إلىٰ حال الفاعل، لرأينا العلم هو الذي يؤثر، فلما جاءه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تزرموه**»، يعني: اتركوه لا تزعجوه، اتركوه؛ حتىٰ يكمل بوله، انظر إلىٰ الرحمة المهداة من ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: «**لا تزرموه**»، ثم بعد ذلك قال: «**هذا مسجد نصلي فيه، ونعظم فيه ربنا، لا يصلح فيه مثل هذا**»، هذا له مكان آخر، من شدة فهمه للمسألة حَجَّر واسعًا، قال:

«اللـهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا» -خلاص يعني هذا أمر انظر إلىٰ هذا- فقال: «**قد حجرت واسعًا**»، يعني: رحمة اللـه أوسع من هذا[١].

فالذي عنده علم إذا أراد إنكار المنكر عليه أن يراعي أربعة أمور:

أولًا: أن يكون عنده علم، أن يعلم أن هذا منكر، يعني: عنده علم من الشرع أن هذا منكر، لا مجرد أن يرىٰ مخالفة يحسبها منكرًا، لا، لا بد أولًا أن يكون عنده علم تنبثق منه، تقول أن هذا منكر بدلالة القرآن والسنة.

ثانيًا: أن تحدد درجة هذا المنكر.

ثالثًا: أن تنظر إلىٰ حال فاعل هذا المنكر. معرفة الحال.

رابعًا: أن تنكره بشرائط الإنكار، أي: لا يترتب عليه منكر أكبر، أو مفسدة أكبر.

هذا كله لا بد أن تراعيه عند إنكار المنكر، أينما كان، في شارعك، في بيتك مع إخوانك، أيّ شيء تراه لا بد أن تستحضر هذه الأربعة، لا بد تستحضرها جيدًا.

المتن:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه»، رقم: (١٦٥٨)، والطبراني في «المعجم الكبير»، رقم: (١١٥٥٢)، وغيرهما، وكلهم يروي أنه دعا ثم بال، كما في «صحيح البخاري»، رقم: (٦٠١٠)، و«سنن أبي داود»، رقم: (٣٨٠)، وغيرهما، إلا أن عبد الرزاق والطبراني رويا أنه بال ثم دعا.

ويشد علىٰ العالم العارف الذي يفعل وهو معاند، ولو كان فعله أهون من فعل الجاهل، ومن ذلك أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الصحيحين، من حديث أنس، وكذلك جاء من حديث أبي هريرة، أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال -لما جاء الأعرابي، وربط راحلته، وبال في المسجد، زجره الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ، فقال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا تزرموه»، يعني: لا تضيقوا عليه، «دعوه»، لما قضىٰ هذا الرجل، أمر النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذنوب من ماء، فأفيض عليه، ثم لما قضىٰ أتىٰ إليه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن هذه المساجد إنما بنيت للصلاة، ولذكر الله، ولم تبن لشيء من هذا»، أراد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخبر أعرابيًا جاء من البادية، لا يعرف أماكن مقدسة وغير مقدسة، يظن أن البيئة واحدة، ففعل هذا بحسن نية، أو بغير حسن نية، بحسن نية لا يقصد من ذلك أذية، فأثر ذلك في الأعرابي، لماذا؟ لأن النبي علمه وما شد عليه وأفزعه، فقال الأعرابي: «اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا»، فضحك النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لقد حجرت واسعًا»، إذن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا لان معه أو ما لان؟ لان معه.

انظروا إلىٰ الأمر الآخر، وهو أهون منه فعلًا، ولكن اختلف الفاعل، لما جاء النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ مسجده، فرأىٰ بزاقًا في القبلة، فاحمر وجهه

وغضب، فقال: «إن الإنسان إذا صلىٰ يستقبل ربه، فلا يبزقن أمامه أو تلقاء وجهه، وليبزق تحت قدمه أو هكذا».

الشرح:

يعني: عند يساره. إذا أردت أن تبزق، لا تبزق أمامك، ولكن إما تحتك، أو علىٰ يسارك.

المتن:

وبزق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ردائه.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدد في هذا أو لم يشدد؟ شدد في هذا، أيهما أهون، البول أو البزاق؟ البزاق أهون، ولماذا شدد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا، ولم يشدد في أمر الأعرابي في بوله، لماذا؟ لأن هذا عالم قريب، ويعلم هيبة هذا المسجد، وهو من أهل المدينة، ومن أهل المصلين، ويعلم حرمته، ويعلم ماذا نفعل به من تنظيف وتطهير، ثم يفعل هذا الأمر، ولكنه جاء من بعيد.

الشرح:

إذن نأخذ من هذا الأمر فقه التعامل مع المنكر، ومراعاة مراتب المخاطبين به، فقه التعامل مع المنكر لا بد أن يدرس، هذا فقه التعامل مع المنكر، نحن أجملناه في أربع نقاط، كل نقطة من هذه لا بد أن يفهمها طالب العلم، ويتعامل معها في الواقع، فلا بد أن تضبط نفسك بالشرع، أنت عندك علم الآن، إذن

جرب نفسك؛ كيف تتعامل بهذا العلم مع الواقع؟ أنت ما كان عندك هذا التصور، وربما كنت تغضب، أو تحتد، أو تعطي الموقف أكبر من حجمه، الآن أصبح عندك علم، فلا بد أن تضبط انفعالاتك بالشرع، لا تخرج عنها، رأيت منكرًا، اسأل نفسك: ما الضوابط في إنكار هذا المنكر؟

أولًا: انظر هل هذا منكر فعلًا، عندي فيه من اللـه دليل؟ حتىٰ لا أنكر ما ليس بمنكر، أنا أظن أنه منكر، وهو ليس في الشرع منكر، فهذا جهل، نعم عرفت أنه منكر.

ثانيًا: ما منزلة هذا المنكر، درجة هذا المنكر؟

ثالثًا: من الفاعل لهذا المنكر؟ معرفة حال الفاعل، لا بد من هذا؛ لأن أنا أحسن الظن بالمسلمين، هذا الأصل عندي، وأعلم أن أفعالهم كلها علىٰ حسن، يعني: علىٰ القصد، لا يقصدون الكفر، ولا الشرك، ولا المخالفة، ولكن العلم، هكذا لا بد أن يكون.

المتن:

إذن **الأمر الأول**: أن ننظر إلىٰ حال الفاعل.

الأمر الثاني: أن ننظر إلىٰ ذات الفعل الذي يقع فيه الإنسان، والفعل الذي يقع فيه الإنسان منه ما يشدد فيه الإنسان، ومنه ما يلين فيه الإنسان، علىٰ اعتبارات مختلفة، بحسب مقام ذلك الخطأ، ولهذا جاءت الشريعة بإنزال

ذنوب الناس وفق مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا وفق مراد الإنسان، من الناس من يشرب الخمر، ومن الناس من يزني، جعل الله عَزَّوَجَلَّ لذلك مقادير، ولم يجعلها إلىٰ رغبات الناس.

الشرح:

يعني: لم يجعل الله ذلك إلىٰ رغبات الناس وأهوائهم؛ مع أنها كلها عقوبات، عقوبة الزنا والسرقة وشرب الخمر، وكل هذه عقوبات، لماذا ما جعلها الله واحدة؟ للتفاوت فيها، كذلك نحن ننظر إلىٰ هذا من باب التفاوت في الفاعل؛ علمًا ودراية وجهلًا، كل هذا يعتبر.

المتن:

الأمر الثالث: أن ينظر الإنسان إلىٰ من كان حاضرًا، أو ردود أفعال الإنكار.

الأمر الثاني والثالث منها ما قضىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فيه، وما يجب أن يقال أنه ليس لأحد إن يقول: لا أنكر الشرك، وأريد أن أدعو إلىٰ التوحيد، أخشىٰ أن يغضب فلان؛ ألم يُغضِب النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفار قريش؟ أغضبهم جميعًا، لهذا نقول: منها ما لا يقبل في ذلك النظر إلىٰ ردود الأفعال، ومنها ما ينبغي للإنسان أن ينظر إلىٰ آثار ذلك وردود أفعاله، ومن ذلك أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما استأذنه عمر بن الخطاب أن يضرب عنق عبد الله بن أبي، قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتريد أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»، وذلك أن

مثل هذا الفعل إنما هو عقاب فردي، النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «الناس» وهذا من السياسة، أن ينظر الإنسان إلىٰ المآلات.

الشرح:

ونحن تكلمنا عن مقاصد الشريعة، وترتيب الأعمال، وفقه المآلات، هذه الثلاثة يا إخواني، ضعوها دائمًا أما أعينكم وأنتم تسيرون إلىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدعوة، لا بد من ترتيب الأعمال، ومقاصد الشريعة، ومآلات الأعمال، هذا مهم جدًا.

وهذا يدلك أنت بالذات، الآن نظر الآن مشكلة قديمة تريد أن تُحْدِث؛ والآن زادني الله علمًا وبصيرة، فأنا رفضتها في الأول؛ الآن يزداد رفضي لها وحكمة في التعامل معها، هذا مهم جدًا.

المتن:

عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالىٰ حينما ضرب رجلًا سيدًا في قومه، ارتد ولحق بملك غسان.

الشرح:

انظر إلىٰ الفقه هنا، أنا لا أريد لكم أن تكونوا هكذا، لا أريدك أن تفعل فعلًا وتندم عليه، وتقول: يا ليتني ما فعلت هذا، يا ليتني استقبلت من أمري. لا لا، العلم دائمًا هو الذي يقودك، اضبط نفسك بالعلم.

المتن:

قال عمر بن الخطاب عليه رضوان اللـه تعالىٰ بعد ذلك قال: «لو استقبلت ما فعلت به هذا»، فعلىٰ الإنسان أن يفرق بين أمر يتعدىٰ ضرره من الأمور التي تقبل التراجع، وبين ما لا يتعدىٰ أثره، ولهذا عمر بن الخطاب عليهم رضوان اللـه تعالىٰ في زمن قوة الإسلام، كان يعاقب علىٰ الشيء اليسير، وربما أخذ بالحصباء وحصب الإثنين يتحدثان في مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وربما ضرب بالدرة من لم يسوي الصف، لماذا؟ لأن ردود الأفعال بعد ذلك ضعيفة، ولهذا يتقدم الإنسان ويتأخر بحسب قوة وتمكين الإنسان، كذلك بحسب النظر إلىٰ ردود الأفعال.

الشرح:

النظر في حال الفاعل، وفي حال الفعل، وردود أفعال الناس، عند الإنكار، كان هذا الرجل إيمانه ضعيفًا، فلما ضربه عمر، لَحِق بالكفار، فندم عليه عمر؛ أن أكون سببًا في ردة مسلم، من ماذا؟ من عدم تقدير مآله، فالمآل هذا مهم جدًا.

المتن:

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال: «أتريد أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»، في هذا الأمر من الذين يتحدثون؟ من كان مع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعلم أن من معه من أصحابه يعلمون

ما هو السبب الذي ضرب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له عبد الله بن أبي، ولكن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعلم أن الشاهد يبلغ الغائب، والغائب يبلغ غائبًا آخر، وهكذا، فنظر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمر أبعد يأتي إليه.

الشرح:

الذي هو المآل، أبعد من هذا، نظره كان أبعد من هذا.

المتن:

وما هو الأثر الذي بعد ذلك؟ هل هو لمجرد أن يتحدث الناس؟ لا، بل لأثر تحدث الناس، أنه ربما أقوام وقبائل تريد أن تدخل في الإسلام، فيقولون: إن دخلت في الإسلام، فقد ذبح فلان لمجرد أنه قال رأيًا، أو لمجرد أنه لم يحضر صلاة، فتبدأ مسألة التأويلات، وإلا لو كان الأمر ظاهرًا بينًا للجميع؛ لأنزل به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العقوبة.

الشرح:

يعني: لو ثبتت التهمة عليهم بالإقرار والبينة والشهود، كان كل الناس علموا أنه قتله لأنه أقر بكذا وكذا، لكن كان الأمر خافيًا، ولا يعلمه إلا القلة الضعيفة أمام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس الذين يريدون أن يدخلوا في الإسلام، يرونه راية عالية ويريدون أن يدخلوا، فيسمعوا هذا: قتل صاحبه لكلمة! ذبحه لرأي خالفه، هذا الذي يظهر، فكان لا بد من ثبوت التهمة وظهورها للعيان، حتىٰ

تنتشر التهمة؛ فلمَّا لم تظهر، والمآل فيه مفسدة للشريعة، كفَّ عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

وبهذا نعلم أيضًا، نأخذ فقهًا سياسيًا؛ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عنف عمر بن الخطاب، لماذا؟ لأنه دافعه حمية دينية، وجرىٰ عمر بن الخطاب علىٰ الأصل؛ لأنه رأىٰ من هذا الرجل كفرًا، وأراد أن ينزل عليه عقوبة، فبين له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الحالة استثناء.

الشرح:

يعني: لو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرىٰ أن هذا غير الحقيقة، لعنف عمر، وقال: لا، كما عنفه في حاطب، قال: **«لا يا عمر، إنه يحب الله ورسوله»**، بعدما جدله، قال: «الله ورسوله أعلم»، عمر، قال: «أستغفر الله، والله ورسوله أعلم»، أنا قلت رأيي، ولكن أنت لك رأي آخر، فأنا أستغفر الله، هنا دافع عنه؛ لأن هذه هي الحقيقة؛ لكن في ابن أُبَيّ عمر ما جانب الحقيقة، هو رأىٰ كفرًا ظاهرًا هو يعلمه، ولكنه كان لا يعلم المآل الذي يعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

انظر أيضا إلىٰ الضغط الواقع، الذي يسمونه: ضغط الواقع، فالواقع يضغط علىٰ عمر، هذا الرجل يظهر منه نفاق، ويظهر منه معاداة، ويظهر منه موالاة

لليهود، وعمر يفهم هذا، فلما جاء ابنه طلب قميص النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليكفن فيه، ذهب إليه، عمر يغلي، فلما ذهب يصلي، انظر إلىٰ ضغط الواقع، جعل عمر يجذب رداء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، انظر إلىٰ الشدة، أنت أبوك، أو أخوك، أو شيخك، أو معلمك، يريد أن يفعل أمرًا، وأنت لا تريده، فتجذبه من ثيابه! هذه ما فيها لا أدب ولا احترام ولا دين، ما بالك بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

فالرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يعرف موقف عمر، لكن الواقع ضاغط، قال: «**يا عمر، دعني أصلي عليه**»، عمر ما سكت، «ألم ينهك الله عن الاستغفار؟!»، والصلاة استغفار، قال: «**الله خيرني، وسأزيد علىٰ السبعين**»، {إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ}، فأنزل الله قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ}(١)، هنا ظهر أنهم كفار ماتوا علىٰ الكفر، فلا يجوز لك أن تستغفر لهم، {وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ}، هنا الشاهد: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ}، متىٰ تبين له أنه عدو لله؟ مات علىٰ الكفر، والله أخبره أن هذا لا يؤمن، لكن قبل ذلك فهو يفعل بالفطرة، ويفعل بالدعوة؛ بالفطرة: أنه أبوه، وبالدعوة: أن هذا يدخل في الإسلام أولىٰ،

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه»، رقم: (٢٤٠٠).

{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ} انظر هنا الدين {تَبَرَّأَ مِنْهُ}، تبين له أنه عدو لله.

الله سبحانه قال لنبيه أيضًا: {مَا كَانَ} لك ولا للمسلمين من بعدك {أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ}، انتبه! {وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ}، ولو كانوا أقاربك وأصحابك، {مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ}، لهم لا لكم أنتم، {أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ}، كيف تستغفر لهم وقد ثبت عندك أنهم ماتوا علىٰ الكفر؟!

إذن هذا يدلك علىٰ التمسك بدعوة الناس وخروجهم من النار، كما جاء في الصحيح أنه آخذٌ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحجزنا عن النار، ونحن نريد أن نقتحم فيها، وهو يدفعنا، هكذا الحرص علىٰ دعوة الناس[١].

ماذا نكسب نحن من تعذيب الله للناس؟ ماذا نستفيد نحن؟ لا، نريدهم أن يدخلوا في دين الله أفواجًا، هذا هو الأصل.

فقه عجيب جدًا هذا يا إخوان، أريدكم أن تتدبروا ما بين الكلام، لا تنظروا لمجرد الكلام، اجعل النظرة أعمق من هذا.

المتن:

كذلك ما روىٰ البيهقي وغيره، أن أبا عبيدة عامر بن الجراح عليه رضوان الله تعالىٰ كان في غزوة من غزواته، فشرب الخمر معه اثنان، فكتب إلىٰ عمر

---

(١) سبق تخريجة.

بن الخطاب عليه رضوان الله تعالىٰ يستأذنه في إقامة الحد عليهما، فكتب إليه عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالىٰ: لا تقم عليهما الحد.

الشرح:

انظر، لماذا قال عمر هذا؟ أخذ درسًا، تعلم من موقفه الأول، والمسلم كذلك يا إخوان، يخطئ فيتعلم من خطئه، ينظر إلىٰ أخطاء الآخرين فيتعلم ويصححها، لا يسير عليها هكذا، يقول: وجدنا آباءنا علىٰ أمة؛ وجدنا من قبلنا يسير علىٰ هذا فنسير معهم، هؤلاء كانوا جيدين...، لا، الأمر ليس هكذا، هذا عمر، فتعَلَّمْ، فقال له: إياك أن تقيم عليهما الحد.

المتن:

لا تقم عليهما الحد؛ خشية أن تدركهما الحمية حمية الشيطان فيلحقا بالمشركين، لماذا؟ لأنهما علىٰ أطراف المشركين، وبين الصفين، ومعهم أسرار المجاهدين في سبيل الله.

الشرح:

هذا يسمونه فقه المناط، وهو غير فقه المآل، فقه المناط: أنك تنظر في الواقعة وما يحيط بها، تعريف المناط: هو الوصف الذي يتنزل عليه الحكم.

فالمناط هنا مناط قتال، والجيوش متلاحقة، ومتلاحمة، ومتقابلة، إذن هنا مناط جهاد، ويسهل جدًا أن يلتحق بالمشركين، فلا بد أن نحتويه، ونستميله،

هو يقول -الشيطان يأتي إليه-: كيف وأنا مجاهد؟ أنا مجاهد أجاهد في سبيل الله، ومع ذلك عصيت الله وشربت خمرًا، كيف أنتم تشدون عليّ؟ إذن هؤلاء أفضل منكم، أنا سألحق بهم، وسيكرمونني. أليس هذا يرد علىٰ هذا المناط؟ يرد، وقوي أيضًا، مناط قوي. انظر للفقه.

إذن عندنا: فقه المناط، وفقه المآل، المناط: هو الوصف الذي نحن فيه الآن؛ أما المآل: ما يؤول إليه فعلنا هذا، ففقه المناط وفقه المآل هما سلاحان يسير بهما الداعي إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طوال حياته، فإن تخلف أحدهما، تخلفت دعوته بقدر ما تخلف منهما، فقه المناط وفقه المآل.

سائل: بعض الناس حتىٰ بعض المقاتلين عندما تسألهم: لماذا لا تقيمون الشريعة؟ يستدلون بهذه الآثار علىٰ أنه لا يقام الحد في دار الحرب. أليس هذا في الحرب خاصةً؟ وعندهم أراضٍ، محرر كبير، ولا يطبقون الشريعة، ويستدلون بهذه الآثار: وأنهم في دار الحرب.

الشرح: هذه الآثار في غير مناطها؛ لذلك لا بد من صحة الاستدلال، نحن نفرق بين صحة الدليل في نفسه، وصحة الاستدلال به، وصلاحه في هذه المسألة، فهم الآن يستدلون بدليل صحيح، فعل كذا، فهل يصح الاستدلال به في هذه الحادثة؟

نظر إلىٰ الحال، أنت مجاهد، وأخذت أرضًا واسعة، وعليها أهل الجهاد، وأهل التوحيد، وأهل الإسلام، إذن أنت الآن متمكن، عندك القدرة، وعندك المنعة، وعندك إدارة الدولة، عندك شرطة، عندك جيش، عندك قضاة، عندك مدرسون، عندك...، عندك دولة متكاملة، وأنت تقول: أنا فقيه، فلا أريد أن أفتح جبهات أخرىٰ عليَّ حتىٰ أتمكن هنا. جيد هذا.

إذن الذين معك الآن، مليون، اثنان خمسة، أنت الآن تقيم بهم شرع الله سبحانه، لا أقول لك: قم وجاهد بهم، وافتح بهم جبهات أكبر من حجمك. لا، أنت لا تفعل هذا، يعني: أنت لا تجاهد العدو، أنت فقط تعيش في هذه الأرض، أقل شيء أقم فيها شرع الله بما تستطيع، نظم حياة الناس علىٰ وفق شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مهد لهم، لو ادعيت أنهم ليسوا مستعدين للشريعة، وفيهم الجهلة، أنت ما قيمتك؟! إذن أنت تفعل نفس فعل الحكام الآن، لماذا أنت تعيب علىٰ الحكام؟ لماذا تقاتلهم؟ لماذا تعاديهم؟ وهم يفعلون نفس فعلك الآن، هم يقولون لك ذلك: الناس لست ليسوا مستعدين للشريعة، والناس فيهم جهل، وعندنا نظام عالمي كبير، وله ضغوطات، وغير ذلك، ونحن نتدرج. الحكام يقولون هذا، لا يقولن لك: إننا لا نريد الإسلام، ولا نريد تحكيم الشريعة. لا، هم يقولون: نحن مسلمون، وأفضل منكم إسلامًا، ونصلي ونصوم، ولكن أنتم لا تعرفون الأمور، أنتم لا تعرفون واقعنا، نحن عندنا ضغوطات، وعندنا كفار، وعندنا نظام عالمي، وعندنا وعندنا وعندنا.

نقول: أنت عندك إمكانيات، والشرع أجاز لك أن تتحرك في قدر إمكانياتك، لا يكلفك فوق إمكانياتك، فأنت قادر الآن أن تحكم الشريعة، قادر أن تنصب المحاكم الشرعية، قادر الآن أن تسن القوانين واللوائح الإدارية اللي تنظم حياة الناس علىٰ وفق الشريعة، ما الذي يمنعك؟ الذي يمنعك هو الإخلاد إلىٰ الأرض، الذي يمنعك أنك كنت تسعىٰ إلىٰ هذا، فلما تمكنت أخلدت، وهذا ابتلاء من الله لك، ليعرف مدىٰ صدقك، ومدىٰ عقليتك، ومدىٰ حبك للشريعة.

لكن لو كنت علىٰ جبهات القتال، وعند التقاء الصفوف، وارتكب شخص خطأ، وأجلته حتىٰ ترجع إلىٰ المدينة، ويرجع إلىٰ البلاد، نقول: هذا معتبر، مناط صحيح، واستدلال صحيح؛ لكنك في بلدك آمن مطمئن، تأكل وتشرب وتمرح وتتحرك، فلماذا لا تحكم شرع الله؟ السؤال هنا.

فهنا مناط غير صحيح، لا بد أن تفهم هذا جيدًا، أنهم يستدلون بأدلة صحيحة في مناط غير صحيح، وما الصواب؟ الصواب أن يستدل بدليل صحيح في مناط صحيح.

سائل: لو أخره إلىٰ وقت معين، بم يتحاكم في هذا الوقت الذي أخر فيه الشرع؟

الشرح: لا يجوز له أن يتحاكم إلىٰ الكفر.

سائل: هذا سيتحاكم إلىٰ الكفر.

الشرح: لا يتحاكم.

سائل: لا بد أن يكون له بديل، هو أخر الشرع بزعم الاعتماد علىٰ هذه الأدلة.

الشرح: لا. هو أخر الشرع جملة وتفصيلًا، إنما لم يؤخر ما عجز عنه، لكن الأصل أنه ينطلق من الشرع، يعني: مجرد أن تحكم بقعة معينة، أقم فيها شرع اللـه بقدر ما تستطيع، لكن لا تلغ الشرع تمامًا وتتحاكم إلىٰ القوانين الكفرية والعادات والتقاليد، هذا ليس بدين، أنت نسخة مكررة من الواقع الذي نحن نعاني منه، ولكن معدلة بمسحة إسلامية، أو مسحة جهادية. نقول: هذا ليس بصحيح.

المتن:

ومثل هذا الأمر من العلماء من قال: إن عمر بن الخطاب عليه رضوان اللـه تعالىٰ رأىٰ تأجيل ذلك إلىٰ حين قدومهم، وقد جاء في الخبر أن منهم من قتل في سبيل اللـه في هذه المعركة.

الشرح:

انظر هنا: يُراعَىٰ قوة التمكين وضعفه في ردود الأفعال.

المتن:

ولهذا نقول إن الإنسان ينظر إلىٰ ردود أفعاله وتغليب الظن في ذلك، ولا يعني هذا أن الإنسان يهدر أصلًا عامًا وهو العمل بشريعة اللـه كلَّها لردود أفعال.

الشرح:

هذا هو الأصل، لا تهدر أصلًا عامًا، هذا مهم جدًا، كونك عاجز عن إقامة الحد، لا يعني ذلك أنك تهدر أصل التحاكم للشريعة، هذا لا يقوله أحد.

المتن:

بل يقال: إنما هذا في قضايا الأعيان؛ لأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يلغي أصلًا كاملًا، والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتهموه بالسحر، اتهموه بالجنون، اتهموه بالكهانة، وكذلك الشعر، واتهموا النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقسوة والغلو وغير ذلك، النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعلم بهذا الكلام، ولكن منه ما لا يبالي به الإنسان؛ لإقامة حق لا يقبل المساومة فيه.

الشرح:

«لا يقبل المساومة فيه» يعني: التفاوض، يعني: لا تتفاوض علىٰ أصل الدين، لا تتفاوض علىٰ الشريعة، فهذا مهم جدًا، ألا تهدر أصلًا كليًا عامًا، تفرق دائمًا بين قضايا الأعيان، وبين القضايا العامة، القضايا العامة هذه لا بد أن تلتزم بها؛ أما قضايا الأعيان: رجل شرب خمرًا، رجل سرق، رجل زنا،

فأنت تستطيع أن تؤجل هذا الحكم، أو لا تقيمه في ذلك؛ لكن هل معنىٰ هذا أنك تلغي حكم الشريعة تمامًا؟ هذا لا يكون.

الأمر الآخر: ضغط الواقع، هل ضغط الواقع يجعلك تخالف الشريعة؟ لا، النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -حتىٰ لا يقال لك: عندك غلو أو تكفير أو تطرف أو إرهاب-، نزل تحت هذا الواقع، ونزل بقوة، واتهموه بأشياء لا تصدق، ومع ذلك كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يلتفت إليها، ويسير في طريقه بما علمه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويعالج الأخطاء التي وراءه، بهذا المفهوم.

المتن:

ومنه ما ينبغي للإنسان أن يحافظ علىٰ سمعة الإسلام، وسمعة المسلمين، وسمعة قائدهم أيضًا؛ ألا يتحدث الناس بشيء لم يشهدوه علىٰ الإطلاق.

لهذا نقول: إن الإنسان في تعامله مع المخالفين لا بد من أن ينظر إلىٰ هذه الثلاثة مجتمعة لا منفردة، فلا يجزِّئ التوحيدَ.

الشرح:

هذا أصل، التوحيد لا يجزأ، ولا يبعض، ولا يدخل عليه نسخ، ولا تخصيص، ولا استثناء، هذا أصل؛ الخمس هذه ضابطة للأصل، وهي التي تعرّف الأصل، يعني: عندما تريد أن تعرف الأصل من الواجب، أو الأصل من غيره، أو الأصل المكفر من الواجب والمحرم، لا بد أن تضبطه بهذه، ما ضابط

الأصل؟ كما قلنا: الأصل لا يدخل عليه نسخ، ولا تخصيص، ولا تبعيض، ولا استثناء، هذا الأصل، إذا كان هذا فهو أصل، فلا تؤجله، ولا تقل: ضغط واقع، ولا تقل: حياء. لا، كل هذا لا يؤثر.

المتن:

فلا يجزّئ التوحيدَ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزأ الصلاة، ولا يلين مع الإنسان في موضع باعتبار أنه جاهل وهو فعل أشياء شنيعة من القتل أو الخطف أو أكل أموال الناس بالباطل بالسرقة ونحو ذلك، لكل شيء مواضعه، ولهذا ينبغي أن ينظر الإنسان إلىٰ هذه الثلاثة: إلىٰ نوع الفاعل؛ جاهل أو عالم، بعيد عن الحق أم قريب منه، أن ينظر إلىٰ ذات الأمر المجهول، أن ينظر إلىٰ آثار ذلك الفعل، إذا اجتمعت في الإنسان هذه الثلاثة، ونظر إليها مجتمعة، فإنه حينئذ يكون صاحب حكمة في التعامل مع الناس؛ ولهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساس دولة الإسلام، وبلغها التمام بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشرح:

إذن ما هي الثلاث؟ النظر في الفاعل، والمفعول، والمآل، هذه الثلاث لا بد أن تنظر إليها كأمير كقائد كقاضي كداعية، وتمحص فيها، وتدقق فيها النظر.

المتن:

الحكمة في اختيار أصحاب الولايات:

كذلك من سياسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يجعل الناس علىٰ مرتبة واحدة حتىٰ في أمر الولايات، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر فيمن فيه دهاء ومن فيه قوة فيوليه جانب القتال والمعارك، ولو كان غيره أقوىٰ منه في جانب الصحبة والقرب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ولىٰ خالدًا عليه رضوان اللـه تعالىٰ المعارك، وما ولىٰ أبا بكر وهو أفضل منه باتفاق المسلمين؛ لماذا؟ لأن اللـه عَزَّوَجَلَّ خصه بشيء من الخصيصة لم تكن في غيره، أو كانت في غيره ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأىٰ أن مثل هذا أولىٰ إما لشبابه وكبر غيره.

الشرح:

يعني: إما لشباب خالد وكبر أبي بكر، وليس معنىٰ هذا أن خالدًا أفضل من أبي بكر، لذلك ضرورة أن يصطفي الأمير والقائد ذا العلم، وذا الرأي، وذا الخبرة، ويستشيره، ويشاوره، ويكون بجنبه، هذا مهم جدًا للقائد، أن يقرب منه أهل العلم والخبرة، ويشاورهم، ويصطفيهم، لا بد من هذا؛ وإلا لو بعد عنه هؤلاء، لتقرب منه غيرهم، ففسدت الدعوة، بماذا؟ بالبطانة، بالبطانة الصالحة أو الفاسدة تستقيم أو تهدم الدولة.

لذلك بعض الناس عندما يعتذر لبعض الحكام يقول: هو كان جيدًا، ولكن من حوله كانوا فاسدين، وما الذي قربهم؟ غفلته، لو نفرض أنه صالح، فغفلته هو، إذن هو ليس عنده مقومات القيادة، اختياره خطأ.

هذا يا إخواني، كلام مهم للغاية، لا بد أن نتدبر فيه، لا يمر علينا مرورًا هكذا، نحن نتعلم حتىٰ نطبق علىٰ الواقع، هذه قواعد، هذه تنقش علىٰ قلبك وصدرك حتىٰ تسير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

وإما أيضًا لحاجة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقرب أبي بكر منه علىٰ سبيل الدوام؛ لأن الإنسان بحاجة إلىٰ رأي سديد وبحاجة إلىٰ مشورة سديدة في معرفة أحوال الناس.

الشرح:

لذلك النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحتاج إلىٰ أبي بكر أكثر من أي أحد، يستغنىٰ عن أي أحد إلا أبا بكر، لذلك لا بد من وجود هذا في حضانك حتىٰ لو كلفك الكثير، أبو بكر لما أراد أن يجاهد بنفسه، وهو أمير، الصحابة رفضوا، قالوا: لا. أنا أريد أن أعمل، وأريد أن أكف...، قال: أبدًا، أنت رأس الدولة، كيف تعرض نفسك...، في ذاتك لا يهم، لكن أنت وراءك دولة، فنحن نكفيك بكل ما نستطيع، ولكن تكون بجانبنا، تكون أمامنا؛ لأننا نتقوىٰ بك، بمشورتك، بعقلك، بعلمك، بصحبتك، هذا الذي نريده؛ أما أي شيء أخر نحن نقدر عليه، نكفيك بأي شيء، لكن وجودك هنا قوة للدولة. فهذا مهم جدًا.

المتن:

لأن الإنسان بحاجة إلىٰ رأي سديد وبحاجة إلىٰ مشورة سديدة في معرفة أحوال الناس، غضبهم، وكثرتهم، وقلتهم، وفقرهم، وغناهم؛ لأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيستخبر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أحوال الناس، ويسأل ربما أبا بكر عن شيء من ذلك ومن حوله، فكان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحاجة لأمثال هؤلاء، لهذا النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعامل الناس علىٰ مرتبة واحدة، إذا وثق برجل واحد ولاه كل شيء.

الشرح:

ليس هذا أبدًا، يُنزِل الناس منازلهم، وإلا لو كان هذا، والتي هي مركزية الإدارة التي نحن نحاربها، لولَّىٰ أبا بكر كلَّ شيء، قيادة الجيش، وبيت المال، والصدقة، كل شيء. ليس هذا المراد.

المتن:

ولهذا يذكر العلماء في صاحب الولاية، إذا كان المسلمون لديه يريد أن يولي أحدًا مثلًا في غزوة أو في معارك أو في مواجهة أناس، واجتمع لديه قوي وفاسق وصالح لكنه ضعيف، قالوا: يولي القوي ولو كان فاسقًا في مواجهة العدو، لماذا؟ لأنه في هذا الموضع يحتاج إلىٰ القوة أو يحتاج إلىٰ الصلاح أكثر؟ يحتاج إلىٰ القوة، ما دام هذا الرجل مسلمًا، ما دام هذا الرجل مسلمًا فإنه يحتاج إلىٰ القوة؛ لماذا؟ لأنه صلاحه لن يقيم في ذلك الحدود، وليس لديه

أموال يؤتمن عليها ولا أعراض، ولن يزوج أحدًا في عقود الأنكحة أو غير ذلك، إذن الحاجة إلىٰ جانب الصلاح تضعف أو تقوىٰ؟ تضعف، فهنا يحتاج الإنسان إلىٰ القوة.

حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره بأسرار أسماء المنافقين، وما أخبر أبا بكر وعمر بن الخطاب عليهم رضوان الله تعالىٰ، وأيهم أفضل أبو بكر وعمر أم حذيفة؟ أبو بكر وعمر باتفاق المسلمين، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبلغ حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالىٰ بذلك؛ لشيء من السياسة والحكمة، ويظهر -والله أعلم- أن من هذه السياسة أن من الناس من جبله الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ شيء من الأمور الجبلية التي ليست لدىٰ غيره، كبسطة الجسم، فمن الناس من آتاه الله عَزَّ وَجَلَّ بسطة في الجسم، ومن الناس من لا يؤتيه الله عَزَّ وَجَلَّ بسطة في الجسم، وهل يعاب الإنسان علىٰ ذلك؟ لا يعاب؛ لماذا؟ لأن هذا أمرٌ قدريٌّ، فيولىٰ صاحب البسطة بالجسم علىٰ شيء من مهام الأمة التي تليق به، ولا يعني فضله عند الله علىٰ غيره.

الشرح:

لا بد من أن يراعىٰ في الدين الصفات الجبلية، التي جبله الله عليها، حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كما قلنا- لا يُقارن بأبي بكر وعمر، ولكن لماذا اختاره النبي؟ هل

لضعف أبي بكر؟ لا، ولكن لصفات جبلية في هذا، كان أولىٰ وأفضل من يحفظ هذا، كان حذيفة يصمت كثيرًا، كان صامتًا، لا يتكلم، كان رجلًا غامضًا صامتًا لا يتكلم، فهذا مناسب لحفظ الأسرار، وكذلك ليس له خلطة بالمجتمعات، ويجلس هنا ويتكلم هنا، لا، هو كان رجلًا يسير ويصمت ولا يتكلم، كثير الصمت، هذا أفضل شخص لهذه المهمة، وهذه من صفات القائد: أن يختار الرجل المناسب للمهمة المناسبة.

المتن:

ولهذا النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما جاء في الصحيح- مر عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا؟» يريد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبين أن الفرق في الأمور التي يجبل الله عَزَّ وَجَلَّ عليها الناس، والأمور الظاهرة، لا علاقة له بأمر الباطن، قال الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ: «يوشك أن إذا غاب أن يسأل، عنه وإذا سأل أن يعطىٰ، وإذا خطب أن يزوج» فمر رجل آخر فقال: «ما تقولون في هذا؟» وهو ضعيف، فقال الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ: «هذا يوشك إذا غاب ألا يسأل عنه، وإذا خطب ألا يزوج، وإذا سأل ألا يعطىٰ»، فقال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا خير من ملء الأرض من هذا»، إشارة إلىٰ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأخذ بالباطن لا بالظاهر؛ ولهذا النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أجسامكم، ولكن ينظر إلىٰ القلوب»، قال: «لا ينظر إلىٰ صوركم» الهيئة والأجسام، ما قال: الأعمال، أي أن الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينظر إلىٰ الباطن، وأثر الباطن من جهة العمل؛ أما الصورة والأجسام، فإن الإنسان في ذلك لا خيار له، وإنما هي إلىٰ الله.

الشرح:

يعني: هذه الصورة التي خلقك الله عليها، هذه إلىٰ الله سبحانه، ليس لك دخل فيها، لكن أنت عندك صفات ذاتية مكتسبة، لا بد أن يكون باطنك أفضل من ظاهرك، وهذا المؤمن، لا بد أن يكون في الباطن أفضل من الظاهر، والذي يخرج علىٰ الظاهر بعضٌ من الباطن؛ لأن لك أسرارًا عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإصلاح الباطن هذا مهم جدًا، وهذا الذي عليه المقياس، لا ينظر الله إلىٰ صوركم ولا أجسامكم، ولكن ينظر إلىٰ ماذا؟ إلىٰ ما في قلوبكم، من تصديق، وقول، وعمل، تصديق القلوب، وعمل القلوب، هذا مهم جدًا.

المتن:

ومن الأمور المواهب التي يؤتاها الإنسان، وينبغي للإنسان أن يتعامل مع ذلك علىٰ ما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من فطرة، ينبغي أن يأخذها صاحب السياسة والوالي، ومن لديه -مثلًا- رأي في مثل هذا، أن ينظر أيضًا، لا ينظر إلىٰ الجوانب الدينية مجردة، بل ينظر أيضًا إلىٰ الجوانب الفطرية، من الناس من يجبل علىٰ الكتمان، ومن الناس من لا يجبل عليه، ولهذا حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالىٰ فطره الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الكتمان، فكان النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخبره بأسماء المنافقين.

الشرح:

بصفة جبلية جبله الله عليها، وعرفها القائد، فلا بد أن يستغلها في خدمة الإسلام.

المتن:

ومن هذا أيضًا أن من الناس من تعلم أنه ربما يتولىٰ ولاية ومن الحكمة ألا يعلم تفاصيل الأفراد، فربما أثر علىٰ أمره؛ لأنه لو يعلم الإنسان بواطن الأمور لضاق، لو يعلم الإنسان المكائد، ما يجد -مثلًا- في قلوب الناس من حقد وغل عليه، وربما يجالسونه أو نحو ذلك، لضاق من الحرج، وربما مات من الهم، ولكن يخالط الناس ولا يعلم ما في نفوسهم، وهو سعيد في هذه الدنيا، النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أن بعده خلفاء راشدين، وأنهم سيلون الولاية، ومنهم أبو بكر وعمر، وهؤلاء المنافقون النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أن منهم من سيبقىٰ بعده، فلو أخبر النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حوله، أو أخبر النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر وعمر بهم عدًّا وبمكائدهم وما يعلم من رغباتهم، ربما هذا يؤثر أو لا يؤثر؟ يؤثر هذا.

الشرح:

النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أن أبا بكر سيأتي بعده، ويأتي بعد أبي بكر وعمر، فالنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده وحي من السماء للتعامل مع هؤلاء المنافقين، لكن

النبي يخشىٰ لو أخبر أبا بكر أو من بعده بهؤلاء الأسماء، وهو سيكون خليفة، أرأيت الفقه، هنا فقه المآل.

قلت لكم مرارًا أن السيرة تقرأ علىٰ أنها سيرة عقدية، ليست قصصًا تاريخية، نستلهم منها المواقف العقدية التي نتعامل بها في واقع الناس علىٰ الإيمان والكفر، انظر إلىٰ هذا الفقه، هل يخطر ببال أحد مثل هذا الفقه عن النبي ﷺ؟ إشفاقًا علىٰ أبي بكر، حتىٰ يجنبه مثل هذه الضغوطات.

المتن:

لأن تثبيت الله لنبيه يختلف عن تثبيت الله عَزَّوَجَلَّ لغيرهم، ولهذا أيضًا أنه ربما كان التعامل معهم يختلف؛ لأن النبي ﷺ كان الله جل وعلا يؤيده تأييدًا لا يؤيد أحدًا غيره.

ولهذا ليس من الحكمة أن الإنسان يبلغ أحدًا ربما يتأثر بهذا البلاغ، أو يأتيه بخبر ربما يؤثر علىٰ رسالته فيما بعد ذلك، وربما أيضًا من لا يتولىٰ ولاية له حال من جهة التعامل علىٰ خلاف غيره، أن يبلغ الإنسان أنه سيلقىٰ شدة، ولهذا النبي ﷺ أخبر عمر أنه سيقتل أو لم يخبره؟ أخبر عمر، وأخبر النبي ﷺ عثمان، ولهذا النبي ﷺ لما كان في بستان، وسمع خشخشة، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة: «ائذن له، وبشره بالجنة»، فدخل فإذا هو أبو بكر، فلما سمع آخر، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

«ائذن له، وبشره بالجنة علىٰ بلوىٰ تصيبه»، إذن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعلم عمر أو لم يعلمه؟ أعلم عمر، ولهذا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما ارتج عليه أُحُدٌ ماذا قال؟ «اثبت أحد، فإن فوقك نبيًا أو صديقًا أو شهيدًا»، إشارة إلىٰ أن الإنسان إذا كان يلقىٰ شدة فيما يستقبل، فينبغي أن يعلم أن الأمر في ذلك شديد، فعليك بالصبر، ولكنه لا يبلغ إلا صاحب القوة.

ولهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبلغ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وجاء أيضًا في خبر أنه أبلغ علي بن أبي طالب، أنه قال: «من الشقي؟» قال: «الشقي الذي يضربك علىٰ هذه، ويسيل الدم علىٰ هذه»، إذن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلغ بعض أصحابه.

الشرح:

وهنا لمَّح، ولم يسمه، والنبي يعلمه، لكن قال له: «**من الشقي؟**» قال: «**الشقي الذي يضربك علىٰ رأسك، حتىٰ يسيل دمك**»[1] هذا هو، لذلك قال: الشقي عبد الرحمن ابن ملجم، الذي قتل عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذلك الباغية التي قتلت عمارًا، كل هذه يلمح لها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتىٰ يستفهم منها الصحابة فيما بعده، لذلك لما جاء سعد، كسر سيفه واعتزل، سعد ابن أبي وقاص قال: «ما كنت لأقاتل أبدًا في هذه الفتنة، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرني

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، رقم: (١٨٣٢١)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ»، رقم: (٨٤٨٥).

بها، أعتزل عنها»، فهذا أصل، كذلك أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «عاهدت ألا أقاتل مسلمًا»، صحابة! إذن هم يعرفون مثل هذه التلميحات من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لذلك لما جاء الحسن بن علي، ووجد أنه يشرع في هذا، شرح اللـه صدره؛ لأن جده أخبره بهذا قال: «**ابني هذا يصلح به بين فئتين**»[(١)] إذن هذه كلها التلميحات من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يبثها حتىٰ يتثبت بها الصحابة من بعده، رضوان اللـه عليهم أجمعين.

المتن:

ابتلاء اللـه لرسله وأوليائه الذين يمكن لهم:...

الشرح:

ففرق هنا بين كرامة الدين، وبين عقبات الطريق، فاللـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أكرمنا بدينه وبعقيدته، والدين الذي أكرمنا به، وعلمنا عقبات الطريق الذي نسير إلىٰ اللـه فيه، فمن الكرامات أن يبتليك اللـه في الطريق، لا تظن أن هذا... لا، هذا من الكرامات، أن يبتليك اللـه بالطريق، ويثبتك عليه.

المتن:

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، رقم: (٢٧٠٤).

كذلك معرفة الإنسان أن الطريق شاق، هذا من السياسة الشرعية، ألّا يعلم أن الأمر ليّن، وأن الأمر هين، وأن السعادة حليفة الإنسان في الحق الذي يأتيه، لماذا؟ لأنه ينتكس لأول الأمر ولا يثبت.

الشرح:

يعني: لو سار في الطريق وهو يعلم أن هذا أمر هين ولين وسهل، ومفروش بالورود والراحة والرفاهية، فسينتكس من أول صدمة تقابله، من أول مشكلة تقابله، ما هذا؟ أفي الطريق هذا؟ أفي الطريق هذه العقبات وهذه المشاكل وهذه الدماء وهذه المصائب؟ ما كنت أعلم هذا الطريق! ينتكس يقول: لا لا، أنا لا أستطيع أن أمشي في هذا الطريق، هذا كله عقبات، وكله ابتلاءات، وسجون وتعذيب، لا لا. فهذا مهم جدًا في هذا الطريق.

المتن:

فينبغي أن يبلغ بالشدة في ذلك، ولهذا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ابتلىٰ الأنبياء، ويبتلي من بعده، ولهذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «يبتلىٰ الصالحون، الأمثل فالأمثل»، يعني: بحسب قربهم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يبتليهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لماذا؟ لأن الله جل وعلا {ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ}، لماذا؟ {يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ اشترىٰ من المؤمنين بقدر إيمانهم يكون في ذلك العقد، منهم من يبيع نفسه كله

إلىٰ الموت، ومنهم من يبيع حتىٰ ماله كله، فإذا سلب جاءته مصيبة أو بلية يعلم أنه في سبيل هذا الأمر جعله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا لماذا فاق أبو بكر الصديق عليه رضوان الله تعالىٰ الأمة كلها؟ لأنه قدّم كل ما لديه ولم يجعل شيئًا في قلبه في ذلك، ولهذا لما سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ماذا تركت لأهلك؟» لما النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استنفق الناس لغزوة، أتىٰ بماله كله، قال أبو بكر الصديق عليه رضوان الله تعالىٰ: «تركت لهم الله ورسوله»، فسأل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عمر: «ماذا تركت لأهلك؟» قال: «تركت لهم شطر مالي».

الشرح:

بهذا تقدم أبو بكر.

المتن:

لهذا نقول: إن الإنسان في مسألة سلوكه لطريق الحق إذا كان مبلغًا، أو كان مثلًا صاحب ولاية أو نحو ذلك، لا بد من إعلام الناس أن مثل هذا الطريق طريق شديد، ربما يجد الإنسان لأواء وشدائد.

«لأواء»، يعني: مصائب وشدة وصعوبة.

وليس أكرم علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا أكرم من الخلق عنده من نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا رسول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من الابتلاء الشديد؛ ليعلم من بعده أن حفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للدنيا ليس كرامة للإنسان، وأن أعظم كرامة هي حفظ الدين، أعظم كرامة للإنسان هي حفظ الدين، ولهذا الله جل وعلا أخذ من دنيا النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الشرح:

يعني: أخذ من دنياه، والتمسك بالبلد دنيا، والمال دنيا، وعدم الهجرة من بلادك، واستقرارك، وأمانك: دنيا، فعندما يأخذها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منك، ليبتليك ويرفعك ويعطيك الآخرة، فهذه كرامة، وإلا لماذا اصطفاك أنت بهذا؟ كثير من الناس يجلسون في بلدانهم آمنين، ويعملون، وعندهم أموال، وعندهم رفاهية، ولا يبتلون، لماذا أنت؟ يخرجك من بلدك، ويجعلك مضطهدًا مطاردًا مطالبًا، لماذا؟ هذه كرامة أكرمك الله بها، «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم**»(١)، هذه كرامة لك.

المتن:

أخرج من بلده، وأخذ مال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأوذي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عرضه، من سب، وشتم، وتقبيح، وتسفيه، وغير ذلك، ومع

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، رقم: (٢٣٦٤١)، والترمذي في «سننه»، رقم: (٢٣٩٦)، مع اختلاف في اللفظ.

ذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما جعل ذلك أن الـلـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا يحبه؛ لماذا؟ لأن الـلـه عَزَّوَجَلَّ اشترىٰ منه نفسه وماله.

الشرح:

هذا دستور للدعاة والذين يسيرون إلىٰ الـلـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أن يكون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قدوة لهم، فإذا أخرجوا من ديارهم، فلهم في النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أسوة، وإذا أوذوا في أعراضهم وشتموا، وأوذوا في نسائهم وأهليهم وأولادهم وذممهم ودينهم، كان لهم في رسول الـلـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أسوة حسنة، لذلك لا بد أن تطلع أنت علىٰ سيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في طريقه إلىٰ الـلـه؛ حتىٰ تكون لك عوامل ثبات تثبتك، تقول: وماذا جرىٰ لي؟ وماذا حصل لي في هذا الطريق؟ حصل للنبي والصحابة أكبر من هذا فصبروا وثبتوا، قال بعد أن ذكر هذا كله: {أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم}، يا رب ماذا حصل لهم؟ قال: ألا تعرفون؟ {مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ}، بأساء وضراء! قال: لا، ليس هذا فقط، قال: {وَزُلۡزِلُواْ}، لدرجة أن هذه الزلزلة جعلت الرسول يقول: {حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ}؟ حتىٰ قال الـلـه: {وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ}، أمر شديد.

فعندما أنت تقف علىٰ هذه العقبات في طريقك إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تكون لك عوامل ثبات، تقول: أنا ما زلزلت، ما مستني بأساء ولا ضراء، لم تبلغ القلوب والحناجر، أنا صابر علىٰ هذا الطريق حتىٰ ألقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما لقيه النبي الله صلىٰ الله عليه والصحابة.

هذا هو الطريق، لا بد أن تصبر نفسك، لو لم تقرأ مثل هذه الأمور، لم تكن عندك عوامل ثبات كافية علىٰ الطريق، لا بد أن تكون عندك عوامل ثبات كافية تكفي لثباتك وثبات من خلفك.

المتن:

ولهذا نقول: إن صاحب الولاية، أو الإصلاح، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الداعي إلىٰ الله، أو المصلح في أي باب من أبواب الإصلاح، عليه أن يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجعل مقياس الكرامة والمحبة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يأخذ من الإنسان أو يعطي من أمر الدنيا، ولهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك الدنيا من تلقاء نفسه، وكذلك أوذي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والله جل وعلا يحبه، مع ذلك أنزل عليه البلاء.

ومن أعظم أنواع البلاء: البلاء المعنوي، الذي ربما ينزل علىٰ الإنسان، ربما الإنسان يسلك طريقًا في أمور الإصلاح فيساء إليه، بالسب أو الشتم أو الاتهام في نيته، ولن يبلغ ما بلغ بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، والله جل وعلا

يرىٰ نبيه ينزل به ذلك، ويرىٰ الله عَزَّوَجَلَّ نبيه وهو الذي قدر عليه ذلك: أن يطرد، وأن يشج رأسه، وأن تكسر رباعيته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعلم أن هذا ليس هو الأمر العقد الذي بينه وبين ربه، يقول وهو موقن: «أنا سيد ولد آدم، بيدي لواء الحمد يوم القيامة، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة، أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»، يعلم أن العبرة بأن الله عَزَّوَجَلَّ مكن له، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حفظ له الدين، وهذه هي الكرامة الحقيقية، ولهذا الله عَزَّوَجَلَّ يأخذ من الدنيا ويدع؛ لأن هذا مقتضىٰ ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشرح:

يعني: عندما تسير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتشتم وتتهم أنك إرهابي متطرف، أو أنك أخذت أموال الناس، وأكلتها لنفسك، ولحسابك، واستأثرت بها، أو أنك عندك بدع الخوارج، أو التطرف، أو أنك لست رجلًا في بيتك ولا نسائك، كل هذه تتهم بها تهمًا شديدة جدًا، لو لم يكن عندك علم ستحبط، تقول: وما الذي جرني إلىٰ هذا الطريق؟ حتىٰ عرضي، حتىٰ أهلي، لا يسلمون! لا، أترك هذا، فعندما ترىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوذي في هذا، تقول: هو أسوة لي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

أما الدين فالله جل وعلا يكرم الإنسان بحفظه له، وهو أعظم كرامة، وهو الذي يسميه الله عَزَّوَجَلَّ النعمة، كما في قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: {ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا}، أكمل الله عَزَّوَجَلَّ النعمة والدين، هل زمن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ هو زمن ثروات؟ لا، كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ علىٰ كفاف، ما هي النعمة الكاملة؟ النعمة الكاملة: هي نعمة الإسلام، أنْ حفظ الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الأمة هذا الأمر، ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: {قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}، يعني: مما يجمعون من آراء الناس.

الحرص علىٰ جمع الكلمة والاجتماع علىٰ قيادة موحدة:

الشرح:

إذن هيبة الجماعة في الوحدة والاجتماع، لا بد أن تعرفوا هذا جيدًا يا إخوان، وهذا لا بد أن ينقدح في أذهانكم، أن هيبة الجماعة لا تكون إلا في الوحدة والاجتماع ووحدة الكلمة، فإذا كنتم جماعة علىٰ وحدة، وعلىٰ كلمة سواء، وعلىٰ عقيدة، وعلىٰ منهج، فهذه الوحدة تجعل لكم هيبة أمام الناس، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما فتح مكة إلا بعد أن قضىٰ علىٰ اليهود، والنبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فتح فارس والروم إلا بعد أن صالح قريشًا، فالوحدة والاجتماع هي الأصل.

المتن:

من سياسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حرصه علىٰ جمع الكلمة، وحرصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ القيادة، ولو كان هناك اثنان فقط.

الشرح:

هذا الذي يقول لك: لا نجتمع إلا إذا كنا كثرة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرك ويقول لك: «**ولو كنتم اثنين فأمروا، ولو كنتم ثلاثة فأمروا**»، فما بالك إذا كنا أكثر من هذا؟ لا بد من هذا.

كما قلت لك: تأمل هذا واعلم أنه سبب للنصر، وحدة الكلمة، والاجتماع، ووحدة الصف، تجعل لك هيبة، والكل يهابك، بل الكل يرجع إليك؛ لأنك صاحب قوة، وصاحب رأي، وصاحب علم، فأنت تُرفَع بعلمك وبوحدتك؛ أما بغير هذا فلا.

المتن:

ولو كان هناك اثنين فقط، وألا يختلفا، ولهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما بعث معاذًا أو أبا موسىٰ أمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يتطاوعا، بألا يخرجا عن أمر واحد يقضيان فيه لأمر الناس، أما ما يتعلق بعمل الفرد لصالح نفسه،

فإن الأمر إليه، لماذا؟ لأن الأمة إن اختلفت ولم يكن لها قيادة، فإنها إلىٰ شتات.

الشرح:

هذا مهم جدًا يا إخوان، الأمة إن لم يكن لها قيادة فهي إلىٰ شتات وتمزق وتفرق، والخلافة الإسلامية حتىٰ وإن كانت خلافة مريضة، فيها من الشركيات، إلا أنها كانت تجمع المسلمين جميعًا تحت راية واحدة، مع أنه كان فيها من الأمراض والمشكلات وغير ذلك، إلا أن مجرد الاجتماع كان يغيظ الكفار، وكانت تهابها أوروبا كلها؛ لأنهم يعلمون أن وحدة المسلمين تصدر عن كلمة واحدة، كل المسلمين يأتون عن كلمة واحدة؛ أما الآن! فكان من أسباب ضعف المسلمين: سقوط دولة الخلافة.

لذلك لما قامت في الحركات الإسلامية والجماعات الإسلامية والطائفة الإسلامية فكرة إقامة دولة إسلامية، العالم كله هاجمها؛ لأنهم يعرفون أن في وحدة المسلمين زوال الكفر والكفار جميعًا، لذلك حاربوها بأي صنف من الأصناف، تحت أي ذريعة من الذرائع، وهم يعلمون حقيقة ذلك، ولكن تستروا بكل هذه التهم وهذه الشائعات، لماذا؟ لأنهم يعرفون جيدًا أن قوة المسلمين في وحدتهم، وللأسف بعض السذج لا ينتبهون إلىٰ هذا الهدف الخبيث، وينساقون وراء الأفكار الواردة بأي حجة من الحجج، ولو كان

عندهم عقل، ولو كان عندهم فقه، لا أقول: عندهم دين، أنا لا أشك في دينهم، عندهم دين، ولكن ليس عندهم فهم، ليس عندهم استيعاب لحقيقة الأمر، لو علموا هذا، والله، لسارعوا إلىٰ الوحدة والاجتماع؛ لأن هذا فيه عز للإسلام الذي يدعون إليه، هذا فيه قوة للتوحيد الذي ينتمون إليه، هذا فيه ثبات للدولة التي يسعون إلىٰ قيامها، فكل هذه الأمور كيف لا تسعون إليها؟

فغيبة الوعي وعدم الفهم، هو الذي يؤخرهم عن هذا، ولو فهموا لقدموا -إن شاء الله-.

المتن:

ولهذا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يبعث سرية ولا غزاة في غزوة، ولا قومًا في سفر، إلا ويؤمر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليهم أميرًا، بل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحث أصحابه إذا كانوا في سفر، ثلاثة فما فوق إلا وجعل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليهم أو منهم أميرًا، لماذا؟ لأن الأمة لا بد لها من آمر ومأمور، وإلا لا يستقيم أمر الأمة؛ لماذا؟ لأن في الجماعة هيبة، وهذا من أعظم السياسات التي اتخذها الأنبياء في أممهم، أن يجتمع الناس علىٰ أمر واحد؛ وذلك أن الجماعة لها هيبة أكثر من الفرقة، ولو كان الناس علىٰ ملة واحدة.

ولهذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهىٰ عن التنازع والتفرق؛ لماذا؟ قال: {فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال:٤٦]، يعني: القوة، وهيبة الناس، النبي

صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين اللـه عَزَّوَجَلَّ له أن الجماعة أمر فطري، أمر فطري في كل ما يدرك، حتىٰ في البهائم، لهذا يقول النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما جاء في المسند والسنن قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا يؤذن فيهم ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، وعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»، لماذا الذئب يأكل من الغنم القاصية ولا يذهب إلىٰ الجماعة؟ لأنها أظهر في الاختيار وإتاحة الفرصة؛ لماذا؟ لأنه حتىٰ البهائم تهاب الجماعة، وهي تعلم أنه إذا جاء إلىٰ الغنم وهي مجتمعة أو مختلفة، أن ذلك لا يؤثر عليه شيء، ولكنه أمر في قلوب الكائنات جعله اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لهذا الأمة التي تختلف مهما كانت كثيرة، يهزمها الأقل منها إذا كانوا مجتمعين، ولهذا اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لماذا ينصر المئة والمئتين علىٰ الألف والألفين من المشركين؟ لماذا؟ لأن أمرهم من جهة الاجتماع أعظم، ولماذا يهزم النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ اليهود وأضرابهم مع قلة العدد؟ لأن اللـه عَزَّوَجَلَّ يقول عنهم: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ}، كذلك كفار قريش هل هم مجتمعون من جهة الحقيقة أو مختلفون؟ لا، مختلفون؛ لأنهم لم يخرجوا بصدق وإخلاص، ولهذا اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذكر خروجهم أن سببه كما قال: {بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ} لأجل الكبر، {بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ} كلٌّ يرائي الآخر، لكن ليس لهم مبدأ، وليس لهم رأي؛ لماذا؟ لأنهم ليس لديهم اقتناع حتىٰ في الوثنية، لهذا اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}، يعني: لا

يكذبون دعوة النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، {وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ}، يجحدون بهذه الرسالة الحقة، ولكن من جهة الحقيقة هزيمتهم إنما كانت بالاختلاف الباطن، ولو كان الاجتماع من جهة الظاهر، فغلبت أمة مجتمعة باطنًا وظاهرًا أكثر بأضعاف مضاعفة أمة مجتمعة في الظاهر وغير مجتمعة في الباطن، ولهذا من أعظم ما ينصر الأمة أن تجتمع علىٰ ملة وعقيدة واحدة، وأن تجتمع كذلك في صف واحد.

الشرح:

فالجماعة -كما قلنا- أمر فطري، وأقوىٰ أسباب النصر: الاجتماع علىٰ أمر واحد، هذه أقوىٰ أسباب النصر، إن كنتم تريدون نصرًا فاجتمعوا؛ لذلك أنا أكرر دائمًا، في كل مناسبة أكرر: الجماعة خير، والفرقة شر. لا بد أن تجتمعوا.

والجماعة في القرآن والسنة تأتىٰ علىٰ معان:

فمن معاني الجماعة: جماعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه، **فأول** ما تطلق الجماعة علىٰ جماعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والصحابة، وهم الذين مثَّل بهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما أمر بالاستمساك بالجماعة، قيل: «من هم الجماعة؟» قال: «**من كان علىٰ ما أنا عليه وأصحابي**»[1]، فالجماعة تعني: النموذج الأول

---

(١) رواه الترمذي في «سننه»، رقم: (٢٦٤١).

لجماعة المسلمين، وهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحابته، ولزومهم أي: باقتفاء أثرهم في الاعتقاد والقول والعمل.

المعنىٰ الثاني: تطلق الجماعة علىٰ أئمة الدين المقتدىٰ بهم، أئمة أهل السنة والجماعة، فهم أول من يندرج تحت مسمىٰ الجماعة بعد الصحابة، في كل عصر بحسب حاله، فأئمة الدين الأحياء منهم والأموات هم الجماعة، وهم أئمة الهدىٰ القدوات.

المعنىٰ الثالث: أن الجماعة قد تطلق علىٰ معنىٰ الاجتماع علىٰ السنة والحق والمصالح الكبرىٰ للأمة.

والاجتماع علىٰ السنة قد يكون معنىٰ حسيًا، وقد يكون حسيًا واعتباريًا، وقد يكون اعتباريًا فقط، بمعنىٰ أنه قد تتحقق الجماعة في زمن غربة الإسلام بمن يستمسك بها، وإن تفاوتت أوطانهم وتباعدت أجسادهم؛ لأنهم يجتمعون علىٰ السنة، فقد تكون مجموعة منهم في هذه البلاد، وأخرىٰ في الشام، وأخرىٰ في أفريقية، وثالثة في أقصىٰ الدنيا، وقد يكون من الجماعة أفراد ولو في الصين، وقد يكون فرد علىٰ السنة والجماعة، فيدخل في مسمىٰ الجماعة بهذا المفهوم الشرعي الأصيل.

إذن الجماعة: هم الذين اجتمعوا علىٰ السنة وإن تفارقت أجسادهم، واجتمعوا علىٰ الحق وإن اختلفت أوطانهم وأزمانهم، وهم أيضًا من اجتمعوا

علىٰ المصالح العظمىٰ للأمة، سواء في بلد معين أو في بلد مختلف.
والمعنىٰ الرابع للجماعة: هم عموم المسلمين الذين لا يزالون علىٰ أصل الإسلام، قد يتمثل فيهم معنىٰ الجماعة، خاصة عندما تحيط بالأمة الأزمات والنكبات والمصائب العظمىٰ، فإنه قد يجتمع شمل المسلمين علىٰ ما هم فيه من اختلاف في المذاهب الفقهية، وعلىٰ ما هم فيه أحيانًا من اختلاف في الآراء، فقد يتحقق فيهم المعنىٰ العام لجماعة المسلمين ما داموا علىٰ الحق، بما في ذلك العامة، وبما في ذلك الذين عندهم شيء من الأخطاء التي لا تصل إلىٰ حد الخروج عن أهل السنة والجماعة خروجًا متعمدًا، حتىٰ من ارتكب بدعة من غير قصد يدخل في مسمىٰ الجماعة، ما لم تكن بدعته مكفرة، أما إذا قصد وصار داعية بدعة، خرج من مسمىٰ الجماعة.

إذن من إطلاقات الجماعة: جماعة عموم المسلمين، وهو ما يعبر عنه بـ «السواد الأعظم»، وهذا مشروط بمن كان علىٰ الحق، أئمتهم وولاتهم وعامتهم.

الخامس من معاني الجماعة: تطلق الجماعة علىٰ أهل الحل والعقد، وهذا كثير خاصةً فيما يتعلق بالوِلاية أو الوَلاية، ويتعلق بالسلطان.

فتطلق الجماعة علىٰ أهل الحل والعقد، وعلىٰ رأسهم الولاة والعلماء، ثم من كان له أثر في الأمة بحكم مسئوليته وموقعه، فيدخل في ذلك أمراء وقواد

الجيوش، ويدخل في ذلك الوزراء ورؤساء العشائر، والزعماء المطاعون في أقوامهم، ويدخل في ذلك أهل الرأي والمشورة الذين لرأيهم أثر في مصالح الأمة، وينتظم بهم معنىٰ الجماعة عند الخطوب، وإن لم يكونوا علىٰ الاستقامة.

وهذا أمر خالفت فيه جميع الفرق، ولم يجتمع عليه إلا أهل السنة والجماعة، فإنهم لما نظروا إلىٰ أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجدوا أنه أمر بالاجتماع علىٰ الأمراء والسلاطين، وعلىٰ أهل الحل والعقد، وعدم الخروج عن الجماعة علىٰ هذا المعنىٰ، حتىٰ وإن كان في الأمراء والسلاطين تقصير وأثرة وظلم؛ لأن الاجتماع يتحقق به الخير، وتندفع به المفاسد، وبالفرقة يحصل الفساد في الدنيا والدين، وهذا يخالف قواعد الدين وغايات الشرع.

إذن أهل الحل والعقد يدخلون في مفهوم الجماعة في كثير من الحالات، وليس في كل الحالات، إذا استغنت الأمة بإمامة راشدة، وبالعلماء الراسخين، فقد يجتمع فيهم جميع هذه المعاني، أما إذا تخلفت شروط الولاية، أو وجد في الأمة نقص وتقصير، فإنه لا بد أن ترجع الأمة إلىٰ أدنىٰ من يمكن أن يجتمع عليه، فمن اجتمعت عليه الأمة من أهل الحل والعقل، فهو داخل في مفهوم الجماعة، ومن خالفهم، فهو داخل في الوعيد الوارد في الخروج علىٰ الجماعة،

وهذا المعنىٰ أكثر المعاني غموضًا عند كثير من الناس، وهي التي يكون فيها الخلاف والنزاع بين أهل السنة ومخالفيهم.

المعنىٰ السادس للجماعة: هم الفريق من الناس الذين يجتمعون علىٰ مصلحة الناس، سواء كانت دينية، وهو الأولىٰ، مثل: جماعة المسجد، جماعة الحي، جماعة الحسبة، جماعة الجهاد، فهؤلاء جماعة، ولهم حقوق شرعية مرعية، فجماعة المسجد لها حقوق، فلا تصح الصلاة للرجل إلا في المسجد، والمسجد أيضًا ينبغي أن يكون منطلق شورىٰ لأهل الحي وجماعة المسلمين، وكثير من قضايا الأمة وعقودها الضرورية تعقد في المسجد.

فالفريق من الناس الذين يجتمعون علىٰ عمل ما، سواء المصالح الدينية كما ذكرت، أو اجتماعات دنيوية، كالجماعة الذين في سفر، يتحقق فيهم معنىٰ الجماعة، وقد يكون الشذوذ عنهم إثمًا، حتىٰ وإن كانت المصلحة دنيوية، لكن يتفاوت هذا الإثم، فالإثم في الخروج علىٰ الجماعة الدنيوية، ليس كإثم الخروج عن الجماعة التي يتحقق بها معنىٰ الدين ومصالح الأمة الكبرىٰ.

إذن كل هذه المعاني تدخل في معنىٰ الجماعة، كما ذكرها الشيخ ناصر العقل في تعليقه علىٰ السنة للبربهاري.

المتن:

وصايا في السياسة الشرعية الوصية بالاجتماع والتآلف:

ولهذا وصيتي إليكم بالاجتماع والتآلف والتطاوع ولو اختلف الناس في أحوالهم، وعدم التفريق أيضًا في أحوال الناس ما جمعتم في دائرة الإسلام، لهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سياسته مع الناس هل كان الصحابة علىٰ أمر واحد؟ ما كانوا علىٰ أمر واحد، مع ذلك النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحرص علىٰ قربهم منه مع وجود بعض المنافقين في الصف، مع وجود بعض من يرتكب الكبائر في الصف.

محاولة الجمع، جمع الصف، وتوحيده تحت قيادة واحدة، ولو وجد في الصف من هو مقصر أو من يرتكب كبائر أو نحو ذلك، الاستعانة بأمثال هؤلاء وتكثيرهم السواد من المصالح الشرعية؛ لماذا؟ لأن الأمة تقابل عدوًا آخر ليس من هذه الدائرة المتسعة.

الشرح:

يعني: تقابل عدوًا ليس مسلمًا، تقابل عدوًا ليس من دائرة الإسلام المتسعة، فكل من ينتمي إلىٰ دائرة الإسلام نقربه، مع أنّا نعلم أن فيه مخالفات، ممكن يكون فيه نوع نفاق عملي، ممكن يكون فيه كذب، يكون فيه معاصي، يكون فيه مثل هذه الأمور، ولكن عند المصافّة مع الكافر الأصلي لا بد أن يجتمع كل من يدخل في دائرة الإسلام، هكذا فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

ولكن صاحب الولاية وصاحب الأمر، وكذلك صاحب السيادة لا يدني إليه من يلتصق منه إلا الأقوياء في الباطن.

الشرح:

بينّا هذا، لا نقرِّب إلىٰ الدائرة الضيقة إلا الأمناء الصادقين، لا يدخل فيها إلا من نعرف، أما الدائرة المتسعة فيدخل فيها كل من ينتمي إلىٰ الإسلام.

المتن:

مما يعلم منهم من الدلالات الظاهرة، ولا يخرج الأبعدين منه ويقربهم شيئًا فشيئًا، لهذا من أصحاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من يجلد في الخمر، ولا ينفره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأتي مع صفوف المسلمين لا يعزل أحدًا، ولهذا لما كان أحد الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ أتي به وهو يشرب الخمر، قال الصحابي وكثيرًا ما يؤتىٰ به، فجلد في الخمر، فقال أحد الصحابة: «لعنه الله، ما أكثر ما يؤتىٰ به»، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله».

أصحاب الأخطاء في المجتمع، أرباب الكبائر، أرباب الفسوق، أرباب المخالفات الشرعية، هم في صف الإسلام، ينبغي ألا يبعدوا.

الشرح:

لذلك صاحب القيادة يختار الأقوياء ويقربهم منه، يختار الأقوياء الذين يعرفهم في باطنهم، يعرفهم معرفة شخصية، هؤلاء يقربهم ولا يبعدهم، وهذه الدائرة تتسع بقدر معرفته بهم، ثم الدائرة الأكبر هذه عامة الناس، كل من يدخل في الإسلام معهم؛ أما هذه الدائرة فلا بد أن تكون قريبة من صانع القرار.

المتن:

الإنصاف في إنزال العقوبة بالظالم:

كذلك ينبغي علينا أن نعلم أن من أخطر أنواع أو من أدق أنواع الإنصاف: إنصاف الظالم، ألّا يظلم عليه عند الانتقام منه، ولهذا كما جاء عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالىٰ، لما أتي برجل أصاب حدًا، انظروا إلىٰ الإنصاف حتىٰ في العقوبة، ليس كل ظالم يكيل الناس عليه ما يريدون، لا.

الشرح:

يعني: بمجرد أن يخطئ كل الناس تنزل عليه، لا، انتبه، هذا وقع في أمر يقدر بقدره، ولا تزيد؛ لأن زيادتك عليها ظلم.

المتن:

له حق أيضًا في إنزال العقوبة، لو أنزلت عليه العقوبة بزيادة يسيرة تحول من ظالم إلىٰ مظلوم، ولهذا لما أتي عمر بن الخطاب برجل أصاب حدًا، فقال للجلاد: «ائتني بسوط»، فجاء بسوط غليظة، قال: «ائتني بسوط أدنىٰ من

هذه»، فأتي بسوط يسيرة، قال: «ائتني بسوط بين السوطين»، فجاء بسوط بين السوطين، فقال للجلاد: «اضرب في أعلاه وأسفله، ولا تضرب في موضع واحد، وأعط كل واحد مكانه، ولا ترني إبطك»، يعني: لا ترفع اليد كاملة، له حق أو ليس له حق؟ له حق حتىٰ في مقدار إنزال العقوبة، وله حق أيضًا إذا ارتكب كبيرة ألا يُلعَن؛ لنتعلم منه الإنصاف.

الشرح:

هذا في العقوبة في إقامة الحد، انظر إلىٰ العدل، انظر إلىٰ الإنصاف، قال: «ائتني بسوط»، وجده سوطًا شديدًا، قال: «ائتني بأقل من هذا» وجده سوطًا يسيرًا لا ينفع للعقوبة، قال: «ائتني بسوط بين السوطين»، لا هو شديد قوي، ولا لين، انظر إلىٰ الإنصاف، إنصاف رجل مرتكب كبيرة، يقيم عليه حد، ثم بعد ذلك قال: «اضرب في أعلاه وفي أسفله»، لا تضرب في موضع واحد؛ حتىٰ لا تؤلمه في موضع واحد، حتىٰ العقوبة يوزعها علىٰ الجسد كله، انظر إلىٰ العدل، حتىٰ في إنزال العقوبة، ومع ذلك قال: «ولا ترني إبطك»[1]، يعني: لا ترفع يدك هكذا بقوة وتنزل، لا.

انظر إلىٰ هذا الإنصاف. لذلك لما تكلمنا في بداية كتاب «الدولة في الإسلام» قلنا: الأصل العدل، حتىٰ مع المخالف العدل.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ»، رقم: (١٧٥٧٥).

المتن:

ولهذا من أدق المواقف أن يرد مثلًا علىٰ الأمة شخص ارتكب كبيرة، ليس لك أن تطلق التهم عليه، وليس لك أن تطلق اللعنات عليه لمجرد ذنب وقع فيه، كذلك إذا علمت فيه خيرًا، عليك أن تظهره ولو في زمن إنزال العقوبة، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا تعلنه» لماذا؟ لأنه يحب الله ورسوله، في هذا تعريف أن هذه العقوبة ليست إغلاقًا لما بيننا وبينك من اتباعك لرسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هذا شيء من التطهير أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به.

من الأمور التي تبلىٰ بها المجتمعات الإسلامية، هي المفاصلة للخطأ والخطائين، أن الإنسان يخرج من الدائرة كلها لشيء من النفرة أو النظرة إليه، أو الكيل بعقوبات متعددة؛ لماذا؟ لأن اللفظ عقوبة، لماذا تنزلها بلا دليل؟ لماذا تلعنه بذاته بلا دليل؟ العقوبة الشرعية هي الجلد، وقد نزل الجلد، وما عدا ذلك ليس إليك.

ولهذا الخلفاء الراشدون من بعد النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أئمة في الإنصاف، حتىٰ في إنزال العقوبة علىٰ الظالم؛ لأنه يتحول بعد ذلك إلىٰ مظلوم، فيدعوا وبمقدار مظلمته ينتصر الله عَزَّ وَجَلَّ له منك.

أهمية التستر علىٰ أخطاء الناس وعدم إشاعتها:...

الشرح:

إذن التستر علىٰ أخطاء الناس، وعدم إشاعتها، وكتمان المعاصي، علامة صحية في المجتمع، لذلك لا يجوز للقائد أو الأمير أن يسمح لإشاعة مثل هذه الجرائم بين الناس، يعني: رجل وقع في معصية، وقع في زنا، لا تقل: سنقيم الحد اليوم علىٰ فلان، أو هذا الرجل كذا وكذا، أو كنا في مكان كذا وهذا سرق، وهذا زنا، وهذا... لا تقل هذا.

لذلك من أقوىٰ الموبقات في المجتمع العالمي الآن: نشر الجرائم، تقرأ الآن في صفحة الحوادث، هذا كله لا يكون في الدولة الإسلامية، الأصل في الدولة الإسلامية الستر علىٰ أصحاب المعاصي، انظر إلىٰ قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حادثة ماعز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لما جاء ابن عمه هَزَّال، قال: «يا رسول الله، إن ماعزًا كذا كذا كذا»، وبخه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «هلا سترت عليه بطرف ثوبك؟ قبل أن تأتيني وتخبرني أنه فعل كذا وكذا وكذا»، «هلا سترت عليه بطرف ثوبك؟»، يعني: هلا سترت عليه بطرف ثوبك وهو يزني؛ حتىٰ لا تنظر إليه أنت، انظر إلىٰ تضخيم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جريمة إشاعة الفاحشة، وحرصه علىٰ الكتمان، قال: هلا سترت عليه بطرف ثوبك قبل أن تأتيني، وترفع أمره إلىٰ القضاء، لولا نصحته، لولا فعلت، قال: وماذا بعد؟ قال: وصل أمره إلىٰ القضاء، فليس لي إلا أن أنفذ، اسمع منه وأقول: كذا وكذا، حتىٰ أستبرئ. (لم أجد هذا السياق)

فانظر إلىٰ المجتمع المحافظ الصحي، الذي يحافظ علىٰ أفراده، لا يشيع فيهم أبدًا، أما لو زنا رجل بامرأة، وبدأت تشرح أنت كيف زنىٰ بها، وكيف قابلها، وكيف بدأ بمكالمة في الهاتف، ثم برسالة، فأنت الآن تعطي لضعاف القلوب الطريقة ليفعل مثل فعله، بإشاعتك هذا وأنت لا تقصد، لكنك تفعل هذا من عدم فقهك.

رجل سرق، فأنت تتكلم من باب بشاعة السرقة، ولكن في نفس الوقت ليس عندك فقه، فتشرح كيف سرق، وكيف دخل البيت، وكيف دخل المصنع، وكيف دخل الشركة، وكيف جاء بالسلم، أنت تشرح له الطريقة، ومن ضعاف القلوب من يفعلها، أو يطورها، فأنت فتحت له الباب.

لذلك نحن نتعجب من جرائم في المجتمع، يتفننون فيها، ما كان من ثلاثين أربعين سنة مثل هذا الوضع، لماذا تطورت؟ لأنهم ينشرونها، فكلٌّ يأخذ ويفكر: هو وقع في يد الشرطة، فحتىٰ لا أقع أفعل كذا وكذا، وهكذا، فلو قطعنا هذا الشر من المجتمع، هل سينتشر؟ أبدًا، ولا يسمع به أحد.

فالكتمان علىٰ أهل المعاصي علامة صحية في المجتمع.

المتن:

لهذا نقول: إن صف المسلمين واحد مهما بلغ الأمر، فهم ينخرطون في أمور الجهاد، وينخرطون في أمور الأمانات، وينخرطون في أمور العبادات،

وينخرطون في مجالس الناس، لهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ المنافقين أو لا يَعْلَم؟ يعلم المنافقين، قد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث عمار بن ياسر، أن حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالىٰ قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «في أصحابي اثنا عشر منافقًا، ثمانية منهم لا يدخلون الجنة، حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط».

الشرح:

فهنا صِفْ ولا تُسَمِّ، حذِّر بالوصف، ولكن لا تسم؛ حرصًا علىٰ صلاح الناس، ووجودهم في الجماعة، لكن لو أعلنت بأسمائهم فرقت، ولهم أتباع، ولهم ناس يحبونهم، وينتصرون لهم، فأنت تفسد الجماعة كلها، فصف ولا تسم، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: «**ثمانية منهم لا يدخلون الجنة**»، يعني: المنافقون كفار.

المتن:

«حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط».

الشرح:

«**في أصحابي اثنا عشر منافقًا، ثمانية منهم لا يدخلون الجنة حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط**»(١)، هل يمكن للجمل أن يدخل من ثقب الإبرة؟ مستحيل.

---

(١) «مسند أحمد»، رقم: (٢٣٣١٩)، «صحيح مسلم»، رقم: (٢٧٧٩).

المتن:

إذًا النبي لا يعلم العدد فقط، بل يعلم درجات النفاق، أن هذا نفاق أكبر وهذا نفاق أصغر، ولهذا من السياسة الشرعية: أن الإنسان إذا علم زلة علىٰ أحد، أو علم بلاء فيه، أو رأىٰ منه شيئًا ألا يشهر به؛ لماذا؟ لأنه يكتم هذا الأمر، بخلاف الذي يعلن، الذي يكتم لماذا لا تعلن به؟ لأنك إذا شهرت به أخرجته من الدائرة، دائرة الجماعة، وهذا شق للصف أو ليس بشق؟ شق للصف.

الشرح:

فلا بد من حكمة في معالجة مثل هذه الظواهر.

المتن:

الأمر الثاني: دعه في الجماعة حتىٰ يذوب وينصهر.

الشرح:

يذوب في الجماعة وينصهر، «دعه»: اتركه؛ حتىٰ يذوب في الجماعة، ويعرف حقيقة الجماعة، ويذوب فيها، وينصهر بمشاكلها وبهمومها وبغير ذلك، أو حتىٰ يُنسَىٰ أمره، لا يُلتَفت له.

المتن:

الأمر الثالث: حتىٰ لا يُخرج ما يخفي؛ لأن كثيرًا من الناس الذين يتصدرون لجانب الإصلاح، أو جانب الدعوة، أو جانب الإعلام، أو نحو ذلك، إذا رأىٰ زلة من شخص أو نحو ذلك، قاموا بالتشهير به، الإعلاميون يقولون: هذا من

السبق الصحفي، وبعض الدعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أو المصلحين أو نحو ذلك، أو الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أو بعض المحتسبين، يقول: هذا من التحذير من أمثال هذه الأمور، نقول: هذا ليس كذلك، ينبغي أن نفرق بين من يعلن الخطأ وبين من يسر به؛ لأننا إذا أخبرنا بكل سريرة فعلها الإنسان، دعوناه إلىٰ أن يُخرِج مكنونه، يعني: أَخْرج ما لديك، وإذا أخرج ما لديه ماذا سيفعل؟ سينضم إليه واحد شرقي يؤيده أيضًا، كان يكتم ولا يعلم أنه يوجد في هذه الأمة المجتمعة واحد يوافقه بما يكتم، حينئذ تخرج الأحزاب الضالة من جسد الأمة؛ ولهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أخبر الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ بأسمائهم وهو يعلمهم، وما أخبر المقربين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك وهو يعلمهم، وما حذر الجميع منهم وقال: لا تصاحبوهم واحدًا واحدًا حتىٰ يتناقل الناس ويعلموا، لكن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ماذا فعل؟ من سياسته كان يذكر الأوصاف ولا يذكر الأشخاص، ما هي أوصاف المنافقين؟ يشير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ أنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالىٰ، «أثقل الصلوات علىٰ المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»، حتىٰ يقول عبد الله بن عمر يعني: أنا نأخذهم بالظن، ليس لدينا تصريح، يقول عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالىٰ كما روىٰ ابن أبي شيبة وغيره قال: «كنا إذا فقدنا الرجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر أسأنا الظن به»، يعني: لا نتأكد، أسأنا الظن به، هذه أوصاف؛ لماذا؟ دفعًا للمنافق أن يخرج نفسه من هذا

الوصف، وكذلك تحريضًا لأهل الإيمان أن يثبتوا علىٰ ما هم عليه حتىٰ لا يوصفوا به، كذلك فيه تقريع وتحذير، أي: لا تقترب جدًا من مثل هذا فتوغل فتنكشف، ولهذا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من السور التي يقرؤها في صلاة الجمعة في الناس سورة المنافقين؛ لماذا؟ لأن الجمعة أكثر حضورًا من قبل المنافقين، ويحضرها منافقو المدينة، وكذلك من كان من أطرافها من الأعراب وغيرهم، حتىٰ يسمعوا أوصافهم، ولا يتكلم عليهم بأعيانهم.

ولهذا نقول: لا مسالمة مع الزلل السري، ولكن المسالمة هي مع أصحابه؛ رحمةً بهم ألا يبتعدوا، ورحمة بالأمة حتىٰ لا لا يذوب الصف وينشق، ولهذا إذا رأيت زلة من شخص، أو رأيت من أحد مثلًا سرًا ظهر لك من أمور المحرمات، أو أمور المعاصي، فلا تبدها لأحد، ولكن إذا وقفت في منبر، أو كنت أمام جماعة، فتكلم علىٰ هذا الجرم كله ولا تلتفت إليه، لماذا؟ لأنك لو أبديته له، فربما كان لديه جملة من الأعمال الصالحة فبدأ بتركها، لماذا؟ لأنه سيقول: فسقوني الناس وانتهىٰ الأمر، وهذا إبعاد للناس عن الحق، فربما يكون الإنسان لديه ذنب واحد، ثم تسببت فيما هو أبعد من ذلك؛ لهذا تحذر الجماعة من تناقل الأقوال، وكذلك الآراء السيئة التي يستتر بها الإنسان ولم يسمعها إلا واحد أو اثنان، فهذا من إشاعة الخطأ وترويجه، أو تناقله بين الناس، فينتقل من واحد إلىٰ واحد حتىٰ يأتي إلىٰ العاشر، ويعلم أنه يوجد من يؤيده؛ فيتواصل أهل الباطل مع بعضهم، فيكونون حينئذٍ شبكة في الرأي،

ويتسبب في هذا من هو؟ من نقل من حيث لا يشعر، ولهذا تجدون أهل الباطل الشرقي يتصل بالغربي، وقد تسبب في ذلك مجموعة في الداخل لا يعلمون أنهم قد خالفوا منهج النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لهذا نقول: إن الجماعة هي من المطالب الشرعية.

الشرح:

فنحرص علىٰ صلاح الناس، ونتحمل ما فيهم من عيوب؛ لأنك لو سمحت لهذا أن يخرج، وأعلنت عنه، ففي الصف من عنده نفس الشبهة، ولكنه لا يستطيع أن يعلنها؛ لأنه ينكر هذا، فإذا أعلنت أن هناك من يقول بهذا، تجد هذا يقوم، يقول: يوجد من يتكلم مثلما يتكلمون، والثالث والرابع، فأنت تقوي هؤلاء، ثم هؤلاء يتحيزون، فيخرجون من جسد الأمة بجماعات أو أحزاب أو معارضين. ثم الأشد من هذا: لهم أتباع في الغرب الكافر، يقولون: لنا أنصار عند المسلمين، يحملون نفس أفكارنا، فلماذا لا نتابعهم، لا نراسلهم، لا نمدهم، لا نعطيهم ما يقويهم حتىٰ ينشروا فكرتنا؟ فأنت تسببت دون أن تدري بمثل هذه المصائب، لأنك ما عندك فقه في معالجة الجماعة المسلمة.

المتن:

الحرص علىٰ استصلاح الناس وعدم إخراجهم من دائرة الجماعة:

كذلك ينبغي لنا ألا نطلب جماعة مكتملة الأوصاف والصلاح، وأن ننظر إلىٰ أحوال الناس ونستصلحهم، فالصدر الأول وُجِد فيه مرتكب الكبائر، ووجد فيه المنافق، ووجد فيه الكائد، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول لنبيه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: {وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ}.

الشرح:

هذه مزلزلة، الله يقول للنبي: {وَفِيكُمْ} لم يقل: وفيهم، بل قال: {وَفِيكُمْ} يعني: وفيكم أنتم، في جماعتك في من هم حولك.

فأنت لا تريد مجتمعًا كاملًا، ومن نظر إلىٰ هذه المثالية يفشل، بل يصدم؛ لأنك لم تتوقع الخطأ، فتقول: كيف هؤلاء يخطئون، هذا أخ أنا ربيته بنفسي، وهذا الأخ أنا علمته، كيف يقع في هذا؟ يقول: يا رجل أنت مسؤول عن هذه الدولة، مسؤول عن الإخوة، مسؤول عن هذا البيت، كيف يخفىٰ عليك هذا؟ النبي صلىٰ الله عليه ألم يربِّ الصحابة؟ ألم يعلمهم؟ ومع ذلك وقع منهم أشد من هذا، استوعِب، فكِّر، ولكن احتوِ وصلِّح، هكذا يكون.

المتن:

فيكم سماعون للكفار، {سَمَّٰعُونَ لَهُمْ} يعني: في من حول النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، إذن كانوا يعلمون أن الصف فيه من فيه، ولكن العبرة هي باستصلاحنا لهم، يستصلح الناس، بماذا؟ بالتذكير بالعلم، بالدعوة إلىٰ الله،

باللسان، بكثرة الخطب، بكثرة المواعظ، بكثرة التعليم، بكثرة التربية، ونحو ذلك، ويبقىٰ الأمر علىٰ ما هو عليه.

والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما توفي ارتد من ارتد من العرب؛ لأنه يوجد في الصف من يتهيب الحق ولا يريد أن يخرج، ولهذا لما توفي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ارتد من ارتد، فاحتاج الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ بعد ذلك إلىٰ المقاومة، وفي هذا إشارة إلىٰ أن كثيرًا من مرضىٰ القلوب لا يظهرون الباطل، ويظهرون جماعة المسلمين لهيبة صاحب الحق لا هيبة للحق، فإذا زال أو مات نكصوا علىٰ أعقابهم.

ولهذا نقول: إن من الأمور المهمة في جانب السياسة الشرعية: الحرص علىٰ الجماعة، ينبغي ألا يلتمس الإنسان وصفًا معينًا، أو درجة من التدين معينة ما دامت الأمة في دائرة الإسلام، بل نقبل في الصف من كان معنا، حتىٰ لو كان مرتكبًا للكبيرة أو من الموبقات، الخمر من الموبقات أو ليس من الموبقات؟ بلىٰ، من الموبقات، يكون في صفنا، ومن المصلين من يبلىٰ بهذا ويقام عليه الحد، ولا يبعد من صف المسلمين، قد تجتمع أعلىٰ طاعة يجعلها الله عَزَّوَجَلَّ مع شخص، ومع ذلك قد يرتكب موبقًا من الموبقات، نعم، لا تناقض؛ لأن الإيمان شعب؛ أبو عبيدة أما كان في غزوة من الغزوات وشرب معه الخمر من شرب؟ أليس الجهاد من أفضل الأعمال؟ النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سئل كما في الصحيح: «أي العمل أفضل؟» قال: «إيمان بالله»، قيل: «ثم ماذا؟» قال: «جهاد في سبيله»(١)، جاهدوا في سبيل الله، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «اتقوا السبع الموبقات»(٢)، وذكر منها الخمر، إذن موبق مع أفضل الأعمال، قد يجتمعان في المسلم، ولا يُخرج من الصف، وما أخرجهم أبو عبيدة ولا أمره عمر بن الخطاب أن يخرجهم من الصف؛ بحجة أن هؤلاء فساق، لا، فالحرص على الجماعة أعظم من هذا كله، ولهذا جماعة المسلمين هي من أعظم ما يقوي شوكتهم، وهذا الجانب هو جانب الجماعة.

ولا يجب أن يكون المجتمع طوائف من الناس من الصالحين، أو من الأخيار، أو من طلاب العلم، أو من الدعاة، أو من العامة أو غير ذلك، بعضهم يحرصون ألا تكون الجماعة إلا صفحة بيضاء، فهذا من الخطأ، لينضو الإنسان ويتطاوع مع غيره، حتى لو رأى أن غيره أفضل منه، ما دام أن هذا الأمر هو جماعة يقام فيها الأصل الذي أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وألا ينفر الناس من الحق لمجرد خطأ أو زلة وقعوا فيها، وإنما بالمقدار الذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ لهم، لا يزاد ذلك لا من جهة السب، ولا من جهة أيضًا إقامة الحد، ولا من جهة أيضًا نوع العقوبة التي تقع عليهم، وإنما هو بالعدل الذي جعله الله

---

(١) «مسند أحمد»، رقم: (٢١٣٣١)، «صحيح البخاري»، رقم: (٢٦).

(٢) «صحيح البخاري»، رقم: (٦٨٥٧)، «صحيح مسلم»، رقم: (٨٩).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا البلد بلد مكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له بعد عقود طويلة من الظلم، والظلم بجميع أنواعه، الظلم في الدين، الظلم في الأموال، الظلم في الأعراض، والظلم في الأنفس، والظلم أيضًا في العقول وغير ذلك من أنواع الظلم، مكن الله عَزَّوَجَلَّ لهم، ولهذا بعد طول الأمد ينبغي أن يستصلح الناس كما أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يستصلح الناس، يداري الإنسان كما كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يداري الناس، وهو المعصوم، وقد يعتد الإنسان بما لديه من عقل، وما لديه من علم، وما لديه من معرفة، أو نحو ذلك، بإطلاق ما يشاء من ألفاظ وعدم المجاملة، هذا ليس بصحيح.

الشرح:

فعدم الانتصار للنفس هل يقصد: (فالانتصار للنفس...) عند التعدي علىٰ الأمير، هذا كله ينفر الناس من المتكلم.

المتن:

والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما جاء في الصحيح من حديث عائشة، استأذن عليه رجل فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعائشة: «بئس أخو العشيرة»، فلما دخل عليه هش النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في وجهه وبش، فلما خرج قالت عائشة: «يا رسول الله، إنك لما استأذن عليك قلت: بئس أخو العشيرة، فلما دخل هششت في وجهه وبششت»، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يا عائشة، إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه»، النبي منصور، لا يوجد أحد في الأرض في

هذه الأمة، ولا قبل ذلك يؤيِّد كتأييد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من قبل ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومع ذلك رأىٰ أن التعامل في مثل هذا من الأمور المتأكدة، فالنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ما قال: أنا لدي أصحابي، ولدي قوة، ونحو ذلك، لا أجامل، ومن يكون هذا الإنسان؟ لا، بل الأمر يحتاج أن تعرف أن مثل هذا الرجل لديه لسان سليط، يلتقي بواحد أو اثنين أو ثلاثة، يسيء إليك؛ لأنك لا تمثل نفسك، تمثل الرسالة التي تحملها.

وبعض الناس يبتلىٰ وهو لا يريد أنه يمثل الصالحين أو يمثل العلماء، أو يمثل مثلاً جهة معينة أو غير ذلك، مثل هذا التمثيل هو لا يريده، لكنه بُلِي بمثل هذا الأمر، ولكن ينبغي له ألا يأخذه الورع البارد ويقول: أنا أمثل نفسي. ويطلق ما يشاء، ليس بصحيح، إذا حملوا عليك هذا الأمر، وأنت تنتمي إلىٰ فئة أو تنتمي إلىٰ جماعة، أو تنتمي مثلاً إلىٰ درجة معينة من مراتب الناس، فإن هذا يحمل إلىٰ غيره، ينبغي أن تقتنع أن هذا الأمر يتعدىٰ، ولهذا النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقول: «شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه»، يعني: ألا يرتد إليه هذا الأمر، ينبغي أن تحسب الكلمة الواحدة والثنتين والثلاث؛ لماذا؟ لأنه يؤثر علىٰ صاحب الرسالة.

مفهوم التدين والصلاح الحقيقي:

كذلك ينبغي علينا أن نعلم أن التدين وأن الصلاح الذي أمرنا اللـه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بامتثاله: هو ما أخبر به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله: «الإيمان بضع وسبعون أو ستون شعبة، أعلاها لا إله إلا اللـه، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق»، فالمتدين حقًا والصالح حقاً هو من اجتمعت فيه هذه الشعب، لا أن تجتمع فيه شعبة واحدة أو شعبتان أو ثلاث، ثم يجعل نفسه من أهل الإيمان الكامل، بل ينبغي للإنسان أن يحرص علىٰ اكتمال شعب الإيمان فيه حتىٰ يوصف بذلك.

رفق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تعامله مع الناس:

كذلك الرحمة واللطف واللين من جهة العامة في تعاملاتهم، فمنهم جفاة، ومنهم غلاة، ومنهم أيضـاً من هم أشداء، ومنهم من تربىٰ ببيئة بعيدة عن اللين والرفق ونحو ذلك، فيأخذ الناس علىٰ ما هم عليه، فلا يوبخ، ولا يعنف، ولا يشنع، وإنما يتعامل مع الناس علىٰ أحوالهم.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يأتيه من يؤذيه، ويجذب عليه رداءه، وربما يؤثر في عنقه، ومنهم أيضـاً من يقسو عليه حتىٰ بالعبارة، فيقول: أعطني من مال اللـه؛ فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك، عبارة تقال للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ! فكان النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يبتسم؛ لأنه فعلاً ليس من ماله، ولا من مال أبيه، وإنما هو من مال اللـه، فلا يأنف الإنسان من تولي ولاية، بل

ينبغي أن يعلم أن هذه الولاية إنما هي أمانة جعلها الله عَزَّوَجَلَّ بين يديه، لا يتكبر، لماذا؟ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام المتواضعين، ما قال: تقول لي مثل هذه العبارة وأنا رسول الله، وأنا أعدل الناس، أو نحو ذلك. وهو كذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لماذا؟ لأنه لم ينظر إلىٰ نفسه، وإنما نظر إلىٰ عقل من يتكلم معه.

الشرح:

هذا مهم جدًا يا إخوان، أنت لا تنظر لنفسك أنك أمير، وأنك مسؤول، وأنك رئيس، ويقال لك مثل هذا الكلام، لا، انظر إلىٰ عقل المتكلم، وفهمه، وارفق به، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي الله، يقول له هذا الكلام! ولكن الذي يتصدر لمصالح الناس لا بد أن يتعرض لتمزيق ملابسه، تعرضت لمصالح الناس ومسؤولية الناس، وحمل هم الناس، تحمل كل شيء يصدر من الناس؛ ابتغاء ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

لأن الشدة علىٰ الناس تؤثر سلبًا، فربما تكلم معك في مثل هذا الموضع، ثم لم يأتك مرة أخرىٰ، ومجيئه إليك مكسب، أن تكسبه باللين، بإعطائه من الخير الذي لديك، سواء من المال، أو من العلم، أو من التوجيه، أو من الإرشاد، فإذا شددت عليه في المرة الأولىٰ، ربما ما جاءك الثانية، ولا جاءك الثالثة، وربما أثر علىٰ من ورائه ألا يأتوا إليك، ولهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان

لينًا سمحًا في تعامله، بل الناس ينظرون إلىٰ وجه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويأخذون منه اللين والسماحة.

وقد جاء في الترمذي كما في حديث الحارث، أن الأعراب الذين حجوا مع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وطبعًا ليس كل من حج مع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رآه قبل ذلك، منهم من يأتي أمير القبلية، أو شيخها، أو سيدها، أو جماعة منهم، ويأخذون الإسلام ويبلغونه لأقوامهم، ويسلمون، ولم يروا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكن لما دعا النبي للحج، وبعث المنادين للمدينة ومن حولها من الأطراف: أن النبي حاج هذا العام، تبعوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنهم من جاءه في المدينة، ومنهم من لحقه في ميقات ذي الحليفة، ومنهم من جاءه في نصف الطريق، ومنهم من لحقه في مكة، ومنهم من لم يره إلا بعد الوقوف بعرفة، ولهذا يقول الحارث: «كانت الأعراب يأتون إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو في قبته بمنىٰ، وينظرون إلىٰ وجهه ويقولون: هذا وجه مبارك»، هذا وجه مبارك، يعني: يشيرون إلىٰ أن مثل هذا الوجه لا يأتي منه إلا الخير، الناس تتوسم اللين، تتوسم الرفق، تتوسم السماحة، تنفير الإنسان ينبغي أن ينظر إليه من جهة العقل، لا تنظر إليه من جهة كمالك، ربما تكون كاملاً من جهة الأدب والخلق والمعرفة، فإذا نظرت إلىٰ أحوالهم من جهتك أنت، فهذا يكون ضربًا من ضروب الكبر غالبًا، ولكن انظر إلىٰ عقولهم، فاعذر الجاهل، واعذر أيضًا الأحمق، أو من تعامل معك ويظن أنه علىٰ حق.

وإذا استوثق منك الإنسان في أمر؛ لأنه لا يشكك، وربما هذه طريقته، وإذا ناداك الإنسان لا تلتفت إلىٰ الألقاب، باعتبار أنه يريد التنقص، ولهذا ربما يأتي بعض الأعراب إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيقولون: ابن عبد المطلب، محمد، أنت محمد، ولا يقولون: رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يمايز نفسه عن أصحابه. وكما جاء في الصحيح، أن أعرابياً جاء إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكان جالساً مع أصحابه، فيقول: «أيكم محمد»، يعني أن محمداً لم يكن علىٰ عرش، ولم يكن علىٰ موضع معين، بل قال: «أيكم محمد؟» فيقولون: «هذا الرجل الأبيض المتكئ».

الشرح:

التواضع وعدم التميُّز: يقتل الكبر ويوثق الجماعة، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعْرف من أصحابه، الذي لا يعرفه، لا يعرفه من أصحابه؛ لأنه يجلس مثلما يجلسون، ليس له سرير ولا عرش، يأكل مما يأكلون، ويمزح كما يمزحون، وهكذا.

فهذا التواضع وعدم التمييز يوثق الجماعة وعلاقتك بإخوانك، أنت معهم، أنت منهم، ولكنك تحملت مسئولية عنهم، هذا فقط.

المتن:

ترك الانتصار للنفس وتغليب مصلحة الدعوة ووحدة الأمة:

ولم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجعل له موضعًا يميزه عن أصحابه، إلا إذا أراد أن يتحدث لجماعة جعل له منبراً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ليراه الناس ويبلغهم الخطاب، ولهذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعنف سائلاً وإن كان في سؤاله ساذجًا، أو في طريقته أو نحو ذلك، بل يعلمه ليأتي حتىٰ يستزيد من الخير رحمة، لماذا؟ لأن ثمة أمراً دقيقًا من الانتصار للنفس، هو الذي يعطل مشاريع الإصلاح، ومشاريع الدعوة، ومشاريع وحدة الأمة، وهو حظوظ النفس، وحب القيادة.

وكذلك الانتصار للنفس، فإذا بلغه كلام عن صاحبه هجره وهجر من معه، ويقال: هو دفاع عن النفس، ينبغي أن نغلب جانب وحدة الأمة، ولو كنت أعلم أن من ينضوي معه رجلاً يكرهني، أو يتكلم فيّ، أو ربما بيني وبينه عداوة؛ لأن المراد بذلك وحدة الأمة، فلا ينتصر الإنسان لنفسه، ولهذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبلغه أن الناس تتكلم فيه، ولكنه كان يتغافل.

يقول البخاري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- كما في الصحيح: «باب من أخبر صاحبه ما يقال فيه»، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان قادمًا من غزوة تبوك، تكلم فيه بعض المنافقين لما قالوا: «ما رأينا مثل قراءنا هؤلاء؛ أرغب بطونًا، ولا أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسنًا»، يعني: من أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذهب وأخبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إذن النبي يعلم القالات التي تدور في مجالس

الناس، ولكن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يتغافل؛ لأن الغفلة كما يقال: ثلاثة أرباع العافية، ويقول بعض العلماء: هي العافية كلها.

الشرح:

هو كان يعلم ما يقوله الناس، ومع ذلك كان لا يتفاعل معهم، ولا يقول: تعال، أنت قلت: كذا كذا، وهذا الشاهد قال هذا، أنت لا تتفرغ لمثل هذا، همتك أكبر من هذا.

المتن:

إذا أراد الإنسان أن يتتبع زلة، فتح علىٰ نفسه بابـًا، وإغلاقها هو الأولىٰ؛ لماذا؟ لأن الإنسان لا يعيش لمثل هذا الأمر، وكم يتستر الانتصار للنفس تحت ستار الانتصار للحق! لماذا يقول في كذا، ولماذا لمزني؟ ولماذا اتهمني؟ لقد اتُّهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما أتىٰ بأحد يحقق معه، واتهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وما بعث إلىٰ قبيلة: لماذا تقولون فِيَّ؟ كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتغافل؛ لأن الهم الأكبر هو جمع الأمة، لهذا الذين لا يجتمعون؛ نفسية أو إقليمية أو قبلية أو غير ذلك، ليسوا علىٰ منهج محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما دام أنهم علىٰ دائرة الإسلام.

الشرح:

يعني: الذين لا يجتمعون، ولا يدخلون في الجماعة، ليسوا علىٰ منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواء أكانوا قبيلة، جماعة، أشخاصًا، فئة، دولة، هذا منهج

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنتم داخلون في دائرة الإسلام، لماذا لا تتبعون نبي الإسلام.

المتن:

لهذا الأمة حتىٰ لو كانت علىٰ عقيدة واحدة فإنها تضعف ولو كانوا كثيراً إذا اتحد غيرهم.

في هذا البلد أرىٰ كثرة أهل الخير، وكثرة المقبلين علىٰ العمل الصالح، ولكنهم أوزاع مختلفون، لا ينضوون تحت راية واحدة.

الشرح:

هذا الذي نريده يا إخوان، فيكم خير كثير، وعندكم أخال كثير، ولكن لا تجتمعوا تحت راية واحدة.

المتن:

وتجد ربما قلة قليلة تنزوي تحت راية واحدة وتؤثر أعظم؛ لماذا؟ لأنهم قلة مجتمعة، أقوىٰ من كثرة متفرقة، فيؤثرون فيما يريدون، مما يتعلق في مصالح الناس وغير ذلك.

والسبب في ذلك: أن الناس منشغلون بتصفية الحسابات النفسية، لهذا لا يمكن أن تجتمع الأمة حتىٰ تتطهر البواطن من الانتصار للنفس، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الصحيح، من حديث عائشة عليها رضوان الله

تعالىٰ، أنها قالت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله، هل لقيت من قومك أشد من يوم أحد؟»، يعني: بلاء وشدة؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شُج وكسرت رباعيته، وظهر من جهة المعايير؛ المعايير العسكرية في منظار كفار قريش- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هزم، وأصابه ألم شديد، وتناقلت القبائل مثل هذه النتيجة التي كان لها أثر شديد علىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يا عائشة، لقد لقيت من قومك ما لقيت»، يعني: لم تشاهدي شيئًا، «ومن ذلك أني عرضت نفسي علىٰ ثقيف من الطائف، فطردوني، ولم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب»، ما بين الطائف وقرن الثعالب ستة وأربعين كيلو، لم يفق النبي، وكان ماشيًا، ليس علىٰ مركبة، لم يفق يعني: لم يستوعب من الهم إلا بعد ستة وأربعين كيلو، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب».

ونحن نجد في أنفسنا أن أحدنا إذا اهتم، خرج من داره، أو من عمله، أو من مسجده، وهو مهتم يمشي أمتارًا، ثم يفيق بعد ذلك أنه اتجه في طريق مخالف، لأمتار يسيرة؛ لوجود هم، النبي لم يفق إلا بعد ستة وأربعين كيلو من الهم.

يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فنظرت فإذا بياض عظيم، فإذا هو جبريل»، ثَمَّة لطائف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أليس أحب مخلوق لديه هو محمد؟ ألم ير هذا الهم الشديد بمجرد خروجه من الطائف؟

نعم، لماذا لم يبادره، وهو يحبه، بإرسال جبريل مباشرة، وهو يراه يتألم هذه المسافة الطويلة؟ لماذا؟ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ما اشترىٰ منه دينه، اشترىٰ منه نفسه وماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكذلك حِفظُ راحة النفس والبال ليس كرامة للإنسان، والنبي يعلم، فقال جبريل للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إن الله رأىٰ ما قال قومك لك، وقد بعث إليك ملك الجبال، يستأذنك ليطبق عليهم الأخشبين»، فقال: «لا، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك معه شيئًا».

الشرح:

الله أكبر! في هذا الهم، وهذا الضيق، وهذا الشدة والكرب، ستة وأربعين كيلو وهو مهموم، ومع ذلك يأتيه ملك الجبال، فيقول: لا، أنا أريد أن أقتلهم جميعًا، فرصة! يقول: لا، لماذا يا رسول الله؟ لأني ما استفيد لو قتلتهم، ماذا يستفيد الإسلام، ما المصلحة اللي تعود علىٰ الإسلام لو قتلتهم؟ لا، أنا أطمع أن الله يهديهم ويخرج من أصلابهم من يعبد الله ويوحده، ويجاهد في سبيله، وينشر دعوته، إذن هنا انتصر لنفسه؟ لا، انتصر لدعوته، قال: «لا»، هم سند للدعوة، هم عون للدعوة، فأنا لو قتلتهم ماذا أفعل؟ من أدعو بعد ذلك؟ ومن لدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ لذلك النبي يقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض**»[1].

---

(١) «سنن الترمذي»، رقم: (٣٣٣٤)، «مسند أحمد»، رقم: (٢٠٨).

فكذلك الداعية، والمسؤول، لا بد من أن يقابل مثل هذه الأمور.

المتن:

وأنت إذا سمعت أحداً تكلم فيك، تتمنىٰ أن يزال من منصبه، وتتمنىٰ أن يعزل، وألا يكون مع جماعتك، وألا يكون له شيء من ذلك! ولكن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك معه شيئًا»، لهذا النفوس الطاهرة التي لا تنتصر لنفسها، همها نصرة الحق، إن هم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبودية الله، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لعل الله يخرج من أصلابهم»، من ينصفني؟ لا، «من يعبد الله»، أنا لا أريد نفسي، «من يعبد الله ولا يشرك معه شيئًا».

الوصية بتطهير البواطن:

لهذا أوصيكم بتطهير البواطن، لمن؟ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قد تجدون كلامًا في أنفسكم، من بعضكم في بعض، من الجماعة في الجماعة، لكن يجمعكم الإسلام والتوحيد، وهذا أعظم مطلب تجتمع الأمة عليه، هذا المجتمع مجتمع سني، لا يكون فيه ملة ككثير من البلدان التي عن يمينكم وشمالكم، لا يوجد فيه نصارىٰ، لا يوجد فيه رافضة، وكلكم من أهل السنة، ثم تكون الأمة مختلفة وهي تريد الحق!

ولهذا ينبغي أن نعلم أن عتبة الاجتماع هي تطهير البواطن، وإرادة أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما كان النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالىٰ، ولهذا النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع الله عَزَّ وَجَلَّ به الأمة لهذا الأمر، الأمة لا تجتمع علىٰ الثروات، لا تجتمع علىٰ المال، كم من الأمم عندها المال ثم تقاتلت! الأمة تجتمع علىٰ الحق والعدل، الحق الذي يريده الله أو تريده أنت؟ الذي يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لهذا الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}، كم من الأمم لديها من الأموال ما لديها وهي تتقاتل وتتصارع!

لهذا أنا أقول: إن الإنصاف في جانب توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والعدل ما اجتمع الناس علىٰ دعائم الإسلام العظام، فعليهم أن يجتمعوا، ويؤجلوا النظر في الجزئيات إلىٰ ما بعد اجتماعهم، يعالجونها بعد ذلك، يتحاكمون فيها إلىٰ أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، البلد مقبل إلىٰ تشكيل نظام، مقبل إلىٰ تشكيل دستور، ينبغي علىٰ الأمة أن تجتمع وأن تستيقظ، وأن تعلم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أراده منها، وألا ينكسوا، وألا يتفرقوا، وأنهم يجب عليهم أن يتوحدوا وحدة كاملة، كالأصابع في اليد الواحدة، يخدم بعضها بعضًا، وكلها في جسد واحد.

لهذا عليهم أن يتواصوا، وأن يتذاكروا بذلك، وأن يكون همهم النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جهة اتباعه ومنهجه، لا تصفية الحسابات، ولا الانتقام الذاتي، ولا النظر إلىٰ حظوظ النفس، أو حظوظ القبيلة، أو النظر إلىٰ أمر المدينة، يمثلوني أو يمثلون غيري، ما دام أن الأمة تجتمع علىٰ مثل هذا الأمر، فإنها علىٰ الحق بإذن اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الكلام في منهج النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسياسته، وتعامله مع الناس، وتدرجه عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، ولطفه معهم، وسياسة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع الأقربين، في أزواجه، والكفار، والمشركين، إذا أراد الإنسان أن ينظر فيها ففي سنة النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ من ذلك الشيء العظيم، وهي بحر لا ساحل له، إذا استضاءت بهدي النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ فلن تضل ولن تضيع، ولهذا يقول النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما، لن تضلوا بعدي أبداً»، بقدر التمسك يكون الثبات، «كتاب اللـه، وسنتي»، سنة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أسأل اللـه جل وعلا أن يجعلني وإياكم من المهتدين بهدي نبيه، الممتثلين لأمره، السالكين للصراط المستقيم، وأسأله جل وعلا أن يثبتني وإياكم علىٰ الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ، وأن يجمع كلمة المسلمين، وكلمة الأمة الليبية علىٰ الحق علىٰ التوحيد والسنة، وأن يؤلف بين قلوبهم، وأن يسل

سخيمة صدورهم، وأن يؤلف بينهم علىٰ الفطرة وعلىٰ الحق والمنهج القويم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

الشرح:

فأصل صلاح الدنيا بالدين، وأصل صلاح الدنيا والجماعة بالاجتماع، وأصل صلاح الدنيا والدين والجماعة بالدولة، ولا يكون كل ذلك إلا بالتمسك بالقرآن والسنة، هذا هو المنهج.

الشرح:

نأتي للكلام عن المرحلة الثانية من مرحلة الثبات، وهي نشر السفراء والدعاة لنشر الدعوة، وقد تكلمنا فيما سبق في أسس البناء والأركان التي تبنىٰ عليها الدولة، وقلنا أنه لا يستقيم هذا العقد إلا بالدولة، وبالخلافة، وبتنصيب الإمام، وبالجماعة، والاعتصام بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسنة رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلنا أن من شروط الولاية الشرعية: قدرتها علىٰ الحماية، من شروط الولاية الشرعية التي هي أصل الدولة، وأصل الخلافة: الحماية، كما جاء في الصحيح: «**إنما الإمام جنة؛ يتقي به من خلفه، ويقاتل من ورائه**»[1]، فإن عجز عن الحماية، فلا بد من تأصيل الجماعة، ولا بد من الاعتصام بالوحدة،

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (١٨٤١)، «البخاري»، رقم: (٢٩٥٧).

ولا بد من الاجتماع علىٰ هذا الأمر؛ لأنه لا تستقيم الدولة، ولا تستقيم الولاية، ولا يستقيم أمر الناس، إلا برأس، لأنه إن لم يكن رأس فتكون فوضىٰ.

ومن فوائد هذا البناء: أنه يستطيع أن يرسل السفراء إلىٰ البلاد الأخرىٰ المجاورة؛ لينشر دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويبلغ دعوته للناس، فهذا هو لسانه الذي يتكلم به، فكان لزامًا أن ندرس هذه المرحلة جيدًا، وهي مرحلة نشر السفراء والدعاة لنشر الدعوة.

المتن:

اَلْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: نَشْرُ السُّفَرَاءِ وَالدُّعَاةِ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ:

وَهَذَا يَتَطَلَّبُ الْحِكْمَةَ وَفِقْهَ الدَّعْوَةِ وَالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةَ؛ لِلتَّمْهِيدِ لِقِيَامِ الدَّوْلَةِ وَتَكْثِيرِ الْأَنْصَارِ، وَهُمْ بِمَثَابَةِ الْمِنْبَرِ الْإِعْلَامِيِّ لِلدَّعْوَةِ، وَسُفَرَاءُ الدَّوْلَةِ فِي الْخَارِجِ يَدْعُونَ النَّاسَ وَيَشْرَحُونَ لَهُمْ حَقِيقَةَ الدَّعْوَةِ وَأَهْدَافَهَا وَالْخَيْرَ الَّذِي فِيهَا.

الشرح:

هذا الأصل. ولو تأملنا متىٰ أرسل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السفراء إلىٰ الدول؟ أرسل السفراء إلىٰ الدول بعد أن فتح مكة، ولم يفتح النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مكة إلا بعد أن قضىٰ علىٰ اليهود، وهذا فيه عبرة، أن من عوامل الثبات: القضاء علىٰ العدو الداخلي، وتأمين الجبهة الداخلية، فهذا ساعده علىٰ تأمين الجبهة

الخارجية، فلما أمَّن الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية، تمكن واستطاع أن يرسل السفراء كأنه دولة، لها سفراء، ولها دعوة، لا بد أن تعرف كل هذه البلاد حقيقة ما عليه هذه الدولة الوليدة، لولا ذلك لتقوقع، ولظن الناس به الظنون؛ لا يعرفون عنه شيئًا.

لذلك كان من فقه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أرسل السفراء لكل ما يستطيع أن يصل إليه، فأرسل إلىٰ فارس، وأرسل إلىٰ الروم، وأرسل إلىٰ المقوقس في الإسكندرية بمصر، كل ذلك يشرح لهم حقيقة الإسلام، وحقيقة دعوتنا، وحقيقة الدولة التي أقيمت في المدينة؟ دولة وليدة صغيرة.

وينبغي أن يكون السفير فطنًا، يفهم حقيقة دعوته، ويفهم الملابسات، ويفهم الإجابات التي سترد علىٰ الأسئلة.

لذلك لما جاءه المقوقس في الإسكندرية، بدأ يطرح بعض الأسئلة، لذلك كان السفير خبيرًا؛ يعرف كل شيء؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختاره بعناية ليكون لسان حال الدعوة الوليدة.

المتن:

وَبِنَاءُ دُورٍ لِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَتَرْبِيَةِ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ؛ وَدُورُ الْقُرْآنِ هَذِهِ فِي الْبِلَادِ هِيَ بِذْرَةُ الْخَيْرِ الَّتِي سَتَقُومُ الدَّوْلَةُ عَلَىٰ أَعْنَاقِ شَبَابِهَا فِيمَا بَعْدُ.

الشرح:

هذه هي أصل الشيء، أن تبني هذه البذرة في دور تحفيظ القرآن الكريم، في هذه المحاضن، فلا تغفل عنها، لا بد أول ما تبني أن تبني بمثل هذه الدور، لماذا هذه الدور؟ لأنه لا خلاف عليها، حتىٰ الدول الإسلامية تحكمها حكومات مرتدة، لا تعارض القرآن، فهذا متفق عليه، فابدأ بالمتفق عليه، ثم أنت بالمتفق عليه هذا تستطيع أن تربي علىٰ عقيدة التوحيد والسنة، هذا النشء الصغير، لو أهملت ذلك، لفتحت عليك جبهات كثيرة جدًا لا تستطيع أن تسدها.

فهذه خطوة جيدة جدًا في مرحلة البناء، وهي فتح كتاتيب القرآن؛ لتعليم النشء القرآن والسنة والعقيدة الصحيحة والمفاهيم الغائبة عن الواقع في هذا البلد.

المتن:

وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ عِبَادَةٌ مِنْ أَشْرَفِ الْعِبَادَاتِ، وَعَمَلٌ مِنْ أَجَلِّ الْأَعْمَالِ، لَا يَقُومُ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ الصَّحِيحِ إِلَّا أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرِّجَالِ؛ لِمَا يَكْتَنِفُهُ مِنْ مَشَاقٍّ وَمَسْئُولِيَّاتٍ، وَخَاصَّةً فِي زَمَانِ غُرْبَةِ الدِّينِ.

الشرح:

يعني: الدعوة إلىٰ الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما هي بأمر سهل، أنت تقوم بدور النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الدعوة، فلا بد أن تستحضر عظمة هذه الدعوة، ومسؤولية الدعاة في نشر دين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الأرض.

إذن الأمر ليس سهلًا، الأمر ليس أن تقول: أنا داعية. لا، لا بد أن تفقه أولًا منزلتك، أنك بمثابة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنت وريث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك، إذن لا بد أن تقدر المهمة التي أوكلت إليك، فلا تغفل، ولا تنام، بل تبحث دائمًا عن أهم الوسائل وأفضل الوسائل في نشر هذا الدين العظيم.

المتن:

وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ الـلـه مُهِمَّةُ رُسُلِ الـلـه إِلَىٰ النَّاسِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَىٰ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الـلـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الَّذِينَ جَعَلَهُمْ الـلـه تَعَالَىٰ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ يُبَلِّغُونَ عَنْهُ شَرْعَهُ إِلَيْهِمْ، وَيَكْفِي فِي بَيَانِ شَرَفِ هَذَا الْعَمَلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣]، أَيْ: لَا أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ.

الشرح:

يترتب علىٰ هذه المسألة أنك تدعو، إذن الرسول هذا يدعو، والذين آمنوا بهذه الدعوة أين يذهبون؟ يذهبون إلىٰ الدولة، يذهبون إلىٰ القاعدة، نحن

ندعو، فمن آمن بدعوتنا ألحقناه بالقاعدة الصلبة التي ننطلق منها، فلا بد من هذه القاعدة؛ وأن يكون لهذا الأمير أمان، وله عهد، وله ذمة، حتىٰ إذا جاء إليه أحد دخل في أمانه، ويكون أمانه صحيحًا، ولا يكون الأمان صحيحًا إلا مع القدرة والتمكن، فعندما تدعو إلىٰ هذه ادع لها بقوة؛ لأنها لها جذور في أعماق الأرض، لأنها من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حتىٰ تثبت الناس الذين أنت تدعوهم إلىٰ هذه الدعوة المباركة، تقول: هذه دعوة من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ليس من عند أنفسنا، فأنت تنسبها دائمًا إلىٰ الله سبحانه؛ إذا نسبهتا إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فكأنك تجعل هذه الولاية، وهذه الإمامة، عصبة قوية، يدخل فيها وهو بأمان، لا يخاف؛ لأنه انطلق من قاعدة صلبة.

فإذا كانت ضعيفة، فسيخشىٰ الناس الدخول فيها؛ لأنهم لا يتحملون تبعاتها في زمن الغربة، كما كان في العصر الأول، في مكة، الناس كانوا يعرفون هذه الدعوة، ولكن لا يستطيعون أن يدخلوا فيها؛ لأنه لا شوكة، لا قوة، لا منعة، لا عصمة، لا أمان، حتىٰ أنهم لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم، فدل ذلك علىٰ أن هذا لا بد أن يكون في هذه المرحلة.

المتن:

لَكِنَّ الدَّعْوَةَ عَمَلٌ، وَالْعَمَلُ لَا يُؤْتِي ثِمَارَهُ الْمَرْجُوَّةَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يُؤَدَّىٰ عَلَىٰ وَجْهٍ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْكَمَالِ؛ وَهَذَا هُوَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللـه تَعَالَىٰ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ». أَخْرَجَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّنَا عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الشرح:

هنا فقه جميل جدًا، النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أراده من إرسال السفراء:

النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أرسل السفراء أراد أن يحقق هدفًا دوليًا، وهو الاعتراف بالدولة في المدينة، فالاعتراف بالدولة من دول الجوار هذا من أهم مقومات استمرارها؛ لذلك النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أرسل الرسل، كان يريد أن يحقق هذا الهدف، أن يقول: عندنا دولة، ولها حدود، ولها إمكانيات، ولها منهج، ولها طريقة، وكذلك هي تحافظ علىٰ الجوار، بدليل أنا جئنا إليكم برسلنا، ونتكلم معكم، وندعوكم إلىٰ ديننا.

فمن أهم الأهداف التي جعلها النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في إرسال الرسل، هو الاعتراف بالدولة من دول الجوار، وهذه شروط سياسية، الاعتراف بهذه الدولة: شروط سياسية، معمول بها في الواقع، كانت قريش لها حدود، وكانت المدينة لها حدود، وكانت فارس لها حدود، وكانت الروم لها حدود، إذن مجرد أن ترسل الرسل فكأنك تأخذ من هؤلاء صكًّا أن هذه دولة شرعية، لها قواعد لا بد أن تُحترَم. هذا مهم جدًا في هذا الهدف.

المتن:

«وَفِي هَذَا الْمَقَالِ نَسْتَعْرِضُ بَعْضًا مِنَ الْمَلَامِحِ الْعَامَّةِ لِأَسَالِيبِ وَطَرَائِقِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي اتَّبَعَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه - تَعَالَىٰ-، فَمِنْ ذَلِكَ:...

الشرح:

يعني: لشروط الدعوة ولقبولها قواعد وأصول. لا بد من مراعاة ظروف الدعوة.

المتن:

١- مُرَاعَاةُ الظُّرُوفِ الْمُحِيطَةِ وَأَحْوَالِ الْبِيئَةِ الَّتِي تَتِمُّ فِيهَا الدَّعْوَةُ.

الشرح:

لذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد وجود دولة، أمَّن الجبهة الداخلية بالقضاء علىٰ اليهود، وأمَّن الجبهة الخارجية بصلح الحديبية مع قريش، واللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمىٰ صلح الحديبية فتحًا مبينًا.

وكل هذا يؤسس للخلافة، يؤسس لدعوة الخلافة، كل هذه خطوات في بناء الدولة، كل هذه المراحل في تأسيس الدولة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم من ربه أن هذه الدولة ستكون وتنتشر، ولكن مع هذا العلم من النبي

صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أخذ بالأسباب، ولم يهمل الأسباب صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذا كان هذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فنحن كذلك نأخذ ببناء هذا.

المتن:

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الدَّاعِيَةِ دِرَاسَةُ الْبِيئَةِ دِرَاسَةً جَيِّدَةً، فَيَعْرِفُ عَادَاتِ النَّاسِ وَأَخْلَاقَهُمْ، وَنِقَاطَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ لَدَيْهِمْ، كَمَا يَعْلَمُ عَقَائِدَهُمْ وَعِبَادَاتِهِمْ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ؛ حَتَّىٰ تَكُونَ خُطُوَاتُهُ الدَّعْوِيَّةُ مُتَنَاسِقَةً مَعَ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ؛ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ أَكْبَرِ قَدْرٍ مِنَ النَّتَائِجِ الْحَسَنَةِ فِي الدَّعْوَةِ.

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ الِانْحِنَاءَ أَمَامَ هَذِهِ الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ، وَجَعْلَهَا تَعْرِضُ نَفْسَهَا أَوْ مُعْطَيَاتِهَا عَلَىٰ الدَّعْوَةِ، بِحَيْثُ تُؤَثِّرُ فِي مَضْمُونِ الدَّعْوَةِ بِالتَّغْيِيرِ أَوِ التَّمْيِيعِ، وَلَكِنَّ الدَّاعِيَةَ يَتَصَرَّفُ مَعَ مُرَاعَاةِ الظُّرُوفِ؛ فَلَا هُوَ يَسْتَسْلِمُ لِهَذِهِ الظُّرُوفِ، وَلَا هُوَ يُغَالِبُهَا إِذَا كَانَتْ أَكْبَرَ مِنِ اسْتِطَاعَتِهِ، فَتَغْلِبَهُ.

وَلْنَأْخُذِ الْمِثَالَ التَّطْبِيقِيَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فَعِنْدَمَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَتِ الْبِيئَةُ الْمُحِيطَةُ كُلُّهَا بِيئَةً شِرْكِيَّةً، فَكَانَتْ مُوَاجَهَتُهُمْ لَهُ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ فِيهَا نَوْعٌ مِنَ الْمُغَالَبَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُهَا الْإِنْسَانُ بِمُفْرَدِهِ، هَذَا مِنْ جَانِبٍ، وَمِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ فَقَدْ يَمُوتُ الدَّاعِيَةُ أَوْ يُقْتَلُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ كَسْبِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لِيَقُومَ بِمَهَامِّ الدَّعْوَةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَهَذَا قَدْ يُؤَدِّي فِي النِّهَايَةِ إِلَىٰ إِفْشَالِ الْمَشْرُوعِ الدَّعْوِيِّ بِرُمَّتِهِ، كَمَا

أَنَّ الرُّضُوخَ لِهَذَا الْوَاقِعِ وَالِاسْتِسْلَامَ لِضُغُوطِهِ، بِحَيْثُ تَكُونُ مُهِمَّةُ الدَّعْوَةِ إِجْرَاءُ بَعْضِ التَّرْقِيعَاتِ عَلَىٰ الْوَاقِعِ وَالَّتِي قَدْ لَا تُؤَثِّرُ كَثِيرًا، كَانَ فِي هَذَا أَيْضًا انْحِرَافٌ بِالدَّعْوَةِ عَنْ طَرِيقِهَا، فَمَاذَا فَعَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِزَاءَ ذَلِكَ الْوَضْعِ؟

لَقَدْ سَلَكَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرِيقًا وَسَطًا بِحَيْثُ يُحَافِظُ عَلَىٰ نَقَاءِ الدَّعْوَةِ وَتَوْصِيلِ الْحَقِّ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يُغَالِبُ فِيهِ الْوَاقِعَ الَّذِي هُوَ فَوْقَ الطَّاقَةِ الْمَحْدُودَةِ لِلْفَرْدِ، فَقَدْ لَجَأَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ الدَّعْوَةِ الْفَرْدِيَّةِ السِّرِّيَّةِ، فَبَدَأَ بِدَعْوَةِ مَنْ يَأْنَسُ فِيهِمْ الرُّشْدَ وَرَجَاحَةَ الْعَقْلِ فِي إِدْرَاكِ الْحَقِّ، فَحَافَظَ بِذَلِكَ عَلَىٰ نَقَاءِ الدَّعْوَةِ مَعَ أَمْنِهِ مِنْ مُضَايَقَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَمُغَالَبَتِهِمْ لَهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ فِي هَذَا تَقْصِيرٌ مِنْ نَاحِيَةِ عَدَمِ تَعْمِيمِ الدَّعْوَةِ لِأَنَّ هَذَا الْقَدْرَ كَانَ هُوَ الْمُمْكِنَ، وَكَانَ هَذَا مِنَ السِّيَاسَةِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي اتَّبَعَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَوْصِيلِ الدَّعْوَةِ وَتَبْلِيغِهَا، وَبَعْضُ النَّاسِ لَا يَفْطِنُونَ لِذَلِكَ فَيُرِيدَ أَنْ يُبَلِّغَ الشَّرِيعَةَ كُلَّهَا مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا حَوْلَهُ.

الشرح:

هذا خطأ؛ أن تستعجل وتطبق هذا الأمر دون النظر إلىٰ المآلات، هذا خطأ، اصبر؛ لأن الدولة لا تسمىٰ دولة إلا بالسيادة والتمكين، والسيادة والتمكين السيادة لا تكون إلا بالشريعة، بتحكيم الشريعة، لذلك لا تسمىٰ دولة وإن كان

رأسها أمير المؤمنين، بعض الدول الآن لا تحكم بالشريعة ورئيسها يسمىٰ أمير المؤمنين، وبعضها يشبهونه بعمر بن عبد العزيز! كل هذه لا ينطبق عليها اسم الدولة الشرعية، حتىٰ لو كان يسمىٰ رئيسها بأمير المؤمنين، أو ملك المسلمين، أو كما يطلقونه الآن؛ لأن الشريعة ليست هي الغالبة.

فالدولة التي نعنيها نحن هي التي تكون لها سيادة، وتكون لها منعة، وتكون لها قوة، وتكون لها اعتراف بالمحيط المجاور، وتعلوها الشريعة، فلو كانت كل هذه مقومات للدولة، ولكن لا يعلوها الشريعة، فلا تسمىٰ دولة إسلامية، تسمىٰ دولة في العرف العام، لكن لا تسمىٰ دولة إسلامية، حتىٰ لو تسمىٰ رئيسها أو أميرها بأي اسم، أيًّا كان، خليفة المسلمين، أمير المؤمنين، رئيس، ملك، لكن هل ينطبق هذا علىٰ الدولة النبوية؟ لا ينطبق؛ لأن الدولة النبوية: منطقة، وسيادة، وحكم، وقدرة، ومنعة، وشريعة، فلو كان كل هذا متوفرًا، ولكن الشريعة مفقودة، فليست الدولةَ الإسلامية المنشودة، بل لا بد أن يعلوها حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فطن لذلك، وهذا فيه رد علىٰ الذين يتعجلون، يقول: الآن أنت أعلنت فلا بد أن تقيم دولة. ما هكذا النبي أقامها، بل أقامها بخطىٰ ثابتة، وببطء، ولكنه أكيد المفعول.

الطالب: الأمير يسمىٰ عندنا: (خادم القرآن).

الشرح: وكذلك خادم الحرمين، هل هذه الأسماء تغنىٰ عن الحقيقة؟ لا تغني عن الحقيقة؛ لأنّا قلنا أن الخلافة لها شروط، أنت خادم القرآن، خادم الحرمين، خليفة المسلمين، أمير المؤمنين، كل هذه ألقاب يمكن أن يطلقها عليك بعض الناس، لكن هل هذه تغني عن الحقيقة؟ لا تغني، أنت تقول: أمير المؤمنين. حسنًا، هل أمير المؤمنين لا يحكم بشرع رب العالمين؟ اعتبر أنك أمير المؤمنين، ويناديك العلماء والشعب: أمير المؤمنين، هل هذا اللقب يغني عنك من الحقيقة شيئًا؟ إذا كنت أمير المؤمنين، فالمؤمنون يحكمهم ماذا؟ يحكمهم القرآن والسنة، وإلا ما العبرة بالأسماء؟!

فهذه الأسماء هم يطلقونها من باب التلبيس علىٰ الناس، يرفعون درجة هذا الطاغوت أو الحاكم إلىٰ أعلىٰ درجات، حتىٰ لو وقع في محرمات؛ شرب خمر، أو زنا، أو سرقة، أو أو...، يقولون: هذه محرمات. فيطلقون عليه الألقاب الضخمة؛ حتىٰ يُهَيِّبوا الناس من لمزه أو الوقوع فيه أو الاعتراض عليه.

المتن:

فَيَصْطَدِمَ بِمَا يَعُوقُهُ عَنْ تَحْقِيقِ قَصْدِهِ، وَرُبَّمَا صَرَفَهُ ذَلِكَ الْعَجْزُ عَنِ الدَّعْوَةِ نِهَائِيًّا؛ وَهُوَ إِنَّمَا أُتِيَ مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الدَّعْوَةِ وَظَنِّهِ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَدَيْهِ يَنْبَغِي قَوْلُهُ وَإِذَاعَتُهُ.

الشرح:

هذا يدلك علىٰ أمر: وهو أن المسميات لا تغني من الحقائق.

الآن نحن سلمنا أنك تقول أنك أمير، وحاكم، وغير ذلك، وتقول أنك عاجز! الجيوش العربية في وقتنا الآن، أليس لها القدرة علىٰ أن تتحرك لنصرة المسلمين في فلسطين ضد اليهود؟ ما الذي يجعلها لا تتحرك؟ العجز؟ لا، بعض الدول عندها أقوىٰ الجيوش، فلماذا لا تتحرك؟ نقول: هو الاستمالة، والاستكانة للكفار، طاعة الكفار، وتحكمهم في بلاد المسلمين، التبعية للكفار.

إذن حتىٰ تكون هذه الخطوة صحيحة، فلا بد أن يكون البناء صحيحًا من الأصل.

لذلك النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرق بين حالة العجز، وبين حالة القدرة والتمكين، فهل الدول العربية الإسلامية الآن عاجزة؟ ليست عاجزة، ولكن الذين يحكمونها هم العجزة، ولو تخلصت الشعوب من هؤلاء الحكام، لحكّموا شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض.

فالعائق الوحيد أمام تطبيق شرع الله ليست الشعوب، الشعوب تريد الإسلام، انظر الآن إلىٰ المظاهرات في كل مكان، تريد الإسلام، تريد نصرة، الشعوب تحب الجهاد، وتفرح به، حتىٰ لو لم تعرف، تفرح به، ولكن الذين يجثمون علىٰ صدورهم من الطواغيت يحيلون دون ذلك، فكان لزامًا في بناء

الدولة أن تبنيها من الأصل، من المفاهيم، أن تأْمَنَ الحاضنةَ الشعبية، بفهم التوحيد ولا إله إلا الله.

المتن:

وَلِشَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَلَامٌ نَفِيسٌ فِي ذَلِكَ، عَمَّا يَنْبَغِي عَلَىٰ الْعَالِمِ أَنْ يَقُومَ به مِنَ الْبَيَانِ وَالتَّبْلِيغِ فَيَقُولُ رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ: «فَالْعَالِمُ -فِي الْبَيَانِ وَالْبَلَاغِ- كَذَلِكَ قَدْ يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ وَالْبَلَاغَ لِأَشْيَاءَ إِلَىٰ وَقْتِ التَّمَكُّنِ؛ كَمَا أَخَّرَ الله سُبْحَانَهُ إِنْزَالَ آيَاتٍ وَبَيَانَ أَحْكَامٍ إِلَىٰ وَقْتِ تَمَكُّنِ رَسُولِ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ بَيَانِهَا.

يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي هَذَا أَنَّ الله يَقُولُ: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإِسْرَاءُ: ١٥]، وَالْحُجَّةُ عَلَىٰ الْعِبَادِ إِنَّمَا تَقُومُ بِشَيْئَيْنِ: بِشَرْطِ التَّمَكُّنِ مِنَ الْعِلْمِ بِمَا أَنْزَلَ الله، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِهِ.

الشرح:

هذا هو الأصل يا إخوان، فالأصل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل الكتاب والرسل للبيان والعلم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعذب الناس مع أنهم أشركوا حتىٰ تقوم الحجة عليهم.

وهل كونه لا يعذبهم ينفي هذا أنهم كفار؟ لا، لا ينفي أنهم كفار، ولكن مع كفرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يعذبهم إلا بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فالحجة تقوم بأمرين: بالعلم وبالتمكن من العمل، يعني: لا بد أن يكون عالمًا، يصله العلم، وكذلك يكون عنده القدرة علىٰ هذا العمل، فيمكن أن يصله العلم، ولكن يعجز عن العمل به، كما حصل في مكة، النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يعذب، وبعض الصحابة يقف ويراه، ولا يستطيع أن يدافع عنه، حتىٰ عندما وضعوا علىٰ ظهره صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سلا الجزور، كان بعض الصحابة يقف وينظر، ولا يستطيع أن يتحرك ويزيله، وهو يعلم أن هذا رسول الله، وأن النصرة واجبة بالدم والنفس والمال، ولكنه عجز عن العمل، فإذن التكاليف تجب بالعلم، وبالقدرة علىٰ العمل بهذا العلم.

المتن:

فَأَمَّا الْعَاجِزُ عَنِ الْعِلْمِ كَالْمَجْنُونِ، أَوِ الْعَاجِزُ عَنِ الْعَمَلِ، فَلَا أَمْرَ عَلَيْهِ وَلَا نَهْيَ، وَإِذَا انْقَطَعَ الْعِلْمُ بِبَعْضِ الدِّينِ، أَوْ حَصَلَ الْعَجْزُ عَنْ بَعْضِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْعَاجِزِ عَنِ الْعِلْمِ أَوْ الْعَمَلِ بِقَوْلِهِ كَمَنِ انْقَطَعَ عَنِ الْعِلْمِ بِجَمِيعِ الدِّينِ، أَوْ عَجَزَ عَنْ جَمِيعِهِ كَالْجُنُونِ مَثَلًا، وَهَذِهِ أَوْقَاتُ الْفَتَرَاتِ.

فَإِذَا حَصَلَ مَنْ يَقُومُ بِالدِّينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوِ الْأُمَرَاءِ أَوْ مَجْمُوعِهِمَا، كَانَ بَيَانُهُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِمَنْزِلَةِ بَيَانِ الرَّسُولِ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَمَّا بُعِثَ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَا يُبَلِّغُ إِلَّا مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ.

الشرح:

فهنا مراعاة ظروف المخاطبين:

لا تكلم الناس بكلام يكون لهم مفسدة، كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، إذن هو يراعي ظروف المخاطبين، كذلك قال بعض الصحابة: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة»[١]، يعني: أنت ربما تتكلم بكلام هو حق في نفسه، ولكنّ الذين تكلمهم لا تدركه عقولهم، فإذن يفتنهم، كذلك ورد عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون (يفهمون)، أتريدون أن يكذب رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟!»[٢]، هم لا يريدون أن يُكذَّب النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن كيف يكذب؟ بأن تعطي الناس علمًا لا تدركه عقولهم، فيفتنهم. إذن تدرج في هذا.

المتن:

وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ جُمْلَةً، كَمَا يُقَالُ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَاعَ؛ فَأْمُرْ بِمَا يُسْتَطَاعُ».

الشرح:

«إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع»: إن أردت أن يطيعك الناس، فأمر بما يستطيعونه، حتىٰ يطيعوك؛ أما أن تأمر بما لا يستطيعه الناس، ثم لا يعملوا،

---

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (٥).

(٢) «صحيح البخاري»، رقم: (١٢٧).

بعد ذلك تنكر عليهم؛ فأنت المخطئ؛ لأنك حمَّلتَهم ما لا يستطيعون فعله، فإذا أردت أن تطاع، فأمر بما يستطاع.

المتن:

فَكَذَلِكَ الْمُجَدِّدُ لِدِينِهِ وَالْمُحْيِي لِسُنَّتِهِ لَا يُبَلِّغُ إِلَّا مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، كَمَا أَنَّ الدَّاخِلَ فِي الْإِسْلَامِ لَا يُمْكِنُ -حِينَ دُخُولِهِ- أَنْ يُلَقَّنَ جَمِيعَ شَرَائِعِهِ وَيُؤْمَرَ بِهَا كُلِّهَا، وَكَذَلِكَ التَّائِبُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُتَعَلِّمُ وَالْمُسْتَرْشِدُ لَا يُمْكِنُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ يُؤْمَرَ بِجَمِيعِ الدِّينِ، وَيُذْكَرَ لَهُ جَمِيعُ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يُطِقْهُ؛ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا، لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ وَالْأَمِيرِ أَنْ يُوجِبَهُ جَمِيعَهُ ابْتِدَاءً.

الشرح:

لماذا؟ لأن القدرة مناط التكليف، والعجز مسقط.

المتن:

بَلْ يَعْفُو عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِمَا لَا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ، إِلَىٰ وَقْتِ الْإِمْكَانِ؛ كَمَا عَفَا الرَّسُولُ عَمَّا عَفَا عَنْهُ إِلَىٰ وَقْتِ بَيَانِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ إِقْرَارِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْوَاجِبَاتِ؛ لِأَنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ مَشْرُوطٌ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

الشرح:

هذا أصل في الدين كله، أن الأمر بالواجبات، والنهي عن المحرمات، مشروط بإمكان العلم والعمل، هذا أصل في هذا، ومن لم يفقه هذا يظلم نفسه، ويظلم الناس.

المتن:

وَقَدْ فَرَضْنَا انْتِفَاءَ هَذَا الشَّرْطِ. فَتَدَبَّرْ هَذَا الْأَصْلَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ.

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ سُقُوطُ كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ وَاجِبَةً أَوْ مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ؛ لِعَدَمِ إِمْكَانِ الْبَلَاغِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ حُجَّةُ اللهِ فِي الْوُجُوبِ أَوْ التَّحْرِيمِ، فَإِنَّ الْعَجْزَ مُسْقِطٌ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا فِي الْأَصْلِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

الحكم بالشرع هذا أصل، ولكن متىٰ يجب الحكم بالشرع؟ عند التمكن، وكذلك عند العلم، هو علم بالشرع، كان يجب أن يعمل به، هو علمه يعني: وصل إليه، ولكنه عاجز عن العمل به، فالتمكن هنا شرط.

لذلك الذين يثيرون شبهة النجاشي، نقول: النجاشي تخلف فيه الأمران: العلم، يعني: لم يصله العلم الذي كان في المدينة، وكذلك تخلف فيه القدرة علىٰ العمل، فكان عاجزًا، إذن ليس في قصة النجاشي شبهة أبدًا؛ لأنه -كما قلنا- الوجوب والتحريم مشروط بالعلم والقدرة.

فهل يقاس النجاشي بحكام زماننا؟ لا، لماذا؟

طالب: لأن (كلمة غير واضحة) أيضًا

الشرح: أحسنت، وأيش؟ عندهم قدرة وتمكين.

بطلان ادعائهم عدم القدرة والتمكين، متىٰ يظهر؟ تظهر في تجييش الجيوش عندما تتعارض مصالحهم، تجد الجيوش تأتي وترتفع عندما تتعارض مصالحهم الدنيوية، الدين أولىٰ، وهذا يدلك أنهم لا يحاربون علىٰ الدين، يحاربون علىٰ العرض، يحاربون علىٰ الأرض، يحاربون علىٰ الراية، هذا كله وارد؛ لكن الشريعة والإسلام لا يحاربون عليه، فيدعوا عندها العجز، وتفضحهم هذه النوازل.

المتن:

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الِاجْتِهَادِيَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا: أَنَّ مَا قَالَهُ الْعَالِمُ أَوْ الْأَمِيرُ أَوْ فَعَلَهُ بِاجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ، فَإِذَا لَمْ يَرَ الْعَالِمُ الْآخَرُ وَالْأَمِيرُ الْآخَرُ مِثْلَ رَأْيِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِهِ أَوْ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِمَا يَرَاهُ مَصْلَحَةً، وَلَا يَنْهَىٰ عَنْهُ؛ إذْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَنْهَىٰ غَيْرَهُ عَنْ اتِّبَاعِ اجْتِهَادِهِ، وَلَا أَنْ يُوجِبَ عَلَيْهِ اتِّبَاعَهُ، فَهَذِهِ الْأُمُورُ فِي حَقِّهِ مِنْ الْأَعْمَالِ الْمَعْفُوَّةِ، لَا يُأْمَرُ بِهَا وَلَا يُنْهَىٰ عَنْهَا، بَلْ هِيَ بَيْنَ الْإِبَاحَةِ وَالْعَفْوِ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ جِدًّا، فَتَدَبَّرْهُ»[1].

الشرح:

(١) «مجموع الفتاوىٰ»: (٢٠/ ٥٩-٦١).

لأن مناطات الاجتهاد إذا كان لا يُنكَر عليها بين أهل العلم، فمن باب أولىٰ الأمير، أو الحاكم، أو السلطان، لا يُنكَر عليه في مناطات الاجتهاد، فمناطات الاجتهاد أهل الشورىٰ وأهل العلم يقولون رأيهم فيها، طالما أن المسألة مسألة اجتهاد ونوازل، كلٌّ يدلي بدلوه في هذه النازلة وهذا المناط الذي هو مناط اجتهاد، ثم يرجع الأمر في آخره إلىٰ الحاكم والأمير، إذا قرر الأمير أمرًا، ورأىٰ رأيًا في هذا الاجتهاد، فلا أحد يعارضه، الكل يسمع له ويطيع، وهذا من باب الوحدة والاجتماع والاعتصام بالكتاب والسنة، وهذه ميزة أعطاها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للقائد والأمير، لماذا؟ لأن الطاعة لازمة في الاجتهاد، لا تعارضه؛ لأن الجماعة أولىٰ من هذه المعارضة، طالما أنه لا يخالف نصًا، والمسألة في مسائل الاجتهاد.

المتن:

لَكِنَّ الدَّعْوَةَ السِّرِّيَّةَ الْفَرْدِيَّةَ الَّتِي اتَّبَعَهَا الرَّسُولُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ وَإِنْ كَانَتْ مُهِمَّةً لِمَرْحَلَةِ الِابْتِدَاءِ أَوْ شَرْطًا فِي النَّجَاحِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

الشرح:

هذا أصل، الدعوة السرية في بداية الدعوة شرط للنجاح، ولو اختُرِقت الجماعة في بدايتها، لانهدمت، لذلك النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قسم الدعوة في بناء الدولة والإسلام إلىٰ: مرحلة السرية، ومرحلة الجهر، ومرحلة المواجهة، ثلاث مراحل، فلو لم تع أنت هذه المراحل الثلاث يضطرب أمرك، تسقط،

تتعثر كثيرًا؛ لأنك لم تستوعب مراحل بناء الدولة، وإن لم تستوعب مراحل بناء الدولة، فستقع بلا شك في المرحلة الأولىٰ (مرحلة السرية والإعداد والتمكين)؛ لأنك لا تهتم بها، ولا تعتبرها. فمن أسباب السقوط: عدم مراعاة مراحل بناء الدولة.

والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهتم بالمرحلة الأولىٰ (مرحلة السرية)، مرحلة دار الأرقم؛ لأنها كانت الأساس الذي بنيت عليه الدولة فيما بعد.

المتن:

لَكِنَّهَا لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مَنْهَجًا عَامًّا إِلَىٰ آخِرِ الْمَدَىٰ.

الشرح:

يعني: لا تكون دائمة، مثل: دعوات الباطنية، ودعوات الخوارج، دعوةً سرية، في جميع الأمور دعوة سرية، لماذا لا تخرجون إلىٰ العلن؟ لأننا في دعوة سرية، إلىٰ متىٰ؟ إذن دعوتكم باطلة، أنتم ينطبق عليكم: «**الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[1]، لو كانت دعوتك صحيحة لعرضتها للناس؛ لكنك تعرف أنه لا يخالفها العلماء فقط، بل يخالفها عامة الناس؛ لذلك أنت تخشىٰ أن تعلن بها.

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (٢٥٥٣)، «مسند أحمد»، رقم: (١٧٦٣١).

فالدعوة السرية غير مستمرة، هي في مرحلة من المراحل، فإذا تكونت البيئة والدعوة بعد ذلك، فانطلق في دعوتك، وانشر السفراء، وبلغ الناس، وانشر الدعاة يعلنون عنك؛ أما أن تظل ساكنًا ومسرًّا، فاعلم أنك علىٰ ضلال، ومن أقوىٰ الأدلة علىٰ أنك علىٰ ضلال: أنك لا تريد أن يعلم الناس أمرك، لا تريد أن يعرف الناس دعوتك؛ لأنك تعلم في نفسك -حتىٰ لو لم تعلن- أنك علىٰ شيء خطأ، علىٰ شيء لا يوافق دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لذلك أنت تسر.

فهذه ليست مرحلة ثابتة، ولكن هي مرحلة من مراحل الدعوة وبناء الدولة.

المتن:

إِذْ لَا يُمْكِنُ لِدَعْوَةٍ عَالَمِيَّةٍ يُرْجَىٰ لَهَا الذُّيُوعُ وَالِانْتِشَارُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا أَنْ تَعْتَمِدَ هَذَا الْأُسْلُوبَ فَقَطْ إِلَىٰ النِّهَايَةِ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا إِضْعَافًا شَدِيدًا لِلدَّعْوَةِ، بَلْ وَأْدًا لَهَا، لِذَلِكَ فَمَا أَنِ اسْتَجَابَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَجِلَّاءِ، وَخَرَجَتِ الدَّعْوَةُ عَنْ حَيِّزِ الِانْحِصَارِ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ، بِحَيْثُ يُؤْمَنُ مِنْ وَأْدِهَا وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا، وَمَا أَنْ وَجَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْوَانًا عَلَىٰ الدَّعْوَةِ حَتَّىٰ بَادَرَ إِلَىٰ الْأُسْلُوبِ الْآخَرِ، أُسْلُوبِ الْإِعْلَانِ وَالْبَوْحِ وَإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ وَالْجَهْرِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ.

الشرح:

فأولًا: تكون العصبة المؤمنة علىٰ الأرض، ثم تعلن عنها بعد ذلك، ويؤمِن الناس بها، هنا أصبحت خلافة، أصبحت دولة، فلا بد من خليفة يحكمها؛ وإن لم توجد خلافة أصلًا، فلا قيمة للخليفة، ولا عنده قدرة علىٰ الأمان، ولا حفظ أعوانه والمؤمنين به.

فهذه الترتيبات والأولويات، إن لم ينبن بعضها علىٰ بعض، فأنت تقع في الاضطراب، فهذه ينبني بعضها علىٰ بعض: دعوة سرية يؤمن بها أصحابك ومن هم تحتك، تعلن بعد ذلك، تجهر، ترسل السفراء، فإذن وجدت الدولة، الدولة هذه لا بد أن يكون لها خليفة؛ أما الفِرَق الباطنية، كالإسماعيلية، والشيعة، وغير ذلك، ماذا يفعلون؟ يقيمون الخليفة قبل الخلافة، ويقولون: هذا سيظهر. من أين لكم هذا، أن يوجد الخليفة قبل الخلافة؟! الخلافة أولًا، البلد أولًا، الدولة أولًا، ثم بعد ذلك نصبوا الخليفة، لكنهم يقولون: سيأتي في آخر الزمان، سيخرج في آخر الزمان. هذا كله ضلال، وينتظر الناس، الآن مرّ ألف عام وهم ينتظرون، ولن يخرج، لماذا؟ لأن هذا باطل.

فدائمًا نترَسَّم خُطَا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذه المرحلة بالذات.

المتن:

إِذْ هَذَا الْأُسْلُوبُ هُوَ الْكَفِيلُ بِنَشْرِ الدَّعْوَةِ وَبُلُوغِهَا لِلنَّاسِ عَلَىٰ نِطَاقٍ وَاسِعٍ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ جِدًّا إِذَا قُورِنَ بِزَمَنِ الْأُسْلُوبِ الْأَوَّلِ، لَكِنْ مَا أَنْ جَهَرَ الرَّسُولُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدَّعْوَةِ حَتَّىٰ عَادَاهُ الْمُشْرِكُونَ وَصَدُّوا النَّاسَ عَنْ دَعْوَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ نَتِيجَةً لِأَمْرٍ عَارِضٍ كَطَرِيقَةِ عَرْضِ الدَّعْوَةِ -مَثَلًا-، وَلَكِنْ كَانَتْ هَذِه الْمُعَارَضَةُ نَتِيجَةَ تَنَاقُضٍ حَقِيقِيٍّ بَيْنَ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَدَعْوَةِ الشِّرْكِ؛ فَالْإِسْلَامُ قَائِمٌ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللـه وَحْدَهُ وَالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَمَّا الشِّرْكُ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللـه وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، لَكِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا اطْمَأَنَّ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ ظَلَّ سَائِرًا فِي طَرِيقِهِ لَمْ يَثْنِهِ عَنْ ذَلِكَ مَا ظَهَرَ مِنْ مُعَارَضَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ هَذِه الْمُعَارَضَةُ مِنْ طَبِيعَةِ التَّنَاقُضِ التَّامِّ بَيْنَ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَدَعْوَةِ الْبَاطِلِ.

الشرح:

هذا لا بد منه، لا بد من الصراع بين الحق والباطل، لذلك كانت الخلافة هي الرئاسة العامة للأمة، التي تعبر عن مفهوم الأمة ووحدة الأرض والإسلام، هذه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتبرها، ولم يعتبر بمعارضة المشركين، المشركون سيعارضون سيعارضون، ولكن لم يستسلم لهذا، لذلك كانت وحدة الأمة، وسلامة المنهج، هو الأصل الذي حرص عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

وَعَلَىٰ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ هَذِهِ السِّيَاسَةِ الَّتِي اتَّبَعَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُرَاعُوا الظُّرُوفَ وَالْأَحْوَالَ فِي الدَّعْوَةِ مَعَ الْحَذَرِ مِنْ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: التَّفْرِيطُ فِي مَضْمُونِ الدَّعْوَةِ أَوْ عَرْضُهَا نَاقِصَةً أَوْ مَبْتُورَةً أَوْ خَلْطُهَا بِأُمُورٍ مُخَالِفَةٍ بِزَعْمِ تَرْوِيجِهَا أَوِ التَّخَلُّصِ مِنْ بَعْضِ الْقُيُودِ.

وَثَانِيهِمَا: تَعَرُّضُ الدَّعْوَةِ لِلْوَأْدِ أَوِ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا نَتِيجَةً لِلْمُغَالبَاتِ الَّتِي تَفُوقُ طَاقَتَهُمْ.

الشرح:

هذا مهم جدًا يا إخوان، لا تعرّض الدعوة لمغالبات تفوق طاقتك، وتأمل جيدًا كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع من جاءه يريد أن يسلم، ويريد أن يدخل في الإسلام، ويؤمن بدعوته، وليس هذا فقط، بل وراءه الجيش الكبير، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مرحلة مكة، انظر إلىٰ هذا، جاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والنبي يتمنىٰ أن يأتي إليه ويدخل فيه، فلما جاءه ثمامة، وكذلك جاءه بعد ذلك أبو ذر، ومعه غفار، ومعه اليمامة، والبحرين، كان يأتي منها الناس والحنطة، كل ذلك، قال: أنا آمنت بك يا رسول الله، وأريد أن أقوم بين ظهراني قريش وأعلن أنني آمنت، قال: «**لا تفعل**». كيف لا أفعل؟ هذا دين، وهذا الحق! كأن النبي يقول له: ليس هذا مناط الإعلان والظهور.

انظر إلىٰ هذا الفقه، لم يعلن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وقال: «ارجع» انتبه لهذا، قال: «ارجع إلىٰ بلدك، فإن سمعت بظهوري فأقبل»[(١)]، إن سمعت أنني ظهرت، وأمري ظهر، فتعال.

انظر إلىٰ الحكمة، انظر إلىٰ الفهم، ما قال له: نعم تعال، هات من عندك، وجماعتك، ونعلن، قال: «ارجع، لا تعلن»، ربما يقول قائل: هذا فيه عز الإسلام، والظهور، وبيان دعوتنا، ومنهج الإسلام، في وسط الكفار، نجالدهم، ونظهر العداوة، وإظهار العداوة للمشركين من أصل الدين. ويتكلم مثل هذا الكلام، لا، لم يقل له هذا الكلام، قال: «اكتم»، يعني: اكتم إسلامك، «وارجع إلىٰ بلدك، فإن رأيتني ظهرت فأقبل».

هذا من أهم الوعي الذي يجب علىٰ الداعية أن يتحلىٰ به في هذه المرحلة بالذات، لا تتسرع قبل أن تتمكن. هذا مهم جدًا يا إخوان.

المتن:

وَمِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ الْأُسْلُوبَ أَوِ الطَّرِيقَةَ الَّتِي تُتَّبَعُ فِي ذَلِكَ قَدْ تَخْتَلِفُ مِنْ زَمَانٍ إِلَىٰ زَمَانٍ، وَمِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ آخَرَ، اعْتِمَادًا عَلَىٰ أَوْضَاعِ بِيئَةِ الدَّعْوَةِ وَظُرُوفِهَا، وَإِمْكَانَاتِ الدُّعَاةِ وَقُوَّتِهِمْ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ أَسَالِيبَ كَثِيرَةً يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ بِهَا الدَّعْوَةُ، مَعَ تَفَادِي الْمَحْذُورَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٣٥٢٢).

الشرح:

المحذوران: هما التفريط في مضمون الدعوة، يعني: اختلاطها بالمفاهيم والدعوات الأخرىٰ، وكذلك تعرضها لما لا تتحمل، فيُقضىٰ عليها.

المتن:

وَمِنْ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ: الْأُسْلُوبُ الَّذِي اتَّبَعَهُ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ التَّشْرِيعِ الدَّائِمِ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَىٰ الدُّعَاةِ اتِّبَاعُهُ وَسُلُوكُهُ فِي جَمِيعِ الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ.

الشرح:

وهو مراعاة المصلحة، يعني: إذا تعذر الآن قيام خلافة إسلامية جامعة، فلا يتعذر قيام دولة تحكم بالشريعة، يعني: نحن الآن النظام العالمي الجديد لا يسمح بإعادة الخلافة العامة، خلافة إسلامية كما كانت، تَنْزِل كلُّ الدول تحتها، هذا متعذر؛ لأنه يحتاج إلىٰ خطوات، وكذلك التمهيد لوعد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ستكون خلافة علىٰ منهاج النبوة»[1]، لكن لا يتعذر أن تقام دولة تحكم بالشريعة، إن لم نستطع أن نقيم خلافة فباستطاعتنا أن نقيم دولة، دولة تحكم بالشريعة، وتعلي تحكيم الشريعة حقًا، لا ادعاءً، فهذا بمقدورنا.

(١) «مسند أحمد»، رقم: (١٨٤٠٦).

فإن عجزنا عن أن ننشئ الخلافة العامة، فلا نعجز عن قيام دولة تحكم بالشريعة، في أي مكان، في أي بقعة من الأرض، سواء أكانت في الشيشان في روسيا في الشام في مصر، المهم أن تكون دولة تحكم، الصحيح في هذا أن نراعي بناء الدولة وقيامها، هذا الذي يعنينا، ولا تكون دولة عالمية إلا إذا جاء كل هؤلاء العلماء من جميع الدول، وبايعوا وآمنوا، وهذه يسمونها مشورة المسلمين، هكذا نستطيع أن نقف في جميع وجوه الكفرة؛ لأنها مشروعية عامة، إنما في ظل التبعية للكفار، فلا، ولكن لن نعجز عن إقامة دولة تحكم بالشريعة في ظل هذا النظام العالمي.

المتن:

٢- مُرَاعَاةُ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ:

الشَّرِيعَةُ كُلُّهَا مَبْنَاهَا عَلَىٰ الْمَصَالِحِ، فَمَا أَمَرَتْ بِهِ فَهُوَ الْمَصْلَحَةُ الْخَالِصَةُ أَوِ الرَّاجِحَةُ، وَمَا نَهَتْ عَنْهُ فَهُوَ الْمَفْسَدَةُ الْخَالِصَةُ أَوِ الرَّاجِحَةُ، وَإِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ فِي الْأَمْرِ الْوَاحِدِ بِحَيْثُ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِهِمَا، بَلْ يَجْتَمِعَانِ مَعًا؛ فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ الْأَرْجَحُ مِنْهُمَا، فَمَا كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ أَرْجَحَ مِنَ الْمَفْسَدَةِ عُمِلَ بِهِ وَعُوِّلَ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَرْجَحَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ تُرِكَ وَلَمْ يُعَوَّلْ عَلَيْهِ، وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْمُرَاعَاةِ فِي مَوْقِفِهِ مِنْ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ لَهُ وَلِأَتْبَاعِهِ فِي مَكَّةَ حِينَمَا جَهَرَ بِدَعْوَتِهِ فَقَدْ بَدَأَ الْمُشْرِكُونَ فِي الصَّدِّ عَنْ دَعْوَةِ

الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَحْذِيرِ الْقَادِمِينَ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْهُ، وَحِرْصِهِمْ عَلَىٰ أَلَّا يَجْلِسَ إِلَيْهِ أَحَدٌ، كَمَا بَدَأُوا فِي إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَإِهَانَتِهِمْ وَتَعْذِيبِ الضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ، وَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ ظُلْمٌ شَدِيدٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالْعَرَبِيُّ نَفْسُهُ أَبِيَّةٌ، لَا تَحْتَمِلُ الضَّيْمَ، وَلَا تَقْبَلُهُ حَتَّىٰ! فَكَيْفَ إِذَا انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ؟! وَرَدُّ الظُّلْمِ وَإِبَاءُ الضَّيْمِ مَصْلَحَةٌ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورىٰ: ٤١] لَكِنْ كَانَ فِي رَدِّ الظُّلْمِ وَالِانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ فِي ذَلِكَ الظَّرْفِ، إِلَىٰ جَانِبِ تِلْكَ الْمَصْلَحَةِ- مَفْسَدَةٌ كَبِيرَةٌ تَرْبُو عَلَيْهَا، فَكَانَتِ السِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَنْعَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الرَّدِّ عَلَىٰ الْمُجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْأَمْرَ بِالصَّبْرِ وَاحْتِمَالَ الْأَذَىٰ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَدْرِي فِي تِلْكَ الظُّرُوفِ -مَعَ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ وَقُوَّةِ الْمُجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ- مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ تُسْفِرَ عَنْهُ الْمُوَاجَهَاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَدُوِّهِمْ، فَقَدْ تَتَمَخَّضُ عَنْ مَعْرَكَةٍ كَبِيرَةٍ يَفْنَىٰ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، أَوْ قَدْ تَتَدَخَّلُ الْقَبَائِلُ دِفَاعًا عَنْ أَبْنَائِهَا -وَلَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ- بِدَافِعِ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ تَنْشَأَ عَنْهُ مَا يُعْرَفُ بِالْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ، مِمَّا لَا يُوَفِّرُ ظُرُوفًا مُسَاعِدَةً عَلَىٰ الدَّعْوَةِ، بَلْ تَتَقَوْقَعُ الدَّعْوَةُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَتَنْحَصِرُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الِاحْتِمَالَاتِ الَّتِي تَخْسَرُ فِيهَا الدَّعْوَةُ كُلَّ مَا حَقَّقَتْهُ مِنْ مَكَاسِبَ.

الشرح:

انتبهوا لهذا جيدًا. هذا لو أقامه وأعلنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرحلة الإعداد، في البداية، وفي حال الضعف، كانت هذه معركة لا يؤمن جوانبها، فربما تدخل القبائل فيها، وتكون معركة عالمية، وربما تتعصب القبائل لأبنائها حتىٰ لو كانوا مسلمين، ابننا مسلم نعم، واختار دينًا غير ديننا، ولكنه منا، تبدأ هذه المرحلة، فلا تسفر عن النتيجة، أقل ما يقال عن هذه الدعوة التي لم يفهموها: هذه الدعوة فرقت جمعنا، وشتت شملنا، وأشعلت الحروب بيننا، فلا خير فيها. فينفض الناس عن الدعوة قبل أن تبدأ، ولكن من حكمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإعمال السياسة الشرعية التي هي لنا بعد ذلك، نتبعها خطوة خطوة، لا بد أن نراعي المصالح والمفاسد، فلا نقدم علىٰ أمر يترتب عليه مفسدة للجماعة المسلمة، بل يجعل الطاغوت يستأصلها عن بكرة أبيها، هذا كله ليس مقصودًا شرعيًا، ولو كان هذا، لفعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يعبأ، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راعىٰ هذا جيدًا.

فالعمل بالسياسة الشرعية، والوعي السياسي، وتقدير المصالح والمفاسد، هذا من أعظم فقه الداعية في إدارة الدعوة.

المتن:

فَكَانَ احْتِمَالُ الضَّيْمِ عَلَىٰ مَا فِيهِ مِنْ إِيلَامٍ، وَقَسْوَتِهِ عَلَىٰ النُّفُوسِ الْأَبِيَّةِ أَهْوَنَ شَرًّا وَأَقَلَّ ضَرَرًا مِنْ مُحَاوَلَةِ دَفْعِ الظُّلْمِ، لَكِنَّ هَذِهِ الْمُرَاعَاةَ لِلْمَصَالِحِ

وَالْمَفَاسِدِ لَا تَتِمُّ مَعَ الِاسْتِكَانَةِ وَالشُّعُورِ بِالْمَذَلَّةِ أَوِ التَّعَرُّضِ لِلْإِبَادَةِ الْكَامِلَةِ، لَكِنَّهَا تَكُونُ مَعَ الِاسْتِعْلَاءِ بِالدِّينِ وَالشُّعُورِ بِالْعِزَّةِ وَلِذَلِكَ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ وَهُوَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالصَّبْرِ يُبَشِّرُهُمْ بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَيُقْسِمُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَفِي حَدِيثِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ:«أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللـه لَنَا قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللـه، لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللـه، أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

الشرح:

اضبط هذا جيدًا، وتأمل هذا الحديث، واستخرج منه الفوائد.

اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: {وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، فلا بد أن تستعلي بهذا الإيمان، وليس معنىٰ الانتصار: أن تنتصر وتأخذ عدوك وتقتله، هذا ليس انتصارًا، الانتصار: أن تموت علىٰ الحق الذي أنت عليه، حقيقة الانتصار: أن تُشْعِرِ العدو أنه لم ينل من عقيدتك، وإن نال

من جسدك ودمك ولحمك، لذلك لما قُتِل الصحابي، أخذ بدمه ووضع علىٰ وجهه، قال: «فزت ورب الكعبة»(١)، فزت بماذا وأنت قتلت؟ قتلت علىٰ الحق، هذه حقيقة الانتصار. ولكن انظر إلىٰ فقه الحديث، النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يرسل رسالة لأصحابه أنكم أنتم الأعلون في الدنيا وفي الآخرة، انظر إلىٰ بلال الضعيف، كان مستعليًا بإيمانه، وكان الكفار منهزمين أمامه، وهو ضعيف، يعذبونه، ولكنه بمجرد ثباته علىٰ الحق، ويقول: «أحد أحد»(٢)، يعني: لا أشرك بالله أحدًا، هذا كان في حقيقته انتصارًا لبلال علىٰ كفار قريش.

فليست الهزيمة أن يهزمك عدوك في معركة أو في أرض، بل الهزيمة أن يهزموا عقيدتك. هذا هو الأصل.

لذلك تأمل جيدًا قول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأمله وتخيله وتصوره صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالس في ظل الكعبة، الكعبة هكذا وهو جالس في ظلها، ومتوسد ببردة، تخيل هذا المشهد، والصحابة يعذبون، حتىٰ أن خبابًا وهو راوي الحديث، كان يوضع علىٰ الجمر كالذبيحة، حتىٰ صار في ظهره أخاديد (حفر)؛ من النار، فلما كشف عن ظهره لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بكىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٤٠٩٢)، «صحيح مسلم»، رقم: (٦٧٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، رقم: (١١)، «البداية والنهاية»: (٤/ ١٤٤).

وانظر إلىٰ هذه الحالة والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القائد، وهو الخليفة، هو الإمام، وهو الأمير، يرىٰ جنوده، يرىٰ أتباعه يعذبون، وهو لا يملك لهم شيئًا، وهو كان قادرًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم فينصرهم، أليس هذا في استطاعته؟ وهو مستجاب الدعوة، نبي، ينصرهم، ولكنه ما أراد لهذه الدعوة أن تكون بهذه الطريقة، بل أراد أن يكون فيها أسباب ودماء وأشلاء، حتىٰ يُمكّن لمن بعدهم، حتىٰ يسيروا علىٰ الطريق الذي سار عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

انظر إلىٰ الفقه، هم يشتكون له بمرارة: «ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ ألا ترىٰ ما نحن فيه؟» انظر إلىٰ الكلام، شديد، ولكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يريد أن يربطهم بالأعلىٰ، لا يريد أن يقلل ما هم فيه، ولكن كان يريد أن يربطهم دائمًا بالأعلىٰ، قال: وماذا أصابكم أنتم؟ هذا طريق الله، ماذا أصابكم فيه؟ عذبتم؟ لو ربطهم بالأدنىٰ، يئسوا، وظنوا أنهم أصابهم ما لم يصب أحدًا، ولكن انظر إلىٰ فقه الإمام والداعية والأمير والقائد، لذلك لا بد أن يكون عالمًا عنده فقه، انظر إلىٰ كلام النبي، ماذا قال لهم؟ قال: «**كان يؤتىٰ بمن كان قبلكم**»، فربطهم بالذين ساروا قبلهم علىٰ هذا الطريق، قالوا: ماذا فعلوا؟ قال: «**كان يؤتىٰ بأحدهم فينشر بالمنشار فيشق نصفين، وما يصده ذلك عن دينه**»، ربطهم بأشياء لم تحصل لهم، فإذن لم يشق أحدنا نصفين بالمنشار، إذن ما دون ذلك نتحمله.

فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ربطهم بالأعلىٰ، وهذا فقه عجيب جدًا، لا بد أن نستخلص منه الدروس في واقعنا، حتىٰ لا ننهزم نفسيًا بالذي يحصل لنا، بل لا بد من إعادة البناء، ولا نيأس.

ثم قال لهم البشرىٰ، وهو صادق عندهم، يصدقونه، قال: «**والله ليتمن هذا الأمر**»(١)، إذن هذه بشرىٰ، قطعًا سننتصر، اليوم أو غدًا سننتصر؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال ذلك.

فمع فهمه لواقعهم، ومع ربطه بالأعلىٰ حتىٰ لا ييأسوا، بشرهم وقال: أنتم إلىٰ خير وإلىٰ نصر.

فبيان حالٍ، وربط بالأعلىٰ، ونتيجة بالنصر، هذه الثلاث ربطهم بها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وفي هذه الثلاث حقيقة الانتصار، ولا سواء، {إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ}، ما الفرق بين ألمكم وألمهم؟ أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، هذه هي القضية، وماذا يرجو المؤمن المسلم الموحد المجاهد من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؟ إحدىٰ الحسنيين، النصر أو الشهادة.

فأريدكم أن تفهموا هذا جيدًا؛ لأن هذا أصل الدعوة وعمادها واستمرارها.

---

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٣٦١٢).

لذلك علىٰ كل واحد أن يجلس مع نفسه، ويكتب ما فهمه من هذا الحديث، والخطوات والمراحل التي ينبغي أن نعمل بها في الواقع، لا يقول كلامًا من عنده ويسكت، لا، يشرح كيف نستفيد من هذا الحديث في الواقع، الواقع العملي؟ لأن هذه مرحلة مشابهة، فلا بد أن نتأسىٰ بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك.

المتن:

وَعَلَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ أَنْ يُرَاعِيَ الدُّعَاةُ وَالْعَامِلُونَ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ وَالتَّصَرُّفَاتِ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ لَا يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ مَشْرُوعًا إِذَا عُلِمَ أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي يُحَقِّقُهَا، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي الْقَاعِدَةِ الْفِقْهِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِـ (سَدِّ الذَّرَائِعِ)، وَهِيَ أَنَّ الْعَمَلَ الْمَشْرُوعَ إِذَا كَانَ ذَرِيعَةً إِلَىٰ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرَ فَإِنَّهُ يُمْنَعُ.

الشرح:

لذلك تأمل في نهاية الحديث، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف لهم المرض، قال: «ولكنكم تستعجلون»[1]، يعني: هذا حاصل، حاصل، ولكن العلة فيكم أنتم، «ولكنكم تستعجلون» ما أنتم فيه، تستعجلون النصر من غير أن تدفعوا ثمنه، تستعجلون النصر سهلًا ميسّرًا حتىٰ لا تحافظوا عليه إن جاءكم يسيرًا،

(١) سبق تخريجه.

ولكن إن جاءكم بالتعب والعرق والدماء والأشلاء، عرفتم قيمته، فحافظتم عليه، هذا سر المسألة، «ولكنكم تستعجلون»، تستعجلون في الإعداد، تستعجلون في الإعلان، تستعجلون في المصادمة مع الجوار، تستعجلون في قطف الثمار، تستعجلون في كل شيء، هذا هو سبب خذلانكم، لذلك الصحابة لم يتعجلوا أبدًا، لذلك لما جاء في مناط استعجال، اتهموا أنفسهم، لماذا؟ ذكرهم بهذا الأول، فقالوا: «الله ورسوله أعلم»، نحن نرىٰ الأمر هكذا من وجهة نظرنا، وهذا لا بد من الوقت في الاستعجال، ولكن لا نستطيع، لماذا؟ لأن هذا وحي، فهذا سر المسألة.

المتن:

وَمِمَّا يَنْبَغِي مُلَاحَظَتُهُ فِي هَذَا البَابِ، أَنَّ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْمَالِ لَا تَظَلُّ أَبَدَ الدَّهْرِ هَكَذَا، فَإِنَّ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَىٰ أَوْضَاعٍ- تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَمَا انْتَشَرَتْ دَعْوَتُهُمْ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ، أُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، ثُمَّ أُمِرُوا بِهِ، وَلَمْ يَعُدِ الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ مَفْسَدَةً يَنْبَغِي لِأَجْلِهَا تَحَمُّلُ الظُّلْمِ وَالسُّكُوتُ عَنْ مُوَاجَهَتِهِ.

الشرح:

لأن المفسدة مناط عارض من أصل كلي، ما هو الأصل الكلي؟ مجابهة الكفار، والرد عليهم، ولكن لما حصلت المفسدة، كان هذا، ولما زالت المفسدة، لا بد أن يزال سببها، لا تقل: المفسدة تسير معك إلىٰ نهاية الطريق،

لا، المفاسد والمصالح هذه مترتبة علىٰ مناطات، إذا زالت المفسدة رجع الأصل.

المتن:

وَنَظَرًا لِاتِّسَاعِ رُقْعَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ فَإِنَّ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ الْمُرْتَبِطَةَ بِالْأَوْضَاعِ تَخْتَلِفُ مِنْ مَكَانٍ لِآخَرَ؛ لِاخْتِلَافِ الْأَوْضَاعِ، فَمَا يَكُونُ مَفْسَدَةً فِي مَكَانٍ قَدْ لَا يَكُونُ مَفْسَدَةً فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَمَا يَكُونُ مَصْلَحَةً فِي مَكَانٍ قَدْ لَا يَكُونُ مَصْلَحَةً فِي مَكَانٍ آخَرَ.

الشرح:

انظر إلىٰ الواقع الذي نعيشه الآن، اليهود الآن في كل مكان، وسافروا، وهربوا، بعض الإخوة يسأل: ماذا أفعل مع هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إلينا؟

وآخر يقول: عندنا يهود كثر يؤيدون المسلمين، ويعارضون اليهود في بلادهم، ويذمونهم، ماذا نفعل بهم؟

وثالث يسأل: هل أستطيع أن أجمع التبرعات من المسلمين؛ لأشتري أنا ملابس وأسلحة لنفسي، وأقول: إنها لطلبة العلم؟

ثلاث مناطات مختلفة، من ثلاث بلاد مختلفة. ماذا أنت فاعل في هذا المناط؟

المناط الأول: أن من هرب من الحرب مع المسلمين من اليهود، فهذا يتقصد؛ لأن هذا هرب.

والمناط الثاني: المصلحة تستدعي أنك لا تستعديه؛ لأنه موافقك، ويدافع عنك، وينشر قضيتك، وإن كان يهوديًا، ولكنه في هذه المرحلة يدافع عنك، ويعارض هؤلاء الناس، إذن المصلحة ألّا تتقصَّده.

والمناط الثالث: الذي يريد أن يجمع الأموال بحجة أنه طالب علم، ثم بعد ذلك يأخذها ويشتري بها لنفسه ملابس، وغير ذلك.

ثلاثة مناطات مختلفة في وقت مناط معين.

إذن هذا لا يجوز له أن يعلن عن ذلك بنفسه، بل لا بد أن يكون من خلال أمير، من خلال مسؤول عن جماعة، وإلا فكل إنسان رأىٰ في نفسه ذلك أعلن أنه يريد أن يجمع مالًا لنفسه، وهو كانت نيته صالحة في الأول، أنه يريد أن يشتري ويعد سلاحًا وغير ذلك، ولكنه منفرد، فالمنفرد يستهويه الشيطان، فلا بد أن تلحقه بجماعة تضبطه، وعالِم يضبط المسألة شرعًا، حتىٰ يضبط أهواءه؛ حتىٰ لا ينفرد، حتىٰ لا يسير في المحرم.

ثلاثة مناطات في وقت واحد، لا بد أن تراعىٰ فيها المصالح والمفاسد في كل مكان بنفسه، لا تقول: لها حكم عام واحد، وتفتي فيها بحكم واحد، هذا لا يجوز، هذا فساد أصلًا، هذا لا يحقق مصلحة الشرع؛ لأن الطالب الذي هو

طالب علم، الذي يريد أن يعلن عن جمع الأموال، أنت تفسده، وتفسد علمه؛ لأن الدنيا تدخل عليه، وهو ليس عنده العلم ليكف عن هذا، أو ليس عنده بصيرة بما يُشتَرىٰ وما لا يُشتَرىٰ، فإذن لا بد أن تلحقه بجماعة، تلحقه بأهل علم، تلحقه بعصبة مؤمنة توجهه وترشده، وغير ذلك.

فمراعاة المصالح والمفاسد في مناطها، هذا مهم جدًا، «في مناطها» ليست هكذا مطلقة، لا، في مناطها، يرتبط بالعلم ومعرفة الحال.

المتن:

وَالْمَصْلَحَةُ وَالْمَفْسَدَةُ إِنَّمَا تُقَاسُ بِمِعْيَارِ الشَّرْعِ وَلَيْسَ بِمِعْيَارِ الْمَكْسَبِ وَالْخَسَارَةِ الْمَادِّيَّةِ فَقَطْ، فَقَدْ دَلَّ غُلَامُ الْأُخْدُودِ الْمَلِكَ الْكَافِرَ عَلَىٰ كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي ظَاهِرِهِ مَفْسَدَةً؛ لِتَمْكِينِ الْكَافِرِ مِنَ التَّسَلُّطِ عَلَىٰ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِمِقْيَاسِ الشَّرْعِ مَصْلَحَةً رَاجِحَةً؛ لِأَنَّ هَذَا التَّصَرُّفَ كَانَ سَبَبًا وَوَسِيلَةً إِلَىٰ إِحْيَاءِ نُفُوسٍ كَثِيرَةٍ، وَكَذَلِكَ إِذَا نَزَلَ الْكَافِرُ الْبَاغِي الْمُعْتَدِي بِأَرْضِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ التَّصَدِّيَ لَهُ وَمُدَافَعَتَهُ هُوَ الْمَصْلَحَةُ وَإِنْ تَرَتَّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مَفْسَدَةُ إِهْلَاكٍ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ؛ لِأَنَّ تَرْكَهُ وَعَدَمَ مُدَافَعَتِهِ يُؤَدِّي إِلَىٰ إِهْلَاكِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ لَنْ يُحَافظَ عَلَىٰ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ.

الشرح:

فالمصلحة والمفسدة لا بد أن تكون مضبوطة بالشرع، لا بأهواء الناس، فالشرع حاكم علىٰ أهواء الناس، فالمفسدة لا تسمىٰ مفسدة إلا إذا كانت شرعية، والمصلحة لا تسمىٰ مصلحة إلا إذا كانت شرعية؛ حتىٰ لا تصير مصلحة الدعوة طاغوتًا يعبده الدعاة، أصبحت مصلحة الدعوة صنمًا يطوف حوله الدعاة وأهل العلم، يقول: هذه مصلحة الدعوة، وإلىٰ متىٰ؟ حتىٰ إذا نزل الكافر بأرض المسلمين، قالوا: مصلحة الدعوة ألا ندفعه. انظر! أصبحت مصلحة الدعوة هذه صنمًا يطوف حوله الدعاة لتحقيق ذواتهم وأهوائهم، أو أهواء الحكام، الكافر نزل أرض المسلمين، ودافع المسلمون، يجب عليك أن تدفع؛ لأن دخول الكافر بلاد المسلمين يهلك الحرث والنسل، وأنت تخاف الآن أن تريق الدماء، وهو إذا دخلها لن يبقي لا نسلًا ولا دينًا، إذن ادفع، هذه مفسدة لا تدفع إلا بهذا، هذا لا بد أن تراعىٰ فيه.

فالمصلحة لا بد أن تكون شرعية، لا بأهواء الناس.

كذلك انظر في قصة غلام الأخدود، التي حكاها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القرآن، بعد أن كل هذه الأمور، حتىٰ دل علىٰ الراهب، وهذا كذلك فيه عبر ودروس، أن القدرة مناط التكليف، مع أن الراهب قال للغلام: «لا تدل علي»[1]، ولكنه عُذِّب عذابًا شديدًا فدل علىٰ الراهب، فدل ذلك علىٰ أن البشر

---

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (٣٠٠٥)، باب قصة أصحاب الأخدود.

لهم طاقة، فإذا عذب الإنسان وأكره إكراهًا شديدًا لا يتحمله، فله أن يأخذ بالعزيمة، وله أن يأخذ بالرخصة؛ إذ لم يتحمل، كغلام الأخدود، أخذ بالرخصة وترخص، وعمار بن ياسر أخذ بالرخصة وترخص، لا تثريب علىٰ ذلك للإكراه الملجِئ.

ولكن بعد كل هذا المشوار الطويل، في النهاية الغلام يدل الملك كيف يقتله؟ ولماذا أنت تسير كل هذا الطريق، وتدافع كل هذه المدافعة، وتجاهد كل هذا الجهاد؟ في قتلك مفسدة. لا، في قتلي أنا مصلحة، وإحياء للأمة كلها، وانظر إلىٰ الهدف، كان الملك يخاف أن يؤمن الناس، وكان يخاف أن يعرفوا بأمر الغلام، فالغلام أراد أن يعرف كل الناس دين الله، ويفدي ذلك بدمه ونفسه، فقال: «لن تقتلني إلا بهذه الطريقة، أن تأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول: بسم الله رب هذا الغلام»، والناس كلهم حاضرون، قال: «اجمع الناس كلهم»، انظر إلىٰ المصلحة العظيمة، المصلحة العظيمة فيها إزهاق نفس واحدة، ولكن فيها إحياء أمة كاملة بنفسك أنت، هذا فقه لا يعرفه كل أحد، ولكن الراسخ في العلم هو الذي يفهم هذا.

المتن:

٣- الْحِرْصُ عَلَىٰ هِدَايَةِ الْمَدْعُوِّينَ أَوَّلًا:

الدَّاعِيَةُ لَهُ هَدَفٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ إِلَىٰ دِينِ اللـه، وَهَذَا هُوَ مَا يَحْرِصُ عَلَيْهِ وَيَسْعَىٰ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِهْ، وَيَلْتَمِسُ لَهُ الْوَسَائِلَ وَالطُّرُقَ الْمُنَاسِبَةَ؛ رَغْبَةً فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ؛ لِلْفَوْزِ بِرِضَا خَالِقِهِمْ. وَلَيْسَ هَمُّ الدَّاعِيَةِ مَحْصُورًا فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ دَعْوَتِهِ، فَعِنْدَمَا يَكُونُ هَمُّ الدَّاعِيَةِ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ وَكَفَىٰ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَجْتَهِدَ اجْتِهَادَ الْحَرِيصِ عَلَىٰ هِدَايَةِ النَّاسِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَعْوَتِهِ حَرِيصًا جِدًا عَلَىٰ هِدَايَةِ النَّاسِ.

وَكَانَ يَبْذُلُ لَهُمْ كُلَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الِاهْتِدَاءِ، وَكَانَ يَحْزَنُ حُزْنًا شَدِيدًا عَلَىٰ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ النَّاسِ لِلدَّعْوَةِ؛ حَتَّىٰ خَاطَبَهُ رَبُّهُ فِي ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ} [المائدة: ٤١]، وَقَالَ: {فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]، وَقَالَ {لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]، {بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ}؛ أَيْ: مُهْلِكُهَا.

الشرح:

يعني: أنت ستقتل نفسك من أجل أن يؤمن الناس، لعلك قاتل نفسك، مهلك نفسك ليؤمن الناس، لا، ارفق بنفسك، ولكن خذ بالأسباب، اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له حكمة في ذلك، أنت قم بما أوجبه اللـه عليك فقط.

المتن:

فَلَمْ يَكُنْ هَمُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَحْصُورًا فِي مُجَرَّدِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، بَلْ كَانَ هَمُّهُ الْأَكْبَرُ هُوَ فِي قِيَادِهِمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْلُكُ فِي ذَلِكَ كُلَّ طَرِيقٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَقِّقَ مُرَادَهُ، وَهَذِهِ أُمُّنَا عَائِشَةُ ب زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُخْبِرُنَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللـه قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللـه مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللـه وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

الشرح:

وقد شرحنا هذا الكلام فيما سبق، وبينا أن هداية الناس أولىٰ من قتلهم، ودخولهم في الإسلام ليكونوا رداء للإسلام، ويخرج من أصلابهم من يوحد اللـه، هذا هو الأصل، فالإسلام ما جاء ليستأصل البشرية، الإسلام جاء لهداية البشرية، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، هذا مهم جدًا.

المتن:

وَعَلَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ، أَنْ تَظْهَرَ مِنَ الدَّاعِيَةِ الرَّغْبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَالْحِرْصُ عَلَىٰ هِدَايَةِ النَّاسِ، وَالتَّحَسُّرُ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْبُعْدِ عَنْ دِينِ اللـه تَعَالَىٰ، وَلَا يَكُنْ مَوْقِفُهُ مِنْهُمْ مَوْقِفَ الْمُتَشَفِّي فِيهِمْ، الَّذِي وَقَفَ جُهْدَهُ وَهَمَّهُ فِي الْإِغْلَاظِ عَلَيْهِمْ.

وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي الْحِرْصِ عَلَىٰ هِدَايَةِ النَّاسِ لَيْسَتْ قَاصِرَةً عَلَىٰ شَرِيعَتِنَا، بَلْ هَذَا مَا أَوْصَىٰ اللـه بِهِ مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ عِنْدَمَا أَرْسَلَهُمَا لِدَعْوَةِ فِرْعَوْنَ، قَالَ اللـه لَهُمَا: {فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} [طه: ٤٤]، فَالْمَوْقِفُ مَوْقِفُ دَعْوَةٍ وَتَرْغِيبٍ فِي الْهِدَايَةِ، فَكَانَ الْمُنَاسِبُ لِذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ اللَّيِّنُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ يَقُودُ إِلَىٰ الِاسْتِجَابَةِ، وَأَمَّا الْإِغْلَاظُ فِي الْقَوْلِ وَالشِّدَّةُ فِي التَّصَرُّفِ -فِي هَذِهِ الْحَالَةِ- يَكُونُ مَدْعَاةً لِلنُّفُورِ وَالِاسْتِكْبَارِ.

فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ مَنَاطِ الدَّعْوَةِ الَّذِي فِيهِ اللِّينُ، وَالرِّفْقُ، وَالتَّغَافُلُ، وَتُسَاقُ فِيهِ كُلُّ آيَاتِ الرِّفْقِ وَالصَّبْرِ، وَبَيْنَ مَنَاطِ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ الَّذِي فِيهِ الشِّدَّةُ وَالْإِغْلَاظُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ. وَمِنَ الْحِكْمَةِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ.

الشرح:

تعريف الحكمة: (الحكمة): هي وضع الشيء في موضعه.

تعريف الظلم: (الظلم): هو وضع الشيء في غير موضعه.

فلا بد للداعية، في سيره إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يفرق بين مناطين، ومن لم يفرق بينهما، يضل في هذا الطريق، ويتعثر كثيرًا، وربما ينتهي، لا بد أن يفرق بين مناط الدعوة، وبين مناط القتال والجهاد.

مناط الدعوة فيه: الرفق، واللين، والحرص علىٰ دخول الكافر في الإسلام، واختيار الأنسب لدعوته، والرفق به، وهذا فيه كل آيات الرحمة والدعوة: {ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ}، وقال الله سبحانه: {وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا}، وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا...**»[1].

{وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ}، فكل هذه الآيات والأحاديث تأتي في مناط الدعوة، أنت تدعو الناس، ليس هناك حرب، ولا مصافاة، ولا جيوش ملتقية، هذا فيه اللين والرفق، هذا يسمىٰ «مناط الدعوة»، تنزل فيه هذه الآيات.

ثم مناط القتال، مناط القتال والحرب الأصل فيه الشدة والغلظة، {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، إذن هنا مناط قتال، {فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ}، ما فيه رحمة؛ لأن المناط مناط حرب وقتال، لا بد أن تُظهِر هنا قوة الإسلام

(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٣٧٠١).

والمسلمين، في مناط الحرب؛ أما في مناط الدعوة لا بد...، والخلط بينهما مفسدة، أن تنزل آيات الرفق واللين في مناط الحرب، فترفق وتلين مع الكفار في مناط الحرب، وكذلك مفسدة أن تُنزِل مناطات آيات الكفار في الحرب مناط الدعوة، هذه مفسدة عظيمة، لا بد ألّا تخلط بينهما.

المتن:

وَهَذَا نُوحٌ عَلَيهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: {أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤} [نوح: ٣-٤] إِلَى أَنْ يَقُولَ: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١} [نوح: ٨-١١].

الشرح:

هذا نوح -عليه السلام- أول رسل الله إلىٰ الأرض، دعاهم ألف سنة إلا خمسين، بالرفق، واللين، والمحاباة، كل هذا يدعوهم، بعد ذلك دعا عليهم بالاستئصال: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا}، بعد ألف سنة من دعوتهم، والترفق بهم، وانظر ماذا يقول لهم، يترفق بهم: {فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا}، لماذا لا تستغفرون الله؟ لماذا لا تتوبون إلىٰ الله؟ كل هذا بالرفق واللين.

المتن:

كُلَّ ذَلِكَ؛ حِرْصًا مِنْهُ وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِمْ، فَالْتِمَاسُ الْوَسَائِلِ، وَاتِّخَاذُ الطُّرُقِ وَالْأَسَالِيبِ الْمُؤَدِّيَةِ لِذَلِكَ، هُوَ هَمُّ الدُّعَاةِ الْحَقِيقِيِّ.

وَبَعْدَ هَذَا الْجُهْدِ الْكَبِيرِ فَهُنَاكَ مَنْ يَشْرَحُ اللـه صَدْرَهُ وَيَهْدِيهِ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ تَبْقَىٰ بَقِيَّةٌ ظَالِمَةٌ فَاجِرَةٌ مُتَكَبِّرَةٌ لَمْ يُرِدِ اللـه هِدَايَتَهَا، فَإِذَا وَصَلَتْ فِئَةٌ إِلَىٰ هَذَا الْحَدِّ وَانْقَطَعَ أَمَلُ الدَّاعِيَةِ فِي رُجُوعِهِمْ لِلْحَقِّ؛ فَإِنَّ عَلَىٰ الدَّاعِيَةِ أَنْ يُوَاجِهَ الظَّالِمَ الْكَفُورَ بِمَا يُنَاسِبُهُ، مَعَ مُرَاعَاةِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ، وَلَيْسَ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ تَرْكُهُ -وَالْحَالَةُ هَذِهِ- يَتَمَادَىٰ فِي غَيِّهِ، وَيَزِيدُ مِنْ شَطَطِهِ؛ إِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ تُرْتَجَىٰ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللـه تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ -لَعَنَهُ اللـه-: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا} [الإسراء: ١٠١]، فَرَدَّ عَلَيْهِ مُوسَىٰ عليه السلام وَقَالَ لَهُ {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢] فَبَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ يَلَجُّ فِرْعَوْنُ فِي غَيِّهِ وَيَرْفُضُ الْإِيمَانَ وَيَتَّهِمُ مُوسَىٰ بِالسِّحْرِ فَمَا كَانَ مِنْ مُوسَىٰ عليه السلام إِلَّا أَنْ وَاجَهَهُ بِأَنَّكَ تَعْلَمُ يَا فِرْعَونُ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحْرٍ وَأَنَّ هَذِهِ آيَاتٌ أَنْزَلَهَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ يَتَهَدَّدُهُ بِقَوْلِهِ: {وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}؛ أَيْ: هَالِكًا مَمْقُوتًا نَاقِصَ الْعَقْلِ. فَلَيْسَ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الدَّعْوَةِ أَنْ نَقِفَ أَبَدَ الدَّهْرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: {فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا}.

الشرح:

يعني: ليس من فقه الدعوة أن تلين مع الكافر دائمًا، وتقول: يا أخي، الله أرسل موسىٰ إلىٰ فرعون، وفرعون هذا ادعىٰ الربوبية، ومع ذلك قال له: {فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا}. يتمسك بهذه ولا يخرج عنها، لكن انظر ماذا قال له بعد ذلك، لماذا لا تتعدىٰ هذه المرحلة؟ لماذا تتمسك بهذه المرحلة فقط، مع فشُوّ الظلم والكفر وانتشاره واستعلائه وجبروته؟! فلا بد أن تُعمِل السياسة الأخرىٰ، ما لا يندفع شره إلا بقتله قتل، لماذا لا تُعمِل هذه؟

المتن:

وَلَيْسَ مِنَ السِّيَاسَةِ أَيْضًا أَنْ نَبْدَأَ الدَّعْوَةَ بـ {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} وَإِنَّمَا السِّيَاسَةُ الْحَقَّةُ هِيَ مُقَابَلَةُ كُلِّ مَوْقِفٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ، فَفِي مَوْقِفِ الدَّعْوَةِ وَقَبْلَ اسْتِحْكَامِ الْعِنَادِ يَأْتِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا}، وَقَوْلُهُ -سُبْحَانَهُ-: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا}، وَفِي مَوْقِفِ الْجِهَادِ وَالْجِلَادِ يَأْتِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً}، وَمِنْ ذَلِكَ هَذَا الَّذِي نَزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨} [يس: ٧٧-٧٨] «قَالَ قَتَادَةُ: «ذُكِرَ لَنَا أَنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ ثُمَّ ذَرَاهُ

فِي الرِّيحِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ يُحْيِي هَذَا وَهُوَ رَمِيمٌ. قَالَ: «اللـه يُحْيِيهِ ثُمَّ يُمِيتُهُ ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ» قَالَ: فَقَتَلَهُ رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ»» (١)

فَقَابَلَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الشِّدَّةِ فِي الْجَوَابِ فَهَذَا الَّذِي يُنَاسِبُ مَوْقِفَ الْمُعَانِدِينَ الْمُتَجَبِّرِينَ.

الشرح:

وصلنا إلىٰ التقيد بالأرض أو الارتباط بالأوطان، في كلامنا عن الملامح العامة لأساليب وطرائق السياسة الشرعية التي اتبعها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة، وقلنا: إن أصل هذه الأمور: الاجتماع، فلا عز ولا تمكين لأهل الإسلام إلا بأرض تُحكَم بشرع اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا خليفة بدون خلافة، ولا أرض بدون قيادة، فكل هذه الأمور تأتي بعد التمكن من الأرض، وبقعة الانطلاق، والحدود، وتأمين الجبهة الداخلية والخارجية، فإذا وجِدَت الأرض، ووجِدَت دولة الإسلام، وجِد القائد، وجِدت الحكومة، وجدت السلطة؛ أما قبل ذلك، فلا معنىٰ لوجود قائد أو رئيس بدون أرض تُحكَم بشرع اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الغرض من إقامة الدولة هو حفظ أعراض المسلمين، وحفظ بيضة الإسلام، فما فائدة أن توجد مسميات ليس لها حقائق علىٰ الأرض؟ إذن نحن نكرر دائمًا أساليب العلمانيين والديموقراطيين في الأسماء

(٩٩) «تفسير الطبري»: (١٩/ ٤٨٦)، تحقيق د. عبد اللـه عبد المحسن التركي.

وتضخيمها دون وجود علىٰ الأرض، نسمع: «دولة الشريعة»، «دولة الإسلام»، وهي لا تمت إلىٰ الإسلام بصلة! فهذه مسميات ما أنزل اللـه بها من سلطان، ليس لها حقيقة في واقع الناس.

فنسعىٰ إلىٰ إقامة خلافة راشدة، فإن لم نستطع، سعينا لإقامة دولة تحكم بشرع اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن لم نستطع، فنستطيع بفضل اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نبدأ بدعوةٍ، وتكوين دولةٍ، حتىٰ لو كانت قطعة صغيرة، ولكن دولة لها سيادة، ولها قدرات، وإمكانيات، تحكم بشرع اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

٤- عَدَمُ التَّقَيُّدِ بِالْأَرْضِ أَوِ الِارْتِبَاطِ بِالْأَوْطَانِ:

فَقَدْ تَضِيقُ أَرْضُ الْأَوْطَانِ -عَلَىٰ رَحَابَتِهَا- بِالدُّعَاةِ إِلَىٰ اللـه، بِحَيْثُ يُحَاصَرُونَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ فَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الدَّعْوَةِ أَوْ تَبْلِيغِ الْأَمَانَةِ الَّتِي ائْتَمَنَهُمُ اللـه تَعَالَىٰ عَلَىٰ تَبْلِيغِهَا لِخَلْقِهِ، وَقَدْ لَا يَقِفُ الْأَمْرُ عِنْدَ حُدُودِ الْمَنْعِ وَالتَّضْيِيقِ، بَلْ يَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ أَنْ يَأْتَمِرَ أَهْلُ الظُّلْمِ وَالضَّلَالِ بِالدُّعَاةِ لِيَقْتُلُوهُمْ أَوْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَنْفُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَوْ يَحْبِسُوهُمْ؛ رَجَاءَ فِتْنَتِهِمْ وَرَدِّهِمْ إِلَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي أَنْقَذَهُمُ اللـه مِنْهَا، وَقَدْ سَجَّلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ كُلَّهَا فِي مُحَارَبَةِ الْمُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ اللـه تَعَالَىٰ: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ} الْآيَةُ [الْأَنْفَالُ: ٣٠].

الشرح:

فلا بد عند الصدع بالحق من الصراع بين الحق والباطل، صراع المنافقين مع الدعاة، صراع أهل العلم مع أهل الكفر والإلحاد، هذا لا بد منه، لا تغفل عن هذا، الصراع بين الحق والباطل إلىٰ يوم القيامة، فلا بد أن يكون لك بصيرة في مثل هذه الأمور.

المتن:

(اَلْإِثْبَاتُ): هُوَ الْحَبْسُ وَالْقَيْدُ، وَ(الْإِخْرَاجُ): هُوَ النَّفْيُ وَالطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ، وَ(الْقَتْلُ): مَعْرُوفٌ.

وَإِذَا لَمْ تَسْمَحْ لَهُمُ الْأَحْوَالُ بِاتِّبَاعِ تَلْكَ الْأَسَالِيبِ لِمَنْعِ الدَّاعِيَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه، أَوْ لِقُوَّةِ الرُّكْنِ الَّذِي يَرْكَنُ إِلَيْهِ، مِنْ قَبِيلَةٍ، أَوْ عُرْفٍ، أَوْ نِظَامٍ، أَوْ لِعَدَمِ مُوَاتَاةِ الظُّرُوفِ لِاتِّبَاعِ ذَلِكَ الْمَنْهَجِ- فَإِنَّهُمْ يَعْمِدُونَ إِلَىٰ فِتْنَةِ الدَّاعِيَةِ بِالْإِغْرَاءِ؛ كَيْ يَحُولُوهُ عَنْ طَرِيقَتِهِ، وَقَدْ سَجَّلَ أَيْضًا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْأُسْلُوبَ حَيْثُ يَقُولُ اللـه تَعَالَىٰ: {وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا} الآية [الإسراء: ٧٣].

فَمَاذَا يَفْعَلُ الدَّاعِيَةُ إِزَاءَ هَذَا الْوَضْعِ الْحَرِجِ؟

الشرح:

يعني: عندما يصدع الداعية بدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبشرع الله وبدعوته، هؤلاء الذين يصدون عن دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يستولون عليه بالاستمالة أو بالاحتواء، إما يتعاملون معه بالاستمالة، يعني: يستميلونه، يستميلونه أو يحتوونه، إما بالأموال، وإما بالمناصب، وإما بأغراض الدنيا، وإما بأمور هو يحسبها دعوة، أن يفتحوا له منابر دعوية، أو جامعات أو أو...، هذه كلها أساليب الاستمالة والاحتواء حتىٰ يسيطروا عليه، فإن فشلوا في ذلك فيلجؤوا إلىٰ الحديد والنار: القتل، والتعذيب، والتشريد، والفصل من الوظائف، والتضييق في الأرزاق، وغير ذلك من الأمور التي هي أصل الكفار في محاربة الحق، هذا من أول الخليقة، من آدم -عليه السلام- مع إبليس، إلىٰ يومنا هذا، مع أهل الكفر والردة والإلحاد والصدود عن دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذه حرب لا تهدأ أبدًا، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: {بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ}، بل مكر الليل والنهار، يتسلطون علىٰ أهل الإسلام ليل نهار، بالدعاية، أو بالإعلام، أو بالتخويف، أو بالترهيب، أو بتضخيم آلاتهم الإعلامية، أو آلات الحرب، وهي كلها أشياء أوهن من بيوت العنكبوت، فعندما يدخل المجاهد في هذه يعرف حقيقتها، أنها لا وجود لها علىٰ الأرض، ولكنهم يضخمونها بالآلة الإعلامية التي عندهم، {ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ}.

إذن هذه أساليب الطغاة مع أهل الحق، فما رد فعل أهل الحق في مثل هذه الأمور؟ ما المطلوب منا؟

المتن:

هَلْ يَسْتَسْلِمُ لِذَلِكَ، وَيَرْكَنُ إِلَىٰ بَعْضِ الْقَوَاعِدِ الْفِقْهِيَّةِ، وَيَتَّكِئُ عَلَيْهَا بِغَيْرِ ضَوَابِطِهَا الصَّحِيحَةِ؟ كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ الَّذِين صَعُبَتْ عَلَيْهِمْ تَكَالِيفُ الدَّعْوَةِ؛ حَتَّىٰ يُسَوِّغَ لِنَفْسِهِ مُدَاهَنَتَهُمْ وَتَرْكَ مُدَافَعَتِهِمْ.

إِنَّ لِلدُّعَاةِ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي كُلِّ شَأْنِهِمْ، فِي الْعِبَادَةِ وَالدَّعْوَةِ، وَفِي السِّيَاسَةِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، لَقَدْ عَانَىٰ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ مِنْ إِيذَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ حَتَّىٰ قَاطَعُوهُ وَعَشِيرَتَهُ، وَحَاصَرُوهُمْ فِي الشِّعْبِ حَتَّىٰ لَمْ يَجِدُوا مَا يَأْكُلُونَهُ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِ كُلَّ التَّضْيِيقِ، وَحَاصَرُوهُ أَشَدَّ الْمُحَاصَرَةِ؛ حَتَّىٰ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ لِقَاءِ الْوُفُودِ وَدَعْوَتِهِم إِلَىٰ اللهِ.

الشرح:

أعظم جريمة، وأعظم عقوبة يعاقِب بها الكفارُ الدعاة: هي أن يحولوا بينهم وبين الناس، هذه أعظم عقوبة يقابلها الداعية، أن يُحَال بينه وبين الناس، أن يحال بينه وبين دعوة الناس، ونشر الخير والتوحيد للناس؛ لذلك الكفار

وأعداء الإسلام يعرفون ذلك، فإما يخرجونه، وإما يسجنونه، لماذا تسجنونه؟ حتىٰ لا يلتقي بالناس، حتىٰ لا يصل صوته إلىٰ الناس، فهذه أعظم عقوبة.

الداعية لا تفت في عضده الماديات، يعني: لا يضيق عليه في ماله وفي رزقه وفي أولاده، كل هذه أمور لا تهم، الذي يعنيه ويتحسر له: هو أن يمنع عن الدعوة إلىٰ التوحيد والجهاد ودين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا الذي يؤثر فيه؛ لذلك هم يعرفون ذلك، فيمنعون الداعية من أن يلتقي بالناس، وهذا كان ديدنهم.

فلما حاصروا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الشِّعْبِ هو وأهله وأصحابه، هذه كانت أقصىٰ عقوبة قابلها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن هذا الدين يا إخوان، اعرفوها جيدًا، هذا الدين كلما ضُيِّق عليه اتسع، وكلما حُوصرَ انتشر، هذا دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المتن:

فَمَاذَا فَعَلَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ كَانَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَسْعَىٰ فِي مُقَابَلَةِ الْحَجِيجِ وَعُمَّارِ بَيْتِ الله وَزُوَّارِهِ، وَكَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ سِرِّيَّةِ هَذِهِ اللِّقَاءَاتِ حَتَّىٰ لَا يَسْعَىٰ الْمُشْرِكُونَ فِي إِفْسَادِهَا.

الشرح:

هذه من أسس التكوين: السرية، لا يطلع علىٰ أمرك إلا من هم منك؛ حتىٰ تضمن الاستمرار، وحتىٰ تضمن عدم الاختراق.

المتن:

وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ، بَلْ حَاوَلَ فِي اتِّجَاهٍ آخَرَ، وَهُوَ الْخُرُوجُ بِالدَّعْوَةِ مِنَ الْحِصَارِ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهَا، فَقَامَ بِرِحْلَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِلَىٰ الطَّائِفِ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ، وَالَّتِي تَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ قُرَابَةَ ثَمَانِينَ كِيْلُومِتْرًا، كُلُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ أَنْ يَكْسِرَ الطَّوْقَ الْمَضْرُوبَ حَوْلَ الدَّعْوَةِ وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَضَعْضَعَ أَمَامَ الْوَاقِعِ وَيَسْتَسْلِمَ لَهُ وَلَا يَبْحَثَ عَنْ مَخَارِجَ أُخْرَىٰ.

الشرح:

هذا مهم جدا يا إخوان، ألا ييأس الداعية، كلما ضيقوا عليه، واغلقوا عليه بابًا، لا يستسلم، بل يبحث عن أبواب أخرىٰ، هذا هو المسلم الداعية، المجاهد لا يستسلم أبدًا لضغوط الواقع، {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ}. هنا انقطع الصوت! الدرس (١٦) الدقيقة (١٣).

المتن:

بَلْ عَلَيْهِ السَّعْيُ وَالْبَحْثُ، وَكُلَّمَا لَاحَ لَهُ بَارِقُ أَمَلٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْلُكَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ مَهْمَا كَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ مَشَقَّةٍ.

وَلَمَّا بَلَغَ الطُّغْيَانُ بِالْمُشْرِكِينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا يَفُوقُ قُدْرَةَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ أَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، وَبَقِيَ هُوَ وَمَنْ يُمْكِنُهُ الْبَقَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ يُوَاصِلُونَ مُهِمَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، إِلَىٰ أَنْ طَفَحَ الْكَيْلُ بِالْكُفَّارِ، وَلَمْ يَعُودُوا قَادِرِينَ عَلَىٰ تَحَمُّلِ بَقَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وعَزَمُوا عَلَىٰ قَتْلِهِ، وَوَضَعُوا الْخُطَّةَ لِذَلِكَ، وَشَرَعُوا فِي تَنْفِيذِهَا، عِنْدَهَا لَمْ يَعُدِ الْبَقَاءُ فِي مَكَّةَ -وَالْحَالَةُ هَذِهِ- يُرْجَىٰ مِنْهُ تَحْقِيقُ نَفْعٍ لِلدَّعْوَةِ، وَأَصْبَحَ الْبَقَاءُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ قَبِيلِ الْإِلْقَاءِ بِالْيَدِ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ تَقْدِيمِ حُبِّ الْأَوْطَانِ وَالدِّيَارِ عَلَىٰ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مَمْنُوعٌ فِي دِينِ اللهِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: {وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥] كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ} [التوبة: ٢٤] وَهَذَا يُبَيِّنُ لَنَا جَانِبًا مِنْ سِيَاسَةِ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَدَمِ التَّمَسُّكِ بِالْأَرْضِ وَالتَّقَيُّدِ بِالْوَطَنِ عَلَىٰ حِسَابِ الدَّعْوَةِ.

الشرح:

انتبه! هذا شرط مهم جدًا: التقيد بالأرض علىٰ حساب الدعوة باطل، فوطنك وأرضك إن لم تكن صالحة للدعوة، فابحث عن أرض أخرىٰ، تزرع

فيها التوحيد والدعوة والجهاد في سبيل الله، فلا تتمسك بها، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع حبه مكة، مع حبه مرتع صباه وشبابه ونشأته، هذا بالفطرة والجبلة، إلا أنه لما تعارضت هذه الفطرة والجبلة مع الدعوة، ترك.

المتن:

وَإِذَا نَظَرْنَا نَظْرَةً إِجْمَالِيَّةً فِي ذَلِكَ فَسَنَجِدُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَلَّ يَدْعُو فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ سَنَةً، وَلَمْ يَتْرُكْ مَكَّةَ مَعَ أَوَّلِ صُدُودِ أَهْلِهَا، أَوْ مَعَ تَأَخُّرِهِمْ وَإِبْطَائِهِمْ فِي الْاسْتِجَابَةِ.

الشرح:

يعني: لم ييأس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع كل ما قابله في الأول، هذا أمر لم يكن جديدًا، هو قابل شدة وعنتًا، ومع ذلك صبر وتحمل وبدأ يأخذ بالأسباب، ولكن أخذ بجميع الأسباب في هذا الوطن، فلم يجد إلا أن يخرج منه.

المتن:

مَا يُبَيِّنُ أَنَّ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الدَّعْوَةِ أَلَّا يَسْتَعْجِلَ الدَّاعِيَةُ إِيمَانَ النَّاسِ وَاهْتِدَاءَهُمْ، بَلْ عَلَيهِ أَنْ يَبْذُلَ وَأَنْ يُقَدِّمَ مَا دَامَ هُنَاكَ تَقَبُّلٌ وَاسْتِجَابَةٌ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بَطِيئًا أَوْ ضَعِيفًا.

الشرح:

يعني: لا تنظر إلىٰ الكثرة، ولكن انظر هل لدعوتك من يستجيب لها، حتىٰ ولو كان ببطء؟ امضِ.

هنا انقطع الصوت! الدرس (١٦) الدقيقة (١٧).

المتن:

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَلَّ مُثَابِرًا عَلَىٰ الْمُقَامِ فِي مَكَّةَ وَهُوَ يُوَاصِلُ الدَّعْوَةَ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ سَبِيلٍ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا مُكْرَهًا، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَنْ مَكَّةَ حَرَسَهَا الْبَارِي: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ».

الشرح:

يعني: أُخرِجت مكرهًا، ما أخرجت راضيًا، أنا أخرجت منها قسرًا، مكرهًا علىٰ الخروج، «**ولولا أني أخرجت ما خرجت**»[١].

المتن:

وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهَا أَنَّ تَكْوِينَ الرِّجَالِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْبِيئَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلدَّعْوَةِ الْمُشَاقَّةِ لَهَا رُغْمَ صُعُوبَتِهِ وَمَشَقَّتِهِ لَكِنَّهُ يَأْتِي فِي الْغَالِبِ الْأَعَمِّ بِعُظَمَاءِ الرِّجَالِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ تِلْكَ الْأَحْوَالِ أَوْ لَا يَسْتَجِيبُ لِلدَّعْوَةِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ إِلَّا مَنْ رَسَخَ الْإِيمَانُ عِنْدَهُ حَتَّىٰ صَارَ مِثْلَ الْجَبَلِ فِي ثَبَاتِهِ

(١) «مسند أحمد»، رقم: (١٨٧١٦)، «سنن الترمذي»، رقم: (٣٩٢٥).

وَرُسُوخِهِ، وَلَكَ أَنْ تَقِيسَ ذَلِكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ إِيمَانُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَثَبَاتُهُمْ فِي الدِّينِ، وَيَتَبَيَّنُ هَذَا مِنْ أَنَّ النِّفَاقَ لَمْ يَظْهَرْ فِيمَنِ اسْتَجَابَ لِلدِّينِ فِي مَكَّةَ بِعَكْسِ مَنِ اسْتَجَابَ لِلدِّينِ عِنْدَ ظُهُورِهِ وَفُشُوِّهِ، فَقَدْ ظَهَرَ فِيهِمُ النِّفَاقُ؛ لِأَنَّهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَدْخُلُهُ الصَّادِقُ الَّذِي يَرْجُو اللهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ كَمَا يَدْخُلُهُ الْمُنَافِقُ الَّذِي يَطْمَعُ فِي الْحُصُولِ عَلَىٰ الْمُمَيِّزَاتِ، وَأَمَّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَلَا يَدْخُلُ إِلَّا الصَّادِقُونَ.

وَقَدْ نَجَحَتْ تِلْكَ السِّيَاسَةُ الَّتِي اتَّبَعَهَا الرَّسُولُ ﷺ فِي الْحِفَاظِ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ وَعَلَىٰ الدُّعَاةِ، أَمَّا الدُّعَاةُ فَلَمْ يُحَمِّلْهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَلَمْ يَجْعَلِ ارْتِبَاطَهُمْ بِالْأَرْضِ وَالْوَطَنِ مِمَّا يُحْرَصُ عَلَيْهِ وَإِنْ أَضَرَّ بِدِينِهِمْ، بَلْ سَمَحَ لِمَنْ لَا تَسْمَحُ لَهُ أَوْضَاعُهُ الْقَبَلِيَّةُ بِالْحِمَايَةِ أَوِ الْمَنَعَةِ- بِالْخُرُوجِ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ أَوْ الْإِسْرَارِ بِالدِّينِ إِلَىٰ حِينِ الظُّهُورِ وَالْغَلَبَةِ.

الشرح:

لأن بعض الناس كانت تحميهم قبائلهم وعشيرتهم، فالنبي ﷺ قال: الذي ليس في منعة من أهله، ولا شوكة من أهله، يهاجر، أما الذي يمنعه أهله وعشيرته وقبيلته، فيستمر.

المتن:

وَأَمَّا الْحِفَاظُ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ فَبِالْمُرَابَطَةِ وَالتَّوَاجُدِ وَعَدَمِ إِخْلَاءِ السَّاحَةِ عِنْدَ الشِّدَّةِ -مَا لَمْ تَصِلْ إِلَىٰ حَدِّ الْقَضَاءِ عَلَىٰ الدُّعَاةِ وَإِفْنَائِهِمْ-، فَالْفِئَةُ الَّتِي لَمْ تَسْتَطِعْ تَحَمُّلَ الْأَذَىٰ خَرَجَتْ إِبْقَاءً وَحِفَاظًا عَلَيْهِمْ، وَالْفِئَةُ الْقَادِرَةُ عَلَىٰ التَّحَمُّلِ بَقِيَتْ لِلْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ، إِلَىٰ أَنْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ أَرْضًا تُقِلُّهُمْ (الْمَدِينَة)...

الشرح:

هذا هو الأصل يا إخوان، هذه هي أصل الانطلاقة، أرض تجمع أهل الإسلام، أرض تجمع أهل التوحيد، أرض تجمع أهل الدعوة، هذه أول نقطة يكون عين الداعية والمربي عليها.

المتن:

وَجَمَاعَةً تُؤْوِيهِمْ وَتَحْمِيهِمْ (الْأَنْصَار)...

الشرح:

فالأرض لا تحمي نفسها، بل لا بد لها من رجال يحمونها.

المتن:

وَجَمَاعَةً تُؤْوِيهِمْ وَتَحْمِيهِمْ (الْأَنْصَار) فَانْتَقَلُوا إِلَيْهَا بِكُلِّيَّتِهِمْ، فَالْأَرْضُ كُلُّهَا للهِ وَالْمُسْلِمُ يَبْذُرُ بِذْرَهُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي تَقْبَلُهَا حَتَّىٰ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا: {وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} فَإِذَا ضُيِّقَ عَلَىٰ الدُّعَاةِ فِي أَوْطَانِهِمْ وَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ إِمْكَانِيَّةُ الدَّعْوَةِ لِدِينِ اللهِ رُغْمَ تَوَسُّلِهِمْ

لِذَلِكَ بِمُخْتَلَفِ السُّبُلِ فَإِنَّ أَرْضَ اللـه وَاسِعَةٌ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْهِجْرَةَ فِي سَبِيلِ اللـه عِنْدَمَا تُسَدُّ السُّبُلُ عَلَىٰ الدُّعَاةِ، وَكَذَلِكَ الْبَقَاءُ وَالْقِيَامُ بِالدَّعْوَةِ عِنْدَمَا يَكُونُ هُنَاكَ أَمَلٌ أَوِ احْتِمَالٌ فِي الِاسْتِجَابَةِ، كِلَاهُمَا يَتَكَامَلُ فِي بَيَانِ مَعْنًىٰ مِنْ مَعَانِي الْجِهَادِ وَالِاجْتِهَادِ فِي تَحْقِيقِ مَرْضَاةِ اللـه، فَلَيْسَ الْمُهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللـه الَّذِي يَتْرُكُ وَطَنَهُ وَمَسْقَطَ رَأْسِهِ؛ لِيُحَافِظَ عَلَىٰ دِينِهِ- جَبَانًا خَوَّافًا خَرَجَ فَارًّا بِنَفْسِهِ تَارِكًا مَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه، وَلَيْسَ مَنْ بَقِيَ بَيْنَ الْقَوْمِ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللـه مُتَهَوِّرًا هَجَّامًا عَلَىٰ الْأُمُورِ لَا يَقْدُرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا، غَيْرَ أَنَّ تَرْكَ الْأَوْطَانِ وَالْهِجْرَةَ مِنْهَا لَيْسَ قَدَرًا مَحْتُومًا فِي مَسِيرِ الدَّعَوَاتِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَىٰ كُلِّ دَاعِيَةٍ أَنْ يُهَاجِرَ مِنْ بَلَدِهِ كَمَا هَاجَرَ رَسُولُ اللـه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللـه وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَإِنَّمَا هِيَ سِيَاسَةٌ جُزْئِيَّةٌ يُلْجَأُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَإِلَّا لَوْ قُدِّرَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلْدَةِ اسْتَجَابُوا لِلدَّعْوَةِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يُسَوِّغُ الْخُرُوجَ، بَلِ الْخُرُوجُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُعَدُّ تَفْرِيطًا وَتَضْيِيعًا لِلدَّعْوَةِ وَإِمَاتَةً لَهَا، فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَىٰ اللـه مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ لَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُهَاجِرَ وَيَخْرُجَ مِنْ مَكَّةَ، يَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي تَقَدَّمَ: «وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ».

الشرح:

فالأصل الواجب علىٰ الأمة لإقامة الخلافة: استعادة حريتها، واستقلال بلدانها، وقوة شوكتها، هذا هو الأصل، فحتىٰ تقوم هذه الدولة لا بد أن تتحرر من نفوذ الكفار عليها، هذا هو الأصل، فلا تمكين للدولة الإسلامية، والحكومات تتبع الكفار، وتتنفذ في بلاد المسلمين، لا يمكن أبدًا.

فأول طريق الخلاص: أن تتخلص الحكومات من التبعية إلىٰ الغرب، وتنظف وتطهر أراضي المسلمين من القواعد الأمريكية والأجنبية في بلاد المسلمين، ثم بعد ذلك تمنع تدخل هذه الدول في شؤون المسلمين، هذه بداية التمكين؛ لكن طالما أن الحكام يفتحون بلادهم للكفار، وقواعد كفار في بلاد المسلمين، والتبعية لبلاد الغرب، فلن تقوم لبلاد الإسلام قائمة بهذا الوضع، لا بد من تغيير هذا الوضع، لا بد من إنشاء بقعة وأرض علىٰ غير هذا الوصف الذي نراه: تبعية للغرب، ونفوذ الكفار في بلاد المسلمين، وتبعية الحكام لهم، هذه أولىٰ مصائب المسلمين في هذا الزمان، لن تقوم لهم قائمة طالما أن هذا الوضع قائم.

المتن:

٤- تَقْدِيمُ الْأُصُولِ عَلَىٰ الْفُرُوعِ:

وَمِنَ السِّيَاسَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه تَقْدِيمُ الْأُصُولِ عَلَىٰ الْفُرُوعِ، إِذِ الْفَرْعُ الَّذِي لَا أَصْلَ لَهُ مَقْطُوعٌ مَبْتُوتٌ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَنُ، وَتَقْدِيمُ مَا يَلْزَمُ وُجُودَهُ

لِصِحَّةِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ عَلَىٰ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ نَفْسِهَا، وَهَذَا يَتَبَادَرُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ أَمْرٌ مَنْطِقِيٌّ لَا يَنْبَغِي الِاخْتِلَافُ حَوْلَهُ أَوِ الْعَمَلُ بِغَيْرِهِ، لَكِنْ عِنْدَ التَّطْبِيقِ نَجِدُ هَذَا الْأَمْرَ مُهْمَلًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَصِيَّةُ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا أَرْسَلَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ دَاعِيًا فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ.

الشرح:

«وتوقَّ كرائم أموالهم»، يعني: إياك وكرائم أموالهم، لا تأخذ أفضل ما عندهم.

المتن:

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ لِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: «فَادْعُهُمْ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ...» الْحَدِيثُ. فَفِيهِ تَقْدِيمُ عِبَادَةِ اللهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَسَائِرِ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، إِذْ لَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْفَرَائِضِ إِلَّا بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَمِنْ هُنَا قَدَّمَ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَعْلِيمِهِ لِمُعَاذٍ فِي كَيْفِيَّةِ

الدَّعْوَةِ أَنْ يَدْعُوَ أَوَّلًا إِلَىٰ الْأَصْلِ الَّذِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ صِحَّةُ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ نَفْسِهَا، إِذْ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا إِذَا لَمْ تَعْتَمِدْ عَلَىٰ الْأَصْلِ الَّذِي يُصَحِّحُهَا، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ تَقُولُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْقُرْآنِ: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: {بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ».

الشرح:

يعني: غالب ما يتكلم عنه القرآن المكي هو التوحيد، وترسيخ العقيدة في النفوس، والجزاء والعقاب، والجنة والنار، وكذلك يكثر في القرآن المكي التشابه (المثاني): إذا ذكر الجنة ذكر النار، المؤمنين ذكر الكفار، الموت ذكر الحياة، فكان غالب القرآن المكي هكذا، يرسخ العقيدة في النفوس، ويوضح الطريق، ويجليه بالابتلاءات والمحن وغير ذلك من الأمور، ولم تنزل الأحكام ولا المعاملات ولا غير ذلك إلا في المدينة، فلما ذهبوا إلىٰ المدينة، نزلت الأحكام والشرائع والفقه والمعاملات وغير ذلك من الأمور، بعد أن

أسسوا الأصل، وهو أصل الإيمان، أصل التوحيد، أصل العقيدة، هذا أسسوه، إذن كان الأساس متينا فبنوا عليه.

المتن:

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ: قوله: «نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ» أَشَارَتْ إِلَىٰ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَرْتِيبِ التَّنْزِيلِ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الدُّعَاءُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالتَّبْشِيرُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُطِيعِ بِالْجَنَّةِ وَلِلْكَافِرِ وَالْعَاصِي بِالنَّارِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتِ النُّفُوسُ عَلَىٰ ذَلِكَ أُنْزِلَتْ الْأَحْكَامُ، وَلِهَذَا قَالَتْ: «وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُهَا»، وَذَلِكَ لِمَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ النُّفُوس مِنْ النَّفْرَةِ عَنْ تَرْكِ الْمَأْلُوفِ.

هنا انقطع الصوت! الدرس (١٦) الدقيقة (٢٩).

فِي الشَّرْعِ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْوَاجِبَاتِ وَغَيْرِهَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ قَاعِدَةِ الْإِيمَانِ؛ لِذَلِكَ تَأَخَّرَ تَشْرِيعُ ذَلِكَ حَتَّىٰ اسْتَمْكَنَ الْإِيمَانُ فِي الْقُلُوبِ، وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ مِمَّا يَنْبَغِي عَلَىٰ الدُّعَاةِ مُرَاعَاتُهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الله، فَإِنْسَانٌ مَثَلًا يَدْعُو غَيْرَ الله وَيَسْتَغِيثُ بِهِ وَهُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَاقِعٌ فِي بَعْضِ الْبِدَعِ، فَوَجِّهْ هِمَّتَكَ إِلَىٰ نَهْيِهِ عَنِ الشِّرْكِ وَاسْتَغْرِقْ وَقْتَكَ حَتَّىٰ يُقْلِعَ عَنْهُ أَوْ يَتُوبَ، وَلَا تَصْرِفُ جُهْدَكَ إِلَىٰ نَهْيِهِ عَنِ الْبِدَعِ مَعَ إِقَامَتِهِ عَلَىٰ الشِّرْكِ، إِذْ مَا الْفَائِدَةُ مِنْ تَرْكِهِ لِلْبِدْعَةِ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ الشِّرْكِ؟ وَإِنْسَانٌ تَارِكٌ لِبَعْضِ الْوَاجِبَاتِ لَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ

بِالْحَدِيثِ مَعَهُ فِي بَعْضِ السُّنَنِ بَلْ وَجِّهْ هِمَّتَكَ إِلَىٰ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي تَرَكَهَا؛ فَإِنَّهُ لَوْ أَطَاعَكَ وَاسْتَمَعَ لِنُصْحِكَ كُنْتَ بِذَلِكَ قَدْ رَحِمْتَهُ وَسَعَيْتَ فِي الْخَيْرِ لَهُ، وَإِذَا تَزَاحَمَ عَلَيكَ أَمْرَانِ بِحَيْثُ لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَينِ فَقَدِّمِ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ مَا يُعَدُّ أَصْلًا وَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِالْفَرْعِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرَانِ مِمَّا يُعَدَّانِ مِنَ الْأُصُولِ فَقَدِّمْ أَعْلَاهُمَا مَنْزِلَةً، وَإِذَا كَانَا فِي الْمَنْزِلَةِ سَوَاءً أَوْ قَرِيبًا مِنَ السَّوَاءِ فَقَدِّمْ مَا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْخِيرَ وَيَضِيعُ بِخُرُوجِ الْوَقْتِ عَمَّا لَا يَضِيعُ بِالْوَقْتِ أَوْ كَانَ وَقْتُهُ مُوَسَّعًا، وَإِذَا كَانَا فِي ضِيقِ الْوَقْتِ وَسَعَتِهِ سَوَاءً فَقَدِّمِ الْمُتَّفَقَ عَلَىٰ حُكْمِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَهَذَا رَسُولُنَا ﷺ كَانَ يَخْطُبُ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَمَا هُوَ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالَةِ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ» قَالَ: «فأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَيَّ، فَأُتِيَ بكُرْسِيٍّ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا»، قالَ: «فَقَعَدَ عليه رَسولُ اللهِ ﷺ، وَجعَلَ يُعَلِّمُنِي ممَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَىٰ خُطْبَتَهُ، فأتَمَّ آخِرَهَا».

الشرح:

إذا انظر إلىٰ فقه الأولويات وترتيب الأعمال، فقه الأولويات وترتيب الأعمال عند الداعية إن لم يكن واضحًا، يكون فاشلا في دعوته، يحرث الماء، لا تأتي دعوته بثمار، النبي ﷺ يخطب، الخطبة هذه ليس فيها ما يطلب هذا السائل، قال: «علمني، أنا لا أعرف شيئًا عن الإسلام»، فهنا بدأ

بالأصل، ترك الفرع، وهو الخطبة، تركها وجاء إلىٰ الأصل، وجلس إليه، وأخذ يعلمه الإسلام والتوحيد والعقيدة والإيمان والكفر، ففهِمَ الرجل، صعد وأكمل الواجب، وأكمل الفرع.

هذا مثال ينبهك علىٰ مسألة فقه الأولويات، وترتيب الأعمال، هذه لا بد أن تكون منقدحة في ذهنك، لا تبدأ بالفرع علىٰ حساب الأصل أبدًا، بل ابدأ دائمًا بالأصل، الأصل هو الذي ينجي من الخلود في النار، وتركه يكون سببًا في الخلود، وما عدا ذلك فهو تحت المشيئة، ولكن المآل إلىٰ الجنة، فابدأ بهذا.

المتن:

فَلَمَّا أَخْبَرَ الرَّجُلُ بِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ كَانَ أَوْلَىٰ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ تَعْلِيمُ الرَّجُلِ دِينَهُ؛ وَلِذَلِكَ تَرَكَ الْخُطْبَةَ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُعَلِّمُهُ، وَلَمْ يُؤَخِّرْ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ مِنَ الْخُطْبَةِ، قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ: وَفِيهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَىٰ جَوَابِ الْمُسْتَفْتِي وَتَقْدِيمِ أَهَمِّ الْأُمُورِ فَأَهَمِّهَا، وَلَعَلَّهُ كَانَ سَأَلَ عَنِ الْإِيمَانِ وَقَوَاعِدِهِ الْمُهِمَّةِ. وَقَدْ اِتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ الْإِيمَانِ وَكَيْفِيَّةِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَجَبَ إِجَابَتُهُ وَتَعْلِيمُهُ عَلَىٰ الْفَوْرِ.

وَهَكَذَا لَا بُدَّ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْمُوَازَنَاتِ عِنْدَمَا لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُ الْجَمِيعِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَعْنِي تَأْخِيرُ الْحَدِيثِ عَنْ شَيْءٍ أَوِ السُّكُوتُ عَنْهُ إِبَاحَةً لَهُ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُتَاحُ أَوِ الْمَقْدُورُ عَلَيْهِ أَوْ الَّذِي يَقُودُ إِلَىٰ مَا بَعْدَهُ، وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ

النَّاسِ أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ أَوْ الْحِنْكَةِ أَوِ السِّيَاسَةِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ وَاللَّبَاقَةِ مُوَافَقَةَ الْقَوْمِ عَلَىٰ بَعْضِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ وَعَدَمَ مُوَاجَهَتِهِمْ بِمَا يَكْرَهُونَ لِإِزَالَةِ الْوَحْشَةِ وَلِجَعْلِ النَّاسِ تُقْبِلُ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ وَتَقْبَلُ مَا فِيهَا ثُمَّ يَقُولُونَ: «وَبَعْدَ أَنْ يَرْسَخَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ يُمْكِنُ نَهْيُهُمْ عَمَّا سَبَقَ مُوَافَقَتُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْطَاءِ»، وَهَذَا يُعَدُّ مِنَ السِّيَاسَةِ بِمُقْتَضَىٰ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَتَعَارَضُ مَعَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يُؤَدِّي فِي النِّهَايَةِ وَبِمُرُورِ الزَّمَنِ إِلَىٰ تَرْسِيخِ تِلْكَ الْأَخْطَاءِ، وَقَدْ لَا يَجِدُ الدُّعَاةُ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَصْحِيحِ تِلْكَ الْأَخْطَاءِ؛ فَتَظَلُّ عَالِقَةً بِدَعْوَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ.

الشرح:

إذن هذا واقعٌ في زماننا، لو كان الناس أخذوا مسألة التوحيد والإيمان والكفر والجهاد في سبيل الله، ووضوح ذلك عند الناس، ولو ما لجؤوا إلىٰ الطريق الأسهل، من الديموقراطية والعلمانية وغير ذلك، لما ظن الناس بعد ذلك أن الذي يدعو إلىٰ التوحيد متطرف إرهابي؛ لأنه انقدح في أذهانهم أن هذا هو الطريق: الديموقراطية والعلمانية والتعايش السلمي مع الكفار، والعلاقات بين الدول علىٰ وفق المصالح، لا علىٰ وفق الدين، الناس نشؤوا علىٰ هذا، لماذا؟ لأن القائمين علىٰ الدعوة في وقتها، استسهلوا هذا، ودخلوا تحت النظام العالمي الجديد، وهم بغفلة أو بجهل أو بسذاجة قالوا: هذا هو النظام الجديد الذي ينبغي أن نسير خلفه. ونسوا الشرع، ونسوا التوحيد، ونسوا

الإيمان والكفر، وذاب الكافر مع المسلم في هذا المجتمع المختلط، فلما جاءت ثلة مؤمنة، تريد أن ترد هؤلاء الناس إلىٰ أصل دينهم، وجدوا صعوبة؛ لأن الناس استمرأوا هذا، وقالوا: هذا هو الصحيح، هذا الذي وجدنا عليه آباءنا، أنتم تريدون أن تأتونا بدين جديد؟ هذا لا يمكن أبدًا، ثم مع خفاء هذه السنن، بدأ الصدام بين أهل الحق وأهل الباطل.

فهذا الطريق الأسهل، الطريق الأسهل هو طريق الأنبياء والرسل، وإن كان فيه صعوبة، وفيه كلفة، وفيه دفع ثمن، لكن هذا هو طريق الجنة.

المتن:

وَهُنَا لَا بُدَّ مِنْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ السُّكُوتِ عَنِ النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ أَوِ السُّكُوتِ عَنِ الْأَمْرِ بِهِ، وَبَيْنَ الْمُوَافَقَةِ عَلَيْهِ وَإِقْرَارِهِ، فَإِنَّ السُّكُوتَ مِمَّا يُمْكِنُ تَحَمُّلُهُ إِذَا لَمْ تَكُنْ ظُرُوفُ الدَّعْوَةِ تَسْمَحُ بِالْجَهْرِ، أَمَّا الْإِقْرَارُ وَالْمُوَافَقَةُ عَلَىٰ الْبَاطِلِ أَوِ الْخَطَأِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يُسَوِّغُهُ مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ، بَلِ الْأَدِلَّةُ كُلُّهَا عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ.

٦- الْعِنَايَةُ بِالْأَسْبَابِ مَعَ عَدَمِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا:...

الشرح:

يعني: نحن نأخذ بالأسباب، ولا نعتمد عليها في النتائج، لكننا نأخذ بها لأننا مأمورون بهذا.

المتن:

الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ اللهِ يَقُومُ بِتِلْكَ الْمَهَمَّةِ انْطِلَاقًا مِن الْتِزَامِهِ بِمَا شَرَعَ اللهُ، وَحُبًا لِهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الْخَيْرِ، فَتَدْفَعُهُ شَفَقَتُهُ وَرَحْمَتُهُ إِلَىٰ بَذْلِ الْجُهْدِ فِي ذَلِكَ، لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تَعْتَرِضُهُ بَعْضُ الْعَوَائِقِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ، أَوْ قَدْ تُضْعِفُ مِنْ هِمَّتِهِ فِي مُتَابَعَةِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَكُونُ بَعْضُ هَذِهِ الْعَوَائِقِ مِمَّا يُمْكِنُ التَّغَلُّبُ عَلَيْهَا، أَوِ التَّقْلِيلُ مِنْ تَأْثِيرِهَا عَنْ طَرِيقِ اتِّخَاذِ بَعْضِ السُّبُلِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ ذَلِكَ، لَكِنْ هُنَاكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ مَا دَامَ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْأَسْبَابِ وَأَنَّ اللهَ نَاصِرُ دَعْوَتِهِ، وَكَأَنَّ هَذَا الشَّخْصَ يَرَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ نَصْرُهُ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَلَوْ مَعَ تَرْكِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا تَصَوُّرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ. وَمِمَّا يُبَيِّنُ عَدَمَ صِحَّةِ إِهْمَالِ الْأَسْبَابِ سِيَاسَةُ الرَّسُولِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَمِنْ ذَلِكَ كَانَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِهَا سِرِّيَّةً، فَقَدْ ظَلَّ يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ فِي سِرِّيَّةٍ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ (مَا يُقَابِلُ ١٣٪ مِنْ سِنِيِّ الدَّعْوَةِ).

الشرح:

يعني: أكثر من ربع هذه (كلمة غير واضحة).

المتن:

حَتَّىٰ لَا يُعَرِّضَهَا فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا إِلَىٰ مُوَاجَهَاتٍ حَادَّةٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَا يَسْتَطِيعُ تَحَمُّلَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

الشرح:

إذن أخذ بالأسباب أم لم يأخذ؟ لو كان لا يعبأ بالأسباب، لكان ما يعنيني أن أجهر بدعوتي، ويكون ما يكون.

المتن:

فِي ذَلِكَ أَخْذٌ بِالْأَسْبَابِ وَعَدَمُ إِهْمَالِهَا. وَعِنْدَمَا كَانَ يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ فِي الْمَوَاسِمِ وَيَطْلُبُ النُّصْرَةِ وَيَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّىٰ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي»، فَكَانَ يَبْحَثُ عَنِ النَّاصِرِ، وَهَذَا مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي أَدْعُو إِلَىٰ رَبِّي عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، وَلَا عَلَيَّ إِذْ لَمْ آخُذْ بِالْأَسْبَابِ أَوْ أَبْحَثْ عَنِ النَّصِيرِ.

إِنَّ تَرْكَ تَحْصِيلِ الْأَسْبَابِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهَا الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ، يُعَدُّ تَقْصِيرًا يُلَامُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَعِنْدَ النَّظَرِ فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مُنْذُ بِدَايَةِ الدَّعْوَةِ وَحَتَّىٰ وَفَاتِهِ ﷺ نَجِدُ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِالْأَسْبَابِ وَالْأَخْذَ بِهَا وَعَدَمَ التَّفْرِيطِ فِيهَا كَانَ دَيْدَنًا لَهُ ﷺ، فَعِنْدَمَا جَاءَهُ الْأَنْصَارُ يُبَايِعُونَهُ عِنْدَ الْعَقَبَةِ أَخَذَ عَلَيْهِمْ «وَعَلَىٰ أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ».

الشرح:

اشترط عليهم: أنا سآتي إليكم، فأنتم تنصرونني، وتمنعونني مما تمنعون منه أزواجكم وأبناءكم، لا تسلموني، لا تتركوني أحتاج إلىٰ غيركم بعد أن آتي

إليكم، فأنتم مني وأنا منكم، الهدم الهدم، إذن أخذ عليهم الأسباب، مع أنه كان مؤيدًا من اللـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لماذا تفعل كل هذا؟ أخذًا بالأسباب.

المتن:

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا عِنْدَمَا عَزَمَ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ مَعَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ اسْتَأْجَرَ دَلِيلًا خِرِّيتًا (مَاهِرًا عَارِفًا بِالطُّرُقِ) يَقُودُ بِهِمْ وَيَدُلُّهُمْ عَلَىٰ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْتَطِيعُونَ بِهَا الْخُرُوجَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ. وَالْأَمْثِلَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

لَكِنَّ الْعِنَايَةَ بِالْأَسْبَابِ وَالْأَخْذَ بِهَا لَا يَعْنِي التَّوَكُّلَ عَلَيْهَا أَوِ الِاعْتِمَادِ؛ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ وَالِاعْتِمَادِ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَىٰ خَالِقِ الْأَسْبَابِ الَّذِي جَعَلَ الْأَسْبَابَ أَسْبَابًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعَ الْأَسْبَابَ مِنْ أَنْ تُنْتِجَ نَتَائِجَهَا إِذَا شَاءَ ذَلِكَ، وَفِي قِصَّةِ الْهِجْرَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَمَعَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَخَذَ بِهَا الرَّسُولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إِلَّا أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْ تَتَبُّعِهِمْ لِلْأَثَرِ وَمِنْ مُتَابَعَةِ الرَّصْدِ أَوْشَكُوا عَلَىٰ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ مَكَانِ الرَّسُولِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَصَاحِبِهِ، وَهُنَا يَظْهَرُ عَوْنُ اللـه خَالِقِ الْأَسْبَابِ وَمُسَبِّبَاتِهَا وَدِفَاعُهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَمْنَعُ الْكُفَّارَ مِنَ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَصَاحِبِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ. وَتَفْصِيلُ الْقِصَّةِ مَعْرُوفٌ.

الشرح:

إذا هو أخذ بالأسباب، ولكن عنده عقيدة، وعنده يقين، أن هذه الأسباب لا تغني عنه من اللـه شيئًا، هذا قطع يقيني.

فهذه الأسباب التي أخذت بها، من السلامة، والرزق، والمنعة، وغير ذلك، لا تغني عنك من قدر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شيئًا، فقدر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ واقع محتوم، فالله هو الذي سيحفظك.

لكن إذا أخذت بالأسباب، وأنت تظن أن هذه الأسباب هي التي تنجيك، فأنت قد وقعت في شرك الأسباب.

أما أن تأخذ بالأسباب، وتتوكل علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وتعلم يقينا أن الله هو الذي سينصرك، هو الذي سيوفقك، هو الذي سيرزقك، إذن أنت تعتقد في الله سبحانه، حتىٰ إذا ضاقت عليك يطمئن قلبك؛ لأن عندك يقينًا أنك مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، حتىٰ لو الكفار أخذوك، لن يفعلوا بك شيئًا إلا ما قدره الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عليك، لن يفعلوا بك شيئًا من عند أنفسهم، هذا اعتقاد عندك، هذه أمور ثابتة لا تتغير؛ لذلك يطمئن قلبك في مثل هذه الأمور.

المتن:

وَكَمَا فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام عِنْدَمَا أَرَادَ قَوْمُهُ أَنْ يُحْرِقُوهُ فَأَبْطَلَ الله السَّبَبَ وَمَنَعَ النَّارَ مِنَ الْإِحْرَاقِ {قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ} [الأنبياء: ٦٩]. وَهَذَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا أَرَادَ فِرْعَونُ وَجُنُودُهُ أَنْ يَقْتُلُوهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ بِهِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ مُوَاجَهَتِهِ أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ الْمَقْدُورَةِ لَهَ، وَهِيَ الْخُرُوجُ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ مَمْلَكَةِ فِرْعَونَ، وَلَمَّا اتَّبَعَهُ فِرْعَوْن وَجُنُودُهُ

وَلَمْ تَعُدْ لِمُوسَىٰ عليه السلام حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ- أَلْغَىٰ الله الْأَسْبَابَ وَجَعَلَه يَعْبُرُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ الْبَحْرَ بِالْآيَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لَهُ: {فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ} [الشعراء: ٦٣].

الشرح:

انظر إلىٰ موسىٰ -عليه السلام- أخذ بالأسباب، ويعلم أن الله ناصره، ولكن هذه الأسباب مادية، ما الذي يحولها ويخرجها عن كونها أسبابًا؟ من الذي سلب من هذه مدياتها؟ من سلب من النار إحراقها، ومن الماء إغراقه؟ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لذلك لما موسىٰ سار، ووجد فرعون خلفه، والبحر أمامه، هم قالوا له: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}، ما فيه شك عندنا، الكفار سيلحقون بنا، سيمسكوننا، انظر إلىٰ اليقين، ماذا قال ردًا مباشرًا؟ قال: {كَلَّا}، هذا لا يمكن أبدًا، لماذا لا يمكن؟ لأن الله ناصري، الله وعدني بالنصر، الله وعدني بالنجاة من فرعون، كيف سيحصل هذا؟ قال: هذا علمه عند ربي، لكن عندي يقين أن الله سبحانه سينجينا، قال: {كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي}، إذن لن يتخلىٰ عني، لذلك لما جعل في هذه الأسباب، وجدوا أن هذا اليقين الذي عند موسىٰ انفلق به البحر، سبحانك يا رب! البحر؟ نعم! هذا اليقين، اليقين مع أخذك بالأسباب لا تعتقد أنها ستنجيك، بل الذي ينجيك هو رب الأسباب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذا هو التوحيد، هذا هو الإيمان، هذا هو حقيقة التوحيد، حقيقة التوحيد أنك تعلم وتتيقن وتلزم بعقد قلبك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معك ومؤيدك، طالما أنك تنصر فالله ناصرك، كيف ينصرك؟ هذه من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ربما تقع في ضائقة ما، وتوشك أن تقع في أيادي الكفار، وتجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نجاك وفتح لك، بل وقيض لك من هؤلاء الكفار الذين يرصدونك ويحاربونك، قيض لك واحدًا منهم ينجيك ويخرجك، هذا يحصل كثيرًا، عندما يُحَاط بالأخ ويُدرَك، ويتيقن أنه سيقع، وسيمسك به، والكفار سيعذبونه وو...، فجأة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينجيه، كيف نجاك؟ هذه ليست لك، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجري هذه الأمور علىٰ وفق علمه وحكمته.

فالموحد مع أخذه بالأسباب، إلا أنه يعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذه الأسباب لا تنجيه إلا برب الأسباب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

فَالْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ كَانَ مَعْلَمًا بَارِزًا مِنْ سِيَاسَةِ الرَّسُولِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ.

وَمَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَإِحْكَامِهَا وَعَدَمِ التَّقْصِيرِ فِيهَا، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللـه، وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْأَسْبَابَ لَا تَفْعَلُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا، وَإِنَّمَا بِجَعْلِ اللـه لَهَا تِلْكَ الْخَاصِّيَّةَ، وَهَذَا رَسُولُنَا الْكَرِيمُ فِي

غَزْوَةِ بَدْرٍ بَعْدَمَا أَعَدَّ الْعُدَّةَ وَنَظَّمَ الْجَيْشَ لَجَأَ إِلَىٰ اللـه يَدْعُوهُ وَيُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ حَتَّىٰ أَشْفَقَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ كَثْرَةِ دُعَائِهِ، وَهَذَا عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُصُّ عَلَيْنَا مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ فَيَقُولُ: «لَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسولُ اللـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ المُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ برَبِّهِ: «اللـهمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللـهمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللـهمَّ إنْ تُهْلِكْ هذِه العِصَابَةَ مِن أَهْلِ الإسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ»، فَما زَالَ يَهْتِفُ برَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حتَّىٰ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فأتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فأخَذَ رِدَاءَهُ، فألْقَاهُ علَىٰ مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ، وَقالَ: «يا نَبِيَّ اللـه، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فإنَّه سَيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ...»» الْحَدِيثُ.

فَإِعْدَادُ الْعُدَّةِ وَأَخْذُ الْأُهْبَةِ وَالتَّوَسُّلُ بِالْأَسْبَابِ، لَا يَمْنَعُ مِنَ الدُّعَاءِ وَاللُّجوءِ إِلَىٰ اللـه مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ، وَكَذَلِكَ اللُّجُوءُ إِلَىٰ اللـه، وَدُعَاؤُهُ وَاعْتِقَادُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ- ، لَا يَمْنَعُ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَإِعْدَادِ الْعُدَدِ الْمُنَاسِبَةِ لِكُلِّ أَمْرٍ يُرَادُ الدُّخُولُ فِيهِ، بَلْ هُمَا أَمْرَانِ يَتَكَامَلَانِ فِي فَهْمِ الْمُسْلِمِ وَتَصَوُّرِهِ.

الشرح:

إذن فَهْم المسلم وتصوره: أنه مع أخذه بالأسباب، لا يعتمد عليها، ويعلم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مسبب الأسباب سينجيه، ماذا يفعل إذا علم هذا؟ يلجأ إلىٰ الله بالدعاء، لا تقل: أنا أخذت بالأسباب والله سينجيني، نقول: لا، هناك أمر آخر مهم جدًا، يدلك علىٰ أنك لا تعتمد علىٰ هذه الأسباب، لجوؤك إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والتضرع إليه، والدعاء والإلحاح عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا أمر يدل علىٰ أنك لا تعتمد علىٰ الأسباب، بل تعتمد علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ودليل اعتمادك علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنك تلح عليه، وتدعوه، وتتضرع إليه، مع أخذك بالأسباب، فإذا كان أخذك بالأسباب كافيًا، فلم التضرع والدعاء؟ لأنك تعتقد أن هذه الأسباب لا تغني عنك من الله شيئًا، إذن لا بد أن يكون لك حال مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذلك، والحال هذا يظهر في صلاتك، وفي تضرعك، وفي سجودك بالليل، وفي السحر، والإلحاح علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا هو هذا الذي فعله النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

انظر إلىٰ العبودية، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرىٰ رسوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مصارع القوم، قال: هنا سيموت كذا، وهنا سيموت كذا، وهنا سيموت كذا، هذا علم اليقين، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنجز لنبيه وعده، ومع هذا اليقين ألح عليه بالدعاء، هذه هي العبودية يا إخوان، هذا هو التوحيد.

المتن:

٧- اَلِاسْتِفَادَةُ مِنْ أَوْضَاعِ الْمُجْتَمَعِ:

قَدْ يَحْدُثُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ أَوْضَاعٌ فِي الْمُجْتَمَعِ تُمْكِنُ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا فِي نَفْعِ الدَّعْوَةِ وَحِمَايَةِ الدُّعَاةِ، فَلَا يَجُوزُ لِلدُّعَاةِ إِهْمَالُ ذَلِكَ وَعَدَمُ الِانْتِفَاعِ؛ -عَلَىٰ أَسَاسِ أَنَّ تِلْكَ أَوْضَاعٌ فِي مُجْتَمَعٍ جَاهِلِيٍّ، أَوْ مُعَادٍ لِلْإِسْلَامِ، فَلَا يَنْبَغِي الْعَمَلُ بِهَا أَوِ الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا-.

الشرح:

بمعنىٰ: عدم إهمال الحاضنة الشعبية، التي هي أصل الدعوة، التي هي عمادها، وردؤها، ونصرتها، من هذه الحاضنة.

المتن:

وذَلِكَ لِأَنَّ النَّظَرَ يَنْصَبُّ عَلَىٰ طَبِيعَةِ الْوَضْعِ، وَمَدَىٰ مُوَافَقَتِهِ لِلشَّرْعِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ مِنْ جِهَتِهِ الْجُغْرَافِيَّةِ، أَيْ: الْبُقْعَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا؛ إِذِ الْحُكْمُ عَلَىٰ الشَّيْءِ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَتَصَوُّرَاتٍ، وَلَيْسَ عَلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي يُوجَدُ فِيهِ.

وَبِالنَّظَرِ إِلَىٰ سِيَاسَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ نَجِدُهُ قَدْ اسْتَفَادَ هُوَ وَجَمعٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ، فَقَدْ كَانَتْ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ، بَلْ وَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا، يَنْتَشِرُ فِيهَا النِّظَامُ الْقَبَلِيُّ، وَفِي هَذَا النِّظَامِ فَإِنَّ الْقَبِيلَةَ تَحْمِي أَفْرَادَهَا فَقَدْ تَمَتَّعَ رَسُولُ اللهِ وَبَعْضٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِذَلِكَ وَظَلُّوا فِي حِمَايَةِ

قَبَائِلِهِمْ فَلَمْ يَتَمَكَّنِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ وَإِيذَائِهِمُ الْإِيذَاءَ الشَّدِيدَ، وَكَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا مَسْأَلَةُ الْجِوَارِ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ نَزَلَ فِي جِوَارِ أَحَدٍ فَإِنَّهُ يَحْمِيهِ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ أَحَدٌ بِسُوءٍ؛ فَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ قَبِيلَةً تَحْمِيهِمْ يَنْزِلُونَ فِي جِوَارِ بَعْضِ كُبَرَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَيَحْمُونَهُمْ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مُخَالَفَةٌ شَرْعِيَّةٌ؛ إِذْ كُلُّ مَا فِيهِ أَنْ يَتَمَتَّعَ الْمُسْلِمُ بِالْحِمَايَةِ وَشُعُورِهِ بِالْأَمَانِ فِي الْتِزَامِهِ بِالْإِسْلَامِ، وَهَذَا حَقُّهُ، وَكَوْنُهُ نَزَلَ فِي جِوَارِ أَحَدِ الْمُشْرِكِينَ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُعَابُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ مَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ، فَعِنْدَمَا ذَهَبَ رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ الطَّائِفِ يَدْعُو أَهْلَهَا وَرَدُّوا عَلَيْهِ بِرَدِّهِمُ الْقَبِيحِ لَمْ يَدْخُلْ مَكَّةَ حِينَمَا رَجَعَ مِنْ هُنَاكَ إِلَّا فِي جِوَارِ الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَكَذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ عِنْدَمَا رَجَعَ مِنْ هِجْرَةِ الْحَبَشَةِ الْأُولَىٰ لَمْ يَدْخُلْ مَكَّةَ إِلَّا فِي جِوَارِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَرَادَ الْهِجْرَةَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ مِمَّا يُلَاقِي مِنْ إِيذَاءِ قُرَيْشٍ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَعَرَفَ مَقْصِدَهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الرُّجُوعَ وَدَخَلَ مَعَهُ مَكَّةَ وَقَدْ أَجَارَهُ.

فَإِذَا كَانَ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَدْعُو فِيهِ أَوْضَاعٌ أَوْ تَنْظِيمَاتٌ يُمْكِنُ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا فِي الدَّعْوَةِ، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُ شَرًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْتَكِبَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ شَيْئًا نَهَتْ عَنْهُ الشَّرِيعَةُ.

الشرح:

هذا أصل. أنك إذا رأيت في واقعك ما يساعد دعوتك وينشرها، فلا حرج عليك شرعًا أن تفعل إلىٰ ذلك، وتطلب جواره، بشرط ألا يكون ذلك علىٰ حساب الدين والشريعة.

المتن:

فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ ذَلِكَ. وَرُغْمَ أَنَّ الْأَوْضَاعَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَصْلُ فِيهَا الْبُعْدُ عَنِ الشَّرِيعَةِ؛ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ رَصِيدُ الْفِطْرَةِ عِنْدَهُمْ صِفْرًا، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي أُمُورِهِمْ مَا يُقْبَلُ شَرْعًا، وَهَذِهِ قُرَيْشٌ رُغْمَ ظُلْمِهَا وَطُغْيَانِهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ عَقَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَقْدًا لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ -وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ- وَهُوَ مَا عُرِفَ بِحِلْفِ الْفُضُولِ، قَالَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمُرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَىٰ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»، وَقَدْ تَتَوَاجَدُ الْيَوْمَ فِي بَعْضِ الْمُجْتَمَعَاتِ بَعْضُ التَّنْظِيمَاتِ أَوِ الْمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تُحَاوِلُ الْقِيَامَ بِشَيْءٍ شَبِيهٍ بِمَا كَانَ فِي حِلْفِ الْفُضُولِ، فَلَا عَيْبَ عَلَىٰ الدَّاعِيَةِ إِذَا حَاوَلَ الِاسْتِفَادَةَ مِنْ ذَلِكَ، أَمَّا إِذَا تَرَتَّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مَسَاسٌ بِالدِّينِ؛ فَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

الشرح:

يعني: لو ساوموه علىٰ النفع هذا، وعلىٰ الدين، أو أن تترك شيئًا من دينك، لا مساومة في هذا.

المتن:

فَفِي قِصَّةِ أَبِي بَكْرٍ الْمُتَقَدِّمَةِ، لَمَّا جَهَرَ بِالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي مَسْجِدِ فِنَائِهِ؛ وَخَيَّرَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ بَيْنَ عَدَمِ الْجَهْرِ وَالِاسْتِعْلَانِ بِالصَّلَاةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ جِوَارَهُ، اخْتَارَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الِاسْتِعْلَانَ بِالصَّلَاةِ وَالْجَهْرَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَىٰ ابْنِ الدَّغِنَةِ جِوَارَهُ وَقَالَ: «أَرْضَىٰ بِجِوَارِ اللـه».

الشرح:

مع أنه سيلاقي عنتًا وشدة وتعذيبًا، إلا أن هذا يمس الدعوة، فلا، قف.

المتن:

٨- عَدَمُ الْمُدَاهَنَةِ فِي الْحَقِّ:

كَثِيرًا مَا يَتَعَرَّضُ أَصْحَابُ الدَّعَوَاتِ إِلَىٰ مِحَنٍ وَشَدَائِدَ، حَتَّىٰ يُخَيَّلَ لِبَعْضِ النَّاسِ أَنَّ مِنَ السِّيَاسَةِ الْحَكِيمَةِ تَجَاوُزُ تِلْكَ الْمِحَنِ أَوِ الشَّدَائِدِ وَلَوْ بِالتَّصْرِيحِ بِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ الَّتِي يَكُونُ فِي ظَاهِرِهَا مَخْرَجٌ مِنْ تِلْكَ الشَّدَائِدِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الظَّاهِرُ مُرَادًا لَهُمْ، لَكِنَّ النَّاظِرَ فِي سِيَاسَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه تَعَالَىٰ لَا يَجِدُ لِذَلِكَ التَّصَوُّرِ سَنَدًا، بَلْ يَجِدُ سِيَاسَتَهُ عَلَىٰ الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللـه تَعَالَىٰ يُحَذِّرُهُ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ فِي الدِّينِ وَيَقُولُ لَهُ: {وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩]، فَأَهْلُ الْعَدَاوَةِ لِلدِّينِ يُرِيدُونَ مِنْ أَصْحَابِ الدَّعْوَةِ أَنْ يُدَاهِنُوهُمْ، وَهُمْ عَلَىٰ اسْتِعْدَادٍ لِمُكَافَأَتِهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمُدَاهَنَةِ الدُّعَاةِ أَيْضًا، مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ بِالْمِثْلِ، فَقَدْ عَرَضَ الْكُفَّارُ عَلَىٰ رَسُولِ

اللـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْبُدُوا اللـه سَنَةً فِي مُقَابِلِ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ سَنَةً؛ فَأَنْزَلَ اللـه تَعَالَىٰ: {قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢} الْآيَات [الكافرون: ١-٢]؛ لِيَقْطَعَ الطَّرِيقَ عَلَىٰ ذَلِكَ التَّصَوُّرِ بِصُورَةٍ حَاسِمَةٍ، وَقَدْ فَهِمَ تِلْكَ الْمَعَانِي جَيِّدًا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ س وَعَمِلَ بِهِ فِي أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ حُلْكَةً؛ فَقَدْ هَاجَرَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ عِنْدَ مَلِكِهَا النَّجَاشِيِّ وَكَانَ نَصْرَانِيًّا وَقَدْ أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ فِي أَثَرِهِمْ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ؛ لِيَرُدَّهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ وَحَاوَلَ عَمْرٌو أَنْ يُقَدِّمَ الْمُسَوِّغَ الَّذِي يَجْعَلُ النَّجَاشِيَّ يُسْلِمُ لَهُ جَعْفَرًا وَمَنْ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا».

الشرح:

الكفار وأعداء اللـه يحرضون علىٰ الدعاة دائمًا، يقولون فيهم ما ليس ما ليس فيهم، هؤلاء إرهابيون، متطرفون، يكفرونك، ويكفرون أهلك، يكفرون أهليهم، ويستحلون دماءهم وأموالهم، فكيف تأمنهم إذا كانوا هم يفعلون ذلك بأهلهم؟! هكذا يقولون.

المتن:

وَذَلِكَ أَنَّ النَّصَارَىٰ تَرَىٰ عِيسَىٰ إِلَهًا أَوِ ابْنَ إِلَهٍ، بَيْنَمَا الْمَسِيحُ فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ بَشَرٌ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللـه تَعَالَىٰ، مِثْلُهُ مِثْلُ إِخْوَانِهِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللـه وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا مَثَلَ جَعْفَرُ بَيْنَ يَدَيِ النَّجَاشِيِّ وَسَأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ

فِي عِيسَىٰ لَمْ يُدَاهِنْ وَلَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِأَلْفَاظٍ أَوْ كَلِمَاتٍ تُوَافِقُ فِي ظَاهِرِهَا اعْتِقَادَ النَّصَارَىٰ، بَلْ أَجْمَعَ عَلَىٰ الصِّدْقِ وَعَدَمِ الْمُدَاهَنَةِ فِي الدِّينِ.

الشرح:

الفرق بين المداهنة والمدارة:

تكلمنا عن هذا في «شرح مقدمة التوحيد»، عند الولاء والبراء، وقلنا أن المداهنة نفاق علىٰ حساب الدين، والمداراة حسن الخلق، أن تتقي فحش الناس بحسن خلقك، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**ومن الناس من يتقىٰ لفحشه**»[(١)]، فالمداراة: حسن خلق، أما المداهنة: فهذه خلاف الحقيقة.

المتن:

بَلْ أَجْمَعَ عَلَىٰ الصِّدْقِ وَعَدَمِ الْمُدَاهَنَةِ فِي الدِّينِ وَقَالَ: «نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللـه وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ الْبَتُولِ الْعَذْرَاءِ فأخذ النجاشي عودا من الأرض وقال واللـه ما عدا عيسىٰ ابن مريم ما قلت هَذَا العود»، وَلَوْ حَاوَلَ جَعْفَرُ س أَنْ يُدَاهِنَ لَانْقَلَبَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ النَّجَاشِيِّ فِي عِيسَىٰ كَانَ اعْتِقَادًا صَحِيحًا، فَعِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ قَدْ يَمِيلُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ الْمُدَاهَنَةِ، وَيَتَلَفَّظُ بِأَلْفَاظٍ فِيهَا نَوْعٌ مِنَ التَّرْضِيَةِ لِأَهْلِ الضَّلَالِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ يَقْصِدُ بِهَا فِي نَفْسِهِ مَعَانِيَ صَحِيحَةً، لَكِنْ

---

(١) «مسند أحمد»، رقم: (٢٥٢٥٤)، «الأدب المفرد»، رقم: (٣٣٨).

لَيْسَتِ الْعِبْرَةُ بِمَا فِي نَفْسِهِ هُوَ، وَإِنَّمَا بِمَا يَفْهَمُ النَّاسُ مِنْ كَلَامِهِ، فَلَو كَانَ النَّاسُ لَا يَفْهَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا يُؤَيِّدُ أَهْلَ الضَّلَالَةِ لَمْ تَكُنْ تَوْرِيَةُ الدَّاعِيَةِ قَدْ حَقَّقَتْ إِلَّا تَأْيِيدَ الْبَاطِلِ، وَهَذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ يُوَرِّي عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ فِي الْحَرْبِ أَوِ الْقِتَالِ كَمَا فَعَلَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا كَانَ يُخَطِّطُ لِقَتْلِ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ الْمُحَارِبِينَ، وَقَالَ لَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَهُوَ يُوَرِّي-: «هَذَا الرَّجُلُ قَدْ عَنَّانَا»، وَبِخِلَافِ مَا يَقُولُهُ الْأَسِيرُ عِنْدَمَا يَقَعُ فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، وَكَذَلِكَ الَّذِي يُكْرَهُ عَلَىٰ كَلِمَةِ الْكُفْرِ، فَإِنَّ هَذَا وَنَحْوَهُ مِمَّنْ قَالَ اللهُ فِيهِمْ {مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ} [النَّحْلُ: ١٠٦].

غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ يَظُنُّهَا النَّاسُ مُدَاهَنَةً، وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هِيَ كَلِمَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ، لَا كَذِبَ فِيهَا، يَقُولُهَا الدَّاعِيَةُ يَسْتَمِيلُ بِهَا النُّفُوسَ، وَيُؤَلِّفُ بِهَا الْقُلُوبَ، فَهَذَا جَعْفَرُ س يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ بَعْدَمَا ذَكَرَ مَا كَانُوا يُلَاقُونَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ: «فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَىٰ بِلَادِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ».

تِلْكَ كَانَتْ بَعْضَ الْوَقَفَاتِ الْقَصِيرَةِ مَعَ سِيَاسَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هنا انقطع الصوت! الدرس (١٦) عند (١:٢:٤٦).

فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللـه؛ أَمَّا تَفَاصِيلُ تِلْكَ السِّيَاسَةِ فَهِيَ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ بِكَامِلِهَا عَلَىٰ صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمُ.

الْمَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ: بِنَاءُ قَاعِدَةٍ تَجْمَعُهُمْ وَتُكَوِّنُ مُلْتَقًى لَهُمْ.

بِنَاءُ قَاعِدَةٍ تَجْمَعُهُمْ وَتُكَوِّنُ مُلْتَقًى لَهُمْ، مَعَ اكْتِشَافِ الذَّاتِ، وَتَطْوِيرِ الْإِمْكَانِيَّاتِ الْمُتَاحَةِ لِلْأَفْرَادِ لِتَكْوِينِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَتَوْظِيفِ كُلٍّ فِي مَكَانِهِ. وَتَكُونُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ مَسْجِدًا، أَوْ بَيْتًا، أَوْ بَلَدًا.

الشرح:

(هنار جع الصوت وكان الشيخ يتكلم)... في بناء قاعدة، هذه القاعدة فيها أفراد آمنوا بالدعوة، إذن كل في هذه المرحلة يكتشف ذاته ويطور إمكانياته، ما الذي أستطيع أن أقدمه أنا في هذه المرحلة؟ ما المطلوب مني في هذه المرحلة؟ هذا هو الأصل، سواء أكانت هذه المرحلة في البداية مسجدًا، أو بيتًا، أو بلدًا.

المتن:

فَيَجِبُ جَمْعُ الشَّتَاتِ.

الشرح:

هذا هو الأصل، «يجب جمع الشتات»، فكل من يؤمن بدعوة، يأتي ويعمل فيها، كل من يؤمن بهذه الدعوة لا بد أن يأتي ويكون لبنة في هذا البناء، أيًّا كان موقعه، وأيًّا كانت بلده، إذا أراد أن يحضر إلىٰ الدعوة فيحضر إليها، إذا عجز

عن ذلك، فليتابعها عن بعد ويقدم ما يستطيعه وهو بعيد، ولكن الأصل هو جمع الشتات، جمع الشتات في جماعة موحدة متوحدة معتصمة، هذا هو الأصل.

المتن:

وَعَلَىٰ كُلِّ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ الْقَاعِدَةِ الصُّلْبَةِ وَالْأَرْضِ الْجَدِيدَةِ يُهَاجِرُ وَيُكَثِّرُ سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُشَارِكُ فِي الْبِنَاءِ وَالتَّطْوِيرِ كُلُّ مُسْلِمٍ بِحَسَبِ قُدُرَاتِهِ، وَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقَدِّمَهُ وَيُجِيدَ فِيهِ، وَهَذَا مِنَ النُّصْرَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللـه وَرَسُولُهُ، فَالْمُسْلِمُ ضَعِيفٌ بِنَفْسِهِ، قَوِيٌّ بِإِخْوَانِهِ.

الْمَرْحَلَةُ الْخَامِسَةُ: تَأْمِينُ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ.

تَأْمِينُ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَاتِّفَاقِيَّةُ الدِّفَاعِ الْمُشْتَرَكِ، اَلْبُعْدُ عَنْ صِنَاعَةِ الْأَعْدَاءِ، وَالْعَمَلُ عَلَىٰ كَسْبِ الْأَصْدِقَاءِ وَالْحُلَفَاءِ.

الشرح:

«**المرحلة الخامسة هذه: تأمين الجبهة الداخلية واتفاقية الدفاع المشترك**»، نحن عندنا قاعدة، جمعنا الشتات إليها، فلا بد من تأمين هذه الجبهة الداخلية، بإقامة رأس، وبنائب، وبأعضاء في هذه الجماعة، ثم بعد ذلك ننظر إلىٰ الجوار حولنا، ونعقد معهم اتفاقيات تعاون مشترك علىٰ حماية هذه البقعة، هم يحموننا، ونحن نحمي ظهورهم، هذه تسمىٰ اتفاقية الدفاع التي جعلها النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أهل الإسلام، وبين أهل المدينة والأعراب من حولهم، هذا مهم جدًا.

فيجب البعد في هذه المرحلة عن صناعة الأعداء، بعض الناس يكون بارعًا في صناعة الأعداء، يفتح علىٰ نفسه وعلىٰ الدعوة جبهات كثيرة جدًا، ولا يستطيع أن يصد، ويظن أن هذا هو الدين، وهو الجهاد، وهو النفع...، هذا غلط، هذا غلط كبير.

«**البعد عن صناعة الأعداء، والعمل علىٰ كسب الأصدقاء والحلفاء**»، إن لم يكونوا أصدقاء لك، كانوا حلفاء، ما معنىٰ حلفاء؟ يعني: بينك وبينهم معاهدات واتفاقيات علىٰ المصالح المشتركة بينكما، هذا إن لم تستطع بدعوتك وبأهل الدعوة عندك أن تستميلهم، وتضمهم إلىٰ هذه الدعوة.

المتن:

الْمَرْحَلَةُ السَّادِسَةُ: بِنَاءُ الْهَيْكَلِ الإِدَارِيِّ لِلدَّوْلَةِ:

بِنَاءُ الْهَيْكَلِ الْإِدَارِيِّ لِلدَّوْلَةِ، وَتَوْزِيعُ الْمَهَامِّ عَلَىٰ قَدْرِ الْكَفَاءَةِ وَالتَّخَصُّصَاتِ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْمَرْكَزِيَّةِ.

الشرح:

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وصل إلىٰ المدينة، كان أول شيء قام به بناء المسجد، هذا أصل وحدة المسلمين، ثم بعد ذلك جعل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ

القضاء، فوزّع مهام الدولة، كلٌّ في منصبه، عمر تولىٰ القضاء، وأبو عبيدة تولىٰ بيت المال، وأبو بكر هذا الوزير والنائب، فوزع المهام مباشرة، وآخىٰ بين المهاجرين والأنصار؛ حتىٰ تذوب الفوارق بين الإخوة الإيمانية، لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لأبيض علىٰ أسود، إلا بالتقوىٰ والعمل الصالح.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المرحلة بنىٰ الهيكل الإداري للدولة، علىٰ ماذا؟ علىٰ التخصصات، علىٰ فهم الذات، علىٰ معرفة القدرات، فوضعهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان يعرف قدراتهم.

«**والبعد عن المركزية**»: ألا تكون كل الأمور في يد واحد، كل الأمور، القضائية، والتشريعية، والتنفيذية، كلها في يد واحد، كما هو الحال في واقعنا الآن، حقيقة هي كلها في يد الحاكم، ولكن هذه الأشكال التي هي التنفيذية القضائية والتشريعية، هذه كلها أشكال، ولكن هو الذي يتحكم فيها، هو الذي يرسل إليهم يقول للقضاة: افعلوا القانون هكذا، وللتشريعيين: سنوا القانون هكذا، وللحكومة: لا تفعلوا كذا، فمركزية الإدارة، هذه دمار، وتخلف، وضعف، وسقوط، ولا سيما إذا كان هذا المتحكم يفتقر إلىٰ العلم، وإلىٰ الدين والحكمة، فتكون المصائب تترىٰ علىٰ الدولة.

فالمركزية: أن تكون كل أمور الدولة وإدارتها في شخص واحد، يرىٰ برأيه، ويسيِّرها بنظرته، كما قال فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، ليس هذا

فحسب، {وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ}، أنا سآخذ بكم إلىٰ الرشاد، أطيعوني فقط، هذا كالطاغوت الآن، الطاغوت الآن في بعض البلاد يقول: لا تسمعوا لأحد غيري، لا لا تسمعوا كلام أحد غيري. مثلما قال فرعون تمامًا.

فهذه المركزية دمار وتخلف للدولة.

المتن:

وَتَأْمِينُ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ الْمَالِيَّةِ، بِفَتْحِ أَسْوَاقٍ تِجَارِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَتَعَدُّدِ مَصَادِرِ الدَّخْلِ زِرَاعِيًّا وَصِنَاعِيًّا.

الشرح:

إذن لا بد من تأمين موارد الدولة، لا بد من إنشاء الأوقاف، لا بد من شراء الأماكن والعمارات، وتأجيرها والاستفادة من دخلها، لا بد من إنشاء الشركات والمصانع، لا بد من المضاربة بالأموال في المشاريع والعقارات؛ حتىٰ تدر علىٰ الدولة مدخولًا، يكون دخلًا ثابتًا للدولة، أنت الآن تنمي قدرات الدولة، ماذا تفعل أنت؟ أنت تشتري هذه الأراضي، هذه الصناعات، هذه المصانع، هذه المحلات، ثم بعد ذلك تستثمرها، إما أن تستثمرها بعمل المواطنين فيها، أو بتأجيرها، هذا كله تنمية لقدرات الدولة.

المتن:

الْمَرْحَلَةُ السَّابِعَةُ: اَلْعَمَلُ عَلَىٰ بِنَاءِ الجَيْشِ:

اَلْعَمَلُ عَلَىٰ بِنَاءِ جَيْشٍ قَوِيٍّ مُدَرَّبٍ، يَحْمِي الدَّوْلَةَ فِي الْبِدَايَةِ، ثُمَّ يُجَاهِدُ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ فِي الْأَرْضِ.

الشرح:

هذا مهم جدًا، لا غنىٰ عن السيف والقلم، قرآن يهدي، وسيف ينصر ويقوّم، لا غنىٰ للدولة عن هذا أبدًا، فلا بد من جيش.

انظر الآن إلىٰ الحرب الدائرة في فلسطين، لو لم يكن هناك جيش مدرب ومجهز، هل كانوا سيصمدون أمام الآلة العسكرية اليهودية؟ أبدًا، ما كانوا ليصمدوا لو لم يكن عندهم جيش مدرب، ويصنعوا الأسلحة، ويطوروها، كل ذلك لأن العدو متربص بهم، مهما كان عندهم من خلل، مهما كان عندهم من ضغوط من الحكام الذين حولهم؛ ليرضخوا تحت العلمانية والموائد والمفاوضات، إلا أنهم مع كل هذا يسيرون في اتجاه آخر، يعدون العدة، ويصنعون، ويكوِّنون جيشًا قويًّا لا يعلم به أحد، لدرجة أنهم قاموا بهذه العملية بعيدًا عن المكتب السياسي في الخارج، المكتب السياسي في الخارج لم يعلم بتفاصيل العملية العسكرية في الداخل، كان يعلم، ولكن التفاصيل ما كان يعرفها، فالقيادة العسكرية في الداخل هي التي كانت تطور وتخطط، وتنظم جيشًا قويًّا، وظهرت قوته في هذا الأمر.

لذلك نحن ندعوهم دائمًا ألا يلقوا السلاح، أنتم الآن عرفتم أن الجهاد هو سبب عزكم ونصرتكم، وفرِح المسلمون في جميع الأرض بكم، بهذا الجهاد، فلا تخذلوهم، ولا تخذلوا الأمة بعد ذلك بالجلوس علىٰ المفاوضات، وأنتم قد جربتم هذه المفاوضات، لا تغني ولا تسمن من جوع، فقط يلجأ إليها الكفار عندما يكون الضغط عليهم، يصرخون: أوقفوا النار. الهدنة. نريد أن نتفاوض. فلماذا لما كانت لكم الغلبة، وتضربون، ويقال لكم: هدنة. لا تسمعون؟ لأنه في صالحكم.

فلا بد من جيش قوي مدرب يحمي الدولة، لا بد من التدريب، لا بد من السلاح، لا بد من تطوير السلاح؛ حتىٰ تجد من يحمي هذه الدولة وهذه الشريعة.

وفي هذه الأحداث لا بد من كلمة نوجهها للمجاهدين في غزة، وفي كل مكان.

الذين يركنون للكفار، إما لغباء وسذاجة؛ وإما لخيانة وعمالة.

مصيبة الأمة في من يتحكمون فيها لصالح الكفار، قال اللـه تعالىٰ: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، هذا خبر من اللـه لبيان الحقيقة التي ربما قد تخفىٰ علىٰ البعض، ثم قال سبحانه قاطعًا عذر من يستمر في هذا الطريق المسدود، الذىٰ يتخلىٰ اللـه عن من سلكه موالاة للكفار وتولية

لهم: {قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ}، قل للكفار من اليهود والنصارىٰ أن الإسلام هو الحق، وهو الهدىٰ، وهو المخرج والمخلص من أمراض البشرية، فليس لك إلا أن تتبع هدىٰ الله، وتتمسك بإقامة دينه في الأرض، ولا يضرك من خذلك، كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح: «**لاتزال طائفة من أمتي يقتتلون علىٰ الحق ظاهرين**»[(١)]، يعني: متمسكين بهذا الإسلام، وهذا النور، وهذا الطريق المستقيم، «**ظاهرين**»: واضحين، منتصرين، «**لا يضرهم من خالفهم**» من أهل الكفر والنفاق والعمالة والخيانة، فهم يأخذون بأسباب النصر والتمكين، حتىٰ يأتي وعد الله.

{وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}، بعد كل هذا البيان والتوضيح من الله، تركن إلىٰ الكفار، وتواليهم، وتعادىٰ إخوانك أهل الإسلام، وتطيع هؤلاء الكفار الذين يكرهونك، ويكرهون دينك، ولكن فقط يستخدمونك لقلة بصيرتك، وطمعك؛ لتحقيق مصالحهم، وبعد ذلك يتخلصون منك بانقلاب أو ثورة أو اغتيال، عندما تنتهىٰ صلاحيتك عندهم.

فكن عاقلًا، ولا تركن إليهم، فليس لك من دون الله ولي يتولاك، ولا نصير ينصرك ويقويك؛ لأن الله قال لك: {وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

(١) «سنن الترمذي»، رقم: (٢٢٢٩)، «صحيح مسلم»، رقم: (١٩٢٠).

فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ}، وأنتم ركنتم إلىٰ الذين كفروا وحاربوا دينكم، وقتلوا إخوانكم، وذبحوا وحرقوا أطفالكم، وهدموا بيوتكم، واغتصبوا نساءكم، وأنتم بعد كل ذلك ما زلتم سماعين لهم! حتىٰ لو ناصرتم اليهود علىٰ إخوانكم، ومنعتم عن إخوانكم المحاصرين الماء والدواء والكهرباء، حتىٰ لو أغلقتم في وجوه إخوانكم الحدود والمعبر الذىٰ ليس لهم غيره، لو شاركتم في حصار إخوانكم بمنع دخول المساعدات لهم، وهم يموتون! وأنتم ترون الكفار ينصرون اليهود عيانًا جهارًا، ويصرحون بذلك، وأنتم لا تستحون، وتمنعون عن المسلمين كل سبل النجاة؛ طاعةً لأوليائكم وأسيادكم؛ خوفًا وطمعًا فيما عند الكفار من مناصب وعروش، حتىٰ لو فعلتم لهم كل ما يريدون فلن يرضوا عنكم، فضلًا أن يتبعوا طريقتكم، ولن يسمحوا لكم بالتدخل أو مجرد الإنكار عليهم، مع أنكم سمحتم لهم بالتدخل في بلادكم وشعوبكم، وحتىٰ حياتكم الشخصية، وصدق الله، {وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ}، وهذا الذىٰ نحن فيه الآن في حربنا مع اليهود وأنصارهم.

فالذي يحول بين الأمة الإسلامية وبين النصر علىٰ أعدائها، هم هؤلاء الخونة والعملاء الذين يجثمون علىٰ صدر الأمة، ويحاربونها بالوكالة والنيابة عن أسيادهم، فلا عز، ولا فلاح، ولا نصر للأمة الإسلامية، إلا بالتخلص من

هؤلاء العملاء، وكلاء الكفار في بلاد المسلمين، وهذا لا يخفىٰ الآن حتىٰ علىٰ عوام الناس، وخصوصًا مع هذه الأحداث التي أسقطت أخر قناع يمكن أن يتقنع به عباد ولاة الأمور، الذين لبسوا علىٰ الأمة أمر دينها، وصوروا هؤلاء الخونة بصورة يستحي الشيطان منها، فشبههم بعضهم بأمير المؤمنين، وآخر بعمر بن عبد العزيز، وثالث صور طاغيته بذي القرنين! وهؤلاء يعتلون المنابر، ويوجهون الشباب! فما موقفهم الآن بعد كل هذا الخذلان؟ وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فطريق الخلاص من هذا الذل: أن تجتمع الأمة، وتوحد كلمتها علىٰ التوحيد والسنة، والدعوة والجهاد، وترجع إلىٰ ربها، وتستغفر وتتوب إلىٰ الله من موالاة الكفار وتوليهم، وتتمسك بشرع الله، هذا هو طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنهجه الذىٰ سار عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ففتحوا البلاد، وسادوا الأمم، وهابهم القريب والبعيد.

أيها المجاهدون، في فلسطين، وفي كل مكان، لا عز لكم إلا بالجهاد في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، فإياكم أن تلقوا سلاحكم ورمز عزتكم، وتهرولوا إلي موائد اللئام، للمفاوضات علىٰ الديمقراطية والعلمانية، وقد رأيتم تخاذل العالم من حولكم، وحصار حكام العرب لكم، وقد علمتم

ضعف عدوكم، وأنه أوهن من بيت العنكبوت، فامضوا علىٰ بركة اللـه، فإن تنصروا اللـه ينصركم، إما نصر وإما شهادة.

أغسلوا أيديكم من هؤلاء العملاء، وكلاء الكفار علىٰ بلاد المسلمين، وتمسكوا بتوحيد ربكم القهار، القوي المتين، ألم أقل لكم مرارًا أن هؤلاء الأجراء الخونة هم عدو الأمة الأول؟!

فيا أيها المسلمون، يا أهل التوحيد والدعوة والجهاد، لا تعلقوا مستقبل أمتكم علىٰ هؤلاء الحكام، وهل يرجىٰ الخير ممن باع دينه وخذل أمته؟!

هؤلاء ما اجتمعوا بعد شهر من المجازر إلا بإذن سيدهم في البيت الأبيض.

لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير، وإني واللـه، لأستبشر خيرًا، رغم ألم وقهر هذه المجازر- باستيقاظ كثير من المسلمين مِن الوهم بالحكام ورافضة إيران وذيولها في لبنان واليمن والشام، واللـه الذي لا إله إلا هو، إنَّ المستقبل لنا، المستقبل لهذا الدين، نحن قَدَرُ اللـه في الأرض، يربينا اللـه بالمجازر، ويوقظنا بالمصائب، حتىٰ لا نتكل علىٰ سواه، {مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ}، إِي واللـه، ما كان اللـه ليطلعنا علىٰ الغيب!

وماذا بعد قمة الوكلاء؟!

بعد أكثر من شهر، وهم ينظرون إلىٰ دماء وأشلاء المسلمين في غزة، سمح لهم سيدهم في البيت الأبيض بالاجتماع؛ حتي يجملوا وجههم القبيح أمام السذج والأغبياء الذين يحسنون الظن بهؤلاء الوكلاء العملاء.

اجتمعوا، وأكلوا، وشربوا، والتقطوا الصور؛ لعرض المسرحية الهزلية التي أصبح يعرف تفاصيلها الأطفال قبل عرضها، شجب، واستنكار، واستجداء من سيدهم لمزيد من المخدرات والمهدئات والمسكنات؛ حتي لا تثور الشعوب المسلمة الغاضبة. وماذا بعد؟

هل قامت الجيوش بإدخال السلاح والمساعدات للمسلمين في غزة؟!

هل تحركت الجيوش والحكومات لحماية المسلمين في غزة، كما تحركت أمريكا لحماية اليهود؟!

إن هذه الحرب مفاصلة بين الإسلام والكفر، فمن العار أن يدخل بعض الكفار في الإسلام بسبب هذه الحرب، وأنتم تخرجون منه!

وهذا خير لتسقط هذه الأصنام والأوثان التي صنعها الكهان والرهبان.

ونصيحتي لكم، ولكل مسلم: أن تنصروا إخوانكم بكل ما تستطيعون، كل بحسب قدرته وطاقته، بالنفس، والمال، والدعاء، والتحريض، وكفوا عن الترقيع للطواغيت، فهم لن يغنوا عنكم من الله شيئًا.

{وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ}.

المتن:

أَسْبَابُ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ وَثَبَاتِهَا:

بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمْنَا عَنِ الْأُسُسِ وَالْأَرْكَانِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ الْإِسَلَامِيَّةُ مِنْ عَقِيدَةٍ وَمَنْهَجٍ رَبَّانِيٍّ تَسِيرُ عَلَيْهِ وَفْقَ شَرِيعَةِ اللـه وَدِينِهِ الَّذِي ارْتَضاهُ لِعِبَادِهِ، وَهَذِهِ الْأُسُسُ كَمَا أَسْلَفْنَا:...

الشرح:

هذا إجمال لما ذكرناه، هذا مختصر لما تقدم.

المتن:

١- أَفْرَادٌ مُسْلِمُونَ مُوَحِّدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللـه رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَيَعْلَمُونَ يَقِينًا أَنَّ النَّصْرَ لِلْإِسْلَامِ، وَالْعِزَّ لِلْمُسْلِمِينَ؛ شَرْطَ الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ.

٢- وَبُقْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ يَتَّخِذُونَهَا وَطَنًا لَهُمْ، تَكُونُ قَاعِدَةَ الِانْطِلَاقِ لِنَشْرِ التَّوْحِيدِ وَنُورِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ كُلِّ الْأَرْضِ.

٣- وَحَاكِمٌ يَحْكُمُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ بِشَرْعِ اللـه، وَحُكُومَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ تُدِيرُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا، وَتَضْبِطُ حَيَاةَ النَّاسِ عَلَىٰ الدِّينِ، اجْتِمَاعِيًّا، وَاقْتِصَادِيًّا، وَتِجَارِيًّا، وَصِنَاعِيًّا، وَزِرَاعِيًّا، وَعِلْمِيًّا، وَصِحِّيًّا.

الشرح:

إذن بعد الأفراد والبقعة يأتي الحاكم، لا يأتي الحاكم قبل وجود الأفراد والبقعة، ليس له وجود أصلًا؛ لأنه هو الذي سيحمي بيضة المسلمين، هو الذي سيحمي النساء والأطفال، هو الذي يحوط، هو الذي يأمر بالجهاد، والذي يأمر بالاتفاقيات، فقبل وجود الأرض ووجود الفئة المؤمنة، لا وجود للحاكم أبدًا، وليس له وزن أصلًا، ولا قيمة ولا وجود.

المتن:

٤ - وَجِهَازٌ أَمْنِيٌّ يَقِظٌ، وَقَوِيٌّ، يُحَافِظُ عَلَىٰ حَيَاةِ النَّاسِ، وَيَحْمِي عَقِيدَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَيَقْضِي عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَ فِطْرَةِ النَّاسِ بِالشُّبُهَاتِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي تَهْدِمُ الدِّينَ وَتَنْشُرُ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ فِي الْمُجْتَمَعِ.

الشرح:

قوة أمنية تحمي المجتمع، والقوة الأمنية هذه تتابع الأفكار، العلمانيين، المبتدعة، الأفكار المنحرفة، يتابعونها ويحمون المجتمع من هذه الأفكار، كما يحمونه من الماديات، من الانحراف، والتبرج والسفور والخمور، هذه مهمة الجهاز الأمني، حماية المجتمع والمدينة والدولة من كل انحراف، سواء أكان انحرافًا فكريًّا أم انحرافًا سلوكيًّا.

المتن:

٥- جِهَازٌ قَضَائِيٌّ، وَإِعْلَامِيٌّ، يَفْقَهُ عِلْمَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ جَيِّدًا، وَيُحْسِنُ التَّعَامُلَ مَعَ وَاقِعِ النَّاسِ، وَيَسْتُرُ حَيَاةَ النَّاسِ، وَلَا يُشِيعُ الْفَاحِشَةَ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَيَنْشُرُ الْفَضَائِلَ وَالْخَيْرَ وَيُنَمِّيهَا؛ حَتَّىٰ يَشْعُرَ الْمُسْلِمُ بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ عَلَىٰ دِينِهِ، وَمَالِهِ، وَعِرْضِهِ، وَأَهْلِهِ.

الشرح:

هذه مهمة الجهاز القضائي والإعلامي، الجهاز القضائي في الدولة والإعلامي مهمته أن يرد الشبهات عن كل ما يشوش الإسلام، وكذلك لا ينشر الفاحشة والجرائم، كل يوم يأتي بجريمة ويقول: حصلت جريمة كذا وكذا. فأنت بهذا تشيع الفاحشة، بل تستر علىٰ أهل الإسلام، وتستر علىٰ دولة الإسلام، أنَّ فيها خيرًا، الشر أنت تحبسه، والخير أنت تنشره، والقضاء لا بد أن يكون عنده مهمة، وهي متابعة مثل هذه الأمور، ولا يقضي أبدًا إلا بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

٦- وَهُنَاكَ أَسْبَابٌ وَعَوَامِلُ طَبِيعِيَّةٌ لِقُوَّةِ الدَّوْلَةِ وَثَبَاتِهَا، مِثْلَ عَدَدِ السُّكَّانِ، وَالْمَسَاحَةِ، وَالْمَوَارِدِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُتَاحَةِ، وَالْقُدْرَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالِاسْتِقْرَارِ، وَالْكَفَاءَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْقُدْرَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ.

الشرح:

كل هذه مقدرات الدولة، لا بد أن ننميها ونحافظ عليها.

المتن:

٧- كُلُّ هَذِهِ عَوَامِلُ قُوَّةٍ لِلدَّوْلَةِ وَثَبَاتِهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، لَكِنْ فِي وَاقِعِ الْيَوْمِ، الْقُوَّةُ الِاقْتِصَادِيَّةُ هِيَ الْقُوَّةُ الْأُولَىٰ، بَعْدَ قُوَّةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَوَحْدَةُ الْعَقِيدَةِ وَالْمَشْرَبِ، ثُمَّ الْقُوَّةُ التِّكْنُولُوجِيَّةِ الثَّانِيَةُ، وَبَعْدَهَا تَأْتِي الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ، وَالسِّيَاسِيَّةُ، وَالْقُوَّةُ الْبَشَرِيَّةُ، وَبَاقِي الْقُوَىٰ الْأُخْرَىٰ... وَهَكَذَا، فَإِنَّ الْعَالَمَ يَتَغَيَّرُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ؛ طِبْقًا لِلْمُتَغَيِّرَاتِ الْجَدِيدَةِ.

الشرح:

إذن أسباب القوة أهمها: القوة الاقتصادية، أن تكون عندك قوة اقتصادية، مع قوة الإيمان والعقيدة، والوحدة التي تجمعكم، لا بد أن يكون عندك اقتصاد قوي، حتىٰ تستطيع أن تبني هذه الدولة بأحدث الوسائل المتاحة الآن، كل ما هو جديد في علم الصناعة والتكنولوجيا أنت تأتي به إلىٰ بلدك، وتعلِّم به، وتدرِّب الناس عليه؛ حتىٰ تملك مقومات القوة، حتىٰ لا تحتاج إلىٰ عدوك فيتحكم فيك.

المتن:

٨- وَيَبْقَىٰ التَّمَسُّكُ بِدِينِ اللهِ، وَشَرْعِ اللهِ، وَبِنَشْرِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَتَعْبِيدِ النَّاسِ لِرَبِّ النَّاسِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ- هِيَ الْقُوَّةُ الْعُظْمَىٰ، وَالْقُوَّةُ الَّتِي لَا تُقْهَرُ، وَلَا تُغْلَبُ.

الشرح:

فالتمسك بالتوحيد ونشر العقيدة في نفوس الناس، وفقه الدعوة، هذا هو الذي يحمي الناس، هذه هي القوة العظمىٰ التي لا تُقهَر أبدًا.

المتن:

إِنَّ الْبُيُوتَ الْمُسْلِمَةَ الْأَمِنَةَ الْمُطْمَئِنَّةَ تُدَارُ بِالْعِلْمِ، وَالْحِلْمِ، وَالْحَزْمِ، وَالرَّحْمَةِ. وَهَكَذَا الدَّوْلَةُ الْمُسْلِمَةُ.

الشرح:

الدولة المسلمة هي بيت كل مسلم، والبيت المسلم يدار بالتغافل، وبالحلم، والحكمة والعلم، لا بد أن تدار بهذه الأمور.

المتن:

لِمَاذَا يُحَارِبُونَ قِيَامَ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ؟

الشرح:

لماذا يحاربون قيام الدولة الإسلامية؟ لماذا الشرق والغرب وأتباعهم وأذنابهم يحاربون قيام دولة، أو مجرد فكرة دولة؟ لماذا يحاربون؟

المتن:

لِمَاذَا يَرْفُضُ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ أَنْ يَحْكُمَ الْإِسْلَامُ؟

وَمَا الَّذِي يَخْشَوْنَهُ مِنْ قِيَامِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، أَوْ نِظَامٍ إِسْلَامِيٍّ، أَوْ تَكَتُّلٍ إِسْلَامِيٍّ؟

وَلِمَاذَا يَكْرَهُونَ الْإِسْلَامَ؟

الْإِسْلَامُ يَهْدِمُ عُرُوشَ الطَّوَاغِيتِ، وَيُحَارِبُ الظُّلْمَ وَالْفَسَادَ.

الشرح:

لأن الإسلام أصله قائم علىٰ العدل، والطواغيت ظلمة، يحكمون بغير شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالإسلام إذا جاء فلا مكان للطواغيت والظلمة؛ لذلك يحاربون الإسلام.

المتن:

هُمْ يَعْلَمُونَ جَيِّدًا أَنَّ قِيَامَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَعْنِي تَزَلْزُلَ الْعُرُوشِ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، وَسُقُوطَ حُكْمِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، كَمَا سَقَطَ قَيْصَرُ وَكِسْرَىٰ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَتَأَمَّلْ فِي مَوْقِفِ الصَّحَابِيِّ رِبْعِيِّ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُسْتُمَ قَائِدِ الْفُرْسِ، وَكَلِمَاتِهِ الْبَلِيغَةِ لَهُ، الَّتِي لَخَّصَتْ فَلْسَفَةَ الْإِسْلَامِ فِي كَلِمَاتٍ قَلَائِلَ، وَعَبَّرَتْ عَنْ أَهْدَافِهِ بِوُضُوحٍ بَلِيغٍ، وَإِيجَازٍ رَائِعٍ: «إِنَّ اللهَ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَىٰ سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَىٰ عَدْلِ الْإِسْلَامِ».

فَهُمْ يَعْلَمُونَ يَقِينًا أَنَّ قِيَامَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَعْنَاهَا أَنْ يَسُودَ الْعَدْلُ بَدَلًا مِنَ الظُّلْمِ، وَالْحُرِّيَّةُ بَدَلًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَالسَّلَامُ وَالْأَمْنُ وَالْأَمَانُ بَدَلًا مِنَ الْخَوْفِ وَالطُّغْيَانِ.

هُمْ يَرْتَعِدُونَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَرْجِعَ الْمُسْلِمُونَ لِعَدْلِ عُمَرَ، وَدَهَاءِ الْمَنْصُورِ، وَغَيْرَةِ الْمُعْتَصِمِ، وَعَزِيمَةِ الْفَاتِحِ، وَلِمَنْطِقِ ابْنِ خَلْدُونَ، وَذَكَاءِ الْخَوَارِزْمِيِّ، وَاخْتِرَاعَاتِ الْجَزَرِيِّ، وَعَبْقَرِيَّةِ خَالِدٍ.

الشرح:

يرتعدون لأنهم يعرفون أن المسلمين أهل علم وخبرة، فقد كانت أوروبا في ظلام، وأهل الإسلام كلهم في تقدم ونور.

فعزيمة المعتصم وابن خلدون الذي وضع علم الاجتماع وأسباب الدول وانهيارها، والخوارزمي صاحب الاختراعات العظيمة، كل هؤلاء كانوا أهل إسلام، فالإسلام منارة، الإسلام يبني، هؤلاء يخافون من هذا.

المتن:

هُمْ يَخْشَوْنَ مِنْ عَوْدَةِ عَصْرِ الْفُتُوحَاتِ مِنْ جَدِيدٍ، حِينَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فُرْسًا وَتَتَرًا، عَرَبًا وَتُرْكًا، وَقِبْطٌ وَبَرْبَرٌ، أَفَارِقَةٌ وَقَوْقَازٌ، هُنُودٌ وَسُنُودٌ...، وَمِنْ جَمِيعِ الْأَعْرَاقِ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً تَنْصُرُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

الشرح:

هم علموا أنه ما ساد أهل الإسلام، وفتحوا البلاد شرقًا وغربًا، ووصلوا إلىٰ أوروبا وإلىٰ جنوب فرنسا، إلا بالاتحاد تحت راية واحدة، تحت دولة واحدة، هم يخافون من هذا؛ لذلك عملوا كل ما في وسعهم لإسقاط الخلافة العثمانية،

وتوزيع أراضيها، لماذا مزقوها هذا التمزق؟ لأنهم علموا أن في وحدة المسلمين القضاء عليهم، انظر إلىٰ الفتوحات الإسلامية إلىٰ أين وصلت في أوروبا، وصلت إلىٰ النمسا، وإلىٰ المجر، وإلىٰ اليونان، وإلىٰ إيطاليا، وكانوا يستعدون لفتح روما، انظر إلىٰ كل هذا، لذلك هم يخافون من قوة المسلمين، إذا كانوا يخافون من قوة صغيرة في فلسطين، ويخافون من أن يجتمع المسلمون عليهم، لذلك هم يريدون أن يحيلوا دون هذا بكل طريق، فهم يعرفون قوة الإسلام، يعرفون قوة التوحيد، وقوة الإيمان، يعرفون ذلك، لذلك عملهم الوحيد ودأبهم: التفريق.

المتن:

هُمْ يَخْشَوْنَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ وَحُكْمَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ لَا يُوجَدُ بِهَا مَكَانٌ لِنَشْرِ الْمُنْكَرَاتِ وَالضَّلَالَاتِ، فَيَسِيرَ مُجْتَمَعُهَا إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الْعِزِّ وَالِازْدِهَارِ، بَيْنَمَا مُجْتَمَعُ أَعْدَائِهَا يَسِيرُ نَحْوَ الْهَاوِيَةِ.

وَهُمْ يَحْمُونَ إِمْبَرَاطُورَاتِهِمْ، وَكُنُوزَهُمُ النِّفْطِيَّةِ؟

وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَبْقَىٰ خَيْرَاتُ الشُّعُوبِ الَّتِي هِيَ مِنَ اللهِ لِلْبَشَرِ، أَنْ تَبْقَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِدُونِ حَسِيبٍ أَوْ رَقِيبٍ؟

هُمْ يَخْشَونَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ وَحُكْمَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يُحَرِّمُ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَلِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَمْنَعُ مِنَ الْمُتَاجَرَةِ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ، وَإِشَاعَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ بَيْنَ النَّاسِ.

هُمْ يَخْشَونَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ وَحُكْمَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَمْنَعُ مِنَ التَّمَايُزِ وَالتَّفَاضُلِ عَلَىٰ بَقِيَّةِ الْخَلْقِ، وَيُعَامِلُهُمْ بِالسَّوِيَّةِ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَلِأَنَّ الْإِسْلَامَ يُحَرِّمُ الِاسْتِبْدَادَ وَالطُّغْيَانَ وَالْفَسَادَ، وَيُحَرِّمُ التَّحَكُّمَ فِي رِقَابِ النَّاسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

هُمْ يَكْرَهُونَ الْإِسْلَامَ؛ لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الطَّهَارَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَالْعِفَّةَ وَالِاسْتِقَامَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ.

الشرح:

لذلك هم يريدون نشر هذه الفاحشة، وهذه والمنكرات والقاذورات في بلاد الإسلام حتىٰ يهدموها، لأن المجتمع الغربي أصبح مجتمعًا خاويًا داخليًّا، ساقطًا داخليًّا أخلاقيًّا وسلوكيًّا، هم عرفوا ذلك؛ لذلك يريدون أن يصدروا هذه الانحرافات إلىٰ بلاد المسلمين؛ حتىٰ تنهار مثلما انهارت دولهم، وما هو الطريق إلىٰ ذلك؟ هؤلاء الحكام العملاء، الذين ينفذون سياسات الكفار في بلاد المسلمين، ينشرون الرذيلة والفاحشة والمنكرات باسم التقدم والحرية وغير ذلك.

المتن:

وإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَعَلَىٰ أَبْنَاءِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ يَتَفَطَّنُوا إِلَىٰ مُخَطَّطَاتِ الْعَدُوِّ الْمُتَرَبِّصِ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَعَلَيْهِمُ الاعْتِصَامُ بِدِينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَيَجْتَمِعُوا وَيُنْهُوا هَذَا الشَّتَاتَ وَالتَّفَرُّقَ وَالتَّمَزُّقَ الَّذِي لَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَعْفًا وَوَهَنًا.

الشرح:

هذا هو الأصل، الاجتماع والوحدة والاعتصام، لا خير لنا، ولا فينا، ولا منا، إلا بالاجتماع والوحدة، والاعتصام بالكتاب والسنة، والعمل الجماعي، ووحدة المسلمين، ووحدة الجماعة، لا بد من هذا، لا عز لنا، ولا فلاح، ولا نجاح، إلا بهذا.

المتن:

أَسْبَابُ الضَّعْفِ وَالسُّقُوطِ وَالِانْهِيَارِ:...

الشرح:

هذه هي المرحلة قبل الأخيرة من هذا الكتاب، تليها مباشرة: أسباب فشل وسقوط الحركات الإسلامية في إقامة دولة إسلامية منذ سقوط الدولة العثمانية قبل قرابة (١٠٠) سنة.

الآن نتكلم عن أسباب الضعف والسقوط والانهيار، بعد أن تكلمنا في المراحل السابقة في الكتاب عن أهمية الخلافة وعن وجوب الاجتماع والوحدة علىٰ رأس، وأنه لا بد من المراحل التمهيدية، كالدعوة السرية، والتربية، فكل هذه الأمور لا بد أن نراجعها مرة أخرىٰ؛ حتىٰ نستوعبها جيدًا، ولا نكتفي بهذه الدراسة، بل لا بد من المراجعة والوقوف علىٰ الخطوات العملية التي نستفيد منها في واقعنا، هذا هو الأصل.

ومما نقع فيه جميعًا: أننا بعد أن ننتهي من شرح الكتاب لا نرجع إليه أبدًا، وهذا خطأ كبير، فلا بد من مراجعة العلم، فربما عندما تقرؤه مرة أخرىٰ يفتح الله عليه فتوحات لم تكن أبدًا!

المتن:

الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ مِنْ سُنَنِ الله الْكَوْنِيَّةِ وَكَمَا جَعَلَ الله لِلنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ أَسْبَابًا كَذَلِكَ جَعَلَ لِلضَّعْفِ وَالِانْهِيَارِ وَالسُّقُوطِ أَسْبَابًا. وَسُنَنُ الله لَا تُحَابِي أَحَدًا.

الشرح:

لماذا لا تحابي سنن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أحدًا؟ لأن هذه السنن من أخذ بها نال شرف الانتماء، إذا كان من أهل الإسلام، ومن أخذ بها من أهل الكفر ناله من الرفعة في الدنيا والتمكين في الدنيا بقدر هذه الأمور.

فمن السنن الكونية أن الإنسان يضعف بعد القوة، ولكن هل هذا الضعف هو ضعف جبلي، يعني: كالإنسان يكبر ثم يكون شابًا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، وهكذا، أم هي أسباب ضعف فيه هو؟ انظر إلىٰ جيل الصحابة، لم يكن فيهم ضعف، بل بدؤوا بقوة، وانتهوا بقوة، بل انتهوا بأقوىٰ، وتكلمنا قبل ذلك في الدروس والدورات أن جيل الصحابة انتهىٰ علىٰ رأس المئة، وانظر كيف كانت الدولة الإسلامية علىٰ رأس المئة؟ كانت القوة فيها قوة مضاعفة، فتحت البلاد، وقلوب العباد، لكن عندما تأتي إلىٰ الدولة بعدها، وهي الدولة الأموية، تجد القوة في الدولة كانت بأسباب مادية اكتسبوها، والضعف كان بأسباب تخلوا عنها، فالدولة في ذاتها ضعفت، ليس بالسنن الكونية في ذاتها، لماذا ضعفت؟ لأنها تخلت عن أسباب القوة، عكس الخلافة الراشدة، تمسكت بأسباب القوة حتىٰ انتهىٰ العصر الراشدي وهو في أَوْج قوته؛ أما في غيره بعد ذلك سنقف علىٰ أن أسباب الضعف والانهيار كانت ذاتية في الدولة، إهمال بعض أسباب القوة، وعدم الأخذ بها، سواء أكان من المركزية، أم من الترف، أم من الانشغال بالداخل، أو غير ذلك من الأمور التي سنقف عليها.

ماذا نستفيد من هذا الأمر؟ أننا نقف علىٰ أسباب السقوط في الدول؛ حتىٰ نتلاشاها في البناء، ونضعها تحت المجهر أثناء السير، هذا مهم جدًا، أن نكبر هذه الأخطاء (أسباب السقوط)، ونضعها تحت المجهر، ثم بعد ذلك نتابعها حتىٰ لا تتسلل إلينا في غفلة منا، ونحن لا ندري، فلا بد من المراقبة التي

ذكرناها قبل ذلك، وهي متابعة الجهاز الإداري للدولة، متابعة الجهاز الإداري من أسباب القوة والثبات.

المتن:

وَمِنْ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ سُقُوطِ الْأُمَمِ وَانْهِيَارِهَا وَضَعْفِهَا وَزَوَالِهَا:

١- الظُّلْمُ وَالْبُعْدُ عَنْ مَنْهَجِ اللـه تَعَالَىٰ، وَالتَّخَلُّفُ عَنْ رَكْبِ الْحَضَارَةِ وَالتَّقَدُّمِ، وَتَرْكُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالرُّكُونُ إِلَىٰ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ، وَمُجَافَاةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّقْوَىٰ وَالْإِصْلَاحِ.

الشرح:

هذا مجمل أسباب السقوط:

أولها: الظلم، الظلم من أقوىٰ أسباب زوال الدول والشعوب، الظلم، والقهر، والاستبداد، فإذا أردت أن تستمر فعليك بالعدل، حتىٰ في نفسك، في خاصة نفسك، في أهلك، لا بد من هذا، مع إخوانك، ظلم العباد، ظلم النفس، كل هذا يندرج تحت الظلم، فأول سبب الظلم.

الظلم يبعدك عن منهج اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا ظلمت فأنت بعيد عن منهج اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل تسول لك نفسك أنك علىٰ حق، من ماذا؟ من ظلمك، طمس اللـه علىٰ البصيرة، فرأىٰ السيئ حسنًا، {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}، فالظلم تبعه البعد عن منهج اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثانيها: التخلف عن ركب الحضارة والتقدم، أنت تقوقعت علىٰ نفسك، وتشددت واعتزلت، وقلت: هذا العالم ليس لي به خلطة، وهو عالم كافر، وعالم متخلف، فأنا مع نفسي. فالناس يتقدمون من حولك، ويأخذون بأسباب القوة، وأنت متقوقع.

فالتخلف عن التقدم العلمي والحضاري الذي أنت تعيش في مناطك فيه، هذا مهم جدًا الانتباه له.

بعد ذلك: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنت بتركك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تخليت عن الخيرية، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}، وكما قلنا أن أكبر المعروف هو الدعوة إلىٰ التوحيد، وأنكر المنكر هو الشرك، لا بد أن تدعو إلىٰ هذا، تدعو إلىٰ التوحيد آمرًا بالمعروف، وتنهىٰ عن الشرك، هذا أكبر منكر يهدم الدول، الشرك والكفر. هذا أصل.

بعد ذلك: الركون إلىٰ أهل الكفر، وجعلهم يتدخلون في الدولة الإسلامية، هذا كله يُفقِد الدولة سيادتها، فلا تتحكم في نفسها، القرار ليس لها، القرار دائمًا في من يتحكم فيها، وما من دولة سمحت للكفار أن يتدخلوا بها إلا ضعفت، ووهنت، وتخلفت. هذا أصل.

هذا الكلام نضربه علىٰ الدولة، ومن باب أولىٰ نضربه علىٰ الجماعة، كما قلنا: الجماعة نواة للدولة، والدولة نواة للخلافة. فلا بد من هذه المراحل.

إشاعة الفسق والفجور في وسائل الإعلام وفي الشوارع، هذا كله مؤذن بالضعف والانهيار، وانسلاخ المجتمع عن دينه وهويته الإسلامية، وصبغته بصبغة الكفر والنفاق، هذا كله مؤذن بالزوال والدمار.

أهم من كل ذلك: مجافاة أهل العلم، يعني: إبعاد أهل العلم، أن تعزل أهل العلم والتقوىٰ والورع عن صناعة القرار، وبعد ذلك تقرب الفسقة والفجرة، فماذا سيكون القرار؟ كيف ستكون الدولة عندما يديرها الفسقة والفجرة؟ فلا بد من تقريب أهل العلم، واستشارتهم، والاستنارة برأيهم؛ حتىٰ تعم الشريعة بقدر المستطاع.

فهذا مجمل أسباب السقوط.

المتن:

وَسَنَسْتَعْرِضُ فِي هَذَا الْجُزْءِ الْأَخِيرِ مِنَ الْكِتَابِ أَسْبَابَ سُقُوطِ الدُّوَلِ السَّابِقَةِ الَّتِي كَانَتْ مِلْءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ثُمَّ أَصْبَحَتْ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ.

وَنَبْدَأُ بِأَوَّلِ خِلَافَةٍ بَعْدَ عَصْرِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ: وَهِيَ الْخِلَافَةُ الْأُمَوِيَّةُ ثُمَّ الْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ثُمَّ أَسْبَابِ فَشَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ -بَعْدَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ- فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَتَكُونُ خِلَافَة

عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ» فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشرح:

لماذا نحن ركزنا علىٰ هذه الخمس؟ (الخمس أم الأربع؟) لأن هذه هي التي كانت تجمعها الخلافة، لكن هناك طوائف ودول كانت في داخلها، كدولة الموحدين، وكالمرابطين، وكبني بويه، كل هذه كانت طوائف، والدول الأيوبية، ودولة المماليك، كل هذه كانت دول وطوائف، ولكنها كانت تظلها الخلافة العباسية، فكانت مندرجة تحتها، فنحن لم نتعرض لمثل هذه الدول، ولكن تعرضنا للأصل العام؛ لأنه يؤثر بالتبع علىٰ من تحته.

المتن:

أَنَّ التَّارِيخَ هُوَ عِلْمٌ نَفِيسُ الْغَرَضِ مِنْهُ تَحْلِيلُ الْأَحْدَاثِ وَفَهْمُهَا لِلْخُرُوجِ بِقَوَانِينَ تَجْعَلُنَا نَفْهَمُ طَبَائِعَ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالدُّوَلِ وَعَوَامِلَ وِلَادَتِهَا وَنُضْجِهَا ثُمَّ ضَعْفِهَا وَأَخِيرًا سُقُوطِهَا؛ لِأَجْلِ أَنْ نَفْهَمَ حَاضِرَنَا وَأَنْ نَسْتَقْرِئَ مُسْتَقْبَلَنَا.

الشرح:

إذن قراءة التاريخ، وتاريخ الدول، وأسباب قيامها وسقوطها، يجعل عندك خلفية علمية تستطيع بها أن تكون رؤية في الواقع الذي أنت تعيش فيه، جهل هذا التاريخ يجعلك دائمًا تتخبط؛ لأنك لست علىٰ طريق ثابت، ولا منهج واضح، فنقرأ التاريخ بهذه الخلفية، نقرأ السيرة بهذه الخلفية، نقرأ الأحداث

بهذه الخلفية، أنت لست ناقدًا فقط، لا تنقد فقط، ولكن أنت تستلهم الدروس والأسباب وتطورها، والسلبيات وتعالجها، ثم بعد ذلك تنظر في أسبابها، ما الذي أدت إليه، من أين جاء هذا السبب؟

فالداعية، أو المربي، أو القائد، أو الأمير، ينظر لهذه الأحداث بغير النظرة التي ينظر إليها الأفراد، فأنت لك قول في هذا، لست قارئًا فقط، أنت قارئ وقائل، لك قول، من أين جاء هذا القول؟ من استقرائك للتاريخ وما فيه من أحداث وعبر.

المتن:

إِنَّنَا عِنْدَمَا نَقْرَأُ تَارِيخَ دَوْلَةٍ أَيَّةِ دَوْلَةٍ فَإِنَّنَا نُقَسِّمُ عَوَامِلَ النُّهُوضِ وَالسُّقُوطِ إِلَىٰ: عَوَامِلَ دَاخِلِيَّةٍ سَلْبِيَّةٍ وَإِيجَابِيَّةٍ، تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِهَا وَخُطَطِهَا وَسِيَاسَاتِ حُكْمِهَا وَعَوَامِلَ خَارِجِيَّةٍ سَلْبِيَّةٍ وَإِيجَابِيَّةٍ، تَتَعَلَّقُ بِعَلَاقَاتِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ بِمُحِيطِهَا وَبِالْعَالَمِ كُلِّهِ وَكَذَلِكَ آثَارِ بَعْضِ الْمُتَغَيِّرَاتِ الْعَالَمِيَّةِ عَلَيْهَا... وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ يُمْكِنُنَا أَن نَفْهَمَ كَيْفَ قَامَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ أَوْ تِلْكَ ثُمَّ نَهَضَتْ وَكَيْفَ ضَعُفَتْ ثُمَّ سَقَطَتْ.

وَسَنَذْكُرُ الْأَسْبَابَ عَلَىٰ الْإِجْمَالِ، ثُمَّ نُفَصِّلُهَا بِمَا يَسَّرَ الله وَفَتَحَ وَأَعَانَ.

الشرح:

إذن كل سبب من هذه الأسباب هو كان معول هدم للدولة، أنت إذا أهملت أي سبب من هذه الأسباب ولم تتدبر فيه، فستقع فيه شئت أم أبيت، فهذا سرد لهذه الأسباب جملة، وكل منا يتدبر في هذا السبب، ربما أنت ترىٰ السبب ليس مؤثرًا في البناء، ولكن الواعي الذي عنده وعي سياسي يرىٰ أن هذا السبب سوس ضعيف، ولكنه ينخر في جسد الأمة، فيهدمها علىٰ المدىٰ البعيد، كالأَرَضَة، (الأَرَضَة): نوع من النمل، يسمونها الأكلة، التي جاءت في القرآن، في قصة عصا سليمان، هذه لا تراها، تسير تحت الأرض، وتدخل في الأشياء، وتجعلها هشة من الداخل، فتقضي عليها تمامًا من الداخل، حتىٰ إذا جعلتها هكذا تسقط، فهكذا أسباب السقوط الخفية لا بد من دراستها أكثر من الأسباب الظاهرة؛ لأن الظاهر أنت تراه وتعرفه؛ أما الخفي يتسلل إليك دون معرفة، فلا بد أن تكون بصيرًا يقظًا.

المتن:

«أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلًا مُحَدَّدًا، وَأَبْرَزُ مَنْ تَكَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ابْنُ خَلْدُونَ مُعْتَمِدًا فِي مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ.

الشرح:

ابن خلدون أول من تكلم في علم الاجتماع، ابن خلدون له تاريخ جعل له مقدمة، المقدمة هذه استلُّوها وجعلوها منفصلة عن التاريخ؛ لماذا؟ من قوتها، جعلها منفصلة، مع أنها مقدمة لكتابه التاريخ، ولكنها من قوتها ونضوجها،

جعلها منفصلة عن هذا؛ حتىٰ لا... (كلمة غير واضحة الدرس ١٧ الدقيقة ١٥) يقولون: مقدمة ابن خلدون. ولا يعرفون مقدمة لماذا؟

فابن خلدون هو أول من تكلم في علم الاجتماع، وأسباب سقوط الدول، وبنائها، والفترة التي يستغرقها البناء والسقوط، وغير ذلك؛ لذلك هو مرجع للمسلمين في علم الاجتماع، بل للغرب كذلك، الغرب كذلك يترجمون مقدمة ابن خلدون، ويعكفون عليها، وهذا يدلك علىٰ أن المسلمين عندما أخذوا بأسباب القوة سادوا، وسبق أن قلنا: كان الأوروبي يفتخر في تاريخه أنه تعلم في أرض العرب، أنه زارها وتعلم فيها، وأخذ فيها الطب، وأخذ فيها الهندسة، كان يفتخر، كما أن بعض الناس الآن يفتخرون أنه أخذ الدكتوراه من بلاد كذا من بلاد الكفر؛ فهذا ضعف، فالضعيف يستلهم قوته من القوي، ويكون تبعًا له، فكذلك كان أهل الإسلام عندهم قوة جبارة، تجعل الغرب الكافر الذي كان يعيش في ظلمات، يأتون إلىٰ بلاد المسلمين ليستضيئوا بنور العلم في جميع مناحي الحياة، ومنها علم الاجتماع الذي أسسه ابن خلدون في مقدمته.

المتن:

٢- نَبْذُ الدِّينِ وَانْتِشَارُ الْفَوَاحِشِ وَالْمَعَاصِي سَبَبٌ أَسَاسِيٌّ فِي انْهِيَارِ الدُّوَلِ وَلِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ دَوْرٌ كَبِرٌ فِي حِفْظِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الِانْهِيَارِ الْأَخْلَاقِيِّ؛ لِأَنَّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ لِحِفْظِ الضَّرُورِيَّاتِ لَاسِيَّمَا حِفْظِ الدِّينِ»[1].

فَانْهِيَارُ السُّلْطَةِ وَشُيُوعُ الْفَوْضَىٰ نَتِيجَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِغِيَابِ الشَّرِيعَةِ وَالْوَازِعِ الدِّينِيِّ عِنْدَ النَّاسِ؛ نَتِيجَةَ عَدَمِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

الشرح:

فالأمر بالمعروف والنهي المنكر يحفظ المجتمع من الانحلال والفوضىٰ.

المتن:

وَتُعَدُّ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ بِمَثَابَةِ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَىٰ مِنْ مَرَاحِلِ سُقُوطِ الدُّوَلِ وَخِلَالَها لَا يَسْتَطِيعُ الْحَاكِمُ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَفَرْضِ هَيْبَتِهَا -كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ-. وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ ارْتِفَاعُ مُعَدَّلِ الْجَرِيمَةِ وَالِانْفِلَاتِ الْأَمْنِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ انْهِيَارٌ لِمَرَافِقِ الدَّوْلَةِ وَحِينهَا تُصْبِحُ الدَّوْلَةُ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَىٰ تَلْبِيَةِ احْتِيَاجَاتِ النَّاسِ الْأَسَاسِيَّةِ.

الشرح:

---

(١) «أسباب انهيار الدول في مقدمة ابن خلدون»، للدكتور ليث حسن علوان: (٣٣٧) و(٣٦٢)، وجاء في صفحة (٣٣٧): «وأهم البحث النتائج ما يلي: ١-...» وفي ص: (٣٦٢): «وأهم هذه النتائج ما يلي: ١-...».

عندما تنتشر الفوضىٰ في المجتمع، ويصعب علىٰ الدولة السيطرة علىٰ الناس، فالدولة أصبحت لا قيمة لها، كل الناس يفعلون ما يرونه، ومعدل الجريمة يرتفع؛ لغياب الأمن، فالدولة تفقد سلطتها تمامًا، حتىٰ بعد ذلك يتجرأ عليها، ليس في الدخل فقط، بل ربما تحكمها عصابات داخلية، وتتحكم فيها؛ من ضعفها، هذا كله من غياب سلطة الدولة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لذلك الدول التي كانت تدعي أنها دول شريعة، ودول تحكيم الشريعة، وبدؤوا ينحون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويزيلونه تمامًا، كما حصل في بلاد الجزيرة، أزالوا تمامًا هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح الآن الانحلال في كل مكان، والفسق والفجور في كل مكان، هذا يؤذن بزوال هذه الدولة، وهذه الدولة بدأت تدق في مسيرتها أسباب الانهيار والسقوط، وهذه أولها، أنها نحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسجنت العلماء والدعاة، واعتقلتهم وأبعدتهم عن الساحة، وفتحت المجال لأهل الفسق والفجور، فانحل المجتمع. فهذه الدولة تنتهي -علىٰ رأي ابن خلدون- بعد عشرين سنة تقريبًا.

المتن:

٣- «الْظُّلْمُ مُؤْذِنًا بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ وَتَخْرِيبِ الْعُمْرَانِ وَهُوَ سَبَبٌ مُهِمٌّ مِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ مُخَالَفَةٌ كُبْرَىٰ لِشَرْعِ اللهِ وَأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ» [(١)].

فَعَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ وَرَدْعِ الظُّلْمِ: عِنْدَمَا لَا تَسْتَطِيعُ الدَّوْلَةُ تَحْقِيقَ الْعَدْلِ وَرَدْعَ الظُّلْمِ عَنِ الْمَظْلُومِينَ حِينَهَا تَجْتَاحُ ثَوْرَةٌ مِنَ الْغَضَبِ نُفُوسَ الشَّعْبِ وَيَبْدَأُ كُلُّ شَخْصٍ فِي التَّفْكِيرِ بِآلِيَّةٍ يُمْكِنُ مِنْ خِلَالِهَا رَدْعُ الظُّلْمِ عَنْ نَفْسِهِ وَالْحُصُولُ عَلَىٰ حُقُوقِهِ بِالْقُوَّةِ أَوْ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرَاهَا هُوَ وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ لِنَصِلَ إِلَىٰ نَفْسِ النَّتِيجَةِ السَّابِقَةِ وَهِيَ إِفْشَاءُ الظُّلْمِ وَانْتِشَارُ مَشَاعِرِ السَّخَطِ وَهَذِهِ الْمَشَاعِرُ مِنَ الْعَوَامِلِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ.

الشرح:

إذا وصلنا إلىٰ هذه، فكل إنسان يستطيع أن يأخذ حقه بيده، ما توجد دولة، الظلم انتشر، ما توجد دولة، وهذا لو تأملته، وأنزلته علىٰ الجماعة، لو لم يستطع القائد، أو الأمير، أو المسؤول، أن يسيطر علىٰ أفراد جماعته، وكلٌّ يفعل ما يراه، وكلٌّ يتكلم بما شاء، وكلٌّ يفكر بطريقته، فستجد أنه شيئًا فشيئًا يفقد السيطرة علىٰ الأفراد، ثم يخرج الأمر شيئًا فشيئًا عنه، هذا أنزله دائمًا علىٰ البناء الأصغر، الذي هو الأساس، لا تنزله علىٰ الدولة، لا، أنزله هذا علىٰ

(١) المرجع السابق (٣٣٧) و (٣٦٢).

الأساس، علىٰ الجماعة، علىٰ البيت، لو لم يكن ولي الأمر البيت الآن الذي هو الراعي المسؤول عن البيت، أو عن الجماعة، أو عن المؤسسة، لم يستطع أن يسيطر علىٰ الناس، ولم يستطيع أن يعاقب كل من يخرج عن حيز الأدب والسلوك الشرعي، ماذا سيفعل؟ ليس له قدرة علىٰ ضبط البيت، أو ضد ضبط الجماعة، فلا بد من الحزم، الأمير والمسؤول لا بد له من الحزم مع الرحمة، إذا رأىٰ أمرًا خرج عن السيطرة يرجعه، لا يسكت ويقول: ما هي المشكلة؟ إن شاء اللـه نعالج. لا، هذا كله يخرجك عن حيز السيطرة.

فلو أنزلت هذا علىٰ الدولة، فأنزله أولًا علىٰ البيت، وعلىٰ الجماعة، وعلىٰ الدولة، لا بد من هذا، لا تخرج ولا تسمح لفرد من أفراد الجماعة أن يخل بنفسه، أو برأيه، أو يقول ما يشاء، أو يفعل ما يشاء؛ لأنك ضمن إطار الدولة، إذن أنت تفتئت علىٰ الدولة، هذا الذي يسمونه الافتئات، لماذا أنت لا تستطيع أن تقيم الحدود بنفسك؟ لأن هناك دولة تقيم، لماذا أنت لا يجوز لك أن تعاقب من يقع في الأخطاء؟ لأن هناك دولة تعاقب، فأنت عندما تقوم بهذا، فإنك تلغي دور الدولة، وهكذا علىٰ المسؤول، وهكذا علىٰ الأمير.

المتن:

«الِانْهِزَامُ الْفِكْرِيُّ وَتَقْلِيدُ الْغَالِبِ؛ أَوْرَثَ الْأُمَّةَ الْخُنُوعَ»(١)، وَسُوءُ اخْتِيَارِ الْأَعْوَانِ مِنْ قِبَلِ الْحَاكِمِ؛ تُعَدُّ مُحَاوَلَةَ انْتِحَارٍ صَرِيحَةً لِلدَّوْلَةِ -كَمَا وَصَفَهَا ابْنُ خَلْدُونَ- فَهَؤُلَاءِ يَضَعُونَ الْغِشَاوَةَ عَلَىٰ أَعْيُنِ الْحَاكِمِ؛ وَبِالتَّالِي لَا يُعْرَفُ لِلْعَدْلِ طَرِيقٌ. وَيُعَدُّ هَذَا الْأَمْرُ بِمَثَابَةِ الشَّرَارَةِ الأولىٰ الَّتِي تُسَاعِدُ عَلَىٰ سُقُوطِ الدُّوَلِ وَهَدْمِ الْأَوْطَانِ وَهُوَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ.

الشرح:

الذي هو انهيار الفكر، والهزيمة الفكرية، وتقريب الفسدة من الحاكم، فهو يرىٰ برأيهم، ولا يستطيع أن يصل إلىٰ الرعية ولا إلىٰ حقائق الأمور بنفسه؛ لأنهم عزلوه، حجبوه، هو جالس ويتلقىٰ الأخبار فقط من العيون، والدولة تنهار، وهو يظن أنها في تقدم ورخاء، لماذا؟ لتقريب الفسدة إلىٰ الحاكم. هذا مهم جدًا.

كذلك نظرية العدو الغالب، تجعلك دائمًا في انهزام فكري، أنك تنظر إلىٰ الكافر أنه أعلىٰ منك، متقدم عنك، فتصيبك الهزيمة الفكرية فتتعبه. فهذ لا بد أن نقضي عليها في الدولة.

المتن:

(١) المرجع السابق

٥- «التَّرَفُ عَلَامَةٌ عَلَىٰ إِدْبَارِ وَانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ...؛ لِذَلِكَ كَانَ سَبَبًا مُهِمًّا مِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ»(١).

إِنَّ الدَّوْلَةَ تَصِلُ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ السُّقُوطِ وَالِانْهِيَارِ عِنْدَمَا لَا يُمْكِنُهَا التَّصَدِّي أَوِ الِاسْتِجَابَةُ لِلتَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُهَا بِسَبَبِ غَفْلَتِهَا وَتَرَفِ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ.

الشرح:

الدولة تصل إلىٰ السقوط عندما لا يمكنها التصدي أو الاستجابة للتحديات، إما بالغفلة؛ وإما بالترف.

والجماعة المسلمة تعالج أخطاءها بنفسها من الداخل، لا تسمح لأحد أن يعالجها هي، نحن نعالج أخطاءنا من الداخل.

انظر الآن إلىٰ مسألة الدولة، الدولة كانت في يوم من الأيام تسيطر علىٰ مساحة كبيرة جدًا من الأراضي، وكان عندها أنصار كثر جدًا من الناس، وعندها عدد وأسلحة، ما الذي جعلها تسقط هذا السقوط السريع؟ لو أحسنا الظن بإخواننا، وقلنا: هم بعيدون عن الترف، إذن يبقىٰ السبب الآخر: الغفلة، عدم متابعة الأمر من الداخل، عدم القضاء علىٰ كل فكر يخالف ويزعزع المجتمع الداخلي، السماح بدخول أفكار مخالفة فتت الجماعة ومزقتها.

---

(١) المرجع السابق باختصار.

نقول هذا ليس نقدًا وليس لومًا، ولكن نحن ننقد أنفسنا؛ لأنهم منا، ونحن منهم، والنصيحة تستوجب أننا نصحح الأخطاء من الداخل، وإلا سنكون نحن منافقين غششة، والمسلمون نصحة، والمنافقون غششة، وكما مر معنا أن المسؤول أو الحاكم أحوج ما يكون إلىٰ الناصح منه إلىٰ المادح، الذي يمدحك ويثني عليك، لا يحبك؛ لأنه يراك تنهار، ولا ينبهك، ولا يوقظك.

فالخطأ الذي وقعنا فيه: أننا لم ندرك الانهيار الداخلي؛ لذلك فقدت الدولة السيطرة علىٰ مفاصلها، وزالت، وبعد أن زالت ما زلنا لم ندرك أسباب الزوال! عندنا العاطفة، والانتماء الأجوف، أنا أسميه «انتماء أجوف»؛ لأنه لا أثر لك في الواقع، ونفرح! أعلنا عن خليفة هكذا، وخليفة هكذا! ما قيمة هذه الخليفة مع عدم وجود الدولة؟ ما قيمة هذه الخليفة مع عدم وجود الحاضنة الشعبية؟ ما قيمة هذا الخليفة مع أنه لا يستطيع أن يحمي الرعية، ولا يخرج النساء من السجون والمعتقلات؟ ما فائدته؟ إذن هذا كله انحراف، نضحك علىٰ أنفسنا، ونسكن أنفسنا، كالمريض المصاب بسرطان قوي، فيعطونه مسكنات، والسرطان ينخر في جسده، سيسقطه مرة أخرىٰ، سيقضي عليه هذه المرة، يموت، ومع ذلك يعطونه مسكنات، هذا خطأ، لا بد من اليقظة، من النصح، لا بد من أن تحب هذا الدين، فعمل له بصدق، قف علىٰ أسباب المرض، ولا تعالج العرض، لا تعالج ارتفاع الحرارة، عالج أصل المرض، ما هو؟ كان هناك انهيار داخلي، كان هناك اختراق داخلي، كان هناك عدم

السيطرة علىٰ مفاصل الدولة، كان هناك عدم استراتيجية ما بعد الدولة، كان هناك بصدق غياب وعي سياسي في التعاون مع السياسة الشرعية مع المحيط، غياب منهج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مرحلة البناء، هذا لم أجده تمامًا، فلما وصل الأمر إلىٰ هذه الحالة كان لا بد من وقفة، لا بد من إعادة البناء، ودراسة أسباب السقوط، ولو وقفنا بصدق علىٰ أسباب السقوط، لوجدنا هذه الغفلة، غفلة في الوعي السياسي، والسياسة الشرعية في إدارة الدولة، هذه أول خطوة وقعنا فيها.

ثاني خطوة وقعنا فيها: فتح جبهات خارجية لا نستطيع أن نتحملها، سياسة كسب الخصومة، فتكالب الجميع علينا.

كذلك من أقوىٰ الأسباب التي وقعنا فيها، وجعلت الحاضنة الشعبية تنقلب علينا، ألا وهي الوقوع دائمًا في العلماء والرؤوس، كفرناهم، بدعناهم، فسقناهم، مع أن هذا ليس من السياسة الشرعية، أنت في مرحلة البناء، لا بد أن يكون لك حاضنة من العلماء ومن الشعب، تدافع عنك، تجمع عنك.

كذلك من الخطأ الذي وقعنا فيه، وتبعنا فيه من قبلنا، الشيخ أسامة -عليه رحمة الله- أسأل الله أن يغفر لنا جميعًا، وقع في خطأ، ونحن اتبعناه عليه دون تمحيص.

أنا أقول هذا الكلام بتجرد، ولا يهمني يخرج أو لا يخرج، الكلام هذا لا يعنيني، أنا الآن قادم على سفر، وربما لا أعود، ربما اقضي نحبي في هذا السفر، ولكن أنا بلغت أمانة العلم الذي أتعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به.

الخطأ الذي وقع فيه الجهاد في مراحله الأولىٰ: أنه في بدايته كانت الأمة كلها وراءه، الأمة كلها: علماؤها، وشبابها، والعوام، وراء هذا الجهاد، ويفرحون عندما يذكر اسم الشيخ أسامة -عليه رحمة الله-، ثم بعد ذلك لما انتقلوا إلىٰ الشيشان كذلك، الأمة كانت كلها وراء جهاد الشيشان، ما الذي جعل الانفصام النكد بين الجهاد والناس؟ أنك فتحت جبهات داخلية في بلاد الإسلام، عندما بدأ الشيخ أسامة -عليه رحمة الله ورضوانه وغفر الله له-، بدأ يعمل عمليات في البلاد الإسلامية، بدأت الناس كلها تنقلب عليه، لما كان يوجه السلاح للكافر الذي هو معلوم كفره، ومحتل الأرض، الكل كان معه، ولما كان يستشهد بالعلماء، كالشيخ ابن عثيمين، والشيخ ابن باز، والشيخ ابن جبرين، والشيخ حمود العقلا -رحمهم الله تعالىٰ وغفر لهم-، كانوا يخرجون في الفتاوىٰ يؤيدون الجهاد، والفتاوىٰ موجودة، ولكن المنزلق الذي لم يتفطن إليه أهل الجهاد: أنهم جُرّوا جرًا بغفلة، الكفار علموا أن لا طاقة لهم بالجهاديين؛ لأنهم عندهم مراكز أبحاث، ورصد، ما هم نيام مثلنا، لا، هم يعملون ليل نهار، عندهم مراكز، فعلموا يقينًا أن لا طاقة لهم بالجهاد ولا بالإسلاميين، لا طاقة لهم، وجربوا في أفغانستان، وجربوا في الجزائر، وجربوا

في اليمن، علموا هذا قطعًا، مع أنهم يملكون القوة الجبارة لتدميرهم، ولكن علموا أن هؤلاء، أهلَ الجهاد، نوعٌ آخر من البشر الذين يتعاملون معهم، ففهموا ذلك، فلما فهموا ذلك، ربَؤُوا بأنفسهم عن المواجهة، وبدؤوا يُدخِلون الوكلاء نيابة عنهم في الحرب، وهم حكام الدول، وللأسف جُرّ الإخوة إلىٰ هذا جرًا دون أن يدروا، فلما خرج وزير داخلية الجزيرة، وقال: لا أحد يُذكِّرنا بأسامة، هذا ليس منا، ونحن قد ألغينا إقامته، وألغينا هويته، وهكذا. بعد ذلك بدأ العلماء يصمتون، لم يتكلموا، صمتوا، ينتظرون الأمر، بدأ هؤلاء الناس يجرون إلىٰ العمليات في البلاد الإسلامية، وبدأ يقع بعض المدنيين تبعًا وليس قصدًا، معروف هذا، الإخوة من أحرص الناس علىٰ الدماء.

فالعدو جرك إلىٰ معركة هو حددها، وحدد مناطها، وحدد نهايتها، وساعة بدئها، وأنت لا تدري، فلما دخلوا هذا المعترك، لم يستطيعوا أن يخرجوا منه، وكثرت العمليات، وهذه العمليات كثير منها لم يقم به الإخوة، بل قام به النظام؛ ليشوه صورة الإخوة، ونحن لم نتفطن لذلك، مع أنها كانت صورة واضحة في مناط الجزائر، مناط الجزائر كان واضحًا وضوحَ الشمس، خصوصًا بعد تجلية الحقائق، بعدما بدأ الجيش يقول هذا، يقول: كنا نلبس ملابس المجاهدين، ونطلق لحانا، ونقتل المدنيين في البيوت، والأطفال، والشيوخ، لماذا؟ حتىٰ يُسَوِّق الجهاز الإعلامي العالمي أن هؤلاء ليسوا مسلمين، هؤلاء قتلة مجرمون، سفاحو دماء، فلما بدأ جيش الجزائر يخرج

بهذا، والحقائق بدأت تظهر، ألا يكون هذا يقظة لنا؟ ألا نقف؟ لا، هم جُرّوا جرًا إلىٰ هذه؛ ففقدوا العلماء الذين ما كانوا معهم، وفقدوا الحاضنة الشعبية التي كانت معهم، وبدأت الفتاوىٰ تظهر: هؤلاء خوارج، هؤلاء ضلال، هؤلاء إرهابيون، هؤلاء الذين يرقبون الدماء. هذا الذي ظهر، فبدأت الحاضنة الشعبية تنفض عن المجاهدين، بعد أن كان الناس يأوون الإخوة، ويحفظونهم، ويمدونهم بالمال، والسلاح، والسكن، وغير ذلك، بدؤوا ينفضُّوا من حولهم، وهذا سبب رئيس في فشل المشروع الجهادي في أوله.

ولما جاء تنظيم الدولة، لم نتفطن لهذه الأسباب، ومشينا مع التيار، القوة كانت جارفة، الأعداد كبيرة، والمجاهدون من كل مكان يأتون، فقدنا السيطرة علىٰ الداخل في البؤرة الضيقة، فوسعناها، وفتحنا الباب، فدخل هذه الدائرة الضيقة من لم نعرفه، وبدأ يُخرِج الفتاوىٰ، ويخرج البيانات، ونحن: من أين؟ من أين؟ نعم، عرفنا أنه لا، لكن لم نستطع في وقتها السيطرة عليهم، مع أننا نعرفهم، ولكن لم نستطع السيطرة عليهم، فحصل ما حصل.

وسقط تنظيم الدولة بكل ماله وما عليه، ولكن علينا أن ندرس الأخطاء، ونعالج المرض، مرض الجهل والغرور، مرض العشوائية، مرض كسب الأعداء، مرض الغفلة عن السنن الربانية، مرض التعالم، والجهل بالواقع، والأحكام، والسياسة الشرعية، مرض الاستقلال بالفهم، والبعد عن العلماء

وطلبة العلم، وتكفيرهم وتبديعهم، مرض الانفراد بالسلطة، والاستعلاء علىٰ الإخوة، ومحاربة المجاهدين بعضهم بعضًا، أمراض كثيرة لا بد من كشفها واستئصالها من العمل الإسلامي؛ حتىٰ لا تتكر هذه المأساة مرة أخرىٰ باسم الجهاد!

لا بد من فقه المآلات، وترتيب الأعمال، الذي غاب عن الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية، فإن من أعظم مقاصد الشريعة: المحافظة علىٰ الدين والعرض؛ لأن تحقيق العبودية لـله رب العالمين هو الأصل من خلق الأنسان، {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، فقد خلقنا الـله لعبادته، وتوحيده، ونشر دينه في الأرض؛ حتىٰ يعبد الـله وحده لا شريك له في ملكه، ولا في حكمه، ولا في أمره، {أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ}.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والصحابة الكرام -رضىٰ الـله عنهم أجمعين-، من أعظم الخلق تحقيقًا لمقاصد الشريعة وفقه مآلات الأعمال، ولو فقه قادة هذه الجماعات سيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتدبروا موقفه عندما اجتمع الكفار عليهم، وسجنوهم وعزلوهم في شعب أبي طالب، لجنبوا الناس هذه الويلات والمخازي والفضائح والذل الذي يعيشون فيه، النساء والأطفال في مخيمات الذل والعار!

لو تدبروا موقفه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلح الحديبية، لعلموا أن السياسة الشرعية باب من الفقه عظيم، أصله وأساسه: تحقيق مقاصد الشرع، والنظر إلىٰ المآل، لا إلىٰ الوقت والحال.

عندما أرىٰ النساء والأطفال في مخيم الهول، ومخيم روج، خمسين ألف مسلم، (٩٠٪) منهم نساء وأطفال، تخلىٰ عنهم الجميع، وبعض النساء خلعن الحجاب، وارتدين البنطال، وصوت الأغاني والموسيقىٰ ينبعث من خيامهن وهواتفهن، ومن تتمسك بدينها وحجابها، وتعمل علىٰ تربية أطفال المسلمين تربية إسلامية، علىٰ تعلم القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن والحديث، وتنصح المنحرفات- تلاقي من إدارة المخيم الويلات، فإلىٰ الله المشتكىٰ.

والأطفال بلا رعاية، ولا تربية، ولا توجيه، لا يجدون ما يسترهم من برد الشتاء القارص، وحرارة الصيف المحرقة، أصابتهم الأمراض النفسية، والأوبئة المعدية، يعيشون بلا أب، ولا رعاية أم، فهم عندما يبلغون سبع سنوات، ينتزعونهم من أحضان أمهاتهم إلىٰ مكان بعيد مجهول، فيه كل شيء، لا يدرون ما يفعل بهم، ولا ما ينتظرهم من مصير مجهول؛ بسبب جهل وحماقة، حسبنا الله ونعم الوكيل.

لو هذا ولدك، ولو هذه زوجتك، أترضىٰ لهم هذا الذل والهوان؟

تخيل نفسك وأنت تعيش الآن مع زوجتك وأولادك في راحة وأمان، وفجأة أخذت منك زوجتك، وفارقت أولادك وبناتك الصغيرات، من غير فائدة ولا نكاية في العدو، كل ذلك من أجل ماذا؟ التسرع والعجلة، وغياب فقه مقاصد الشريعة، ثم تجد من يقول لك: تكالب علينا الأعداء من كل مكان، ماذا نفعل؟

أقول لك: تفعل كما فعل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأي دولة لا تقوم علىٰ منهاج النبوة، وتأخذ بأسباب القيام وعوامل الثبات، وتؤسس علىٰ بصيرة وفقه صحيح، يحقق لها مقاصد الشريعة- فهي دولة منهارة قبل أن تبدأ، والنتيجة كما ترىٰ: نساء وأطفال لا ذنب لهم، إلا أنهم صدّقوا واتبعوا أناسًا أحسنوا الظن فيهم، كانوا يحلمون بحياة في ظل الشريعة، والآن يكفرن بهذه الشريعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهل تعلمنا من الدرس؟ هل استوعبنا قول رسول الله صلىٰ الله عليهم وسلم: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»(١)؟ فما بالنا لدغنا مرات ومرات، وما زال الجحر مفتوحًا، لم نحاول حتىٰ سده، أو ردمه، بل نعمل علىٰ توسعته! والله المستعان.

ما هو المطلوب منا الآن؟ المطلوب منا، من كل صادق مخلص في هذا الطريق: أن يجرد الأسباب بصدق، ويجعلها بارزة أمام عينيه، ويذكر الأسباب

---

(١) «صحيح مسلم»، رقم: (٢٩٩٨)، «صحيح البخاري»، رقم: (٦١٣٣).

والنتائج التي ترتبت عليها؛ حتىٰ نقف علىٰ الأسباب ونحولها إلىٰ إيجابيات، ما نجلس كالحريم، نضع أيدينا علىٰ خدنا ونبكي، ما هكذا المسلم! المسلم دائمًا كلما وقع قام، تعثر نعم، أنت تسير في طريق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتكلمنا عن عقبات الطريق، لكن هل هذا يدعوك إلىٰ أن تستسلم؟ هل هذا يدعوك إلىٰ أن تستسلم للواقع، وتجلس تبكي علىٰ حالك، وتستجلب ذكريات الماضي: كنا وكنا وكنا؟ إلىٰ متىٰ؟ إلىٰ متىٰ نستجلب ذكريات الماضي، ونعيش فيها، ونحن لا نستطيع البناء؟

لا بد أن نتقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونصلح أنفسنا من الداخل، ونتعلم من الدروس، ولا نكرر الأخطاء ولو كانت صغيرة، ونصبر ولا نتعجل في مرحلة البناء، ونضبط أنفسنا، وكلما تعلمنا أكثر، ازددنا خبرة وثقلًا، وعرفنا المطلوب منا في هذه المرحلة، إن كنا نريد المشاركة في بناء الدولة الإسلامية؛ أما أننا نتكلم، ونجلس، وهكذا، إذن الوقت يمر علينا ونحن كما نحن.

فهذه دعوة لكم جميعًا، ولكل من يقرأ هذا الكلام، لا بد أن تِقفوا علىٰ الأسباب بصدق، ثم تمحصوها، ثم تحللوها، ثم تناقشوها: من أين أتت؟ وكيف علاجها؟ حتىٰ لا تتكرر؛ لأن -كما ستقرأ الآن- هذه الأسباب، منذ سقوط الدولة الأموية إلىٰ الآن، لم نجد من يعالجها علاجًا دقيقًا، مع تكرُّرِها خلال ألف سنة، هذه الأخطاء تتكرر في كل دولة، والذي يتكلم في أسباب

السقوط يذكر هذه الأسباب، عجبًا! أنت تعجب! الذين يعملون في العمل الإسلامي يذكرون أسباب السقوط، ثم بعد أن تنقضي فترتهم، يقعون في نفس الأسباب، الذي يأتي بعدهم يذكر أنهم وقعوا في نفس الأسباب، وهكذا، ما هذا؟ لماذا لا نقف بصدق؟ لماذا لا نتريث، ونهدأ ونعالج بهدوء، ونتلمس خطىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ عشر سنوات وهو يبني، وعالج؛ لذلك انتهت الدولة النبوية والخلافة الراشدة في قوة، لم يصبها ضعف في ذاتها، بل انتشرت؛ لأنها بُنِيت بعلم وحكمة، نحن كذلك لا نتعجل، نريد بناء علىٰ علم وعلىٰ حكمة في دراسة الواقع.

سائل: ما فهمت ما خطأ الشيخ أسامة؟

الشرح: بعض الإخوة بدؤوا يعملون عمليات في البلاد الإسلامية؛ ردًا علىٰ الحرب بالوكالة التي جعلتها أمريكا للحكومات العربية، فاستفزوا الإخوة، فالأخوة ردوا عليهم بقوة، فلما ردوا عليهم بقوة أصبحت الحرب في البلاد الإسلامية، ليست في أمريكا؛ لأن أمريكا والغرب كانت مهمتهم أن يبعدوا هؤلاء عنهم؛ لأنه لا طاقة لهم بهم، فجروهم إلىٰ هذه المعركة جرًا.

سائل: ولكن إذا كان هؤلاء الطواغيت وجنودهم يقفون أمام المجاهدين، ونحن اليوم نراه في فلسطين، من يمنع الإخوة أن يذهبوا إلىٰ فلسطين،

لمساعدتهم؟ هم الطواغيت وجنودهم، كما هو الحال في مصر وفي كل مكان، فماذا يفعلون؟ يتركون هؤلاء؟

الشرح: لا، لا يتركونهم، يتخيرون الحيل لتفادي هذا المنزلق؛ لأنهم الآن أمام عدو أصلي، والعدو الأصلي هذا فهِم أنه لا طاقة له بالإسلاميين، فماذا يفعل؟ يجعل الحرب بالوكالة لهؤلاء الناس، فيحرض هؤلاء الناس، فبدل أن يتجه الإخوة إلىٰ العدو الأصلي يتجهون إلىٰ البلاد الإسلامية، والبلاد الإسلامية من؟ الجيش والشرطة، الحكام لا يعنيهم الجيش والشرطة، يعنيهم المنصب والوكالة أمام الغرب، وكثير من الناس لا يعرفون هذا، حتىٰ كثير ممن يعمل في الجيش والشرطة لا يعرفون مثل هذه الأمور، عندهم غزو فكري؛ فأنت الآن حوَّلت البوصلة دون أن تدري، وسلاحك الآن حُوِّل إلىٰ غير مناطه، فأنت استُهلِكت في هذا المستنقع، كأنهم أرادوا أن يوقعوك في هذا المستنقع.

انظر إلىٰ الحرب السياسية، عندما تريد أمريكا أن تسقط التحالف السوفيتي ما الذي فعلته؟ فتحت له حربًا، حتىٰ أن من التحليلات السياسية في الواقع الآن، أن روسيا أرادت أن ترد لأمريكا الصاع الذي وقعت فيه، فروسيا تفهم أن أمريكا فتحت عليها مستنقع أوكرانيا، روسيا تفهم هذا، تعرف أن أمريكا هي التي أوقعتها في هذا المستنقع، في الحرب، فروسيا تريد أن توقع نفس أمريكا في هذا الحرب ففتحت لها الحرب في غزة؛ الآن كثير من التحاليل تقول

بأن روسيا هي التي مدت وسهلت وأمّنت ووعدت وغير ذلك، من باب الحرب السياسية.

فعندما تتكرر معنا هذه الأحداث في كل المناطق ألا نتعلم منها؟ نتعلم، فنوجه قوتنا أولًا لهذا الذي يحتل أرضنا وبلادنا، نحررها أولًا، هذا أصل، ثم بعد ذلك نستأصل الرؤوس، الشعب ليس له قيمة، الشعب هو حاضنة لنا، بعد ذلك نتصيد الرؤوس؛ لأن الرؤوس هذه هي التي تحارب بالوكالة عن الكفار، والناس يعرفون هذا، حتىٰ في هذه الأحداث الأمر تجلىٰ واضحًا، أن هؤلاء الحكام هم وكلاء للغرب في بلاد المسلمين، حتىٰ الناس العوام يعرفون هذا، فنحن نتقصد هؤلاء الرؤوس، ثم بعد ذلك نحرر بلادنا، ونقيم شرع ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا قمنا في هذا الموضوع كل الناس ستقوم معنا؛ لأنهم عرفوا حقيقتنا، أما في الأول كانت الآلة الإعلامية تشوه المجاهدين: أنهم متطرفون، إرهابيون، يقتلون النساء والأطفال وو...، أنت ترىٰ هذا، وليس هناك جهاز إعلامي للأخوة، يشوه هذه الأمور.

فلا بد من هذا، لا تُجَر لمعركة يسوقك عدوك إليها وأنت غير مستعد لها، النبي صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما جاء اليهود، وأرادوا أن يفتحوا معه بابًا في وجود الأحزاب، لم يلتفت إليهم، وقال: بيننا وبينكم معاهدة، وهو يعلم

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم سينقضون؛ ولكنه يعلم أنه الآن لا يستطيع أن يفتح هذه الجبهة والأحزاب على الأبواب، ولكن بعدما فرغ من هؤلاء، توجه إليهم، هم كانوا يريدون أن يجروه إلىٰ هذا، فتتوزع قوته، جبهة اليهود وجبهة الأحزاب، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حكيمًا، فعرف هذا، وبدأ يحذِّرهم: لا تفعلوا وكذا. وهو يعلم أنهم سينقضون؛ لكن لا يستطيع في وقت أن يفتح جبهتين، وهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤيد من السماء، ولكنه أخذ بالأسباب، هكذا لا بد.

فنَحْذر دائمًا من أن يجرنا العدو إلىٰ معركة هو حدد مكانها وزمانها، والإخوة بعد ذلك يقولون: نحن جررنا إلىٰ هذا، ولماذا لم يكن هناك ضبط نفس؟ لماذا لم يكن هناك وعي سياسي؟ وما هي النتيجة؟ فقدتم خيرة شباب الأمة، كان هناك جنرالات حرب، خبرة عسكرية عند المجاهدين، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أعلم بها، ذهبت كل هذه القوىٰ، وكان هذا هدفًا مقصودًا، القضاء علىٰ القيادات المؤثرة في العالم الإسلامي، واستهدفوهم بهذا، ما هو الباقي الآن؟ شباب صغير متحمس، ليس له خبرة، يسهل السيطرة عليه، أو إغراقه في هذه المستنقعات؛ الآن هم يضحكون؛ لأنهم يمسكون اللعبة بأيديهم، ونحن للأسف ليس عندنا الوعي والخبرة للخروج من هذا المستنقع، والحفاظ علىٰ ما بقي، وما زالنا نسير في هذا الطريق ومصممون علىٰ هذا الأمر بكل أخطائه.

فالمطلوب أن نتريث، وندرس، ونتعلم ونفقه ونخطط كما هم يخططون، نوقعهم كما هم يوقعون، كل هذا وارد.

المتن:

«زِيَادَةُ الضَّرَائِبِ، وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَعَمَلُ الْحُكَّامِ بِالتِّجَارَةِ: مِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ تَرَدِّيَ الْأَوْضَاعِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَارْتِفَاعَ خَطِّ الْفَقْرِ، مِنَ الْأَسْبَابِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي تُسَاعِدُ فِي انْتِهَاكَاتِ كِيَانَاتِ الدَّوْلَةِ، بِالتَّالِي تَزِيدُ مِنْ خَطَرِ سُقُوطِ الدُّوَلِ وَانْهِيَارِهَا.

الشرح:

لأن الذي يرهق الشعب، هو ليس منهم، هو فقط حاكم عليهم، يلبي طلبات أسياده، ولا يهمه الشعب، فيبدأ يرهقهم بمثل هذه الأمور؛ لأنه ما أتىٰ إلا لمصلحته، وتجارته، وتجارة أبنائه، وبناء الشركات، فالدولة تنهار؛ لأنها ليس عليها واحد منها، ليس منهم، هذا جاء لمصلحته فقط، لا يعمل بإخلاص ولا بصدق، فلا بد أن تنهار.

المتن:

لَقَدْ حَدَّدَ ابْنُ خَلْدُونَ الْمُدَّةَ اللَّازِمَةَ لِإِصْلَاحِ أُمَّةٍ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً. وَأَسَاسُ هَذَا الْإِصْلَاحِ هُوَ التَّرْبِيَةُ وَالتَّعْلِيمُ فَضْلًا عَنْ تَوْفِيرِ الْبِيئَةِ اللَّازِمَةِ لِنَجَاحِ الْإِصْلَاحِ

وَالِاهْتِمَام بِالْعُلَمَاءِ وَتَوْقِيرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَسَاسُ الْإِصْلَاحِ وَالْمَعْرِفَةِ وَأَنَّهُ لَا نُهُوضَ لِلْأُمَمِ إِلَّا بِهِمْ»[(١)].

الشرح:

لأن العلماء هم الذين يربون الناس علىٰ منهج النبوة، والناس دائما تهرب من منهج النبوة؛ لأنه منهج ثقيل، وتبعته ثقيلة، ويحتاج إلىٰ صبر وطول نفس، فالناس ليس عندها هذا، الناس ليس عندها الصبر علىٰ منهج النبوة، تريد فقط العجلة، فالعلماء يربون الناس علىٰ هذا.

الناس الآن لو أبعدوا العلماء، فماذا سيكون الحال؟ انظر الآن، شباب صغير، لا يعرف أصلًا أساسيات الدين، ويتكلم في المسائل الكبار، ويناقش الإخوة المسؤولين، لماذا نفعل هذا؟ ونريد نفعل هذا. وهو لا يدري، لماذا؟ لغياب العلماء، لغياب محاضن التربية، جرأتهم علىٰ الكلام في المسائل الكبار، جرأت الشباب علىٰ الكلام في مسائل يجتمع لها أهل الشورىٰ؛ لغياب العلماء.

فالمحاضن هذه كما ذكرنا، دار الأرقم هي الأساس والأصل، هي التي تربي وتخرج لك جيلًا تربىٰ علىٰ منهج النبوة.

---

(١) «أسباب انهيار الدول في مقدمة ابن خلدون»، للدكتور ليث حسن علوان: (٣٣٧) و (٣٦٢).

وهدف الكفار هو استئصال فئة العلماء؛ حتىٰ يكثر الجهل، ويتخذ الناس رؤوسًا جهالًا.

يسألني أخ يقول لي: نحن نكفر فلأنًا، ونكفر فلأنًا، ونكفر علانًا وعلانًا.

قلت: وماذا بعد أن تكفرهم؟ ما هو مكانك؟

قال: أنا عندي فصيل، خمس إخوة، ونستطيع أن نفعل ونفعل.

خمس إخوة! ويكفر إخوانه العاملين معه في العمل الجهادي! وبعد أن تقتلوا أنتم الخمسة، ماذا قدمت أنت؟

هذه نماذج كثيرة، انظر إلىٰ السبب، ما الذي جعل هذه الولدة تنبت في الأرض؟ غياب أهل العلم، غياب المنهج العلمي، غياب المنهج النبوي في التربية، أَخْرَجَ مثل هؤلاء، وهؤلاء في كل مكان، إما في أرض الجهاد؛ أو بين الناس.

فإذا نُحِّيَ العلماء، خرجت الرؤوس الجهال، فإذا قادت الأمةَ الجهالُ، فما النتيجة؟

إذا كان الغراب دليل قوم *** (كلام غير واضح...) الباقين بالخرابِ

المتن:

وَقَدْ لَخَّصَ بَعْضُ الدُّعَاةِ أَسْبَابَ السُّقُوطِ وَالِانْهِيَارِ فِي عِشْرِينَ سَبَبًا:

«١- تَعَصُّبُ الدَّوْلَةِ لِتَيَّارٍ عِرْقِيٍّ أَوْ فِكْرِيٍّ وَإِهْمَالُ الْقَاعِدَةِ الشَّعْبِيَّةِ كَمَا فَعَلَتِ الْأُمَوِيَّةُ مَعَ الْعَرَبِ وَفَعَلَتِ الْعَبَّاسِيَّةُ مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ.

٢- انْصِرَافُ الْخُلَفَاءِ إِلَىٰ التَّرَفِ وَاللهوِ وَتَحْتَ أَقْدَامِهِمْ أُمَمٌ يَسْحَقُهَا الْفَقْرُ وَيَقْتُلُهَا الْجُوعُ وَالْأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ.

الشرح:

يعني: الاعتداد بالعرق وبالوطن وبالشعب، هذا كله زوال وانهيار للأمم، الدولة الأموية كانت تقرب الجنس العربي، وتستعلي به علىٰ القبائل العربية والعجمية، والدولة العباسية فعلت العكس، فبدل أن تستفيد من خطأ الدولة الأموية، وتقرب الناس علىٰ مبدأ التقوىٰ والورع، عملت العكس، الأموية كانت تقرب العريف، أنا أقرب العجم، فأدخلوا المعتزلة، وترجموا كتب فلاسفة اليونان (هنا انقطع الصوت! الصوتية ١٧ الدقيقة: ٥٣ إلىٰ: ٥٤)، ولولا أن قيض الله لهذه هارون، لذابت الدولة الإسلامية، قضىٰ عليهم في ليلة واحدة، قضىٰ عليهم تمامًا.

سائل:...

الشيخ: من العجم.

السائل:...

الشيخ: مختلفون كالترك.

فبدؤوا يدخلون، حتىٰ وصلوا إلىٰ فصل الدولة، وبدؤوا يتكلمون في عزل الخليفة وتوليته وزواجه، يتزوج من هذه أو يتزوج من هذه، انظر إلىٰ التأثير! وأملاكهم أصبحت تضاهي الخليفة، حتىٰ العبيد والأملاك تضاهي الخليفة، في يوم وليلة أصبحوا عدمًا، قتلهم جميعًا، وسجنهم، وسلب أموالهم وقصورهم، بعد أن كانوا هم رأس الدولة، فانظر هذا، فالغفلة هي التي أدت إلىٰ هذا، اليقظة هي التي تقضي علىٰ هذا.

لذلك يا إخواني، اقرؤوا التاريخ، أنتم عندكم موسوعات تاريخية، اقرؤوها من باب أن تأخذوا منها الدروس والعبر، ليست قصصًا وحكايات للتسلية، هذه دروس، هذا فيه عبر، نحن لم نضع الكتب لنزين بها، لا، هذا كنز، اقرأ وتدبر الأحداث كيف كانت، والعبر هذه مهمة جدًا؛ لأن الناس كانوا يتحكمون في الدولة، مفاصل الدولة يتحكمون فيها، والكل كبيرًا وصغيرًا يعلم هذا، تخيل! والخليفة منبسط ومغيب، وفي غفلة، فلما أفاق، وبدأ يصدر قرارًا، وبدأ يرىٰ تكلفة في تنفيذه، قال: ما الذي (كلمة غير واضحة) أمر الخليفة؟ من هذا؟ فنظر فإذا التحويرات والتسويفات، في ليلة واحدة أبرم أمره، وفي الليل قبض عليهم جميعًا. حتىٰ يسميها «نكسة البرامكة»، اقرؤوها في التاريخ، عجيبة هذه! والله لو أخذنا منها العبرة، لأقمنا دولة لا يستطيع أحد القضاء عليها.

المتن:

٣٣- عَزْلُ الْخَلِيفَةِ عَنِ الشَّعْبِ مِنْ قِبَلِ بِطَانَتِهِ، وَقِيَامُهُمْ بِإِدَارَةِ الْبِلَادِ بِاسْمِهِ، كَمَا فَعَلَ الْأَتْرَاكُ فِي أَوَاخِرِ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَغَيْرُهُمْ.

٤- تَنَافُسُ أَبْنَاءِ الْأُسَرِ الْحَاكِمَةِ عَلَى الْمُلْكِ كَمَا حَدَثَ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ، وَأَوَاخِرِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَبَعْضِ فَتَرَاتِ الْعَبَّاسِيَّةِ بَيْنَ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ.

الشرح:

الحرب علىٰ الملك يغري الكفار، وانظروا إلىٰ الكفار، أنتم تقولون: بلادهم بعيدة عنا. لا والله، إنهم يضعوننا تحت المجهر، انظر لما حصلت الفتنة بين سيدنا علي وسيدنا معاوية، ماذا قال الكفار في ذلك الوقت؟ سكتوا؟ لم اسكتوا، أرسلوا لسيدنا معاوية قالوا: «قد علمنا أن صاحبك قد جفاك، ونحن نأتيك بجيش، ننصرك علىٰ علي»، ماذا فعل معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؟ أرسل لهم قال: «والله يا ابن الكافرة لأتصالحن مع ابن عمي، وآتيك بجيش استلب به ملكك»[١]، فرعبه، وخوّفه، هذا مسلم، فلم يجدوا له، هذا علىٰ مستوىٰ الدول، وأنا أريد أبين لك أن هؤلاء لا يغفلون عنا، سواء أكانوا دولًا أم أفرادًا، فهذه دولة معاوية وعلي، وعلىٰ الأفراد: انظر لما حصل مع كعب[٢]، واحد فقط، لكنهم يعرفون منزلته في الأمة، أَرسَلوا لكعب في عهد النبي

(١) لم أجد الأثر.

(٢) «مسند أحمد»، رقم: (٢٧١٧٥)، «صحيح البخاري»، رقم: (٤٤٠٠).

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رسالة، وقال: «علمنا أن صاحبك قد جفاك»، يعني: محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، «فالحق بنا نواسك»، هو لا يعرف قدرك، الحق بنا نعطك قدرك، وهل هم يحتاجونه؟ هم يريدون أن يشقوا الصف ويأخذوه ورقة يضغطون بها، وبعد ذلك يحرقونها، كما يفعل الكفار الآن مع الحكام العملاء، يستخدمونهم لمصالحهم، فإذا انتهت (***كلمة غير واضحة) ينقلبون عليهم بانقلاب باغتيال بأي شيء، قال: «الحق بنا نواسك»؛ فلك مكانة عندنا، ماذا فعل كعب -رضي الله عنه وأرضاه-؟ قال: «وأما هذا فمن الابتلاء» ويمم بها إلىٰ التنور، إلىٰ الفرن، أحرقها، قال: «وأما هذا من الابتلاء» ما هو الابتلاء؟ هذا أشد أنواع الابتلاء، أشد أنواع الابتلاء أن يطمع فيك الكافر، يقول: حتىٰ يطمع فيَّ الكافر، أن أذهب إليه! انظر إلىٰ هذا الابتلاء! قال: «وهذا من الابتلاء»، فيمم بها التنور، ما أعطىٰ لنفسه فرصة لأن يقرأها مرة أخرىٰ، تخلص من الفتنة مباشرة؛ حتىٰ يقطع الفتنة -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالشاهد: هم يتربصون بنا، ونحن في غفلة من هذا، نهتم بأنفسنا، ونشتغل ببعضنا، وهم منشغلون بنا.

المتن:

٥- تَخَلِّي الدَّوْلَةِ عَنْ قِيَادَةِ الْعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ وَانْشِغَالُهَا بِشُؤُونِهَا الْمَحَلِّيَّةِ؛ مِمَّا سَمَحَ لِلْأَعْدَاءِ بِالتَّغَلْغُلِ فِيهَا كَمَا حَدَثَ فِي أَوَاخِرِ الْعُثْمَانِيَّةِ.

الشرح:

الدولة العثمانية فتحت الامتيازات للدول الغربية، وبدأت كل دولة تدخل بامتيازاتها، الدولة محتاجة، ولكن هذا الاحتياج جعلهم يمدون أيديهم الىٰ الكفار، فكانت فرصة للكفار، فبدؤوا يأخذون امتيازات، نريد بناء كنيسة للجالية، نريد مقرًا للجالية، نريد مركبًا لكذا، وهكذا، فبدؤوا يأخذون خطوات، فتدخلت فيها الدول الكافرة وأسقطتها، هذا كذلك.

المتن:

٦- تَحَوُّلُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ مِنَ الْحُبِّ الْمُتَبَادَلِ، إِلَىٰ التَّوَجُّسِ وَالرِّيبَةِ وَالْبُغْضِ. وَتِلْكَ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ!!

الشرح:

العداوة بين الحاكم والمحكوم، المفروض أن الحاكم يقي الله في رعيته، ويعاملهم بالحب، والعدل، والرحمة، والرعية هؤلاء يظنون في الراعي أنه صاحب دين وخلق وأمانة، ففُقِدت هذه الثقة تمامًا، فكانت العداوة، وأذكىٰ هذه العداوة الكفار، فحصلت الفرقة.

المتن:

٧- إِحْيَاءُ رُوحِ التَّعَصُّبِ الْقَبَلِيِّ بَيْنَ أَفْرَادِ الشَّعْبِ وَاسْتِبْدَالُ الْوَلَاءِ لِلْقَبِيلَةِ بِالْوَلَاءِ لِلْحُكْمِ. وَتِلْكَ خَطِيئَةُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ!

الشرح:

أنها جعلت الولاء للدولة هو الأصل، هذه أموية، ولما جاء الحجاج من ثقيف، قدَّم الدولة علىٰ القبيلة، حتىٰ قتل أقرانه، فهذا تعصب شديد.

المتن:

٨- ضَعْفُ الِاهْتِمَامِ بِالْجَيْشِ، وَتَأَخِيرُ أُعْطِيَاتِ الْجُنْدِ؛ مِمَّا يَجْعَلُ الْقُوَّةَ الْعَسْكَرِيَّةَ تَقُومُ بِرَدِّ فِعْلٍ عَكْسِيٍّ، وَهُوَ مَا حَدَثَ فِي خِلَافَةِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ مَثَلًا.

الشرح:

مروان بن محمد هذا آخر خليفة في الدولة الأموية، ماذا فعل؟ استأثر بالذهب والأموال دون الشعب، ولم يعط رواتب الجند، مع أن الروافض أوعزوا إليه، وقالوا: «سرح الجند، نحن في أمان، ولا داعي للجند»، لذلك يا إخواني أريد أن تقرؤوا تاريخ الروافض، تاريخ أسود مع المسلمين، ابن العلقمي هذا هو السبب في دخولهم إلىٰ بلاد الإسلام، وكان رافضيًا، فقالوا: «الدنيا فيها أمان، ولا داعي لهذه الأعداد الكبيرة من الجيش، سرح؛ حتىٰ الخزينة تكون فيها شيء»، وبدؤوا يغرونه، أنت أولىٰ بهذه الأموال، وهم كانوا يعرفون صناديق الأموال، انظر ماذا فعلوا؟ بعد أن وزعوا الجيش وسرحوه، فتحوا البلاد للتتار، وبعد ذلك أخذوا هذا الخليفة، وبدؤوا يأخذون كل الأموال والصناديق محملة، عجب التتار من هذا، كيف تكون هذه الأموال في دولة بهذا الانهيار؟ ثم بعد ذلك أخذ مروان وهرب، وبدأ يأخذ هذه الأموال

ويوزعها علىٰ الناس، حتىٰ يحاربوا، ركلوا الأموال، قالوا: ما قيمة الأموال وفي دولة منهارة؟ نأخذها ثم يأتون التتار يقتلوننا، ما فائدتها؟ ألم يكن الأولىٰ أن تنفقها علىٰ الجيش وتقوية الدولة، بدل أن تستأثر بها لنفسك؟![1] هذا سبب.

(ينبغي أن تصاغ الفقرة السابقة فقد وقع فيها خلطٌ بين قصة مروان بن محمد آخر خليفة أموي، والمعتصم بالله الخليفة العباسي الذي قتله التتار).

المتن:

٩- التَّهَاوُنُ فِي تَنْفِيذِ مَطَالِبِ الْإِصْلَاحِ؛ مِمَّا يُقَوِّي الْمُعَارَضَةَ وَيُجَرِّؤُهَا. وَتَهَاوُنُ بَنِي أُمَيَّةَ بِثَوْرَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ خَيْرُ مِثَالٍ.

الشرح:

الذي هو تأمين الجبهة الداخلية، الدولة العباسية أقامت لها دعوة سرية في خراسان علىٰ يد أبي مسلم الخرساني، والدولة الأموية في غفلة، حتىٰ دخلوا الكوفة وهم في غفلة، تخيل! وما فوجئوا إلا وهم علىٰ رؤوسهم، فلا بد من تأمين الجبهة الداخلية، تأمين الجبهة الداخلية مهم جدًا.

من أقوىٰ أسباب الثبات: تأمين الجبهة الداخلية، ومن أقوىٰ أسباب الضعف: انهيار الجبهة الداخلية.

المتن:

---

(١) انظر قصة المعتصم بالله، آخر خلفة عباسي، في «البداية والنهاية»: (١٧/ ٣٥٧-٣٥٨).

١٠- الدَّوَلَ الْإِسْلَامِيَّةُ تَحْدِيدًا تَبْدَأُ بِالضَّعْفِ كُلَّمَا ابْتَعَدَتْ عَنْ مَنْهَجِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ مَا حَدَثَ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ عِنْدَ اتِّجَاهِهَا نَحْوَ الْبِدَعِ الْمُخْتَلِفَةِ.

الشرح:

لما دخلت البدع، وبناء القبور، والأضرحة، والأفكار الشاذة من الغرب، في الدولة، ثم بعد ذلك بدؤوا يتقربون إلىٰ هذه الأضرحة والقبور، وانتشر الشرك والبدع في الدولة، أصبح الناس عندهم خواء عقدي، ما عندهم عقيدة يقاتلون من أجلها، فبدأ الانهيار من الداخل، من أين بدأ؟ من الانهيار العقدي في المجتمع، من انتشار البدع والخرافات، فالناس بدأت تعتمد علىٰ الرؤىٰ والأحلام والخرافات هذه، وقالوا: الله ناصرنا، وغير ذلك، ولم يأخذوا بأسباب القوة والنصر.

فانتشار البدع وغياب التوحيد: من أقوىٰ أسباب الانهيار.

المتن:

١١- مَكْرُ الْأَعْدَاءِ وَتَرَبُّصُهُمْ وَكَثِيرًا مَا كَانَ أُولَئِكَ يَخُونُونَ عُهُودَهُمُ الَّتِي قَطَعُوهَا لِلْحُكَّامِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْ مَصَالِحِهِمْ فَقَطْ!

الشرح:

وقد بينا من قبل أن الركون إلىٰ الكفار ليس فيه فائدة إلا القضاء علىٰ الإسلام، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: {وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ}،

والله سبحانه قال: {وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ}، فهذا أصل عندك، كيف تسمع كلامهم؟ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بين لنا هذا، {وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}، فكيف تأمن هؤلاء؟ كيف تظن بهم خيرًا؟ والعاقل لا يظن بأهل الفجور خيرًا، فما بالك بأهل الكفر؟! فهذه غفلة.

المتن:

١٢- فِي الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَثَلًا كَانَتِ الِامْتِيَازَاتُ الَّتِي تُمْنَحُ لِلْأَجَانِبِ سَبَبًا فِي نِقْمَةِ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ الَّذِين يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِخَيْرَاتِ بِلَادِهِمْ!

الشرح:

وهذا دائمًا يؤلب الشعب علىٰ الحكام، أنهم يرون خيرات الشعب تذهب إلىٰ الكفار، ونحن في فقر، وضيق، وعنت، وخيرات البلاد كثيرة، ولكنها تذهب إلىٰ الكفار، هذا يجعل الشعب يسخط.

وهذه كانت من أسباب بعض العمليات التي قام بها أهل الإسلام في بلاد الإسلام، عندما وجدوا أن اليهود يدخلون بلاد الإسلام بدون تأشيرة، وبدون أي شيء، ويقضون فيها فسحهم، ويقضون فيها أغراضهم، وأهل البلد يُمنَعون من دخول هذه المنطقة، وإذا دخلتها فبتصريح وبشق الأنفس، في حين أن اليهود يدخلون كما يقولون: (تيكاويه) استراحة، فجرأ هذا بعض الإخوة الجهاديين علىٰ أن يترصدوا هؤلاء اليهود ويقوموا بعملية ضدهم.

البلد فيها خير كثير، والخير يذهب إلىٰ الكفار وإلىٰ الأعداء، ونحن في فقر.

فهذا كله من أسباب عدم الاستقرار.

المتن:

١٣- التَّخَلُّفُ الْعِلْمِيُّ وَالتُّكْنُولُوجِيُّ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مَا جَرَّأَ الْأَعْدَاءَ عَلَىٰ دَوْلَةِ بَنِي عُثْمَانَ تَحْدِيدًا!

الشرح:

أن الدولة لم تأخذ بأسباب التقدم العلمي، الذي كان منتشرًا في أوروبا، وانكفأت علىٰ نفسها، وقالت: عندي ما يكفيني. في حين أن العدو يطور نفسه وأنت مكانك.

المتن:

١٤- الْخِيَانَةُ الدَّاخِلِيَّةُ مِنْ بَعْضِ الْوُزَرَاءِ وَاتِّفَاقُهُمْ سِرًّا مَعَ الْعَدُوِّ الْخَارِجِيِّ، وَقَدْ أَبْدَىٰ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْحَمِيدِ اسْتِغْرَابَهُ مِنْ تَفَشِّي ذَلِكَ فِي عَهْدِهِ.

الشرح:

كثُرت الخيانات في الدولة العثمانية، والتواصل مع الكفار؛ لضعف الدولة داخليًا، واستمالة هؤلاء الكفار بالأموال الضخمة للرؤوس الذين يؤثرون في صنع القرار؛ لذلك لما اكتشف السلطان عبد الحميد هذه الخيانة، استغرب، كيف تأتي هذه الخيانات من الداخل؟! وهذا ما حصل في الدولة السعودية

الثانية، الاقتتال علىٰ الملك، حصلت ثلاثون عملية انقلاب من داخل آل سعود، ثلاثون عملية انقلاب علىٰ إمارة نجد؛ من ماذا؟ من تهاوي وضعف البنية التحتية للدولة، واختراقها من العدو.

المتن:

١٥- تَهَاوُنُ الْحُكَّامِ فِي اسْتِقْلَالِ أُمَرَاءِ الْمَنَاطِقِ وَالْأَقَالِيمِ الْبَعِيدَةِ، وَتَرْكِ إِدَارَتِهَا لَهُمْ بِالْكَامِلِ. وَالدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ خَيْرُ مِثَالٍ.

الشرح:

التي هي عدم مراقبة الولاة، وقد ذكرنا ذلك في أول هذا الكتاب، «مراقبة الجهاز الإداري للدولة»، الدولة توسعت، والولاة في كل مكان، ولا تتابعهم الحكومة ولا الخليفة، فكل والٍ استقل بمنطقته، هو أدرىٰ بها، ما المطلوب؟ أنا أعطي للخليفة في نهاية السنة الخراج، هذا الذي عندي، وأنا أستأثر بكل خيرات البلد.

فعدم المتابعة هذا يجرئ الحكام؛ لذلك كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يبقي في الولاية أكثر من سنة، وانظر إلىٰ سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الملهم استفاد من الفرس والروم، استفاد من الفرس والروم، فوجد عندهم نظامًا ودواوين، فأنشأها في بلاد الإسلام، هو الذي أنشأ الدواوين، دون الدواوين، وأنشأ الجند، ونظام الجند، وأوقف الأوقاف، ما المانع أن استفيد

مما عند الكفار، مما يخدم الإسلام؟ فعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أصل هذا، وقال: حتىٰ لا يستأثر الولاة، هي سنة، إلا أبا موسىٰ، جعله أربع سنوات. فمراقبة الجهاز الإداري مهم جدًا.

المتن:

١٦- فِي الدُّوَلِ: الْأُمَوِيَّةِ، وَالْعَبَّاسِيَّةِ، وَالْعُثْمَانِيَّةِ، كَانَ لِلرَّافِضَةِ دَوْرٌ بَارِزٌ فِي إِسْقَاطِ الْخِلَافَةِ وَالتَّحَالُفِ مَعَ الْأَعْدَاءِ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ تَارِيخِيَّةٌ!

١٧- الظُّلْمُ أَحَدُ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ إِلَىٰ سِهَامِ الْمَظْلُومِينَ الَّتِي تَصْعَدُ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَدْلِ -سُبْحَانَهُ-.

الشرح:

يعني: عندما ينتشر الظلم في الرعية، والشعب يصبح مقهورًا لا حول ولا قوة، يلجؤون إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يدعون علىٰ هؤلاء الظلمة، والسهام هذه تصعد إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا من أقوىٰ أسباب الانهيار، الظلم، وقهر الرعية.

المتن:

١٨- التَّرَهُّلُ الْإِدَارِيُّ، وَاتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ: أَحَدُ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ كَذَلِكَ؛ لِفُقْدَانِ الْحَاكِمِ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ وَظَائِفِ الدَّوْلَةِ الْحَيَوِيَّةِ وَمُتَابَعَتِهَا.

١٩- تَخَاذُلُ الْعُلَمَاءِ عَنِ الْقِيَامِ بِالنُّصْحِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمَقَّرِيُّ (١) أَنَّ دَوْلَةَ الْأَنْدَلُسِ كَانَتْ تَتَهَاوَىٰ وَلَم يُسْمَعْ فِي مَسْجِدٍ صَوْتُ مُذَكِّرٍ أَوْ دَاعٍ!

الشرح:

هذه كانت أكبر أسباب سقوط الأندلس، ولا أدري لماذا لم يستفد منها من يريد بناء الدولة؟! الدولة الأندلسية كانت قوية عندما أخذت بأسباب القوة، ثم بعد ذلك الترف بدأ يسري فيها، حتىٰ من ترفهم أنهم خرجوا لقتال النصارىٰ بحلل الذهب والفضة، خرجوا يقاتلون وهم عليهم حلل الذهب والفضة، كيف يقاتلون؟! فذبحهم النصارىٰ ذبحًا؛ من الترف والترهل في الحياة، ثم بعد ذلك الترف في الحياة بدأ يغريهم بالملك، والاستيلاء علىٰ الملك، فأصبح هدفهم الملك فقط، ثم بدأ هذا الملك لا يكون توسعه علىٰ حساب بلاد الكفار، بل توسعته علىٰ حساب الممالك والطوائف الأندلسية الذين بجوارك، فبدل أن توسع ملكك علىٰ حساب الكفار توسعه علىٰ حساب إخوانك المسلمين! فأنت تحارب المسلمين حتىٰ تستولي علىٰ ملكك فقط،

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيىٰ، أبو العباس المقري التلمساني المؤرخ الأديب الحافظ، ولد سنة (٩٩٢ هـ) ونشأ في تلمسان (بالمغرب)، وانتقل إلىٰ فاس، فكان خطيبها والقاضي بها، ومنها إلىٰ القاهرة سنة (١٠٢٧) وتنقل في الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفي بمصر سنة (١٥٨٤ هـ)، وقيل: توفي بالشام مسمومًا.

وَالْمِقَرِّي نِسْبَة إِلَىٰ مَقَّرَة (بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة)، من قرىٰ تلمسان (ولاية جزائرية).

فاستولىٰ عليهم النصارىٰ، وأسقطوا دولة الأندلس التي كانت منارة علم في العالم كله.

المتن:

٢٠- ضَعْفُ الِاقْتِصَادِ وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبْرَزِ أَسْبَابِ ابْتِعَادِ الْقَبَائِلِ عَنْ حُكَّامِ الدَّوْلَةِ السُّعُودِيَّةِ الثَّانِيَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَفُوا لَهُمْ بِاحْتِيَاجَاتِهِمُ الْمَادِّيَّةِ»[1].

الشرح:

الدولة السعودية لما قامت يا إخواني، قامت بتكاتف القبائل، وكانت الدولة تغير علىٰ الجيران وتأتي بالغنائم، والصحيح أنها توزعها علىٰ الناس، وكان رؤساء القبائل كل واحد له عطية من الدولة، بدأت الدولة السعودية الثانية تستأثر بهذا، ثم بعد ذلك تنازع الأمير سعود والأمير عبد الله أبناء فيصل بن تركي، وتنازعا علىٰ الملك، هذا في (١٢٩٥) هجرية، ثم بعد ذلك انقسمت الدولة قسمين: قسم مع عبد الله، وقسم مع سعود، ثم بعد ذلك القبائل انقسمت، من يعطينا أكثر؟

ثم بعد ذلك لجأ سعود إلىٰ الدولة العثمانية، واستعان بها، ثم استعان عبد الله بجيرانه من البحرين ونجد وغير ذلك، وقامت الحرب بينهما، لذلك ألف الشيخ حمد رسالته في هذا الموضوع رسالة (***كلمة غير واضحة...)

(١) تغريدات نايف القرقاح حول أسباب سقوط الدول.

كان هو سبب تأليف هذه الرسالة، أنه بدأ يلوم سعود: كيف تذهب إلىٰ هؤلاء، ثم بعد ذلك بدأ يسمي الدولة العثمانية (كفار ومشركون)، وسعود كذلك يسمي هؤلاء (ضلال ومبتدعون)، وبدأت هذه الحرب بينهما.

ثم لما رأىٰ أخوهم الأصغر عبد الرحمن ذلك، انقض علىٰ الحكم، وأخذ الحكم، وكان هذا سبب سقوط الدولة في سنة (١٣٠٩).

فسقطت الدولة الثانية لما جاء ابن رشيد، وكان تابعًا للدولة العثمانية، واستولىٰ علىٰ مملكة نجد، وطرد عبدالرحمن بن تركي، الذي هو أبو عبد العزيز، وذهب هائمًا علىٰ وجهه في الصحراء، ثم بعد ذلك لجأ إلىٰ آل صباح في الكويت، وبدأ يعاونه، وبدأ يكون، ثم أرسلت له الدولة العثمانية راتبًا هو وأسرته، أرسلت له أعطيات هو وأسرته، ثم لما بدأت الأمور تضعف بعد ذلك، قام عبدالعزيز ومعه مجموعة من الرجال من الكويت، وخرجوا ودخلوا قصر الرئاسة في نجد، وطردوا ابن رشيد منها، وبعدها أعلن عبد العزيز قيام الدولة أو الإمارة، إمارة آل سعود، ثم بعد عشر سنوات بدأ يؤسس لهذه، وبدأ يستعين بالإنجليز، وبدؤوا يعطونه السلاح والمال وغير ذلك، ثم استعان الإخوان (إخوان من أطاع الله)، وكانوا مجاهدين، بدأ يستغلهم، نحن نحكم الشريعة، ونحن نقوم بدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حتىٰ جيش هؤلاء البدو لمحاربة من حوله، واستتباب مملكة عبد العزيز.

فلما بدأ عبد العزيز يسيطر علىٰ هذا، بدأ الإنجليزي يتدخلون، ويقولون: وأين هؤلاء سيذهبون؟ وهم يعرفون قوة المجاهدين، فأرادوا أن يتخلصوا من المجاهدين، ويستولوا علىٰ عبد العزيز، فدبروا له معركة السبلة، وجاء بالمدافع الإنجليزية وقتل كل المجاهدين.

ثم بعد أن قتلهم جميعًا، أعلن عبد العزيز توحيد المملكة، ودخل الحجاز (مكة والمدينة)، وأعلن بعد ذلك اسمه، العلماء قالوا: سماها المملكة العربية الإسلامية، قال: لا، هذه نسميها علىٰ قبيلتنا وجماعتنا، العلماء عارضوا، كيف تسميها؟ وهي كانت تسمىٰ قبل ذلك (مملكة نجد)، ولم يكن ذكر اسم سعود فيها، فقالوا: كيف تسميها، ونحن ما عهدناك إلا علىٰ الجهاد في سبيل الله، وشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ فبدأ بعد محاورات ومجاذبات، سماها (المملكة العربية السعودية)، فبدل الإسلامية سماها السعودية، وهذا من التعصب القبلي الذي جاء في هذه المسألة، وأقام هذه المملكة، بدل أن تكون المملكة العربية الإسلامية، جعلها المملكة العربية السعودية، حتىٰ أن كثيرًا من الناس لا ينتمون إليها، يقولون: نحن لسنا من آل سعود، نحن قحطانيون، نحن عدنانيون، نحن عتيبيون، كيف تنسبوننا إلىٰ غير نسبنا؟ وكان هذا هو محور الصدام بين عبد العزيز وبين الإخوان (إخوان من أطاع الله)، ثم دبر هذه المقابلة.

فانظر إلىٰ الملك كيف كان يؤثر، سمىٰ دولة علىٰ اسم قبيلة، انظر إلىٰ الجبروت والتعصب! واستغل الإسلاميين والجهاديين المتعطشين للشريعة في تثبيت ملك أسرة، وليس ملك دولة!

المتن:

وَكُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَسْبَابٍ لَا يَخْرُجُ عَنْ:

الْبُعْدِ عَنِ الشَّرِيعَةِ وَتَرْكِ الْجِهَادِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ مِمَّا كَانَ سَبَبًا وَاضِحًا فِي ضَعْفِ الْوَازِعِ الْإِيمَانِيِّ عِنْدَ النَّاسِ، وَقِلَّةِ الْفِقْهِ بِالدِّينِ وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ؛ مِمَّا كَانَ سَبَبًا فِي انْتِشَارِ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ وَالتَّفَسُّخِ، وَالْبُعْدِ عَنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ، وَالظُّلْمِ، وَالتَّرَفِ، وَالرُّكُونِ إِلَىٰ الْكُفَّارِ، وَتَوْلِيَةِ الْفَسَقَةِ وَالْفَجَرَةِ، وَإِقْصَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّقْوَىٰ وَالشُّورَىٰ، وَخِيَانَةِ الْمُبْتَدِعَةِ، وَالتَّغَافُلِ عَنْ أَسْبَابِ التَّقَدُّمِ وَالْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ.

إِنَّ سَبَبَ الْفَشَلِ الْمُعَاصِرِ لِلْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَمْ تَكُنْ جُزْءًا مِنْ مُعَادَلَةِ الْمُوَاجَهَةِ.

الشرح:

هذا مهم جدًا، أكبر سبب لفشل الحركات المعاصرة في نظري: هو أن الأمة لم تكن جزءًا من هذه المعادلة، حيدوها تمامًا، إما بأفكار متطرفة، أو بجهل،

أو بعدم وعي، أو بعدم ادراك القوة الكامنة في المسلمين، كل هذا أدىٰ إلىٰ هذا، وفي النهاية حيدوا الحاضنة الشعبية من المعركة؛ لذلك حصل ما حصل.

المتن:

فَقَدْ كَانَتِ الْحَرَكَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَعْزِلُ الشَّعْبَ، أَوْ تَنْعَزِلُ عَنْهُ، وَلَا تَقِفُ عَلَىٰ مُتَطَلَّبَاتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ وَمَا يَحْتَاجُهُ مِنْ مُقَوِّمَاتِ حَيَاتِهِ لِيَعِيشَ حَيَاةً كَرِيمَةً آمِنًا مُطْمَئِنًّا.

الشرح:

انتبه لهذا، الاهتمام بالناس يؤثر فيهم جميعًا، والإحسان إلىٰ الناس يؤثر حتىٰ لو جميع المغريات، انظر مثلًا إلىٰ المجاهدين، كانوا يحسنون إلىٰ الناس، وكانوا يتابعون الفقراء، وكانوا يأتون بالمظالم، وكانوا يربون الأطفال، وكانوا يعطونهم هدايا في الأعياد والمناسبات وغير ذلك، وكانوا يترفقون بهم؛ انظر الآن، هذه المواقف ما زالت تذكر للإخوة، حتىٰ بعد كل هذه ما كانت تذكر للإخوة، كثير من الإخوة يقولون لي: كان فيها خير وكذا وكذا وكذا، وكانت تعمل كذا وكذا وكذا وكذا، يذكرون هذه الخيرات، من باب الإحسان إلىٰ الناس، الإحسان إلىٰ الناس هذا مهم جدًا، أن تؤثر في الحاضنة الشعبية بالإحسان والقيام علىٰ متطلباته، ماذا يريدون؟ ماذا يحتاجون لا تكون أنت في معزل عنهم، وتكون أنت بعيدًا عن متطلباتهم، لا، أنت تكون معهم، في وسطهم، لا تنعزل، تعيش همومهم وجراحاتهم. هذا مهم جدًا.

المتن:

وَسَنُفَصِّلُ فِي أَسْبَابِ سُقُوطِ كُلِّ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْبَحْثِ وَالِاهْتِمَامِ. وَلَا حَرَجَ مِنْ أَنْ نُعَرِّجَ عَلَىٰ أَسْبَابِ سُقُوطِ بَعْضِ الدُّوَلِ الْكَافِرَةِ لِلْعِبْرَةِ.

الشرح:

هذا مهم جدًا، إهمال الأسس التي قامت عليها الدولة الإسلامية في العصر الأول، عندنا سياسة لتحقيق المصالح، السياسة الشرعية لتحقيق المصالح، وكذلك عندنا القضاء، لتحقيق العدل، القضاء هذا مهم جدًا في السياسة الشرعية لتحقيق العدل، أنت لو غبت عن السياسة الشرعية لتحقيق المصالح، وغبت عن القضاء لتحقيق العدل بين الناس، فكيف تقوم الدولة؟ كذلك الاجتهاد في النوازل، كيف تقوم الدولة؟ كذلك الجهاد؛ لصد العدوان، كيف تقوم الدولة؟ إذن هذه مقومات الدولة الإسلامية، أنت أهملتها أو تجاوزتها، كيف تقام لك دولة؟ فلا بد من هذه المراحل المهمة جدًا في مرحلة القيام.

انتهينا من أسباب السقوط، سقوط الدول، وأخذنا منها الدروس والعبر، وكيف نتعامل معها في الواقع الذي نعيشه الآن؟

ثم بعد ذلك سنتكلم عن أسباب فشل الحركات الإسلامية في إقامة دولة إسلامية، أو خلافة إسلامية علىٰ منهاج النبوة علىٰ مدار هذه السنوات الطوال.

الهدف من هذا هو أننا ندرس هذه الأسباب دراسة وافية، بمعنىٰ أننا عندما ندرس هذه الأسباب لا تمر علينا مرور الكرام، بل لا بد أن نتأمل فيها، ونمحصها، ونتدبرها، لماذا؟ حتىٰ نعمل بها، ونتلاشىٰ الأسباب التي أدت إلىٰ فشل.

والأسباب متكررة، كما رأينا، في خمس خلافات إسلامية سقطت، الأسباب مشتركة، والعجب أنها تتكرر في كل دولة وكل خلافة، لماذا؟ ليس هناك دراسة جدية، وصبر، وتحمل، واستلهام حياة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، العامل المشترك مع كل هذه الأمور: هو العجلة، انظر إلىٰ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ما كان فردٌ في الأمة أحرصَ منه علىٰ إقامة دولة، ومع ذلك أخذها بتؤدة، وأخذها ببطء، وأخذها بتربية متينة؛ حتىٰ يستطيع أن يبني علىٰ هذا البناء سنوات طوال إلىٰ يوم القيامة.

فغياب المآل، وفقه السياسة الشرعية، والوعي السياسي، والعجلة، والضغط الواقعي علىٰ الناس، الواقع يضغط أحيانا علىٰ المسؤولين؛ فيجعله

يتعجل الخطوات، أو يتعدىٰ المراحل، لا، أعط كل مرحلة قدرها الذي أنت أعطيته، لا تجعل الواقع يضغط عليك، فتُعدّي مرحلة قبل أن تنضج، هذا سيأتي بعد ذلك بالخلل علىٰ المجموعة.

المتن:

اَلدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ: (٦٩٩هـ - ١٣٤٣هـ)

اَلْعُثْمَانِيُّونَ مِنْ شَعْبِ الْغُزِّ التُّرْكِيِّ، وَأَصْلُهُمْ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِسْتَانِ، نَزَحُوا أَمَامَ اكْتِسَاحِ جِنْكِيز خَان لِدَوْلَةِ خَوَارِزْم اَلْإِسْلَامِيَّةِ، بِزَعَامَةِ سُلَيْمَانَ الَّذِي غَرِقَ أَثْنَاءَ عُبُورِهِ نَهْرَ الْفُرَاتِ، سَنَةَ (٦٢٨هـ).

فَتَزَعَّمَ الْقَبِيلَةَ ابْنُهُ أَرْطُغْرُل، الَّذِي سَاعَدَ عَلَاءَ الدِّينِ السَّلْجُوقِيَّ فِي حَرْبِ الْبِيزَنْطِيِّينَ، فَأَقْطَعَهُ وَقَبِيلَتَهُ بُقْعَةً مِنَ الْأَرْضِ فِي مُحَاذَاةِ بِلَادِ الرُّومِ، غَرْبِيَّ دَوْلَةِ سَلَاجِقَةِ الرُّومِ. وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ حَادِثَةٌ جَلِيلَةٌ، تَدُلُّ عَلَىٰ مَا فِي أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الشَّهَامَةِ وَالْبُطُولَةِ.

وَيُعْتَبَرُ عُثْمَانُ بْنُ أَرْطُغْرُل هُوَ الْمُؤَسِّسُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَبِهِ سُمِّيَتْ؛ عِنْدَمَا اسْتَقَلَّ بِإِمَارَتِهِ سَنَةَ (٦٩٩هـ).

وَأَخَذَتْ هَذِهِ الْإِمَارَةُ عَلَىٰ عَاتِقِهَا حِمَايَةَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَوَلَّتْ قِيَادَةَ الْجِهَادِ، وَأَصْبَحَتِ الْمُتَنَفَّسَ الْوَحِيدَ لِلْجِهَادِ؛ فَجَاءَهَا كُلُّ رَاغِبٍ فِيهِ.

الشرح:

وهذا هو الأصل في المسلمين، عندما يرون دولة ترفع علم الجهاد، فكل مسلم يسارع إليها، هذا يدلك علىٰ فطرة الجهاد في المسلمين.

وكان موقع قبيلة الكاي يحتم عليها الجهاد؛ لأنها كانت متاخمة للحدود بين بلاد المسلمين والصليبيين، فكان لا بد من مناوشات؛ فهذه البيئة جعلتهم مجاهدين بالفطرة، وزرعت فيهم النخوة، والرجولة، والجهاد، والاستشهاد في سبيل الـله؛ لأنهم لم يروا غير هذا، لم يروا غير الصليبيين أمامهم، فلا بد من الجهاد، ولا بد من توسع الدولة الإسلامية.

فالنشأة لها دور، انظر الآن إلىٰ الطفل الذي نشأ في فلسطين، والطفل الذي نشأ في مصر، أو في أي بلد آخر، تجد فرقًا، حتىٰ في المهابة، في الشجاعة، في مقابلة الأعداء، وغير ذلك، الطفل في أي بلد آخر عندما يرىٰ أمن الدولة أو الشرطة يرتعد؛ أما الطفل في فلسطين يواجه اليهود، وهم بسلاح.

فالبيئة لها دور في تكوين شخصية المسلم، لذلك انظر إلىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما كان يأتيه من الإعراب، ويأتيه من البدو، الذين لم يختلطوا بنوع من الرفاهية، تجد عندهم العزة، والأنفة، والخشونة، والصلابة، وقوة التحمل، هذا وكلهم عرب، ولكن البيئة لها دور في تكوين شخصيتهم.

لذلك لو كنا نريد أن نربي أفرادنا علىٰ هذا، فلا بد أن نعزلهم عن حياة الترف، لا بد أن نجعلهم في محضن يربيهم ويعلمهم أن العدو الأول للجهاد

هو الترف، لا بد أن ينقدح في أذهاننا هذا، العدو الأول للجهاد: هو الترف والتعلق بمتاع الدنيا، أيًّا كان متاع الدنيا؛ أما إذا تخلصت من هذا، وجعلت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غايتك، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيزهدك في الدنيا؛ لأنك لا تتعلق بشيء، أنت تتطلع إلىٰ أن تجاهد جهادًا نبويًّا، فتقتل، فتدخل الجنة، هذه غايتك، تتخلص من كل أعباء هذه الدنيا.

فالبيئة لها دور في تكوين شخصية المسلم.

المتن:

وَفِي عَامِ (٩٢٣هـ) اِنْتَقَلَتِ الْخِلَافَةُ الشَّرْعِيَّةُ لِسَلِيمٍ الْأَوَّلِ؛ بَعْدَ تَنَازُلِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَىٰ اللـهِ آخِرِ خَلِيفَةٍ عَبَّاسِيٍّ فِي الْقَاهِرَةِ.

الشرح:

كان اسمها سلطنة، لم تكن خلافة، فلما دخل سليم الأول مصر، ووصل إلىٰ معركة مرج دابق، بين (قانصوة الغوري)، وبعد ذلك دخل في معركة مع ابن أخيه (طومان باي)، وسقطت القاهرة، ثم بعد ذلك انتهت الدولة المملوكية- تنازل السلطان العباسي المنتصر بالله، تنازل عن الخلافة الإسلامية للسلطان سليم الأول، فهنا انتقلت الخلافة الشرعية من الخلافة

العباسية إلىٰ الخلافة العثمانية، بتنازل الخليفة العباسي، وبدأت تتوحد هذه البلاد.

وهذا العصر الفعلي للجهاد الإسلامي في الخلافة العثمانية، كان الهم الأساسي في هذه الفترة، هو الجهاد والتوسع في بلاد الإسلام، وغزو الكفار في بلادهم، ثم بعد ذلك لما جاء سليم القانوني، ومراد الثاني، بدأت الامتيازات الأجنبية تدخل البلد، وبدأ الكفار يخططون كيف يسقطون هذه الدولة التي تجمع المسلمين تحت رايتها، وكل المسلمين يهاجرون إليها، بدؤوا يخططون علىٰ المدىٰ البعيد.

لذلك نقول دائمًا: فقه المآل هذا، لا تستغربه أبدًا، الكفار يعملون علىٰ فقه المآل منذ خمسين سنة ومئة سنة، يعني: يخططون الخطط لخمسين سنة قادمة، ولا يستعجلون، فيضعون خططًا ومراحل، ثم ينفذونها، هم أو أجيالهم، فهم يتوارثون مثل هذا الفقه، ونحن أولىٰ به.

فبدؤوا يخططون لهذه الدولة، بدؤوا أولًا يغزونها من الداخل، يعني: بالجواسيس، بالعملاء، بالخونة، وبدأت الدولة تترهل داخليًا من الخونة، وكل أخبار الدولة هناك، ثم بعد ذلك أقعدوها عن التصنيع، والتطور التكنولوجي؛ حتىٰ تتخلف، ثم بعد ذلك جاء سليمان القانوني ووضع القانون الوضعي، الذي هو مثل القانون الفرنسي وغير ذلك، الصدر العزم الذي هو

شيخ الإسلام في الدولة، لم يستطع أن يرد الرد الوافي، بدأ يتكلم بكلمات لا تغني ولا تسمن من جوع، والكفار في نفس الوقت يغزون الدولة من الداخل، حتىٰ توصلوا إلىٰ أنه لا بد من القضاء علىٰ هذه الدولة، ففعلوا ذلك في الحرب العالمية الأولىٰ، فقالوا: لا بد أن يكون لكِ دور. مع أن الأصل أن هذه الحروب كانت بين الكفار، الحرب العالمية الأولىٰ والحرب الثانية، يعني: لا دخل لبلاد الإسلام في ذلك، ولكنهم خططوا لذلك، وأرادوا أن يسقطوها ويوزعوا أراضيها؛ لأنها كانت توغلت في أوروبا شرقًا وغربًا، فأريدوا أن يوزعوا هذه الأراضي؛ فأدخلوها في الحرب العالمية قسرًا، ثم بعد ذلك وجدوا الذريعة لتقسيم أراضي المنهزمين، ومنهم الدولة العثمانية، فوجدوا طريقة لتقسيمها وتفتيتها، وبدأوا يحددون الحدود بين هذه، التي أنت تراها الآن، وأصبحت دويلات.

بعد أن أصبحت دويلات، لم يتركوا هذا الأمر، بل بدؤوا ينصبون الوكلاء في بلاد الإسلام من عندهم، يعني: بدؤوا يختارون المناسب الذي يستطيع أن يخدم مصالح الكفار في بلاد العرب، اليهود العرب، النصارىٰ العرب، هم منا، ومن بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ولكنهم وكلاء للغرب في بلاد المسلمين، نصبوهم لذلك، نصبوهم لهذا الغرض، أن يكونوا هم وكلاء في بلاد الإسلام.

وانتشرت هذه الدويلات، وهذه الدويلات دويلات صليبية، لا تمت للإسلام بصلة، هذه المظاهر التي تراها هي فقط لامتصاص غضب الشعب؛ حتىٰ لا يقولوا: نحن غير مسلمين، ولكن انظر إلىٰ الأحداث، مثلًا: عندما يظهر يهودي ويقول أن الرئيس فلان، هو صهيوني أكثر منا، يهودي أكثر منا، علىٰ ماذا يدلك هذا؟ يدلك علىٰ أنهم وكلاء.

فمن هنا أتىٰ الضعف في الدولة العثمانية.

المتن:

وبِهَذِهِ الْعَاطِفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَأَجِّجَةِ فِي نُفُوسِهِمْ، مُمْتَزِجَةً بِالرُّوحِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْمُتَأَصِّلَةِ فِي كِيَانِهِمْ؛ حَمَلُوا رَايَةَ الْإِسْلَامِ، وَأَقَامُوا أَكْبَرَ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَرَفَهَا التَّارِيخُ فِي قُرُونِهِ الْمُتَأَخِّرَةِ، وَبَقِيَتِ الْحَارِسَ الْأَمِينَ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَرْبَعَةَ قُرُونٍ.

وَأَطْلَقُوا عَلَىٰ دَوْلَتِهِمْ اسْمَ (بِلَادِ الْإِسْلَامِ)، وَعَلَىٰ حَاكِمِهَا اسْمَ (سُلْطَان)، وَكَانَ أَعَزَّ أَلْقَابِهِ إِلَيْهِ (الْغَازِي) أَيِ: الْمُجَاهِدُ، وَاللَّفْظَانِ (الْعُثْمَانِيُّ) وَ(التُّرْكِيُّ) فَهُمَا مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْحَدِيثَةِ.

وَحَكَمَتْ بِالْعَدْلِ، بَالْعَمَلِ بِالشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَىٰ لِتَكْوِينِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ.

نَعَمْ، إِنَّ الْعُثْمَانِيِّينَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا مَنْصِبًا فِي عَهْدِ سَلَاطِينِهِمُ الْفَاتِحِينَ، وَوَسَّعُوا رُقْعَةَ بِلَادِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَانْدَحَرَتِ الْأَطْمَاعُ الصَّلِيبِيَّةُ أَمَامَهُمْ، وَحَقَّقَ اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ هَزِيمَةَ قَادَةِ الْكُفْرِ وَالتَّآمُرِ عَلَىٰ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَارْتَجَفَتْ أُورُوبَّا خَوْفًا وَفَزَعًا مِنْ بَعْضِ قَادَتِهِمْ- أُولَئِكَ كَانَتِ الرُّوحُ الْإِسْلَامِيَّةُ عِنْدَهُمْ عَالِيَةً، وَكَانَتْ رُوحُ الِانْضِبَاطِ الَّتِي يَتَحَلَّىٰ بِهَا الْجُنْدِيُّ عَامِلًا مِنْ عَوَامِلِ انْتِصَارَاتِهِمْ، وَهِيَ الَّتِي شَجَّعَتْ مُحَمَّدَ الثَّانِيَ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِفُتُوحَاتِهِ. وَكَانَتْ غَيْرَتُهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ شَدِيدَةً، وَكَثُرَ حَمَاسُهُمْ لَهُ.

الشرح:

من شدة حماسهم في هذه الفترة بالذات، فكان السلاطين لم يتأثروا بحياة الترف والغرب، فكان الجهاد في دمهم، وكانوا يتابعون أحوال العالم الإسلامي، حتىٰ عندما حصلت مجزرة محاكم التفتيش في الأندلس، أرسل الخليفة العثماني مجموعة من جنوده لاستخلاص المسلمين في الأندلس، وأخذهم إلىٰ الجزائر، حتىٰ لما وصلوا الجزائر، وجدوا حاكم الجزائري خائنًا، فبدؤوا يقاتلونه ويخرجون المسلمون من عندهم، فكانت يدهم طولىٰ في مثل هذه الأمور، في هذا العهد بالذات، قبل أن تتدهور، وقبل أن يصيبها المرض، وقبل أن تدخل فيها القبور، والأضرحة، والقوانين الوضعية، والامتيازات الأجنبية، وبدأ الكفار يديرون الدولة من الداخل بالخيانة، حتىٰ جاء أتاتورك وبدؤوا يلمِّعونه؛ فالحرب كانت قائمة، والجيش العثماني بدأ

ينهزم، فإنجلترا كانت تريد أن تلمع أتاتورك، فكيف تفعل؟ جعلته يدخل في معركة، ثم ينتصر فيها، ينتصر فيها قصدًا، هو ليس له في الجهاد، وليس له في القتال، ولكن كانت هذه خطة لتلميعه ورفعه بين الناس، فلما كادت الجيوش العثمانية تنهزم، ظهر أتاتورك، الفارس، المنقذ، المجاهد، وانهزم الكفار أمامه، ثم بعد ذلك لم يُصب أرضًا، ولكن جعل اتفاقية، هذه الاتفاقية بالاتفاق مع الغرب- مقتضاها أن يسقط الخلافة، ويكوِّن دولة ديمقراطية علمانية، علىٰ مستوىٰ العالم، ويتنحىٰ الإسلام من المشهد تمامًا.

وكان الشعب في هذه المرحلة مهيَّئًا لاستقبال هذا البطل؛ لأن هذا صنيعة الغرب، وهذا الانتصار مزيف (مصنوع)، ولكنّ كثيرًا من الناس لا ينتبهون إلىٰ التفاصيل، بل يرون فقط الصورة الظاهرة: هذا هو القائد الذي أنقذنا، وأنقذ تركيا وو...، فبدؤوا يمجدونه بذلك، فلما جاء بهذه الخطة، لم يعارضه أحد أبدًا؛ لأنهم يرونه منقذًا، الذي كان أنقذ تركيا، ولولاه لقضىٰ الكفار عليها، لذلك يسمونه «أبو تركيا»، ضع عليه كل الألقاب، لكن في الحقيقة هي صنيعة.

فلا بد من بيان مثل هذه الحقائق للأجيال القادمة، كيف صنعوا هذا الصنم وهذا الطاغوت؟

المتن:

لَقَدْ بَدَأُوا حَيَاتَهُمُ الْإِسْلَامِيَّةَ بِرُوحٍ طَيِّبَةٍ، وَسَاعَدَتْهُمُ الْحَيَوِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْضَبُ؛ إِذْ إِنَّهُمْ شَعْبٌ شَابٌّ جَدِيدٌ لَمْ تَفْتِنْهُ مَبَاهِجُ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ وَالثَّرَاءُ، وَلَمْ يَنْغَمِسْ فِي مَفَاسِدِ الْحَضَارَاتِ الْمُضْمَحِلَّةِ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحُوهَا؛ وَلَكِنَّهُمْ اسْتَفَادُوا مِنْهَا، فَأَخَذُوا مَا أَفَادَهُمْ.

وَكَانَتْ عِنْدَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ التَّحَكُّمِ، وَالْفَتْحِ، وَالِانْتِصَارِ.

وَقَدْ أَتْقَنُوا نِظَامَ الْحُكْمِ، وَخَاصَّةً فِي عَصْرِ الْفَاتِحِ، إِذْ كَانَ هُنَاكَ نِظَامٌ وُضِعَ لِاخْتِيَارِ الْمُرَشَّحِينَ لِتَوَلِّي أُمُورِ الدَّوْلَةِ بِالِانْتِقَاءِ وَالِاخْتِيَارِ وَالتَّدْرِيبِ وَالثَّقَافَةِ، كَمَا كَانُوا يُشَدِّدُونَ فِي اخْتِيَارِ مَنْ تُؤَهِّلُهُ صِفَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ، وَالْحِسِّيَّةُ، وَمَوَاهِبُهُ الْأُخْرَىٰ الْمُنَاسِبَةُ لِشَغْلِ الْوَظَائِفِ.

الشرح:

هم كانوا يديرون الدولة بهذا النظام، كانوا يديرونها بالصالح، بالأولىٰ، وكان عندهم في هذا النظام مجموعةٌ من العقلاء، يختارون من هو أصلح، علىٰ هذا الأساس، وكانوا يراقبون الجهاز الإداري للدولة، وكانوا لا يتهاونون في الأخطاء، حتىٰ (كلمة غير واضحة) القتل.

إلىٰ هنا بدأت الأمور تستقيم، وفتحوا البلاد فعلًا، وكانوا مصدر رعب للكفار، كان لديهم جيش ضخم جدًا، أي بلد يدخلوها يفتحوها، ثم لما رأوا الهزيمة الداخلية في هذه البلد، بدؤوا من الداخل، فبدؤوا يغرونهم بالمُلك

والسلطان، فبعد انتصار محمد الفاتح، وفتح القسطنطينية، وو...، بدؤوا يقضون عليها شيئًا فشيئًا، فاستحدثوا نظام الانفراد بالحكم، وقتل الإخوة، أنت ملك فلا بد أن تقتل إخوانك، الذين هم أشقاء لك؛ حتىٰ لا ينازعوا أبناءك في الملك، وهذا أمر خطير، كيف تستوعب عقولهم هذا؟! لكن كما قلنا قبل ذلك: «الملك عقيم».

المتن:

وَكَانَ السُّلْطَانُ رَأْسَ الْحُكْمِ، وَمَرْكَزَهُ، وَقُوَّتَهُ الدَّافِعَةَ، وَأَدَاةَ تَوْحِيدِهِ وَتَسْيِيرِهِ، وَهُوَ الَّذِي يُصْدِرُ الْأَوَامِرَ الْمُهِمَّةَ، وَالَّتِي لَهَا صِبْغَةٌ دِينِيَّةٌ، وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَىٰ كَسْبِ رِضَاءِ اللهِ، وَعَلَىٰ احْتِرَامِ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ، فَكَانَ الْعُثْمَانِيُّونَ يُحِبُّونَ سَلَاطِينَهُمْ، مُخْلِصِينَ لَهُمْ، مُتَعَلِّقِينَ بِهِمْ؛ فَلَمْ يُفَكِّرُوا لِمُدَّةِ سَبْعَةِ قُرُونٍ فِي تَحْوِيلِ السُّلْطَةِ مِنْ آلِ عُثْمَانَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ.

وَلَكِنَّ الْأُمُورَ لَمْ تَسْتَمِرَّ عَلَىٰ الْمَنْهَجِ نَفْسِهِ وَالْأُسْلُوبِ الَّذِي اتَّبَعُوهُ مُنْذُ بُزُوغِ نَجْمِهِمْ فِي صَفَحَاتِ التَّارِيخِ الْمُضِيءِ فَقَدْ بَدَأَ الْوَهَنُ وَالضَّعْفُ يَزْحَفُ إِلَىٰ كِيَانِهِمْ.

📖📖📖

عَوَامِلُ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ:

١- تَمَكُّنُهَا مِنِ اسْتِقْطَابِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ السُّكَّانِ؛ نَتِيجَةَ اتِّبَاعِهَا لِسِيَاسَةِ التَّسَامُحِ، وَالْعَدَالَةِ، وَالْعَفْوِ، مَعَ الرَّعَايَا الْمَسِيحِيِّينَ.

الشرح:

هذا لم ينضبط شرعًا، فأخذوا العفو والتسامح وسيلة للعمالة والجاسوسية، استغلوا هذه الصفة في الدولة، وغفلوا عن مراقبة الجدد الذين يدخلون في الدولة، فتكونت بسبب ذلك جماعة يهود الدونما مع اليهود، وبدؤوا يفعلون مثل هذه الأمور، حتىٰ جعلوا لهم مكانًا في فلسطين.

لولا هذه الغفلة التي يسمونها التسامح، ما كان لهم يد أبدًا في مثل هذا الأمر.

المتن:

٢- قُوَّةُ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي الْحُرُوبِ لِاسْتِخْدَامِهَا لِلْبَارُودِ، وَالْمِدْفَعِيَّةِ.

٣- اِتِّبَاعُ سِيَاسَةِ الْوِلَايَاتِ، حَيْثُ اعْتَمَدَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ عَلَىٰ تَقْسِيمِ الْمَنَاطِقِ إِلَىٰ وِلَايَاتٍ، وَوَضْعِ حَاكِمٍ لِكُلِّ وِلَايَةٍ مِمَّا سَهَّلَ الْحِفَاظَ عَلَىٰ الْأَمْنِ، وَسَهَّلَ عَمَلِيَّةَ التَّوَاصُلِ، وَالْحُكْمِ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَنْطِقَةٍ.

٤- تَوْطِيدُ أَقْدَامِ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي قَارَّةِ أُورُوبَّا.

٥- اَلِازْدِهَارُ فِي كَافَّةِ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ: الزِّرَاعِيَّةِ، وَالصِّنَاعِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ.

٦- الْحُكْمُ ضِمْنَ مَبَادِئِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

٧- اَلْإِمْكَانِيَّاتُ الِاقْتِصَادِيَّةُ الْهَائِلَةُ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ.

٨- اَلْأَهَمِّيَّةُ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةُ لِمَوْقِعِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ تَحْتَ حُكْمِهَا.

٩- اَلسَّيْطَرَةُ عَلَىٰ أَهَمِّ الْمَعَابِرِ الْبَحْرِيَّةِ، وَالطُّرُقِ الْبَرِّيَّةِ.

أَسْبَابُ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ:

إِنَّ الدَّوْلَةَ الْعُثْمَانِيَّةَ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهَا كَانَتْ تَسِيرُ عَلَىٰ شَرْعِ اللهِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، مُلْتَزِمَةً بِمَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي مَسِيرَتِهَا الدَّعْوِيَّةِ وَالْجِهَادِيَّةِ، آخِذَةً بِشُرُوطِ التَّمْكِينِ وَأَسْبَابِهِ كَمَا جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ.

أَمَّا فِي أَوَاخِرِ عَهْدِهَا فَقَدِ انْحَرَفَتْ عَنْ شُرُوطِ التَّمْكِينِ، وَابْتَعَدَتْ عَنْ أَسْبَابِهِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ...

الشرح:

إذن عندما فَتحتْ أوروبا، وفَتحتْ بلادَ الكفار، ودخل فيها المسلمون، كانت متمسكة بشرع الله، ومتمسكة بالسنة النبوية، والشريعة الإسلامية، ومكنتها هذه الصفة من زيادة عدد جنودها، واتساع أراضيها، وكل شيء، فلما تخلت عن هذا بعوامل الضعف التي قلنا: لا تأتي فجأة، بل تأتي تباعًا وأنت لا تدري- حصل الضعف الوهن.

المتن:

تَرْجِعُ هَذِهِ الْأَسْبَابُ فِي نَظَرِي إِلَىٰ:

١- مُخَالَفَةِ مَنْهَجِ اللَّهِ:

فَالدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ مُنْذُ أَنْ قَامَتْ كَانَتِ الْعَاطِفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ جَيَّاشَةً قَوِيَّةً، فَلَمَّا تَبِعَهَا التَّرْبِيَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَالتَّدْرِيبُ السَّلِيمُ لِلنِّظَامِ الْعَسْكَرِيِّ الْجَدِيدِ؛ كَانَتِ الْقُوَّةُ، وَكَانَ الْفَتْحُ، وَكَانَ التَّوَسُّعُ.

فَلَمَّا ضَعُفَتِ التَّرْبِيَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ زَادَتْ أَعْمَالُ السَّلْبِ، وَالنَّهْبِ، وَالفِسْقِ وَالْفُجُورِ، وَاسْتَمَرَّ الِانْحِرَافُ، وَظَهَرَتْ حَرَكَاتُ الْعِصْيَانِ، وَفَقَدَتِ الدَّوْلَةُ هَيْبَتَهَا؛ بِسَبَبِ انْصِرَافِ السَّلَاطِينِ إِلَىٰ مَلَذَّاتِهِمْ، وَانْتِشَارِ مَظَاهِرِ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ.

٢- تَشْجِيعُ الصُّوفِيَّةِ:

فَالَّذِي لَا يُخْطِئُهُ النَّظَرُ أَنَّ الْفِكْرَ الصُّوفِيَّ الْمُنْحَرِفَ، كَانَ أَحَدَ أَهَمِّ أَسْبَابِ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ تَارِيخَ الْعُثْمَانِيِّينَ؛ يُدْرِكْ أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ لِسُقُوطِهِمْ هُوَ ابْتِعَادُهُمْ تَدْرِيجِيًّا عَنِ الْعَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ الصَّافِيَةِ، الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَاسْتِبْدَالُهَا بِعَقَائِدِ الْخُرَافِيِّينَ وَالْقُبُورِيِّينَ مِنْ حَامِلِي لِوَاءِ التَّصَوُّفِ، وَبِنَاءُ الْأَضْرِحَةِ وَالْقُبُورِ الَّتِي تُزَارُ، وَالْقِبَابِ فِي الْمَسَاجِدِ.

٣- عَدَمُ اتِّخَاذِ الْإِسْلَامِ مَصْدَرًا أَسَاسِيًّا لِلتَّشْرِيعَاتِ وَالْقَوَانِينِ وَالْأَنْظِمَةِ الَّتِي تَسِيرُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ: ...

الشرح:

هنا تبديل شرع الله بدأ، والبعد عن العقيدة الصافية بدأ، فلا بد أن يأتي الانهيار، بعدت عن الشريعة، وبعدت عن شرع الله، فلا بد أن يأتي الانهيار، {فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} في الدنيا، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، أمران لا ثالث لهما، هذه عقوبة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فعندما ترىٰ بلدًا كان يحكم بالإسلام، وبالشريعة، ويرفع لواء الشريعة، ثم ترىٰ فيه الفسق والفجور يعلو، فاعلم أن هذا إيذانًا بنهايته.

وقلت لكم أن دولة الجزيرة الآن بدأت في الانهيار؛ لأنها أعلنت بالفسق، والفجور، ومحاربة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشرعه في الأرض، بسجن العلماء وطردهم، وتقريب الفسقة والكفار إلىٰ أرضهم، كل هذا إيذان أن هذه الدولة بدأت تنهار شيئًا فشيئًا، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حكم عدل، هذه سنة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، {وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا}، هذا لا بد.

المتن:

فَكَثُرَ إِصْدَارُ التَّشْرِيعَاتِ وَالْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، فِيمَا سُمِّيَ بِالتَّجْدِيدَاتِ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ الضُّغُوطِ الْأُورُوبِيَّةِ.

الشرح:

يعني: الكفار لما دخلوا في شؤون البلد، بدؤوا يفرضون عليهم القوانين، بعد أن كانت الدولة العثمانية تفرض القوانين علىٰ أوروبا، وتلزمها بشعائر الإسلام، وتأخذ بها الامتيازات؛ الآن لما ضعفت، بدأ الكفار يضغطون علىٰ الدولة، لازم أن تفعلي كذا، وتفعلي كذا، وتفعلي كذا، مثل بدعة صندوق النقد الدولي تمامًا، يُمنّيك بكل شيء، ثم بعد أن تقترض منه بالربا، يفرض عليه سياساته، وهذه السياسات ليست من عنده، بل يتحكم فيها الكفار واليهود؛ حتىٰ يذلوا الدول الإسلامية.

المتن:

٤- اَلْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ الَّتِي شُنَّتْ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ وَالَّتِي لَمْ تَنْقَطِعْ مُنْذُ ظُهُورِهَا إِلَىٰ يَوْمِ انْهِيَارِهَا.

الشرح:

هذا ليس سببًا حقيقيًا، ولكن لو كانت الدولة متمسكة، ولم تسمح للكفار بدخولها؛ كانت هذه الحروب الصليبية والجهاد يزيدها قوة، كما كان يزيد أجدادهم الذين بنوها، ولكن مع علىٰ الحروب الصليبية من ناحية، والغزو الفكري من ناحية أخرىٰ، بدأت الدولة تضعف.

فالمشكلة ليست في الحروب، فالحروب جهاد ينميك ويربيك، المشكلة في الغزو الفكري الذي أنت سمحت أن يتغلغل في الدولة الإسلامية، فبدأ يغير

عقيدة الشباب شيئًا فشيئًا وأنت لا تدري، الأفكار تتغير وأنت لا تدري، فهذا كان السبب، الذي هو السماح بالأفكار المنحرفة في الدولة، فبدأت تنهار شيئًا فشيئًا.

المتن:

٥- تَوَسُّعُ رُقْعَةِ الدَّوْلَةِ:

شَغَلَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوْجِ قُوَّتِهَا وَتَوَسُّعِهَا مَسَاحَةً مِنَ الْأَرْضِ تَزِيدُ عَنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِلْيونًا مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ، وَالْأَمْرُ يَخْتَلِفُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ؛ إِذْ أَنَّ سِيَاسَةَ دَفَّةِ الْحُكْمِ فِي عَهْدٍ كَانَتْ مُوَاصَلَاتُهُ وَسَائِلُهَا الدَّوَابُّ، وَالْعَرَبَاتُ، وَبَرِيدُهَا يَسْتَغْرِقُ الشُّهُورَ الطَّوِيلَةَ، وَالسِّنِينَ، وَقَدْ تَحَصَّنَتْ بِالْحَوَاجِزِ الطَّبِيعِيَّةِ: مِنْ أَنْهَارٍ، وَبِحَارٍ، وَجِبَالٍ، وَغَيرِهَا.

وَالظَّنُّ أَنَّ إِعْلَانَ الْحَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدَةَ وَالْعِصَابَاتِ الْمُتَكَرِّرَةَ فِيهَا، رُبَّمَا يَكُونُ فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ، كَمَا أَنَّ إِخْمَادَهَا أَيْضًا فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ.

وَلَمْ تَحْتَفِظِ الدَّوْلَةُ بِتَمَاسُكِهَا عَلَىٰ الرُّغْمِ مِمَّا أَصَابَهَا مِنْ زَلَازِلَ وَنَكَبَاتٍ طِيلَةَ سِتَّةِ قُرُونٍ؛ إِلَّا بِفَضْلِ عَامِلِ الدِّينِ وَرَابِطَةِ الْعَقِيدَةِ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ ظُهُورِ مَنِ اسْتَهَانَ بِهَا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ هُنَا وَهُنَالِكَ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَجَرَّأْ عَلَىٰ إِعْلَانِ بَتْرِهَا أَوْ إِلْغَائِهَا؛ إِذْ أَنَّ رَابِطَةَ الْعَقِيدَةِ أَهَمُّ عَامِلٍ حَاسِمٍ فِي كِيَانِ الْأُمَمِ، وَقَدِ اسْتَطَاعَتْ تِلْكَ الرَّابِطَةُ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ، وَالْكُرْدِ وَالشَّرْكَسِ، وَالشِّيشَانِ

وَالدَّاغِسْتَانِ وَغَيْرِهِمْ، لِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ، حَتَّىٰ قَامَ أَعْدَاءُ هَذَا الدِّينِ وَفَرَّقُوا شَتَاتَ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ؛ بِإِثَارَةِ الْعَصَبِيَّةِ الْإِقْلِيمِيَّةِ الَّتِي وَصَفَهَا الرَّسُولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهَا مُنْتِنَةٌ.

٦- اَلْحَرَكَاتُ الِانْفِصَالِيَّةُ وَالتَّمَرُّدَاتُ الْمَحَلِّيَّةُ:

نَتِيجَةً لِلتَّفَوُّقِ الصَّلِيبِيِّ قَامَتْ أُورُوبَّا بِحَبْكِ الْمُؤَامَرَاتِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَدَفَعُوا الدُّمَىٰ الْمُصْطَنَعَةَ مِنْ طُلَّابِ الزَّعَامَةِ، وَغَذَوا أَوْكَارَ الْحَاقِدِينَ وَالْجَهَلَةِ، وَشَجَّعُوا عَلَىٰ الْعِصْيَانِ.

٧- أَصْبَحَ سُفَرَاءُ الدُّوَلِ الْغَرْبِيَّةِ يَتَدَخَّلُونَ فِي الشُّؤُونِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ.

٨- اَلِامْتِيَازَاتُ الَّتِي كَانَتْ تُمْنَحُ لِلْأَجَانِبِ اعْتِبَاطًا بِسَخَاءٍ وَكَرَمٍ لَا مُبَرِّرَ لَهُمَا، بَلْ كَانَتْ تُمَثِّلُ التَّفْرِيطَ بِحَقِّ الْوَطَنِ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ، فَقَدْ مَنَحَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ، وَهِيَ فِي أَوْجِ عَظَمَتِهَا وَسُلْطَانِهَا- امْتِيَازَاتٍ لِدُوَلٍ أَجْنَبِيَّةٍ؛ جَعَلَتْهَا شِبْهَ شَرِيكَةٍ مَعَهَا فِي حُكْمِ الْبِلَادِ؛ وَلَا أَرَىٰ سَبَبًا لِهَذَا الِاسْتِهْتَارِ إِلَّا الْجَهْلَ وَعَدَمَ تَقْدِيرِ الْأُمُورِ قَدْرَهَا الْحَقِيقِيَّ، وَتَقْدِيرِ قُوَّةِ وَدَهَاءِ الدُّوَلِ الَّتِي مُنِحَتْ هَذِهِ الِامْتِيَازَاتُ، وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَهِينُ بِعَدُوِّهِ مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا وَضَعِيفًا.

الشرح:

أصل الهزيمة: الاستهزاء بالعدو، أن تستهزئ بعدوك وتستصغره، حتىٰ وإن كان صغيرًا، يعني: حتىٰ وإن كان صغيرًا في نظرك، فلا يجوز لعاقل أن يستهين بعدوه، بل يأخذ له كل الاحتياطات، ويكبره أكبر من حجمه؛ حتىٰ يدخل عليه بهذه القوة، فإذا كان أهلًا لها، قضىٰ عليه، وإلا كان القضاء عليه سهلًا، فهم استصغروا هذه، وأحسنوا الظن بالكفار، وبدؤوا يعطونهم امتيازات، فأنت عندكِ قوة، وعندك سلطة، وعندك جيش لا عدد له، لماذا تعطي الامتيازات للكفار في البلاد؟! دخل عن طريق النساء -وسيأتي معنا-، ودخل عن طريق التخطيط الماكر للكفار في إسقاط هذه الدولة، فلم يسقطوها في يوم وليلة، بل أسقطوها علىٰ مدار سبعين سنة، وهم يفكرون كيف يسقطونها؟ علىٰ مدار سبعين سنة، وبعد سبعين سنة، بدأ السقوط والانهيار، فوضعوا خطة والتزموا بتنفيذها، للأسف نحن لم نضع خطة، ولم نسع في تنفيذها.

المتن:

٩- اَلْجَيْشُ الْإِنْكِشَارِيُّ:

هُوَ الْجَيْشُ الَّذِي أَنْشَأَهُ السُّلْطَانُ أُورْخَانْ بِاخْتِيَارِ أَفْرَادِه مِنْ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ الْأُورُوبِيَّةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَتَلْقِينِهِمْ مَبَادِئَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَوَضْعِهِمْ فِي ثَكَنَاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ، وَتَدْرِيبِهِمْ عَلَىٰ فُنُونِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ.

وَلَقَدْ أَبْلَىٰ ذَلِكَ الْجَيْشُ بَلَاءً حَسَنًا فِي كَافَّةِ الْمَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا الْعُثْمَانِيُّونَ إِبَّانَ قُوَّتِهِمْ، فَكَانُوا يَنْدَفِعُونَ كَالْأُسُودِ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ، وَكَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ فِي تَرْجِيحِ كِفَّةِ النَّصْرِ فِي الْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ يَوْمَ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعَارِكِ الشَّهِيرَةِ.

الشرح:

هذا الجيش كوَّنه أورخان من المسلمين الذين يأتون من البلاد الأوروبية والعربية وغير ذلك، فجنسياتهم مختلفة، وبدأ يربيهم تربية خاصة في مكان منعزل، يربيهم علىٰ القتال والجهاد فقط، لا يعرفون أي شيء من ملذات الحياة إلا القتال والجهاد.

وهذا الجيش الإنكشاري كان القوة الضاربة للدولة العثمانية، انظر لما هذا الجيش كبر عن حجمه، وفقدوا السيطرة عليه، هو الذي كان سببًا في القضاء علىٰ الدولة، يعني: «سمن كلبك يأكلك»، أنت ربيته، ولكن لم تربه علىٰ مبادئ الولاء والسمع والطاعة، أنت ربيته للقتال فقط، ففقدان العنصر العقدي، يمكن غيرك من تطويره للقتال، ولكن ضدك؛ لأنه ليس هناك عقيدة تربطه.

المتن:

ثُمَّ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ بَدَأَ الْوَهَنُ يَتَسَرَّبُ إِلَىٰ صُفُوفِهِمْ؛ عِنْدَمَا عَاشُوا بَيْنَ الْمَدَنِيِّينَ، وَكَثُرَتْ تَعَدِّيَاتُهُمْ بِصِفَتِهِمُ الْعَسْكَرِ الْمُخْتَصِّ بِهِمُ السُّلْطَانُ.

فَمَا اخْتَلَطَ الْجُنْدُ بِأَهْلِ الْمُدُنِ إِلَّا وَقَدْ فَسَدَتْ طَبِيعَتُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ أَخْلَاقُهُمْ، وَتَبَدَّلَتْ مُهِمَّتُهُمْ، وَأَصْبَحَ الْبَلَاءُ فِي وَجْهِ الْحُكْمِ مِنْهُمْ، وَالْعَدَاءُ لِلسُّكَّانِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَصَارُوا يَتَدَخَّلُونَ فِي شُؤُونِ الدَّوْلَةِ، وَتَعَلَّقَتْ أَفْئِدَتُهُمْ بِشَهْوَةِ السُّلْطَةِ، وَانْغَمَسُوا فِي الْمَلَذَّاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْفِرُوا فِي أَوْقَاتِ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ، وَنَظَرُوا إِلَىٰ الْعَطَايَا السُّلْطَانِيَّةِ، وَمَالُوا إِلَىٰ النَّهْبِ وَالسَّلْبِ حِينَ غَزْوِ الْبِلَادِ، وَهَكَذَا فَإِنَّ الْجُيُوشَ لَا تُهْزَمُ إِلَّا حِينَمَا تَتْرُكُ عَقِيدَتَهَا.

الشرح:

انظر، في المحضن العقد التدريبي كانوا مستقيمين.

عوامل الفساد: احتكاكهم بالمدنيين وبحياة الترف، فتعودوا علىٰ الترف، وصاروا يقولون: لماذا نحن في هذا الاتجاه وهؤلاء في هذا الاتجاه؟ لماذا لا نعم مثلما ينعمون؟ فاختلطوا بالحياة المدنية والملذات، فتقاعسوا عن الجهاد.

ومع هذا التقاعس بدأت أطماعهم تزيد؛ كونهم من حرس السلطان وأهل الحرب وغير ذلك؛ فبدؤوا يعتدون علىٰ حقوق الناس، وبدأ ظلمهم يزيد، وفي

نفس الوقت غرقوا في الملذات، فلا فائدة منهم؛ فانكسرت عقيدتهم، وانكسرت شوكتهم، بماذا؟ بالترف.

لذلك أقول لكم: العدو الأول للجهاد هو الترف، إن أردت أن تربي مجاهدًا، فأبعده عن حياة الترف، إن أردت أن تربي مجاهدًا صلبًا، فلا تعلقه بالدنيا وملذاتها، كان الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- كانوا يعيشون علىٰ الكفاف، ولا يتمتعون بمثل هذه، مع أنه كان منهم من يملك الدنيا بأسرها، ولكن كان عندهم عقيدة تحركهم، انظر إلىٰ عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، انظر لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، انظر لعبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الذي قسّم بضعة من ورثة الزبير بالفؤوس، حتىٰ كان نصيب الزوجة منهم ألف ألف (مليون)، الزوجة فقط، وله أربع زوجات، كان الثُّمُن من تركته: أربعة ملايين، ومع ذلك كانوا فرسانًا بالنهار، رهبانًا بالليل.

فالتربية الجهادية يا إخواني، لا بد أن تسبقها تربية إيمانية، وهذا لا بد من أن ينقدح في أذهاننا جميعًا.

فالمجاهد هو أقرب الناس إلىٰ ربه.

المجاهد هو الذي لا يخلو حال إلا وهو مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المجاهد هو الذي يقوم بالليل ولا يراه أحد، يبكي ويدعو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالنصر والتمكين لهذه الأمة.

المجاهد هو الذي لا يغيب عن ورده القرآني يومًا ما.

المجاهد هو الذي يحافظ علىٰ السنن الرواتب، التي كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحافظ عليها.

المجاهد لا يحافظ علىٰ السنن الرواتب فقط، بل يحافظ علىٰ النوافل؛ «**وما زال يتقرب إلىٰ بالنوافل حتىٰ أحبه**»[1].

هذا هو المجاهد، قلبه معلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبالأمة، لكن انظر لحال بعضنا، يدعي الجهاد، ويدعي نصرة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتراه لا يقرأ كتاب الله أبدًا، وليس له ورد يومي في القرآن، يدعي الجهاد والنصرة، ولا يحافظ علىٰ سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالكاد يصلي الفرض، لا يصلي سنة قبلية، ولا سنة بعديه، ولا تسبيح، ولا ختم صلاة، ولا أذكار الصباح ومساء، هو في غفلة، إذن هو دخل في هذا من باب شهوة، وبدعة وجهل، دخل بجهل، أنا أحب الجهاد وأحب...، هل أنت تمثلت جهاد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل أنت تمثلت جهاد الصحابة؟ ما الجهاد عندك؟ وكيف تجاهد وأنت خاوٍ إيمانيًا؟ أول صدمة تقابلك ستنهزم؛ لأنه ليس لك رصيد من الطاعات.

ما عند الله يا إخوة، لا يُنال إلا بطاعته، ما عند الله من ستر، وجنة، وعفو، ومغفرة، ونصر، وتأييد- لا ينال إلا بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الخلوات،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٥٠٢).

دموعك هي الوقود الذي يدفعك إلىٰ الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويخلصك من الدنيا وشهواتها، انظر كم من كم بكيت من خشية الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ كم منا جلس مع نفسه وفاضت عيناه؛ شوقًا وخوفًا من الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ من منا من يتذكر آخر مرة بكىٰ من خشية الـلـه بينه وبين نفسه، آخر مرة انطرح بين يدي الـلـه في الليل؟ والانطراح: هو الافتقار إلىٰ الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أن تمرغ وجهك في الأرض، عندما كان الأمراء والعباد والمجاهدون يصعب عليهم الأمر، كان يتخلىٰ عن زيه الذي يراه الناس فيه، ويخلع غطاء رأسه، وينزل في الأرض يمرغ وجهه لـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو قائد مجاهد، ويناجي ربه، يقول: لا تعذب الأمة بسببي، لا تأخذهم بذنوبي، أنا العبد الحقير الذليل إليك. يتمرغ ويبكي، هذا هو الانطراح! هذا هو الانطراح بين يدي الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من منا يفعل هذا؟

ونحن نقول أننا صفوة المجتمع، أننا أهل الدعوة والجهاد والنصرة والتوحيد، نحن نحن نحن، أين أنت من الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ إذا جاءك الموت الآن، هل عندك حسابات تريد أن تخلصها بين حقوق الـلـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحقوق العباد، وتقول لملك الموت: انتظر حتىٰ أصفي حقوق العباد وحقوق ربي، أم أنك تقول: مرحبًا بحبيب يقربني إلىٰ حبيب؟

هذا هو حالك، لا بد ألا تغيب عنا هذه المعاني يا إخوة، لا بد أن تكون مستعدًا للموت، ولن تستعد بأفضل من التوحيد والعبادة، عبادتك وخلوتك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي التي تثبت أنك فعلًا علىٰ العقيدة الصحيحة؛ أما أن تتكلم عن مصطلحات كبيرة من الدعوة والجهاد والنصرة...، وحالك يُرثىٰ له! تبكي علىٰ نفسك، أين صلاتك؟ أين قرآنك؟ أين عبادتك؟ أين تسبيحك؟ أين استغفارك؟ أين رقتك علىٰ المسلمين؟ أين عطفك ورحمتك علىٰ الآخرين؟ هذه كلها لن تصدر إلا في محراب العباد بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يا إخوة، إذا أغفلنا جانب العبادة والتربية الإيمانية، فقدنا كل شيء، لن نستمر في هذا الطريق أبدًا إلا بالتوجه وصدق اللجوء إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا بد يا إخوة، من الآن أن نصلح حالنا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي لا يحافظ علىٰ السنن الرواتب، يحافظ عليها، ويقول: هذه سنة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف أدّعي حب النبي، وأنا لا أحافظ علىٰ سنته؟!

فالذي لا يحافظ علىٰ السنن الرواتب يحافظ عليها من الآن، ويجعلها كالفرض تمامًا؛ لأنها هي حائط الفرض، إذا فرطت في الرواتب، جاء التقصير إلىٰ الفرض حتمًا؛ أما إذا أتيت بالرواتب، أداك إلىٰ النوافل، إلىٰ صلاة

الضحىٰ، قيام الليل، إلىٰ القبلية والبعيدة، إلىٰ الوتر، بدل ما تبدأه بركعة، ابدأه بخمس بسبع.

فالمحافظة علىٰ الرواتب تفتح لك أبواب النوافل، وإذا فتح الله لك أبواب النوافل، فأبشر بحب الله لك؛ لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال ذلك، قال: «**وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه**»، إذن ما وصل إلىٰ هذه الدرجة من الحب والنوافل، إلا بعد أن جاء بالأصول والرواتب.

فهذا هو الطريق يا إخوة، طريقنا إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُعَبَّد بتوحيدنا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأصل التوحيد: العبادة، وصدق اللجوء والافتقار إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا نريد أن نسمع كلامًا، نريد أن نرىٰ أفعالًا، رهبانًا بالليل.

انظر إلىٰ تزكية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهؤلاء، الله يخبرنا في قرآنه ويقول: {كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ}، الله بجلاله وعظمته يمدح الصحابة، ويثني عليهم بهذا الثناء، ويقول: {كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ}، {أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ}، ويقال أنها نزلت في عثمان، ويدعو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويخشاه، ليس قائمًا فقط.

فهذا الذي نريده، نبدأ من الآن، نصلح أنفسنا، نطهر قلوبنا، نزكيها بالطاعات، {قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا}، قد أفلح من زكاها بالطاعات والخلوات مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المجاهدون في الصف الأول يا إخوان، وفي العصر الأول، من خمسين سنة أو أربعين سنة تقريبًا، أو ثلاثين سنة، في الحرب الأولىٰ، كان الإخوة تراهم في الليل يقومون لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهم في عز المعركة، هم في أرض الجهاد، تجد منهم من يتفرغ لوحده ويختفي من إخوانه، ويقوم يصلي الليل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتراه في سجوده يبكي ويتضرع إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل بعضهم -وقد رأيت هذا- بعضهم كان يتوضأ بعد صلاة العشاء والوتر وينام، حتىٰ يوهم من حوله أنه نام، وبعد أن يطمئن أنهم كلهم ناموا، يبدأ هو، لماذا توضأت؟ حتىٰ إذا قام من الليل لا يوقظهم أثناء وضوئه، انظر إلىٰ الخفية، يقول: لو أنا قمت، فسأعمل حركة في أثناء الوضوء، لا، فيتغافلهم؛ حتىٰ لا يشعروا به، ورأينا بعض الناس كان ينام علىٰ وسادة واحدة هو زوجته، ويقوم بالليل لا تحس به، ولا تشعر به، يخادعها كما تخادع الأم طفلها، ثم ينسلت ولا تشعر به، وينتصب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذه حياة المجاهد يا إخوان، هذا المجاهد؛ لذلك نصرهم الله، وأيدهم الله، وفتح الله بهم البلاد والعباد؛ هل تظن أن هذه الهزائم والانكسارات من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ}، هو بذنوبنا ومعاصينا.

إذن لا بد أن نصلح بيننا وبين الله، نعاهد الله سبحانه من الآن أن نحافظ علىٰ الصلوات الخمس في أوقاتها، وبما جاء عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ونحافظ

علىٰ السنة القبلية، والسنة البعدية، ونحافظ علىٰ ختم الصلاة، ولا نتعجل، أنت صليت، هل كنت في سجن؟ لماذا تتعجل؟ هل هناك من يطاردك؟ الدنيا تطاردك، لكن هل هناك من يطاردك؟! اصبر، اصبر، اختم الصلاة، وتأنَّ، وادع اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالستر والعافية والنصر والتمكين، ادعه، ثم بعد ذلك لو فرضنا أنك أتيت كما... نصف ساعة! نصف ساعة! هل هذا كثير علىٰ اللـه سبحانه؟! أن تعطي اللـه نصف ساعة. وأنت لا تعطيه، بل تعطي لنفسك، {وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ}.

ثم نحافظ علىٰ السنة القبلية والبعدية، وأذكار ختم الصلاة، ولا ننسىٰ أذكار الصباح والمساء والنوم، ونحن في السير، في الطريق، ما الذي يمنعنا؟ سبحان اللـه، والحمد للـه، ولا إله إلا اللـه، واللـه أكبر، لا يفتر لسانك، هذه عبودية، عبودية اللسان لا بد من أن نعملها، أليس عندنا من كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من قال: سبحان اللـه وبحمده، غرست له نخلة**»[1]؟ هذه كلها أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لماذا نغفل عنها؟ عبودية اللسان، وأنت تسير، استغفر اللـه، أدع للمسلمين، أدع لنفسك، لا بد أن نرِي اللـه من أنفسنا خيرًا.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٤٦٤).

إذا رأيت منظرًا قبيحًا، فذكر نفسك بالقرآن، قل: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ}، لا تمدن عينيك، {وَقُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ}، أدب نفسك بالقرآن، علم نفسك بالقرآن.

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم.

المتن:

١٠- اِحْتِجَابُ السَّلَاطِينِ، وَعَدَمُ مُمَارَسَتِهِمُ السُّلْطَةَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَالِاتِّكَالُ عَلَىٰ وُزَرَاءَ جُهَّالٍ:

فَقَدْ كَانَ سَلَاطِينُ آلِ عُثْمَانَ -حَتَّىٰ السُّلْطَانِ سَلِيمٍ الْأَوَّلِ- يَتَوَلَّوْنَ قِيَادَةَ الْجَيْشِ بِأَنْفُسِهِمْ، فَيَبْعَثُونَ الْحَمَاسَةَ وَالْحَمِيَّةَ فِي صُدُورِ الْجُنُودِ، ثُمَّ صَارَ السَّلَاطِينُ يَعْهَدُونَ بِالْقِيَادَةِ إِلَىٰ ضُبَّاطٍ؛ فَصَارَ الْجُنُودُ يَتَقَاعَسُونَ وَيَتَهَاوَنُونَ؛ تَبَعًا لِلْمَثَلِ الْقَائِلِ: «النَّاسُ عَلَىٰ دِينِ مُلُوكِهِمْ».

الشرح:

يعني: إذا كنت أنت إمامي، فكن أمامي، إذا كن أنت إمامي فعلًا، أنا متبعك، فكن أمامي في المعركة.

كان السلاطين من أرطغرل وابنه عثمان، إلىٰ سليم الأول، يقودون الجهاد بأنفسهم، يكونون في المقدمة، ثم بعد سليم الأول، بدأت الأمور تنحرف شيئًا

فشيئًا، فبدؤوا يتقاعسون، ثم يوكلون إلىٰ القادة، ثم يوكلون إلىٰ الجهلة، ثم يوكلون الضعفة، فانهزم الناس.

المتن:

١١- زَوَاجُ السَّلَاطِينِ بِالْأَجْنَبِيَّاتِ:

وَتَسَلُّطُ هَؤُلَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ عَلَىٰ عَوَاطِفِ أَزْوَاجِهِنَّ، وَتَصرِيفِهِمُ فِي سِيَاسَةِ بِلَادِهِنَّ الْأَصْلِيَّةِ، وَتَحَكُّمِهِنَّ بِمُقَدَّرَاتِ الدَّوْلَةِ.

فَكَمْ مِنَ الْمُلُوكِ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ؛ بِدَسَائِسِ زَوْجَاتِهِمْ، وَارْتَكَبُوا أَعْمَالًا تَضُرُّ بِمَصْلَحَتِهِمْ؛ إِرْضَاءً لِزَوْجَاتِهِمْ.

هَذَا عِلَاوَةً عَلَىٰ زَوَاجِ بَعْضِ السَّلَاطِينِ مِنَ الْأُورُوبِيَّاتِ فِيهِ إِسَاءَةٌ لِلْأُمَّةِ.

الشرح:

وهذا كان مخططًا من الدول الكافرة لإسقاط هذه الدولة المسلمة في أوروبا، كما قلت لكم: السقوط لم يأت فجأة، بل أتىٰ بالتدريج، بتخطيط، وبمراحل، نهايتها أن يأخذ هؤلاء السلاطينُ بناتهم، وهؤلاء البنات والنساء دورهم في إسقاط هذه الدولة، بماذا؟ بتحيز السلطان إلىٰ زوجته، والزوجة تعمل علىٰ تنمية بلادها، فصار السلاطين ألعوبة في يد النساء، أي امتياز تريده الدولة التي منها زوجة هذا الرجل، يعطها السلطان، حتىٰ أصبحت الدولة ألعوبة في يد النساء.

المتن:

١٢- تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ وَالْمَحْظِيَّاتِ:

اللَّوَاتِي كَانَ الْأَجَانِبُ وَالْحُكَّامُ يُقَدِّمُونَهُنَّ هَدِيَّةً لِلسُّلْطَانِ، كَأَنَّهُنَّ السِّلَعُ، أَوِ التُّحَفُ. وَاللَّوَاتِي كَانَ السَّلَاطِينُ إِذَا رَأَوْا كَثْرَتَهُنَّ فِي قُصُورِهِمْ يُهْدُونَهُنَّ -أَحْيَانًا- إِلَىٰ قَادَتِهِمْ، أَوْ خَوَاصِّهِمْ، عَلَىٰ سَبِيلِ التَّكْرِيمِ.

الشرح:

وهل تظن أن الكفار يهدون نسائهم وبناتهم حبًا للمسلمين؟ هذه سذاجة، هؤلاء جواسيس للدول الكافرة في بلاد المسلمين، بل في قصر الملك.

المتن:

١٣- تَدَخُّلُ نِسَاءِ الْقَصْرِ بِالسِّيَاسَةِ، وَشَفَاعَتُهُنَّ لَدَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ السَّلَاطِينِ بِرَفْعِ الْخَدَمِ إِلَىٰ مَنْصِبِ الْوُزَرَاءِ، أَوْ إِيصَالِ الْمُتَزَلِّفِينَ إِلَىٰ مَرَاتِبِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، كَرِئَاسَةِ الْوِزَارَةِ وَقِيَادَةِ الْجَيْشِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ لَا يَكُونُ لِهَؤُلَاءِ الرِّجَالِ مِنْ مِيزَةٍ يَمْتَازُونَ بِهَا إِلَّا تَجَسُّسُهُمْ لِحِسَابِهِنَّ.

الشرح:

وصول غير الأكفاء للحكم، هذا وصل لوزارة الدفاع، أو وزارة الأمن، أو الداخلية؛ لأنه مَحْظِيّ عند زوجة السلطان فقط، عنده مؤهلات؟ لا، ليس عنده مؤهلات، هو جاسوس لها، ينقل الأخبار، وينفذ أوامرها، هذا فقط.

المتن:

١٤- تَفَكُّكُ رَوَابِطِ الْأُسْرَةِ السُّلْطَانِيَّةِ؛ بِسَبَبِ كَثْرَةِ النِّسَاءِ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ عَادَةُ قَتْلِ السُّلْطَانِ إِخْوَانَهُ أَوْ أَوْلَادَهُ، يَوْمَ يَتَوَلَّىٰ الْعَرْشَ أَمْرًا مَعْرُوفًا وَمَأْلُوفًا، وَكَأَنَّهُ يُضَحِّي بِخِرَافٍ؛ اِحْتِفَاءً بِهَذَا الْيَوْمِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ بِوَخْزِ ضَمِيرٍ، أَوْ لَسْعَةِ أَلَمٍ!

الشرح:

تخيل! يوم تولية السلطان علىٰ الملك، يذبح إخوانه! تخيل هذا العقل! هذا قانون، أصبح من طقوس تولية السلطان الملك، أن يأتي بإخوانه الذكور ويذبحهم ذبح الخراف! هذا عقل؟! هل هذا عند الله هين؟ عند الله عظيم والله، لذلك أذهب الله ملكهم.

المتن:

١٥- قَانُونُ قَتْلِ الْإِخْوَةِ:

أَمَّا الْعَادَةُ السَّيِّئَةُ الْأَلِيمَةُ، وَهِيَ عَادَةُ قَتْلِ السَّلَاطِينِ لِأَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَهِيَ الْمُنَافِيَةُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ -وَإِنْ وُجِدَتْ لَهَا مُبَرِّرَاتٌ وَاهِنَةٌ-؛ فَقَدْ أَوْدَتْ بِأَرْوَاحِ الْأَطْفَالِ وَالْأَبْرِيَاءِ بِلَا ذَنْبٍ سِوَىٰ خَوْفِ الْمُنَازَعَةِ فِي الْمُلْكِ فِيمَا بَعْدُ؛ وَحُرِمَتِ الْأُمَّةُ مِنْ رِجَالٍ قَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ أَفْذَاذٌ وَعَبَاقِرَةٌ، فَحَلَّ مَحَلَّهُمْ رِجَالٌ احْتَلُّوا مَنَاصِبَ رَفِيعَةً فِي الدَّوْلَةِ وَفِي قِيَادَةِ الْجُيُوشِ مِنْ بِلَادِ أُورُوبَّا الْعُثْمَانِيَّةِ تَظَاهَرَ بَعْضُهُمْ بالْإِسْلَامِ وَأَبْطَنَ الْكُفْرَ، وَعَادَ بِالدَّمَارِ وَالْهَزِيمَةِ إِلَىٰ الْبِلَادِ.

الشرح:

مثل: أتاتورك.

محمد الفاتح بعد أن فتح القسطنطينية، هو الذي أنشأ هذا القانون، ثم بعد ذلك عدلوه بسجن الأمراء، ثم بعد ذلك عدلوه في الحرملك، أن يضعوهم مع النساء؛ حتىٰ تربيهم النساء، حتىٰ عندما يأتي لا يعرف شيئًا إلا أمور النساء، لم يعرف الرجال، ولم يعرف أي شيء.

المتن:

١٦- خِيَانَةُ الْوُزَرَاءِ:

إِذْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَجَانِبِ الْمَسِيحِيِّينَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَيَدْخُلُونَ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ، وَيَرْتَقُونَ بِالدَّسَائِسِ، وَالتَّجَسُّسِ؛ حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ أَعَلَىٰ الْمَرَاتِبِ.

١٧- تَبْذِيرُ الْمُلُوكِ، حَتَّىٰ بَلَغَتْ نَفَقَاتُ الْقُصُورِ الْمَلَكِيَّةِ -فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ- ثُلُثَ وَارِدَاتِ الدَّوْلَةِ.

١٨- مُشْكِلَةُ الدُّيُونِ الَّتِي أَقْرَضَتْهَا الدُّوَلُ الْأُورُوبِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ؛ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْإِنْفَاقَاتِ عَلَىٰ الْإِصْلَاحِيَّاتِ. وَفَائِدَتِهَا الَّتِي أَصْبَحَتْ أَضْخَمَ مِنْ قِيمَةِ الْقُرُوضِ.

وَفَخُّ الدُّيُونِ...

الشرح:

فهذا فخ، ما جاء اعتباطًا، لكنهم يريدون أن يسقطوا الدولة من الداخل، يعني: هم يأسوا من الحروب، فقد كانت الدولة ذات جيش قوي لا يقدر عليه أحد، فأوروبا فهمت هذا، قالوا: لا طاقة لنا بقتال الدولة المسلمة، ماذا نفعل؟ نوهنها من الداخل، فأصبح الغزو من الداخل.

لذلك الشيخ محمد محمد حسين -عليه رحمة الله-، له كتاب عظيم جدًا، لا بد من أن يقرأه كل مسلم، وهو «حصوننا مهددة من الداخل»، هذا الكتاب يبين لك الخطة التي يضعها الكفار لغزو بلاد المسلمين، وإسقاطها أخلاقيًا ومعنويًا؛ حتىٰ تكون هشة كالريشة في مهب الريح، كتاب عظيم جدًا، سبحان الله! هذه الكتب يا إخوة، لا بد أن تكون في مكتبتنا، تكون في عقولنا، نطلع عليها؛ لأنها تبين لنا الواقع، وتكشفه بجلاء، مثلما قلت لكم: «تفسير صفوة الآثار والمفاهيم»، تفسير عظيم جدًا، يعالج واقعنا المعاصر، ومع ذلك كأن الكفار والعملاء تواطؤوا علىٰ إخفاء مثل هذه الكتب، غير موجود! كتاب مثل هذا لا يطبع إلا في مكتبة واحدة؟! وكان من ثلاثين سنة أو أربعين سنة في كل مكان في العالم تراه، ويطبع بأفضل الحلل، لماذا؟ هو مقصود أن يغيبوا عن شباب الأمة وجيلها الصاعد كل ما يقويهم ويفهمهم خطط الغرب، كل كتاب يفهمك خطط الغرب، هذا يندثر، وتراه بصعوبة.

لذلك أقول لكم: احرصوا علىٰ جمع هذه الكتب، ولو إلكترونيًا، في مكان واحد، اجعلوا لها موقعًا تضعون فيه كل هذه الكتب، ثم بعد ذلك ننميها ونشرحها، ونبين ما فيها؛ حتىٰ إذا جعلنا فهرسًا في أهم المسائل التي احتواها الكتاب، يكون عند الأخ فكرة، أبحث في المسألة الفلانية في الكتاب الفلاني، أين الكتاب هذا؟ لا أجده، لا، عندنا في الموقع، عندنا في كذا.

فنجعل مكتبة عالمية تكون مرجع للإسلام والمسلمين في مثل هذه الأمور، ونكون بذلك قدمنا للأمة خدمة عظيمة جدًا، أنّا وفرنا لها مصادر عزها ومعرفتها؛ لأن مصادر المعرفة هذه مهمة جدًا، فعندما تحجبها عن الشباب، فسيتجهون إلىٰ الأفكار الضالة، لم يجدوا أمامهم إلا هذا، يقول لك: يا أخي، أنا لم أجد، هل أنت وفرت لي، وأنا امتنعت؟ لذلك مهمتنا أن نوفر الوعي للجيل الصاعد.

المتن:

وَفَخُّ الدُّيُونِ مَنْهَجٌ انْتَهَجَهُ الْأُورُوبِيُّونَ لِنَصْبِهِ ضِدَّ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْذُ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ، وَمَا زَالَ يُمَارِسُهُ صُنْدُوقُ النَّقْدِ الدَّوْلِيُّ عَلَىٰ بَعْضِ الدُّوَلِ بِشُرُوطِهِ الظَّالِمَةِ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ؛ مِمَّا سَبَّبَ الِانْهِيَارَ وَالْفَوْضَىٰ وَالْفَقْرَ.

وَفَخُّ الِاقْتِرَاضِ الرِّبَوِيِّ مِنَ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ، وَمَا يُسَبِّبُهُ الرِّبَا مِنْ دَمَارٍ لِهَذِهِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْوَاقِعُ الْمُعَاصِرُ خَيْرُ شَاهِدٍ عَلَىٰ تَدَهْوُرِ كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ...».

الشرح:

ما توجد دولة إسلامية اقترضت من صندوق النقد الدولي، ونهضت وتقدمت خطوة واحدة، بل فشلت، وانهارت، وركبتها الديون، وأعلنت إفلاسها.

كيف تأمن للكفار؟ هذا أولًا، ثم كيف تحارب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالربا؟ هذا ثانيًا، ثم كيف تجعل للكفار سلطانًا في بلدك، يسيرونها بحجة الديون؟ فهذا منزلق وفخ خطير نصبه الكفار للمسلمين، وللأسف وقعوا فيه.

المتن:

١٩- مُشَارَكَتُهَا فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ بِجَانِبِ أَلْمَانْيَا الْكَافِرَةِ، كَانَ مِنْ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ سُقُوطِهَا، وَتَمْزِيقِهَا، وَتَوْزِيعِ أَرَاضِيهَا وَمُمْتَلَكَاتِهَا عَلَىٰ الدُّوَلِ الْمُنْتَصِرَةِ.

«هَذِهِ الْأَسْبَابُ هِيَ الَّتِي قَضَتْ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَأَنْزَلَتْهَا مِنْ شَامِخِ عِزِّهَا إِلَىٰ حَضِيضِ الْمَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ. وَإِنَّ مَنْ يَدْرُسُ، بِإِنْعَامِ نَظَرٍ، كُلَّ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا، وَيَرَىٰ مَدَىٰ تَأْثِيرِهِ الْوَاسِعِ فِي الْمُحِيطِ الدَّوْلِيِّ؛

لَا يَعْجَبُ مِنَ انْهِيَارِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَظِيمَةِ تَحْتَ سِيَاطِ هَذِهِ الضَّرَبَاتِ، بَلْ يَعْجَبُ كَيْفَ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَعِيشَ سِتَّمِئَةِ سَنَةٍ وَهِيَ تَتَحَمَّلُ هَذِهِ الضَّرَبَاتِ الْقَاسِيَةَ؟!».

الشرح:

يعني: أنت لا تعجب كيف لم تنهر هذه الدولة مع كل هذه المؤامرات، وغابت ستة قرون تقاوم وتجاهد، وتسير خلف التيار، وكل هذه الضغوط عليها؟

المتن:

هَذِهِ الدَّوْلَةُ الَّتِي كَانَتْ دَوْلَةً عَسْكَرِيَّةً قَوِيَّةً فِي قَلْبِ أُورُبَّا، وَكَانَتْ شَجًىٰ فِي حُلُوقِ الصَّلِيبِيِّينَ.

وَنَذْكُرُ هَذِهِ الْأَسْبَابَ لِكَي نَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِنْهَا، فَنَعْلَمَ أَنَّ سُنَنَ اللـه جَارِيَةٌ فِي الدُّوَلِ وَالْأَفْرَادِ، وَأَنَّهُ لَا نَصْرَ لَنَا وَلَا عِزَّ لِدُوَلِنَا؛ إِلَّا بِإِقَامَةِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ كَامِلَةً كَمَا كَانَتْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ ج وَأَصْحَابِهِ ش دُونَ اتِّبَاعٍ لِهَوَىٰ أَوْ بِدْعَةٍ أَوْ شِرْكِيَّاتٍ مَا أَنْزَلَ اللـه بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

وَحَتَّىٰ تَعُودَ الْخِلَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعٍ صَادِقٍ إِلَىٰ كِتَابِ اللـه وَسُنَّةِ رَسُولِ اللـه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتِّبَاعِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي بِنَاءِ الْفَرْدِ وَالْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَمَنْهَجِ التَّغْيِيرِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحَابَتُهُ ش

وَالتَّخَلُّصِ مِنْ أَسْبَابِ الضَّعْفِ السَّابِقِ ذِكْرُهَا، وَهَذَا مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ بِمَا يُطِيقُ وَأَهَمُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ هُوَ السَّعْيُ الْجَادُّ فِي أَمْرَينِ: ...

الشرح:

فكيفية التخلص مما نحن فيه: أولًا: لا بد أن نتمسك بشرع ربنا، وسنة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في أنفسنا، وفي خاصة أمرنا، وفي من نعول، هذا مهم جدًا يا إخوة.

المتن:

اَلْأَوَّلُ: حَمْلُ الْأَفْرَادِ عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ وَتَرْغِيبُهُمْ فِيهِ.

الشرح:

يعني: لا تقل: أنا أنصح إخواني فقط، لا، خذ بيدهم، واءطرهم علىٰ الحق أطرًا، قيمة الإخوة والوحدة والاجتماع: أنهم يكونون لك علىٰ الخير أعوانًا؛ أما التمزق، والافتراق، والبعد، هذا يوهن الأخ في نفسه، ويجعله ضعيفًا، فالمرء قوي بإخوانه، ولن يكون هذا إلا بالوحدة، والاجتماع، والاعتصام بحبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

اَلثَّانِي: لَمُّ الشَّمْلِ وَنَبْذُ الْخِلَافِ وَقَدْ بَدَأَ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- بَعْضُ الصَّادِقِينَ فِي السَّعْيِ فِي تَحْصِيلِ كِلَا الْأَمْرَينِ.

نَسْأَلُ اللهَ النَّصْرَ وَالتَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ.

الشرح:

فلا بد من دستور يجمع الإخوة، وينظم حياتهم، ولا بد من قانون ضابط.

الدستور إذا أطلق عليه يراد أنه كفر، نقول: هذا خطأ، الدستور هو عقد اتفاق، وعمر جعل أول دستور، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل أول دستور في وثيقة المدينة، فالدستور هو عقد اتفاق بين طرفين، أما القانون فهو عقوبة؛ لذلك لا تجد في الدساتير الموجودة الآن عقوبة لمن يخالف الدستور، لماذا؟ لأن الدستور عقد اتفاق، لكن تجد عقوبة لمن يخالف القانون؛ لأن القانون عقوبة، سواء أكان قانونًا صحيحًا يوافق الشريعة، أم قانونًا يخالف الشريعة، لكن القانون عقوبة، حكم يُنَفَّذ؛ أما الدستور فهو عقد اتفاق بين أطراف.

فلا بد أن نعمل دستورًا بيننا نسير عليه، وكذلك نعمل قانونًا إداريًا، ولوائح إدارية تضبط تصرفات الإخوة، وإلا كلٌّ سيفعل ما يراه، وهذا هو التشرذم، أنت ظاهريًا في جماعة، لكن ليس لك ضابط، تفعل ما تراه، ولا تُكلَّف بأعمال، وليس لك ضابط ولا قانون يردعك، هذا هو الانهيار.

المتن:

أَسْبَابُ فَشَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ بَعْدَ مِئَةِ عَامٍ مِنْ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ: ...

الشرح:

لماذا نحن لا نعترف بالأنظمة الحاكمة، ونقول: إنها غير شرعية؟

لأنها ليست في دولة إسلامية ولا في خلافة جامعة لها؛ لأن الجماعة هي الأصل، الجماعة المسلمة هي الأصل، وهذه ليست جماعة، الخلافة الراشدة هي التي تحكم الجماعة، فلا توجد خلافة، ولا يوجد حاكم، ولا يوجد أمير؛ لأنه لا توجد دولة إسلامية، إذن لا يوجد قائد، الخليفة والقائد يوجد مع وجود الدولة، وإذا وُجِدَت الدولة، وُوِجد الحاكم والخليفة، فلا توجد شريعة تحكم الدولة وتحكم الخليفة، فالشريعة ليست موجودة، وكذلك الجهاد ليس موجودًا.

فكل هذه الأمور هي التي تجعلنا لا نعترف بشرعية هذه الحكومات وهذه الدويلات، التي نعتبر أنها وكلاء للغرب في بلاد المسلمين؛ لغياب أربعة الأصول هذه:

١- غياب الدولة الإسلامية، التي هي منشودة عند كل مسلم.

٢- وغياب الخليفة، الذي يحكم، أو الأمير، أو الرئيس، أو الرأس، الذي يحكم هذه البلاد.

٣- وغياب الشريعة التي تحكم هذه الأمور.

٤- وغياب الجهاد.

فكل هذه الحكومات ليست بشرعية؛ لذلك نحن نطالب بإقامة دولة إسلامية، نطمع في إقامة الخلافة، لكن إن عجزنا عن إقامة خلافة جامعة، تجتمع الأمة عليها، فلا نعجز عن إقامة دولة، ولو كانت صغيرة، تحكمها الشريعة، وتكون فيها هذه الأربعة الأصول.

لذلك نحن ندرس الآن بعناية، وأريدكم أن تتدبروا في كل عنصر من عناصر فشل الحركات الإسلامية والجهادية في واقعنا المعاصر؛ حتىٰ نجعله تحت المجهر، نجعل هذه الأسباب تحت المجهر؛ لأنها -للأسف- متكررة علىٰ مدىٰ أكثر من ثلاثمئة سنة، نفس الأخطاء متكررة، ويتوارثها جيل بعد جيل، وحركة بعد حركة، وطائفة بعد طائفة، وجماعة بعد جماعة، وأنت تعجب: لماذا الأخطاء متكررة؟ هذا سؤال أنا لا أجد له جوابًا، لماذا؟ والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»[1]، ونحن نلدغ من الجحر الواحد عشر مرات، لماذا؟ هذا السؤال يحتاج إلىٰ جواب.

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٩٩٨)، والبخاري، رقم: (٦١٣٣).

المتن:

مِنْ يَوْمِ أَنْ سَقَطَتِ الْخِلَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَأَعْلَنَ مُصْطَفَىٰ كَمَالْ أَتَاتُورْكْ إِلْغَاءَ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ رَسْمِيًّا، وَعَزْلَ السُّلْطَانِ، وَقِيَامَ الْجُمْهُورِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ الْعَلْمَانِيَّةِ فِي يَوْمِ (٢٧) مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ سَنَةَ (١٣٤٢)هِجْرِيَّةً، الْمُوَافِقِ (٣) مَارِس سَنَةَ (١٩٢٣)، وَاسْتَبْدَلَ الْجُمْهُورِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ بِالْخِلَافَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَخَلَعَ السُّلْطَانَ عَبْدَ الْمَجِيدِ الثَّانِيَ آخِرَ خَلِيفَةٍ عُثْمَانِيٍّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْخَ مُصْطَفَىٰ صَبْرِي شَيْخَ الْإِسْلَامِ فِي الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ تَهْدَأْ جُهُودُ الْمُسْلِمِينَ وَلَا الْحَرَكَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَلَا الْجَمَاعَاتُ الْجِهَادِيَّةُ فِي إِعَادَةِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ مَدَارِ مِئَةِ سَنَةٍ، قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ وَهُمْ يُحَاوِلُونَ!

الشرح:

مرت مئة سنة علىٰ سقوط الخلافة، ومنذ أن سقطت الخلافة والحركات الإسلامية لم تهدأ، وهذا يدلك علىٰ أن المسلمين شعروا بعز الخلافة لما سقطت، وشعروا أنهم كالكلاب علىٰ موائد اللئام، ليس لهم عز، ولا راية تجمعهم، وكل يتخطفهم، هذا يدلك علىٰ أن الشعوب المسلمة فيها غيرة وحب للجهاد، ومع كل هذه المحاولات لإقامة دولة تجمعهم، إلا أنها باءت بالفشل.

المتن:

وَهَذِهِ الْمُحَاوَلَاتُ، مُنْذُ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ، حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذَا، لَمْ تَهْدَأْ، وَلَمْ وَلَنْ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، مَا لَمْ تَنْتَهِي الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ، وَالْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، الَّتِي لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَذَلَهَا وَالَّتِي مِنْ أَهَمِّ خَصَائِصِهَا وَأَكْثَرِ مَا يُمَيِّزُهَا أَنَّهَا عَلَىٰ الْحَقِّ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَاتِ وَالْفِرَقِ وَالطَّوَائِفِ أَنَّهَا طَائِفَةٌ مُجَاهِدَةٌ. وَحَقَّقَتْ بِجِهَادِهَا وَعَمَلِهَا لِعَوْدَةِ الْإِسْلَامِ يَحْكُمُ وَلِشَرِيعَتِهِ أَنْ تَعْلُوَ وَتَسُودَ، حَقَّقَتْ كَثِيرًا مِنَ الْمَكَاسِبِ وَالْإِيجَابِيَّاتِ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، -مَعَ أَنَّهَا أَخْفَقَتْ وَلَمْ تَصِلْ لِهَدَفِهَا بَعْدُ- إِلَّا أَنَّ مِنْ حَسَنَاتِهَا وَخَيْرِهَا وَبَرَكَتِهَا عَلَىٰ مَدَارِ مِئَةِ سَنَةٍ:...

الشرح:

فالحركات الإسلامية هذه، والطائفة المنصورة، لماذا الطائفة المنصورة؟ لأن من أهم خصائص الطائفة المنصورة التي جاءت في الكتاب والسنة، وعند أهل السنة والجماعة، التي تميزها: أنها طائفة مجاهدة، «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة علىٰ الحق لا يضرها من خذلها إلىٰ يوم القيامة**»[1]، فمن أهم خصائص الطائفة المنصورة: أنها طائفة مجاهدة، ما لم يتوفر فيها هذا الشرط، فليست الطائفة المنصورة، وليست الفرقة الناجية.

(١) رواه مسلم، رقم: (١٩٢٣).

المحاولات فشلت، لكن هذه المحاولات تجد فيها إيجابيات، لا بد أن نقف علىٰ الإيجابيات، ولا ننظر إلىٰ السقوط، لا، نأخذ بالإيجابيات، من الإيجابيات:...

المتن:

١- أَنَّهَا أَحْيَتْ فِي الْأُمَّةِ فَرِيضَةَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَجَعَلَتْهُ وَاقِعًا عَمَلِيًّا فِي حَيَاةِ النَّاسِ، جَدَّدَتْ بِهِ تَارِيخَ الصَّحَابَةِ وَأَبْطَالِ الْإِسْلَامِ الْعِظَامِ.

٢- وَأَنَّهَا جَدَّدَتْ سُنَنًا نَبَوِيَّةً قَدِ انْدَرَسَتْ وَغَابَتْ، وَظَهَرَتْ شَعَائِرُ الْإِسْلَامِ وَهَدْيُهُ الظَّاهِرُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَأُمِيتَتْ بِدَعٌ، وَصُحِّحَتْ مَفَاهِيمُ حَصَلَ فِيهَا سُوءُ الْفَهْمِ وَالِالْتِبَاسُ، كَشِرْكِ الْقُبُورِ وَالْقُصُورِ، وَمَفْهُومِ الْحَاكِمِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِ، وَمَعْنَىٰ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَحَقِيقَتِهِ، وَسُنَنِ اللِّحْيَةِ وَالْحِجَابِ، وَمُحَارَبَةِ الرِّبَا وَالتَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ وَالْمُوسِيقَىٰ وَالْغِنَاءِ، وَمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ وَحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ حَسَنَاتِ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ إِلَّا إِحْيَاءُ مَفْهُومِ التَّوْحِيدِ وَالْجِهَادِ، وَإِظْهَارُ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَتَمَيُّزُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ عَنْ غَيْرِهِمْ- لَكَفَاهَا ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَدَّتْ مَا عَلَيْهَا.

الشرح:

انظر إلىٰ الخير الذي في المجتمعات، انظر إلىٰ مفهوم الحاكمية والتشريع الذي لم يحصل، لولا أن قيض الله له أمثال الشيخ سيد قطب -عليه رحمة

الله-، ووقف على هذا الثغر، وبين مسألة الحاكمية والتشريع، وأُعدم بسببها- ما خرج الناس ولا الشباب على الحاكمية والتشريع.

انظر إلى شرك القبور والأضرحة، عندما قيض الله مثل محمد بن عبد الوهاب، وأئمة الدعوة في زمنه، وشرك القبور.

انظر إلى الجهاد في زماننا الآن.

انظر إلى الصحوة الإسلامية التي أظهرت اللحية، والنقاب، والحجاب، والشعائر الإسلامية، كانت هذه المعالم مندثرة، ما كان أحد يستطيع أن يفعل هذا، كان الرجل الذي يطلق لحيته فقط، كان غريبًا في المجتمع، يؤخذ ويُرمَى ويعتقل، والمرأة التي تتحجب، ينزع منها في الشارع، كما فعل بورقيبة في تونس، هذه كلها كانت أمورًا مسلمًا بها في المجتمعات، فقيض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها هذه الحركات والجماعات الإسلامية، لتجعل هذا واقعًا في المجتمعات الجاهلية، واقعًا الآن، ما أحد الآن يكلمك -حتى مع الضغط- عن اللحية، ولا يكلمك عن الدروس، ولا يحدثك عن العلم، بل يحدثك عن الجهاد، ويخافون، أخوف ما يخافونه الجهاد، لماذا؟ لأن هذه الأمور تعدوها بمراحل، أصبحت واقعًا في المجتمعات، اللحية، والحجاب، والصلاة، والقرآن، أصبحت واقعًا في المجتمعات، فما الذي يعانون منه الآن؟ الجهاد، فهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه الحركات.

المتن:

٣- وَإِنْ كَانَ فِيهَا مَنْ لَيْسَ مِنْهَا، غُلُوًّا أَوْ إِرْجَاءً، إِفْرَاطًا أَوْ تَفْرِيطًا، إِلَّا أَنَّ مِنْ حَسَنَاتِهَا أَيْضًا أَنَّهَا أَصَّلَتْ، وَحَقَّقَتْ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ، وَحَرَّرَتْهُ، وَجَعَلَتْهُ مُيَسَّرًا سَهْلًا، فِي مُتَنَاوَلِ طُلَّابِ الْعِلْمِ، وَرَدَّتْ عَلَىٰ شُبُهَاتِ أَهْلِ الْغُلُوِّ، وَفَنَّدَتْ شُبُهَاتِ أَهْلِ الإِرْجَاءِ، وَالتَّصَوُّفِ، وَالأَهْوَاءِ، وَالْبِدَعِ، وَالِافْتِرَاقِ.

٤- وَمِنْ حَسَنَاتِهَا أَنَّهَا أَظْهَرَتْ أَعْدَاءَ الْأُمَّةِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ دُعَاةِ التَّغْرِيبِ - وُكَلَاءَ الْغَرْبِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ- عَلَىٰ حَقِيقَتِهِمْ، وَبَيَّنَتْ فَسَادَ دِينِهِمْ، مِنْ عَلْمَانِيَّةٍ وَدِيمُقْرَاطِيَّةٍ وَحُرِّيَّةٍ، وَلَوْلَا أَنَّ اللـه سَخَّرَ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ بِقَادَتِهَا وَعُلَمَائِهَا وَرِجَالِهَا لَانْدَرَسَتْ مَعَالِمُ الْإِسْلَامِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا انْدَرَسَتْ مِنْ قَبْلُ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، فَوَقَفَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ كَالْأُسُودِ عَلَىٰ ثُغُورِ الْأُمَّةِ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، وَالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ فِي بِقَاعِ الْأَرْضِ يَتَرَقَّبُونَ كُلَّمَا سَمِعُوا هَيْعَةً طَارُوا إِلَيْهَا، بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لـله، يَبْتَغُونَ الْمُوْتَ فِي مَظَانِّهِ وَسَطَّرُوا بِعِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ مَلَاحِمَ خَلَّدَهَا التَّارِيخُ.

الشرح:

فالذي يقرأ التاريخ ويفهم ماذا حصل في الأندلس، واندراس الإسلام في الأندلس تمامًا، يعلم قيمة هذه الحركات والجماعات الإسلامية، وإن كان فيها بعض المخالفات والسلبيات، إلا أن فضلها يعرفه من عرف واقع

الأندلس، أكثر من ثمانية قرون الإسلام في الأندلس، ثم الآن ليس فيها شعيرة واحدة من شعائر الإسلام، ولا مسلم يجهر بإسلامه! لماذا؟ لعدم وجود مثل هذه الحركات والجماعات المجاهدة، التي تناكف الحكومات والدول.

فالذي يعرف هذا، يعرف فضل هذه الحركات والجماعات الإسلامية، وإن كان فيها غبش، وإن كان فيها انحراف، وإن كان فيها غلو، وإن كان فيها إرجاء، إلا أنها بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ظهرت في المجتمع.

المتن:

وَمَعَ أَنَّنَا نَظُنُّ فِيهَا ظَنَّ الْخَيْرِ، أَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَتِلْكَ الْجَمَاعَاتِ كَانَتْ مُخْلِصَةً وَصَادِقَةً فِي الْعَمَلِ لِدِينِ اللهِ وَنُصْرَةِ الشَّرِيعَةِ وَتَطْبِيقِ شَرْعِ اللهِ، وَمَعَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَصَلَتْ إِلَىٰ السُّلْطَةِ وَسُدَّةِ الْحُكْمِ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ سَوَاءٌ وَصَلَتْ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ كَمَا فِي بِلَادِ نَجْدٍ وَأَفْغَانِسْتَانَ، أَوْ بِالتَّغَلُّبِ وَالْقُوَّةِ كَمَا فِي بَاكِسْتَانَ وَمِصْرَ وَالسُّودَانِ، أَوْ حَتَّىٰ عَنْ طَرِيقِ الِاقْتِرَاعِ وَالِانْتِخَابَاتِ كَمَا فِي الْجَزَائِرِ وَغَزَّةَ وَفِلَسْطِينَ وَمِصْرَ وَالْيَمَنِ! لَمْ تَنْجَحْ كُلُّ هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ فِي إِقَامَةِ خِلَافَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَلَا حَتَّىٰ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ!

مَعَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَتِلْكَ الْجَمَاعَاتِ مَكَثَتْ فِي الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ عُقُودًا طَوِيلَةً، بَعْضُهَا مَكَثَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا فِي الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ، وَلَمْ تَنْجَحْ فِي تَطْبِيقِ حُكْمِ اللهِ وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَةِ اللهِ! مَا السَّبَبُ؟!

مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِي أَنَّ السَّبَبَ الْحَقِيقِيَّ -خِلَافَ الْأَسْبَابِ التَّالِيَةِ- هُوَ:

١- أَنَّ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ لَمْ تَسْتَفِدْ مِمَّنْ سَبَقَهَا عَلَىٰ مَرِّ التَّارِيخِ، وَلَمْ تَتَعَلَّمْ.

الشرح:

لم تتعلم من العهد النبوي الراشدي، فمن وجهة نظري أن هذه الحركات لو تعلمت من العهد النبوي الراشدي، وربت العناصر كما رباها النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصبرت وتمحصت، لما وقعت في مثل هذا. هذا في نظري أول سبب.

المتن:

٢- أَنَّ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ تَقُومُ عَلَىٰ السَّيْطَرَةِ وَالتَّفَرُّدِ، وَلَيْسَ عَلَىٰ الْمُشَاوَرَةِ، حَتَّىٰ مَعَ إِخْوَانِهَا الْعَامِلِينَ مَعَهَا فِي الْحَقْلِ الْإِسْلَامِيِّ! وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَىٰ التَّرْبِيَةِ الْحِزْبِيَّةِ، وَلَيْسَ إِلَىٰ التَّرْبِيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، فَالْحِزْبُ الضَّيِّقُ مُقَدَّسٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَأَمَّا الْمُجْتَمَعُ الْأَوْسَعُ فَمُدَنَّسٌ! لِذَلِكَ تَجِدُ التَّنَاحُرَ وَالتَّنَازُعَ بَيْنَهُمْ.

الشرح:

{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}، وكأنهم لا يتعلمون من دروس الماضي، كل الأحزاب يعرفون أنهم ما خرجوا إلا للجهاد في سبيل الله، والدعوة إلىٰ التوحيد، والبراءة من الطواغيت، والحكام العرب كفار، وغير ذلك، فكان من المفترض أن تكون كل هذه العوامل جامعة لهم، إلا أنك تجدهم يختلفون، ويتنازعون، ويتناحرون، ويتقاتلون فيما بينهم، ويتركون الذي اتفقوا أنه كافر طاغوت! هذا يحيرك.

فالجماعة المسلمة جماعة اعتصام؛ أما الجماعات التي هي الآن جماعة تناحر وافتراق، تقاتل بعضها بعضًا، وتترك ما اتفقت عليه فيما بينها أنه عدو لها، هذا من العجب العجاب، ما سر التعجب؟ أنها لم تتفطن إلىٰ تحريش الطواغيت والكفار بينها، علموا أن في اجتماع هذه الطوائف والجماعات، القضاءَ علىٰ الكفار وأعوانهم، فماذا فعلوا؟ التحريش بينهم، جعلوا مثل هذه المسائل: العذر بالجهل، الولاء والبراء، الأولويات، ماذا نقدم، نقاتل الكافر البعيد أم الكافر القريب؟ وهذا تحت راية أم غير راية؟ هذه كلها آثارها الكفار وضخموها، والناس ليسوا علىٰ درجة واحدة، فلو اعتبرنا القيادة حكيمة وعندها علم، فإنها لا تسيطر علىٰ جميع الأفراد، فتصل هذه الأفكار إلىٰ الجهلة قليلي العلم، ويثيرونها بين الناس، فيحصل النزاع وينتشر، وتكبر الفرقة والتنازع، والذي يكسب هم الكفار والطواغيت.

هذا من أكبر الأسباب.

المتن:

٣- غِيَابُ التَّصَوُّرِ الصَّحِيحِ عِنْدَ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْخُرُوجِ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلْغَرْبِ، فَهِيَ تَتَغَافَلُ عَنِ الْوَاقِعِ الدَّوْلِيِّ الْعَالَمِيِّ وَسَيْطَرَةِ الدُّوَلِ الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ الْحُكَّامِ.

٤- غِيَابُ التَّفْكِيرِ الْمَنْهَجِيِّ عَلَىٰ الْمَدَىٰ الْبَعِيدِ. وَهَذَا ظَهَرَ كَثِيرًا عِنْدَ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي وَصَلَتْ لِسُدَّةِ الْحُكْمِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ، فَظَهَرَ عِنْدَهُمُ انْعِدَامُ الرُّؤْيَةِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ لِلِاسْتِمْرَارِ عَمَلِيًّا عَلَىٰ أَرْضِ الْوَاقِعِ، وَكَأَنَّ الْهَدَفَ عِنْدَهُمْ كَانَ مَحْصُورًا -فَقَطْ- فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ!

الشرح:

ولما وصلوا غرقوا أو أغرقوا بفعل فاعل في مشاكل إدارة الدولة، فأين أنتم من هذه اللحظة؟ ما هو الإعداد عندكم؟ فتصور المآل غائب، وهذا الذي تكلمنا عليه كثيرًا، المآل غائب عند كثير من الناس.

انظر الآن إلىٰ فصيل حماس مثلًا، وإن كان يحسب علىٰ الإخوان، هل هذا هو فصيل الإخوان في مصر؟ مستحيل، الآن ربما تقول: بفعل وجود حماس في غزة، وبجوار اليهود، أصبحوا يعدون. لكنك أصبحت دولة، وهذا فصيل صغير، وعنده جيش، وعنده أسلحة، ويطور أسلحته كل يوم، أنت منذ ثمانين

سنة، ماذا فعلت؟ منذ سنة (١٩٢٨) إلىٰ الآن، ماذا فعلت؟ لا سلاح، ولا جيش، ولا كتيبة مجاهدة، لا إعداد لإدارة دولة. فلا بد من الإعداد.

المتن:

٥- اَلْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَالْجَهْلُ وَالتَّجَاهُلُ لِمَطَالِبِ النَّاسِ وَمَا يَحْتَاجُونَهُ، فَالشَّعْبُ، وَجُمْهُورُ النَّاسِ، لَا يُسَانِدُونَ أَيَّ دَعْوَةٍ، أَوْ حَرَكَةٍ، أَوْ فَصِيلٍ؛ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: ...

الشرح:

لا بد أن يفهم هذا الإخوة الذين يقومون علىٰ الدعوة، الناس لا تستجيبون إلىٰ دعوتك إلا بشرطين، الناس لا يستجيبون إلىٰ دعوتك، ويساندونك، ويناصرونك، ويكونون ردءًا لك، وحاضنة شعبية قوية لك، إلا بشرطين.

المتن:

اَلْأَوَّلُ: أَنْ يَفْهَمَ مَقَاصِدَ الْجَمَاعَةِ وَأَهْدَافَهَا. وَهَذَا قَصَّرَتْ فِيهِ الْجَمَاعَاتُ تَقْصِيرًا بَالِغًا، إِعْلَامِيًّا، وَاجْتِمَاعِيًّا، وَسُلُوكِيًّا فِي الْوَاقِعِ.

الشرح:

الناس يُفاجَؤون بخروج الجماعة، هكذا بدون مقدمات، ما هي الجماعة هذه؟ ما هدفها؟ من أين جاءت؟ إلىٰ ماذا تدعو؟ لا يعرف الناس.

وتغييب الناس في المشهد مصيبة كبيرة، لم يفعله النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نزل إلىٰ كل الناس، وكان بابه مفتوحًا لكل الناس. هذا مهم جدًا.

المتن:

وَالثَّانِي: أَنْ يَجِدَ النَّاسُ فِي الْجَمَاعَةِ أَوِ الْحَرَكَةِ حَلًّا لِمَشَاكِلِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي يُعَانُونَ مِنْهَا عَلَىٰ أَرْضِ الْوَاقِعِ. وَبِالْعُزْلَةِ عَنِ النَّاسِ فَشِلَتِ الْحَرَكَاتُ فِي احْتِوَاءِ النَّاسِ، وَفَشِلَتْ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ بِصِدْقٍ، وَمُعَامَلَتِهِمْ بِخُلُقِ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

الحركات بدأت تعامل من يواليها فقط، هذا منا، هذا يؤيدنا، والمسلم الآخر هذا؟ لا، ليس منا هذا، هذا أبعده، لا تعطه، لا تحسن إليه، لا تسأل عنه، لا تحل مشاكله، لماذا؟ لأنه من الجماعة الفلانية، هو محسوب علىٰ الفرقة الفلانية؛ هذا الذي جعل الناس يتفرقون فيما بينهم، حتىٰ إذا ظهرت جماعة، فُضّ الناس من حولها؛ لأنها لم تُقدِّم، هي فرقت علىٰ الولاء فقط، العصبية فقط هي التي جمعتها.

فالعصبية هي التي جعلت الجماعة تتحزب، مَن معنا فهو منا، ومن ليس معنا فهو علينا، حتىٰ لو كان لا يعادينا، هو علينا، لماذا لا يأتينا؟ لماذا لا ينضم إلينا؟ إذن هو يعادينا! وهكذا.

المتن:

٦- وَهُنَاكَ سَبَبٌ جَوْهَرِيٌّ مُهِمٌ جِدًّا فِي فَشَلِ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ فِي تَطْبِيقِ شَرْعِ اللـه، وَإِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ تَحْكُمُ بِدِينِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ وَلَا تَرْضَىٰ بِالتَّبَعِيَّةِ، أَلَا وَهُوَ عَدَمُ مُوَاجَهَةِ هَذَا التَّضَخُّمِ وَالْكَمِّ الْهَائِلِ مِن انْضِمَامِ الشَّبَابِ لِلْجَمَاعَةِ وَالْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مَعَ غِيَابِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْحَرَكِيَّةِ لِاسْتِيعَابِهِ.

الشرح:

حتىٰ لو بالتدرج، عندك الآن أعداد كبيرة تدخل إليك، أنت ليس عندك منهجية لاستغلال هذا الشباب، ليس عندك منهجية لتوظيف هذا الشباب في أعمال تدر علىٰ الجماعة، أنت تركتهم فقط، أنت فرحت أنهم انضموا إليك، وبعد؟ لا بد أن توظف هذه الطاقات في عمل يعود علىٰ الجماعة بخير، أما أن تجمع تجمع تجمع، والشباب ليس عندهم ما يشغلهم، فبدؤوا ينشغلون من داخلهم، بإثارة المسائل، بإثارة بعض المشاكل الفكرية، فأصبحوا ينشغلون بأنفسهم، فكثر فيهم الجهل، والبطالة هي أصل المرض.

لكن لو كان عندك خطة في استيعاب كل الشباب الذين ينضمون إليك، تجد لهم أعمالًا ووظائف، ينشغلون فيها، وينتجون فيها، وتعود علىٰ الجماعة بالخير، لكان أولىٰ، كل في صنعته، الصانع فالصناعة، التاجر في التاجرة، المدرس فالتدريس، القائد في القيادة، المدرب في التدريب، حتىٰ تكون هذه الجماعة كخلية النحل، ما فيها بطال، ما فيها عاطل، كلٌّ يعمل، أنت شغلتهم

بما ينفعهم. لكنهم انضموا إليك ولم يجدوا أعمالًا، فماذا سيكون؟ البطالة تأكلهم، الأفكار تفسدهم.

المتن:

فَيَجِبُ إِيجَادُ مَجَالَاتٍ حَقِيقِيَّةٍ لِتَفْرِيغِ طَاقَاتِ الشَّبَابِ، وَإِلَّا تَعَرَّضَتِ الْجَمَاعَةُ لِلْكَثِيرِ مِنَ الِانْحِرَافَاتِ.

إِذَا فَشِلَتِ الْجَمَاعَةُ فِي تَوْفِيرِ الْأَعْمَالِ التَّنْفِيذِيَّةِ لِلشَّبَابِ؛ سَيَتَحَوَّلُ هَذَا الْكَمُّ الْهَائِلُ -وَالَّذِي يَزِيدُ كُلَّ يَوْمٍ- مِنْ وَرَمٍ حَمِيدٍ إِلَىٰ وَرَمٍ خَبِيثٍ قَاتِلٍ مُدَمِّرٍ، وَمِنْهُ تَحْصُلُ الِانْشِقَاقَاتُ وَالتَّمَرُّدُ، وَيَحْصُلُ التَّفَرُّقُ وَالتَّمَزُّقُ، وَيَتْبَعُهُ الْفَشَلُ وَالسُّقُوطُ، هَذِهِ أَهَمُّ الْأَسْبَابِ فِي نَظَرِي، وَهُنَاكَ أَسْبَابٌ أُخْرَىٰ لِلْفَشَلِ، مِنْهَا:

٧- الْعَجَلَةُ وَالِاسْتِعْجَالُ فِي الْمُوَاجَهَةِ قَبْلَ الْإِعْدَادِ الْجَيِّدِ اللَّازِمِ لِحُصُولِ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَفْقَ سُنَنِ اللـه الْكَوْنِيَّةِ، فَقَدْ مَكَثَ رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَإِلَىٰ فَهْمِ مَعْنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللـه)، وَتَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ لـله وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ تَكَالِيفَ وَاجِبَةٍ تُزَاحِمُ هَذَا الْأَصْلَ، ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً! مِنَ الدَّعْوَةِ، وَالصَّبْرِ، وَالْجِدِّ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ لِدِينِ اللـه، وَبَعْضُ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ الْعَامِلَةِ لِلْإِسْلَامِ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ دَعْوَتِهَا إِذَا تَجَمَّعَ لَهَا أَلْفٌ أَوْ عَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ الشَّبَابِ؛ أَعْلَنُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَدَخَلُوا فِي صِدَامَاتٍ

دَامِيَةٍ مِنْ غَيْرِ إِعْدَادٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ؛ فَانْقَضَّ عَلَيْهِمُ الْكَافِرُ الْمُحْتَلُّ وَالطَّاغُوتِ الْمُرْتَدُّ فَاسْتَأْصَلَهُمْ!

الشرح:

وهذه حقيقة. لو اجتمع لك ألف شخص، أو خمسة آلاف شخص، أعلنت، أعلنت أني دعوة إسلامية، وأقيم دولة إسلامية، وخلافة إسلامية. بكم؟ بألف؟! ما هذا الجهل؟! أنت تدعو شهرًا واحدًا، ويجتمع عليك عشرة آلاف أو عشرون ألفًا، ثم تقيم دولة! أنت في هذا الشهر ربيت، وأعددت، ووضحت المناهج والمراحل، وغير ذلك، أم اغتررت بالعدد؟ أي إنسان يستطيع أن يدعو الآن ويقول: أنا كذا وكذا وكذا، انظر الآن إلىٰ الدعوات الباطلة، الذي يقوم يقول: أنا المهدي. يتبعه ناس.

ولكن ماذا بعد الدعوة؟ ينقض علىٰ الفئة المؤمنة ويستأصلها، حتىٰ الذي كان مستخفيًا يظهر، كأن هذه من خطط الكفار؛ ليعلنوا عن هؤلاء الخلايا النائمة، كيف نخرجهم؟ نخرج فيهم شخصًا، ويقول: أنا خليفة، أنا أقيم دولة، أنا أنا أنا. فالسذج سيتبعونه، فنحن نخطفهم خطفًا، إذن هذه وسيلة سهلة لقطف ثمار الجماعة المسلمة.

فالاستعجال في هذه الطريقة هذا خبل نعاني منه الآن.

المتن:

٨- مِنْ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ الْفَشَلِ: الْعَشْوَائِيَّةُ، وَالْقَفْزُ عَلَىٰ الْمَرَاحِلِ قَبْلَ اسْتِيفَائِهَا، بَعِيدًا عَنِ التَّخْطِيطِ وَالتَّنْظِيمِ الْمُعَدِّ مُسْبَقًا لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ، وَقَبْلَ انْتِهَاءِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ أُعِدَّتْ مُسْبَقًا وَفْقَ مَنْهَجٍ وَاضِحٍ، وَخُطَطٍ مَوْضُوعَةٍ، وَأَهْدَافٍ مُحَدَّدَةٍ. فَعَصْرُ النُّبُوَّةِ قُرَابَةَ رُبْعِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، دَعْوَةٌ، وَصَبْرٌ، وَجِهَادٌ.

الشرح:

أنت تسير في هذا الطريق بخطوات ومراحل، فلا تتعد مرحلة قبل نضج المرحلة التي أنت فيها واستيعابها، لا تتعد مرحلة إلىٰ أخرىٰ قبل أن تستوفي المرحلة التي أنت فيها، لماذا؟ أنت وضعت منهجًا، ووضعت مرحلة، لا بد من أن تأتي علىٰ المنهج، لا بد من أن تأتي علىٰ المرحلة إلىٰ نهايتها، لماذا تقفز؟ قفزتك هذه تكون سببًا في أخطأ فادحة في الجماعة المسلمة، هناك أناس لم يتربوا، ولم يتعلموا، لم يستوعبوا المرحلة، كيف تخاطر بهم وتعديهم إلىٰ مرحلة أخرىٰ، وهم لم يستوعبوا؟ هذا فساد.

المتن:

٩- كَسْبُ الْأَعْدَاءِ، وَفَتْحُ جَبَهَاتٍ قِتَالِيَّةٍ تَفُوقُ إِمْكَانِيَّاتِ الْمُجَاهِدِينَ، وَعَدَمُ التَّفَطُّنِ لِخُطَطِ الْعَدُوِّ فِي سَحْبِ الْمُجَاهِدِينَ لِمَعْرَكَةٍ هُوَ حَدَّدَ: وَقْتَهَا، وَمَكَانَهَا، وَجَرَّ إِلَيْهَا الْمُجَاهِدِينَ جَرًّا؛ فَيَصْعُبُ عَلَىٰ الْمُجَاهِدِ، أَوِ الْقَائِدِ الَّذِي يُدِيرُ مَعْرَكَةً، يَصْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يُدِيرَ أَكْثَرَ مِنْ مَعْرَكَةٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَتَتَشَتَّتُ الْجُهُودُ، وَيَقَعُ الْإِخْوَةُ فِي الْمَحْظُورِ، فَيَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُهُمْ؛ بِسَبَبِ: تَوْسِيعِ

دَائِرَةِ الْمُوَاجَهَاتِ، وَكَسْبِ أَعْدَاءٍ جُدُدٍ عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ جَبْهَةٍ. وَلَهُمْ فِي الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ، وَغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ دُرُوسٌ وَعِبَرٌ.

الشرح:

يعني: القائد الذي أعددناه لهذه المعركة، هو أُعِدّ لهذه المعركة فقط، كيف تفتح عليه جبهات أخرىٰ، وتقول له: أنت تسد هذا الثغر، هو لا يتحمل إلا هذه المعركة فقط! هذا الثغر يحكمه، فإذا فتحت عليه جبهات، فأنت مزقته، أنت كنت سببًا في هزيمته؛ لأن من خطتك أن هذا القائد لا ينفع إلا لهذه المعركة فقط، بهذا العدد وهذه العدة، نقول: هذا جيد، لماذا أنت مع إدراكك لهذا، تفتح عليه جبهات أخرىٰ، وأنت تعلم أنه لا يستطيع أن يمزق نفسه، ويشتت شمله علىٰ هذه الثغور كلها؟

إذن يا عبد الله، اتق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تفتح جبهات أنت في غنىٰ عنها، ففتح الجبهات مصيبة كبيرة، فلا بد من أن تراعي مثل هذا.

ثم ما الفائدة من كسب الأعداء؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما جاءه الأحزاب، جعل جبهة واحدة، قال: جبهة الأحزاب هذه هي الخطر الأعظم، نتتهي منها ثم نتفرغ للآخرين، عندك كفار في الداخل، اليهود، نؤمِّن جبهتهم، ونهادنهم، ونوادعهم، حتىٰ تنتهي مثل هذه الأمور. لكنهم خونة! قال: نحن

نتربص بهم، إن خانوا، أخذناهم بخيانتهم، وإن استمروا، فنحن علىٰ عهدنا معهم.

هذه سياسة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعرف إمكانيات الجماعة المؤمنة معه، فلما تكالب الأحزاب عليه، لم يفتح عليهم جبهات أخرىٰ؛ لأن هذه إمكانياتهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف هذا المشهد، وذكر أنهم في شدة ورعب وخوف، حتىٰ كان لا يستطيع الواحد منهم أن يذهب لقضاء حاجته لوحده؛ من الخوف والرعب، ومع ذلك النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد الملهَم، أخذ هذه الجماعة إلىٰ بَرّ الأمان، وبر السلام، وقضىٰ علىٰ جميع الأعداء في وقت واحد، فلما تفرغ من هؤلاء، وأذهب الله يريحهم، اتجه إلىٰ الخونة في الداخل، وعذبهم.

إذن لماذا تفتح علىٰ نفسك جبهات فوق طاقتك؟ ثم تقول: الإخوة لم يجاهدوا، الإخوة تكاسلوا، الإخوة تقاعسوا، أنت الذي أتعبتهم، أنت الذي بفكرك العقيم هذا ورطتهم، وقضيت علىٰ شوكتهم.

فلا بد أن يكون القائد ملهمًا، يفهم، عنده سياسة، عنده وعي شرعي.

المتن:

١٠- اَلْأَفْعَىٰ تُقْتَلُ مِنْ رَأْسِهَا، فَالِاهْتِمَامُ بِالْفَرْعِ دُونَ الْأَصْلِ خَلَلٌ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ الْكَمِّ دُونَ الْكَيْفِ تَفْرِيطٌ، فَقَتْلُ مَا لَا يُؤَثِّرُ قَتْلُهُ: مَضْيَعَةٌ لِلْجُهُودِ،

وَتَأْلِيبٌ لِلْعَوَامِّ، وَفُقْدَانٌ لِلْحَاضِنَةِ الشَّعْبِيَّةِ، وَمُبَرِّرَاتٌ تُعْطِي قُوَّةً لِلطَّاغُوتِ فِي التَّوَحُّشِ وَاسْتِئْصَالِ الْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُجَاهِدَةِ. فَاسْتِهْدَافُ الرَّأْسِ وَإِنْ كَلَّفَنَا الْكَثِيرَ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجُهْدِ وَالْمَالِ وَالْإِعْدَادِ إِلَّا أَنَّهُ يُفْقِدُ الْعَدُوَّ تَوَازُنَهُ، فَإِذَا ضُرِبَ الرَّأْسُ هَدَأَ الْجَسَدُ، وَانْهَدَّتْ أَرْكَانُهُ، وَبِخَاصَّةٍ أَنَّ أَكْثَرَ الْأَنْظِمَةِ الْكَافِرَةِ الْمُتَسَلِّطَةَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ يَحْكُمُهَا أَفْرَادٌ وَلَيْسَ شُعُوبٌ، وَيَسْهُلُ الِانْقِضَاضُ عَلَىٰ رُؤُوسِهَا وَالْقَضَاءُ عَلَيْهَا، وَالتَّعَلُّمُ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللهِ مَعَ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ.

الشرح:

فعدم إهمال الحضانة الشعبية هو الذي أصَّل لنا هذا، وقد ذكرت قبل ذلك أن الخطأ الذي وقعت فيه الحركة الجهادية في وقتنا المعاصر: أن الشيخ أسامة -عليه رحمة الله ورضوانه- لما فتح الجبهات في بلاد المسلمين، قُتِل كثيرٌ من المدنيين في هذه العمليات، ليس قصدًا، ولكنهم قُتِلوا تبعًا لمن تقصدهم، فثار الشعب عليه، فبعد أن كانوا يحضنونه، ويؤيدونه، ويدعون له، ويدعمونه، بدؤوا ينقلبون عليه، هذا كان أكبر خطأ، وهو إهمال الحاضنة الشعبية في هذه المسألة.

وهذا ليس قدحًا في الشيخ أسامه -رحمه الله تعالىٰ وغفر له-، ولا عيبًا وتنقصًا للمجاهدين، معاذ الله، وأستغفر الله من ذلك، فإن الذىٰ يعمل هو الذىٰ يخطىء، ولكن نقول هذا نصحًا لامتنا، ولإخواننا المجاهدين، وهذا من

حبنا للجهاد والمجاهدين، وإن كنا لم نعمل عملهم، ولا سعينا سعيهم، تقبل الله منهم، لكن لابد من تصحيح الأخطاء، وتقويم المسار، فهذا من حقهم علينا، غفر الله للمجاهدين، فهم بَشَر يعتريهم ما يعتري البشر من خطأ في التصور.

وكذلك من الأخطاء: غياب الوعي السياسي بأن الدول يحكمها رؤوس، لا شعب، الشعب لا يحكم، الشعب مغلوب علىٰ أمره، فالذي يحكم فرد، فإذا قصدت أنا هذا الفرد، حصل خلل في هذه الأرض، مع استمراري في الدعوة للحاضنة الشعبية، فأنا حاضر مع الحاضنة الشعبية، أبين منهجي، وأبين دعوتي، وأبين مطالبي، أبين لهم أنني منهم وهم مني، وهدفنا هو هذا الذي يقهركم ويذلكم، كما فعل موسىٰ -عليه السلام- مع فرعون وبني إسرائيل، فقد كانوا يعرفون أن فرعون ظالم وطاغية؛ من تعرية موسىٰ -عليه السلام- له، فنحن كذلك نعرّي هذا الطاغوت بأفعاله التي يراها الناس، نحن نفسر أفعاله فقط، هل هذه أفعال مسلمين؟ هل هذه أفعال مجاهدين؟ هل هذه أفعال رجل يحب أهل الإسلام؟ نبين أفعاله فقط؛ ثم بعد ذلك نتقرب هذه الحاضنة، فإذا تقصدانه لم نجد من يبكي عليه؛ لأنه كان شرًا، كلٌّ يتمنىٰ زواله، فلما زال، فرح الناس أنْ تخلص الله منه.

لكننا لا نفعل ذلك، ثم نؤلِّب الحاضنة الشعبية، ثم نجعل العامةَ هدفنا! فلماذا لا نجعل الخاصة هدفنا؟! ونحن نعلم يقينًا أن الدول لا يحكمها الشعوب، بل يحكمها أفراد، إذا تخلصت من الأفراد، تخلصت من شر كبير.

المتن:

١١- اَلِاخْتِلَافُ، وَالِاعْتِزَالُ، وَالتَّحَيُّزُ:

اِخْتِلَافُ بَعْضِ الْجَمَاعَاتِ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ الْحُكَّامِ الْكَفَرَةِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَتَبْدِيلِ الشَّرِيعَةِ؛ أَكْسَبَ الطَّاغُوتَ وَالْأَنْظِمَةَ الْحَاكِمَةَ قُوَّةً مِنْ بَابِ: (فَرِّقْ تَسُدْ)، وَهَذَا الِاخْتِلَافُ نَاتِجٌ عَنْ خَلَلٍ فِي مَفْهُومِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَدُخُولِ شُبُهَاتِ الْمُرْجِئَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ نَاتِجٌ مِنْ بَابِ فِقْهِ الْمُوَازَنَاتِ وَمَرْحَلِيَّةِ الدَّعْوَةِ، كَمَنْ يَسْتَدْعِي حَالَةَ الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ مِنَ الِاسْتِضْعَافِ وَالصَّبْرِ. لِذَلِكَ قُلْنَا فِي أُسُسِ الْقِيَامِ وَأَسْبَابِ الثَّبَاتِ إِنَّ التَّوْحِيدَ وَالِالْتِزَامَ بِالشَّرِيعَةِ أَصْلٌ مِنَ الْأُصُولِ الثَّابِتَةِ فِي قِيَامِ الدَّوْلَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا، وَتَخَلُّفُهُ أَوْ غِيَابُهُ؛ سَبَبٌ فِي ضَعْفِهَا وَسُقُوطِهَا.

وَاعْتِزَالُ بَعْضِ الْجَمَاعَاتِ الْمُوَاجِهَةُ وَالصِّدَامُ مَعَ الْحُكُومَاتِ، وَوُقُوفُهَا مَوْقِفَ الْمُتَفَرِّجِ فِي السَّاحَةِ يَنْتَظِرُ لِمَنْ تَكُونُ الْغَلَبَةُ، وَالنَّصْرُ، وَالتَّمْكِينُ؛ لِيَلْحَقَ بِهِ، وَهَذَا الِاعْتِزَالُ كَانَ لَهُ أَكْبَرُ الْأَثَرِ فِي إِظْهَارِ الجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ فِي مَظْهَرِ الْخَوَارِجِ، وَالتَّطَرُّفِ، وَالْإِرْهَابِ، مُقَارَنَةً بِجَمَاعَاتِ -الْإِسْلَامِ الْوَسَطِيِّ- الَّذِي

تُرِيدُهُ الْحُكُومَاتُ وَالْغَرْبُ الْكَافِرُ، وَلَيْسَ الْإِسْلَامَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ وَبَيَانِ بُطْلَانِ دِينِهِمْ وَجِهَادِهِمْ وَقِتَالِهِمْ.

وَتَحَيُّزُ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ لِلطَّاغُوتِ، وَمُنَاصَرَةُ الْحُكُومَاتِ الْمُرْتَدَّةِ، وَمُعَادَاةُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْجِهَادِ- مِنَ الْأَسْبَابِ الْقَوِيَّةِ فِي تَمْزِيقِ، وَاخْتِلَافِ، وَحْدَةِ الصَّفِّ الْإِسْلَامِيِّ، وَعَدَمِ جَمْعِهِمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ؛ مِمَّا يَجْعَلُ بَعْضَ الشَّبَابِ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ؛ مِنْ عَدَمِ الْحَسْمِ فِي السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ؛ لِتَعَدُّدِ الطُّرُقِ، وَكُلٌّ يَدَّعِي مُنَاصَرَةَ الْإِسْلَامِ.

١٢- عَدَمُ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الْحَقِّ عِنْدَ بَعْضِ الْجَمَاعَاتِ فَتَجِدُهَا بَعْدَ فَتْرَةٍ تَتْرُكُ طَرِيقَ الْجِهَادِ، وَتَضَعُ أَسْلِحَتَهَا، وَتَنْزِلُ فِي دَرْكِ الْمُرَاجَعَاتِ وَالتَّرَاجُعَاتِ، وَتَدْخُلُ فِي لُعْبَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالْمُعَاهَدَاتِ الدَّوْلِيَّةِ فِي ظِلِّ الْعَلْمَانِيَّةِ، وَتَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهَا طَامِعَةً مِنَ الطَّاغُوتِ بِمَنْصِبٍ فِي الْبَرْلَمَانِ، أَوْ كُرْسِيٍّ فِي وِزَارَةٍ مِنَ الْوِزَارَاتِ، وَاهِمَةً أَوْ مُتَوَهِّمَةً أَنَّهَا بِذَلِكَ سَتَصِلُ إِلَىٰ تَحْكِيمِ شَرْعِ اللـه، وَإِقَامَةِ دَوْلَةِ الشَّرِيعَةِ. وَالتَّجَارِبُ عَلَىٰ مَرِّ السِّنِينَ تُثْبِتُ فَشَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَالْأَمْثِلَةُ فِي الْوَاقِعِ كَثِيرَةٌ.

الشرح:

الاختلاف والاعتزال والتحيز كان سببًا لسقوط الجماعات الإسلامية؛ لأن تقسيم المجتمع في هذه الثلاث يفرق الصف المسلم، يعني: عندما يأتي فريق، وهو معك، ويدعو إلىٰ ما تدعو إليه، ولكنه لا يرىٰ التصادم مع الحكومات، ويقف متفرجًا عليك، وهو لا يلمزك، ولا يشهر بك، ولكن يسكت، ثم بعد ذلك إذا ظهرْتَ كان معك، إن لم تظهر فيظهر أنه كان ناقمًا، وكان لا يرضىٰ، وكان غير ذلك، يمسك العصا من المنتصف، هذا كله يفرق الصف؛ لأنه يُظهِر من يتصدر المشهد علىٰ أنه شاذ ومخالف ومتطرف، لكن لو كان كل هؤلاء في صف واحد، لكان الوضع أفضل بلا شك، بل حتىٰ لو سكتوا عن إخوانهم، ولم يعيبوهم، ويقولوا: هم خوراج متطرفون. ويسيروا في ركب الحكام وآلة الطواغيت الإعلامية، لكان خيرًا لهم، لكنهم ساروا في ركب الدعاية الإعلامية للطواغيت، فرموا إخوانهم بما يعرفون أنه ليس فيهم، دعك ممن عنده انحراف بالغلو أو الأرجاء وغير ذلك، هذا لا يقره أحد، نتكلم عن المنهج العام، أنتم تعرفون أن هؤلاء ملتزمون بعقيدة أهل السنة والجماعة، لماذا تسيرون في ركب الطاغوت، وفي محاربة إخوانكم؟ هذا هو الذي يمزق الصف.

المتن:

١٣- فُقْدَانُ الْحَاضِنَةِ الشَّعْبِيَّةِ وَالْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ، تَجَاهُلُ دَوْرِ الشُّعُوبِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّغْيِيرِ، وَالِاسْتِخْفَافُ بِهِمْ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَىٰ جُهُودِ الْقِلَّةِ مِنَ النُّخْبَةِ

الْمُجَاهِدِينَ الَّذِين قَدْ لَا يَتعَدَّوْنَ الْمِئَاتِ إِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَشَرَاتِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خَطَأٌ كَبِيرٌ!

فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَخْرُجُ فِيهِ العَشَرَاتُ مِنَ الشَّبَابِ الْمُجَاهِدِ عَلَىٰ نِظَامٍ مِنْ أَنْظِمَةِ الْكُفْرِ، تَجِدُ الْمَلَايِينَ مِنَ النَّاسِ يُمِدُّونَ ذَلِكَ النِّظَامَ: بِالْقُوَّةِ، وَالْحَيَاةِ، وَكُلِّ أَصْنَافِ الْعَوْنِ وَالسَّنَدِ وَالتَّأْيِيدِ، وَكَأَنَّ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ السَّاحَةِ لَا يَعْنِيهِمْ، وَهُوَ لَا يَعْنِي سِوَىٰ حِفْنَةٍ مِنَ الشَّبَابِ!

لِذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ تَلَاحُمِ الْمُجَاهِدِينَ مَعَ الشُّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ؛ لِتكُونَ قَضِيَّةُ الْخُرُوجِ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ الْكَافِرَةِ الْخَائِنَةِ قَضِيَّةَ الْجَمِيعِ، وَمُهِمَّةَ الْجَمِيعِ، وَمَسْؤُولِيَّةَ الْجَمِيعِ؛ فَهَذَا الدِّينُ أَمَانَةٌ فِي أَعْنَاقِ الْجَمِيعِ، وَكُلٌّ مِنَّا عَلَىٰ ثَغْرٍ مِنَ الثُّغُورِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ ثَغْرِهِ.

لَا بُدَّ لِهَذِهِ الشُّعُوبِ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ حَبْلَ الْمَدَدِ، وَالْعَوْنِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْحَيَاةِ، الَّذِي تَمُدُّ بِهِ الطَّوَاغِيتَ وَأَنْظِمَتَهُمْ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ مُفَاصَلَةِ الطَّوَاغِيتِ، وَاعْتِزَالِهِمْ، وَاجْتِنَابِهِمْ، وَالْبَرَاءِ مِنْهُمْ، الَّذِي أَمَرَتْ بِهِ عَشَرَاتُ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ.

كَمَا لَا بُدَّ لِلطَّلِيعَةِ الْمُجَاهِدَةِ مِنَ الْعَمَلِ الدَّؤُوبِ لِلِارْتِقَاءِ بِالشُّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ إِلَىٰ هَذَا الْمُسْتَوَىٰ مِنَ الْوَعْيِ وَالْفَهْمِ وَالِالْتِزَامِ، وَإِلَّا سَنَظَلُّ نُمْنَىٰ بِمَزِيدٍ مِنَ الْخَسَائِرِ وَالْهَزَائِمِ.

١٤- اَلْخَطَأُ فِي قِرَاءَةِ الْمَوْقِفِ وَتَقْدِيرِهِ، فَإِنَّ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ تَفْتَقِرُ إِلَىٰ عَنَاصِرِ النَّجَاحِ بِفُقْدَانِهَا لِلرُّؤْيَةِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةِ (الْهَدَفِ).

فَهِيَ تَرْفَعُ شِعَارَ (الشَّرِيعَةِ)، وَ (حُكْمِ اللهِ)، وَ (الْإِسْلَامُ هُوَ الْحَلِّ)، فَكُلُّ هَذِهِ شِعَارَاتٌ وَلَيْسَتْ رُؤْيَةً وَاضِحَةً لِلتَّطْبِيقِ فِي الْوَاقِعِ وَالْوُصُولِ إِلَىٰ الْهَدَفِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الشِّعَارِ وَالرُّؤْيَةِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْخَطِيبِ وَالْوَاعِظِ وَالدَّاعِيَةِ، وَبَيْنَ الْمُوَجِّهِ وَالْمُرْشِدِ وَالْمُفَكِّرِ وَالْعَالِمِ الْمُحَقِّقِ.

الشرح:

يعني: ليس عندنا خطة عملية واقعية، عندنا هدف، وهو أن يحكم الإسلام حياة الناس، فنحن نعرف أن الإسلام هو الحل، لكن ما الخطة العملية لتطبيق هذا الإسلام؟ نعرف أن الشريعة هي الحل، فما خطواتك أنت في هذا العمل؟

فنحن نرفع الشعارات الكبيرة، دون العمل عليها في أرض الواقع، لذلك عندما نقارن بين الشعارات والواقع، نجد البون شاسعًا جدًا، أنت تقول: هدفي إقامة دولة إسلامية، هدفي أن يحكم الإسلام في كل أمور الحياة؛ لأنه هو الحل لجميع المشاكل، هذا شعار وليس هدفًا!

أنت تقول: أنا مسلم.

- ما الخطوات التي أعرف بها أنك مسلم؟ يعني ما هي الخطوات والمراحل والأهداف التي تبرهن بها علىٰ إسلامك؟

فلا بد أن نفرق بين الشعارات وبين الهدف الذي يحمله هذا الشعار، أما أن نعيش أعمارنا نكرر: الإسلام هو الحل، الشريعة هي الحل، الطاغوت، الدولة. هذا كلها كلمات وشعارات، لا بد أن نترجم هذه الشعارات إلىٰ واقع، وهدف، ومراحل علىٰ أرض الواقع.

المتن:

لَا بُدَّ مِنْ تَحْوِيلِ الشِّعَارِ إِلَىٰ بَرْنَامَجٍ فِكْرِيٍّ عَمَلِيٍّ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ وَيَشْعُرُونَ بِهِ.

١٥- وَكَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْفَشَلِ فُقْدَانُ الْكَادِرِ السِّيَاسِيِّ لِلْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّة، الَّذِي يَعْمَلُ بِرُوحِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْوَاسِعِ، وَلَيْسَ بِمَفْهُومٍ حِزْبِيٍّ ضَيِّقٍ. فَفَرْقٌ بَيْنَ التَّرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْحِزْبِيَّةِ، وَتَرْبِيَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ، فَالتَّرْبِيَةُ الْحِزْبِيَّةُ تُخْرِجُ إِنْسَانًا حِزْبِيًا بِمَفْهُومٍ انْتِمَائِيٍّ ضَيِّقٍ، وَهَذَا أَهَمُّ عَائِقٍ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُعَالَجَتُهُ فِي إِطَارٍ مُجْتَمَعِيٍّ مُؤَسَّسِيٍّ اجْتِمَاعِيٍّ، فَيَجِبُ عَلَىٰ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَجَاوُزُ الْعَتَبَةِ الْحِزْبِيَّةِ، وَأَنْ تَتَعَلَّمَ فِقْهَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ عَصْرِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ.

الشرح:

يعني: التربية عندنا إسلاميةٌ صحيحةٌ، لكنها في محضن حزبي، فالإخوان يربون تربية إسلامية في محضن الإخوان، والجماعة الإسلامية تربي في محضن

الجماعة الإسلامية، والسلفيون يربون في محضن السلفيين، هذه التربية أقول: إسلامية، ليست خطأً، ولكنها في محضن حزبي بعيد عن محضن الدولة والجماعة الأم، فتجد انتماءه الذي تربىٰ عليه للجماعة، لا للأمة؛ لذلك تجده في المواقف يميل دائمًا فطريًّا إلىٰ التربية التي تربىٰ عليها، فيميل إلىٰ الجماعة اللي تربىٰ فيها، ويبعد عن الجماعة الأخرىٰ التي هي إسلامية كذلك، ويعترف أنها إسلامية، ولكنه لا ينتمي إليها حزبيًّا؛ لأنه تربىٰ علىٰ الحزبية الضيقة، ولم يتربَّ علىٰ مفهوم الدولة الواسع.

لذلك لما كنا نربي أولادنا وإخواننا، نقول لهم: أنت مسلم، فلا تعط لأحد فرصة أن يحزِّبك، أو يجعلك في تصنيف معين، فأنت مسلم، تتعامل مع جميع إخوانك العاملين في الحركات الإسلامية بخلق الإسلام، هم إخوانك، لهم النصرة، ولهم التأييد، ولهم الذب عنهم، ورد غيبتهم، هذا مسلم وأنت مسلم كذلك، هو خرج بنفسه وماله في سبيل اللـه، وأنت كذلك خرجت، فلا تجعل الطواغيت يجعلون بينك وبينه الحواجز، فتعاديهم ويعادونك.

فتعامل مع الجميع بخلق الإسلام، اخرج من الانتماء الحزبي الضيق، إلىٰ رحب الدولة الإسلامية الواسعة، هذا لا بد أن نربي عليه الجيل، نقول: أنت مسلم أولًا وآخرًا، فعامل الجميع بخلق الإسلام، المسلم والكافر، المؤيد والمخالف، أظهر الإسلام في سلوكياتك مع الناس؛ أما عند الخصومة وعند

العداء تَظْهر جاهليتُك، وحزبيتك، وانتماؤك الضيق للحزب، كل هؤلاء إخوانك، لهم حق النصرة والتأييد، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه**»(١)، هذا الشعار الأعلىٰ لجماعة أهل السنة والجماعة؛ أما الشعار الضيق فأنت تربيت في حزب معين أو جماعة معينة، فانتماؤك لها، حتىٰ لو وجدت أخاك يذبح، فلا تستطيع أن تدافع عنه؛ لأنك تربيت علىٰ هذا.

فلا بد أن نفرق بينهما يا إخوان.

المتن:

١٦- غِيَابُ النَّظَرِيَّةِ الْمُتَكَامِلَةِ فِي السِّيَاسَةِ الدَّوْلِيَّةِ وَالْحَرَاكِ الِاجْتِمَاعِيِّ.

تَجَاهُلُ الْوَاقِعَ الدَّوْلِيِّ الْمُؤَثِّرِ فِي سِيَاسَاتِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ جَعَلَ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي عُزْلَةٍ عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ بَعْضُهَا لَا تَعْتَبِرُ بِهِ، وَتَجْهَرُ بِعَدَاوَتِهِ، وَتُسَارِعُ فِي الصِّدَامِ مَعَهُ؛ مِمَّا يَزِيدُ الضَّغْطَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ؛ فَتَعْجَزُ وَتَنْهَارُ وَتَسْقُطُ مِنْ نَفْسِهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ إِدْرَاكٍ وَفَهْمٍ لِطَبِيعَةِ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ، وَغِيَابِ التَّصَوُّرِ الصَّحِيحِ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَةُ الْمَدِينَةِ فِي الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ وَصَدْرِ خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ س. وَأَدْنَىٰ اطِّلَاعٍ عَلَىٰ مُرَاسَلَاتِ رَسُولِ اللـه ج لِرُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ، وَمُلُوكِ الدُّوَلِ الْكُبْرَىٰ، وَقِرَاءَةِ نَصِّ الرَّسَائِلِ، وَكَيْفَ

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩٥١)، ومسلم رقم: (٢٥٨٠).

تَعَامَلَ رَسُولُ اللـه ج مَعَ الْمَوْقِفِ بِحِكْمَةٍ وَبُعْدِ نَظَرٍ - لَمَا كَانَ الْحَالُ كَمَا هُوَ الْآنَ!

الشرح:

يعني: عندما تنظر إلىٰ سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اِستلْهِم منه كيف عامل هؤلاء الناس في مناطهم؟ هذا هو قدوتك، كيف تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الموقف في هذا المناط؟ أنت كذلك تتعامل فيه وفق تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تبتعد، لو ابتعدت، فستنحرف.

المتن:

وَالسَّاحَةُ الشَّامِيَّةُ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ خَيْرُ مِثَالٍ حَيٍّ مُشَاهَدٍ عَلَىٰ فُقْدَانِ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْكَادِرِ السِّيَاسِيِّ الْمُحَنَّكِ، الَّذِي يَقْدُرُ الْأُمُورَ قَدْرَهَا فِي حُدُودِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، مَعَ حِفْظِ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَاسْتِقْلَالِ الْجَمَاعَةِ، وَعَدَمِ تَبَعِيَّتِهَا لِلشَّرْقِ أَوِ الْغَرْبِ، مَعَ إِدْرَاكِ أَنَّ كُلَّ تَفَرُّقٍ وَتَمَزُّقٍ فِي الصَّفِّ الْمُسْلِمِ لَا يَخْدُمُ إِلَّا الْعَدُوَّ الْمُتَرَبِّصَ الَّذِي يَعْمَلُ جَاهِدًا عَلَىٰ التَّحْرِيشِ وَالْإِفْسَادِ؛ لِعِلْمِهِ الْقَطْعِيِّ بِقُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اتَّحَدُوا، وَأَنَّ فِي اتِّحَادِهِمْ زَوَالٌ لِلْكُفْرِ وَدَوْلَتِهِ، وَيُدْرِكُ الْعَدُوُّ قُوَّةَ الْإِسْلَامِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ التَّمَسُّكِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَعَقِيدَةِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَمَثِّلَةَ فِي التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ؛ لِذَلِكَ يَعْمَلُ الْعَدُوُّ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَكُلِّ الْوَسَائِلِ، وَالسُّبُلِ؛ فِي الْحَيْلُولَةِ دُونَ اتِّحَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ خَلِيفَةٍ وَاحِدٍ، وَحَاكِمٍ وَاحِدٍ، وَقَائِدٍ

وَاحِدٍ، وَرَايَةٍ وَاحِدَةٍ تَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ، كُلِّ الْأَرْضِ؛ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، وَحَتَّىٰ يُعْبَدَ اللـه وَحْدَهُ. يُدْرِكُ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مِنْ قِرَاءَتِهِمْ لِتَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَعَصْرِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَقِيَامِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ حَتَّىٰ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، الَّتِي ذَاقَتْ وَيْلَاتِهَا أُورُوبَّا، وَعَانَتْ فِي حَرْبِهَا مَعَهَا أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ؛ لِذَلِكَ عَمِلَتْ بِخُبْثٍ وَدَهَاءٍ فِي تَوْرِيطِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي أَكْثَرَ مِنْ جَبْهَةٍ؛ بُغْيَةَ إِضْعَافِهَا، وَإِسْقَاطِهَا، وَخَطَّطَتْ لِذَلِكَ تَخْطِيطًا بَعِيدَ الْأَجَلِ، وَوَضَعَتْ نَصْبَ عَيْنَيْهَا هَذَا الْهَدَفَ، وَسَعَتْ إِلَيْهِ بِخُطَىٰ ثَابِتَةٍ، فِي صَبْرٍ وَثَبَاتٍ تَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ الْأَجْيَالُ، وَتَوَارَثَتْهُ الْقَادَةُ، وَتَوَاصَوْا بِهِ!

وَهَذَا مَا يَحْصُلُ فِي السَّاحَةِ الشَّامِيَّةِ الْآنَ، وَمَا حَصَلَ قَبْلَهَا فِي السَّاحَةِ الْأَفْغَانِيَّةِ فِي غَفْلَةٍ وَغَيْبَةِ وَعْيٍ لِلْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَكَأَنَّهَا لَا تَعِي الدُّرُوسَ، وَلَا تَتَعَلَّمُ مِنَ الْأَخْطَاءِ!

وَالْعَجِيبُ الَّذِي يَدْعُو إِلَىٰ التَّأَمُّلِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ طَوِيلًا، أَنَّ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي طَرْحِهَا لِنِتَاجِهَا الْعِلْمِيِّ تَذْكُرُ أَسْبَابَ الْفَشَلِ هَذِهِ مِنْ بَابِ التَّنْظِيرِ، لَا مِنْ بَابِ التَّنْفِيذِ وَوَضْعِ الْعِلَاجِ لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ! فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَحْتَ رَايَةِ الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ، وَكَانُوا قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ مِنْ سُقُوطِ بَغْدَادَ، وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الْعَدُوِّ الْأَمْرِيكِيِّ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ، وَبَعْدَ أَنْ كَانُوا عَلَىٰ بَعْدَ خُطُوَاتٍ مِنْ دُخُولِ دِمَشْقَ، وَالْقَضَاءِ

عَلَىٰ العَدُوِّ الرُّوسِيِّ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ، وَبَعْدَ أَنْ وَجَّهُوا سِلَاحَهُمْ صَوْبَ الْكُفَّارِ، وَكَادُوا أَنْ يَهْزِمُوهُمْ وَيَقْضُوا عَلَيْهِمْ وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، هُمْ وَالطَّوَاغِيت الَّذِين جَلَبُوهُمْ وَاسْتَعَانُوا بِهِمْ، فَجْأَةً بَعْدَ غَفْلَةٍ حَوَّلُوا سِلَاحَهُمْ إِلَىٰ صُدُورِ إِخْوَانِهِمْ، وَقَاتَلُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا!

الشرح:

ذكرنا الساحة الشامية لأنها ساحة مشاهدة، الشباب الآن يشاهدون هذا، يعني: لو كلمناهم عن واقع لم يعايشوه، لم يتصوروه تصورًا صحيحًا، إنما ذكرنا الساحة الشامية لأنها كانت مشاهدة، بعد أن كان المجاهدون قاب قوسين من دخول بغداد ودمشق، وكانوا جميعًا يسيرون في اتجاه واحد، رغم اختلافهم، الدولة كانت من جهة، والقاعدة كانت من جهة، وجبهة الشام كانت من جهة، كلٌّ يتجه إلىٰ دمشق وبغداد، وكادوا أن يسقطوهما فعلًا، لولا أن الكفار حرَّشوا بين المجاهدين، واتجهت البوصلة إلىٰ صدور بعضهم، فحصل هذا التفرق الذي تراه الآن؛ لغياب الكادر السياسي الذي عنده وعي، وسياسة شرعية.

المتن:

وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَؤُوا، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ فِتْنَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَبَأٍ، وَكَيْفَ كَانَتْ فِتْنَتُهُ؟!

وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَقِفُوا عَلَىٰ فِتْنَةِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ، وَكَيْفَ فَعَلَ الْخَوَارِجُ وَأَهْلُ الْغُلُوِّ بِالنَّاسِ؟!

الشرح:

أنتم تعرفون فتنة عبد الله بن سبأ، وكيف نشأت؟ وكذلك فتنة الجمل وصفين، كيف بدأت؟

المتن:

وَكَيْفَ كَانَتْ نِهَايَتُهُمْ عِنْدَمَا تَفَطَّنَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ؛ وَوَقَفُوا عَلَىٰ مَكْرِهِمْ وَخِيَانَتِهِمْ وَتَحْرِيشِهِمْ؛ فَاتَّحَدُوا وَاجْتَمَعُوا تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَضَوُا عَلَىٰ فِتْنَةِ ابْنِ سَبَأٍ وَأَتْبَاعِهِ وَحَامِلِي فِكْرَتِهِ الْغَالِيَةِ، وَأَخْرَجُوا مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ!

الشرح:

هذا مهم جدًا، لكنهم تداركوا؛ لأنه كان عندهم الكادر السياسي، والوعي السياسي الشرعي، ففهموا هذا، ونقوا الصفة؛ أما الآن فلا يوجد لدينا كادر سياس.

فغياب الكادر السياسي الشرعي هو الذي أدانا إلىٰ هذا.

المتن:

لَا أُرِيدُ هُنَا أَنْ أَتَكَلَّمَ كَلَامًا نَظَرِيًا بَعِيدًا عَنِ التَّطْبِيقِ فِي أَرْضِ الْوَاقِعِ وَعَنِ السَّاحَةِ، وَلَكِنْ أَتَكَلَّمُ عَنْ وَاقِعٍ عَايَشْتُهُ بِنَفْسِي فِي سَاحَاتِ الْعَمَلِ، وَمِمَّا وَقَفْتُ

عَلَيْهِ مِنْ قَادَةِ الْمَجْمُوعَاتِ وَالْفَصَائِلِ وَأُمَرَاءِ الْوِلَايَاتِ، وَأَخْبَرَنِي بِهِ الْمُخْلِصُونَ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ.

اَلسَّاحَةُ الشَّامِيَّةُ الْآنَ عِنْدَهَا مِنَ الْإِمْكَانِيَّاتِ، وَالْعَدَدِ، وَالْعُدَّةِ، وَالسِّلَاحِ، مَالَمْ يَتَوَفَّرْ لَهَا مِنْ قَبْلُ، فَلَا يَنْقُصُهَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ، وَلَكِنْ يَنْقُصُهَا تَجَرُّدٌ وَمُرَاجَعَةُ مَوْقِفِهَا مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِدُوَلٍ تَسْتَخْدِمُهَا لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهَا الشَّخْصِيَّةِ عَلَىٰ حِسَابِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

عَلَيْهَا أَلَّا تَرْضَىٰ بِجُزْءٍ مِنَ الْأَرْضِ تُوهِمُ نَفْسَهَا أَنَّهَا تُسَيْطِرُ عَلَيْهِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَرِّكَ سَاكِنًا، وَلَا تُسَكِّنَ مُتَحَرِّكًا، وَلَا تُطْلِق طَلْقَةً وَاحِدَةً، وَلَا تَتَحَرَّكَ خُطْوَةً تِجَاهَ الْعَدُوِّ، دُونَ إِذْنٍ مُسْبَقٍ مِنَ الدُّوَلِ التَّابِعَةِ لَهَا.

وهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ جِهَادًا وَلَيْسَ طَرِيقًا لِقِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلْ حَرْبًا بِالْوَكَالَةِ عَنِ الْعَدُوِّ وَالْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ، وَإِنْ سَمَّيْنَاهُ سِيَاسَةً أَوْ مَرْحَلِيَّةَ الْقِيَامِ أَوْ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ!

وَالْحَلُّ فِي نَظَرِي يَكُونُ بِالتَّمَسُّكِ بِالثَّوَابِتِ الْعَقَدِيَّةِ، الَّتِي لَا يَصِحُّ التَّنَازُلُ عَنْهَا، وَلَا الْمُسَاوَمَةُ وَالتَّفَاوُضُ عَلَيْهَا، وَهِيَ التَّوْحِيدُ، وَالرِّسَالَةُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ، وَإِظْهَارِ الْعَمَلِ بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَجَائِزٌ التَّفَاوُضُ وَتَصِحُّ فِيهِ الْمَرْحَلِيَّةُ وَمَصْلَحَةُ الْأُمَّةِ، وَفْقَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا فَهِمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَمِلَ بِهَا فِي الْحُدَيْبِيَةِ وَوَثِيقَةِ الْمَدِينَةِ،

وَسِيَاسَتِهِ مَعَ الْمُلُوكِ وَرُؤَسَاءِ الدُّوَلِ الْكُبْرَىٰ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، مِنَ الْحَرْبِ وَالْمُوَادَعَةِ وَالْمُسَالَمَةِ عَلَىٰ حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي مَنَاطِهَا وَوَقْتِهَا وَزَمَانِهَا.

الشرح:

عندنا أصول ثابتة لا يجوز التنازل عنها، التي يسمونها الثوابت: أركان الإيمان الستة، وأركان الإسلام الخمسة، هذه ثوابت غير متغيرة، إذا اجتمعنا علىٰ هذه الأصول فما عدا ذلك يصح فيه التفاوض؛ لأنهم حققوا الأصل، أصل الإيمان (أركان الإيمان الستة، وأركان الإسلام الخمسة)، آمنوا بها، وعملوا بمقتضاها، إذن نتفاوض فيما دون ذلك؛ أما إذا خُرِم ركن منها، فلا يجوز أبدًا.

المتن:

وَإِنْ ظَهَرَ لِبَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ تَرَاجَعَ أَوْ تَخَاذَلَ أَوْ قَبِلَ الدَّنِيَّةَ فِي الدِّينِ، كَمَا فَهِمَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ مِنْ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ أَوْ مُوَادَعَةِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ دَائِمًا مَعَ الْوَحْيِ وَشُورَىٰ الْجَمَاعَةِ وَمَا يَرَاهُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالِاخْتِيَارِ، فَهُمْ صُنَّاعُ الْقَرَارِ؛ بِمَا يَطَّلِعُونَ بِهِ عَلَىٰ حَقَائِقِ وَبَوَاطِنِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا عَامَّةُ النَّاسِ.

الشرح:

يعني: لا تجعل العامة يضغطون عليك كرأس، لا تجعل العامة يضغطون عليك بجهلهم، وتأخذ قرارات من باب الضغط، وأصور لك بمثال:

أنت رب أسرة، وأنت تعرف كل ما يدور في الأسرة، (الكلمة غير واضحة في الصوتية: وكل ما يصلح فرد)، فتأتي مجموعة أولاد من الأسرة يضغطون عليك: نريد كذا وكذا. وأنت تعرف أن هذا لا يمكن؛ لأن فيه فسادًا لهم، فمن كثرة الضغط، تنزل علىٰ رغبتهم! فلا يجوز لك كقائد وكرئيس، أن تنزل وتَسِيْر مع العوام، فالله ميزك بالعقل والعلم، فأنت تُسَيِّر العوام، ليس العوام هم الذي يسيرونك، أنت كرب أسرة تُسَيِّر الأسرة، ليس الولد هو الذي يسيرك من باب الضغط.

المتن:

وَالَّذِي يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْأَسْبَابِ: أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ، وَأَسْبَابِ فَشَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ فِي إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ يَرَىٰ -بِإِنْصَافٍ- الْعَجَلَةَ وَالْعَشْوَائِيَّةَ الَّتِي جَرَّتْ إِلَىٰ الصِّدَامِ أَوْ سُرْعَةِ الصِّدَامِ أَوْ جُرَّتْ إِلَيْهِ جَرًّا مَعَ الدُوَلِ وَالْأَنْظِمَةِ، فَالْعَجَلَةُ، وَالْعَشْوَائِيَّةُ، وَسُرْعَةُ الصِّدَامِ، أَوْ جَرُّ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الْجِهَادِيَّةِ إِلَىٰ الصِّدَامِ جَرًّا، مَعَ أَنَّهَا لَمْ يَكُنْ فِي خَلَدِهَا هَذَا الصِّدَامُ وَهَذِهِ الْمُوَاجَهَةُ الْمُبَكِّرَةُ؛ وَلَكِنْ جُرَّتْ إِلَيْهَا جَرًّا.

وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْقَاسِمَةُ، وَفِي نَظَرِي هَذِهِ الثَّلَاثَةُ السَّبَبُ الرَّئِيسِيُّ فِي عَدَمِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَتَّى الْآنَ!

الشرح:

فالعجلة، والعشوائية، وسرعة الصدام: هذه هي أصل بلاء المسلمين الآن.

المتن:

اَلْعَشْوَائِيَّةُ، وَالْعَجَلَةُ، وَالصِّدَامُ مَعَ الْأَنْظِمَةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ، وَمِنْ غَيْرِ إِعْدَادٍ لِهَذَا الصِّدَامِ. وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَوْ نَظَرْنَا إِلَىٰ الْعَامِلِ الْأَوَّلِ: وَهُوَ الْبُعْدُ عَنِ اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَالْمُخَالَفَاتُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي تَقَعُ فِي هَذِهِ الدُّوَلِ وَمِنْ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ؛ وَقَفْنَا بِصِدْقٍ عَلَىٰ أَنَّ اللُّجُوءَ إِلَىٰ اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَالِالْتِزَامَ بِشَرْعِهِ، وَبِتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَدْلَ، وَمُحَارَبَةَ الْفَسَادِ، وَالْأَخْذَ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ- هَذِهِ كُلُّهَا أَسْبَابُ الثَّبَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ. وَالتَّخَلِّي عَنْهَا هِيَ أَسْبَابُ الْفَشَلِ وَالْهُبُوطِ والِانْهِيَارِ.

وَلَكِنْ ثَمَّةَ إِشْكَالَاتٌ كَثِيرَةٌ تَطْرَأُ عَلَىٰ هَذَا الطَّرْحِ.

رُبَّمَا يَقُولُ قَائِلٌ: نَظَرْنَا فِي تَارِيخِ الدُّوَلِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تُطَبِّقَ شَرْعَ اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَتَعْمَلَ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَوَجَدْنَا أَنَّهَا كَانَتْ قُوَّةً لَا يُسْتَهَانُ بِهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ، الَّتِي انْتَهَتْ وَقُضِيَ عَلَيْهَا بِمَعْرَكَةِ دِيرِ الْجَمَاجِمِ، -نحن تكلمنا عنها في درس أمبارح- مَعَ

أَنَّهَا كَانَتْ قُوَّةً عَدَدِيَّةً كَبِيرَةً جِدًّا، وَفِيهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ وَفُقَهَاءِ الْإِسْلَامِ؛ مَا كَانَ سَبَبًا فِي صِبْغَتِهَا بِصِبْغَةٍ شَرْعِيَّةٍ عَادِلَةٍ ضِدَّ طَاغِيَةٍ ظَالِمٍ.

كَذَلِكَ جَمَاعَاتُ الْخَوَارِجِ، كَيْفَ انْتَهَتْ وَقُضِيَ عَلَيْهَا مَعَ كَثْرَتِهَا وَانْتِشَارِهَا، وَكَانَتْ قُوَّةً لَا يُسْتَهَانُ بِهَا.

وَكَذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، لَوْ نَظَرْنَا إِلَىٰ أَفْغَانِسْتَانَ، وَنَظَرْنَا إِلَىٰ الْجَزَائِرِ وَالسُّودَانِ وَإِمَارَةِ نَجْدٍ، وَلَوْ نَظَرْنَا إِلَىٰ بِلَادِ الْعَرَبِ، وَنَظَرْنَا إِلَىٰ الشِّيشَانِ؛ هَذِهِ كَانَتْ قُوَىٰ إِسْلَامِيَّةً تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تُطَبِّقَ شَرْعَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ مَعَهَا عُدَّةٌ وَعَتَادٌ وَجُيُوشٌ وَأَهْلُ عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ، وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ.

لِمَاذَا لَمْ تَنْجَحْ؟

أَوَّلًا: فِي نَظَرِي إِنَّهَا لَمْ تَأْخُذِ الِاسْتِعْدَادَ الْكَامِلَ لِلْمُوَاجَهَةِ، وَلَمْ تَضَعْ فِي حُسْبَانِهَا النِّظَامَ الْعَالَمِيَّ الْجَدِيدَ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْحُكَّامِ -بَلْ مُعْظَمَ الْحُكَّامِ- هُمْ يَعْمَلُونَ فِي إِطَارِ الْقَانُونِ الدَّوْلِيِّ الْعَامِّ وَالنِّظَامِ الْعَالَمِيِّ، وَهُمْ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالْحُكَّامُ لَا يُرِيدُونَ هَذَا الصِّدَامَ، حَتَّىٰ الْحَرَكَاتُ الَّتِي قَامَتْ بِالْقُوَّةِ عَنْ طَرِيقِ تَغْيِيرِ الْأَنْظِمَةِ، عَنْ طَرِيقِ الْقُوَّةِ وَالْغَلَبَةِ وَعَنْ طَرِيقِ الْجَيْشِ، وَخُرُوجِ النَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَمْ يَسْتَمِرَّ الْحَالُ، وَانْتَهَتْ، وَلَمْ تُفْلِحْ فِي تَطْبِيقِ شَرْعِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. هَذَا إِشْكَالٌ.

رُبَمَا إِشْكَالٌ آخَرُ يَقُولُ: إِنَّ الْحُكَّامَ هَؤُلَاءِ لَا يَسْمَحُونَ بِالدَّعْوَةِ؛ لَوْ قُلْت: الْحَلُّ هُوَ أَنْ تَدْعُوَ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَنَشْرِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَتَمْهِيدِ الْأَرْضِ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ج فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ دُونَ الْإِعْلَانِ عَنِ الْقِيامِ، أَوِ الْحَرْبِ، أَوِ الِاسْتِعْدَادِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

نَقُولُ: هَذَا جَيِّدٌ أَنَّكَ تَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَتَدْعُو إِلَىٰ فِكْرَتِكَ، وَتَدْعُو إِلَىٰ تَطْبِيقِ شَرْعِ الله... وَلَكِنْ...

هَلْ يَتْرُكُكَ الْحُكَّامُ أَوِ الْأَنْظِمَةُ الَّتِي تَحْكُمُ بِغَيْرِ شَرْعِ الله؟

هَلْ تَتْرُكُكَ تَدْعُو لِدِينِ الله وَهِيَ تَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ فِي دَعْوَتِكَ إِسْقَاطٌ لَهَا؟!

لَنْ تَتْرُكَكَ -حَتَّىٰ لَوْ تَظَاهَرَتْ بِالْإِسْلَامِ-؛ لَوْ رَأَتْ فِيكَ شَوْكَةً وَالْتِفَافَ النَّاسِ حَوْلَكَ؛ سَيَمْنَعُونَكَ، إِمَّا يَمْنَعُونَكَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، أَوْ يَمْنَعُونَكَ بِالْقُوَّةِ عَنْ طَرِيقِ الِاعْتِقَالِ وَالسَّجْنِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَدْ تَغِيبُ فِي السُّجُونِ وَالْمُعْتَقَلَاتِ، هَذَا حَاصِلٌ. هَذَا إِشْكَالٌ آخَرُ لَا بُدَّ أَنْ نُوَاجِهَهُ بِصِدْقٍ.

الشرح:

يعني: عندنا هنا ثلاث إشكالات، وهذا موجود في الواقع، فلابد أن نبحث هذه الإشكالات.

المتن:

إِذَنْ إِنْ قُلْتَ: إِنَّكَ سَتَدْعُو إِلَىٰ دِينِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَإِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الشِّرْكِ، وَالْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَتَحْكِيمِ شَرْعِ اللهِ. فَلَنْ يَتْرُكَكَ الْحُكَّامُ، وَلَا الْأَنْظِمَةُ فِي أَنْ تَسْتَمِرَ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ نَجَاحَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ هِيَ إِسْقَاطٌ لَهُمْ وَإِسْقَاطٌ لِشَرِّهِمْ. إِمَّا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَكَ وَيَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَيَدْخُلُوا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ، أَوْ يَقِفُوا ضِدَّهَا، كَمَا هُوَ الْحَاصِلُ فِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ. مَاذَا سَتَفْعَلُ أَنْتَ؟

الشرح:

لما بدأ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالدعوة، تصادم مع قومه، فماذا فعل؟ نحن كذلك ماذا سنفعل في هذا الإشكال؟

المتن:

وَأَنْتَ لَمْ تَتَصَادَمْ مَعَهُمْ، وَلَمْ تَقَعْ فِي فَخِّهِمْ -فَخِّ الصِّدَامِ الْمُبَكِّرِ- لَمْ تَفْعَلْ، وَلَكِنِ اجْتَنَبْتَ، وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ لَمْ يَجْتَنِبُوا، وَلَنْ يَتْرُكُوكَ، إِنْ تَرَكْتَهُمْ أَنْتَ فَلَنْ يَتْرُكُوكَ هُمْ. فَمَاذَا سَتَفْعَلُ؟ سَتُقْضَىٰ عَلَىٰ دَعْوَتِكَ، وَيَنْتَهِي مَشْرُوعُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ.

الشرح:

هذا الإشكال الرابع.

المتن:

رُبَّمَا يَأْتِي آخَرُ وَيَقُولَ: نَحْنُ نَدْعُو الْحُكَّامَ، وَنَدْعُو النِّظَامَ، وَنُسَالِمُهُمْ، وَنُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّنَا مَعَهُمْ وَلَسْنَا ضِدَّهُمْ، وَيَتْرُكُونَنَا فِي أَنْ نَدْعُوَ إِلَىٰ دِينِ اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهَذَا سَيَكُونُ مَدْخَلًا لِنَشْرِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ.

نَقُولُ هَذَا جَيِّدٌ، وَلَكِنْ يَرِدُ عَلَيْهِ إِشْكَالٌ:...

الشرح:

الإشكال الخامس.

المتن:

وَهُوَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامَ وَلَاؤُهُمْ وَتَبَعِيَّتُهُمْ لِدُوَلِ الْغَرْبِ وَإِنْ كَانُوا لَا يَرْضَوْنَ عَنْهُمْ. وَبَعْضُ حُكَّامِ الْعَرَبِ، وَبَعْضُ حُكَّامِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَكْرَهُونَ الْغَرْبِ، وَيَكْرَهُونَ اسْتِعْلَائَهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ وَلَكِنْ مِنْ بَابِ حُبِّ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ يَسِيرُونَ فِي رِكَابِهِمْ، وَلَا يَخْرُجُونَ عَنِ النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ الَّذِي تَفْرِضُهُ عَلَيْهِمُ الدُّوَلُ الْأُخْرَىٰ.

فَالْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ إِمَّا أَنْ تَسِيرَ فِي رِكَابِ النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ، وَتَنْقَادَ وَتَخْضَعَ لِلدُّوَلِ الْكُبْرَىٰ، وَإِمَّا أَنَّهَا دَعْوَةٌ إِرْهَابِيَّةٌ وَمُتَطَرِّفَةٌ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي وَاقِعِنَا.

الشرح:

هذه خمسة إشكالات مرت علينا، تقابل الدعوة الإسلامية في واقعنا المعاصر، فما الحل والمخرج؟

المتن:

إِذَنْ هَذِهِ إِشْكَالَاتٌ تَرِدُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُسُسِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ الْعَشْوَائِيَّةُ وَالْعَجَلَةُ وَسُرْعَةُ الصِّدَامِ مَعَ الْأَنْظِمَةِ وَالْحُكُومَاتِ.

إِذَنْ مَا الحل؟

لَوْ تَعَجَّلْنَا الصِّدَامَ مَعَ الْأَنْظِمَةِ وَالْحُكُومَاتِ الَّتِي لَا تُرِيدُ شَرْعَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أَوْ حَتَّىٰ جُرِرْنَا إِلَيْهِ جَرًّا، سَوَاءٌ كَانَ بِالدَّعْوَةِ أَوْ بِالْجِهَادِ سَيَكُونُ الْمَآلُ إِلَىٰ الْفَشَلِ وَإِلَىٰ الِانْهِيَارِ قَبْلَ الْبِنَاءِ وَالنَّمَاذِجُ كَثِيرَةٌ فِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ وَفِي تَارِيخِنَا الْإِسْلَامِيِّ الطَّوِيلِ.

الشرح:

أنا الآن أطرح هذه الإشكالات، ثم بعد ذلك أنتم تفكرون فيها كعاملين في المجال الإسلامي، ثم أذكر لك الحل، الذي هو إشكال علىٰ هذا الإشكال، إذا فعلت هذا سيكون هذا، فما هو الحل عندك؟ حتىٰ أترك لك مجالًا لتُعمِل عقلك في واقعك؛ لأن هذا الكتاب لم يُكتب لفئة معينة، نعم، هو كتب لظرف معين، ولفئة معينة، ولكن سيكون للمسلمين جميعًا، فكلٌّ ينظر في واقعه، ويجد هذه الإشكالات تقابله، ثم يجعل لها حلًا، الحل نحن وضعناه في الآخر علىٰ هدي النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لا بد أن تنقدح هذه الإشكالات في عقلك، وتفكر فيها؛ لأن هذا واقعك.

المتن:

مَا الْحَلُّ؟

هَلْ نُقَنِّطُ النَّاسَ مِنْ إِقَامَةِ دَعْوَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ أَوْ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ؟

هَلْ نُيَئِّسُ النَّاسَ مِنْ الْعَمَلِ لِدِينِ اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَإِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ؟

فَالْأَنْظِمَةُ الْحَاكِمَةُ لَا تَسْمَحُ لَكَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسَيْطِرَ عَلَيْكَ، وَلَا تُمَكِّنُ لَكَ سُبُلَ الِانْتِشَارِ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا بِشُرُوطِهَا الَّتِي تَصُبُّ فِي مَصْلَحَةِ الْحُكُومَاتِ، وَهِيَ تُرَاقِبُكَ عَنْ كَثَبٍ، وَتُعَرْقِلُ مَسِيرَتَكَ الدَّعْوِيَّةِ؛ فَإِنْ رَأَتْ تَأْثِيرَكَ فِي النَّاسِ، وَتَأَثُّرَهُمْ بِدَعْوَتِكَ، وَالْتِفَافَ النَّاسِ حَوْلَكَ، وَالْعَمَلَ بِمَفَاهِيمِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ فِي الْمُجْتَمَعِ، لَمْ تَتْرُكِ الدُّوَلُ الْكَافِرَةُ الَّتِي تَرَىٰ فِي الْإِسْلَامِ عَدُوَّهَا اللَّدُودَ، تَرَىٰ فِيهِ زَوَالَهَا وَالْقَضَاءَ عَلَيْهَا؛ فَتُحَرِّضُ الْحُكَّامَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ دَعْوَتِكَ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ، مَثَلُ: الطَّمَعِ فِي الْمُلْكِ وَالْحُكْمِ، وَنَشْرِ الْإِرْهَابِ وَالتَّطَرُّفِ وَإِقْصَاءِ وَكَرَاهِيَةِ الْآخَرِ (الْكَافِرِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُلْحِدًا).

الشرح:

يعني: هم يسمون الكافر: (الآخر)، من باب الترقيق مع الكافر، لا يسمونه يهوديًا، أو كافرًا، أو نصرانيًا، يسمونه (الآخر).

المتن:

إِذَا كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا مَحْكُومًا عَلَيْهَا بِالْفَشَلِ مَا الْحَلُّ وَمَا الْعَمَلُ؟

إِذَنْ الْحَلُّ وَالْعَمَلُ فِي نَظَرِي مِنْ خِلَالِ تَوْجِيهَاتِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَىٰ وَقَائِعِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَىٰ صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَتَارِيخِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ وَالدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا.

الْحَلُّ وَاللهُ أَعْلَمُ فِي:

الِاجْتِمَاعِ، وَالتَّوَحُّدِ، وَالتَّرَابُطِ بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْفَصَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي هَدَفُهَا إِقَامَةُ دَوْلَةٍ مُسْلِمَةٍ تَحْكُمُ بِشَرْعِ اللهِ، تَجْتَمِعُ تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ وَقِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ خِلَالِ مَجْلِسِ شُورَىٰ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ النُّجَبَاءِ، كَمَا حَدَثَ فِي دَوْلَةِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، فَقَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهَا عَوَامِلُ النَّجَاحِ وَالثَّبَاتِ مِنْ:

وَحْدَةِ الْمَنْهَجِ.

وَسَلَامَةِ الْمُعْتَقَدِ.

وَوَحْدَةِ الْكَلِمَةِ وَاجْتِمَاعِهَا.

وَوُضُوحِ الْهَدَفِ وَالِاعْتِصَامِ بِالْجَمَاعَةِ.

وَوَحْدَةِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ.

وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الْفِتَنِ عِنْدَ ظُهُورِهَا.

وَعَدَمِ السَّمَاحِ بِانْتِشَارِ أَفْكَارٍ مُخَالِفَةٍ تُشَوِّشُ عَلَىٰ النَّاسِ عُقُولَهُمْ أَوْ تَفْتِنُهُمْ عَنْ دِينِهِمْ.

وَوَحْدَةِ الْعُلَمَاءِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَقِيَامِهِمْ بِدَوْرِهِمُ الْمَنُوطِ بِهِمْ فِي النُّصْحِ وَالدَّعْوَةِ وَالْإِرْشَادِ.

الشرح:

لأن الجماعة تقوم مقام الإمامة عند فقدها، جماعة العلماء تقوم مقام الإمامة عند فقدها، ورئيس الجماعة، أو رئيس الدولة، أو المسؤول عن الإخوة، هو يقوم مقام الإمام والخليفة والقائد عند سقوط الدولة، لا تكون الحياة غابة، لا، كل مجموعة من المسلمين لهم رأس، وهذا الرأس مسؤول عنهم، يقيم حياتهم علىٰ وفق شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

وَعَدَمِ السَّمَاحِ بِالْفُرْقَةِ وَالتَّحَزُّبِ.

فِي سَاحَاتِ الصِّرَاعِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ فُرْصَةٌ لِتَكْوِينِ قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ تَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَإِلَىٰ دِينِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَمَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ تَصْبِرُ فِي تَكْوِينِ الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ، بِأُسُسٍ صَحِيحَةٍ سَلِيمَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْعَشْوَائِيَّةِ، وَتَتَعَلَّمَ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ الَّتِي سَبَقَتْ التَّجَارِبُ فِيهَا، وَتَتَعَلَّمَ مِنْ تَجَارِبِ الْآخَرِينَ وَمِنْ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ فِي الصِّرَاعِ مَعَ الْبَاطِلِ.

ثُمَّ فِي هَذَا الْإِطَارِ كَذَلِكَ تَتَجَنَّبُ أَنْ تُجَرَّ إِلَىٰ صِدَامٍ وَإِلَىٰ مَعْرَكَةٍ لَمْ تُحَدِّدْ أَنْتَ الْوَقْتَ وَالزَّمَانَ الْخَاصَّ بِهَا تَتَجَنَّبُ هَذَا وَلَا تُسْتَفَزُّ، بَلْ تَتَجَنَّبُ الصِّدَامَ الْمُبَكِّرَ مَعَ الْحُكُومَاتِ أَوْ مَعَ الدُّوَلِ الْمُجَاوِرَةِ؛ لِأَنَّهَا لَوْ دَخَلَتْ فِي صِرَاعٍ قَبْلَ أَنْ تَتَمَكَّنَ وَقَبْلَ الْإِعْدَادِ الْجَيِّدِ سَتَنْتَهِي حَتْمًا. وَالتَّارِيخُ مَلِيءٌ بِمِثْلِ هَذِهِ النَّمَاذِجِ فَإِذَا كَرَّرْنَا هَذِهِ التَّجَارِبَ وَهَذِهِ النَّمَاذِجَ دُونَ أَخْذِ الِاعْتِبَارِ مِنْهَا فَنَحْنُ لَا نَتَعَلَّمُ!

الشرح:

فالحل الأول في هذه النقاط العشر؛ التي هي الاجتماع والوحدة مع سلامة هذه الأمور، هذا الحل الأول، إذا حققنا هذا يبقىٰ عندنا حل ثانٍ، وهو عدم الانجرار إلىٰ الصدام، هذا هو الحل الثاني، حتىٰ لو استُفزِزنا، لا تجعل العدو يستفزك ويجرك إلىٰ معركة هو حدد مناطها ومكانها، إياك أن تُجَر إلىٰ هذا.

المتن:

وَنُودِي بِأَرْوَاحِنَا وَأَرْوَاحِ إِخْوَانِنَا إِلَى التَّهْلُكَةِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ! وَهَذَا فِيهِ إِهْدَارٌ لِلطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ كُلَّهُ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ هَذِهِ الطَّاقَاتِ وَهَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ الْقِيَادِيَّةِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ قِيَادِيَّةً جِهَادِيَّةً أَمْ قِيَادِيَّةً عِلْمِيَّةً هَذِهِ كُلُّهَا سَتَذْهَبُ سُدًى، لِمَاذَا؟! لِأَنَّهَا تَعَجَّلَتْ وَجُرَّتْ إِلَىٰ الصِّدَامِ دُونَ أَنْ تَنْتَبِهَ إِلَىٰ الْفَخِّ الَّذِي نُصِبَ لَهَا، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مِنَ الدُّوَلِ الْحَاكِمَةِ وَالْأَنْظِمَةِ الْحَاكِمَةِ أَمْ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي جَرَّأَتْ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامَ عَلَىٰ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ.

إِذَنْ لَا نَتَعَجَّلْ. لَوْ نَظَرْنَا إِلَىٰ قِيَامِ دَوْلَةِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خِلَالِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ عُقُودٍ (ثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً) تَقْرِيبًا قَامَتْ خِلَالَهَا هَذِهِ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

إِذَنْ لِمَاذَا نَتَعَجَّلُ؟! وَلِمَاذَا نُجَرُّ إِلَىٰ مَعْرَكَةٍ نَحْنُ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لَهَا؟!

لِمَاذَا نَهْتَمُّ بِالتَّحَزُّبِ وَتَأْصِيلِ التَّحْزُّبِ فِي النُّفُوسِ، فَضْلًا عَنِ الدَّعْوَةِ الْعَالَمِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِمِثْلِ هَذِهِ التَّنْظِيمَاتِ؟!

الشرح:

فلا بد أن يكون عندنا قدر مشترك للعمل في هذه التنظيمات والجماعات، لا بد أن يكون لدينا قدر مشترك، نشترك فيه وإخواننا العاملين في الساحة الإسلامية، قدر مشترط نجتمع حوله، هذا القدر المشترك يجعلنا دائمًا في صف واحد، حتىٰ وإن كنا تحت راية واحدة، إلا أننا لا نتصادم، هذا القدر المشترك من نقاط الاتفاق الشرعي يجعلنا لا نتصادم، ويجعلنا ننتبه لخطط العدو حتىٰ لا نتصادم.

المتن:

فَلَا بُدَّ مِنْ دِرَاسَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ جَيِّدًا، وَتَكْوِينِ قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا أَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ وَالسُّنَّةِ، يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهَا وَيُعْقَدُ اجْتِمَاعٌ يَحْضُرُهُ جَمِيعُ الْفَصَائِلِ الْعَامِلَةِ لِلْإِسْلَامِ.

الشرح:

هذه الطريقة الثالثة.

المتن:

وَيَتَّفِقُونَ عَلَىٰ الْحَدِّ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْفَيْصَلُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ إِسْلَامِيًّا (أُصُولُ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةُ، وَأُصُولُ الْإِيمَانِ السِّتَّةُ، وَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ، الْوَلَاءُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مَهْمَا كَانُوا فِي مَعْصِيَةٍ أَوْ فِي بِدْعَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَالْبَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمْ). ثُمَّ عَدَمِ الصِّدَامِ الْمُبَكِّرِ كَمَا قُلْنَا. لَا بُدَّ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بِدَايَةِ الدَّعْوَةِ إِنَّهُ وَادَعَ وَهَادَنَ كُلَّ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ بَابِ تَجَنُّبِ الصِّدَامِ الْمُبَكِّرِ فِي أَثْنَاءِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

الشرح:

الموادعة أن توادع الكفار علىٰ غير شرط، والصحيح الشرط، وهو أن تأخذ منهم جزية، والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واداعهم من غير جزية، ربما يقول قائل: لماذا لا تأخذ من الكفار جزية، ونحن لنا اليد العليا، وهم كفار؟ نقول هذا المناط؛ المناط: هو عدم فتح مجالات صدام تَفُوق قدرات الدولة المسلمة، فمصلحة بقاء الدولة خير وأعظم من زوالها.

المتن:

رُبَّمَا يَقُولُ قَائِلٌ: هَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ إِذَنْ لِمَاذَا تُنْكِرُ هَذَا وَتَجْعَلُ الْإِخْوَةَ لَا يُقَاتِلُونَ وَلَا يُجَاهِدُونَ وَلَا يَنْضَمُّونَ إِلَىٰ هَذِهِ الْفَصَائِلِ؟

نَقُولُ: نَعَمْ، هَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ هَذَا الدِّينِ، الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، هَذَا وَاقِعٌ لَا نُنْكِرُهُ، وَهَذِهِ هِيَ الْمُعَادَلَةُ الصَّعْبَةُ، وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْوُجُودِ الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِيمَانٌ بِاللهِ وَكُفْرًا بِالطَّاغُوتِ هَذَا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ وَلَكِنْ...

الشرح:

هنا الجواب يقول لك: أنت الآن تقول أننا لا نتصادم، والتصادم: هو صراع بين الحق والباطل، فلماذا أنت لا تتصادم، ولا تدع الإخوة ينضمون إلىٰ هذه الجماعات المقاتلة في هذا الصدام؟

نقول: نحن لا ننكر هذا الصدام، ولكن نجعل له شروطًا وقواعد، لماذا نهملها؟ السؤال هنا: لماذا نهمل هذه الشروط، وقد عملها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل نحن أحرص علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إقامة الدولة؟!

المتن:

لِمَاذَا نَجْعَلُ الصِّرَاعَ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ؟!

لِمَاذَا نَجْعَلُ الْجَانِبَ الْآخَرَ يَجُرُّنَا إِلَيْهِ جَرًّا دُونَ اسْتِعْدَادٍ وَدُونَ مُكْنَةٍ وَدُونَ إِعْدَادٍ؟!

لِمَاذَا دَائِمًا نَدْخُلُ مَعَارِكَ خَاسِرَةٍ مُقَدَّمًا؟!

لِمَاذَا لَا نَتَعَلَّمُ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ؟!

لِمَاذَا دَائِمًا نُوَجِّهُ السِّلَاحَ فِي حَالَةِ الْغَضَبِ أَوْ فِي حَالَةِ الضِّيقِ إِلَىٰ صُدُورِ إِخْوَانِنَا؟! وَالْأَصْلُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ السَّلَامَةُ وَحُسْنُ الْقَصْدِ، الْأَصْلُ فِيهِ الْإِسْلَامُ

وَالشُّعُوبُ الْمُسْلِمَةُ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ بَيْنَهَا لَا تَرْضَىٰ بِظُلْمِ الْحُكَّامِ وَجَوْرِ الْحُكَّامِ وَكُفْرِ الْحُكَّامِ وَرِدَّتِهِمْ عَنِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنْحِيَةِ دِينِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ وَمُوَالَاةِ الْكُفَّارِ. لَا تَرْضَىٰ الشُّعُوبُ الْمُسْلِمَةُ بِهَذَا؛ لِهَذَا تَرَاهَا تَخْرُجُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامِ؛ لِظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

إِذَنْ لِمَاذَا نُوَجِّهُ السِّلَاحَ إِلَىٰ بِلَادِنَا بَدَلًا مِنْ أَن نُوَجِّهَهُ إِلَىٰ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ؟!

لِمَاذَا نُوَجِّهُهُ إِلَىٰ إِخْوَانِنَا فِي عَمَلِيَّاتٍ مِنْ هُنَا أَوْ هُنَاكَ وَغَيْرِ مَحْسُوبَةِ الْعَوَاقِبِ وَفِي النِّهَايَةِ يَذْهَبُ الْأَخُ الْمُجَاهِدُ الَّذِي هُوَ بِأُمَّةٍ، يَذْهَبُ سُدًىٰ وَيُقْتَلُ دُونَ أَنْ يُحَقِّقَ الْهَدَفَ مِنْ فَرْضِيَّةِ الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ !!

الشرح:

الأخ المجاهد ثروة لا بد أن نحافظ عليها، وهو خرج لإعلاء كلمة الله في الأرض، لتكون كلمة الله العليا، فتوجيهك السلاح إلىٰ هذا الأخ المجاهد؛ لأنه علىٰ خلاف معك، بدل أن توجهه إلىٰ الكافر، هذا إهدار لطاقة

المجاهدين، ونكاية في المسلمين، من أجل الكفار والمحاربين، فهذا بلا شك خلل.

المتن:

وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ مِنْ أَكْبَرِ الْمُعْضِلَاتِ الَّتِي وَاجَهَتِ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ وَالْحَرَكَاتِ الْجِهَادِيَّةَ، أَنَّهَا انْزَلَقَتْ قَدَمُهَا فِي هَذَا الْوَحْلِ وَهَذَا الطِّينِ وَهَذَا الِابْتِلَاءِ الشَّدِيدِ وَهَذَا كَانَ مِنْ أَحَدِ الْأَسْبَابِ لِعُزْلَتِهَا عَنِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَبُعْدِهَا لَا أَقُولُ: كُلِّيًّا، وَلَكِنْ: جُزْئِيًا، بُعْدِهَا عَنْ تَعَاطُفِ النَّاسِ وَبَيَانِ هَدَفِهَا لِلنَّاسِ؛ لِأَنَّهَا ظَهَرَتْ بِمَظْهَرِ الْمُعْتَدِي عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَنَّهَا ظَهَرَتْ بِمَظْهَرِ أَنَّهَا تُكَفِّرُ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْقِبْلَةِ وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الْآلَةَ الْإِعْلَامِيَّةَ الَّتِي تُوَضِّحُ مَنْهَجَهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ وَمَذْهَبَهُمْ حَتَّىٰ يَفْهَمَ النَّاسُ مَاذَا يُرِيدُونَ وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ فِي فَشَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُوَضِّحْ صُورَتَهَا بِجَلَاءٍ وَبِصِدْقٍ وَبِوُضُوحٍ وَتَوصِلْ إِلَىٰ النَّاسِ مَاذَا تُرِيدُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ أَوْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ أَوْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ. مَاذَا تُرِيدُ؟

ثُمَّ مَا الَّذِي سَتُقَدِّمُهُ لِلنَّاسِ هَذِهِ الدَّعْوَةُ وَهَذِهِ الْجَمَاعَةُ؟

فَعَدَمُ وُضُوحِ الرُّؤْيَةِ أَوِ الْهَدَفِ لِلنَّاسِ هَذَا؛ جَعَلَ النَّاسَ فِي مَعْزِلٍ، بَلْ رُبَّمَا فِي صَفِّ الْعَدُوِّ، رُبَّمَا وَقَفُوا فِي صَفِّ الْعَدُوِّ ضِدَّ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالْجِهَادِ!

هَذِهِ كُلُّهَا أَسْبَابٌ تَجْعَلُ الْحَرَكَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ تُرَاجِعُ نَفْسَهَا، وَتُرَاجِعُ خُطُوَاتِهَا وَمَنْهَجَهَا فِي إِطَارِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْجَامِعَةِ، وَهِيَ:

١- الْبُعْدُ عَنْ دِينِ اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَالْمُخَالَفَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

الشرح:

يعني: لا تظن أن المخالفة الشرعية، أو معصيتك، لا تؤثر في العمل الجماعي العام، لا تظن هذا، بل المخالفة الشرعية، ومعصيتك أنت كفرد، تؤثر في نصرة الجماعة، وطاعتك تؤثر في نصرتها وتقدمها.

المتن:

٢- وَالْبُعْدُ عَنْ تَحْكِيمِ شَرْعِ اللـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي كُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ.

اَلْمَسْأَلَةُ الْأُخْرَىٰ: خَوْفُهَا مِنَ الْعُزْلَةِ، وَحِرْصُهَا عَلَىٰ الرِّئَاسَةِ أَوِ الْمُلْكِ؛ جَعَلَهَا -تَتْبَعُ شَاءَتْ أَمْ أَبَتْ- النِّظَامَ الْعَالَمِيَّ أَوْ دُوَلَ الْكُفْرِ؛ فَأَصْبَحَتْ تَابِعَةً لَهَا، وَتُمْلِي عَلَيْهَا مَا تُرِيدُ.

الشرح:

إذن الخوف من التآكل والتصادم يجعلها تنضوي تحت النظام العالمي بشروط النظام العالمي، لكنها لو نزلت تحت النظام العالمي بشروط الدولة الإسلامية، ولم تسمح للكفار بالتدخل في شؤونها الداخلية، فهذا ليس فيه شيء، أن تنضوي تحت النظام العالمي، ولكن بشروط إسلامية لا تخرم أصلًا، هذا ما عندنا فيه شيء، نعقد المعاهدات بين الدول جميعًا، ولكن بشروطنا التي توافق ديننا.

المتن:

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: وَهُوَ سُرْعَةُ الْمُوَاجَهَةِ وَالِاسْتِعْجَالُ فِي قَطْفِ الثِّمَارِ دُونَ الِاسْتِوَاءِ، وَدُونَ التَّمَكُّنِ، وَدُونَ الْإِعْدَادِ الْجَيِّدِ.

فَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الْجَامِعَةُ وَالْخُلَاصَةُ مِنَ الْكِتَابِ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ دَوْلَةً إِسْلَامِيَّةً عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ كَمَا صَبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...

الشرح:

هذا الحل والخلاصة من الكتاب، لو أردت أن تقيم دولة إسلامية صحيحة، فتلمس خطىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البناء، ولا تتعجل، واصبر كما صبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المتن:

يَصْبِرَ فِي مَرْحَلَةِ الْبِنَاءِ وَالتَّكْوِينِ، وَعلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ سِيرَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقْرَأَهَا قِرَاءَةَ تَفَهُّمٍ وَتَدَبُّرٍ لِاسْتِخْلَاصِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ -لَيْسَتْ قِرَاءَةَ تَسْلِيَةٍ-؛ حَتَّىٰ يَقِفَ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْمُهِمَّةِ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

ثُمَّ لَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَيَانِ الْهَدَفِ الْأَسْمَىٰ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ النَّاسِ مَاذَا يُرِيدُ هَؤُلَاءِ.

ثُمَّ مَا الَّذِي يَكْسِبُهُ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؟

مَا الَّذِي سَتُقَدِّمُهُ الدَّعْوَةُ لِهَؤُلَاءِ النَّاسِ؟

هَلْ تَسْعَىٰ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِمْ بِصِدْقٍ؟ أَمْ يَتَّخِذُونَهُمْ غَرَضًا لِمَصَالِحِهِمْ؟

هَلْ تَسْعَىٰ فِي رُقِيِّهِمْ؟ هَلْ تَسْعَىٰ فِي رَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ؟ هَلْ تَسْعَىٰ فِي عَيْشِهِمْ عِيشَةً كَرِيمَةً فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ؟

ثُمَّ بِنَاءُ أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَإِعْدَادُ النَّاسِ إِعْدَادً جَيِّدًا إِسْلَامِيًّا صَحِيحًا بِمَفَاهِيمَ صَحِيحَةٍ عَنِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ بَعِيدًا عَنِ الْبِدَعِ وَالشِّرْكِيَّاتِ وَالِانْحِرَافَاتِ.

ثُمَّ قَطْعُ السُّبُلِ وَالطُّرُقِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ نَشْرِ الْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَالْقَضَاءُ عَلَىٰ الْمُنْكَرِ.

هَذَا أَصْلٌ لَا يَجِبُ التَّغَافُلُ عَنْهُ، فَالتَّغَافُلُ عَنْهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ الْفِتْنَةِ كَمَا حَصَلَ فِي أَسْبَابِ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ؛ أَنَّهَا تَغَافَلَتْ عَنِ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ.

هَذِهِ الْخُلَاصَةُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. فَلَا بُدَّ أَن نُقِيمَ شَرْعَ اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَنَكُوْنَ فِي جَنْبِ اللـه دَائِمًا. لَا بُدَّ مِنْ أَلَّا نَتَعَجَّلَ فِي قَطْفِ الثِّمَارِ. الْبُعْدُ عَنِ الْعَشْوَائِيَّةِ. الْبُعْدُ عَنِ الصِّدَامِ الْمُبَكِّرِ فِي مَعْرَكَةٍ يَسْحَبُنَا إِلَيْهَا الْعَدُوُّ دُونَ تَخْطِيطٍ مِنَّا وَدُونَ رِضًىٰ مِنَّا؛ فَيَحْصُلُ هَذَا الْأَمْرُ.

لَا بُدَّ مِنَ الْعَلَاقَةِ الْجَيِّدَةِ بَيْنَ دُوَلِ الْجِوَارِ، وَتَأْمِينِ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، هَذَا مُهِمٌّ جِدًّا، لَا تَفْتَحْ عَلَىٰ نَفْسِكَ جَبَهَاتٍ كَثِيرَةً وَتُحَيِّدِ النَّاسَ الَّذِين هُمُ الْحَاضِنَةُ الشَّعْبِيَّةُ لَكَ، بَلْ بَعْدَ ذَلِكَ سَيَنْقَلِبُونَ عَلَيْكَ أَعْدَاءً.

الشرح:

من أهم أسباب نجاح دعوة طالبان: أن علاقتها كانت جيدة بباكستان، وكانت الحاضنة الأساسية لها في باكستان، فكذلك لا بد أن تكون للدعوة الإسلامية حركات حاضنة ودول جوار آمنة.

المتن:

ثُمَّ أَوَّلًا وَآخِرًا: إِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُوَاكَبَةِ التَّطَوُّرَاتِ الْجَدِيدَةِ فِي نِظَامِ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ، وَالْبَحْثِ عَنْ سُبُلٍ وَأُطُرٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الصِّدَامِ وَالْمُوَاجَهَاتِ الَّتِي سَتُكَلِّفُ

الْجَمَاعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ كَثِيرًا مِنَ الْخَسَائِرِ وَفِي النِّهَايَةِ سَتَنْتَهِي وَتَنْقَضِي وَلَنْ تُحَقِّقَ مَا قَامَتْ مِنْ أَجْلِهِ.

اَلْخَاتِمَةُ

وَفِي الْخِتَامِ نَسْتَعْرِضُ أَهَمَّ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ سُقُوطِ الْحَرَكَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ وَأَهَمَّ الْعَوَائِقِ الَّتِي وَاجَهَتْهَا وَوَقَعَتْ فِيهَا، وَهِيَ أَسْبَابٌ خَارِجِيَّةٌ مَعَ الدُّوَلِ وَالْأَنْظِمَةِ وَالْحُكُومَاتِ، وَأَسْبَابٌ دَاخِلِيَّةٌ مِنْهَا وَفِيهَا.

فَبَعْضُهَا قَامَ عَلَىٰ الْجَمْعِ الْعَدَدِيِّ.

الشرح:

هذه هي الأخطاء التي ينبغي أن نتلاشاها؛ لأنها قامت قبل ذلك وفشلت، فلا نكرر ما فشل قبل ذلك.

المتن:

وَلَمْ يَهْتَمَّ بِالْمَنْهَجِ الْعَقَدِيِّ وَمُعَالَجَةِ الِانْحِرَافَاتِ الْعَقَدِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ؛ فَوَقَعَتْ فِي الْغُثَائِيَّةِ، وَفَقَدَتْ هَدَفَهَا؛ فَأَصْبَحَتْ دَعْوَةً هَشَّةً؛ يَسْهُلُ اخْتِرَاقُهَا، وَأَصْبَحَتْ فِيمَا بَعْدُ حِزْبًا أَوْ جَمَاعَةً لَا تَرْتَقِي إِلَىٰ دَوْلَةٍ، فَعِنْدَمَا أَهْمَلَتِ التَّرْبِيَةَ الْعَقَدِيَّةَ؛ ذَابَتْ عَقِيدَةُ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، وَعَلَىٰ مَدَارِ مِئَةِ سَنَةٍ تَقْرِيبًا لَمْ تَنْجَحْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ فِي تَكْوِينِ جَيْشٍ قَوِيٍّ مَعَ انْتِشَارِهَا فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ.

الشرح:

فأسباب فشلها: الجمع العددي، مع إهمال المنهج العقدي، أدىٰ ذلك إلىٰ تمييعها مع دول الكفار، وخروجها من كونها تؤسس دولة، إلىٰ جماعة حزبية ضيقة.

المتن:

وَحَتَّىٰ عِنْدَمَا وَصَلَتْ لِلْحُكْمِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا اسْتِرَاتِيجِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَاقِعِ بعد أُصُولِه وَمَنَابِعِه؛ فَطَغَىٰ جَانِبُ الْإِصْلَاحِ الِاجْتِمَاعِيِّ عَلَىٰ الْأَصْلِ الْعَقَدِيِّ.

فَكَانَتْ دُمْيَةً فِي يَدِ الْأَنْظِمَةِ تَتَلَاعَبُ بِهَا؛ لِفَشَلِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ فِي تَكْوِينِ جَيْشٍ قَوِيٍّ يَحْمِي الدَّعْوَةَ، وَلِفَشَلِهَا فِي تَرْبِيَةِ جِيلٍ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

الشرح:

هذه جماعة من الجماعات لم تنجح في إنشاء جيش، أو كتيبة، أو شباب مسلم تربىٰ علىٰ العقيدة الصحيحة.

المتن:

وَجَمَاعَةٌ أُخْرَىٰ اهْتَمَّتْ بِعَوْدَةِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَوْحِيدٍ وَلَا جِهَادٍ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا أَحَدٌ، وَانْتَهَىٰ بِهَا الْمَطَافُ إِلَىٰ حِزْبٍ حَرَكِيٍّ يُؤَصِّلُ وَيُنَاظِرُ

طَوَاحِينَ الْهَوَاءِ فِي مَعَارِكَ وَهْمِيَّةٍ وَشِعَارَاتٍ فَضْفَاضَةٍ لَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي وَاقِعِ حَيَاةِ النَّاسِ.

الشرح:

هذا الجماعة الثانية، الجماعة الأولىٰ معروفة، مثل: جماعة الإخوان، الجماعة الثانية: جماعة حزب التحرير، لا غياب لهذا وهذا.

أنا أضرب لك أمثلة حتىٰ تستوعب، ولكن ينبغي أن تُعمِل عقلك وتستنتج، حتىٰ ترىٰ الواقع المعاصر أمامك.

المتن:

وَحَرَكَةٌ ثَالِثَةٌ اهْتَمَّتْ بِالنَّاحِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْهَدْيِ الظَّاهِرِ، وَقَامَتْ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالْجِهَادِ، وَكَوَّنَتْ دَوْلَةً نَاصَرَهَا بَعْضُ الْأُمَرَاءِ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا دَخَلَتْ فِي حُرُوبٍ وَمُنَازَعَاتٍ مَعَ دُوَلِ الْجِوَارِ، وَلَمْ تُرَاعِي مَرْحَلِيَّةَ الدَّعْوَةِ وَرَكَّزَتْ عَلَىٰ مُحَارَبَةِ شِرْكِ الْقُبُورِ وَلَمْ تُوَازِنْ بَيْنَ مَوْرُوثَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ بِالنَّاسِ وَاعْتِبَارِ وَاقِعِهِمْ؛ فَشَدَّدَتْ فِي حَرْبِهَا عَلَىٰ الْعَوَامِّ، وَارْتَكَبَ أَتْبَاعُهَا مَظَالِمَ وَجَرَائِمَ بِاسْمِ الدِّينِ، ثُمَّ انْتَهَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ عَلَىٰ يَدِ خُصُومِهَا، وَجَاءَ الْأَبْنَاءُ وَالْأَحْفَادُ مِنْ بَعْدِ الْآبَاءِ الْمُؤَسِّسِينَ فَرَكَنُوا إِلَىٰ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَوَالُوهُمْ عَلَىٰ حِسَابِ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، وَانْتَشَرَ شِرْكُ الْقُصُورِ، وَأُدْخِلَتِ الْقَوَانِينُ الْوَضْعِيَّةُ، وَعَلَا النِّظَامُ عَلَىٰ الشَّرْعِ؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَ النِّظَامُ

طُاغُوتًا يَعْبُدُهُ الْعَسْكَرُ بِاسْمِ الدِّينِ وَدَوْلَةِ التَّوْحِيدِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْأُسْرَةِ الْحَاكِمَةِ، وَقَامَ مَلِكُهَا اسْتِجَابَةً لِلْكُفَّارِ بِالتَّخَلُّصِ مِنْ إِخْوَانِهِ الَّذِين نَاصَرُوهُ وَسَاعَدُوهُ فِي إِنْشَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَوْحِيدِهَا.

فَدَبَّرَ لَهُمْ مَكِيدَةً بِمُسَاعَدَةِ الْإِنْجِلِيزِ وَقَضَىٰ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَدَافِعِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَتَحَوَّلَتْ بِلَادُهُ مِنْ بِلَادِ التَّوْحِيدِ وَالشَّرِيعَةِ إِلَىٰ مَرْتَعِ الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ وَالتَّفَسُّخِ وَالْفُجُورِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ وَقَطَعَتْ لِسَانَ كُلِّ عَالِمٍ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ أَوْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ بِاسْمِ الْوَسَطِيَّةِ وَالِاعْتِدَالِ. وَقَدْ فَصَّلْتُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ «الْفِتْنَةِ وَحِصَارِ الْكَعْبَةِ مِنْ آلِ سُعُودٍ حَتَّىٰ جُهَيْمَانَ».

الشرح:

هذه الحركة الثالثة، هي آل سعود، هذه الحركة التي قامت في (كلمة غير واضحة) انقلبت علىٰ هذا، لماذا؟ لأنها قامت علىٰ أنها دولة إسلامية مكان الخلافة، فلما ركنت إلىٰ الإنجليز، حصروها في هذه المنطقة فقط، قالوا: هذه حدودكِ لا تتعديها، لماذا ونحن نجاهد؟! قالوا: لا. فلما وجدوا هذا، بدأت تُغير علىٰ دول الجوار والقبائل، تسلبهم وتنهبهم؛ بحكم أنهم كفار وغير ذلك، فقوقعوها في هذه المنطقة، ولم يستطيعوا أن يجعلوها دولة إسلام، ورضوا بهذا فقط.

ثم بعد توالي الأولاد والأحفاد، بدؤوا يزرعون كما يزرع الأول، نحن لم نتعلم! فبدؤوا يغزونها في الداخل، في الأُسَر، يأخذون الشباب منها، ثم يربونهم في الغرب، ثم يأتون بهم أمراءً وحكامًا، ثم آل بها الأمر إلىٰ أنها أصبحت دولة فسق وفجور، تعلن بذلك من غير خجل.

فهذه كذلك لها أخطاء لا بد أن نتعلم منها.

المتن:

وَرَابِعَةٌ فُتِنَتْ بِدَعْوَىٰ الْغَرْبِ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا تُكَفِّرُ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّهَا رَأَتْ طَرِيقَ إِقَامَةِ حُكْمِ اللهِ فِي الْأَرْضِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الِانْتِخَابَاتِ وَصَنَادِيقِ الِاقْتِرَاعِ وَاخْتِيَارِ النَّاسِ مَنْ يَحْكُمُهُمْ.

فَدَخَلَتْ وَاخْتَارَهَا النَّاسُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَقْدُرْ لِلْكُفْرِ قَدْرَهُ، وَلَمْ تَعْلَمْ بُغْضَهُ وَحِقْدَهُ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ فَانْقَضَّ الْعَسْكَرُ بِأَمْرٍ مِنَ الْغَرْبِ الْكَافِرِ عَلَىٰ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا، وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَأَهْلَكُوا الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَانْتَهَىٰ قَادَةُ الْحَرَكَةِ وَأَفْرَادُهَا إِلَىٰ قَتِيلٍ أَوْ طَرِيدٍ أَوْ سَجِينٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا قُوَّةً لَا يُسْتَهَانُ بِهَا.

الشرح:

هذه جبهة الإنقاذ في الجزائر. حكينا نحن تطورها.

المتن:

وَخَامِسَةٌ قَامَتْ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ الشَّرْقِيِّ، وَكَوَّنَتْ جَمَاعَةً مُقَاتِلَةً عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ؛ حَتَّىٰ أَخْرَجَتِ الْعَدُوَّ الْكَافِرَ الْمُحْتَلَّ، وَالْعَالَمُ كُلُّهُ كَانَ يُسَاعِدُهَا وَيَقِفُ مَعَهَا مَادِّيًّا وَمَعْنَوِيًّا، وَكَسَبَتْ تَأْيِيدَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ، وَلَكِنَّ حُكَّامَ الدُّوَلِ الْأُخْرَىٰ عُمَلَاءَ لِكَافِرٍ آخَرَ غَرْبِيٍّ كَانَ يُسَاعِدُهُمْ لَيْسَ حُبًّا فِيهِمْ وَلَا إِيمَانًا بِدَعْوَتِهِمْ فِي تَقْرِيرِ مَصِيرِهِمْ، وَلَكِنْ كَانَ يُسَاعِدُهُمْ بُغْضًا فِي الْكَافِرِ الشَّرْقِيِّ فَلَمَّا ذَهَبَ أَرَادَ أَنْ يَحُلَّ مَحَلَّهُ؛ فَرَفَضَتِ الْحَرَكَةُ أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لِكَافِرٍ مَهْمَا كَانَ؛ وَدَخَلَتْ فِي حَرْبٍ ضَرُوسٍ مَعَ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ.

وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِلْحَرْبِ بِالْوَكَالَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الْحُكَّامُ الْعَرَبُ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ هَؤُلَاءِ أَهْلَ حَقٍّ وَدَعْوَةٍ وَجِهَادٍ وَاعْتِدَالٍ أَصْبَحُوا فِي نَظَرِ الْغَرْبِ الْكَافِرِ وَالْحُكَّامِ الْعَرَبِ أَهْلَ تَطَرُّفٍ وَغُلُوٍّ وَتَشَدُّدٍ وَإِرْهَابٍ!

وَلَمْ تُقَدِّرِ الْحَرَكَةُ الْمَكَاسِبَ الَّتِي حَقَّقَتْهَا؛ فَدَخَلَتْ فِي صِدَامٍ مَعَ الْغَرْبِ الْكَافِرِ، وَلَكِنَّهَا فُوجِئَتْ أَنَّ الْحُكَّامَ يُحَارِبُونَهَا بِالْوَكَالَةِ عَنِ الْغَرْبِ الْكَافِرِ.

وَهُنَا سَقَطَتِ الْحَرَكَةُ حِينَ وَجَّهَتْ سِلَاحَهَا إِلَىٰ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ؛ انْتِقَامًا مِنْ حُكَّامِهِ، فَقَامَتْ بِالْعَمَلِيَّاتِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَسَقَطَ الْأَبْرِيَاءُ وَالْعُزَّلُ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ الْمُسْلِمَةُ، وَالْكَافِرُ يَنْظُرُ وَيَضْحَكُ وَيُغَذِّي هَذِهِ الْحَرْبَ بِسِلَاحِهِ.

فَفَشِلَتِ الْحَرَكَةُ حِينَ وَجَّهَتْ سِلَاحَهَا لِأَهْلِهَا، وَنَقَلَتْ عَمَلِيَّاتِهَا مِنْ بِلَادِ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ، إِلَىٰ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْآمِنِينَ، وَلَوْ وَجَّهَتْ سِلَاحَهَا لِرُؤُوسِ الْأَفَاعِي، لَكَانَتْ هِيَ هِيَ، وَلَكِنْ هِيَ السُّنَنُ، وَعَدَمُ التَّعَلُّمِ مِنْ أَخْطَاءِ الْآخَرِينَ!

الشرح:

هذه قاعدة الجهاد، هذا أكبر خطأ واجهها، وانجرت إليه جرًا، وإلا لو تفطنت لذلك لسادت، ولَمَا فقدت الحاضنة الشعبية في جميع أنحاء العالم، ولكان الناس كلهم معها، ولكن الأخطاء تتكرر، هذا الذي أريد أن أنبه عليه دائمًا: الأخطاء تتكرر.

المتن:

أَمَّا السَّادِسَةُ فَكَانَ عَدُوُّهَا مِنْ دَاخِلِهَا بِتَحْرِيضٍ مِنْ عَدُوِّهَا الْخَارِجِيِّ. فَبَعْدَ أَنْ قَامَتْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَقِتَالِ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ؛ وَنَجَحَتْ فِي اسْتِقْطَابِ كَثِيرٍ مِنْ شَبَابِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَقَامَتْ دَوْلَةً قَوِيَّةً لَمْ تُرَاعِي الْمَرْحَلِيَّةَ، وَاغْتَرَّتْ بِالْكَثْرَةِ؛ فَتَوَسَّعَتْ فِي مَنَاطِقَ شَتَّىٰ؛ وَعِنْدَمَا عَجَزَ الْكُفَّارُ عَنْ قِتَالِهِمْ؛ أَدْخَلُوا فِيهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَحَرَّشُوا بَيْنَهُمْ، وَأَثَارُوا فِيهِمْ نَعَرَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْحِزْبِيَّةِ، وَحُبَّ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ؛ فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَىٰ الْكَافِرِ يُوَجِّهُونَ سِلَاحَهُمْ إِلَىٰ نُحُورِ الْكُفَّارِ قَامَ الْأَعْدَاءُ بِزَرْعِ الْفِتْنَةِ بَيْنَهُمْ وَتَمْزِيقِهِمْ وَتَفْرِيقِهِمْ؛ فَقَاتَلَ الْإِخْوَةُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْعَدُوُّ يَنْتَظِرُ إِجْهَازَ وَاحِدٍ عَلَىٰ الْآخَرِ؛ حَتَّىٰ يَسْهُلَ الِاسْتِيلَاءُ عَلَىٰ الْمُنْتَصِرِ وَيُدَجِّنَهُ وَيُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، وَهَذَا

مَا حَدَثَ الْآنَ فِي السَّاحَةِ الشَّامِيَّةِ، وَأَصْبَحَتِ الْجَمَاعَةُ الْبَاقِيَةُ تُطَارِدُ الْمُسْلِمِينَ بِاسْمِ النِّظَامِ وَالشِّقَاقِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَتَفَرَّغَ الْمُسْلِمُونَ لِقِتَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَتَرَكُوا الْكَافِرَ الْمُرْتَدَّ وَالْكَافِرَ الْمُحَارِبَ، وَأَصْبَحَ كُلُّ مَنْ يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ وَيُحَارِبُ الْكَافِرَ الْمُحْتَلَّ تَقِفُ لَهُ بِالْمِرْصَادِ، وَتَرْصُدُهُ وَتُطَارِدُهُ وَتَقْتُلُهُ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. وَأَصْبَحْنَا لَا نَسْمَعُ غَارَاتٍ وَهَجَمَاتٍ عَلَىٰ الْكُفَّارِ، وَلَكِنْ كُلَّ يَوْمٍ نَسْمَعُ قَتْلَ وَمُطَارَدَاتٍ وَمُدَاهَمَاتٍ لِكُلِّ مَنْ يُنْكِرُ أَوْ يُخَالِفُ أَوْ حَتَّىٰ يَنْصَحُ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ!

الشرح:

هذه السادسة: تنظيم الدولة.

المتن:

فَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ الْمَتِينِ، وَاجْتِمَاعِ كُلِّ الْفَصَائِلِ الْمُجَاهِدَةِ فِي الشَّامِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِالتَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ عَلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ، وَتَضَعُ وَثِيقَةَ عَهْدٍ وَاتِّفَاقٍ عَلَىٰ مَسَائِلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ نَحْوَ هَدَفٍ وَاحِدٍ يُؤْمِنُ بِهِ الْجَمِيعُ: وَهُوَ إِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ، دَوْلَةٍ ذَاتِ سِيَادَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وَلَاؤُهَا للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، مَعَ قَبُولِ الْمُخَالِفِ فِيمَا يَصِحُّ فِيهِ الْخِلَافُ، دَوْلَةٍ

تُعَامِلُ الْجَمِيعَ بِخُلُقِ الْإِسْلَامِ، الْمُسْلِمَ وَالْكَافِرَ، الْمُؤَيِّدَ وَالْمُخَالِفَ. أَصْلُهَا التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ وَالِانْتِصَارُ لِلْحَقِّ مَهْمَا كَانَ.

الشرح:

عندما عرضت هذا الطرح علىٰ بعض العاملين في الحقل الإسلامي، وله دعوة كبيرة، قال: أنت تحتاج الآن إلىٰ ما لا يقل عن ستة أشهر، حتىٰ تلتقيَ بجميع القيادات العاملة علىٰ أرض الواقع، ثم تجمعهم علىٰ كلمة، ثم بعد ذلك تنتظر ستة أشهر حتىٰ يتفقوا علىٰ ما اجتمعتم عليه.

قلت: ما عندي مانع، لكن هل هذا تيئيس، أم هذا إحباط؟

قال: لا، كثير من الناس عرضوا فكرتك، ولم يصلوا إلىٰ شيء؛ لأن كل حزب له دولة تؤيده، ولا يخرج عنها.

قلت: إذن لماذا لا نقطع هذه الوصائل والاتصالات، بين الدولة وإخواننا، ونجعل الأخ متجردًا لدعوته، وتوحيده، ودولته، وإقامة شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

قال: هذا يحتاج إلىٰ لقاءات علىٰ الأرض.

قلت له: وما المانع؟

قال: عوائق، كيف تسافر إلىٰ كل هذه البلاد؟

قلت: ما عندي مانع، نأخذ بالسبب، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ييسر، بل هذا فيه الخير، هل هذا سيؤثر علىٰ عودة الجماعة والدولة مرة أخرىٰ؟

قال: ٧٠٪.

قلت: لا، أنا أقول: ٩٠٪؛ لأني أحسن الظن بالإخوة، وأظن أنهم جميعًا يريدون إقامة دولة إسلامية، لا يوجد أحد لا يريد، الكل يريد، ولكن ليس عندهم الآلية لتطبيق هذا علىٰ أرض الواقع، مع الخلافات التي بينهم، فلو جلسنا وناقشنا شهورًا ما عندي مشكلة، المهم أن نصل في النهاية، لا أقل من أن نصل إلىٰ إيقاف الاقتتال الداخلي، بحيث أن الأخ يتحرك في أي فصيل، وأي دعوة، بحريته، وبدون أي ضاغط.

قال: كأنك تحرث في الماء.

قلت: سنحاول، والله سبحانه الموفق.

المتن:

فَإِنَّ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُهُ وَتَطْرَحُهُ صَعْبُ الْمَنَالِ، وَقَدْ طَرَحَهُ غَيْرُكَ. وَمَا زَالَتِ الْحَرْبُ قَائِمَةً بَيْنَ الْإِخْوَةِ، وَأَصْبَحَتِ السَّاحَةُ أَرْضَ فِتْنَةٍ وَظُلْمٍ، وَلَيْسَتْ أَرْضَ جِهَادٍ وَدَفْعٍ لِلْعَدُوِّ الْكَافِرِ الْمُحْتَلِّ، وَالْمُسْلِمُ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهَا يَذْهَبُ إِلَىٰ قِتَالِ إِخْوَانِهِ.

نَقُولُ: عَسَىٰ اللـه أَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ؛ فَيَتَدَارَكُوا أَمْرَهُمْ، وَيَجْمَعُوا كَلِمَتَهُمْ وَيُوَحِّدُوا صَفَّهُمْ وَيَفْقَهُوا قَوْلَ رَبِّهِمْ: {وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران:٧٣] وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة:١٢٠]، وَيُخْرِجُوا مِنْ بَيْنَهِم مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَصَاحِبُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ هُوَ الَّذِي يَثْبُتُ وَهُوَ الَّذِي يُقَاتِلُ؛ إِنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ، وَرُزِقَ التَّجَرُّدَ، وَعُصِمَ مِنَ التَّحَزُّبِ وَالتَّعَصُّبِ وَالْهَوَىٰ.

الشرح:

هذه ثلاث يا إخوان، إن صحت النية، ورزق التجرد، وعصم من التعصب والهوىٰ، هذه الثلاث هي كفيلة بأن تصنع أخًا موحدًا يقيم دولة، إذا عُصِم من هذه الثلاث، ونحن نحاول، لم نيأس أبدًا، وظننا بالـله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لن يضيع جهودنا، ولن يضيع دماء الإخوة، بل سيجتمعون -إن شاء الـله- علىٰ خير.

المتن:

الـلهمَّ قَدْ بَلَّغْتُ. فَالـلهمَّ فَاشْهَدْ.

أَسْأَلُ الـله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُبْرِمَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ رُشْدٍ؛ يُعَزُّ فِيهَا أَهْلُ طَاعَتِهِ وَيُذَلُّ فِيهَا أَهْلُ مَعْصِيَتِهِ، وَيُؤْمَرُ فِيهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْهَىٰ فِيهَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسْأَلُ الـله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَأْذَنَ لِشَرْعِهِ أَنْ يَسُودَ، كَمَا أَسْأَلُهُ -سُبْحَانَهُ- أَنْ

يَجْمَعَ قُلُوبَ أَهْلِ الْحَقِّ عَلَىٰ كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَعَلَىٰ رَايَةِ الْحَقِّ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُمْ تَحْتَ رَايَةِ الْحَقِّ. اللهمَّ آمِينَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الشرح:

هذا لا بد من دراسته وقراءته، ثم نقف علىٰ أسباب الاختلاف، وأسباب الوحدة والائتلاف، فنعالج هذه، ونقوي هذه، ونسعىٰ في طريق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محسنين الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لابد أن نحسن الظن بربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنه لن يضيع جهودنا أبدًا.

أسأل الله أن ينفعنا، ويتقبل منا، هذا والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.